الشيخ الإمام داعية الإسلام
محمد متولي الشعراوي

الفقه الإسلامي الميسر

وأدلته الشرعية

على طريقة السؤال والجواب

جمع مادته العلمية ورتبها وحقق نصوصه
وخرج أحاديثه وكتب حواشيه

مركز التراث لخدمة الكتاب والسنة

حازت شرف طباعته
مكتبة التراث الإسلامي
٨ شارع الجمهورية عابدين - ت: ٣٩١١٣٩٧

الطبعة الأولى ١٤٢٣ هـ - ٢٠٠٢ م



مكتبة التراث الإسلامي
8 شارع الجمهورية عابدين القاهرة

Email: abdallahaggag@hotmail.com

Islamic Turath Book Shop ت: 3911397 - 3925677 فاكس: 3913406

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

إنَّ الحمدَ للَّهِ نحمده ونستعينه ونستغفره ، ونعوذُ باللَّه من شُرور أَنفسنا ومن سيئات أعمالنا ، من يهدِه اللَّه فلا مُضِلَّ له ، ومَنْ يُضلل فلا هادي له ، وأشهد أنْ لا إله إلا اللَّه وحده لا شريك له ، وأشهد أنَّ محمدًا عبده ورسوله .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ .

[آل عمران : ١٠٢] .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾

[النساء : ١] .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾ ﴾ . [الأحزاب] .

– ١ –

ثم أما بعد ... فإن الفِقه – بالكسر – العلم بالشيء ؛ والفهم له ، والفطنة ، – وبالضم – إذا صار فقيهًا عالمًا . وغلب على علم الدين لشرفه وتخصيصًا بعلم الفروع منها . ولذا دعا النبى ﷺ لابن عباس رضى اللَّه تعالى عنهما فقال : « اللَّهم فقهه فى الدين وعلمه التأويل »(١) . أى : فهمه .

ومنه حديث سلمان رضى اللَّه تعالى عنه ؛ أنه نزل على نبطية بالعراق فقال لها : هل هاهنا مكان نظيف أصلى فيه ؟ فقالت : طهر قلبك وصل حيث شئت . فقال : فقهت . أى : فهمت ، وفطنت للحق ؛ والمعنى الذى أرادت . وقال الأصفهانى : الفقه هو التوصل إلى علم غائب بعلم شاهد ، فهو أخص

(١) رواه أحمد فى المسند [١/٢٦٦] ، وفى البخارى [١٤٣] ، ومسلم [٢٤٧٧/١٣٨] . « اللَّهم فقهه » .

من العلم . قال تعالى : ﴿ فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴾ [النساء : ٧٨] وقال تعالى : ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ﴾ [المنافقون : ٧] . إلى غير ذلك من الآيات . والفقه : العلم بأحكام الشريعة . يقال: فقه الرجل فقاهة .

قال السرقسطى : فقهت عنك فقهًا : فهمت . وفقه فقهًا : صار فقيهًا ، وفقهت الرجل : غلبته فى الفقه (١) . وفقه أى : فهم فقهًا ، وفقهه : أى فهمه ، وتفقه إذا طلبه فتخصص به .

قال تعالى : ﴿ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ ﴾(٢) [التوبة : ١٢٢] .

- ٢ -

وهذا الكتاب لألئ ودرر أفاض اللّٰه تعالى بها على شيخنا الجليل رحمة اللّٰه تعالى ورضوانه وبركاته عليه ؛ كانت منثورة بين طيات الكتب والرسائل والدروس وحلقات العلم . فآثرنا بحول اللّٰه تعالى وقوته وتوفيقه ومدده أن نجمعها ونرتبها على الأبواب الفقهية ، وكتابة الحواشى الشارحة والمكملة ، وتخريج الأحاديث والتعليق عليها .. وذلك لأهميتها وضرورتها للمسلمين فى هذا الزمن الذى نعيشه ، واللّٰه تعالى نسأل أن ينور له فى قبره وأن يجعله روضة من رياض الجنة وأن يعامله بالجبر لا بالحساب ، وبالفضل لا بالعدل ، وبالإحسان لا بالميزان ، وأن يسكنه أعلا الجنان مع الذين أنعم اللّٰه تعالى عليهم من النبيين والصديقين والشهداء ، إنه سبحانه ولى ذلك والقادر عليه ، وصل اللّٰهم وسلم وبارك على عبدك ونبيك ورسولك ومصطفاك وخيرتك من خلقك سيدنا محمد وعلى آله وأزواجه أمهات المؤمنين وأصحابه الغر الميامين والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين . ونحن معهم برحمتك يا أرحم الراحمين ، وآخر دعوانا أن الحمد للّٰه رب العالمين .

شهر الخير ربيع الأول ١٤٢٣ هـ
الموافق يونيـــــو ٢٠٠٢ م

عبد اللّٰه حجاج

---

(١) انظر الأفعال [٤٨/٤] ، والمثلث للبطليوسى [٣٤٤/٢] .

(٢) مفردات ألفاظ القرآن ، كتاب الفاء – فقه .

نبذة مختصرة
عن فضيلة الشيخ محمد متولى الشعراوى رحمه الله

○ ولد فضيلة الشيخ الإمام داعية الإسلام « محمد متولى الشعراوى » فى ١٦ من أبريل عام ١٩١١ بقرية « دقادوس »[(١)] مركز ميت غمر بمحافظة الدقهلية .

○ أتم حفظ القرآن الكريم بكُتَّاب القرية وعمره أحد عشر عامًا .

○ ألحقه والده رحمة اللَّه تعالى عليه بالمعهد الابتدائى الأزهرى بالزقازيق عام ١٩٢٦م ، ثم التحق بالقسم الثانوى ، وحصل على الشهادة الثانوية الأزهرية عام ١٩٣٦م .

---

(١) دقادوس : قرية قديمة جدًّا تقع شرق النيل - فرع دمياط - وكانت تتبع الشرقية واسمها فى العصر الفرعونى : « أتاوكاتوس » وفى العصر القبطى : « تاكادوس » ، والعربى « تقدوس » و « دقادوس » هى الآن تابعة لمدينة ميت غمر محافظة الدقهلية .

اشتهرت قديماً بصناعة تجليد الكتب وصناعة الحصير الريفى ، وتشتهر إحدى عائلاتها بتجبير وعلاج كسور العظام .

تضم أيضًا مساجد عديدة لشيوخ أجلاء بعضهم من آل بيت النبى صلى اللَّه عليه وسلم منها : مسجد محمد شمس الدين البارز ، ومسجد سيدى عبد اللَّه الأنصارى ، ومسجد سيدى أبى بكر السطوحى - تلميذ السيد البدوى - ومسجد محمد نصر الدين الأربعين . تناقلت الصحف أخبار دقادوس فى عام ١٩٣٠م عندما حدثت اضطرابات بها لامتناع أهلها عن التصويت فى الانتخابات المزورة ضد حزب الوفد والتى قام بها إسماعيل صدقى باشا وسقط فيها شهداء وقتل فيها ضابط وظلت تحت حصار قوات - الهجانة - فترة طويلة وقد طبق فيها حظر التجول من الغروب وحتى الصباح .

- التحق رضى الله تعالى عنه بكلية اللغة العربية عام ١٩٣٧م وحصل على عالية اللغة العربية عام ١٩٤١م ، ثم حصل على العالمية وإجازة التدريس عام ١٩٤٣م .
- بدأ حياته العملية مدرسًا بمعهد طنطا الأزهرى ، ثم معهد الإسكندرية ، ثم معهد الزقازيق ، ثم معهد طنطا مرة أخرى .
- عمل مدرسًا للتفسير والحديث بكلية الشريعة بجامعة الملك عبد العزيز بمكة المكرمة عام ١٩٥١م .
- وبعد عودته من المملكة العربية السعودية عُين فضيلته وكيلًا لمعهد طنطا الأزهرى .
- تولى رضى الله تعالى عنه منصب مدير الدعوة الإسلامية بوزارة الأوقاف عام ١٩٦١م بمحافظة الغربية .
- عين فضيلته مفتشًا للعلوم العربية بالأزهر الشريف عام ١٩٦٢م .
- اختاره فضيلة الإمام الأكبر الشيخ « حسن مأمون » شيخ الأزهر مديرًا لمكتبه عام ١٩٦٤م .
- ابتُعث رئيسًا لبعثة الأزهر الشريف فى الجزائر - بعد استقلالها - عام ١٩٦٦م . وأشرف خلال مدة بعثته بالجزائر على وضع مناهج دراسية للغة العربية بها .
- فى عام ١٩٧٠م عين أستاذًا زائرًا بكلية الشريعة بجامعة الملك عبد العزيز بمكة المكرمة ثم رئيسًا لقسم الدراسات العليا بها حتى عام ١٩٧٢م .
- سطع نور فضيلة الشيخ الإمام « محمد متولى الشعراوى » - كداعية إسلامى من طراز فريد - فى عام ١٩٧٣م من خلال التليفزيون المصرى ثم العربى ، فكان نورًا على نور هدى الله به الخلق الكثير والجم الغفير وكانت إطلالته

يوم الجمعة على محبيه ومريديه يوم عيد تتنزل فيه الرحمات ويباهى به اللَّه تعالى ملائكته [1] .

- اختاره السيد « ممدوح سالم » رئيس مجلس وزراء مصر الأسبق وزيرًا للأوقاف عام ١٩٧٦م .
- أُعيد اختيار فضيلته وزيرًا للأوقاف ، ووزيردولة لشئون الأزهر فى التشكيل الجديد لوزارة السيد « ممدوح سالم » عام ١٩٧٧م .
- وبعد أن قدم الكثير والكثير ، لبلده مصر ولأمته العربية والإسلامية ، رأى فضيلته أن من الأفضل له ولدعوته أن يكون حرًا فى البلاغ عن ربه فقدم استقالته من مهام الوزارة فى ١٩٧٨/١٠/١٥م.
- منحه الرئيس الراحل « محمد أنور السادات » وسام الاستحقاق عام ١٩٧٦م .
- بعد أن تحرر من قيود الوزارة انطلق رضى اللَّه تعالى عنه إلى مشارق الأرض ومغاربها داعيًا إلى اللَّه تعالى بالحكمة والموعظة الحسنة ، موضحًا سماحة الإسلام ووسطيته ، مفندًا لما يحاول البعض أن يلصقه بالإسلام من مفاهيم ضالة ، فقام بزيارة الهند عام ١٩٧٧م ، وباكستان عام ١٩٧٨م ، والمملكة المتحدة عام ١٩٧٧م ، والولايات المتحدة الأمريكية عام ١٩٨٣م

---

(١) روى النسائى فى المجتبى [٥٤٢٦/٢٤٩/٨] وصححه الألبانى عن أبى سعيد الخدرى قال : قال معاوية رضى اللَّه تعالى عنه أن رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم خرج على حلقة - يعنى من أصحابه - فقال : « ما أجلسكم ؟ قالوا : جلسنا ندعو اللَّه ونحمده على ما هدانا لدينه ، ومن علينا بك قال : آللَّه ما أجلسكم إلا ذلك ؟ قالوا : آللَّه ما أجلسنا إلا ذلك ، قال : أما أنى لم أستحلفكم تهمة لكم ، وإنما أتانى جبريل عليه السلام فأخبرنى أن اللَّه عز وجل يباهى بكم الملائكة » .

وكندا عام ١٩٨٣ ، وكثيرًا من البلاد الأوروبية والآسيوية ؛ حاملًا فى قلبه كتاب اللَّه تعالى وسنة رسوله صلى اللَّه عليه وسلم مؤديا واجب البلاغ عن ربه تعالى وعن رسوله صلى اللَّه عليه وسلم .

- عين عضوًا بمجمع البحوث الإسلامية عام ١٩٨٠م .
- اختير عضوًا بمجمع اللغة العربية بالقاهرة عام ١٩٨٧م .
- منحه الرئيس « محمد حسنى مبارك » وسام الجمهورية من الطبقة الأولى عام ١٩٨٨م فى الاحتفال بيوم الدعاة .
- حصل على جائزة الدولة التقديرية عام ١٩٨٨م .
- حصل على جائزة دبى الدولية لخدمة القرآن الكريم عام ١٩٧٧م .
- انتقل رضى اللَّه تعالى عنه إلى رحمة اللَّه تعالى فى فجر يوم الأربعاء ١٩٩٨/٦/١٧م الموافق ٢٣ صفر ١٤١٩هـ فى منزله العامر بالهرم ودفن بمسقط رأسه فى « دقادوس » ، وكان يومًا مشهودًا اتسعت فيه القرية لاحتضان ما يقرب من مليونى شخص يودعون شيخهم إلى مثواه الأخير ، وقد قام الأزهر الشريف بعمل سرادق عظيم بجوار بيته بالحسين لتلقى العزاء فيه ، وقد أمّ السرادق العديد من الوفود العربية والإسلامية الشعبية والرسمية ، وشارك الشعب المصرى بكل طوائفه فى تلقى العزاء ، فكان الكل يعزى الكل فى مصاب الأمة الفادح .
- مُنح قلادة الجمهورية رفيعة المستوى من السيد « محمد حسنى مبارك » رئيس جمهورية مصر العربية عام ١٩٩٨م لاسم فضيلته بعد انتقاله إلى رحمة اللَّه تعالى .
- ومنح وسام سمو الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان من المرتبة الرفيعة .
- وخير ما قدمه فضيلة الشيخ الإمام « محمد متولى الشعراوى » لأمته العربية والإسلامية ، خواطره حول القرآن الكريم التى تذاع فى جميع أنحاء العالم مرئية ومسموعة ومقروءة وعلى أقراص الـ CD .

○ تذخر المكتبة الإسلامية بالعديد من كتب فضيلته فى كافة فروع العلم والمعرفة ، وإن كانت جميعها تنهل من المورد الصافى والمعين الذى لا ينضب ألا وهو : « تفسير الشعراوى » ، وإذا كان التفسير قد أُلقى فى شكل دروس وحلقات ، وطبع مسلسلًا حسب ترتيب القرآن العظيم ، فإن الكتب الأخرى هى تفسير موضوعى لآيات جمعت بعناية فائقة ، ورتبت ترتيبًا جيدًا ، وروجعت مراجعة علمية دقيقة .

ويجدر التنويه إلى أن فضيلة الإمام قبل رحيله لم يعهد إلا لمكتبة التراث الإسلامى ودار أخبار اليوم بطباعة كتبه ، وأقر ذلك ورثته بعد رحيله ، ووافقوا عليه .

لذا فإن كافة الكتب التى تصدر عن غير مكتبة التراث الإسلامى ودار أخبار اليوم هى كتب غير صحيحة النسبة للشيخ ، أو على حد تعبير فضيلته : « إن أصابوا فى شىء فقد أخطأوا فى أشياء » .

فاللهم يا من لا يُرجى إلا فضله ، ولا يُسأل إلا عفوه ، ولا يدوم إلا ملكه أنزل على قبره الضياء والنور ، والفسحة والسرور ، وجازه بالإحسان إحسانًا ، وبالسيئات عفوًا وغفرانًا ، حتى يكون فى بطون الألحاد من المطمئنين ، وعند قيام الأشهاد من الآمنين ، وبجودك ورضوانك من الواثقين ، وإلى أعلا درجاتك من السابقين ، برحمتك يا أرحم الراحمين . وصل اللَّهُم وسلم وبارك على سيدنا محمد وآله وصحبه . والحمد للَّه رب العالمين .

عبد اللَّه حجاج
المدير العام
لمركز التراث لخدمة الكتاب والسنة



باب
الإسلام .. والإيمان

أركان الإسلام

السؤال : **هل العبادة هى كل أركان الإسلام ؟**

الجواب : الناس تعتقد أن العبادة هى أركان الإسلام الخمسة : « شهادة أن لا إله إلا اللّه وأن محمدًا رسول اللّه ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وصوم رمضان ، وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلا »(١) نقول إن هذه هى الأُسس التى يقوم عليها الدين .

---

(١) أخرج البخارى [٨] ، ومسلم [٢٢/١٦] عن ابن عمر رضى اللّه تعالى عنهما عن النبى ﷺ ، قال : بنى الإسلام على خمس : شهادة أن لا إله إلا اللّه وأن محمداً رسول اللّه ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، والحج ، وصوم رمضان .
وفى رواية عند مسلم [١٩/١٦] : « بنى الإسلام على خمسة : على أن يوحد اللّه . وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وصيام رمضان ، والحج .
وفى رواية [٢٠/١٦] : « .. على أن يعبد اللّه ويكفر بما دونه .. »
قال الحافظ ابن حجر فى الفتح : قوله : « على خمس » أي : دعائم . وصرح به عبد الرزاق في روايته . وفي رواية لمسلم على خمسة أي : أركان . فإن قيل : الأربعة المذكورة مبنية على الشهادة إذ لا يصح شيء منها إلا بعد وجودها فكيف يضم مبني إلى مبني عليه في مسمى واحد أجيب : بجواز ابتناء أمر على أمر ينبني على الأمرين أمر آخر . فإن قيل : المبني لا بد أن يكون غير المبني عليه أجيب : بأن المجموع غير من حيث الانفراد عين من حيث الجمع . ومثاله البيت من الشعر يجعل على خمسة أعمدة أحدها أوسط والبقية أركان فما دام الأوسط قائما فمسمى البيت موجود ولو سقط مهما سقط من الأركان فإذا سقط الأوسط سقط مسمى البيت فالبيت بالنظر إلى مجموعه شيء واحد وبالنظر إلى أفراده أشياء . وأيضا فبالنظر إلى أسه وأركانه الأس أصل والأركان تبع وتكملة . =

= « **تنبيهات** » : « **أحدها** » : لم يذكر الجهاد ؛ لأنه فرض كفاية ولا يتعين إلا في بعض الأحوال ولهذا جعله ابن عمر جواب السائل وزاد في رواية عبد الرزاق في آخره : وإن الجهاد من العمل الحسن . وأغرب ابن بطال فزعم أن هذا الحديث كان أول الإسلام قبل فرض الجهاد ، وفيه نظر بل هو خطأ ؛ لأن فرض الجهاد كان قبل وقعة بدر ، وبدر كانت في رمضان في السنة الثانية وفيها فرض الصيام والزكاة بعد ذلك والحج بعد ذلك على الصحيح .

« **ثانيها** » : قوله : « شهادة أن لا إله إلا اللَّه » وما بعدها مخفوض على البدل من خمس ويجوز الرفع على حذف الخبر والتقدير : منها شهادة أن لا إله إلا اللَّه . أو على حذف المبتدأ والتقدير : أحدها شهادة أن لا إله إلا اللَّه . فإن قيل : لم يذكر الإيمان بالأنبياء والملائكة وغير ذلك مما تضمنه سؤال جبريل - عليه السلام - أجيب : بأن المراد بالشهادة تصديق الرسول فيما جاء به فيستلزم جميع ما ذكر من المعتقدات. وقال الإسماعيلي ما محصله : هو من باب تسمية الشيء ببعضه كما تقول : قرأت الحمد وتريد جميع الفاتحة وكذا تقول مثلا : شهدت برسالة محمد وتريد جميع ما ذكر . واللَّه أعلم .

« **ثالثها** » : المراد بإقام الصلاة : المداومة عليها أو مطلق الإتيان بها والمراد بإيتاء الزكاة : إخراج جزء من المال على وجه مخصوص .

« **رابعها** » : اشترط الباقلاني في صحة الإسلام تقدم الإقرار بالتوحيد على الرسالة ولم يتابع مع أنه إذا دقق فيه بان وجهه ويزداد اتجاها إذا فرقهما فليتأمل .

« **خامسها** » : يستفاد منه تخصيص عموم مفهوم السنة بخصوص منطوق القرآن ؛ لأن عموم الحديث يقتضي صحة إسلام من باشر ما ذكر ومفهومه أن من لم يباشره لا يصح منه وهذا العموم مخصوص بقوله تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتۡهُمۡ ذُرِّيَّتُهُم ﴾ [الطور : ٢١] على ما تقرر في موضعه . =

= « سادسها » : وقع هنا تقديم الحج على الصوم وعليه بنى البخاري ترتيبه لكن وقع في مسلم من رواية سعد بن عبيدة عن ابن عمر بتقديم الصوم على الحج قال : فقال رجل : والحج وصيام رمضان . فقال ابن عمر : لا .. صيام رمضان والحج هكذا سمعت من رسول الله صلى الله عليه وسلم . انتهى .
ففي هذا إشعار بأن رواية حنظلة التي في البخاري مروية بالمعنى ؛ إما لأنه لم يسمع رد ابن عمر على الرجل لتعدد المجلس ، أو حضر ذلك ثم نسيه . ويبعد ما جوزه بعضهم أن يكون ابن عمر سمعه من النبي صلى الله عليه وسلم على الوجهين ونسي أحدهما عند رده على الرجل ووجه بعده أن تطرق النسيان إلى الراوي عن الصحابي أولى من تطرقه إلى الصحابي كيف وفي رواية مسلم من طريق حنظلة بتقديم : « الصوم على الحج » ولأبي عوانة من وجه آخر عن حنظلة أنه جعل : « صوم رمضان » قبل فتنويعه دال على أنه روي بالمعنى .
ويؤيده ما وقع عند البخاري في التفسير بتقديم : « الصيام على الزكاة » أفيقال إن الصحابي سمعه على ثلاثة أوجه ؟! هذا مستبعد . والله أعلم .
فروى مسلم [١٠/١٢] عن أنس بن مالك رضى الله تعالى عنه قال : نهينا أن نسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن شيء . فكان يعجبنا أن يجيء الرجل من أهل البادية العاقل . فيسأله ونحن نسمع . فجاء رجل من أهل البادية . فقال : يا محمد ! أتانا رسولك . فزعم لنا أنك تزعم أن الله أرسلك ، قال : « صدق » . قال : فمن خلق السماء ؟ قال : « الله » . قال : فمن خلق الأرض ؟ قال : « الله » . قال : فمن نصب هذه الجبال ، وجعل فيها ما جعل ؟ قال : « الله » ، قال : فبالذي خلق السماء وخلق الأرض ونصب هذه الجبال آلله أرسلك ؟ قال : « نعم » . قال : وزعم رسولك أن علينا خمس صلوات في يومنا وليلتنا . قال : « صدق » . قال : فبالذي أرسلك آلله أمرك بهذا ؟ قال : « نعم » . قال : وزعم رسولك أن علينا زكاة في أموالنا . قال : « صدق » . قال : =

لقد ارتضى لنا ربنا سبحانه هذا الدين القويم لنكون على صلة به دائمة حتى لا يستحوذ علينا الشيطان .. وحتى نتعرض لنفحاته وعطائه وفيضه فى كل وقت وحين . فالصلاة بعد الصلاة تعطينا تلك الشحنة الإيمانية التى تقينا من الانحراف عن المنهج وتشدّنا إلى اللّه تبارك وتعالى .. وكذلك الصوم ، والزكاة ، والحج .

إذن .. كل عمل صالح هو عبادة للّه تعالى .. وعلى هذا فكلما أحسسنا بفتور الهمة وظُلمة النفس لجأنا إلى اللّه تعالى طاعة لأمره والتزاماً بنهيه والمثول بين يديه خاضعين خاشعين ليعيد إلينا توازننا الإيمانى .. كما نفعل عندما تضعف البطارية فنضعها على مصدر الكهرباء القوى لتُشحنَ من جديد - وللّه تعالى المثل الأعلى - والإسلام يشمل منهج الحياة كلها .. إنه يغطى كل حركة فى الحياة .

وأنا لا أريد أن أدخل فى جدل عقيم مع الذين يقولون إن أركان الإسلام هى الإسلام .. وأنك ما دمت تصلى وتزكى وتصوم وتحج .. فقد ضمنت اللّه إلى جوارك ، فلك بعد ذلك أن تفعل ماشئت وأن تترك ما شئت واترك حركة الدنيا دون ضوابط إيمانية تحكمها !

أقول لهؤلاء جميعًا : لن أناقش ما تقولون ولكنى فقط سأتحدث عن فرض واحد وهو الصلاة فلكى نقيم الصلاة لابد لنا من مقومات حياة تمكننا من الوقوف بين يدى اللّه تعالى .

= فبالذي أرسلك آلله أمرك بهذا ؟ قال : « نعم » . قال : وزعم رسولك أن علينا صوم شهر رمضان في سنتنا . قال : « صدق » . قال : فبالذي أرسلك آلله أمرك بهذا ؟ قال : « نعم » . قال : وزعم رسولك أن علينا حج البيت من استطاع إليه سبيلا . قال : « صدق » . قال ، ثم ولى قال : والذي بعثك بالحق ! لا أزيد عليهن ولا أنقص منهن . فقال النبي صلى اللّه عليه وسلم : « لئن صدق ليدخلن الجنة » .

إن أول ما يجب أن نفعله للوقوف بين يدى الله ولتصح الصلاة هو : أن نستر عورتنا .. ولا أريد أن أقول : أريد ثوبًا أو غير ذلك .. وإنما أقول أريد قطعة من القماش نستر بها عورتنا .. هذه القطعة من القماش تحتاج إلى القطن ، والقطن يحتاج إلى من يزرعه .. والزرع يحتاج إلى حرث وبذور ورى .. قد تكون البذور موجودة عندنا ، وقد تكون غير موجودة .. وفى هذه الحالة لابد أن نستوردها من الخارج .. ولابد لكى نزرع أن نحرث الأرض وحتى يتم ذلك لابد أن يكون هناك محراث من الصلب .. ذلك المحراث البسيط الذى كان يستعمله الإنسان الأول .

كذلك نحن محتاجون أن نبحث فى الجبال عن خام الحديد .. وأن يصهر ليصنع منه هذا المحراث .. ومحتاجون إلى حداد يأخذ هذا الحديد المصهور ويصنع منه سلاحًا حادًا .. ثم من يُحضره لنا حتى نستخدمه .. ثم بعد ذلك عندما ينضج القطن فإننا فى حاجة إلى من يجنيه .. ثم من يحمله إلى المحلج ، ثم من يحمله إلى المغزل ليصبح خيوطًا .. ثم إلى النساج ليصبح قماشًا ، وبعد ذلك إلى التاجر الذى سيبيعه لنا .. كل هذه المراحل لابد منها حتى أقف بين يدى الله سبحانه وتعالى مستور العورة ليتقبل منى صلاتى .

إننى – لكى أقوى على أداء الصلاة – محتاج لما يقيم أَوَدِى .. إلى لقمة آكلها حتى أستطيع الركوع والسجود .. لقمة تعطينى القوة لأفعل ذلك .

إن هذا الرغيف من الخبز الذى أشتريه من البقال وراءه قصة طويلة من العمل ابتداء من الذى زرع القمح ، إلى الذى طحنه وجعله دقيقًا ، وإلى الذى عجنه ثم خبزه ، وإلى الذى جاء به إلى البقال لأشتريه .

وهكذا نرى أن ما نحتاجه لنؤدى الصلاة هو كمية عمل هائلة .. فإذا جلسنا جميعًا فى المساجد نصلى ولا نفعل شيئًا غير ذلك .. فمن الذى يأتينا

بقطعة قماش نستر بها عوراتنا ، وبرغيف خبز نقيم به حياتنا ؟! إن ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب .. ولذلك فإن العبادة اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه وهى بالطبع تشمل كل حركة صالحة فى عمارة الكون [(١)] .

وما دام الله سبحانه وتعالى يريد الإنسان عابدًا .. فهو يريده عابدًا فى بيته .. عابدًا فى مكتبه .. عابدًا فى المسجد .. عابدًا فى الطريق .. عابدًا فى كل حركة حياته .. الإسلام حث على الآداب العامة وجعل آدابًا حتى للطريق [(٢)] .

إن الله سبحانه وتعالى قدر الثواب على حركة الحياة كلها .. لأن المنهج يشمل كل حركة الحياة .. وقدر الله تعالى فيه ثوابًا لمن يزور المريض[(٣)] ، وأمر سبحانه

---

(١) قال الله تعالى فى سورة البقرة : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴾ [البقرة : ٢١] قال القرطبي : قوله سبحانه وتعالى : ﴿ ٱعۡبُدُواْ ﴾ أمر بالعبادة له . والعبادة هنا عبارة عن توحيده والتزام شرائع دينه . وأصل العبادة الخضوع والتذلل يقال : طريق معبدة إذا كانت موطوءة بالأقدام . قال طرفة : وظيفا وظيفا فوق مَوْرٍ معبَّد .

والعبادة : الطاعة . والتعبد : التنسك . وعبدت فلانا : اتخذته عبدا .

(٢) روى البخارى [٢٣٣٣] ومسلم [٢١٢١/١١٤] عن أبى سعيد الخدرى رضى الله تعالى عنه ؛ عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : إياكم والجلوس فى الطرقات ، فقالوا : ما لنا بد ، إنما هى مجالسنا نتحدث فيها . قال : فإذا أبيتم إلا المجلس فأعطوا الطريق حقها . قالوا : وما حق الطريق ؟ قال : غض البصر ، وكف الأذى ، ورد السلام ، وأمر بالمعروف ، ونهى عن المنكر .

(٣) روى مسلم [٢٥٦٩/٤٣] عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه قال ؛ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الله عز وجل يقول يوم القيامة : يا ابن آدم مَرِضْتُ فلم تعُدْنى . قال : يارب كيف أعُودُك وأنت رب العالمين ؟ قال : =

بالحكم بين الناس بالعدل حتى ولو كانوا غير مسلمين [1] ، وأمر سبحانه بحسن معاملة الجار[2] ، ورفع الأذى عن الطريق[3] ، وإعانة العاجز وغير القادر [4] .

= أما علمت أن عبدى فلانًا مَرِضَ فلم تعده . أمَا علمت أنك لو عُدتَهُ لوجدتنى عنده ؟ يا ابن آدم استطعمتك فلم تطعمنى . قال : يارب وكيف أُطعمُك وأنت رب العالمين ؟ قال : أما علمت أنه استطعمك عبدى فلان فلم تُطعمه ؟ أما علمت أنك لو أطعمته لوجدت ذلك عندى ؟ يا ابن آدم استسقيتك فلم تسقنى . قال : يارب كيف أَسقيك وأنت رب العالمين ؟ قال : استسقاك عبدى فلان فلم تسقه أما إنك لو سقيته وجدت ذلك عندى » .

(١) إشارة إلى قول اللّه تعالى : ﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [المائدة : ٨] .

(٢) أخرج البخارى [٦٠١٦] ، ومسلم [٧٣/٤٦] عن أبى هريرة رضى اللّه تعالى عنه قال : « لا يدخل الجنة من لا يأمن جاره بوائقه » .

(٣) ذكر الذهبى فى تذكرة الحفاظ [٢٤٦/٢٥٩/١] عن أبى هريرة رضى اللّه تعالى عنه قال ؛ قال رسول اللّه ﷺ : « الإسلام بضع وسبعون بابًا أفضلها لا إله إلا اللّه وأدناها إماطة الأذى عن الطريق ، والحياء شعبة من الإيمان » .

(٤) روى مسلم [٣٨/٢٦٩٩] عن أبى هريرة رضى اللّه تعالى عنه قال : قال رسول اللّه ﷺ : « من نفس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا ، نفس اللّه عنه كربة من كرب يوم القيامة ، ومن يسر على مُعسِر ، يسر اللّه عليه فى الدنيا والآخرة ومن ستر مسلما ستره اللّه فى الدنيا والآخرة . واللّه فى عون العبد ما كان العبد فى عون أخيه . ومن سلك طريقًا يلتمس فيه علماً ، سهل اللّه له به طريقًا إلى الجنة . وما اجتمع قوم فى بيت من بيوت اللّه ، يتلون كتاب اللّه ، ويتدارسونه بينهم ، إلا نزلت عليهم السكينة ، وغشيتهم الرحمة وحفتهم الملائكة ، وذكرهم اللّه فيمن عنده . ومن بطأ به عمله ، لم يُسرع به نَسَبُه » .

العبـــادة

السـؤال : **يقول اللّه تعالى :** ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات : ٥٦] .

فما معنى العبادة هنا ؟

الجواب : اللّه سبحانه وتعالى خلقنا فى الحياة لنعبده .. كما قال تبارك وتعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات : ٥٦] .

إذن .. فعلّة الخلق هى العبادة .. ولقد تم الخلق لتتحقق العبادة وتصبح واقعًا ولكن « العلة والمعلول » لا تنطبق على أفعال اللّه سبحانه وتعالى .. نقول ليس هناك علة تعود على اللّه جلّ جلاله بالفائدة ؛ لأن اللّه تبارك وتعالى غنىٌّ عن العالمين .. ولكن العلة تعود على الخلق بالفائدة ؛ فاللّه سبحانه وتعالى خلقنا لنعبده . ولكن علة الخلق ليس لأن هذه العبادة ستزيد شيئًا فى ملكه تعالى وإنما عبادتنا تعود علينا نحن بالخير فى الدنيا والآخرة .. إن أفعال اللّه لا تعلل ، والمأمور بالعبادة هو الذى سينتفع بها (١) .

---

(١) قال القرطبي قوله سبحانه وتعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذريات : ٥٦] قيل : إن هذا خاص فيمن سبق في علم اللّه أنه يعبده فجاء بلفظ العموم ومعناه الخصوص . والمعنى : وما خلقت أهل السعادة من الجن والإنس إلا ليوحدون .

قال القشيري : والآية دخلها التخصيص على القطع ؛ لأن المجانين والصبيان ما أمروا بالعبادة حتى يقال أراد منهم العبادة وقد قال اللّه تعالى : ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ﴾ [الأعراف : ١٧٩] .

ومن خُلق لجهنم لا يكون ممن خُلق للعبادة فالآية محمولة على المؤمنين منهم وهو كقوله تعالى : ﴿ قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ﴾ [الحجرات : ١٤] . وإنما قال =

= فريق منهم . ذكره الضحاك والكلبي والفراء والقتبي . وفي قراءة عبد الله : « وما خلقت الجن والإنس من المؤمنين إلا ليعبدون » وقال علي رضي الله تعالى عنه : أي وما خلقت الجن والإنس إلا لآمرهم بالعبادة . واعتمد الزجاج على هذا القول ويدل عليه قوله تعالى : ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗاۖ ﴾ [التوبة : ٣١] . فإن قيل : كيف كفروا وقد خلقهم للإقرار بربوبيته والتذلل لأمره ومشيئته ؟ قيل : تذللوا لقضائه عليهم ؛ لأن قضاءه جار عليهم لا يقدرون على الامتناع منه وإنما خالفهم من كفر في العمل بما أمره به . فأما التذلل لقضائه فإنه غير ممتنع منه .

وقيل : ﴿ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ ﴾ أي : إلا ليقروا لي بالعبادة طوعا أو كرها رواه علي بن أبي طلحة عن ابن عباس. فالكره ما يرى فيهم من أثر الصنعة . مجاهد : إلا ليعرفوني . الثعلبي : وهذا قول حسن ؛ لأنه لو لم يخلقهم لما عُرف وجوده وتوحيده . ودليل هذا التأويل قوله سبحانه وتعالى : ﴿ وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَهُمۡ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۖ ﴾ [الزخرف : ٨٧] . ﴿ وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡعَلِيمُ ﴾ [الزخرف : ٩] . وما أشبه هذا من الآيات .

وعن مجاهد أيضا : إلا لآمرهم وأنهاهم . زيد بن أسلم : هو ما جُبلوا عليه من الشقوة والسعادة فخلق السُعداء من الجن والإنس للعبادة وخلق الأشقياء منهم للمعصية .

وعن الكلبي أيضا : إلا ليوحدون فأما المؤمن فيوحده في الشدة والرخاء ، وأما الكافر فيوحده في الشدة والبلاء دون النعمة والرخاء ، يدل عليه قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوۡجٞ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾ [لقمان : ٣٢] . الآية .

وقال عكرمة : إلا ليعبدون ويطيعون فأثيب العابد وأعاقب الجاحد .

وقيل : المعنى إلا لأستعبدهم . والمعنى متقارب تقول : عبد بين العبودة والعبودية وأصل العبودية الخضوع والذل . والتعبيد التذليل يقال : طريق معبد . والتعبيد =

ولكن هل العبادة هى الجلوس فى المساجد والتسبيح أم أنها منهج يشمل الحياة كلها .. فى بيتك وفى عملك وفى السعى فى الأرض ؟ ولو أراد اللَّه سبحانه وتعالى من عباده الصلاة والتسبيح فقط لما خلقهم مختارين بل لخلقهم مقهورين لعبادته مثلهم مثل الكون وما فيه ما عدا الإنس والجن .. واللَّه تبارك وتعالى له صفة القهر ، من هنا فإنه يستطيع أن يجعل من يشاء مقهورًا على عبادته .. مصداقًا لقوله جل جلاله : ﴿ لَعَلَّكَ بَـٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ۝٣ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَـٰقُهُمْ لَهَا خَـٰضِعِينَ ۝٤ ﴾ [الشعراء] .

فلو أراد اللَّه أن يُخضِعَنا لمنهجه قهرًا لا يستطيع أحد أن يشذ عن طاعته .. وقد أعطانا اللَّه الدليل على ذلك فى أجسادنا وفى أحداث الدنيا ما نحن مقهورون عليه ، فالجسد مقهور للَّه فى أشياء كثيرة . القلب ينبض ويتوقف بأمر اللَّه دون إرادة منا ، والمعدة تهضم الطعام ونحن لا ندرى عنها شيئًا .. والدورة الدموية فى أجسادنا لا إرادة لنا فيها ، وأشياء كثيرة فى الجسد البشرى كلها مقهورة للَّه سبحانه وتعالى ، وليس لإرادتنا دخل فى عملها .

إذن .. ما يقع علىَّ فى الحياة الدنيا من أحداث أنا مقهور فيها ؛ ولا أستطيع أن أمنعها من الحدوث .. فلا أستطيع أن أمنع سيارة أن تصدمنى .. ولا طائرة أن تحترق بى .. ولا كل ما يقع علىَّ من أقدار اللَّه فى الدنيا .

إذن .. فمنطقة الاختيار فى حياتى محددة ؛ فمثلًا لا أستطيع أن أتحكم فى يوم مولدى .. ولا فيمن هو أَبى ومن هى أُمى .. ولا فى شكلى هل أنا طويل أو قصير ؟ جميل أو قبيح ، شقى أو سعيد .. أو ما إلى ذلك .

= الاستعباد وهو أن يتخذه عبدا . وكذلك الاعتباد . والعبادة : الطاعة ، والتعبد : التنسك . فمعنى ﴿ لِيَعْبُدُونِ ﴾ ليذلوا ويخضعوا ويعبدوا .

وعلى هذا فمنطقة الاختيار فى الحياة هى التى جاء بها المنهج من الله تعالى فى أن أفعل أو لا أفعل . والله سبحانه وتعالى من صفاته القهار ، ولو شاء سبحانه أن يقهر خلقه كلهم على عبادته لكانوا كما أراد سبحانه ؛ ولكنه يريد من الإنس والجن عبادة عن محبوبية .. ولذلك خلقنا ولنا اختيار فى أن نأتيه أو لا نأتيه .. فى أن نطيعه أو نعصيه . فى أن نؤمن به أو لا نؤمن (١) .

---

(١) روى الخلال عن بقية بن الوليد قال : سألت الزبيدي والأوزاعي عن الجبر فقال الزبيدى أمر الله أعظم وقدرته أعظم من أن يجبر أو يعضل ولكن يقضى ويقدر ويخلق ويجبل عبده على ما أحب .
وروي عن أبى بكر المروذى قال : قلت لأبى عبد الله تقول : إن الله أجبر العباد . فقال : هكذا لا تقول ، وأنكر هذا وقال : ﴿ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ ﴾ [المدثر : ٣١] .
وقال المروزى : كتب إلى عبد الوهاب في أمر حسين بن خلف العكبرى وقال : إنه تنزه عن ميراث أبيه فقال رجل قدرى : إن الله لم يجبر العباد على المعاصي . فرد عليه أحمد بن رجاء فقال : إن الله جبر العباد ، أراد بذلك إثبات القدر . فوضع أحمد بن على كتابا يحتج فيه .. فأدخلته على أبى عبد الله وأخبرته بالقصة . قال : ويضع كتابا ! أنكر عليهما جميعا على ابن رجاء حين قال : جبر العباد ، وعلى القدري الذي قال لم يجبر ، وأنكر على أحمد بن على وضعه الكتاب واحتجاجه ، وأمر بهجرانه لوضعه الكتاب . وقال لي : يجب على ابن رجاء أن يستغفر ربه لما قال : جبر العباد .
فقلت لأبى عبد الله فما الجواب في هذه المسألة ؟ فقال : ﴿ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ ﴾ .
قال الخلال : وأخبرنا المروزي فى هذه المسألة أنه سمع أبا عبد الله لما أنكر على الذى قال : لم يجبر ، وعلى من رد عليه : جبر ، فقال أبو عبد الله : =

....

○○○

= كلما ابتدع رجل بدعة اتسعوا فى جوابها ، وقال : يستغفر ربه الذي رد عليهم بمحدثة ، أنكر على من رد شيئا من جنس الكلام إذا لم يكن له فيه إمام تقدم . قال المروزي : سمعت بعض المشيخة يقول سمعت عبد الرحمن بن مهدى يقول : أنكر سفيان الثورى « جبر » وقال : اللّه تعالى جبل العباد . هذه الأمور مبسوطة فى غير هذا الموضع وإنما المقصود التنبيه على أن السلف كانوا يراعون لفظ القرآن والحديث فيما يثبتونه وينفونه عن اللّه من صفاته وأفعاله ، فلا يأتون بلفظ محدث مبتدع فى النفي والإثبات ، بل كل معنى صحيح فإنه داخل فيما أخبر به الرسول ، والألفاظ المبتدعة ليس لها ضابط ، بل كل قوم يريدون بها معنى غير المعنى الذي أراده أولئك .

فتاوى ابن تيمية [٤٣٠/٥] .

شهادة التوحيد

السؤال : ما هو مفهوم شهادة لا إله إلا الله ، وشهادة أن محمدًا رسول الله ؟

الجواب : المؤمن حين يقول « لا إله إلا الله » .. فقد أعلن الإيمان بالله تعالى ربًا وخالقًا وإلهًا .. وأسلم قياده لله تعالى ؛ وهو بهذا الإعلان إنما يؤكد للدنيا كلها أنه لن ينحنى لأحد غير الله ، ولن يخضع لمخلوق ، بل إن ولاءه وحياته كلها لله سبحانه وتعالى(1) .. وفي هذا عزة للمؤمن .. لأن الذى

---

(1) إشارة إلى ما جاء فى قوله سبحانه وتعالى : ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾ ﴾ [الأنعام] .

وللحديث الذى أخرجه مسلم [٢٠١/٧٧١] عن علىٍّ بن أبى طالب رضى الله تعالى عنه عن رسول الله ﷺ ؛ أنه كان إذا قام إلى الصلاة قال : « وجهتُ وجهى للذى فطر السماوات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين . إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين ، لا شريك له وبذلك أُمرت وأنا أول المسلمين . اللَّهُم أنت الملك لا إله إلا أنت ، أنت ربى وأنا عبدك ، ظلمت نفسى واعترفت بذنبى فاغفر لى ذُنوبى جميعًا . إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت ، واهدنى لأحسن الأخلاق لا يهدى لأحسنها إلا أنت ، واصرف عنى سيئها لا يصرف عنى سيئَهَا إلا أنت ، لبيك وسعديك والخير كله فى يديك ، والشر ليس إليك ، أنا بك وإليك ، تباركت وتعاليت استغفرك وأتوب إليك » . وإذا ركع قال : « اللَّهُم لك ركعت ، وبك آمنت ، ولك اسلمت ، خشع لك سمعى وبصرى ، ومُخّى وعظمى وعصبى » . وإذا رفع قال : « اللَّهُم ربنا ولك الحمد ملء السماوات وملء الأرض وملء ما بينهما وملء ما شئت =

ينحنى لغير اللّه ينحنى لكل الناس ويخضع ويحاول أن يُرضى هذا ويُرضى ذاك بإذلال نفسه وإهانتها .. ولكن الذى ينحنى للّه تعالى وحده قد أخذ عزة العبادة وتخلى عن ذل الدنيا . وهكذا نرى أن اللّه سبحانه وتعالى عندما وضع هذا الشرط لإعلان الإيمان .. قد جعله تأكيدًا لكرامة المؤمن . فالذى يعبد اللّه سبحانه وتعالى إنما يعبد الذى يعطى بلا حساب .. فعنده سبحانه مفاتيح كنوز السماوت والأرض .

أما من يطلب رضا الناس فإنه يطلب رضا من يسخرونه لهواهم ، ويحاولون أن يأخذوا منه ولا يعطوه ، ويستذلوه ويحققوا شهواتهم وسلطانهم على حسابه .

والمؤمن بإعلانه شهادة : « لا إله إلا اللّه » قدم لنفسه الاحترام من كل مخلوقات اللّه جميعًا .

لماذا .. ؟ لأنه غنى باللّه عنهم جميعًا .. فهو لا يريد منهم شيئًا . والذل فى الحاجة للخلق إنما يجعلك ذليلًا لمن تريد منه حاجة .. أى لمن تريد منه مالًا أو وظيفة أو منصبًا أو قطعة من الأرض أو أى شىء دنيوى .. ولكنك إذا استغنيت عن هذا كله كنت عزيزًا أمام هذا الإنسان ؛ لأنك لا تريد منه شيئًا .

وحين يقول المؤمن : « وأشهد أن محمدًا رسول اللّه » فإنه بهذا يقرر أنه لا منهج لنا فى هذه الحياة إلا ما وصلنا عن طريق خاتم الأنبياء سيدنا

= من شىء بعد » . وإذا سجد قال : « اللّهم لك سجدت وبك آمنت ولك أسلمت ، سجد وجهى للذى خلقه وصوره ، وشق سمعه وبصره ، تبارك اللّه أحسن الخالقين » ثم يكون من آخر ما يقول بين التشهد والتسليم : « اللّهُم اغفر لى ما قدمت وما أخرت وما أسررت وما أعلنت وما أسرفت وما أنت أعلم به منى . أنت المقدم وأنت المؤخر لا إله إلا أنت » .

محمد صلى اللّٰه عليه وسلم .. وعلى هذا فليس لأحد أن ينقص منه شيئًا ، أو أن يضيف إليه من عند نفسه شيئًا .

والإنسان عندما يؤمن برسالة محمد صلى اللّٰه عليه وسلم ويعلن تمسكه بمنهج اللّٰه الذى جاء به محمد صلى اللّٰه عليه وسلم فقد أراح نفسه من أن يتلقى منهجًا من إنسان آخر يساويه .. فإعلان الإيمان برسالة محمد صلى اللّٰه عليه وسلم إنقاذ للمؤمن .

وبقية البشر متساوون يتلقون المنهج ممن هو أعلى منهم جميعًا . وفى ذلك عزة للجميع .. فلا تبعية من إنسان لآخر .. ولا استذلال من إنسان لآخر .

وحين يعلن المسلم ولاءه للّٰه تعالى بالصلاة كل يوم خمس مرات ، ومع بقية المؤمنين يوم الجمعة فى صلاة الجمعة ، فإن إحساسًا بالمساواة يتحقق ؛ لأننا جميعا متساوون فى العبودية للّٰه .. فلا يبرز أحد ويفرض جبروته على الناس .. لأن الولاء العبودى لله جلّ جلاله قد أُعلن من الناس جميعًا فالكل عبيد اللّٰه تعالى خاضعون له سبحانه ، منقادون لأمره .

وحين يتحرك الإنسان فى الأرض ليعمل .. فإنه يتحرك لنفسه ولمن يعول .. ويتحرك أيضًا لمن لا يقدر على الحركة .. وذلك بتقدير لزمن قادم يصبح فيه القادر على الحركة الآن غير قادر على السعى للرزق فإذا جاء هذا الزمن فإنه سوف يجد مؤمنًا يتحرك من أجله . ولعل الأنظمة المعاصرة فى كل من الشرق والغرب تأخذ بهذه الجزئية على الرغم من خطئهم فى التطبيق . ورغم أن بعضهم كافر باللّٰه جل وعلا إلا أنهم تعلموا من الإسلام فأخذوا من القوىّ تأمينًا له ولمستقبله يدفع له عندما يصبح ضعيفًا غير قادر على الكسب .

○○○

جوهر العبادة

السؤال : ما معنى كلمة : جوهر العبادة ؟

الجواب : إذا كان ما فى الكون من جماد ونبات وحيوان .. مسخر لمهمته التى هى خدمة الإنسان .. فما هى مهمة الإنسان ؟

مهمته أن يعبد اللَّه .. فقد جاء فى الحديث القدسى : « يا ابن آدم تفرغْ لعبادتى أملأ صدرك غنى وأسد فقرك ، وإلا تفعل ملأت يديك شغلًا ولم أسد فقرك »(1) .

ولكن ما جوهر العبادة ؟ هل يريد اللَّه منا أن نقول مثلًا : « سبحان اللَّه » طوال اليوم وكفى ؟ لا .. عبادة اللَّه هى أن ينشغل الإنسان بالمهمة التى خلقه اللَّه سبحانه من أجلها .. إن كل حركة فى الكون فى الاتجاه الصحيح عبادة .. وإنما نلجأ إلى قواعد الإسلام الخمسة (2) لشحن « البطارية » الإيمانية الموجودة فى داخلنا .. ولذلك يكون معنى : ﴿ لِيَعۡبُدُونِ ﴾ [الذاريات : ٥٦] : هو : إفراده سبحانه بالتوحيد ، وطاعته فى كل ما أمر ونهى (3) .

---

(1) رواه الترمذى [٢٤٦٦] ، وابن ماجه [٤١٠٧] ، وأحمد فى المسند [٢/٣٥٨] ، عن أبى هريرة رضى اللَّه تعالى عنه ؛ وصححه الألبانى فى صحيح ابن ماجه [٣٣١٥] .

(2) أخرج مسلم [١٦/٢٢] والبخارى [٨] عن عبد اللَّه بن عمر رضى الله تعالى عنهما قال ؛ إنى سمعت رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم يقول : « إن الإسلام بنى على خمس : شهادة أن لا إله إلا اللَّه وأن محمدا رسول اللَّه ، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة ، وصيام رمضان وحج البيت » .

(3) قال تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ ﴾ [الذاريات : ٥٦] .
قال شيخ الإسلام ابن تيمية : وإنما تعبدهم بطاعته وطاعة رسوله ، فلا عبادة =

= إلا ما هو واجب أو مستحب في دين الله ، وما سوى ذلك فضلا عن سبيله .
ولهذا قال صلى الله عليه وسلم : « من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو رد » أخرجاه في الصحيحين ، وقال : صلى الله عليه وسلم في حديث العرباض بن سارية الذي رواه أهل السنن وصححه الترمذي : « إنه من يعش منكم بعدي فسيرى اختلافا كثيرا ، فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي ، تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ ، وإياكم ومحدثات الأمور ، فإن كل بدعة ضلالة » .
وفي الحديث الصحيح الذي رواه مسلم وغيره أنه كان يقول في خطبته : « خير الكلام كلام الله ، وخير الهدي هدي محمد ، وشر الأمور محدثاتها وكل بدعة ضلالة » .
وقد ذكر الله طاعة الرسول واتباعه في نحو من أربعين موضعا من القرآن ، كقوله تعالى : ﴿ مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَ ﴾ [النساء : ٨٠] .
وقوله سبحانه وتعالى : ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ وَلَوۡ أَنَّهُمۡ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ جَآءُوكَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسۡتَغۡفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابٗا رَّحِيمٗا ﴿٦٤﴾ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيۡنَهُمۡ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَرَجٗا مِّمَّا قَضَيۡتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسۡلِيمٗا ﴿٦٥﴾ ﴾ [النساء] .
وقوله سبحانه وتعالى : ﴿ قُلۡ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَۖ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾ [آل عمران : ٣٢] .
وقال تعالى : ﴿ قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۚ ﴾ [آل عمران : ٣١] .
فجعل محبة العبد لربه موجبة لاتباع الرسول ، وجعل متابعة الرسول سببًا لمحبة الله عبده . وقد قال سبحانه وتعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ =

= ﴿مَا كُنتَ تَدْرِي مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ [الشورى : ٥٢] .

فما أوحاه الله إليه يهدي الله به من يشاء من عباده ، كما أنه صلى الله عليه وسلم بذلك هداه الله تعالى كما قال تعالى : ﴿قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِي وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِيٓ إِلَيَّ رَبِّيٓ﴾ [سبأ : ٥٠] .

وقال تعالى : ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾﴾ [المائدة] . فبمحمد صلى الله عليه وسلم تبين الكفر من الإيمان ، والربح من الخسران والهدى من الضلال ، والنجاة من الوبال ، والغي من الرشاد ، والزيغ من السداد ، وأهل الجنة من أهل النار ، والمتقون من الفجار وإيثار سبيل من أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين من سبيل المغضوب عليهم والضالين .

فالنفوس أحوج إلى معرفة ما جاء به واتباعه منها إلى الطعام والشراب ، فإن هذا إذا فات حصل الموت في الدنيا ، وذاك إذا فات حصل العذاب .

فحق على كل أحد بذل جهده واستطاعته في معرفة ما جاء به وطاعته ؛ إذ هذا طريق النجاة من العذاب الأليم والسعادة في دار النعيم . والطريق إلى ذلك الرواية والنقل ، إذ لا يكفي من ذلك مجرد العقل ، بل كما أن نور العين لا يرى إلا مع ظهور نور قدامه ، فكذلك نور العقل لا يهتدي إلا إذا طلعت عليه شمس الرسالة ، فلهذا كان تبليغ الدين من أعظم فرائض الإسلام ، وكان معرفة ما أمر الله به رسوله واجبا على جميع الأنام .

والله سبحانه بعث محمدا بالكتاب والسنة ، وبهما أتم على أمته المنة ، قال تعالى : ﴿... وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٠﴾ كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا =

= ﴿ مِّنكُمْ يَتْلُواْ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾ فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٢﴾ ﴾ [البقرة] .

وقال تعالى : ﴿ لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ ﴾ [آل عمران] .

وقال تعالى : ﴿ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْحِكْمَةِ ﴾ [البقرة : ٢٣١] .

وقال تعالى : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ ﴾ [الجمعة : ٢] .

وقال تعالى عن الخليل : ﴿ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ﴾ [البقرة : ١٢٩] .

وقال سبحانه وتعالى : ﴿ وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ ﴾ [الأحزاب : ٣٤] .

وقد قال غير واحد من العلماء : منهم يحيى بن أبي كثير وقتادة والشافعي وغيرهم : ﴿ وَٱلْحِكْمَةِ ﴾ : هي السنة ؛ لأن الله أمر أزواج نبيه أن يذكرن ما يتلى في بيوتهن من الكتاب والحكمة ، والكتاب : القرآن ، وما سوى ذلك مما كان الرسول يتلوه هو السنة .

وقد جاء عن النبي صلى الله عليه وسلم من عدة أوجه من حديث أبي رافع وأبي ثعلبة وغيرهما أنه قال : « لا ألفين أحدكم متكئا على أريكته يأتيه الأمر من أمري مما أمرت به أو نهيت عنه فيقول : بيننا وبينكم القرآن ، فما وجدنا فيه من حلال استحللناه ، وما وجدنا فيه من حرام حرمناه ، ألا وإني أوتيت الكتاب ومثله معه »[1] . وفي رواية : ألا وإنه مثل الكتاب » .

ولما كان القرآن متميزا بنفسه – لما خصه الله به من الإعجاز الذي باين به كلام الناس كما قال تعالى : ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ =

(١) رواه الترمذى [٢٦٦٣] وابن ماجه [١٢-١٣] وأبو داود [٤٦٠٥] وصححه الألبانى .

= ﴿هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء : ٨٨] .
وكان منقولا بالتواتر - لم يطمع أحد في تغيير شيء من ألفاظه وحروفه ، ولكن طمع الشيطان أن يدخل التحريف والتبديل في معانيه بالتغيير والتأويل ، وطمع أن يدخل في الأحاديث من النقص والازدياد ما يضل به بعض العباد .
فأقام الله تعالى الجهابذة النقاد أهل الهدى والسداد ، فدحروا حزب الشيطان ، وفرقوا بين الحق والبهتان وانتدبوا لحفظ السنة ومعاني القرآن من الزيادة في ذلك والنقصان .
وقام كل من علماء الدين بما أنعم به عليه وعلى المسلمين - مقام أهل الفقه الذين فقهوا معاني القرآن والحديث - بدفع ما وقع في ذلك من الخطأ في القديم والحديث ، وكان من ذلك الظاهر الجلي ؛ الذي لا يسوغ عنه العدول ؛ ومنه الخفي ؛ الذي يسوغ فيه الاجتهاد للعلماء العدول .
وقام علماء النقل والنقاد بعلم الرواية والإسناد ، فسافروا في ذلك إلى البلاد ، وهجروا فيه لذيذ الرقاد ، وفارقوا الأموال والأولاد ، وأنفقوا فيه الطارف والتلاد ، وصبروا فيه على النوائب ، وقنعوا من الدنيا بزاد الراكب ، ولهم في ذلك من الحكايات المشهورة ، والقصص المأثورة ، ما هو عند أهله معلوم ، ولمن طلب معرفته معروف مرسوم ، بتوسد أحدهم التراب وتركهم لذيذ الطعام والشراب ، وترك معاشرة الأهل والأصحاب ، والتصبر على مرارة الاغتراب ، ومقاساة الأهوال الصعاب ، أمر حببه الله إليهم وحلاه ليحفظ بذلك دين الله . كما جعل البيت مثابة للناس وأمنا ، يقصدونه من كل فج عميق ، ويتحملون فيه أمورا مؤلمة تحصل في الطريق ، وكما حبب إلى أهل القتال الجهاد بالنفس والمال حكمة من الله يحفظ بها الدين ليهدي المهتدين ، ويظهر به الهدى ودين الحق ، الذي بعث به رسوله ولو كره المشركون .
فمن كان مخلصا في أعمال الدين - ويعملها لله - كان من أولياء الله المتقين أهل النعيم المقيم ، كما قال تعالى :. ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا =

= هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٤﴾ ﴾ [يونس] .

وقد فسر النبي صلى الله عليه وسلم البشرى في الدنيا بنوعين :

أحدهما : ثناء المثنين عليه .

الثاني : « الرؤيا الصالحة يراها الرجل الصالح ؛ أو ترى له .

فقيل : يا رسول الله ، الرجل يعمل العمل لنفسه فيحمده الناس علبه ؟ قال : « تلك عاجل بشرى المؤمن » . وقال البراء بن عازب : سئل النبي صلى الله عليه وسلم عن قوله : ﴿ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ فقال : « هي الرؤيا الصالحة يراها الرجل الصالح أو ترى له » .

والقائمون بحفظ العلم الموروث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم الربان الحافظون له من الزيادة والنقصان ، هم من أعظم أولياء الله المتقين وحزبه المفلحين . بل لهم مزية على غيرهم من أهل الإيمان والأعمال الصالحات . كما قال سبحانه وتعالى : ﴿ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ۚ ﴾ [المجادلة : ١١] . قال ابن عباس : يرفع الله الذين أوتوا العلم من المؤمنين على الذين لم يؤتوا العلم درجات . وعلم الإسناد والرواية مما خص الله به أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، وجعله سلما إلى الدراية . فأهل الكتاب لا إسناد لهم يأثرون به المنقولات ، وهكذا المبتدعون من هذه الأمة أهل الضلالات ، وإنما الإسناد لمن أعظم الله عليه المنة ، أهل الإسلام والسنة ، يفرقون به بين الصحيح والسقيم والمعوج والقويم . .

وغيرهم من أهل البدع والكفار إنما عندهم منقولات يأثرونها بغير إسناد ، وعليها من دينهم الاعتماد ، وهم لا يعرفون فيها الحق من الباطل ، ولا الحالي من العاطل .

وأما هذه الأمة المرحومة ، وأصحاب هذه الأمة المعصومة ، فإن أهل العلم منهم والدين هم من أمرهم على يقين ، فظهر لهم الصدق من المين ؛ كما =

= يظهر الصبح لذي عينين . عصمهم الله أن يجمعوا على خطأ في دين الله معقول أو منقول ، وأمرهم إذا تنازعوا في شيء أن يردوه إلى الله والرسول كما قال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ﴾ [النساء : ٥٩] .

فإذا اجتمع أهل الفقه على القول بحكم لم يكن إلا حقا ، وإذا اجتمع أهل الحديث على تصحيح حديث لم يكن إلا صدقا ، ولكل من الطائفتين من الاستدلال على مطلوبهم بالجلي والخفي ما يعرف به من هو بهذا الأمر حفي ، والله تعالى يلهمهم الصواب في هذه القضية ، كما دلت على ذلك الدلائل الشرعية ، وكما عرف ذلك بالتجربة الوجودية ؛ فإن الله كتب في قلوبهم الإيمان ، وأيدهم بروح منه ، لما صدقوا في موالاة الله ورسوله ؛ ومعاداة من عدل عنه . قال تعالى : ﴿ لَّا تَجِدُ قَوۡمٗا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ يُوَآدُّونَ مَنۡ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوۡ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمۡ أَوۡ أَبۡنَآءَهُمۡ أَوۡ إِخۡوَٰنَهُمۡ أَوۡ عَشِيرَتَهُمۡۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٖ مِّنۡهُۖ ﴾ [المجادلة : ٢٢] .

وأهل العلم المأثور عن الرسول صلى الله عليه وسلم أعظم الناس قياما بهذه الأصول ، لا تأخذ أحدهم في الله لومة لائم ، ولا يصدهم عن سبيل الله العظائم ، بل يتكلم أحدهم بالحق الذي عليه ، ويتكلم في أحب الناس إليه ، عملا بقوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلۡقِسۡطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ أَوِ ٱلۡوَٰلِدَيۡنِ وَٱلۡأَقۡرَبِينَۚ إِن يَكُنۡ غَنِيًّا أَوۡ فَقِيرٗا فَٱللَّهُ أَوۡلَىٰ بِهِمَاۖ فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلۡهَوَىٰٓ أَن تَعۡدِلُواْۚ وَإِن تَلۡوُۥٓاْ أَوۡ تُعۡرِضُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا ﴾ [النساء : ١٣٥] وقوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعۡدِلُواْۚ ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴾ [المائدة : ٨] .
=

= ولهم من التعديل والتجريح ، والتضعيف والتصحيح من السعي المشكور والعمل المبرور ما كان من أسباب حفظ الدين ، وصيانته عن إحداث المفترين ، وهم في ذلك على درجات : منهم المقتصر على مجرد النقل والرواية ، ومنهم أهل المعرفة بالحديث والدراية ، ومنهم أهل الفقه فيه والمعرفة بمعانيه .

وقد أمر النبي صلى اللّٰه عليه وسلم الأمة أن يبلغ عنه من شهد لمن غاب ، ودعا للمبلغين بالدعاء المستجاب ، فقال في الحديث الصحيح : « بلغوا عني ولو آية ، وحدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج ، ومن كذب علي متعمدا فليتبوأ مقعده من النار » .

وقال أيضا في خطبته في حجة الوداع : « ألا ليبلغ الشاهد الغائب فرب مبلغ أوعى من سامع » .

وقال أيضا : « نضر اللّٰه امرأ سمع منا حديثا فبلغه إلى من لم يسمعه ، فرب حامل فقه غير فقيه ، ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه ؛ ثلاث لا يغل عليهن قلب مسلم : إخلاص العمل لله ومناصحة ولاة الأمر ، ولزوم جماعة المسلمين ؛ فإن دعوتهم تحيط من ورائهم » .

وفي هذا دعاء منه لمن بلغ حديثه وإن لم يكن فقيها ودعاء لمن بلغه وإن كان المستمع أفقه من المبلغ ؛ لما أعطي المبلغون من النضرة ؛ ولهذا قال سفيان بن عيينة : لا تجد أحدا من أهل الحديث إلا وفي وجهه نضرة ؛ لدعوة النبي صلى اللّٰه عليه وسلم يقال : نضُرَ ونَضَرَ ، والفتح أفصح .

ولم يزل أهل العلم في القديم والحديث يعظمون نقلة الحديث حتى قال الشافعي رضي اللّٰه عنه : إذا رأيت رجلا من أهل الحديث فكأني رأيت رجلا من أصحاب النبي صلى اللّٰه عليه وسلم ؛ وإنما قال الشافعي هذا ؛ لأنهم في مقام الصحابة من تبليغ حديث النبي صلى اللّٰه عليه وسلم .

وقال الشافعي أيضا : أهل الحديث حفظوا فلهم علينا الفضل ؛ لأنهم حفظوا لنا . ا.هـ . « نقلا عن كتاب توحيد الألوهية / مجموع فتاوى ابن تيمية » .

الإسلام الذى غير وجه التاريخ

السؤال : كيف كان الإسلام حدثًا غير وجه التاريخ ؟

الجواب : كان الإعلان عن ظهور الإسلام حدثًا تزلزلت له عروشِ الظلم . ذلك أن الإنسان يستعيد بالإسلام انسجامه مع الكون فيصل بمنهج الإسلام إلى مطلوب اللَّه تعالى من العباد وهو أن يصيروا عبادًا يحبون العبادة .. لا عبيدًا مقهورين على العبادة . لذلك كان لابد من الإعداد المسبق للرسول صلى اللَّه عليه وسلم الذى يحمل إلى الناس كافة رسالة اللَّه تعالى .

وكان من الإعداد المسبق القدرة على التأمل لكل ما يجرى حوله صلى اللَّه عليه وسلم من أمور .

فعندما كان يأتى رمضان من كل عام قبل الرسالة .. لم يكن محمد يتعبد للأصنام كعادة العرب آنذاك وإنما كان يعتكف فى غار حراء .. وكان مَنْ يقيم فى غار حراء فى ذلك الوقت يستطيع أن يرى الكعبة فتجتمع له ثلاث عبادات فى آن واحد .

الأولى : هى الخلوة فى الغار : وفى الخلوة صفاء النفس والروح .

والثانية : هى التأمل .. فى ملكوت الأرض والسماء .

والثالثة : هى النظر إلى البيت الحرام .

وكان الصفاء الروحى هو حال رسول اللَّه ﷺ الدائم مع اللَّه تعالى ، ومع الناس ولذلك روى عنه صلى اللَّه عليه وسلم أنه غير سخاب [1] .. أى لا ضجيج له .

---

(1) روى البخارى [٢١٢٥] عن عطاء بن يسار قال : لَقِيتُ عبد اللَّه بن عمرو بن العاص رضى اللَّه تعالى عنهما قلت أخبرنى عن صفة رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم فى التوراة ، قال : أَجَل ، واللَّه إنه لموصوف فى التوراة ببعض =

وكان صلوات اللَّه وسلامه عليه :

هادئ صلى اللَّه عليه وسلم إذا جُودل .

واضح صلى اللَّه عليه وسلم إذا تكلم .

يستضيء به صلى اللَّه عليه وسلم من حوله اطمئنانًا إليه وثقة فيه .

صادق الرؤيا صلى اللَّه عليه وسلم .. لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح .

ولم يكن الرسول صلى اللَّه عليه وسلم إلا بشر يوحى إليه .

نعم إنه بشر .. لكن اصطفاه اللَّه واجتباه لمهمة البلاغ عنه سبحانه .

متميز صلى اللَّه عليه وسلم بمكانته فى مكة والبيت الحرام بشرف نسبه .

ضعيف صلى اللَّه عليه وسلم وسط أهله باليُتْم .

متصف صلى اللَّه عليه وسلم بقوة الصدق والأمانة .

وكانت إرادة اللَّه تبارك وتعالى أن يختار نبيه الخاتم صلى اللَّه عليه وسلم ليكون أسوة حسنة .

وكما كان متبعاً فى إعداد الرسل صلوات اللَّه تعالى عليهم وسلامه .

كان لابد لرسولنا محمد صلى اللَّه عليه وسلم من معجزة .

ولأنه صلى اللَّه عليه وسلم النبى الخاتم كان لابد من المعجزة الكبرى .

وحتى ينزل القرآن على قلب النبى محمد صلى اللَّه عليه وسلم وهو على بشريته لابد من رسول مقرب من الملائكة هو الملاك جبريل عليه السلام كبير أمناء الوحى .

= صفته فى القرآن : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَـٰكَ شَـٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَـذِيرًا ﴾ . وحِرزاً للأميين ، أنت عبدى ورسولى ، سمَّيتُك المتوكل ، ليس بفَظٍ ولا غَليظٌ ولا سخاب فى الأسواق ، ولا يدفعُ بالسيئة السيئة ، ولكن يعفو ويغفر ، ولن يقبضه اللَّه حتى يُقيمَ به الملَّةَ العوجاء بأن يقولوا : لا إله إلا اللَّه ، ويُفتحُ بها أعين عمى ، وآذان صُم ، وقلوب غُلْفٌ » .

لذا اجتمعت لرسالة الإسلام كل مقومات القوة ، فعلا الدين وأظهره اللّٰه ، وأتم نوره وأشرقت الأرض بنور ربها [1] .

ooo

(1) ليس هذا فقط بل أعد اللّٰه تعالى لرسوله صلى اللّٰه عليه وسلم جيلًا قرآنيًّا فريدا صنعه على عينه لحمل الرسالة ونشر الدعوة ؛ قال تعالى : ﴿ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ﴾ [الأنفال : ٦٣]
يريد جل ثناؤه بقوله : ﴿ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ﴾ جمع بين قلوب المؤمنين من الأوس والخزرج بعد التفرق والتشتت على دينه الحق فصيرهم به جميعا بعد أن كانوا أشتاتا ، وإخوانا بعد أن كانوا أعداء .
وقوله : ﴿ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ﴾ يقول تعالى ذكره لنبيه محمد صلى اللّٰه عليه وسلم : لو أنفقت يا محمد ما في الأرض جميعا من ذهب وورق وعرض ما جمعت أنت بين قلوبهم بحيلك ولكن اللّٰه جمعها على الهدى فائتلفت واجتمعت تقوية من اللّٰه لك و تأييدا منه ومعونة على عدوك .
والذي فعل ذلك وسببه لك حتى صاروا لك أعوانا وأنصارا ويدا واحدة على من بغاك سوءا ، هو الذي إن رام عدو منك مراما يكفيك كيده وينصرك عليه ، فثق به وامض لأمره وتوكل عليه .

الإسـلام .. والسيف

السـؤال : بعض المستشرقين وأعداء الإسلام يقولون إن الإسلام انتشر بالسيف ! فكيف يمكن الرد على تلك الفرية » ؟

الجواب : إذا كان عددًا من المستشرقين يزعم أن الإسلام قد انتشر بالسيف وأن الناس كانوا يخيرون بين الإيمان أو القتل .. وأن الفتوحات الإسلامية هى التى نشرت الإسلام وتم ذلك قهرًا بالسيف ! فهذا زعمٌ باطل ، وبهتان عظيم ذلك أنه لو كان الإسلام قد انتشر حقًّا كما زعموا بالسيف .. لمَا وُجد فى الدولة المسلمة غير المسلمين .. ولكن وُجد فى الدولة المسلمة اليهود والنصارى .. وظلو على دينهم لم يحاول أحد أن يقتلهم أو يُدخلهم فى الإسلام قهرًا .. بل تُركوا على دينهم .. وما تمتع هؤلاء بحرية العبادة وأمان الحياة إلا فى ظل الدولة المسلمة وفى حكم الخليفة المسلم .. حتى أن أقباط مصر الذين كانوا يختفون فى المغارات وقت الحكم الرومانى .. قد عادوا آمنين مطمئنين فى أيام الحكم الإسلامى .. وكانوا يؤدون عبادتهم فى حماية الحكومة المسلمة .

ومن هنا فإن القول بأن الإسلام قد انتشر بالسيف قول كاذب باطل .. والصحيح أن الإسلام استخدم السيف حين استخدمه ليدافع عن حرية الاختيار .. وحرية العقيدة للبشرية كلها .. فقد كان دعاة المسلمين يعرضوا الإسلام على الأمم .. ويبينوا محاسن الدين الجديد للناس .. وبعد هذا البيان والبلاغ بالدين الجديد والحجج التى نزل بها القرآن الكريم ثم بعد ذلك تترك حرية الاختيار للناس من شاء آمن .. ومن لم يشأ ظل على دينه .

وهكذا كان المسلمون يطالبون بحرية الرأى .. وحرية العقيدة وأن يعرضوا الإسلام على الناس .. ثم بعد ذلك تترك حرية الاختيار لكل إنسان .

ولكن بعض حكام هذه الدول .. قاتلوا المسلمين .. ومنعوهم من أن يعرضوا دعوتهم على الناس .. وصادروا حرية الرأى وحرية اختيار العقيدة .. محاولين فرض دين الكفر .. وحملوا السيف ليمنعوا دعاة الإسلام من أن يصلوا إلى قلوب وآذان البشر .. وكان لابد - دفاعًا عن حرية الرأى والعقيدة - أن يحملَ المسلمون السيف ، لا لينشروا دعوتهم ، ولكن ليخلوا بين الناس وبين حرية الرأى والاختيار .. وحرية العقيدة .. ويخلصوهم من جبروت فرض الكفر والإلحاد بالقوة .. وبعد أن وصلوا إلى الموقف الذى يستطيعون فيه إبلاغ تعاليم الإسلام للناس .. تركوا السيف وألقوا به بعيدًا .. وبدأوا فى شرح تعاليم الدين .. ثم تركوا بعد ذلك كل إنسان حرًا فى أن يدخل الإسلام أو يبقى على دينه .. فمن دخل الإسلام كان له ما للمسلمين وعليه ما عليهم بلا تمييز ، ومن بقى على دينه كانت له حرية العقيدة يحميها المسلمون مقابل جزية يدفعها من أجل أن يكون له ما للمسلمين وعليه ما عليهم [1] .

---

(١) قال فضيلة الشيخ الإمام فى كتابه القيم : « الجهاد فى الإسلام » والذى شرفت مكتبتنا بنشره فى سؤال عرض على فضيلته عن الإسلام والسيف :

« كثيرًا ما يتردد هذا السؤال على ألسنة الناس ، بل يزعم الكثير ممن فى قلوبهم مرض أن الإسلام لم ينتشر إلا بالسيف ، وهذا زعم باطل يرده الواقع والتاريخ والمسألة فى غاية الوضوح لمن أراد الفهم عن الله ورسوله صلى الله عليه وسلم ، أما المعاند والجاهل فلا نستطيع أن نهديه ولو كنا حريصين على ذلك ؛ لأنه اختار غير طريق الهداية وصدق الله العظيم إذ يقول : ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ﴾ [القصص : ٥٦] .

نقول : المسألة فى غاية الوضوح ؛ لأن النصرة لا تكون بالسيف فقط ، وإلا فكيف آمن المسلمون الأوائل الذين هاجروا إلى الحبشة ، وكذلك الذين جاءوا لبيعة العقبة الأولى والثانية ، والذين هاجروا إلى المدينة ، وكذلك الذين =

= استقبلوا رسول اللّٰه صلى اللّٰه عليه وسلم فى المدينة حين هاجر إليهم .
ومنشأ هذا الزعم الخاطئ أن اللّٰه تعالى لم يطلب من أى رسول سابق على رسوله محمد صلى اللّٰه عليه وسلم أن يجاهد فى سبيل وصول الدعوة إلى الناس ؛ لأن اللّٰه سبحانه هو الذى تولى تأديب الخارجين على دينه ، العاصين لرسله ، يقول سبحانه وتعالى : ﴿ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ [العنكبوت : ٤٠] .
كما لم يحدث قتال منذ أن أهبط اللّٰه تعالى آدم إلى الأرض إلى أن بعث سبحانه رسوله محمدًا صلى اللّٰه عليه وسلم إلا مرة واحدة ، وهى : عندما طلب بنو إسرائيل الإذن بقتال الذين أخرجوهم من ديارهم ، ورغم ذلك تولوا عن القتال إلا قليلًا منهم .
ولكن فى الرسالة الخاتمة أذن اللّٰه تعالى لرسوله محمد صلى اللّٰه عليه وسلم وأمته أن تحمل السيف ؛ لتؤدب به الذين يحولون دون وصول العقيدة الصحيحة للناس .
إن السيف لم يأت ليفرض العقيدة على الناس ، إنما ليحمى الاختيار فى النفس الإنسانية ، فبدلًا من أن يترك الناس مقهورين على اعتناق عقيدة خاطئة ، اصطفى اللّٰه محمدًا صلى اللّٰه عليه وسلم وكلف أمته برفع السيف فى وجه الظالم القاهر لعباد اللّٰه ليخلُّوا بين الناس وبين اختيارهم ، ومن ثم على العباد أن يختاروا عقيدتهم بكامل حريتهم بعد أن يتبينوا سبل الهدى والرشاد .
وعندما يردد أعداء القرآن القول الفاسد : إن الإسلام انتشر بالسيف . نرد عليهم – كما سبق وصدرنا به كلامنا : إن الذين آمنوا باللّٰه تعالى وصدقوا برسوله صلى اللّٰه عليه وسلم فى بدء الأمر كانوا ضعفاء لا يستطيعون الدفاع =

= حتى عن أنفسهم ، ولذا هاجر بعضهم إلى الحبشة بحثًا عن الحماية ، ومنهم من دخل فى حماية الأقوياء من أهل مكة .

إن رسول اللّٰه صلى اللّٰه عليه وسلم بُعث فى أمة أُمِّية ، ومن قبيلة لها شوكتها . وشاء الحق سبحانه ألا ينصر دينه بإسلام أقوياء قريش أولًا ، فأول من آمن بالرسول صلى اللّٰه عليه وسلم الضعفاء ، ثم هاجر رسول اللّٰه صلى اللّٰه عليه وسلم إلى المدينة وصار فى منعة وقوة . وقام مجتمع المسلمين الأول حين أذِنَ اللّٰه تعالى للنبى صلى اللّٰه عليه وسلم ومن معه أن يحملوا السيف لا لفرض العقيدة ، ولكن لحماية حرية اختيار الناس للعقيدة الصحيحة .

ولو أن الإسلام انتشر بالسيف -كما يزعم هؤلاء الأفاكون الكارهون لدين اللّٰه- فكيف نفسر وجود أبناء ديانات أخرى فى البلاد المسلمة ؟!

إذن .. فكل مسلم يمثل وحدة إيمانية مستقلة ، وعليه أن يكون قدوة لغيره . فكل مسلم مؤمن باللّٰه تعالى وبدينه ، يُحتم عليه أن يلتزم السلوك الإيمانى فى حياته ، فبالسلوك الإيمانى مكَّن اللّٰه للإسلام فى الأرض . وعلى هذا فكل مسلم عليه واجب ألا وهو أن لا يترك فى سلوكه ثغرة ينفذ منها خصوم الإسلام إلى الإسلام ؛ ذلك أن اختلال توازن سلوك المسلم بالنسبة لمنهج اللّٰه هو ثغرة ينفذ منها خصوم الإسلام إلى شرع اللّٰه تعالى .

ولذلك فالمفكرون والمنصفون من أهل الأديان الأخرى حينما يعتنقون الإسلام إنما يعتنقونه لأنه منهج حق . يمحصونه بالعقل ويهتدون إليه بالفطرة الإيمانية . أما الذين يريدون الطعن فى الإسلام فهم ينظرون إلى سلوك بعض من المسلمين ، فيجدون فيه من الثغرات ما يتهمون به الإسلام . ولكن المفكرين المنصفين يفرقون دائمًا بين العقيدة وبين متبعى العقيدة (١) .

(١) روى المروزى فى السنة له [٢٨/١٣/١] عن يزيد بن مرثد قال : قال رسول اللّٰه صلى اللّٰه عليه وسلم كل رجل من المسلمين على ثغرة من ثغور الإسلام ، اللّٰه لا يؤتى الإسلام من قبلك . وفى رواية له [٢٩/١٣/١] عن الأوزاعى قال : كان =

= أما الذين يذهبون إلى الإسلام من جهة أتباعه ممن صادفوا مُتبعًا للإسلام ملتزمًا ، دعاهم ذلك إلى أن يؤمنوا بالإسلام . ولذلك فالبلاد الإسلامية الكبيرة الآن والتى تضم غالبية سكانها من المسلمين هى بلاد دخلها الإسلام بالأسوة الإسلامية فى أفراد متبعين ملتزمين ، فراق للناس ما هم عليه من تقى وورع ، ومن تصرفات مستقيمة ، ومن أسلوب تعامل سمح أمين ، نزيه نظيف . كل ذلك لفت الناس إلى الإسلام وجعلهم يتساءلون : ما الذى جعلكم على هذا السلوك الطيب ؟ قالوا : لأننا مسلمون . وتساءل الناس فى تلك المجتمعات : ما معنى الإسلام ؟ وبدأ المسلمون يشرحون لهم الإسلام .

إذن .. فالذى لفت الناس إلى الإسلام هو السلوك المنهجى الملتزم .

ولذلك فالحق سبحانه وتعالى يقول : ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ [فصلت : ٣٣] .

والدعوة إلى الله تكون بالقول ، والعمل الصالح . فالعمل الصالح هو شهادة للدعوة باللسان ، ولا يكتفى المؤمن بذلك ، إنما يعلن ويقول لمن يرونه على هذا السلوك السمح ، الرضي الطيب ، إنها لفتة من ذاته إلى دينه . وهذه تفسر لنا كيف انتشر الإسلام بواسطة جماعة من التجار الذين كانوا يذهبون إلى كثير من البلاد ، وتعاملوا مع الناس بأدب الإسلام وبوقار الإسلام وبورع الإسلام ، فصار سلوكهم الملتزم مُلفتًا ، وعندما يسألهم القوم عن السر فى سلوكهم الملتزم ، يقول الواحد منهم : أنا لم أجئ بذلك من عندى ولكن من اتباعى لدين الإسلام الذى جاء من عند الله تعالى وبلغه النبى محمد صلى الله عليه وسلم رسول الله للعالمين .

○○○

= يقال ما من مسلم إلا وهو قائم على ثغرة من ثغور الإسلام ، فمن استطاع ألا يؤتى الإسلام من قبله فليفعل .

الأمثال فى القرآن الكريم

السؤال : **لماذا ضرب الله الأمثال فى القرآن الكريم ؟**

الجواب : الله سبحانه وتعالى ضرب للناس أمثالًا فى القرآن الكريم فقال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ﴾ [الزمر : ٢٧] .

وقال تعالى : ﴿ يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا ﴾ [البقرة : ٢٦] .

وقال تعالى : ﴿ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ [إبراهيم : ٢٥] .

إذن .. الله سبحانه وتعالى حين ضرب الأمثال ربطها بموكب الإيمان . وربطها بالهدى والضلال .. فكأنما كل هذه الأمثال إنما ترتبط بقضايا إيمانية أراد الله سبحانه وتعالى أن يضعها أمام المؤمنين ليزدادوا إيمانًا .. وأراد الله أن يرد بها على الكافرين .

قبل أن نبدأ بالإجابة عن لماذا ضرب الله الأمثال فى القرآن الكريم ؟ فإننا لابد أن نفرق بين المِثْل والمِثَال .

أولًا هناك كلمة مِثْل .. وهناك كلمة مثال .. ومِثل – بكسر الميم – تعنى التشبيه بشىء .. أى : أن هذا الشىء الذى نتحدث عنه يشبه كذا تمامًا .

ولذلك قال الله سبحانه وتعالى : ﴿ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ ﴾ [البقرة :٢٣] .

وقال تعالى فى آية أخرى : ﴿ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ ﴾ [يونس : ٣٨] .

ومعنى ذلك : بسورة كالقرآن تمامًا .. أى : أن هناك تشبيه حالة بحالة .

ونحن إذا أردنا فى الدنيا أن نستعمل كلمة : مِثْل .. نقول هذا الشىء مِثْل الكرة ؛ لأنه مستدير كهيئة الكرة تمامًا ، أو أن نقول : هذا الشىء يشبه سنام الجمل أى : أنه على هيئة سنام الجمل تمامًا ، وهنا نحن نشّبه حالة بحالة ، أو مفردًا بمفرد .

أما المَثَلُ فهو يختلف عن ذلك تمامًا ، ذلك لأنه لا يُشبه شيئًا فرديًا بشىء فردى .. ولا يُشبه حالة بحالة مثلها .. ولكن المَثَل يأتى لتقريب فكرة ما إلى الذهن البشرى ، بحيث يستطيع أن يَسْتوعبها .. ولا يشترط أن يكون المَثَلُ من نفس نوع الشىء الذى نتحدث عنه .. بل قد يكون مختلفًا تمامًا ، ولكنه فقط يعطينا الفكرة . ولنوضح هذه النقطة قليلًا نقول :

إذا أخذنا الأمثال فى حياتنا وجدنا أنها تقرب المعانى ، فمثلًا حينما تواجه إنسانًا يتحداك أو يحاول أن ينال منك مغترًا بقوته ، زاهٍ بقدرته ، تقول له : « إن كنت ريحًا فقد لاقيت إعصارًا [1] ، ولا يوجد ريح هنا ولا إعصار ، حتى تضرب مثل هذا المثل .. ولكنك تريد أن تقول إذا كنت قويًا فأنا أقوى منك .

إذن .. استخدمت فى هذا كلامًا يعطى المعنى دون أن تتقيد بالأشخاص ، ولا بالحالة نفسها .. ولا تتقيد بأن يكون ما قلته مِثْل - بكسر الميم - ما هو حادث فعلًا .. فليس هناك ريح ، ولا هناك إعصار حتى يكون التشبيه مماثلًا ومطابقًا لما تريد أن تقوله ، ولكنك استخدمت الفكرة المعروفة فى أن الإعصار أقوى من الريح .. وأقدر على مواجهتها لتدلل على المعنى الذى تريده .. وهو : أنك إذا كنت قويًا فقد لقيت من هو أقوى منك .

---

(١) ذكر أبو الفضل الميداني في مجمع الأمثال : الجزء الأول . الباب الأول فيما أوله همزة : إنْ كُنْتَ رِيحًا فَقَدْ لاقَيْتَ إِعْصارا

قال أبو عبيدة : الإعصار ريحٌ تهبّ شديدة فيما بين السماء والأرض . يضرب مثلا للمُدِلّ بنفسه إذا صُلِىَ بمن هو أدهى منه وأشدّ .

وفى لسان العرب : يضرب مثلًا للرجل يلقى قِرْنه في النَّجْدة والبسالة . والإِعْصارُ والعِصارُ : أَن تُهَيِّج الريح التراب فترفعه . والعِصَارُ : الغبار الشديد .

وهناك مثل آخر يقول : « قبل الرماء تملأ الكنائن »[1] .. ومعنى ذلك أنك قبل أن تصل إلى ميدان الحرب وتقاتل وتبدأ الرمى بالسهام .. لابد أن تكون معك كنانتك حاملها فوق ظهرك .. ولابد أن تكون قد ملأتها بالسهام .. وإلا لو ذهبت إلى الحرب وكنانتك خالية ، فلن تستطيع أن تقاتل .

فأنت تأتى إلى ابنك مثلًا الذى ظل طوال السنة يلعب ولا يذاكر ، ثم فى ليلة الامتحان يجلس طوال الليل محاولًا أن يستوعب ! فتقول له : « قبل الرماء تملأ الكنائن » .. أى : أنك لم تستعد طوال العام ، ولم تذاكر ، لذلك فإن كنانتك خالية ، فكيف تستطيع أن تذهب إلى الامتحان غدًا ؟! وكان عليك أن تستعد قبل دخول الامتحان .

والمثل هنا لا يرتبط بواقع الشىء .. فلا ابنك ذاهب للقتال .. ولا توجد سهام ولا كنائن .. بحيث يكون التشبيه مطابقًا للأحداث .. ولكنك لا تريد ذلك .. بل تريد أن تقرب المعنى أو أن تعبر عن المعنى ، بصرف النظر عن الواقع الحادث ، وبالتالى فإنك فى هذه الحالة تجعل السامع يفهم ما تريد .

وهكذا باقى الأمثال كلها ، لا تشبه شيئًا بشىء بعينه .. بل إن الدى تقوله من واقع أحداثه قد يكون مختلفًا عن الذى يحدث فعلا .. ولكنه يعطيك نفس المعنى ويقربه إلى عقلك ، ويجعلك تفهم وتعرف المراد منه .. وهناك مئات الأمثال التى نعرفها جميعًا مثل : « صرح المخض عن الزبد »[2] ، و « ما وراءك يا عصام »[3] .

---

(١) ذكره الميدانى فى مجمع الأمثال : [١٠١/٢] والعسكرى فى جمهرة الأمثال [١٢٢/٢] والزمخشرى فى المستقصى : [١٨٦/٢] .

(٢) ذكره الميدانى فى مجمع الأمثال الباب الرابع عشر فيما أوله صاد [٢١٤٤] وقال : يقال للأمر إذا انكشف وتبين .

(٣) فى مجمع الأمثال الجزء الثاني – الباب الرابع والعشرون فيما أوله ميم =

= وجدت الكلمات في الفصل : [٣٧٥٩] - ما وَرَاءك يَا عِصَام .
قَالَ المفضل : أولُ من قَالَ ذلك الحارث بن عمرو مَلِكُ كِنْدَةَ وذلك أنه لما بلغه جَمَالُ ابنة عَوْف بن مُحَلِّم الشَّيْبَاني وكمَالُها وقوة عَقْلها دعا امرأةً من كِنْدَة يُقَال لها : « عِصَام » ذاتَ عقل ولسان وأدَب وبَيَان وقَالَ لها : اذهبي حتى تعلمي لي عِلْم ابنَةِ عَوْف فمضَتْ حتى انتهت إلى أمها وهى أُمَامَةُ بنتُ الحارث فأعلمتها ما قدمَتْ له فأرسلت أُمامة إلى ابنتها وقَالَت : أي بنية هذه خالتُك أتَتْكِ لتنظر إليك فلاَ تستُرِي عنها شيئًا إن أرادت النظر من وجهٍ أو خلق ، وناطقيها إن استنطقتك ، فدخلت إليها فنظرت إلى ما لم تر قَطُّ مثله فخرجت من عندها وهي تقول : « ترك الخِدَاعَ مَنْ كَشَفَ القَناع » فأرسلتها مثلًا .
ثم انطلقت إلى الحارث فلما رآها مقبلة قَالَ لها : ما وراءك ياعصام ؟ قَالَت: صَرَّحَ المَحْضُ عن الزُّبْد ، رأيت جَبْهة كالمِرْآة المصقولة ، يزينها شعر حالك كأذناب الخيل ، إن أرْسَلَتْه خِلْته السلاَسل ، وإن مشطته قلت عناقيد جَلاَهَا الوابل . وحاجبين كأنما خُطَّا بقلم أو سُوِّدا بحمم تقوَّسا على مثل عَيْنٌ ظبية عَبْهَرَة [1]، بينهما أنف كحدِّ السيف الصَّنيع ، حَفَّتْ به وَجْنَتَان كالأرجُوان في بياض كالجُمَان ، شُقَّ فيه فم كالخاتم ، لذيذ المبتسم ، فيه ثَنَايا غُر ذات أشَر ، تقلَّبَ فيه لِسَان ذو فصاحة وبيان بعقل وافر وجواب حاضر ، تلتقي فيه شَفَتَان حَمْرَاوان تحلبان ريقًا كالشهد إذا دلك في رقبة بيضاء كالفضة ركبت في صَدر كصَدْر تمثال دُمْية ، وعَضُدان مُدْمَجَان يتصل بها ذراعان لَيس فيهما عظم يُمَسُّ ولاَ عرق يجس ، ركبت فيهما كفان دقيق قصبهما لين عَصَبُهُما تعقد إن شئت منهما الأنامل ، نتأ في ذلك الصدر ثَدْيان كالرمَّانتين يخرقان عليها ثيابها ، تحت ذلك بطن طُوِي طيَّ القَبَاطِيِّ المدمجة كسر عُكَنًا =

(١) العبهرة : هى الرقيقة البشرة الناصعة البياض ، وقيل : هى الممتلئة شدة وغلظا ، وقيل : هى المرأة العظيمة .

= كالقَرَاطيس المدرجة ، تُحِبطُ بتلك العكن سُرّة كالمُدْهُن المجلوّ ، خلف ذلك ظهر فيه كالجدول ينتهي إلى خصر ، لولاَ رحمة اللَّه لا نبتَرَ ، لها كفَلُ يُقْعدها إذا نهضَت وينهضها إذا قعدت كأنه دِعْصُ الرَّمْل لَبّده سقوط الطَّل ، يحمله فَخِذَانِ لُفًّا كأنما قلبا على نَضَد جُمَان ، تحتهما ساقان خَدْلَتَان بالبرديتين وُشِّيتا بشعر أسود كأنه حلق الزرد ، يحمل ذلك قَدَمَان كحذو اللسان ، فتبارك اللَّه مع صغرهما كيف تطيقان حمل ما فوقهما .

فأرسل الملك إلى أبيها فخطبها فزوجها إياه وبعث بصداقها فجهزت فلما أراد أن يحملوها إلى زوجها قَالَت لها أمها : أي بنية إن الوصية لو تُرِكت لِفَضلِ أدبٍ تُرِكت لذلك منك ولكنها تذكرة للغافل ومَعُونة للعاقل ولو أن امرأة استغنت عن الزوج لِغِنَي أبويها وشدَّة حاجتهما إليها كنتِ أغنى الناسِ عنه ولكن النساء للرجال خلقْنَ ولهن خلق الرجال . أي بنية إنك فَارقْتِ الجوَّ الذي منه خَرَجْتِ وخَلَّفْتِ العُشَّ الذي فيه دَرَجْتِ إلى وَكْر لم تعرفيه وقَرين لم تألفيه فأصبح بملكه عليك رقيبًا ومليكا ، فكوني له أَمَةً يكُنْ لك عبدًا وَشِيكا ، يا بنية احْمِلِي عنى عَشْرَ خِصَالٍ تكن لك ذُخْرًا وذِكْرًا : الصحبة بالقناعة ، والمعاشرة بحسن السمع والطاعة ، والتعهُّد لموقع عينه ، والتفقُّد لموضع أنفه ، فلاَ تَقَع عينُه منك على قبيح ، ولاَ يشم منك إلاَ طيبَ ريح ، والكحلُ أحسنُ الحسن ، والماء أطيبُ الطيب المفقود ، والتعهد لوقت طعامه ، والهدو عنه عند منامه ، فإن حَرَارة الجوع مَلْهبة وتنغيص النوم مَبْغَضَة ، والاحتفاظ ببيته وماله والإرعاء على نفسه وحشمه وعياله فإن الاحتفاظ بالمال حسن التقدير ، والإرعاء على العيال والحشم جميل حسن التدبير ، ولاَ تُفْشِي له سرًا ولاَ تعصي له أمرًا فإنك إن أفشيتِ سِرَّه لم تأمني غَدْرَه ، وإن عصيت أمره أوغَرْتِ صَدْره ، ثم اتَّقِي مع ذلك الفرح إن كان تَرِحَا والاكتئاب عنده إن كان فَرِحَا ، فإن الخصلة الأولى : من التقصير ، والثانية : من التكدير ، وكوني أَشَدَّ ما تكونين له إعظامًا يكن أشد ما يكون لك إكراما ، وأشد =

إلى آخر هذه الأمثال التى نرددها كل يوم [1] .

= ما تكونين له موافقة يكن أطولَ ما تكونين له مرافقة ، واعلمي أنك لاَ تَصلِين إلى ما تحبين حتى تُؤْثِرِي رضاه على رضاك ، وهواه على هواك ، فيما أحببت وكرهت واللَّه يَخِيرُ لك . فحُملت فسُلِّمَت إليه فعَظُم مَوْقِعُها منه وولدت له الملوك السبعة الذين ملكوا بعده اليمن .

وروى أبو عبيد « ما وَرَاءَكَ » على التذكير وقَالَ : يُقَال : إن المتكلم به النابغة الذُبْيَاني قَالَه : لعصام بن شهبر حاجب النعمان وكان مريضًا وقد أُرْجِفَ بموته فسأله النابغة عن حال النعمان فَقَالَ : ما وراءك يا عصام ؟ ومعناه ما خَلْفَكَ من أمر العليل أو ما أمامك من حاله .

ووَرَاء : من الأضداد . قلت : يجوز أن يكون أصل المثل ما ذكرت ثم اتفق الاسمان فخُوطِبَ كلٌّ بما استحق من التذكير والتأنيث .

(١) جاء فى أبجد العلوم المجلد الثاني : باب الألف : علم الأمثال : قال : هذا من فروع علم اللغة وهو : معرفة الألفاظ الصادرة عن البليغ المشتهرة بين الأقوام بخصوص ألفاظها وهيئاتها وموردها وسبب ورودها وقائلها وزمانها ومكانها لئلا يقع الغلط عند استعمالاتها في مضاربها وهي: المواضع والمقامات المشبهة بمواردها ولا بد لمعاني تلك الألفاظ المذكورة من حيث ورودها في مواردها مضاربها بالنوع . ومباديه مقدمات حاصلة بالتواتر من ألفاظ الثقات وأما غرضه ومنفعته : فغنيان عن البيان فإن الأمثال أشد ما يحتاج إليه المنشئ والشاعر ؛ لأنها تكسو الكلام حلة التزيين وترقيه أعلى درجات التحسين . ومن الكتب النافعة فيه : كتاب لابن الأنباري ومنها : « المستقصى في الأمثال » للزمخشري ومنها : « مجمع الأمثال » للاسفراييني وهو كتاب عظيم جامع وقلت : ومنها كتاب : « الأمثال » للميداني وهو أجمع ما جمع فيه . قال في « كشف الظنون » : علم الأمثال : يعني ضروبها . قال الميداني : إن عقود الأمثال يحكم بأنها عديمة أشباه وأمثال ، تتحلى بفرائدها صدور المحافل =

(١) والمحاضر ، ويتسلى بفوائدها قلب البادي والحاضر ، وتفيدوا بها في بطون الدفاتر والصحائف ، وتطير نواهضها في رؤوس الشواهق وظهور المنائف ، ويحتاج الخطيب والشاعر إلى إدماجها وإدراجها لاشتمالها على أساليب الحسن والجمال وكفى جلالة قدرها أن كتاب الله سبحانه وتعالى لم يعر من وشاحها ، وإن كلام نبيه صلى الله عليه وسلم لم يخل في إيراده وإصداره من مثل يحوز قصب السبق في حلبة الإيجاز وأمثال التنزيل كثيرة .

وأما الكلام النبوي من هذا الفن فقد صنف العسكري فيه كتابًا برأسه من أوله إلى آخره ومن المعلوم أن الأدب سلم إلى معرفة العلوم به يتوصل إلى الوقوف عليها ومن يتوقع الوصول إليها غير أن له مسالك ومدارج ولتحصيله مراقٍ ومعارج وإن أعلى تلك المراقي وأقصاها وأوعر تلك المسائل أعصاها هذه الأمثال الواردة كل مرتضع در الفصاحة يافعا ووليدا فينطق بما يعبر عنها حشوا في ارتقاء معارج البلاغة . ولهذا السبب خفي أثرها وظهر أقلها ومن حام حول حماها علم أن دون الوصول إليها أحرق من خرط القتاد وأن لا وقوف عليها إلا للكامل المعتاد كالسلف الماضين الذي نظموا من شملها ما تشتت وجمعوا من أمرها ما تفرق فلم يبقوا في قوس الإحسان منزعا . أ هـ

وقال الشيخ أحمد طاحون : الأمثال من أفضل السبل للتربية ، وتقويم المسالك ، وإصلاح النفوس ، وصقل الضمائر ، وتهذيب الأخلاق ، وتنمية الفضائل السامية وقد ضربت الأمثال فى القرآن لبيان ضلال المنافقين ، وزيغ الملحدين ، وفساد معتقدات المشركين . كما عنيت الأمثال بإقامة الحجج على وجود الله عز وجل ووحدانيته ، وكمال صفاته ، وسوق البراهين على أن البعث للحساب والجزاء آتٍ لا ريب فيه ، كما أنها تقرب المعانى بما يعرفه الناس ، ثم هى : لون من ألوان الهداية الإلهية تحضُّ النفوس على البر وتغريها بالهدى والخير ، أو تمنعها من الإثم والسوء . والغاية هى إعداد النفوس لليوم الآخر ، وتهيئتها لأن تكون أهلًا لرحمة الله فى الحياة الأبدية .

أمثال ونماذج بشرية من القرآن الكريم [١/٥-١٠] بتصرف .

عـودة الـروح

السـؤال : **كيف السـبيل إلى إعـادة بعث الـروح فى المجتمع الإسلامى ؟**

الجواب : قال الإمام مالك رضى اللّٰه تعالى عنه : « لا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها [1] » ، ولننظر ماذا أصلح أول هذه الأمة .. لا شك أنها العقيدة .. تأصلت أولًا ورسخت فى القلوب .. فإذا تأصلت العقيدة ورسخت فى القلوب .. هانت النفوس والأموال .

وعندما يكون المؤمن ثابت العقيدة يعلم أنه أمام إحدى الحسنيين : إما النصر وإقامة شريعة اللّٰه ، وإما الشهادة والفوز برضا اللّٰه تعالى ودخول الجنة .

إذن .. فالإيمان لا يصح إلا بعقيدة سليمة ، ولا يقوم مجتمع مؤمن إلا على عقيدة سليمة .

ولنتأمل قول زيد بن الدثنة رضى اللّٰه تعالى عنه صاحب رسول اللّٰه صلى اللّٰه عليه وسلم .. عندما قدمه المشركون للقتل ، قالوا له : أتحب أن تكون فى أهلك ومحمد مكانك ؟ .. فقال : واللّٰه ما أحب أن أكون فى أهلى ومحمد صلى اللّٰه عليه وسلم تصيبه شوكة وهو فى موضعه [2] .

---

(١) ذكر الإمام أبو إسحاق الشاطبى فى كتابه « الاعتصام » هذه الكلمات التى تستحق أن تكتب بماء الذهب حقًّا ؛ وذلك لأنها وضعت الخطة والمنهج الذى يجب على المسلمين إذ قال : « من أحدث فى هذه الأمة شيئًا لم يكن عليه سلفها فقد زعم أن محمدًا خان الرسالة ؛ لأن اللّٰه تعالى يقول : ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾ [المائدة : ٣] .

(٢) ذكر ابن إسحاق فى السيرة النبوية [١٢٦/٤] : وأما زيد بن الدثنة فابتاعه صفوان بن أمية ليقتله بأبيه أمية بن خلف وبعث به صفوان بن أمية مع مولى =

= له يقال له نسطاس إلى التنعيم وأخرجوه من الحرم ليقتلوه . واجتمع رهط من قريش فيهم أبو سفيان بن حرب فقال له أبو سفيان حين قدم ليقتل : أنشدك اللَّه يا زيد أتحب أن محمدا عندنا الآن في مكانك نضرب عنقه وأنك في أهلك قال : واللَّه ما أحب أن محمدا الآن في مكانه الذي هو فيه تصيبه شوكة تؤذيه وأني جالس في أهلي . قال : يقول أبو سفيان : ما رأيت من الناس أحدا يحب أحدا كحب أصحاب محمدٍ محمدا ثم قتله نِسطاس .

وروى البخارى [٣٠٤٥] عن أبى هريرة رضى اللَّه تعالى عنه قال : بعث رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم عشرة رهط سرية عينا وأمَّر عليهم عاصم بن ثابت الأنصاري – جد عاصم بن عمر بن الخطاب – فانطلقوا ، حتى إذا كانوا بالهداة – وهو بين عسفان ومكة – ذكروا لحي من هذيل يقال لهم بنو لحيان ، فنفروا لهم قريبا من مائتي رجل كلهم رام ، فاقتصوا آثارهم حتى وجدوا مأكلهم تمرا تزودوه من المدينة فقالوا : هذا تمر يثرب فاقتصوا آثارهم فلما رآهم عاصم وأصحابه لجأوا إلى فدفد وأحاط بهم القوم فقالوا لهم : انزلوا وأعطونا بأيديكم ولكم العهد والميثاق ولا نقتل منكم أحدا . قال عاصم بن ثابت أمير السرية : أما أنا فواللَّه لا أنزل اليوم في ذمة كافر ، اللَّهم أخبر عنا نبيك فرموهم بالنبل فقتلوا عاصما في سبعة . فنزل إليهم ثلاثة رهط بالعهد والميثاق منهم خبيب الأنصاري وابن دثنة ورجل آخر ، فلما استمكنوا منهم أطلقوا أوتار قسيهم فأوثقوهم فقال الرجل الثالث : هذا أول الغدر ، واللَّه لا أصحبكم إن لى في هؤلاء لأسوة – يريد القتلى – وجرروه وعالجوه على أن يصحبهم فأبى فقتلوه فانطلقوا بخبيب وابن دثنة حتى باعوهما بمكة بعد وقيعة بدر فابتاع خبيبا بنو الحارث بن عامر بن نوفل بن عبد مناف وكان خبيب هو قتل الحارث بن عامر يوم بدر ، فلبث خبيب عندهم أسيرا فأخبرني عبيد اللَّه بن عياض أن بنت الحارث أخبرته أنهم حين اجتمعوا استعار منها موسى يستحد به فأعارته فأخذ ابنا لي وأنا غافلة =

إذن .. حينما ترسخ العقيدة فى النفوس تهون كل التضحيات .

ولننظر إلى أثر التربية والعقيدة فى النفوس ، فهذا رسول اللَّه ﷺ لم يعمل سجنًا يسجن فيه المخالفين ، ولـمَّا تخلف عنه فى غزوة تبوك ثلاثه نفر لم يسجنهم ، ولكنه عزل الناس عنهم .. وهم طلقاء فى المجتمع .. فلم يكلمهم أحد .. ولم يعاملهم أحد .. ولم يقترب أحد حتى أقاربهم ، وروى أن الرسول صلى اللَّه عليه وسلم أمرهم ألا يقربوا نساءهم ، وبذا عزلهم حتى عن أقرب الناس إليهم ، فضاقت عليهم الأرض بما رحبت .. وضاقت عليهم أنفسهم وتيقنوا أنه لا ملجأ لهم من اللَّه إلا إليه ، حينئذٍ تاب اللَّه عليهم (1) .

= حين أتاه قالت : فوجدته مجلسه على فخذه والموسى بيده ففزعت فزعة عرفها خبيب في وجهي فقال : تخشين أن أقتله ؟ ما كنت لأفعل ذلك . واللَّه ما رأيت أسيرا قط خيرا من خبيب ، واللَّه لقد وجدته يوما يأكل من قطف عنب في يده وإنه لموثق في الحديد وما بمكة من ثمر . وكانت تقول : إنه لرزق من اللَّه رزقه خبيبا فلما خرجوا من الحرم ليقتلوه في الحل قال لهم خبيب : ذروني أركع ركعتين . ثم قال : لولا أن تظنوا أن ما بي جزع لطولتها اللَّهم أحصهم عددا واقتلهم بددا ولا تبق منهم أحدا ثم أنشأ يقول :

ولست أبالي حين أقتل مسلما ... على أي شق كان لله مصرعي
وذلك في ذات الإله وإن يشأ ... يبـارك على أوصـال شلو ممزع

فقتله ابن الحارث ، فكان خبيب هو أول من سن الركعتين لكل امرئ مسلم قتل صبرا . فاستجاب اللَّه لعاصم بن ثابت يوم أصيب ، فأخبر النبي صلى اللَّه عليه وسلم أصحابه خبرهم وما أصيبوا ، وبعث ناس من كفار قريش إلى عاصم حين حدثوا أنه قتل ليؤتوا بشيء منه يعرف ، وكان قد قتل رجلا من عظمائهم يوم بدر ، فبعث على عاصم مثل الظلة من الدبر فحمته من رسولهم فلم يقدروا على أن يقطعوا من لحمه شيئا .

(1) روى البخارى [٤٤١٨] ومسلم [٥٣/٢٧٦٩] عن كعب بن مالك رضى اللَّه تعالى عنه قال : لم أتخلف عن رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم في =

= غزوة غزاها إلا في غزوة تبوك ، غير أني كنت تخلفت في غزوة بدر ، ولم يعاتب أحدا تخلف عنها ، إنما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم يريد عير قريش حتى جمع الله بينهم وبين عدوهم على غير ميعاد ، ولقد شهدت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة العقبة حين تواثقنا على الإسلام ، وما أحب أن لي بها مشهد بدر وإن كانت بدر أذكر في الناس منها ،كان من خبري : أني لم أكن قط أقوى ولا أيسر حين تخلفت عنه في تلك الغزاة والله ما اجتمعت عندي قبله راحلتان قط حتى جمعتهما في تلك الغزوة ولم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم يريد غزوة إلا ورى بغيرها حتى كانت تلك الغزوة غزاها رسول الله صلى الله عليه وسلم في حر شديد واستقبل سفرا بعيدا ومفازا وعدوا كثيرا فجلى للمسلمين أمرهم ليتأهبوا أهبة غزوهم فأخبرهم بوجهه الذي يريد والمسلمون مع رسول الله صلى الله عليه وسلم كثير ولا يجمعهم كتاب حافظ يريد الديوان . قال كعب : فما رجل يريد أن يتغيب إلا ظن أن سيخفى له ، ما لم ينزل فيه وحي الله ، وغزا رسول الله صلى الله عليه وسلم تلك الغزوة حين طابت الثمار والظلال ، وتجهز رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمون معه ، فطفقت أغدو لكي أتجهز معهم ، فأرجع ولم أقض شيئا ، فأقول في نفسي : أنا قادر عليه فلم يزل يتمادى بي حتى اشتد بالناس الجد فأصبح رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمون معه ، ولم أقض من جهازي شيئا فقلت أتجهز بعده بيوم أو يومين ثم ألحقهم ، فغدوت بعد أن فصلوا لأتجهز فرجعت ولم أقض شيئا ثم غدوت ثم رجعت ولم أقض شيئا ، فلم يزل بي حتى أسرعوا وتفارط الغزو ، وهممت أن أرتحل فأدركهم ، وليتني فعلت ، فلم يقدر لي ذلك فكنت إذا خرجت في الناس بعد خروج رسول الله صلى الله عليه وسلم فطفت فيهم أحزنني أني لا أرى إلا رجلا مغموصا عليه النفاق ، أو رجلا ممن عذر الله =

= من الضعفاء ولم يذكرني رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم حتى بلغ تبوك فقال وهو جالس في القوم بتبوك : « ما فعل كعب » . فقال رجل من بني سلمة: يا رسول اللَّه حبسه برداه ونظره في عطفيه . فقال معاذ بن جبل: بئس ما قلت واللَّه يا رسول اللَّه ما علمنا عليه إلا خيرا . فسكت رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم . قال كعب بن مالك: فلما بلغني أنه توجه قافلا حضرني همي وطفقت أتذكر الكذب وأقول: بماذا أخرج من سخطه غدا واستعنت على ذلك بكل ذي رأي من أهلي فلما قيل: إن رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم قد أظل قادما زاح عني الباطل ، وعرفت أني لن أخرج منه أبدا بشيء فيه كذب ، فأجمعت صدقه وأصبح رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم قادما وكان إذا قدم من سفر بدأ بالمسجد ، فيركع فيه ركعتين ، ثم جلس للناس فلما فعل ذلك جاءه المخلفون ، فطفقوا يعتذرون إليه ويحلفون له ، وكانوا بضعة وثمانين رجلا ، فقبل منهم رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم علانيتهم وبايعهم واستغفر لهم ووكل سرائرهم إلى اللَّه فجئته فلما سلمت عليه تبسَّم تبسُّم المغضب ، ثم قال : « تعال » . فجئت أمشي حتى جلست بين يديه فقال لي : « ما خلفك ألم تكن قد ابتعت ظهرك » . فقلت : بلى إني واللَّه - يا رسول اللَّه - لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا لرأيت أن سأخرج من سخطه بعذر ولقد أعطيت جدلا ، ولكني واللَّه لقد علمت لئن حدثتك اليوم حديث كذب ترضى به عني ليوشكن اللَّه أن يسخطك علي ولئن حدثتك حديث صدق تجد علي فيه إني لأرجو فيه عفو اللَّه لا واللَّه ما كان لي من عذر ، واللَّه ما كنت قط أقوى ولا أيسر مني حين تخلفت عنك . فقال رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم : « أما هذا فقد صدق ، فقم حتى يقضي اللَّه فيك » . فقمت وثار رجال من بني سلمة فاتبعوني فقالوا لي : واللَّه ما علمناك كنت أذنبت ذنبا قبل هذا ، ولقد عجزت أن لا تكون اعتذرت إلى رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم بما اعتذر إليه المتخلفون ، قد =

= كان كافيك ذنبك استغفار رسول اللّٰه صلى اللّٰه عليه وسلم لك . فواللّٰه ما زالوا يؤنبونني حتى أردت أن أرجع فأكذب نفسي ثم قلت لهم: هل لقي هذا معي أحد ؟ قالوا : نعم ، رجلان قالا مثل ما قلت ، فقيل لهما مثل ما قيل لك فقلت : من هما ؟ قالوا : مرارة بن الربيع العمري وهلال بن أمية الواقفي فذكروا لي رجلين صالحين قد شهدا بدرا فيهما أسوة فمضيت حين ذكروهما لي ، ونهى رسول اللّٰه صلى اللّٰه عليه وسلم المسلمين عن كلامنا أيها الثلاثة من بين من تخلف عنه فاجتنبنا الناس وتغيروا لنا حتى تنكرت في نفسي الأرض فما هي التي أعرف فلبثنا على ذلك خمسين ليلة فأما صاحباي فاستكانا وقعدا في بيوتهما يبكيان وأما أنا فكنت أشب القوم وأجلدهم فكنت أخرج فأشهد الصلاة مع المسلمين وأطوف في الأسواق ولا يكلمني أحد وآتي رسول اللّٰه صلى اللّٰه عليه وسلم فأسلم عليه وهو في مجلسه بعد الصلاة فأقول في نفسي : هل حرك شفتيه برد السلام علي أم لا ؟ ثم أصلي قريبا منه ، فأسارقه النظر ، فإذا أقبلت على صلاتي أقبل إلي ، وإذا التفت نحوه أعرض عني ، حتى إذا طال علي ذلك من جفوة الناس ، مشيت حتى تسورت جدار حائط أبي قتادة ، وهو ابن عمي وأحب الناس إلي ، فسلمت عليه ، فواللّٰه ما رد علي السلام فقلت : يا أبا قتادة أنشدك باللّٰه هل تعلمني أحب اللّٰه ورسوله ؟ فسكت ، فعدت له فنشدته ، فسكت ، فعدت له فنشدته ، فقال : اللّٰه ورسوله أعلم ، ففاضت عيناي وتوليت حتى تسورت الجدار .

قال : فبينا أنا أمشي بسوق المدينة ، إذا نبطي من أنباط أهل الشام ممن قدم بالطعام يبيعه بالمدينة ، يقول : من يدل على كعب بن مالك فطفق الناس يشيرون له ، حتى إذا جاءني دفع إلي كتابا من ملك غسان ، فإذا فيه : أما بعد فإنه قد بلغني أن صاحبك قد جفاك ، ولم يجعلك اللّٰه بدار هوان ولا مضيعة ، فالحق بنا نواسك . فقلت لما قرأتها : وهذا أيضا من البلاء ، فتيممت بها التنور فسجرته بها ، حتى إذا مضت أربعون ليلة من الخمسين ، إذا رسولُ رسولِ اللّٰه =

= صلى اللّٰه عليه وسلم يأتيني فقال : إن رسول اللّٰه صلى اللّٰه عليه وسلم يأمرك أن تعتزل امرأتك ، فقلت : أطلقها أم ماذا أفعل ؟ قال : لا بل اعتزلها ولا تقربها . وأرسل إلى صاحبي مثل ذلك فقلت لامرأتي : الحقي بأهلك ، فتكوني عندهم حتى يقضي اللّٰه في هذا الأمر .

قال كعب : فجاءت امرأة هلال بن أمية رسول اللّٰه صلى اللّٰه عليه وسلم فقالت : يا رسول اللّٰه إن هلال بن أمية شيخ ضائع ليس له خادم ، فهل تكره أن أخدمه ؟ قال : « لا ولكن لا يقربك » . قالت : إنه واللّٰه ما به حركة إلى شيء ، واللّٰه ما زال يبكي منذ كان من أمره ما كان إلى يومه هذا . فقال لي بعض أهلي : لو استأذنت رسول اللّٰه صلى اللّٰه عليه وسلم في امرأتك ، كما أذن لامرأة هلال بن أميه أن تخدمه ؟ فقلت : واللّٰه لا أستأذن فيها رسول اللّٰه صلى اللّٰه عليه وسلم ، وما يدريني ما يقول رسول اللّٰه صلى اللّٰه عليه وسلم إذا استأذنته فيها ، وأنا رجل شابٌ ؟ فلبثت بعد ذلك عشر ليال حتى كملت لنا خمسون ليلة من حين نهى رسول اللّٰه صلى اللّٰه عليه وسلم عن كلامنا ، فلما صليت صلاة الفجر صبح خمسين ليلة ، وأنا على ظهر بيت من بيوتنا ، فبينا أنا جالس على الحال التي ذكر اللّٰه قد ضاقت علي نفسي ، وضاقت علي الأرض بما رحبت ، سمعت صوت صارخ أوفى على جبل سلع بأعلى صوته : يا كعب بن مالك أبشر ، قال : فخررت ساجدا ، وعرفت أن قد جاء فرج ، وآذن رسول اللّٰه صلى اللّٰه عليه وسلم بتوبة اللّٰه علينا حين صلى صلاة الفجر ، فذهب الناس يبشروننا ، وذهب قبل صاحبي مبشرون ، وركض إلي رجل فرسا ، وسعى ساع من أسلم ، فأوفى على الجبل ، وكان الصوت أسرع من الفرس ، فلما جاءني الذي سمعت صوته يبشرني نزعت له ثوبي ، فكسوته إياهما ببشراه ، واللّٰه ما أملك غيرهما يومئذ ، واستعرت ثوبين فلبستهما ، وانطلقت إلى رسول اللّٰه صلى اللّٰه عليه وسلم فيتلقاني الناس فوجا فوجا =

= يهنونني بالتوبة يقولون : لتهنك توبة اللّه عليك قال كعب : حتى دخلت المسجد ، فإذا رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم جالس حوله الناس ، فقام إلى طلحة بن عبيد اللّه يهرول حتى صافحني وهنأني ، واللّه ما قام إلي رجل من المهاجرين غيره ، ولا أنساها لطلحة ، قال كعب : فلما سلمت على رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ، قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم وهو يبرق وجهه من السرور : « أبشر بخير يوم مر عليك منذ ولدتك أمك » . قال : قلت : أمن عندك يا رسول اللّه ، أم من عند اللّه ؟ قال : « لا بل من عند اللّه » . وكان رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم إذا سر استنار وجهه حتى كأنه قطعة قمر ، وكنا نعرف ذلك منه ، فلما جلست بين يديه قلت : يا رسول اللّه إن من توبتي أن أنخلع من مالي صدقة إلى اللّه وإلى رسول اللّه قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : « أمسك عليك بعض مالك فهو خير لك » . قلت : فإني أمسك سهمي الذي بخيبر فقلت : يا رسول اللّه إن اللّه إنما نجاني بالصدق ، وإن من توبتي أن لا أحدث إلا صدقا مالقيت . فواللّه ما أعلم أحدا من المسلمين أبلاه اللّه في صدق الحديث منذ ذكرت ذلك لرسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم أحسن مما أبلاني ما تعمدت منذ ذكرت ذلك لرسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم إلى يومي هذا كذبا وإني لأرجو أن يحفظني اللّه فيما بقيت . وأنزل اللّه على رسوله صلى اللّه عليه وسلم : ﴿ لَقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ – إلى قوله – وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ [التوبة : ١١٧-١١٩] . فواللّه ما أنعم اللّه علي من نعمة قط بعد أن هداني للإسلام أعظم في نفسي من صدقي لرسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم أن لا أكون كذبته فأهلك كما هلك الذين كذبوا فإن اللّه قال للذين كذبوا – حين أنزل الوحي – شر ما قال لأحدٍ فقال تبارك وتعالى : ﴿ سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ ﴾ [التوبة : ٩٥] – إلى قوله – ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ [التوبة : ٩٦] . =

إذن .. كان المسلم فى نفسه وحدة جزائية ، يعمل الذنب ولا يعلم به أحد إلا اللّه ، فيأتى ويربط نفسه إلى سارية المسجد ولا يتركها حتى يتوب اللّه عليه ، ويفكه رسوله صلى اللّه عليه وسلم .. هذا ما فعله أبو لبابة ورفاقه ممن تخلفوا [1] .

= قال كعب : وكنا تخلفنا أيها الثلاثة عن أمر أولئك الذين قبل منهم رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم حين حلفوا له فبايعهم واستغفر لهم ، وأرجأ رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم أمرنا حتى قضى اللّه فيه فبذلك قال اللّه : ﴿ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ ﴾ [التوبة : ١١٨] . وليس الذي ذكر اللّه مما خلفنا عن الغزو إنما هو تخليفه إيانا ، وإرجاؤه أمرنا ، عمن حلف له واعتذر إليه فقبل منه .

(١) روى ابن جرير عن ابن عباس رضى اللّه تعالى عنهما فى تأويل قوله تعالى : ﴿ وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا ﴾ [التوبة : ١٠٢] .
قال : كانوا عشرة رهط تخلفوا عن النبي صلى اللّه عليه وسلم في غزوة تبوك فلما حضر رجوع النبي صلى اللّه عليه وسلم أوثق سبعة منهم أنفسهم بسواري المسجد وكان ممر النبي صلى اللّه عليه وسلم إذا رجع في المسجد عليهم فلما رآهم قال : « من هؤلاء الموثقون أنفسهم بالسواري » قالوا : هذا أبو لبابة وأصحاب له تخلفوا عنك يا رسول اللّه حتى تطلقهم وتعذرهم . فقال النبي عليه الصلاة والسلام : « وأنا أقسم باللّه لا أطلقهم ولا أعذرهم حتى يكون اللّه هو الذي يطلقهم ! رغبوا عني وتخلفوا عن الغزو مع المسلمين » فلما بلغهم ذلك قالوا: ونحن لا نطلق أنفسنا حتى يكون اللّه الذي يطلقنا ! فأنزل اللّه تبارك وتعالى : ﴿ وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ﴾ [التوبة : ١٠٢] وعسى من اللّه واجب . فلما نزلت أرسل إليهم النبي صلى اللّه عليه وسلم فأطلقهم وعذرهم .
وقال الأرناؤوط فى زاد المعاد : إسناده ضعيف ، لضعف عبد اللّه بن صالح وعلى بن أبى طلحة روايته عن ابن عباس مرسلة .

إذن .. فالعقيدة الراسخة فى النفوس هى أساس الإصلاح .. وصاحب العقيدة إذا تعرض لاضطهاد أو حيف .. دخل عليه وهو واثق أنه رابح ؛ لأنه مبشر إحدى الحسنيين : « النصر أو الشهادة » وزيادة على ذلك فهو يعتقد أن اللّٰه معه إذا صبر وصابر .

○○○

واقع المسلمين الآن

السؤال : **كيف يرى فضيلة الإمام أحوال الأمة الإسلامية وما يحدث الآن لها ؟**

الجواب : اللَّه تبارك وتعالى لم يجعل للكافرين على المؤمنين سبيلًا . فإذا وجد سبيل للكافرين على المؤمنين فاعلم أن هناك خللاً قد وقع .. اللَّه سبحانه وتعالى قال : ﴿ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴾ [الصافات : ١٧٣] . فإذا رأيت جنود المسلمين قد هُزموا فاعلم أنهم فقدوا شرطًا من شروط الجندية التى وعدها اللَّه بالنصر ، بسبب تفريطهم فى شىء من دين اللَّه أو تركهم لأمر من أوامره سبحانه ، ففى غزوة أُحُد خالف المسلمون أمر الرسول صلى اللَّه عليه وسلم فهزموا .

إذن .. فالمسلمون يهزمون لمخالفتهم أوامر اللَّه ورسوله [١] .

---

(١) فكأن اللَّه تعالى جعل من هذه المعركة - معركة أُحد - تأديبا لصحابة رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم والتأكيد على صدق بلاغه صلى اللَّه عليه وسلم عن اللَّه تعالى .

ولذلك حين نطالع سيرة المعارك التى جاءت بعد هذه المعركة ، فإننا لا نجد هزيمة لهم فى معركة أبدًا ؛ لأنهم صفوا التصفية وربُّوا التربية التى جعلت كل واحد منهم متيقنًا بنجاح الصفقة التى عقدوها مع اللَّه ساعة أن اشترى سبحانه منهم أنفسهم بأن لهم الجنة لذلك دخل كل مؤمن منهم المعارك وهو مقبل بحب على إحدى الحسنيين ، إما النصر ، وإما الشهادة ، فجاءت كل المعارك بعد أُحد نصرًا . وهنا يعلمنا الحق أن البقاء على منهج اللَّه ورسوله صلى اللَّه عليه وسلم فيه النجاة وبه النصر .

=

....

○○○

= إن أول مخالفة حدثت – فى معركة أُحد – ولها أثرها فى عدم إتمام النصر هى مخالفة بعض المسلمين لأمر رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم . لقد بدأ المسلمون الغزوة بالنصر ، ثم حدثت مخالفة من بعض الرماة عندما شاهدوا بشائر النصر واستهوتهم الغنائم .

إذن .. فدوافع المخالفة طلب المال من وجه غير مأذون لهم فيه .. لماذا ؟ لأن النبي صلى اللّه عليه وسلم حذرهم بالأمر ألا يبرحوا أماكنهم . وبذلك صارت مبارحتهم للمكان غير مشروعة . وتطلع النفس إلى شىء فى غير رضاء رسول اللّه هو غير مشروع . والذى جعلهم يتطلعون إلى الشىء غير المشروع هو المال . ولهذا أراد الحق أن يؤدبهم حتى لا يعصوا أمر رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم مرة أخرى . إن المسلمين لم يتم لهم النصر فى تلك الغزوة وتعبوا وشقوا . من أين جاء هذا التعب وهذا الشقاء ؟ لقد جاء التعب والشقاء من أن بعضًا من المسلمين قد طلبوا المال بالمخالفة لأمر رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم . وهذه هى المناسبة التى جاءت فيها آية الربا أثناء الحديث عن غزوة أُحد .

ولهذا فقد يتساءل واحد : هل من الممكن أن يتسبب الحرص الزائد فى المال بشكل غير مشروع أن يأتى بنتيجة كآثار غزوة أُحد من تعب وكد وعدم النصر ؟ وتكون الإجابة : بل وأشر من هذه الآثار .

ولمزيد من التفاصيل راجع كتاب : « غزوات الرسول صلى اللّه عليه وسلم » لفضيلة الشيخ الإمام محمد متولى الشعراوى وهو من منشوراتنا .

كيف يعود للأمة سابق مجدها ؟

السؤال : **كيف تستعيد الأمة مكانتها عند اللّه حتي يتنزل عليها نصره ؟**

الجواب : بأن يكونوا مسلمين .. فكل واحد ولايته أولًا على نفسه ثم الأقربون فالأقربون ، عندئذ يكون قد حَكَمَ نفسه ومن فى ولايته بمنهج اللّه .

إذن .. لو أن الدنيا كلها انحرفت ، احكم نفسك أنت ومن فى ولايتك بمنهج اللّه وما عليك بعد ذلك من لوم ، لكن كل واحد فينا يريد أن ينام وغيره هو الذى يعمل وينصر الإسلام (١) .

---

(١) روى أبو داود [٤٣٣٨] ، والترمذى [٢١٦٨] ، وأحمد فى المسند [١/٧] ، وابن حبان فى صحيحه [٣٠٤] عن قيس ، قال : قال أبو بكر الصديق رضى اللّه تعالى عنه بعد أن حمد اللّه : يا أيها الناس إنكم تقرأون هذه الآية : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡۚ ﴾ [المائدة : ١٠٥] وإنا سمعنا النبى صلى اللّه عليه وسلم يقول : إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمهم اللّه بعقاب ، وإنى سمعت رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم يقول : « ما من قوم يُعمل فيهم بالمعاصى يقدرون على أن يغيروا ثم لا يغيروا إلا يوشك أن يعمهم اللّه منه بعقاب .

وقال الشيخ أحمد شاكر فى المسند [١] : إسناده صحيح ، وقيس : هو ابن أبى حازم .

وأخرج مسلم [٢٠/١٨٢٩] عن ابن عمر رضى اللّه تعالى عنهما قال : إن النبى ﷺ قال : « ألا كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته ، فالأمير الذى على الناس راع ، وهو مسئول عن رعيته . والرجل راع على أهل بيته ، وهو مسئول عنهم . والمرأة راعية على بيت بعلها وولده ، وهى مسئولة عنهم . والعبد راع على مال سيده ، وهو مسئول عنه . ألا فكلكم راع . وكلكم مسئول عن رعيته » .

عمومية الرسالة

السؤال : **لماذا جاءت رسالة النبي صلى الله عليه وسلم لها عمومية المكان وعمومية الزمان ؟**

الجواب : الله سبحانه وتعالى سبق فى علمه أن داءات البشرية كلها ستصبح واحدة .. ذلك أن العالم كلما تقدم وازداد اتصاله .. توحدت الداءات التي يشكو منها .. فقبل رسالة النبى محمد صلى الله عليه وسلم ، كانت المجتمعات معزولة عن بعضها ، لا توجد اتصالات بين المجتمعات البشرية ، وكان كل مجتمع بشرى قد يبدأ وينتهى دون أن يدرى شيئًا عن أىّ مجتمع بشرى آخر فى مكان بعيد عنه ، ذلك أن الاتصالات بين المجتمعات البشرية المختلفة ، كانت شبه معدومة لبعد المسافة ، وضعف وسائل المواصلات أو انعدامها ، وعدم تقدم العلم الذى يمكن البشر من اتصال بعضهم ببعض فى أوقات قصيرة .. ومن هنا كان لكل مجتمع آفاته الخاصة .. وأمراضه .. وانحرافاته وغفلته عن الدين .. وكان الرسل والأنبياء يأتون إلى هذه المجتمعات ليذكروا بمنهج الله ، ولكنها كانت تُرسل إلى مجتمع بعينه كعاد وثمود ، وآل لوط ، وغيرهم .. بل كان يرسل الله سبحانه وتعالى أكثر من رسول فى نفس الوقت هذا ليعالج آفات مجتمع .. وآخر ليعالج مجتمعًا ثانيًا .. كما حدث مع نبى الله لوط وخليل الله إبراهيم عليهما السلام .

كان هناك انعزال .. وكان هذا الانعزال يجعل لكل مجتمع آفاته المختلفة عن آفات غيره ، وبالتالى تكون الأدواء مختلفة .. فيتم إرسال الرسل كل إلى مجتمع على حدة لتذكير أهله .

ولكن الآن وبعد أن التقى العالم وارتقى .. توحدت الداءات .. وأصبحت كلها حول دائرة واحدة .. يحدث شىء فى أمريكا فيصبح عندك على الفور

ومع هذه السرعة فى النقل والتقارب باتت الآفات فى العالم كله واحدة .. آفة البشرية واحدة فى البلاد المتقدمة .. وفى البلاد غير المتقدمة .. لأنه حدث التقاء بشرى .. وعندما يحدث الحادث يعرفه العالم كله فى الحال .

وما دامت الآفات قد توحدت نتيجة للاتصال البشرى الكبير والسريع الذى تم فلابد من وحدة المعالجة .. فأرسل الله تعالى رسوله محمدا صلى الله عليه وسلم بهذا الدين رحمة للعالمين (1) .

---

(1) روى ابن جرير وابن أبى حاتم وابن مردويه والطبرانى والبيهقى فى الدلائل ، عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما فى تأويل قوله تعالى : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الأنبياء : ١٠٧] . قال : من آمن تمت له الرحمة فى الدنيا والآخرة ، ومن لم يؤمن عوفى مما كان يصيب الأمم فى عاجل الدنيا من العذاب ، من المسخ والخسف والقذف .

وأخرج مسلم [٢٥٩٩/٨٧] ، عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه قال : قيل يا رسول الله ، ادع على المشركين . قال : « إنى لم أبعث لعانًا وإنما بعثت رحمة » .

وأخرج أبو نعيم فى الدلائل ، عن أبى أمامة رضى الله تعالى عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الله بعثنى رحمة للعالمين وهدى للمتقين » .

وأخرج أحمد [٤٣٧/٥] وأبو داود [٤٦٥٩] والطبرانى [٦١٥٦/٢٥٩/٦] ، عن سلمان رضى الله تعالى عنه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أيما رجل من أمتى سببته سبة فى غضبى أو لعنته لعنة ، فإنما أنا رجل من ولد آدم أغضب كما يغضبون ، وإنما بعثنى رحمة للعالمين ، فاجعلها صلاة عليه يوم القيامة ، وقال الألبانى : صحيح .

وروى الدارمى فى سننه [١٥/٢١/١] عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إنما أنا رحمة مهداة » . =

وقال اللَّه سبحانه وتعالى : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ ﴾ [(1)] .

[سبأ : ٢٨] .

○○○

= وأخرج عبد بن حميد ، وعكرمة رضى اللَّه تعالى عنه قال : قيل يا رسول اللَّه ألا تلعن قريشًا بما أتوا إليك ؟ فقال : « لم أبعث لعانًا إنما بعثت رحمة » يقول اللَّه تعالى : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ .

(١) قال اللَّه تعالى : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾ [سبأ] .

قال القرطبى قوله سبحانه وتعالى : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ ﴾ أى : وما أرسلناك إلا للناس كافة أى : عامة فى الكلام تقديم وتأخير . وقال الزجاج : أى : وما أرسلناك إلا جامعًا للناس بالإنذار والإبلاغ . والكافة بمعنى الجامع . وقيل معناه كافا للناس ، تكفهم عما هم فيه من الكفر وتدعوهم إلى الإسلام . والهاء للمبالغة . وقيل : أى : إلا ذا كافة ، فحذف المضاف ، أى ذا منع للناس من أن يشذوا عن تبليغك ، أو ذا منع لهم من الكفر ، ومنه : كف الثوب ، لأنه ضم طرفيه .

تفسير القرطبى [سبأ : ٢٨-٣٠] .

الحرية في الإسلام

السؤال : **ما هو مفهوم الحرية فى الإسلام ؟**

الجواب : أولًا : كلمة الحرية على إطلاقها ، أو كما يريد لها الغرب وأعوانه الآن تناقض مبدأ التدين .. لأن مبدأ التدين إلزام وقيود بمبادئ ومنهج .

والحرية على إطلاقها تعنى أنه ليس هناك التزام .. فالدين جاء لكى يُلغى كلمة الحرية ، بمعنى : ألا يعطيها لكل فرد على إطلاقها ، وإلا صارت الحياة فوضى بمعنى : إنك حر فى أن تفعل ما تريد ، وأنا حر فى أن أفعل ما أريد .. فمثلًا الرجل الذى قال : أنا حر فى أن أفرد يدى هكذا وفرد يديه على آخرها ، أقول له : ولكن حريتك تنتهى عند وجود وجهى . إذن .. فكلمة حرية لابد أن تحدد .

هل تبيح لنفسك أن تكون لك حرية وليس لمقابلك حرية ؟ لا .. لابد أن تكون له حرية أيضًا .. فعندما يكون لهذا حرية مطلقة ولهذا حرية مطلقة تختلط المسائل ؛ وتصير فوضى .

فالحرية إذن لابد أن تكون بما لا يتناقض مع حرية الآخرين ؛ لأن الحرية ليست لى وحدى ، وإنما للمجتمع كله أيضًا ، ولو أن المسألة أُخذت على إطلاقها لكان لصاحب القوة أن يفعل ما يشاء ، والضعيف ينتهى .

ولو حددت الحرية بأن تكون حرًا فيما لا يتعدى حدود الغير ، فلقد تقيدنا أنا وأنت . لكن من الذى قيدنا ؟ إن كان المقيِّد واحدا منا فتكون القوة قد فرضت .. إذن لابد أن يكون المقيِّد أعلى منى ومنك .

إذن .. التقييد للحرية لا يمكن أن ينبت من مساو أبدًا .. ولكن يكون التقييد ممن هو أعلى منى ومنك وليس له مصلحة فى إطلاق حركتك وعدم إطلاق حركتى ، والناس كلهم بالنسبة إليه سواء .

إذن .. فكلمة حرية على إطلاقها تنافى كلمة التدين ؛ لأن التدين ارتباط والتزام بمعنى : افعل كذا ولا تفعل كذا ، لكن المبدأ الأصيل الذى يدخلك فى الالتزام أنت حر فيه ، بمعنى أنت حر فى أن تؤمن بالله أو لا تؤمن به ، ولكن إذا آمنت بالله فالتزم بما أمر ، وانتهى عما نهى .

وعندما يقول الله تعالى : ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ ﴾ [البقرة : ٢٥٦] . فلا يعنى ذلك : لا إكراه فى تطبيق جزئيات الدين . ولكن لا إكراه فى أصل الدين .. فهل أقدر على إكراه أحد فى أن يعتقد بوجود الله ؟ كيف أكرهه على ذلك ؟ لا يمكن ؛ لأن الاعتقاد موضعه القلب ، والقلوب لا سلطان لأحد من البشر عليها .

إذن .. هو حر فى أن يؤمن أو لا يؤمن .. فإذا آمن يجب عليه أن يلتزم .. فعندما أقيم الحد مثلاً على مسلم ارتكب جريمة فيها حد شرعى فلا يقول لى : لا إكراه فى الدين ! ونقول له : لا . لأنك بإيمانك بالله وإيمانك برسول الله قد آمنت بالإسلام ، وإعلانك أنك مسلم ألزمك بمحض اختيارك .. وما دمت ملتزمًا بمحض اختيارك فنحن لا نحاسبك .. وإنما تحاسب أنت نفسك ؛ لأن الله قد جعل الحرية لنا ، وأعطاها إيانا فى أول الأمر .. وقال : يا عبدى أنت حر أن تؤمن أو لا تؤمن ، ولكن إذا آمنت بمحض حريتك واختيارك ، ترتب على ذلك التزام منك وتقييد لحركتك ، فتكون أنت الذى قيدت نفسك . لماذا ؟ لأنك دخلت فى المبدأ بمحض اختيارك وبحريتك ، فكل شيء يترتب على ذلك فهو من حريتك الأصلية ، ولا تقل لى : إننى قد قيدتك ، فلم أقيدك فى الأصل الذى ألزمك .

ولذلك عندما نقرأ قول الله تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ ﴾ [البقرة : ١٨٣] . نجد كلمة : ﴿ كُتِبَ ﴾ مبنية للمجهول كما يقولون . من الذى كتب ؟ طبعًا هو الله . فلماذا لم يقل : كتب ربكم عليكم الصيام ؟ كما قال : ﴿ كَتَبَ رَبُّكُمۡ عَلَىٰ نَفۡسِهِ ٱلرَّحۡمَةَۖ ﴾ [الأنعام : ٥٤] .

وكما فى قوله تعالى : ﴿ كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓ ﴾ [المجادلة : ٢١] .
فمن الذى كتب ؟ اللَّه تبارك وتعالى هو الذى كتب على من آمن . وما دام قد آمن أصبح شريكًا فى العقد الإيمانى بينه وبين ربه .

فكأن اللَّه تعالى يقول الكتابة منى ومنه وبإيمانه بى قد التزم .. لم أكتب على من لم يؤمن فكونه آمن فقد أدخل نفسه طرفًا فى العقد . فإذا التزم بالمبدأ لم يصبح حرًّا ، بل حريته تنقل فى أن يقول ما يشاءه ليطبق المنهج .. حر فى أن يقول لأحد عندما ينحرف : أنت منحرف .

إذن .. الحرية من ناحية خدمة المبدأ الذى التزمت به أنا وأنت .. حريتى وحريتك فى أن نعلن الانتصار لهذا المبدأ .

وهذه شائعة فى حكم الإسلام .. أنا حر فى أن أقول كلمة الحق فلا يجىء الحاكم ويكممنى .. أنا لا آخذ حرية ذاتية ، وإنما آخذ حرية الإرادة لما التزمت به أنا ، وهى حريتى فى أن أقوم أمام من يعارضنى فى تطبيق هذا المبدأ .. فلا يقال : إننى حر لأننى عبد للمبدأ ، بل واقف أمام من يخرج على المبدأ ، فهى مأخوذة كلها من الأصل . وعلى ولى الأمر أن يحمى هذه الحرية لتبصِّره بمدى زلله ، قد يكون غافلاً فيتنبه ، فمثلًا سيدنا عمر رضى اللَّه تعالى عنه قال : لا خير فيكم إذا لم تقولوها ، ولا خير فينا إذا لم نسمعها ، لماذا ؟ هل لأنها نبهته إلى شىء ؟ فعمر رضى اللَّه تعالى عنه لم يكن غافلاً ، وإنما أراد أن يعلّم الناس . يقول : لو أنى ملت برأسى هكذا . فيرد عليه : بالسيف مثلًا . فيقول له : إياى ؟ فيقول : نعم أنت . فيقول : الحمد للَّه الذى جعل فى أمة محمد من يقوم عمر بسيفه [١] ، يعلمنا أن الحاكم لا يجد غضاضة إن غفل يومًا أن ينبهه واحد من رعيته .

---

(١) جاء فى لسان العرب تحت مادة : « عدل » قال ابن منظور : وزعموا أن عمر ابن الخطاب رضى اللَّه تعالى عنه قال : الحمد للَّه الذى جعلنى فى قوم إذا ملت عدلونى كما يعدل الهم فى الثقاف . أى : عدلونى .

إن وجود هذه الحرية نابع من الالتزام الإيمانى .. أى : حرية فى إطار التزام التقيد بالمبدأ ، والدين الذى آمنت به .. وعلى هذا فإن كلمة الحرية على إطلاقها لا توجد فى الدين أبدًا .

○ ○ ○

معنى كلمة : إســلام

السؤال : **ما معنى كلمة « إسلام » ؟**

الجواب : إذا نظرنا إلى كلمة « إسلام » وجدناها قد جاءت وصفًا ، وعلمًا . والشيء إذا كان وصفًا يظل يحمل معناه . لكن إذا كان علمًا ، فإنه يأخذ معناه وأكثر من معناه .. ولنأخذ مثلًا يدل على ذلك :

إذا قال أحدنا لآخر : « هل رأيت القمر » ؟ فإن المستمع ينصرف ذهنه إلى الكوكب الفضى المضيء الذى يضيء ليل الأرض ، ويأخذ ضوءه من الشمس . ولكن إذا سمَّى رجل منا ابنته « قمر » فهل معنى القمرية يظل موجودًا فى هذه الفتاة ؟ لا .. لأنها قد تكون غير جميلة ، ولكن والدها سماها « قمرًا » تمامًا كما قد يكون هناك إنسان شقى فى حياته ، رغم أن والده أسماه « سعيد » .

قال اللّه تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ﴾ [آل عمران : ١٩] . ومعنى ذلك أن هناك ديناً لغير اللّه ، ولكنه ليس ديناً عند اللّه ، إن الدين المعترف به عند اللّه تعالى هو الإسلام .

وكلمة إسلام مأخوذة من مادة الـ : « س » و « ل » و « م » ، ومادة الكلمة لها معنى يدور فى كل اشتقاقاتها وينتهى عند السلامة من الفساد ، وينتهى أيضاً إلى الصلح بين الإنسان ونفسه ، وبين الإنسان وربه ، وبين الإنسان والكون ، وبين الإنسان وإخوانه .

إذن .. فالإسلام معناه الخضوع والاستسلام بعزة وفهم .. وعزة وتعقل (١) .

---

(١) قال الراغب الأصفهانى : استسلام للّه فى جميع ما قضى وقدر كما ذُكر عن إبراهيم الخليل عليه السلام فى قوله : ﴿ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [البقرة : ١٣١] وقول اللّه سبحانه وتعالى : ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ﴾ [آل عمران : ١٩] وقوله تعالى : ﴿ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا ﴾ [يوسف : ١٠١] أى : اجعلنى ممن استسلم لرضاك .

الإسلام .. يمين أم يسار ؟

السؤال : **هل الإسـلام يمين أم يسار ؟ وإلى أى المذاهب يمكن أن نعتبر الإسلام أقرب ؟**

الجواب : إن كلمة يمين وكلمة يسار كلمات اصطلاحية . وكلمة يمين تعنى : أنه فى المجالس عندما تناقش سياسة الحكومة نجد المؤيدين للحكومة يجلسون إلى اليمين ، والمعارضين يجلسون إلى اليسار ، فأصبحت كلمة اليسار تعنى المعارضة لمبدأ الحاكم . وكلمة اليمين تعنى المؤيد لمبدأ الحاكم .

وبعد ذلك لما طرأت الشيوعية على النظام الغربى الموجود وهو الرأسمالية أصبحت الشيوعية الطارئة كأنها معاندة للرأسمالية فقسموا هذا يمين وهذا يسار على نطاق دولى .

ثم جاءت كلمة تقدمى ويعنون بها غير رجعى ؛ لأن كلمة رجعى تفيد اللفتة الخلفية ، وكلمة تقدمى تفيد الطموح الوثبى ، والذين ينظرون إلى الدين بأنه غير تقدمى لا يفهمون قضية الإسلام بالنسبة للأديان الأخرى ، فإن جاز هذا بالنسبة للرسالات التى سبقت الإسلام فإنه لا يجوز بالنسبة للإسلام .

ثم كلمة رجعى هذه عندما تأخذها ، هل تذم مطلقًا ؟ يجب أولاً أن نعرف ما المرجوع إليه لنمدحه أو نذمه .. إنسان انحرف ثم رجع عن الانحراف ، أيكون مذمومًا ؟ .. بالطبع لا .

إذن .. كلمة رجعى على إطلاقها لا تكون مذمومة ولا تكون ممدوحة ؛ إنما نعرف رجعى إلى ماذا وعن ماذا ، فإن رجع إلى مسائل تخلفية منحطة تصير ذمًا ، وإن كان قد انحرف ثم رجع وثاب إلى الحق تكون مدحًا .

كلمة رجعية وكلمة تقدمية يجب أن يفطن إليهما الشباب . تقدمى إلى ماذا ، ورجعى إلى ماذا . كلمة تقدمى هذه براقة ، ولكن تقدمى إلى أىّ شىء

وكلمة رجعى نقول عنها أنها كلمة سيئة ؟ لا . يجب أولاً أن نعرف رجعى إلى أىّ شيء ؟ فالذين انحرفوا عن منهج اللّٰه مثلًا ، ثم أرادوا أن يرجعوا إلى المنهج أنقول لهم : أنتم رجعيون ؟ لا .

والذين يريدون أن يتقدموا بمعنى أن يحلوا أنفسهم من كل القيود أنقول لهم : أنتم تقدميون ؟ بالطبع لا .

إذن .. فى كلمة تقدمى وكلمة رجعى يجب أن ننظر تقدمى إلى ماذا ورجعى إلى ماذا ، وكلمة رجعى لا تذم على إطلاقها ، وكلمة تقدمى لا تمدح على إطلاقها .

فلمّا قالوا : يمين ويسار وتقدمى ورجعى ، قلت لهم : الإسلام ليس من هذه الجهات ، لأن الإسلام فوق ذلك كله ، والفوق عن الجهات لا يعتبر تقدميًا ولا رجعيًا ولا يمينًا ولا يسارًا ، لأنه فوق ذلك كله . إن ما تقولونه اصطلاحات بشر ، ولا يمكننى أن أُحكّم اصطلاحات البشر فى الفوق .

وإذا جاز لنا أن نستخدم مثل هذه المصطلحات فنقول : إن الإسلام تقدمى فى كل ما يعود على العالم بالخير والرفاهية ، رجعى فى أن يخرج الإنسان من انحرافاته ويهديه إلى المنهج السوى .. يمينى لأنه يحترم الملْكِيات ، ويحترم عَرَق الإنسان .. ويحترم عَمَله .. ويحترم حوافزه .. ولذلك يقول الحق سبحانه : ﴿ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ﴾ (1) [المائدة: ٤٨] . وماذا يعنى قوله تعالى : ﴿ وَمُهَيْمِنًا ﴾ ؟ أى : له الحكم النهائى .. لأنه حكم من فوق من اللّٰه العلى الأعلى ، ليس يمينًا ولا يسارًا ولا تقدميًا ولا رجعيًا ، بل هو حكم الذى خلق وقدر وهدى ، العليم بخلقه سبحانه .

---

(1) روى ابن جرير الطبرى فى التفسير عن ابن عباس رضى اللّٰه عنهما ، فى قوله تعالى :
﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ [المائدة: ٤٨] .
قال : هو القرآن شاهد على التوراة والإنجيل ، مصدقاً لهما .
﴿ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ﴾ يعنى : أميناً عليه ، يحكم على ما كان قبله من الكتب .

الدعوة إلى الإسلام بالحسنى

السؤال : يقول الله عز وجل : ﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ ﴾ [النحل : ١٢٥] فكيف نطبق ذلك فى عصرنا الحالى ؟

الجواب : إن الداعى إلى الإسلام لا يمكن أن يعرض على الناس أن يخرجوا مما تعودوا عليه بأسلوب يكرهونه ، لأن الإنسان الداعى للهداية عليه أن يعلم أن الدعوة بأسلوب مكروه تجعل الناس يتحملون مشقتين :

المشقة الأولى : هى إرهاق الناس بأن يخرجوا عما اعتادوا عليه ، وألفوه ، وتعودوه .

والمشقة الثانية : إرهاق الطريق الذى يؤدى إلى الجديد بما قد يحمله أسلوب الإقناع الفج من الوقاحة ، وسوء الأدب ، وعدم الحكمة فى الموعظة ، ولذلك كان العربى قديمًا يقول : النصح ثقيل ؛ فلا ترسله جبلاً ، ولا تجعله جدلاً ، واستعيروا للنصح خفة البيان . ولكن لماذا يكون النصح ثقيلاً ؟

إن النصح يدفع المنصوح إلى الخروج عما أحب أن يفعله ، لذلك فقد استُثقِل النصح .

وقد يحب المنصوح من يزين له أمر شهوته ، وقد يكون المنصوح لا يحب أن يفكر فى إصلاح نفسه ، ولذلك تجد الأدب العالى فى منهج القرآن يقول ربنا سبحانه وتعالى آمرا الرسول صلى الله عليه وسلم بأن يقول لخصومه : ﴿ قُل لَّا تُسۡـَٔلُونَ عَمَّآ أَجۡرَمۡنَا وَلَا نُسۡـَٔلُ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ﴾ [سبأ : ٢٥] .

إن محمدًا صلى الله عليه وسلم يتحدث إلى خصومه بأن كل واحد من البشر محاسب على عمله ، فأنتم أيها الخصوم لا تُسألون عن « إجرام » أيٍّ من المؤمنين .. ونسب الإجرام هنا لنفسه وللمؤمنين ؛ لأن خصوم الإسلام

نظروا للإيمان أول الأمر على أنه جريمة . ولكن حين أراد الرسول صلى الله عليه وسلم أن يصف سلوك الخصوم قال كما جاء فى القرآن العظيم : ﴿ وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ .

إن قياس الكلام هنا كان أن يقول الرسول صلى الله عليه وسلم : « ولا نُسأل عما تجرمون » ولكنه قال ما أنزل الله تعالى : ﴿ وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ فالله تعالى يُعلِّم نبيه ورسوله آداب الجدال .

هذا هو أدب الجدل ، وهذا هو السمو بالجدل ، ولذا يجب أن نرتفع عن شهوة البشر فى الاستعلاء ، ونجادل بما علمنا الله من أدب الحوار .

وهكذا يجب أن يكون حال الداعية للإسلام . وهكذا يجب أن نستقبل كل خصومة للإسلام ، ولابد أن نترك خصوم الدين يعيشون فى رحمة هذا الدين .

ولكن إذا ما استغل خصوم الإسلام سماحته ، وانقلبوا عليه ؛ لينالوا منه ومن الذين آمنوا به ، فى مثل هذه الحالة ، فإن الإسلام يطلب من المؤمنين أن يضربوا على أيدى الخصوم حتى تكون كلمة الله هى العليا [1] .

---

(١) قال الله تبارك وتعالى : ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴾ [النحل : ١٢٥] .

قال القرطبى : هذه الآية نزلت بمكة فى وقت الأمر بمهادنة قريش ، وأمره أن يدعو إلى دين الله وشرعه بتلطف ولين دون مخاشنة وتعنيف ، وهكذا ينبغى أن يوعظ المسلمون إلى يوم القيامة . فهى محكمة فى وجهة العصاة من الموحدين ، ومنسوخة بالقتال فى حق الكافرين . وقد قيل : إن من أمكنت معه هذه الأحوال من الكفار ورجى إيمانه بها دون قتال فهى فيه محكمة . والله أعلم .

الجامع لأحكام القرآن [النحل : ١٢٥] . =

....

○○○

= وأخرج ابن مردويه عن أبى ليلى الأشعرى ، أن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم قال : « تمسكوا بطاعة أئمتكم ولا تخالفوهم ، فإن طاعتهم طاعة اللّه ومعصيتهم معصية اللّه ، فإن اللّه بعثنى أدعو إلى سبيله بالحكمة والموعظة الحسنة ، فمن خالفنى فى ذلك فهو من الهالكين وقد برئت منه ذمة اللّه وذمة رسوله ، ومن ولى من أمركم شيئًا فعمل بغير ذلك فعليه لعنة اللّه والملائكة والناس أجمعين » .

وأخرج ابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم ، عن مجاهد رضى اللّه تعالى عنه فى قوله : ﴿ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ قال : أعرض عن أذاهم إياك .

الدر المنثور للسيوطى [النحل : ١٢٥] .

الفرق بين الإسلام والمسلمون

السؤال : **إن الغرب ينظر إلي الإسلام من خلال المسلمين ، وهم بعيدون عنه الآن ، فماذا نقول لهم ؟**

الجواب : يجب أن نعرف أن هناك فرقًا بين الإسلام وبين المسلم .. فالإسلام شرع ومنهج من عند اللّه تعالى جاء ليطبق فى الذين آمنوا به ، وهذا لا يعنى أنه لا توجد مخالفات ! المخالفات موجودة فى كل المجتماعات ، لكن الإسلام حرمها ، وشرع عقوبات عليها ، فالمسلم لو ارتكب مخالفة كالسرقة مثلًا فقد شرع اللّه تعالى لولى الأمر أن يقطع يد السارق ، وكذلك شارب الخمر .. وأمر برجم الزانى المحصن ، وجلد غير المحصن .

إذن .. فما دامت هناك عقوبات شُرعت لأفعال أَثَّمها الدين ، ثم رأيتها فى المسلم فلا تقل : هذا خطأ فى الدين ! ولكن خطأ فى معتنق الدين [1] .

وكيف يكون ذلك وقد حرم الدين هذه الأفعال وجرمها ، وشرع لها العقوبات التى تحد منها .. ولو رأينا المسلم الذى ارتكب شيئًا محرمًا قد أُقيم عليه الحد لما استطاع أحد أن يقول شيئًا .. ولكننا نرى المسلم يرتكب الحرام ولا تقام عليه العقوبة .

إذن .. قد نص الإسلام على جرائم ، ووضع للجرائم عقوبات .

فحين يرى واحد جريمة ، ولا يرى العقوبة عليها ، يعتقد أن هذا هو الإسلام ، وهنا نقول له : « لا » يوجد هنا حد من حدود الإسلام قد عطل .

---

(١) قال اللّه تعالى : ﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُم مِّنْ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [الأنعام : ١٥١] .

الشرعة والمنهاج

السـؤال : **يقول الله عز وجل فى كتابه الكريم : ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾ [المائدة : ٤٨]**
فما المقصود بالمنهاج ؟

الجواب : الله تبارك وتعالى خلق الخلق لعبادته ؛ قال تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات : ٥٦] .

إذن .. المنهج هو كلمة : ﴿ لِيَعْبُدُونِ ﴾ أى : ليعبدوا الله تعالى وحده .

ومنهج العبادة هو التزام الناس بكلمتى « افعل .. ولا تفعل » ، فإن استقام الإنسان على هذا المنهج استقامت حياته ، وبقدر بعده عن هذا المنهج يشقى فى حياته (١).

واتباع المنهج يجعل حياة الإنسان سعيدة كلها غبطة ، فلا تفوت الإنسان فيها نعمة ، ولا يفوت هو النعمة فيها ، فعلى المؤمن أن يتبع شرع الله تعالى ومنهجه ، ويعرض عما سواه (٢) .

---

(١) قال الله تعالى : ﴿ قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَٰلِكَ الْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِن بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰ ﴿١٢٧﴾ ﴾ [طه] .

(٢) قال القرطبى فى تأويل قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ ﴾ [المائدة : ٤٨] يعنى : لا تعمل بأهوائهم ومرادهم على ما جاءك من الحق ؛ يعنى : لا تترك الحكم بما بين الله تعالى فى القرآن من بيان الحق وبيان الأحكام . والأهواء : جمع هوى ؛ ولا يجمع أهوية ، فنهاه عن أن يتبعهم فيما يريدونه ؛ وهو يدل على بطلان قول من قال : تقوم الخمر على من أتلفها عليهم ؛ لأنها ليست =

(١) مالاً لهم فتكون مضمونة على متلفها ؛ لأن إيجاب ضمانها على متلفها حكم بموجب أهواء اليهود ؛ وقد أمرنا بخلاف ذلك .

ومعنى ﴿ عَمَّا جَآءَكَ ﴾ على ما جاءك . ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾ يدل على عدم التعلق بشرائع الأولين . والشرعة والشريعة الطريقة الظاهرة التى يتوصل بها إلى النجاة . والشريعة فى اللغة : الطريق الذى يتوصل منه إلى الماء ، والشريعة ما شرع الله لعباده من الدين ، وقد شرع لهم يشرع شرعًا ، أى : سن . والشارع الطريق الأعظم . والشرعة أيضًا الوتر ، والجمع شِرع وشرع وشراع جمع الجمع ؛ عن أبى عبيد ؛ فهو مشترك ، والمنهاج الطريق المستمر ، وهو النهج والمنهج أى : البين ؛ قال الراجز :

من يك ذا شك فهذا فلج ماء رواء وطـــريق نهـــج

وقال أبو العباس محمد بن يزيد : الشريعة : ابتداء الطريق ؛ المنهاج : الطريق المستمر .

وروى عن ابن عباس والحسن وغيرهما ﴿ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾ سنة وسبيلًا . ومعنى الآية : أنه جعل التوراة لأهلها ؛ والإنجيل لأهله ؛ والقرآن لأهله ؛ وهذا فى الشرائع والعبادات ؛ والأصل التوحيد لا اختلاف فيه ؛ روى معنى ذلك عن قتادة . وقال مجاهد : الشرعة والمنهاج دين محمد صلى الله عليه وسلم ؛ وقد نسخ به كل ما سواه . الجامع لأحكام القرآن [المائدة : ٤٨] .

وقال ابن جرير الطبرى : الشرعة : هى الشريعة بعينها ، تجمع الشرعة شراعًا ، والشريعة شرائع ، ولو جمعت الشرعة شرائع كان صوابًا ؛ لأن معناها ومعنى الشريعة واحد فيردها عند الجمع إلى لفظ نظيرها . وكل ما شرعت فيه من شىء فهو شريعة ، ومن ذلك قيل لشريعة الماء : شريعة ، لأنه يشرع منها إلى الماء ، ومنه سميت شرائع الإسلام شرائع ، لشروع أهله فيه ، ومنه قيل للقوم إذا تساووا فى الشئ : هم شرع سواء .

وأما المنهاج ، فإن أصله : الطريق البين الواضح .

لذلك يقول تبارك وتعالى : ﴿ وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴾ [العنكبوت :٦٤] .

وكذلك الحياة بدون منهج ، قد تغرى الإنسان بمتاع محدود الوقت بينما الحياة بالمنهج وفى ظله تؤدى إلى دار حقيقية وكاملة ، وهذه حقائق ثابتة ، لا يدركها إلا الأسوياء من الناس .

لقد سمى الله المنهج الذى يصل به الإنسان إلى القيم العليا : ﴿ رُوحًا ﴾ فيقول تبارك وتعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [الشورى : ٥٢] .

○○○

هل كان أبو ذر شيوعيًا ؟

السؤال : **يزعم الشيوعيون أن أبا ذر كان شيوعيًا فلماذا يرفض المسلمون الشيوعية ؟**

الجواب : هم لا يفهمون أبا ذر رضى اللَّه تعالى عنه ، ولا منهج أبي ذر ، فهؤلاء الذين يتمسحون فى أبى ذر هل حملوا أنفسهم على السلوك الإيمانى الذى سلكه أبو ذر ؟

أبو ذر رضى اللَّه تعالى عنه كان له رأى أراد أن يعديه إلى الغير ، وهو ألا يصير عند الإنسان شىء وغيره محتاج ، هذه مسألة لا يمنعها الدين ، ولا يفرضها .

هناك فرق بين مسألة يمنعها الدين أو يفرضها ، وبين مسألة ترتضيها أنت وتتطوع بها ، إن طبع أبى ذر خير جدًا ، ولكنه ليس بإمكان كل البشر أن يستوعبوه ، فلا تحمل الناس عليه ، ولذلك قال له النبى محمد صلى اللَّه عليه وسلم : « ستبعث أمة وحدك »[1] .

---

(١) قال ابن إسحاق : حدثنى بريدة بن سفيان الأسلمى ، عن محمد بن كعب القرظى ، عن عبد اللَّه بن مسعود ، قال : لما نفى عثمان أبا ذر إلى الربذة ، وأصابه بها قدره ، لم يكن معه أحد إلا امرأته وغلامه ، فأوصاهما أن غسلانى وكفنانى ، ثم ضعانى على قارعة الطريق فأول ركب يمر بكم فقولوا هذا أبو ذر صاحب رسول اللَّه ﷺ فأعينونا على دفنه ، فلما مات فعلا ذلك به ثم وضعاه على قارعة الطريق . وأقبل عبد اللَّه بن مسعود فى رهط من أهل العراق عمار فلم يرعهم إلا بالجنازة على ظهر الطريق قد كادت الإبل تطؤها ، وقام إليهم الغلام ، فقال : هذا أبو ذر صاحب رسول اللَّه ﷺ ، فأعينونا على دفنه قال فاستهل عبد اللَّه بن مسعود يبكى ويقول : صدق رسول اللَّه ﷺ =

إذن .. الإنسان الذى يملك شيئًا ويريد أن يتركه كله ، هل يمنعه هذا الدين ؟

لا .. هو حر .. فليست قضية إلزامية ، وهذا بخلاف الآراء الشيوعية : إنهم يريدون أن يجعلوا من التطوع فى الأمور التى لم يفرضها الإسلام فرضًا إلزاميًا وقضية إلزامية .

مثلًا : عثمان بن عفان .. عبد الرحمن بن عوف .. الزبير بن العوام .. طلحة .. سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل .. كل هؤلاء مبشرون بالجنة .. أعطاهم رسول الله ﷺ ضمانًا أنهم فى الجنة .. فهل أكسب أبا ذر وأخسر عثمان ، وأخسر ابن عوف ، وأخسر أبا عبيدة ، وأخسر طلحة ، وأخسر سعيد بن زيد .

نقول لهم : أبو ذر أراد أن يفرض على نفسه أمرًا ، هذا الأمر كل واحد حر فى أن يفرضه على نفسه أو لا يفرضه .. فمن تطوع خيرًا فهو خير له . كونهم يريدون أن يجعلوا منه الأصل فهذا هو الخطأ ، لماذا ؟ لأن الصحابة الذين كان أبو ذر واقفًا معهم لا يقلون عن أبى ذر إن لم يزيدوا عليه ، لأن المشرع بشَّر هؤلاء بالجنة ، ولم يبشِّرْ أبا ذر بالجنة (١) .

= تمشى وحدك ، وتموت وحدك ، وتبعث وحدك . ثم نزل هو وأصحابه فواروه ، ثم حدثهم عبد الله بن مسعود حديثه ، وما قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم فى مسيره إلى تبوك . السيرة النبوية لابن هشام [غزوة تبوك : موت أبى ذر] .

(١) روى ابن ماجه [١٣٣] وأبو داود [٤٦٤٩] عن زيد بن عمرو بن نفيل قال : كان رسول اللهِ صلى اللّهُ عليه وسلم عاشر عشرة فقال : « أبو بكر في الجنة ، وعمر في الجنة ، وعثمان في الجنة ، وعلي في الجنة ، وطلحة في الجنة ، والزبير في الجنة ، وسعد في الجنة ، وعبد الرحمن في الجنة » فقيل : من التاسع ؟ قال : « أنا » . وروى الترمذى [٣٧٤٧] عن عبد الرحمن بن عوف رضى الله تعالى عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أبو بكر في الجنة وعمر في الجنة =

= وعثمان في الجنة وعلي في الجنة وعبد الرحمن بن عوف في الجنة وطلحة في الجنة والزبير في الجنة وسعد بن أبي وقاص في الجنة وسعيد بن زيد في الجنة .

وفى كنز العمال [٣٦٧٣٦] : عن عبد الله بن عمر رضى الله تعالى عنهما قال : لما طُعِن عمر بن الخطاب وأمر بالشورى دخلت عليه حفصة فقالت له : يا أبتِ ! إن الناس يزعمون أن هؤلاء الستة ليسوا برضا ، فقال : اسندوني ، فأسندوه فقال : ما عسى أن يقولوا في علي بن أبي طالب! سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول : يا علي ! مد يدك في يدي تدخل معي يوم القيامة حيث أدخل ما عسى أن يقولوا في عثمان بن عفان ! سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول : يوم يموت عثمان تصلي عليه ملائكة السماء قلت : يا رسول الله ! لعثمان خاصة أم للناس عامة ؟ قال : لعثمان خاصة ، ما عسى أن يقولوا في طلحة بن عبيد الله ! سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول ليلة وقد سقط رحله : من يسوي لي رحلي وهو في الجنة ؟ فبدر طلحة بن عبيد الله فسواه له حتى ركب ، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : يا طلحة ! هذا جبريل يقرئك السلام ويقول : أنا معك في أهوال يوم القيامة حتى أنجيك منها ! ما عسى أن يقولوا في الزبير بن العوام ! رأيت النبي صلى الله عليه وسلم وقد نام فجلس الزبير يذب عن وجهه حتى استيقظ فقال له : يا أبا عبد الله ! لم تزل ؟ فقال : لم أزل بأبي أنت وأمي! قال: هذا جبريل يقرئك السلام ويقول : أنا معك يوم القيامة حتى أذب عن وجهك جهنم ، ما عسى أن يقولوا في سعد بن أبي وقاص ! سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول يوم بدر وقد أوتر قوسه أربع عشرة مرة يدفعها إليه ويقول : ارم فداك أبي وأمي ! ما عسى أن يقولوا في عبد الرحمن بن عوف ! رأيت النبي صلى الله عليه وسلم يقول : وهو في منزل فاطمة والحسن والحسين يبكيان جوعا ويتضوران فقال النبي صلى الله عليه وسلم : من يصلنا بشيء ؟ فطلع عبد الرحمن بن عوف بصحفة فيها حيسة =

إذن .. فكل واحد له الحرية المطلقة فى أن يتطوع من جنس ما افترضه اللّٰه تعالى عليه ، شريطة ألا يلزم غيره باتباع ذلك ، وكونهم يريدون أن يشققوا المسائل نقول لهم : أبو ذر أراد أن يلتزم مذهبًا يلزم به نفسه ، فلا شىء فى ذلك ، أما أن يلزم به الناس ، فلا [1] .

= ورغيفان بينهما إهالة فقال له النبي صلى اللّٰه عليه وسلم : كفاك اللّٰه أمر دنياك ! وأما أمر الآخرة فأنا لها ضامن . ورواه الطبرانى فى الأوسط [٣١٧٢/٢٨٧/٣] .

(١) جاء فى الموسوعة الفقهية التى تصدرها وزارة الأوقاف الكويتية : ذهب أبو ذر الغفارى رضى اللّٰه تعالى عنه إلى أن ادخار المال الزائد عن حاجة صاحبه - من نفقته ونفقة عياله - هو ادخار حرام وإن كان يؤدى زكاته وكان رضى اللّٰه تعالى عنه يُفتى بذلك ، ويحث الناس عليه ، فنهاه معاوية بن أبى سفيان رضى اللّٰه تعالى عنهما - وكان أميراً على الشام - عن ذلك : لأنه خاف أن يضره الناس فى هذا ، فلم يترك دعوة الناس إلى ذلك ، فشكاه إلى أمير المؤمنين عثمان بن عفان فاستقدمه عثمان إلى المدينة المنورة ، وأنزله الربذة ، فبقى فيها إلى أن توفاه اللّٰه تعالى .

وكان أبو ذر رضى اللّٰه عنه يحتج لما ذهب إليه بجملة من الأدلة ، منها قوله تعالى فى سورة التوبة : ﴿ وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [التوبة : ٣٤] ، ويقول : إن هذه الآية محكمة غير منسوخة .

ويحتج بما رواه الإمام أحمد فى مسنده [١٠١/١] وقال الأرناؤوط : حسن لغيره . عن على رضى اللّٰه تعالى عنه أنه مات رجل من أهل الصفة وترك دينارين ، أو درهمين ، فقال رسول اللّٰه صلى اللّٰه عليه وسلم : « كيتان ، صلوا على صاحبكم » . =

....

○ ○ ○

= وبما رواه ابن أبى حاتم [٣٤٩] عن ثوبان مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « ما من رجل يموت وعنده أحمر أو أبيض إلا جعل الله بكل قيراط صفحة من نار يكوى بها من قدمه إلى ذقنه » .
وروى ابن ماجه [١٨٥٦] عن ثوبان قال : لما نزل فى الفضة والذهب ما نزل قالوا : فأى المال نتخذ ؟ قال عمر : فأنا أعلم لكم ذلك فأوضع على بعيره فأدرك النبى صلى الله عليه وسلم ، وأنا فى أثره فقال : يا رسول الله أى المال نتخذ ؟ قال : ليتخذ أحدكم قلبًا شاكرًا ولسانًا ذاكرًا وزوجة مؤمنة تعين أحدكم على أمر الآخرة . وصححه الألبانى .

العصبية فى الإسلام

السؤال : **هل هناك عصبية في الإسلام ، ولمن تكون ؟**

الجواب : لا عصبية فى الإسلام إلا لله تعالى وحده .. فلا عصبية للنفس ، ولا للجنس ، ولا للبيئة ، ولا لأى شيء فى الوجود غير الله وحده .. والأحاديث فى تحريم العصبية لغير الله كثيرة منها : لما كسع رجل من المهاجرين رجلاً من الأنصار ، تنادى المهاجرون : يا للمهاجرين ، وقال الأنصار : يا للأنصار ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « دعوها فإنها منتنه »[1] .

وقال الله تعالى : ﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ [التوبة : ٢٤] .

وأما سلوك النبى ﷺ وأصحابه فقد سجله الله تبارك وتعالى إبان الحرب التى كانت بين الفرس والروم ، فالفرس كفار يعبدون النار ، ويكفرون بالله ورسوله محمد ﷺ .. والروم أهل كتاب يؤمنون بالله وبالمسيح ، ولكنهم لا يؤمنون بمحمد ﷺ ، ومع ذلك حزن رسول الله ﷺ وأصحابه رضى الله

---

(١) أخرج مسلم [٦٣/٢٥٨٤] عن عبد الله قال : كنا مع النبى ﷺ فى غزاة ، فكسع رجل من المهاجرين رجلاً من الأنصار . فقال الأنصارى : يا للأنصار ! وقال المهاجرى : يا للمهاجرين ! فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما بال دعوى الجاهلية ؟ » قالوا : يا رسول الله ! كسع رجل من المهاجرين رجلاً من الأنصار . فقال : « دعوها فإنها منتنة » فسمعها عبد الله بن أبى فقال : قد فعلوها . والله ! لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل .

تعالى عنهم حينما هُزِم الروم أهل الكتاب على أيدى الفرس عُبَّاد النار حتى نزل القرآن يعلن أن الروم سوف ينتصرون .. ويعلن فرح المسلمين بانتصار الروم أهل الكتاب على الفرس الوثنيين ، قال تعالى : ﴿ الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِىٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ۝٣ فِى بِضْعِ سِنِينَ ۗ لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ ۚ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝٤ بِنَصْرِ ٱللَّهِ ۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٥ ﴾ [الروم] .

وذلك لأن العداء بين المسلمين والفرس فى القمة ، لأنهم ينكرون وجود اللّه .

أما الخلاف بين المسلمين وبين أهل الكتاب فهو خلاف حول نبوة محمد ﷺ أو حول تصور الإله .. ولكن مبدأ وجود اللّه والإيمان به متفق عليه بينهم ، ومن هنا كان قلب رسول اللّه ﷺ وقلوب المؤمنين به مع المؤمنين برسالة سماوية .. وكانت عصبية محمد ﷺ لربه أقوى من عصبيته لنفسه ؛ لأن الذين كفروا به هم كانوا أقرب إلى قلبه من الذين كفروا باللّه .. وكانت البشرى بانتصار أهل الكتاب على الكفار مصدر فرح للمؤمنين .. لأنهم جميعًا يؤمنون بوجود إله ؛ وإن كانوا يختلفون فى الرسول الذى بلغ ، والمنهج الذى جاء به [1] .

---

(١) روى أحمد فى المسند [١/٢٧٦] عن ابن عباس رضى اللّه تعالى عنهما فى قوله تعالى : ﴿ الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ ﴾ [الروم] . قال : غُلبت وغَلبت قال : كان المشركون يحبون أن تظهر فارس على الروم ؛ لأنهم أهل أوثان ، وكان المسلمون يحبون أن تظهر الروم على فارس ؛ لأنهم أهل كتاب ، فذكروه لأبى بكر فذكره أبو بكر لرسول اللّه ﷺ فقال رسول اللّه ﷺ : « أما إنهم سيغلبون » ، قال : فذكره أبو بكر لهم ، فقالوا : اجعل بيننا وبينك أجلاً فإن ظهرنا كان لنا كذا وكذا ، وإن ظهرتم كان لكم كذا وكذا . فجعل أجلًا خمس سنين فلم يظهروا ، فذكر ذلك أبو بكر للنبى ﷺ فقال : « ألا جعلتها إلى دون » ؛ قال : أُراه قال : « العشر ؟ » ـ قال : قال سعيد بن جبير : البضع : ما دون العشر ـ =

= ثم ظهرت الروم بعد ، قال : فذلك قوله : ﴿ الٓمٓ ۝ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ﴾ إلى قوله : ﴿ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ [الروم : ٤] قال : يفرحون ﴿ بِنَصْرِ ٱللَّهِ ﴾ .
وقال الأرناؤوط : إسناده صحيح على شرط الشيخين .
وروى الترمذى [٣١٩٤] عن عروة بن الزبير عن نيار بن مكرم الأسلمى ، قال : لما نزلت ﴿ الٓمٓ ۝ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝ فِىٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ۝ فِى بِضْعِ سِنِينَ ... ۝ ﴾ [الروم] فكانت فارس يوم نزلت هذه الآية قاهرين للروم ، وكان المسلمون يحبون ظهور الروم عليهم لأنهم وإياهم أهل كتاب ، وفى ذلك قول الله تعالى : ﴿ ... وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝ بِنَصْرِ ٱللَّهِ يَنصُرُ مَن يَشَآءُ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝ ﴾ فكانت قريش تحب ظهور فارس لأنهم وإياهم ليسوا بأهل كتاب ولا إيمان ببعث ، فلما أنزل الله تعالى هذه الآية خرج أبو بكر الصديق يصيح فى نواحى مكة ﴿ الٓمٓ ۝ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝ فِىٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ۝ فِى بِضْعِ سِنِينَ ... ۝ ﴾ قال ناسٌ من قريش لأبى بكر : فذلك بيننا وبينكم ، زعم صاحبك أن الروم ستغلب فارسا فى بضع سنين ، أفلا نراهنك على ذلك ؟ قال : بلى ، وذلك قبل تحريم الرهان ، فارتهن أبو بكر والمشركون وتواضعوا الرهان ، وقالوا لأبى بكر : كم تجعل البضع ثلاث سنين إلى تسع سنين ، فسم بيننا وبينك وسطا تنتهى إليه ، قال : فسموا بينهم ست سنين ، قال : فمضت الست سنين قبل أن يظهروا فأخذ المشركون رهن أبى بكر ، فلما دخلت السنة السابعة ظهرت الروم على فارس ، فعاب المسلمون على أبى بكر تسمية ست سنين لأن الله تعالى قال : ﴿ فِى بِضْعِ سِنِينَ ﴾ ، قال : « وأسلم عند ذلك ناس كثير » .
وقال الترمذى : هذا حديث حسن صحيح غريب من حديث نيار بن مكرم لا نعرفه إلا من حديث عبد الرحمن بن أبى الزناد . وحسنه الألبانى .

[تفسير سورة الروم] .

الإسلام والملكية الفردية

السؤال : **ما هى نظرة الإسلام للملكية الفردية ؟**

الجواب : الملكية أمر غريزى لاستيفاء أسباب الحياة فى النفس البشرية وما دامت هكذا ، فأنت تسعى فى الكون وتعمل ، لكى يصير لك ملك ، فإذا سعيت ولم يكن لك ملك صُدِمت عواطفك ، وصُدِمت غرائزك فكل واحد يصير خاملاً ، وما دام أصبح خاملاً ، فلا يكون له طموح .

الإسلام قدر كل هذا وقال : إن هناك ملكية ، وأعطانا تقنينًا عقديًا لهذه الملكية ، فأنت مثلًا تولد وليس لك جيوب .. أى : تولد وليس معك شىء ، وتخرج من الدنيا بكفن ليس له جيوب ، لقد دخلت الدنيا بلا جيوب ، وتخرج منها بلا جيوب ، وهذه قضية معروفة ومُسلَّم بها لدى الجميع .

إذن .. فعندما لا يكون لك مال فمن أين تأتى به ؟ أنت لا تفتح صنبورًا فينزل منه مال ، إنما هناك كفاح وعمل لكى تأكل ويصير لك مالًا ، إذن لابد أن تعمل .

لذا جاء الإسلام وقال : كل إنسان فى الحياة اسمه عامل ، ليس هدك عامل وغير عامل ، حتى الخليفة عامل ، وقيمة كل امرئ بما يُحسنه ، كلنا عمال يقول النبى صلى الله عليه وسلم : « ما بال الرجل نستعمله على العمل ثم يقول : هذا لكم ، وهذا لى » [1] .

---

(١) أخرج البخارى [٧١٧٤] ، ومسلم [٢٦/١٨٣٢] واللفظ له عن أبى حميد الساعدى رضى الله تعالى عنه قال : استعمل رسول الله ﷺ رجلا من الأَسْدِ يقال له ابن اللُّتْبِيَّةِ « قال عمرو وابن أبى عُمر : على الصدقة » فلما قَدِمَ قال : هذا لكم وهذا لى ، أهْدِى لى . قال : فقام رسول الله ﷺ على المنبر فحمد الله وأثنى عليه . وقال : « ما بَالُ عامل أبعثه فيقول : هذا لكم وهذا أُهْدِىَ لى ! أَفلا قعد فى بيت أبيه أو فى بيت أُمه حتى ينظر أَيُهدَى إليه أم لا . والذى نفس =

فهل أُهدى إليك لأنك عامل ؟ فالمال مال الدولة ، والحق سبحانه يقرر فى قضية عقدية أن المال كله للَّه . وهذه هى الحقيقة : ﴿ وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ﴾ [الحديد : ٧] ، ليس المال لكم .. إنما أنتم مستخلفون فيه .. وهناك فى آية أخرى يقول اللَّه تعالى : ﴿ وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ ﴾ [الذاريات : ١٩] . نُسِب المال إليهم مرة ، ونُسِب للَّه تعالى مرة .. إذن الحكاية شركة « مضاربة » أنت لم تولد بالمال ، ولكن ذهبت تسعى فى كون اللَّه الذى خلقه ، وأخذت تجمع عناصر يسرها اللَّه تعالى لك كى يكون هناك عمل ، فأنت لك عمل فقط ، وليس لك فى رأس المال شىء ، المال كله للَّه ، لذا فأنت تأخذ أجرة عملك فقط والباقى للَّه تعالى ، ولما كان سبحانه هو الغنى فلا حاجة له فى شىء من عبيده قال اللَّه سبحانه وتعالى : ﴿ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴾ [الذاريات : ٥٧] ، وإنما أمر بتوجيهها للسائل والمحروم والفقير وابن السبيل وغيرهم من خلق اللَّه المحتاجين [1] .

= محمد بيده لا ينال أحد منكم منها شيئًا إلا جاء به يوم القيامة يحمله على عُنُقه ، بعيرٌ له رُغَاءٌ . أو بقرة لها خُوَار . أو شاةٌ تَيْعِرُ » . ثم رفع يديه حتى رأينا عُفرَتى إبطيه . ثم قال : « اللَّهم هل بلغت ؟ » مرتين .

(١) قال الدكتور يوسف القرضاوى فى كتابه : ملامح المجتمع المسلم الذى ننشده . الفصل التاسع . الاقتصاد والمال :

لكل مجتمع اقتصاد خاص ، تتمثل فيه فلسفته وعقائده ومثله ، ونظرته إلى الفرد والمجتمع ، وإلى المال ووظيفته ، وفكرته عن الدين والدنيا ، والغنى والفقر فيؤثر ذلك كله فى علاقته بإنتاج الثروة ، وطرائق تداولها وتوزيعها واستهلاكها ومن ذلك ينشأ نظامه الاقتصادى ، والحديث عن الاقتصاد الإسلامى يطول ، وقد ألفت فيه وفى نواح منه بحوث شتى ، وكتب جمة ، وقدمت عشرات الرسائل العلمية للماجستير والدكتوراة . وحسبنا هنا أن نأخذ فكرة من =

....

○○○

= القواعد الأساسية التى يقوم عليها بناء الاقتصاد فى المجتمع الإسلامى ، وأهم هذه القواعد هى :

١ - اعتبار المال خيرًا ونعمة فى يد الأخيار .

٢ - المال مال الله والإنسان مستخلف فيه .

٣ - الدعوة إلى العمل والكسب الطيب ، واعتباره عبادة وجهادًا .

٤ - تحريم موارد الكسب الخبيث .

٥ - إقرار الملكية الفردية وحمايتها .

٦ - منع الأفراد من تملك الأشياء الضرورية للجماعة .

٧ - منع المالك من الإضرار بغيره .

٨ - تنمية المال بما لا يضر الأخلاق والمصلحة العامة .

٩ - تحقيق الاكتفاء الذاتى للأمة .

١٠ - الاعتدال فى الإنفاق .

١١ - إيجاب التكافل بين أبناء المجتمع .

١٢ - تقريب الفوارق بين الطبقات .

١٣ - اعتبار المال خيرًا ونعمة فى يد الصالحين .

التكليف الشرعى .. ومتطلبات العصر

السؤال : **البعض يعتذر من عدم الوفاء بالتكليف الشرعى بأنه لا يستطيع الموازنة بين متطلبات العصر المادية وبين ما يجب عليه تنفيذه من الأوامر ، فكيف الخلاص من هذه المشكلة ؟**

الجواب : لو احتكمنا دائمًا إلى متطلبات العصر لأصبح العصر هو المكلِّف فالذى يقبله العصر نفعله ، والذى لا يقبله العصر لا نفعله .. ثم نهبط تبعًا لهذا ، والمفروض أن التكليف إنما جاء ليأخذنا ويرفعنا .. لا أن يجعلنا نهبط فهل كلما جد شىء فى العصر نهبط إليه ؟!

لا .. لا نقلب المطلوب إلى ساقط .. والساقط إلى مطلوب .

اللّٰه سبحانه وتعالى يعلم حين شرع لنا الإيمان أننا قد يصيبنا خلخلات .. لكنه لم يترك هذه الخلخلات بلا علاج .. لقد شرع لها العلاج بما يثبِّت الإيمان ولم يترك الشيطان ينفرد بنا .. ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴾ [الأعراف : ٢٠١] .

ويقول سبحانه وتعالى : ﴿ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴾ [الرعد : ٢٨] .

كل هذه الأشياء تبعث الإيمان .. وليس لى أن أقول : إن اللّٰه لو شاء لثبتنى ، وأترك بناء على هذا ما شرع لنا ليثَبِّت به الإيمان .

اللّٰه سبحانه وتعالى أعطانا أسبابًا .. وعلينا أن نفهم قول اللّٰه سبحانه وتعالى :

﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ ﴾ [النمل : ٦٢] ، « فالمضطرُّ » هو : الذى استنفد كل الأسباب الممنوحة له من اللّٰه تعالى .

لكن أدعو اللّه تعالى قبل أن أستنفد أسبابى ، كأن أقول : يا رب نجحنى بدون أن أذاكر دروسى فهذا خطأ فاحش لا يجب على مؤمن الوقوع فيه .

لقد أعطانى اللّه عقلاً وقوة وطاقة .. وقوة على الذهاب إلى المدرسة أو المعهد الذى أدرس فيه ، وأساتذة يدرسون .. فإذا استنفدت كل هذه الأسباب أقول : يا رب نجحنى ، لماذا ؟

لأن اجتماع هذه الأسباب لا يعطى فى الحقيقة نجاحًا ، فقد أعمل كل شىء ويأتينى مثلًا مرض ليلة الامتحان لا يمكننى من أدائه .

إذن .. فالأسباب شىء ، والواقع شىء ، والواقع الذى سيكون عليه الحدث شىء آخر .. فيجب أن أتوجه إلى اللّه بالدعاء بعد أن أستنفد كل أسبابى .

لكننا الآن لا نسأل اللّه عن اضطرار ، بل يكون عندى ما يكفينى من الرزق وأسأله المزيد لأولادى فى المستقبل مثلًا !!

إننا نسأل اللّه عن ترف لا عن حاجة ، ثم نقول : لقد سألنا اللّه فلم يجيبنا [1] .

---

(١) قال القرطبى فى تأويل قوله تعالى : ﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ ﴾ ، قال ابن عباس : هو ذو الضرورة المجهود. وقال السدى الذى لا حول له ولا قوة . وقال ذو النون : هو الذى قطع العلائق عما دون اللّه . وقال أبو جعفر وأبو عثمان النيسابورى : هو المفلس . وقال سهل بن عبد اللّه : هو الذى إذا رفع يديه إلى اللّه داعيًا لم يكن له وسيلة من طاعة قدمها . وجاء رجل إلى مالك بن دينار ، فقال : أنا أسألك باللّه أن تدعو لى فأنا مضطر ، قال : إذن فاسأله فإنه : ﴿ يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ ﴾ . قال الشاعر :

وإنى لأدعو اللّه والأمر ضيق ... على فما ينفك أن يتفرجا
ورب أخ سدت عليه وجوهه ... أصاب لها لما دعا اللّه مخرجا =

....

○○○

= وفى مسند أبى داود الطيالسى عن أبى بكرة رضى اللَّه تعالى عنه قال : قال رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم فى دعاء المضطر : « اللَّهم رحمتك أرجو فلا تكلنى إلى نفسى طرفة عين ، واصلح لى شأنى كله ، لا إله إلا أنت » [1] .

(١) رواه أبوداود الطيالسى فى مسنده [٨٦٩] .

العقوبات فى الإسلام

السؤال : **العقوبة في الإسلام ، ما معناها ، وما حدودها ؟**

الجواب : إن غير المسلمين شرعوا عقوبات ، وأيضا أصحاب الديانات الوضعية شرعوا عقوبات .. لأنهم عرفوا أن هناك جرائم لابد من الضرب على يد مرتكبيها ، ونحن لدينا نص فى القانون يقول : لا عقوبة إلا بتجريم .. ولا تجريم إلا بنص .. لا يستطيع أحدٌ أن يجرم عملًا إلا إذا قال أولًا : إن ذلك العمل جريمة .. إذن .. فلا يمكن أن تجرم أحدًا إلا بنص ، ولا تعاقب أحدًا إلا بارتكاب جريمة .

وتشريع الله للعقوبات ، لابد أن ينشأ عن تجريم يحدد أنواع الجرائم ، فالذى يقام عليه حكم الله ، إما أن يكون حدًّا ، وإما أن يكون قصاصًا ، والحدود مملوكة لله تعالى ، ولا يستطيع أحد أن يعفى عنه[1] .

والقصاص الذى جعله الله للنفس البشرية التى اعتدى عليها بالقتل ﴿ فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا ﴾ [الإسراء : ٣٣] .

---

(١) أخرج البخارى [٦٧٨٨] ، ومسلم [٨/١٦٨٨] عن عائشة رضى الله تعالى عنها أن قريشًا أهمهم شأن المرأة المخزومية التى سرقت . فقالوا : من يُكلم فيها رسول الله ﷺ ؟ فقالوا : ومن يجترئ عليه إلا أُسامة ، حِبُّ رسول الله ﷺ ؟ فكلمه أُسامة . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أَتشفَعُ فى حد من حدود الله ؟ » . ثم قام فاختطب فقال : « أيها الناس ! إنما أَهلَكَ الذين قبلكم ، إنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه ، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد ، وايمُ الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها » .

وفى حديث ابن رُمْحٍ : « إنما هَلَكَ الذين من قبلكم » .

إذن .. فالعقوبات إما جرائم ، وإما قصاص .. القصاص صاحبه ولى الأمر وهو المعول عليه فى البت فيه : ﴿ فَمَنْ عُفِيَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ ﴾ [البقرة : ١٧٨] .

أما الحد فالعقوبة لله ، مثل السارق الذى تجاوز النصاب ، أما السارق ما دون حد النصاب ، فالتعزير حق للوالى حينما يجد حالات من هذا القبيل ، فيفرض عقوبة لا تصل إلى الحد المقرر فى هذا الشأن .

○○○

اختلاف الفقهاء فى الفُتيا

السؤال : **اختلاف الفقهاء في بعض المسائل الفقهية ، هل ذلك نعمة أم نقمة ؟**

الجواب : أنزل اللّٰه سبحانه وتعالى الإسلام منهجًا يحكم حركة حياة الإنسان ، لأن غير الإنسان محكوم بمنهج قهرى قسرى لا يستطيع أن يتحول عنه . فما السبب فى أن الإنسان هو الذى حكم بمنهج افعل ولا تفعل ، وغيره فى الوجود يفعل بدون منهج وبدون اختيار ؟ ذلك أن الإنسان يملك أداة الاختيار بين البدائل ، وهى العقل ومعنى الاختيار بين البدائل أنه يوجد شىء على ألوان متعددة ، والعقل يرجح واحدة فيها .

إذن .. فالبدائل موجودة وآلة الاختيار بينها وهى العقل موجودة فحين لا توجد بدائل لا يوجد اختيار ، وحين توجد بدائل ، ولكن لا يوجد عقل كالمجنون مثلًا ، فلا تكليف ، لأنه لا يوجد تكليف لمن لم ينضج عقله (١) .

إذن .. ففى الاختيار بين البدائل بدون شىء قهرى عليه يكرهه يكون الحكم بالتكليف ، فإن وجدت قوة تكرهه على أن يفعل غير ما اختاره من البدائل ، نقول : سقط عنك الحكم .

فحين شرع اللّٰه الإسلام لمكلف مختار يعلم أن فى الإنسان شيئين : أنه فى أشياء مسير وفى أشياء مخير ، ففى الأمور الكلية العامة الأُصلية ألزم اللّٰه فيها

---

(١) روى أبو داود [٤٤٠٣] عن على رضى اللّٰه عنه ؛ عن النبى صلى اللّٰه عليه وسلم قال : « رفع القلم عن ثلاثة : عن النائم حتى يستيقظ ، وعن الصبى حتى يحتلم ، وعن المجنون حتى يعقل » . وصححه الألبانى .

ورواه ابن ماجه [٢٠٤١] عن عائشة رضى اللّٰه عنها وفيه : « .... وعن المجنون حتى يعقل أو يفيق » . وصححه الألبانى .

بالحكم ، ولم يجعل للإنسان فيها اختيارًا .. لأن وجودها على لون واحد هو المقصود للإصلاح . مثل حركة الكون كلها ، فما أراده الله واضحًا أتى به محكمًا لا اختلاف فيه ، ففرض خمس صلوات لم يختلف على ذلك أحد ، فلم يقل واحد بأنها أربعة ، وآخر بأنها سبعة مثلًا ، وبعد ذلك قال : الصبح ركعتان ، ولم يختلف على ذلك أحد ، إذن فالأمر الأصلى فى التكليف لم يتركه الله مجالاً للاجتهاد ، بل جاء به واضحًا محكمًا .

هذا يمثل الجانب الإلزامى للإنسان المؤمن ، وهو مأمور بها ، وحكم بها الله عليه كما هى بدون اجتهاد من الإنسان ، كذلك جعل الحق سبحانه وتعالى فى الأحكام مجالاً للاختيار ، وبذلك يصبح كل ما يختار الإنسان هنا داخلًا فيما يريده الحق ، ومثال ذلك إذا أعطيت ولدى جنيهًا وطلبت منه شراء برتقال ، فذهب وأحضر برتقال يوسفى ، أو برتقال بلدى ، أو برتقال سكرى مثلًا ، فإذا اشترى أيًا منها أو خليطًا منها لا يكون قد خرج عن حدود طلبى ، ولكنه لا يستطيع أن يشترى موزًا أو شايًا أو سكرًا مثلًا ؛ لأنه بذلك يخرج عن حدود طلبى ؛ وبذلك فلا يظن ظان بأن الأئمة اختلفوا فى أصل من الأصول أراده الله محكمًا ، فما أراده الله محكمًا لا اختلاف فيه أبدًا .. وجعل الأمر المحكم فيما يفسد لو لم يكن هكذا ، إنما الأمر الذى يصلح على لونين أو ثلاثة أو أكثر تركه الله مبهمًا ، ليعطى للإنسان حرية الاختيار فيه ؛ لأن الله الذى خلق الإنسان قدر اختلاف الزمان والمكان ، ولم يشأ الله أن يجبر الناس على الأحكام الفرعية .. بل تركها للاختيار ، والاجتهاد فى إطار النص العام .

أيضًا كان الصحابة رضوان الله تعالى عليهم يشاهدون الرسول صلى الله عليه وسلم فى أوقات مختلفة من النهار والليل حسب ظروف كلٍّ منهم ، ولم يكونوا جميعًا يجتمعون لديه فى مواعيد محدّدة مثل المدرسة التى تفتح

أبوابها فى الصباح ، ثم تغلقها فى المساء ، فيحصل كل التلاميذ على قدر واحد من المعرفة ، ولكن كل واحد من الصحابة كان يأخذ قدرًا مختلفًا عن الآخر حسب وقت تواجده مع الرسول صلى الله عليه وسلم فإذا وجده أحدهم فى وقت ما يفعل أمرًا من الأمور غير المحكمة بطريقة معينة فيقول لقد فعل الرسول كذا ، ويراه آخر فيقول : لقد فعل النبى كذا ، ولكن هل فعل النبى ما قاله هذا ، ولم يفعل ما قاله الآخر ؟ هذا هو المنطق .

إذن .. فالاختلاف إنما جاء فى أمور الشارع قصدها قصدًا بدليل أن الله سبحانه وتعالى يقول : ﴿ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ﴾ [1] [النساء : ٨٣] .

مثلًا حينما انتهى النبى عليه الصلاة والسلام من غزوة الأحزاب لم يكن قد خلع لباس الحرب بعد ، جاءه جبريل عليه السلام وقال له : اذهب إلى بنى

---

(١) قال القرطبى : قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ ﴾ أى : لم يحدثوا به ولم يفشوه حتى يكون النبى صلى الله عليه وسلم هو الذى يحدث به ويفشيه . أو أولو الأمر وهم أهل العلم والفقه ؛ عن الحسن وقتادة وغيرهما . السدى وابن زيد : الولاة . وقيل : أمراء السرايا . ﴿ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ﴾ أى : يستخرجونه ، أى لعلموا ما ينبغى أن يفشى منه وما ينبغى أن يكتم .

والاستنباط مأخوذ من استنبطت الماء إذا استخرجه . والنبط : الماء المستنبط أول ما يخرج من ماء البئر أول ما تحفر ، وسمى النبط نبطا ؛ لأنهم يستخرجون ما فى الأرض . والاستنباط فى اللغة الاستخراج ، وهو يدل على الاجتهاد إذا عدم النص والإجماع .

الجامع لأحكام القرآن [النساء : ٨٣] .

قريظة لتأديبهم فقال صلى الله عليه وسلم لنفر من أصحابه : « من كان يؤمن بالله ورسوله ، فلا يصلين العصر إلا فى بنى قريظة »[1] .

فاختلف الصحابة ، قالوا : إن العصر لا تصح إلا فى بنى قريظة ، ولكن فى الطريق كانت الشمس تقترب من المغيب ، فقال البعض : إن الرسول عليه الصلاة والسلام أراد أن يتعجلنا ، ولكن الوقت يمر ولابد من أداء الصلاة فى وقتها ، فصلى البعض العصر فى الطريق قبل المغرب ، وآخرون أخّروا الصلاة إلى أن وصلوا إلى بنى قريظة .

وهذا النص محتمل ، ولكن لا خلاف على أن الجميع يريدون أداء صلاة العصر ، ولكن للحدث زمان ومكان ، وعندما قال الرسول عليه الصلاة والسلام « لا يُصَلين العصر إلا فى بنى قريظة » فقد حدد المكان ولما وجد الناس الشمس كادت تغيب تحكم عنصر الزمن ، فأخذ البعض بعنصر الزمن ،

= وقد استنبط الإمام على رضى الله تعالى عنه مدة أقل الحمل - وهو ستة أشهر - من قوله تعالى : ﴿ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا ﴾ [الأحقاف : ١٥] ، وقوله تعالى : ﴿ وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ﴾ [البقرة : ٢٣٣] فإذا فصلنا الحولين من ثلاثين شهرا بقيت ستة أشهر ؛ ومثله كثير .

الجامع لأحكام القرآن [النساء : ٥٩] .

(١) أخرج البخارى [٩٤٦-٤١١٩] عن ابن عمر رضى الله تعالى عنهما قال : قال النبى صلى الله عليه وسلم لنا لما رجع من غزوة الأحزاب : « لا يصلين أحد العصر إلا فى بنى قريظة » ، فأدرك بعضهم العصر فى الطريق فقال بعضهم : لا نصلى حتى نأتيها ، وقال بعضهم : بل نصلى ، لم يرد منا ذلك فذكر للنبى صلى الله عليه وسلم فلم يعنف واحدًا منهم .

وأخذ الآخرون بعنصر المكان ، ولما قالوا للنبى عليه الصلاة والسلام ما حدث ، أقر هذا وأقر هذا .

إذن .. فإن اجتهادات الأئمة جاءت لأن الله أراد لنا أن نجتهد ؛ ولأن الله لم يرد أن تأتى الأحكام على الإنسان فى قالب من الحديد لا يتصرف فيها ؛ وذلك حتى لا يمنع الإنسان من حرية الحركة الفكرية ، وحتى يوجد مجتهدون فيما أباح فيه الاجتهاد . ومثال ذلك آية الوضوء حينما قال الله تعالى : ﴿ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُوا۟ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ ﴾ (1) [المائدة : ٦] .

عندما تحدث الحق عن الوجه فى الوضوء لم يحدد غايته .. لم يقل إلى كذا ؛ لأن الوجه لا يختلف فيه العرب أبدًا ، ولكن اليد يختلف فى تحديدها ، فبعضهم يرى أن اليد هى الكف .. والبعض يرى أنها تصل إلى الكوع .. والآخر يرى أنها تصل إلى الكتف ، والله يريدها إلى المرفق .

---

(١) أخرج البخارى [١٥٩] ومسلم [٣/٢٢٦] عن حمران مولى عثمان بن عفان رضى الله تعالى عنه ؛ أنه رأى عثمان : دعا بإناء فأفرغ على كفيه ثلاث مرار فغسلهما ، ثم أدخل يمينه فى الإناء ، فمضمض واستنشق ، ثم غسل وجهه ثلاثاً ، ويديه إلى المرفقين ثلاث مرار ، ثم مسح برأسه ، ثم غسل رجليه ثلاث مرار إلى الكعبين ، ثم قال : قال رسول الله ﷺ : « من توضأ نحو وضوئى هذا ، ثم صلى ركعتين لا يحدث فيهما نفسه ، غُفر له ما تقدم من ذنبه » .

وعن إبراهيم قال : قال صالح بن كيسان : قال ابن شهاب : ولكن عروة يحدث عن حمران ، فلما توضأ عثمان قال : ألا أحدثكم حديثاً لولا آية ما حدثتكموه ؟ سمعت النبى ﷺ يقول : « لا يتوضأ رجل يحسن وضوءه ، ويصلى الصلاة ، إلا غفر له ما بينه وبين الصلاة حتى يصليها » . قال عروة : الآية ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَـٰتِ ﴾ [البقرة : ١٥٩] .

إذن .. فحينما يريد اللّه التحديد فهو يحدد لكى يمنع الاختلاف .. ولو لم يحدد الحق إلى المرافق واجتهد الأئمة فى ذلك لقلنا لكل مجتهد : إنه اجتهاد يصح ، وقال تعالى : ﴿ وَٱمْسَحُواْ بِرُءُوسِكُمْ ﴾ فنقل من غسل وهو إسالة الماء إلى المسح وهو المسح بالماء بدون أن تقطر فلماذا قال : ﴿ وَٱمْسَحُواْ بِرُءُوسِكُمْ ﴾ ؟ ولو قال : امسحوا رؤوسكم هل كان يوجد مجال للاختلاف ؟

ولو أراد اللّه مسح ربع الرأس ، أو نصفه لقال ذلك ، ولكنه جاء بحرف الباء التى تحمل معان كثيرة ، فيصبح كل من يأخذ بمعنى من معانى الباء ، يصبح آخذًا بالنص .

إذن .. فحين يجتهد الفقهاء ، فهم يذهبون إلى ما يحتمله النص ، كما اجتهادهم فى فهم النص (١) .

---

(١) قال الحافظ ابن كثير : قوله : ﴿ وَٱمْسَحُواْ بِرُءُوسِكُمْ ﴾ اختلفوا فى هذه الباء : هل هى للإلصاق ؟ وهو الأظهر ، أو للتبعيض ؟ وفيه نظر ، على قولين . ومن الأصوليين من قال : هذا مجمل فليرجع فى بيانه إلى السنة . وقد ثبت فى الصحيحين من طريق مالك عن عمرو بن يحيى المازنى ، عن أبيه : « أن رجلاً قال لعبد اللّه بن زيد بن عاصم – وهو جد عمرو بن يحيى – وكان من أصحاب النبى صلى اللّه عليه وسلم : هل تستطيع أن ترينى كيف كان رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم يتوضأ ؟ فقال عبد اللّه بن زيد : نعم ، فدعا بوضوء ، فأفرغ على يديه فغسل يديه مرتين مرتين ، ثم مضمض واستنشق ثلاثاً ، وغسل وجهه ثلاثاً ، ثم غسل يديه مرتين إلى المرفقين ، ثم مسح رأسه بيده ، فأقبل بهما وأدبر ، بدأ بمقدم رأسه ثم ذهب بهما إلى قفاه ثم ردهما حتى رجع إلى المكان الذى بدأ منه ، ثم غسل رجليه »(١) . =

---

(١) رواه البخارى [١٩١] ، ومسلم [١٨/٢٣٥] .

= وروى أبو داود عن معاوية والمقداد بن معد يكرب فى صفة وضوء رسول الله ﷺ مثله [1]. ففى هذه الأحاديث دلالة لمن ذهب إلى وجوب تكميل مسح جميع الرأس ، كما هو مذهب الإمام مالك وأحمد بن حنبل ، لا سيما على قول من زعم أنها خرجت مخرج البيان لما أجمل فى القرآن . وقد ذهب الحنفية إلى وجوب مسح ربع الرأس وهو مقدار الناصية . وذهب أصحابنا إلى أنه إنما يجب ما يطلق عليه اسم مسح ، وهو مقدار ذلك بحد ، بل لو مسح بعض شعره من رأسه أجزاه ! واحتج الفريقان بحديث المغيره بن شعبة ، قال : « تخلف النبى صلى الله عليه وسلم فتخلفت معه ، فلما قضى حاجته قال : هل معك ماء ؟ فأتيته بمطهرة ، فغسل كفيه ووجهه ثم ذهب يحسر عن ذراعيه فضاق كم الجبة ، فأخرج يديه من تحت الجبة وألقى الجبة على منكبيه ، فغسل ذراعيه ، ومسح بناصيته وعلى العمامة وعلى خفيه » . وذكر باقى الحديث ، وهو فى صحيح مسلم وغيره [2] .

فقال لهم أصحاب الإمام أحمد : إنما اقتصر على مسح الناصية ؛ لأنه كمل مسح بقية الرأس على العمامة ، ونحن نقول بذلك ، وأنه يقع عن الموقع ، كما وردت بذلك أحاديث كثيرة ، وأنه كان يمسح على العمامة وعلى الخفين ، فهذا أولى . وليس لكم فيه دلالة على جواز الاقتصار على مسح الناصية أو بعض الرأس غير تكميل على العمامة . والله أعلم .

ثم اختلفوا فى أنه : هل يستحب تكرار مسح الرأس ثلاثاً ، كما هو مذهب أحمد بن حنبل ومن تابعه ؟ على قولين :

فروى عبد الرزاق عن حمران بن أبان ، قال : « رأيت عثمان بن عفان توضأ فأفرغ على يديه ثلاثاً فغسلهما ، ثم تمضمض واستنشق ، ثم غسل وجهه =

---

(١) رواه أبو داود [١٢٤] وصححه الألبانى .

(٢) رواه مسلم [٨١/٢٧٤] .

أما الالتزام بهذه المذاهب ، فالذى له قدرة على فهم كل المنصوص عليه له ألا يتقيد بمذهب ، ولكن بما يهتدى إليه من النص ، فيرجح ما يرجحه ما دام أهلاً للاجتهاد ، وعنده أدوات الاجتهاد وعدته من علم بالقرآن وعلم بالسنة ، واللغة العربية وخلافه ، ولكن من لا قدرة له على ذلك ، فيقلد من يثق فى علمه .

وعندما جاءت المذاهب الأربعة ، واستوعبت كل الأمور وأصبح كل من لا يملك القدرة على الاجتهاد ، يتبع مذهبًا معينًا يصبح الجميع يلتمس منه

= ثلاثاً ، ثم غسل يده اليمنى إلى المرفق ثلاثاً ، ثم غسل اليسرى مثل ذلك ، ثم مسح برأسه ، ثم غسل قدمه اليمنى ثلاثاً ، ثم اليسرى ثلاثاً ، ثم قال : رأيت رسول اللّٰه صلى اللّٰه عليه وسلم توضأ نحو وضُوئى هذا ، ثم قال : من توضأ نحو وضوئى هذا ثم صلى ركعتين لا يحدث فيهما نفسه غُفر له من تقدم من ذنبه » . وأخرجه البخارى ومسلم بنحوه .

وفى سنن أبى داود عن عثمان فى صفة الوضوء : « ومسح برأسه مرة واحدة » وكذا من رواية عبد خير عن على مثله .

واحتج من استحب تكرار مسح الرأس بعموم الحديث الذى رواه مسلم فى صحيحه عن عثمان : « أن رسول اللّٰه صلى اللّٰه عليه وسلم توضأ ثلاثاً ثلاثاً » .

وروى أبو داود عن حمران ، قال : « رأيت عثمان بن عفان توضأ » – فذكر نحوه ، ولم يذكر المضمضة والاستنشاق . قال فيه : « ثم مسح رأسه ثلاثاً . ثم غسل رجليه ثلاثاً ، ثم قال رأيت رسول اللّٰه صلى اللّٰه عليه وسلم توضأ هكذا ، وقال : من توضأ هكذا كفاه » . تفرد به أبو داود . ثم قال : وأحاديث عثمان الصحاح تدل على أنه مسح الرأس مرة واحدة .

عمدة التفسير [٤/٩٣-٩٥] .

نصًّا يجتهد فيه ، ولا يأتي بحكم من عنده ، وما دام الشارع قد ترك الحكم مجالاً للاجتهاد فيه ، ففى ذلك إذنٌ منه بأن كل ما يصل إليه مجتهد حق ، فما دمنا اتفقنا على الأصل محكما ، وتُرك الفرع مبهمًا ، يصبحَ الاجتهاد ضرورة ، والمجتهد إذا أصاب فله أجران ، وإذا أخطأ فله أجر ، لذا يجب على كل مؤمن تحرى الدقة والاحتياط وسؤال المجتهد عن دليله وحجته[1] .

---

(١) أخرج البخارى [٧٣٥٢] ، ومسلم [١٥/١٧١٦] عن عمرو بن العاص رضى اللَّه تعالى عنه أنه سمع رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم قال : « إذا حكم الحاكم فاجتهد ثم أصاب فله أجران ، وإذا حكم فاجتهد ثم أخطأ فله أجر .
قال الحافظ فى الفتح [٣١٨/١٣-٣١٩] : قوله باب أجر الحاكم إذا اجتهد فأصاب أو أخطأ يشير إلى أنه لا يلزم من رد حكمه أو فتواه إذا اجتهد فأخطأ أن يأثم بذلك بل إذا بذل وسعه أُجر فإن أصاب ضوعف أجره لكن لو أقدم فحكم أو أفتى بغير علم لحقه الإثم كما تقدمت الإشارة إليه .
قال ابن المنذر : وإنما يؤجر الحاكم إذا أخطأ إذا كان عالما بالاجتهاد فاجتهد ، وأما إذا لم يكن عالماً فلا . واستدل بحديث القضاة ثلاثة وفيه : ... وقاض قضى بغير حق فهو فى النار ، وقاض قضى وهو لا يعلم فهو فى النار ، وهو حديث أخرجه أصحاب السنن عن بريدة بألفاظ مختلفة ، ويؤيد حديث الباب ما وقع فى قصة سليمان فى حكم داود عليه السلام فى أصحاب الحرث .
وقال الخطابى فى معالم السنن : إنما يؤجر المجتهد إذا كان جامعا لآلة الاجتهاد فهو الذى نعذره بالخطأ بخلاف المتكلف فيخاف عليه ثم إنما يؤجر العالم لأن اجتهاده فى طلب الحق عبادة ، هذا إذا أصاب ، وأما إذا أخطأ فلا يؤجر على الخطأ بل يوضع عنه الإثم فقط ، كذا قال وكأنه يرى أن قوله وله أجر واحد مجاز عن وضع الإثم .

الاجتهاد في الإسلام

السؤال : **ما هو الاجتهاد وما هى أحكامه ؟**

الجواب : إن آفتنا أن القوم المنفلتين دينيًا يريدون أن يخضعوا كل شىء فى الدين لآرائهم .. والآخرون يريدون أن يخضعوا كل شىء للاجتهاد أيضًا .

نقول لهم : كلاكما مخطئ ، فمعنى الاجتهاد أن تبذل وسع الجهد فى أن تعرف الرأى ، وهذا لا يعنى أنها تحتاج إلى بحث ، ولكن المحكمات غاية النفس . والعالم لا يفسد بأى رأى من الآراء فى المسموح فيه بالاجتهاد .. ولكنه يفسد بالأول .. فالذى يفسد به أولاً هو الذى قال لك لا .. أنا الذى سأتحمله .. شىء آخر إن الناس يريدون أن يخضعوا كل قضايا الدين إلى قول الرسول صلى اللّه عليه وسلم : « أنتم أعلم بأمور دنياكم »[١] .. كل شىء يريدون أن يدخلوا فيه هذا الحديث .. علينا أن نفهم أسباب ورود ذلك الحديث ؛ حتى إذا قسنا عليه نكون على بينة .

هذا الحديث ورد فى أمر علمى تجريبى ، وأمر التجربة ليس منوطًا بالمنهج .. أمر التجربة منوط بالأسباب والمسببات المادية . والتجربة المادية لا يدخلها الهوىَ فالعالِم يدخل معمله التجريبى ، وليس له هوى فى نفسه إلا أن يصل إلى الحقيقة .. وما هى الحقيقة ؟ هى ما تهدى إليه العناصر الصماء .. والتفاعلات لا يدخل إليها الهوى أبدًا فكأن اللّه ضمن فى التجربة المادية ألا يدخلها الهوى .

---

(١) جزء من حديث أخرجه مسلم [١٤١/٢٣٦٣] عن أنس رضى اللّه تعالى عنه .

ولكن فى الأمور النظرية يأتى الهوى ، ولكنه قسمها قسمين : قسم يتدخل فيه تدخلا لا يسمح لكم بالاجتهاد فيه ، وقسم آخر من أجل أن يعطيكم حرية البحث فيه حتى لا تكونوا قوالب حديدية ، وأخذ التكاليف على أنها هكذا .. ولكن ليصبح عندك حيوية حركية ، وحيوية اختيار .. ولكن التجربة المادية هذه يستوى فيها الناس لا أحد يختلف فيها لماذا ؟ لأن الهوى لا يدخل فيها .

أقول دائمًا : إننا نلاحظ أن هناك معسكرين الآن : المعسكر الشرقى الروسى ، والمعسكر الأمريكى الغربى الرأسمالى ، وهذان المعسكران على طرفى نقيض فى الكلام النظرى فقط ، إنما فى الأمور المادية هل هناك كهرباء روسى ، وكهرباء أمريكى ؟ أبدًا .. بل العكس المعسكر الروسى يريد أن يسرق ما عندهم من تجارب مادية ، وفى المقابل المعسكر الأمريكى الغربى يريد أن يسرق من الروسى ما عنده ولكن فى المسائل النظرية نجد سدًّا حديديًّا يمنع ذلك .. فهذه يمنعونها والأخرى يسرقونها ، وهذا دليل على أن مسألة التجربة المادية يصح لك أن تتداخل فيها بالفكر الذى خلقه اللَّه لك ، وبالمادة الذى خلقها اللَّه لك ، وبالطاقة المخلوقة من اللَّه لك .

إذن .. التجارب المعملية أنت حر فيها ، وبذلك وضع الإسلام مبدأ العلم التجريبى ، ولكن الأمور النظرية التى تختلف فيها الأهواء جعلها اللَّه تعالى على أمرين :

الأول : شكل محكم .. إن اختلفنا فيه نشقى .

الثانى : إن اختلفنا فيه لا نتعب ، وإن كنا سنتعب من ناحية التعصب ، والتعصب كما نقول دائمًا : إنه جبروت الضعيف .

إذن .. فيجب أن نستقبل قضايا الإسلام على أساس أن كلمة : أَسْلَمَ تقتضى مسلمًا وهو الإنسان .. ومسلمًا إليه .. ومسلمًا فيه .. أنا لا أُسلم نفسى إلى مساو من البشر .. وإنما أُسلم زمامى لمن أثق أنه أقدر منى وأحكم .

هذا هو معنى الإسلام ، وهذا يعنى أن أؤمن بما جاء عن اللّٰه تعالى وعن رسوله ﷺ ، عند هذا الحد انتهت المسألة ، ولنتأمل دقة قول الرسول صلى اللّٰه عليه وسلم ، ولنتأمل الشجاعة الإيمانية فى أن النبى صلى اللّٰه عليه وسلم هو الذى أشار بألا يلقحوا النخل حيث قال لهم : « لو لم تفعلوا لكان خيرا لكم » فلم يفعلوا ، ولم يصلح ، فقال لهم : « أنتم أعلم بشؤون دنياكم »(١) .

ولكن انظر إلى المسائل النظرية التى اختلفوا فيها ، ثم انظر إلى المسائل المادية تجد أن صاحب المسائل المادية ، هو العالم المعملى الذى لا يعلم الناس شقاءه الذى يعيشه وهو وحده فى معمله بين أدواته ولا أحد يدرى به ، ويمكن أن يزهد فى أكله وشربه وهندامه .. من أجل تجربة يقوم بها .. ولا يشعر الناس به إلا عندما تنتهى التجربة ويخرج على الناس بابتكار جديد أو اختراع جديد يفيد الناس ، ولكن من الذى شقى بها ؟ هو وحده فى معمله .

ولكن المسائل النظرية ينعم بها صاحبها ، ويشقى بها المجتمع إلى أن يثبت كلامه ، أو يجىء شخص آخر بنظرية جديدة أو قانون جديد .

إذن .. فلقد أراحنا اللّٰه مما يُشْقِى بداية .. صحيح أن التجارب سترغمكم فيما بعد على أن تصلوا إلى ما شاء اللّٰه ، ولكنه سبحانه رحمة بعباده أراد أن يريحهم من عناء التجربة ؛ لأنه رب وخالق ، ولا يوجد صانع يريد أن يحطم صنعته ، كل صانع يحب صنعته .. واللّٰه يحب خلقه ، ولذلك فقد حذر من مسائل الهوى ، وأباح الاجتهاد .

---

(١) أخرج مسلم [١٤٠/٢٣٦٢] عن رافع بن خديج رضى اللّٰه تعالى عنه قال : قدم نبى اللّٰه ﷺ المدينة وهم يأبرون النخل ، يقولون : يلقحون النخل فقال : ما تصنعون » ؟ قالوا : كنا نصنعه . قال : « لعلكم لو لم تفعلوا كان خيرًا » فتركوه فتفصت أو فنقصت ، قال : فذكروا ذلك له فقال : « إنما أنا بشر ، إذا أمرتكم بشىء من دينكم فخذوا به ، وإذا أمرتكم بشىء من رأى فإنما أنا بشر » .

الغيـــب

السؤال : ما هو مفهوم الغيب في الشريعة الإسلامية ؟

الجواب : الغيب هو ما لا يعلمه إلا اللّٰه سبحانه وتعالى ، قال سبحانه وتعالى : ﴿ عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا ﴿٢٧﴾ ﴾ [الجن] .

وفى هذا دليل على أن أحدا لا يعلم من الغيب إلا من أعلمه اللّٰه كالأنبياء والرسل عن طريق الوحى ليدلل على صدق رسالتهم .

وقمة الغيب هى الإيمان باللّٰه سبحانه وتعالى ، والإيمان بملائكته وكتبه ورسله ، والإيمان باليوم الآخر .. كل هذه أمور غيبية (١) .

---

(١) إشارة إلى الحديث الذى أخرجه مسلم [١/٨] عن عمر بن الخطاب رضى اللّٰه تعالى عنه قال : « بينما نحن عند رسول اللّٰه ﷺ ذات يوم إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب . شديد سواد الشعر لا يرى عليه أثر السفر . ولا يعرفه منا أحد حتى جلس إلى النبى ﷺ فأسند ركبتيه إلى ركبتيه ووضع كفيه على فخذيه ، وقال : يا محمد أخبرنى عن الإسلام ، فقال رسول اللّٰه ﷺ : الإسلام : أن تشهد أن لا إله إلا اللّٰه وأن محمدا رسول اللّٰه ﷺ وتقيم الصلاة ، وتؤتى الزكاة ، وتصوم رمضان ، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلا . قال : صدقت . قال : فعجبنا له يسأله ويصدقه . قال : فأخبرنى عن الإيمان . قال : أن تؤمن باللّٰه ، وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، واليوم الآخر ، وتؤمن بالقدر خيره وشره ، قال : صدقت ، قال : فأخبرنى عن الإحسان . قال : أن تعبد اللّٰه كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك . قال : فأخبرنى عن الساعة . قال : ما المسئول عنها بأعلم من السائل . قال : فأخبرنى عن أمارتها . قال : أن تلد الأمة ربتها . وأن ترى الحفاة العراة ، العالة ، رعاء الشاة ، يتطاولون فى =

= البنيان . قال : ثم انطلق فلبثت مليًا ، ثم قال لى : يا عمر أتدرى من السائل ؟ قلت : اللَّه ورسوله أعلم . قال : فإنه جبريل . أتاكم يعلمكم دينكم .
وقال القرطبى : قال العلماء رحمة اللَّه عليهم : لما تمدح سبحانه بعلم الغيب واستأثر به دون خلقه ، كان فيه دليل على أنه لا يعلم الغيب أحد سواه ، ثم استثنى من ارتضاه من الرسل ، فأودعهم ما شاء من غيبه بطرق الوحى إليهم ، وجعله معجزة لهم ودلالة صادقة على نبوتهم . وليس المنجم ومن ضاهاه ممن يضرب بالحصى وينظر فى الكتب ويزجر بالطير ممن ارتضاه رسول فيطلعه على ما يشاء من غيبه ، بل هو كافر باللَّه مفتر عليه بحدسه وتخمينه وكذبه . قال بعض العلماء : وليت شعرى ما يقول المنجم فى سفينة ركب فيها إنسان على اختلاف أحوالهم ، وتباين رتبهم ، فيهم الملك والسوقة ، والعالم والجاهل ، والغنى والفقير ، والكبير والصغير ، مع اختلاف طوالعهم ، وتباين مواليدهم ، ودرجات نجومهم ؛ فعمهم حكم الغرق فى ساعة واحدة ؟ فإن قال المنجم قبحه اللَّه : إنما أغرقهم الطالع الذى ركبوا فيه ، فيكون على مقتضى ذلك أن هذا الطالع أبطل أحكام تلك الطوالع كلها على اختلافها عند ولادة كل واحد منهم ، وما يقضيه طالعه المخصوص به ، فلا فائدة أبدا فى عمل المواليد ، ولا دلالة فيها على شقى ولا سعيد ، ولم يبق إلا معاندة القرآن العظيم . وفيه استحلال دمه على هذا التنجيم .
ولقد أحسن الشاعر حيث يقول :

حكـم المنجم أن طالع مولدى   يقضى على بميتـة الغـرق
قل للمنجم صحبة الطوفان هل   ولد الجميع بكوكب الغرق

وقيل لأمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى اللَّه تعالى عنه لما أراد لقاء الخوارج : أتلقاهم والقمر فى العقرب ؟ فقال رضى اللَّه تعالى عنه : فأين قمرهم ؟ وكان ذلك فى آخر الشهر . فانظر إلى هذه الكلمة التى أجاب بها ، وما فيها =

= من المبالغة فى الرد على من يقول بالتنجيم ، والإقحام لكل جاهل يحقق أحكام النجوم .

وقال له مسافر بن عوف : يا أمير المؤمنين ! لا تسر فى هذه الساعة وسر فى ثلاث ساعات يمضين النهار . فقال له على رضى اللّه تعالى عنه : ولم ؟ قال : إنك إن سرت فى هذه الساعة أصابك وأصاب أصحابك بلاء وضر شديد ، وإن سرت فى الساعة التى أمرتك بها ظفرت وظهرت وأصبت ما طلبت . فقال على رضى اللّه تعالى عنه : ما كان لمحمد ﷺ منجم ولا لنا من بعده - من كلام طويل يحتج فيه بآيات من التنزيل - فمن صدقك فى هذا القول لم آمن عليه أن يكون كمن اتخذ من دون اللّه ندا أو ضدا ، اللّهم لا طير إلا طيرك ، ولا خير إلا خيرك ، ثم قال للمتكلم : نكذبك ونخالفك ونسير فى الساعة التى تنهانا عنها . ثم أقبل على الناس فقال : يا أيها الناس إياكم وتعلم النجوم إلا ما تهتدون به فى ظلمات البر والبحر ؛ وإنما المنجم كالساحر ، والساحر كالكافر ، والكافر فى النار ، واللّه لئن بلغنى أنك تنظر فى النجوم وتعمل بها لأخلدنك فى الحبس ما بقيت وبقيت ، ولأحرمنك العطاء ما كان لى سلطان . ثم سافر فى الساعة التى نهاه عنها ، ولقى القوم فقتلهم وهى وقعة النهروان الثابتة فى الصحيح لمسلم . ثم قال : لو سرنا فى الساعة التى أمرنا بها وظفرنا وظهرنا لقال قائل سار فى الساعة التى أمر بها المنجم ، ما كان لمحمد ﷺ منجم ولا لنا من بعده ، فتح اللّه علينا بلاد كسرى وقيصر وسائر البلدان - ثم قال : يا أيها الناس ! توكلوا على اللّه وثقوا به ، فإنه يكفى ممن سواه .

الجامع لأحكام القرآن [الجن : ٢٦-٢٧] .

وقال القرطبى فى تأويل قول اللّه تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ ﴾ [البقرة : ٣] . الغيب فى كلام العرب : كل ما غاب عنك ، وهو من ذوات الياء ؛ يقال منه : غابت الشمس تغيب ، والغيبة معروفة . وأغابت المرأة فهى مغيبة إذا غاب =

= عنها زوجها ، ووقعنا فى غيبة وغيابة ، أى هبطة من الأرض ؛ والغيابة : الأجمة ، وهى جماع الشجر يغاب فيها ، ويسمى المطمئن من الأرض : الغيب ؛ لأنه غاب عن البصر .

واختلف المفسرون فى تأويل الغيب هنا ، فقالت فرقة : الغيب فى هذه الآية : اللّه سبحانه . وضعفه ابن العربى . وقال آخرون : القضاء والقدر . وقال آخرون : القرآن وما فيه من الغيوب . وقال آخرون : الغيب كل ما أخبر به الرسول عليه الصلاة والسلام مما لا تهتدى إليه العقول من أشراط الساعة وعذاب القبر والحشر والنشر والصراط والميزان والجنة والنار .

قال ابن عطية : وهذه الأقوال لا تتعارض بل يقع الغيب على جميعها .

قلت : وهذا الإيمان الشرعى المشار إليه فى حديث جبريل عليه السلام حين قال للنبى صلى اللّه عليه وسلم : فأخبرنى عن الإيمان . قال : « أن تؤمن باللّه وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره ». قال : صدقت . وذكر الحديث [1] . وقال عبد اللّه بن مسعود : ما آمن مؤمن أفضل من إيمان بغيب ، ثم قرأ : ﴿ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ ﴾ .

قلت : وفى التنزيل : ﴿ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ﴾ [الأعراف : ٧] ، وقال : ﴿ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ ﴾ [الأنبياء : ٤٩] ، فهو سبحانه غائب عن الأبصار ، غير مرئى فى هذه الدار ، غير غائب بالنظر والاستدلال ، فهم يؤمنون أن لهم ربا قادرا يجازى على الأعمال فهم يخشونه فى سرائرهم وخلوتهم التى يغيبون فيها عن الناس باطلاعه عليهم ، وعلى هذا تتفق الآي ولا تتعارض ، والحمد للّه .

وقيل : ﴿ بِٱلۡغَيۡبِ ﴾ أى : بضمائرهم وقلوبهم بخلاف المنافقين ، وهذا قول حسن . =

(١) سبق تخريجه .

= وقال الشاعر : وبالغيب آمنا وقد كان قومنا يصلون للأوثان قبل محمد

الجامع لأحكام القرآن [البقرة :٣] .

وأخرج البخارى [٧٣٧٩] عن ابن عمر رضى الله تعالى عنهما قال ؛ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مفاتيح الغيب خمس لا يعلمها إلا الله : لا يعلم ما فى غد إلا الله ، ولا يعلم ما تغيض الأرحام إلا الله ، ولا بعلم متى يأتى المطر إلا الله ، ولا تدرى نفس بأى أرض تموت ، ولا يعلم متى تقوم الساعة إلا الله » . وقال تعالى : ﴿ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾ [الأنعام : ٥٩] .

قال القرطبى : جاء فى الخبر أن هذه الآية لما نزلت نزل معها اثنا عشر ألف ملك .

وفى صحيح مسلم [٢٨٧/١٧٧] عن عائشة رضى الله تعالى عنها قالت : من زعم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يخبر بما يكون فى غد فقد أعظم على الله الفرية ؛ والله تعالى يقول : ﴿ قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُۚ ﴾ [النمل : ٦٥] .

ومفاتح جمع مفتح ، وهذه اللغة الفصيحة . يقال : مفتاح ويجمع مفاتيح . وهى قراءة ابن السميقع « مفاتيح » ؛ والمفتح عبارة عن كل ما يحل غلقا محسوسا كالقفل على البيت ، أو معقول كالنظر .

وروى ابن ماجه فى سننه [٢٣٧] وحسنه الألبانى عن أنس بن مالك رضى الله تعالى عنه قال ؛ قال رسول الله ﷺ : « إن من الناس مفاتيح للخير مغاليق للشر ، وإن من الناس مفاتيح للشر مغاليق للخير ، فطوبى لمن جعل الله مفاتيح الخير على يديه ، وويل لمن جعل الله مفاتيح الشر على يديه » .

وهو فى الآية استعارة عن التوصل إلى الغيوب كما يتوصل فى الشاهد بالمفتاح إلى المغيب عن الإنسان ؛ ولذلك قال بعضهم : هو مأخوذ من قول الناس =

وحينما يخبرنا اللّٰه تبارك وتعالى عن ملائكته ونحن لا نراهم .. نقول : ما دام اللّٰه قد أخبرنا بهم فنحن نؤمن بوجودهم . وأخبرنا الحق سبحانه وتعالى عن اليوم الآخر ، فعلينا إذن أن نؤمن باليوم الآخر .. لأن الذى أخبرنا به هو اللّٰه جل جلاله .

إذن .. فحيثية الإيمان بالغيب أن اللّٰه سبحانه وتعالى هو الذى أخبر به .

ولابد أن نعرف أن وجود الشيء مختلف تمامًا عن إدراك هذا الشيء .. فأنت لك روح فى جسدك تهبك الحياة ، أرأيتها ؟ ، أسمعتها ؟ ، أذقتها ؟ ، أشممتها ؟ .. ألمستها ؟ .. الجواب بالطبع لا .. فبأى وسيلة من وسائل الإدراك أدركت أن لك روحًا فى جسدك ؟ بالطبع بأثرها فى إحياء الجسد .

إذن .. فقد عرفت الروح بأثرها ، والروح مخلوق للّٰه .. فكيف تريد وأنت العاجز عن إدراك مخلوق فى جسدك وذاتك وهو الروح ، أن تدرك اللّٰه سبحانه وتعالى .

= افتح على كذا ؛ أى أعطنى أو علمنى ما أتوصل إليه به . فاللّٰه تعالى عنده علم الغيب ، وبيده الطرق الموصلة إليه ، لا يملكها إلا هو ، فمن شاء اطلاعه عليها أطلعه ، ومن شاء حجبه عنها حجبه . ولا يكون ذلك من إفاضته إلا على رسله ؛ بدليل قوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِى مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ ﴾ [آل عمران : ١٧٩] وقال : ﴿ عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ .... ﴿٢٧﴾ ﴾ [الجن] . وقيل : المراد بالمفاتيح خزائن الرزق ؛ عن السدى والحسن ومقاتل والضحاك : خزائن الأرض . وهذا مجاز ، عبر عنها بما يتوصل إليها به . وقيل : غير هذا مما يتضمنه معنى الحديث أى : عنده الآجال ووقت انقضائها . وقيل : عواقب الأعمار وخواتم الأعمال ؛ إلى غير هذا من الأقوال . والأول المختار . واللّٰه أعلم .

ونحن إذ آمنا بالله جل جلاله ، فلابد أن نؤمن بكل ما يخبرنا به وإن لم نَرَه .. ولقد أراد الله تبارك وتعالى - رحمة بعقولنا - أن يقرب لنا قضية الغيب فأعطانا من الكون المادى أدلة على أن وجود الشىء ، وإدراك هذا الوجود شيئان منفصلان تمامًا .

فالجراثيم والميكروبات مثلًا موجودة فى الكون تؤدى مهمتها منذ بداية الخلق .. وكان الناس يشاهدون آثار الأمراض فى أجسادهم من ارتفاع فى الحرارة وحمى وغير ذلك وهم لا يعرفون السبب .. فلما ارتقى العلم وأذن الله لخلقه أن يروا هذه الجراثيم ، جعل بعض العقول قادرة على أن تكتشف المجهر ، الذى يعطينا الصورة مكبرة ؛ لأن العين قدرتها البصرية أقل من أن تدرك هذه المخلوقات الدقيقة .. فلما تقدم العلم واكتشف المجهر .. استطعنا أن نرى هذه الجراثيم .. وعرفنا أن لها دورة حياة وتكاثر إلى آخر ما كشف عنه العلم الحديث .

إذن .. فإن عدم قدرتنا على رؤية الشىء لا يعنى أنه غير موجود .. حيث أن آلة الإدراك وهى البصر عاجزة عن أن تراه ؛ لأنه غاية فى الصغر ، فإذا ما جئت بالمجهر ووضعته على هذه الجراثيم كبرها لك وبالتالى تدخل فى نطاق وسيلة رؤيتك التى هى العين .

وكذلك رؤيتنا للجراثيم والميكروبات ليست دليلاً على أنها خلقت ساعة أن رأيناها ، بل هى موجودة تؤدى مهمتها .. سواء رأيناها أم لم نرها .

فلو حدثنا أحد عن هذه الميكروبات والجراثيم قبل أن نراها رؤية العين .. هل كنا نصدق كلامه ؟ .. الله سبحانه وتعالى ترك بعض خلقه غير مدرك فى زمنه لبعض حقائق الكون ليرتقى الإنسان ويدرك بعد ذلك .. وكان المفروض بعد تقدم العلم وإدراك ما كنا لا ندركه ، أن يزداد المؤمن يقينا ويؤمن غير المؤمن .

العمل فى الإسلام

السؤال : **هل يفرق الإسلام بين عمل وآخر ؟**

الجواب : بالطبع لا .. الإسلام لا يفرق بين عمل وعمل فكل حركة فى الحياة سواء كانت فكرية أو غير فكرية طالما هى تنطلق من منهج الله تعالى وهدى رسوله الكريم صلى الله عليه وسلم فهى عمل شريف .

الخلافة نفسها اعتبرها أبو بكر رضى الله تعالى عنه حرفة .. وكلمة حرفة هنا تعنى : مهنة ، كما تقول : طبيب ، أو مهندس ، كذلك : « سمكرى » أو « سباك » .

ورسول الله صلى الله عليه وسلم سمى كل من ولاه عاملاً من العمال ، فالإسلام لا يعترف بالتفرقة بين الأعمال ما دامت على منهج الحق سبحانه . وقيمة كل امرئ بما يحسنه (1) .

---

(1) حرض الإسلام معتنقيه على بذل الجهد فى عمارة الحياة الدنيا ، والسعى لكسب المال وتثميره بالطرق المشروعة . قال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ خَيۡرُ ٱلۡبَرِيَّةِ ﴾ [البينة : ٧] وقال سبحانه : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجۡعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وُدّٗا ﴾ [مريم : ٩٦] ، وجعل الأفضلية للتقوى ، فقال سبحانه وتعالى : ﴿ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ ﴾ [الحجرات : ١٣] ، وجعل النبى صلى الله عليه وسلم الذى يسعى على عياله من حل فهو المجاهد فى سبيل الله .

وأخرج البخارى [٢٢٦٢] عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه قال ؛ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما بعث الله نبيا إلا رعى الغنم » ، فقال أصحابه : وأنت ؟ فقال : « نعم ، كنت أرعاها على قراريط لأهل مكة » .

وأخرج البخارى [١٩٦٣] عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه قال ؛ قال =

السُّنة شقيقة القرآن

السؤال : يزعم البعض أنه لا داعى للسنة . أو أن القرآن وحده يكفي ، فما موقفنا منهم ، وبماذا نرد عليهم ؟

الجواب : استمرار السنة النبوية حتى يومنا هذا معجزة من باطن معجزة القرآن وعلى الذين يشككون فى السنة أن يفطنوا إلى أن تشككهم فى بقائها يؤدى بهم إلى الشك فى معجزة القرآن نفسها .. ذلك لأن اللّٰه تعالى يقول فى كتابه : ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [النحل : ٤٤] .

ففى السنة النبوية بيان ما نزل فى القرآن .

= رسول اللّٰه صلى اللّٰه عليه وسلم : « لأن يحتطب أحدكم حزمة على ظهره خير من أن يسأل أحدكم فيعطيه أو يمنعه » .

وروى ابن ماجه [٢١٣٨] عن المقدام بن معد يكرب رضى اللّٰه تعالى عنه أن رسول اللّٰه صلى اللّٰه عليه وسلم قال : « ما كسب الرجل كسبا أطيب من عمل يده ... » وصححه الألبانى .

وفى الحديث القدسى الذى ذكره السرخسى فى المبسوط المجلد الخامس – كتاب الكسب – قال رسول اللّٰه صلى اللّٰه عليه وسلم : قال اللّٰه عز وجل : « عبدى حرك يدك أنزل عليك الرزق » .

وروى البخارى [٢٠٧٢] عن المقدام رضى اللّٰه تعالى عنه ؛ عن النبى صلى اللّٰه عليه وسلم « ما أكل أحد طعاما قط خيرا من أن يأكل من عمل يده ، وإن نبى اللّٰه داود عليه السلام كان يأكل من عمل يده » .

وقال الحق فى آية أخرى : ﴿ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾ ﴾ [القيامة] .

فنسب البيان الذى كلف الله به رسوله صلى الله عليه وسلم إلى ذاته تعالى فى قوله : ﴿ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ ﴾ [النحل : ٤٤] ، ﴿ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴾ [القيامة : ١٩] ، فلو لم يكن البيان النبوى حقيقة ملزمة لما جاء فى القرآن منسوبًا إلى الله تعالى .

وقال الله تعالى : ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ [الحشر : ٧] .

وهذا يدل على أن للرسول صلى الله عليه وسلم عملاً مع القرآن .. وما دام له عمل مع القرآن فلابد أن يقوله أو يفعله أو يقره ، وهذه لمن عاصروه .. ومن لم يعاصروه مطلوب منهم أن يأخذوا ما أتى به الرسول صلى الله عليه وسلم أيضًا ، ولذلك لابد من أن يبقى قوله وفعله وتركه وإقراره ، ما بقى الدين .

وإذا كان الرسول صلى الله عليه وسلم قد بلغ عن ربه ثلاثًا وعشرين سنة ، وكلامه وفعله وتقريره صلوات الله تعالى عليه وسلامه لفعل الغير أمامه ، فبالله ليقل لنا المتشككون فى السنة كم ترك النبى صلى الله عليه وسلم من حديث وهو يبين ما أُنزل إليه من ربه كما أمره ربه ؟

إذن .. فلو استعرضنا ما بقى لنا من صحيح الحديث وجدنا أن ما بقى أقل بكثير مما كان يتوقع أن يكون قد تركه .. فقد ترك صلى الله عليه وسلم الكثير من الحديث حتى نصحح المقاييس والمصافى التى نأخذ عنها ما قاله رسول الله صلى الله عليه وسلم .. ولأن يُتْرَكَ شىء مما قاله خير من ان يدخل على حديثه شىء مما لم يقله (١) .

---

(١) وليس معنى هذا أنه فقد شىء من السنة المشرفة ، فالبيان النبوى موضح للقرآن و مفسر له ، وما بأيدينا وما تضمه المخطوطات ودور الكتب فيه الكفاية =

والذين أرادوا أن يكون مرجعنا فى كل أمر هو القرآن فقط . عليهم أن يوجدوا لنا فى القرآن تفاصيل أركان الإسلام فقط .. لا أقول كل تعاليم الدين .. إن هؤلاء الذين أسرفوا على أنفسهم واجترأوا على هذه الفرية بقولهم هذا هم بأنفسهم شهود على أن حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم صادق النسبة إليه ، لأنه صلى الله عليه وسلم ذكرهم ، وأخبر عن وجودهم فى مستقبل الزمان ، فلو لم يقولوا ما قالوه من إنكار السنة ولزوم القرآن وحده لما وجدنا مصداقًا من الواقع لحديثه صلى الله عليه وسلم عنهم .

من ذلك قوله صلى الله عليه وسلم : « يوشك الرجل مُتكئا على أريكته يُحدَّثُ بحديثٍ من حديثى فيقول : بيننا وبينكم كتاب الله عز وجل ، فما وجدنا فيه من حلال استحللناه ، وما وجدنا فيه من حرام حرمناه ، ألا وإن ما حرم رسول الله صلى الله عليه وسلم مثل ما حرم الله »(1) .

فلو لم يكن هؤلاء قد افتروا هذه الفرية لقال المشككون فى حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ولم يحدث . إذن .. فقولهم هذا دليل على صدق ما يدعون كذبه .

ooo

= للبيان ، وقد حفظه الله تعالى من عبث العابثين ، فمعلوم أن للحديث الواحد روايات عديدة وكل صحابى حضر المجلس الذى قيل فيه رواه وأخذه عنه خلق كثير وجم غفير .

(1) رواه ابن ماجه [١٢] عن المقدام بن معْدِ يَكرب الكندى رضى الله تعالى عنه وصححه الألبانى [١٢] .

الإسلام والعلم

السؤال : **هل يتعارض العلم مع الدين ؟ وهؤلاء الذين يزعمون أن الدين ضد العلم ويروجون للعلمانية بهذا المفهوم : فما القول فيهم ؟**

الجواب : إذا كانت العلمانية من العلم فهى بهذا المفهوم تسير فى كل مجالاتها على وفق ما يجيء به العلم .. فما هو العلم ؟ العلم قضية يقينية ، يمكن أن أقيم عليها الدليل ؟

إذن .. فكلمة عِلمانية التى هى من العلم لا تأتى مطلقًا إلا فى الأمور المادية . وفى الأمر المادى التجربة لا تجامل ، لكن الأمر النظرى كيف يكون يقينيًا ؟ لا يمكن .

ومن الذى قال : إن الدين ضد العلم ؟ الدين أول ما نزل : نزل يحض على العلم [1] ، وهو قضية يقينية لا خلاف عليها ، وهناك دليل عليها فى الأمور

---

(١) إشارة إلى قول اللّٰه تعالى : ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥ ﴾ [العلق] . وإشارة للحديث الذى رواه البخارى [٣] ومسلم [٢٥٢/١٦٠] « اقْرَأْ . قَالَ: « مَا أَنَا بِقَارِئٍ » قَالَ : فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الْجَهْدَ ثُمَّ أَرْسَلَنِي فَقَالَ : اقْرَأْ . قَالَ قُلْتُ : مَا أَنَا بِقَارِئٍ قَالَ : فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي الثَّانِيَةَ حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الْجَهْدَ ثُمَّ أَرْسَلَنِي فَقَالَ : اقْرَأْ . فَقُلْتُ : مَا أَنَا بِقَارِئٍ فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي الثَّالِثَةَ حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الْجَهْدَ . ثُمَّ أَرْسَلَنِي فَقَالَ : ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥ ﴾ [العلق] فَرَجَعَ بِهَا رَسُولُ اللّٰهِ صلى اللّٰه عليه وسلم تَرْجُفُ بَوَادِرُهُ =

المادية ، وما جاء دين ـ وخاصة الإسلام ـ ليناهض العلمانية بمعنى العلم ، بل هى فيه بأوسع معانى الكلمة ، وإنما هؤلاء أرادوا أن يقحموا كلمة علمانية على شيء لا يدخل فى قضية العلم ، وهى الأمر النظرى ، يريدون أن يحولوا الأمر النظرى إلى علم .

فنقول فى ذلك : إن هذا ليس علمًا ؛ لأنه ليس قضية يقينية ، فالخطأ أنهم أرادوا بالمقابلة « دولة علمانية » فى مقابل « الدولة الدينية » فنقول لهم : إن المقارنة خطأ ؛ لأن الدين ـ وخاصة الإسلام ـ جاء محرضا على العلم .. لكنه يضع العلم فى مجاله الذى يجلو فيه القضايا اليقينية والحقيقية .

= حَتّى دَخَلَ عَلَى خَدِيجَةَ فَقَالَ : « زَمّلُونِي زَمّلُونِي » فَزَمّلُوهُ حَتّى ذَهَبَ عَنْهُ الرّوْعُ . ثُمّ قَالَ لِخَدِيجَةَ : « أَيْ خَدِيجَةُ ! مَا لِي » وَأَخْبَرَهَا الْخَبَرَ . قَالَ : « لَقَدْ خَشِيتُ عَلَى نَفْسِي » قَالَتْ لَهُ خَدِيجَةُ : كَلاّ . أَبْشِرْ . فَوَاللّهِ لاَ يُخْزِيكَ اللّه أَبَدا . وَاللّهِ إِنّكَ لَتَصِلُ الرّحِمَ وَتَصْدُقُ الْحَدِيثَ وَتَحْمِلُ الْكَلّ وَتَكْسِبُ الْمَعْدُومَ وَتَقْرِي الضّيْفَ وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الْحَقّ . فَانْطَلَقَتْ بِهِ خَدِيجَةُ حَتّى أَتَتْ بِهِ وَرَقَةَ بْنَ نَوْفَلِ بْنِ أَسَدِ بْنِ عَبْدِ الْعُزّى . وَهُوَ ابْنُ عَمّ خَدِيجَةَ أَخِي أَبِيهَا . وَكَانَ امْرَأً تَنَصّرَ فِي الْجَاهِلِيّةِ وَكَانَ يَكْتُبُ الْكِتَابَ الْعَرَبِيّ وَيَكْتُبُ مِنَ الإِنْجِيلِ بِالْعَرَبِيّةِ مَا شَاءَ اللّه أَنْ يَكْتُبَ . وَكَانَ شَيْخا كَبِيرا قَدْ عَمِيَ . فَقَالَتْ لَهُ خَدِيجَةُ : أَيْ عَمّ اسْمَعْ مِنِ ابْنِ أَخِيكَ . قَالَ وَرَقَةُ بْنُ نَوْفَلٍ : يَا ابْنَ أَخِي مَاذَا تَرَى فَأَخْبَرَهُ رَسُولُ اللّهِ صلى اللّه عليه وسلم خَبَرَ مَا رَآهُ . فَقَالَ لَهُ وَرَقَةُ : هَذَا النّامُوسُ الّذِي أُنْزِلَ عَلَى مُوسَى صلى اللّه عليه وسلم . يَا لَيْتَنِي فِيهَا جَذَعا . يَا لَيْتَنِي أَكُونُ حَيّا حِينَ يُخْرِجُكَ قَوْمُكَ . قَالَ رَسُولُ اللّهِ صلى اللّه عليه وسلم : « أَوَ مُخْرِجِيّ هُمْ » قَالَ وَرَقَةُ : نَعَمْ لَمْ يَأْتِ رَجُلٌ قَطّ بِمَا جِئْتَ بِهِ إِلاّ عُودِيَ وَإِنْ يُدْرِكْنِي يَوْمُكَ أَنْصُرْكَ نَصْرا مُؤَزّرا » .

والعلمانية الصحيحة الخاضعة للعلم التجريبى لا تناقض الدين ، والرسول عليه الصلاة والسلام جاء بالأمور التى يمكن أن تختلف فيها الأهواء ، وقرر فيها رأى الدين فلا اجتهاد فيها ، والأمور التى تخضع للتجربة لم يتكلم فيها بشىء .

يعنى بها الأمور العلمية التى يكون الحكم فيها للتجربة لا لكلام أحد ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم يأمرنا ألّا نأخذ الأمور التجريبية من كلام أحد ، ولكن من التجربة نفسها ، أما الأمور التى لا تجربة فيها فهى موجودة فى منهج الله كما قال تعالى : ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ﴾ [الانعام ١٥٣] .

وقال الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ ﴾ [المؤمنون : ٧١] . فالعِلمانية بهذا التفسير لا تقابل الدين .

والعِلمانية فى مجالها الصحيح هى مع الإسلام ، وإنما الإسلام ضد العَلمانية أى : الشعوبية إلا إنكم طرحتم قضية العلم فى قضية الأهواء .. والأهواء لا تعطى علمًا ، أما بخصوص التضاد فى حقيقة الأصل ، فهو غير موجود بين العِلمانية بمفهومها الصحيح وبين الإسلام .

○○○

وما ربك بظلام للعبيد

السؤال : **جاء فى القرآن الكريم أن اللّه تعالى لا يظلم مثقال ذرة ، وأنه سبحانه ليس بظلام للعبيد نرجو توضيح المعني الكريم ؟**

الجواب : يقول اللّه عز وجل : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [النساء : ٤٠] .

هذه الآية الكريمة .. نفت الظلم عن اللّه سبحانه وتعالى ، ثم فى آية أخرى يقول اللّه جل جلاله : ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ [فصلت : ٤٦] .

وقد يأتى واحد ويقول : إن معنى « ظلام » أى : شديد الظلم ، بمعنى : ليس بظلام .. لا تنفى الظلم ولكنها تنفى المبالغة فى الظلم ، نقول : إنك لم تفهم المعنى ، فإن اللّه لا يظلم أحدًا ، الآية الأولى نفت الظلم عن الحق تبارك وتعالى ولو مثقال ذرة بالنسبة للعبد ، والآية الثانية لم تقل للعبد ولكنها قالت : ﴿ لِّلْعَبِيدِ ﴾ ، والعبيد هم كل خلق اللّه .. فلو أصاب كل واحد منهم أقل من ذرة من الظلم مع هذه الأعداد الهائلة .. فإن الظلم يكون كثيرًا جدًّا ، ولو أنه قليل فى كميته إلا أن عدد من سيصاب به هائل .. ولذلك فإن الآية الأولى نفت الظلم عن اللّه سبحانه وتعالى .. والآية الثانية نفت الظلم أيضًا عن اللّه تبارك وتعالى .. ولكن صيغة المبالغة استخدمت لكثرة عدد الذين تنطبق عليهم الآية الكريمة (١) .

---

(١) أخرج مسلم [٢٥٧٧/٥٥] عن أبى ذر رضى اللّه تعالى عنه عن النبى ﷺ فيما رَوَى عن اللّه تبارك وتعالى أنه قال : يا عبادى إنى حرمت الظلم على نفسى وجعلته بينكم مُحرما . فلا تَظَالموا . يا عبادى ! كُلكُم ضال إلا من هَدَيْتُهُ . =

= فاستهدونى أهدكم . يا عبادى ! كلكم جائع إلا من أطعمته . فاستطعمونى أطعمكم . يا عبادى ! كلكم عار إلا من كسوته . فاستكسونى أَكسُكُم . يا عبادى ! إنكم تُخطئون بالليل والنهار ، وأنا أغفر الذنوب جميعا . فاستغفرونى أغفر لكم . يا عبادى ! إنكم لم تبلغوا ضرى فتضرونى . ولن تبلغوا نفعى فتنفعونى . يا عبادى ! لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك فى ملكى شيئًا . يا عبادى ! لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد ما نقص ذلك من ملكى شيئًا . يا عبادى ! لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا فى صعيد واحد فسألونى فأعطيت كل إنسان مسألته ما نقص ذلك مما عندى إلا كما ينقُصُ المخيط إذا أُدخل البحر . يا عبادى ! إنما هى أعمالُكُم أُحصيها لكم ، ثم أُوَفيكم إياهَا . فمن وجد خيرًا فليحمد الله ، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه » .

قال العلامة ابن رجب فى كتاب جامع العلوم والحكم [ص : ٣٥٠] ما نصه : قال الإمام أحمد : هو أشرف حديث لأهل الشام فقوله صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عن ربه : « يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي » يعني : أنه منع نفسه من الظلم لعباده كما قال عز وجل : ﴿ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ ﴾ [ق : ٢٩] . وقال : ﴿ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلۡمٗا لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴾ [آل عمران : ١٠٨] . وقال : ﴿ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلۡمٗا لِّلۡعِبَادِ ﴾ [غافر : ٣١] وقال سبحانه وتعالى : ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ ﴾ [فصلت : ٤٦] وقال سبحانه وتعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ ٱلنَّاسَ شَيۡـٔٗا ﴾ [يونس : ٤٤] وقال : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖۖ ﴾ [النساء : ٤٠] وقال سبحانه وتعالى : ﴿ وَمَن يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَا يَخَافُ ظُلۡمٗا وَلَا هَضۡمٗا ﴾ [طه : ١١٢] والهضم : أن ينقص من جزاء حسناته ، والظلم : أن يعاقب بذنوب غيره . =

= ومثل هذا كثير في القرآن ، وهو مما يدل على أن الله قادر على الظلم ولكن لا يفعله . فضلا منه ، جودا وكرما وإحسانا إلى عباده وقد فسر كثير من العلماء الظلم بأنه : وضع الأشياء في غير مواضعها ، وأما من فسره بالتصرف في ملك الغير بغير إذنه - وقد نقل نحوه عن إياس بن معاوية وغيره - فإنهم يقولون : إن الظلم مستحيل عليه وغيره متصور في حقه ؛ لأن كل ما يفعله فهو تصرف في ملكه وقوله : « وجعلته بينكم محرما فلا تظالموا » يعني : أنه تعالى حرم الظلم على عباده ونهاهم أن يتظالموا فيما بينهم فحرام على كل عبد أن يظلم غيره مع أن الظلم في نفسه محرم مطلقا ، وهو نوعان :

أحدهما : ظلم النفس ، وأعظمه الشرك ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ [لقمان : ١٣] فإن المشرك جعل المخلوق في منزلة الخالق فعبده وتألهه ، فهو وضع الأشياء في غير مواضعها ، وأكثر ما ذكر في القرآن وعيد للظالمين إنما أريد به المشركون كما قال الله عز وجل : ﴿ وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ [البقرة : ٢٥٤] ثم يليه المعاصي على اختلاف أجناسها من كبائر وصغائر .

والثاني : ظلم العبد لغيره وهو المذكور في هذا الحديث ، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم في خطبته في حجة الوداع : « إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا » .

وروي عنه : أنه خطب بذلك في يوم النحر من يوم عرفة وفي اليوم الثاني من أيام التشريق . وفي رواية : ثم قال : « اسمعوا مني تعيشوا ، ألا لا تظالموا ، ألا إنه لا يحل مال امرئ مسلم إلا عن طيب نفس منه » .

وفي الصحيحين عن ابن عمر رضى الله تعالى عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إن الظلم ظلمات يوم القيامة » . =

= وفيهما عن أبي موسى رضي الله تعالى عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته. ثم قرأ: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾ [هود: ١٠٢].

وفي صحيح البخاري عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: « من كانت عنده مظلمة لأخيه فليتحلل منها فإنه ليس ثم دينار ولا درهم من قبل أن يؤخذ لأخيه من حسناته فإن لم يكن له حسنات أخذ من سيئات أخيه فطرحت عليه ».

قوله: « يا عبادي كلكم ضال إلا من هديته فاستهدوني أهدكم. يا عبادي كلكم جائع إلا من أطعمته فاستطعموني أطعمكم. يا عبادي كلكم عار إلا من كسوته فاستكسوني أكسكم. يا عبادي إنكم تخطئون بالليل والنهار وأنا أغفر الذنوب جميعا فاستغفروني أغفر لكم ».

هذا يقتضي أن جميع الخلق مفتقرون إلى الله تعالى في جلب مصالحهم ودفع مضارهم في أمور دينهم ودنياهم، وإن العباد لا يملكون لأنفسهم شيئا من ذلك كله، وإن من لم يتفضل الله عليه بالهدى والرزق فإنه يحرمهما في الدنيا ومن لم يتفضل الله عليه بمغفرة ذنوبه أو خطاياه فإنه يحرمهما في الآخرة.

قال الله تعالى: ﴿ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴾ [الكهف: ١٧] ومثل هذا كثير في القرآن، وقال تعالى: ﴿ مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [فاطر: ٢] وقال: ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا ﴾ [هود: ٦].

وقال تعالى حاكيا عن آدم وزوجه عليهما السلام أنهما: ﴿ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ [الأعراف: ٢٣] وعن نوح عليه الصلاة والسلام أنه قال: ﴿ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ [هود: ٤٧]. =

= وقد استدل إبراهيم الخليل عليه السلام بتفرد الله بهذه الأمور على أنه لا إله غيره ، وأن كل ما أشرك معه باطل . فقال لقومه : ﴿ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٨٢﴾ رَبِّ هَبْ لِى حُكْمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾ [الشعراء]
فإن من تفرد بخلق العبد وهدايته ، وإحيائه وإماتته في الدنيا ومغفرة ذنوبه في الآخرة ؛ مستحق أن يفرد بالإلهية والعبادة والسؤال والتضرع والاستكانة له .
قال الله عز وجل : ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [الروم : ٤٠] .
وفي الحديث دليل على أن الله يحب أن يسأله العباد جميع مصالح دينهم ودنياهم من الطعام والشراب والكسوة وغير ذلك كما يسألونه الهداية والمغفرة .
وفي الحديث : « ليسأل أحدكم ربه حاجته كلها حتى شسع نعله إذا انقطع »
وكان بعض السلف يسأل الله في صلاته كل حوائجه حتى ملح عجينه وعلف شاته . وقوله : « كلكم ضال إلا من هديته » قد ظن بعضهم أنه معارض بحديث عياض بن حمار عن النبي صلى الله عليه وسلم يقول الله عز وجل : « خلقت عبادي حنفاء - وفي رواية مسلمين - فاجتالتهم الشياطين »
وليس كذلك فإن الله خلق بني آدم وفطرهم على قبول الإسلام والميل إليه دون غيره والتهيؤ والاستعداد له بالقوة لكن لا بد للعبد من تعليم الإسلام بالفعل فإنه قبل التعلم جاهل لا يعلم كما قال الله عز وجل : ﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا ﴾ [النحل : ٧٨] وقال لنبيه صلى الله عليه وسلم : ﴿ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ﴾ [الضحى : ٧] والمراد : =

= وجدك غير عالم بما علمك من الكتاب والحكمة كما قال سبحانه وتعالى :
﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَاۚ ﴾ [الشورى : ٥٢] .
فالإنسان يولد مفطورا على قبول الحق فإن هداه الله تعالى سبب له من يعلمه الهدى فصار مهديا بالفعل بعد أن كان مهديا بالقوة وإن خذله الله قيض له من يعلمه ما يغير فطرته كما قال صلى الله عليه وسلم : « كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه » .

وأما سؤال المؤمن من الله الهداية : فإن الهداية نوعان : هداية مجملة : وهي الهداية للإسلام والإيمان ، وهي حاصلة للمؤمن . وهداية مفصلة : وهي هداية إلى معرفة تفاصيل أجزاء الإيمان والإسلام ، وإعانته على فعل ذلك . وهذا يحتاج إليه كل مؤمن ليلا ونهارا . ولهذا أمر الله عباده أن يقرأوا في كل ركعة من صلاتهم قوله : ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ [الفاتحة : ٦] وكان النبي صلى الله عليه وسلم يقول في دعائه بالليل : « اهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم » .

ولهذا يشمت العاطس فيقال له : « يهديكم الله » كما جاءت به السنة . وقد أمر النبي صلى الله عليه وسلم عليا أن يسأل الله السداد والهدى ، وعَلَّمَ الحسن أن يقول في قنوت الوتر : « اللَّهم اهدني فيمن هديت » .

وأما الاستغفار من الذنوب : فهو طلب المغفرة ، والعبد أحوج شيء إليه لأنه يخطئ بالليل والنهار . وقد تكرر في القرآن ذكر التوبة والاستغفار والأمر بهما والحث عليهما . وخرج الترمذي وابن ماجه من حديث أنس رضي الله تعالى عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « كل بني آدم خطاء وخير الخطائين التوابون » . =

= وخرج البخاري من حديث أبي هريرة رضي اللَّه تعالي عنه عن النبي سلى اللَّه عليه وسلم قال : « واللَّه إني لأستغفر اللَّه وأتوب إليه كل يوم مائة مرة » .
وخرج من حديث الأغر المزني رضي اللَّه تعالى عنه سمع النبي صلى اللَّه عليه وسلم يقول : « يا أيها الناس توبوا إلى ربكم فإني أتوب إليه في اليوم مائة مرة » .
وخرجه النسائي ولفظه : « يا أيها الناس توبوا إلى ربكم واستغفروه فإني أتوب إلى اللَّه وأستغفره كل يوم مائة مرة » .
وخرج الإمام أحمد من حديث حذيفة رضي اللَّه تعالى عنه يقال كان في لساني ذرب على أهلي لم أعده إلى غيره فذكرت ذلك للنبي صلى اللَّه عليه وسلم فقال : « أين أنت من الاستغفار يا حذيفة إني لأستغفر اللَّه كل يوم مائة مرة » .
ومن حديث أبي بكر رضي اللَّه تعالى عنه عن النبي صلى اللَّه عليه وسلم قال : « إني أستغفر اللَّه مائة مرة وأتوب إليه » .
وروى النسائي من حديث أبي موسى رضي اللَّه تعالى عنه قال كنا جلوسا فجاء النبي صلى اللَّه عليه وسلم فقال : « ما أصبحت غداة قط إلا استغفرت اللَّه مائة مرة » .
وروى الإمام أحمد وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه من حديث ابن عمر رضي اللَّه تعالي عنهما قال إن كنا لنعد لرسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم في المجلس الواحد مائة مرة يقول : « رب اغفر لي وتب على إنك أنت التواب الرحيم » .
وروى النسائي فى السنن الكبرى [١٠٢٨٨] من حديث أبي هريرة رضي اللَّه تعالى عنه قال : ما رأيت أحدًا أكثر أن يقول : « أستغفر اللَّه وأتوب إليه من رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم » .
وروى الإمام أحمد من حديث عائشة رضي اللَّه تعالى عنها عن النبي صلى اللَّه عليه وسلم أنه كان يقول : « اللَّهم اجعلني من الذين إذا أحسنوا استبشروا وإذا أساءوا استغفروا » . =

= وقوله : « يا عبادي إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني » يعني أن العباد لا يقدرون أن يوصلوا إلى الله نفعا ، فإن الله تعالى في نفسه غني حميد لا حاجة له بطاعات العباد ولا يعود نفعها إليه وإنما هم ينتفعون بها ، ولا يتضرر بمعاصيهم وإنما هم يتضررون بها . قال الله سبحانه وتعالى : ﴿ وَلَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ ۚ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ﴾ [آل عمران : ١٧٦] وقال : ﴿ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ﴾ [آل عمران : ١٤٤] وكان النبي صلى الله عليه وسلم يقول في خطبته : « ومن يعص الله ورسوله فقد غوى ولا يضر إلا نفسه ولا يضر الله شيئا » .

قال الله عز وجل : ﴿ وَإِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا ﴾ [النساء : ١٣١] .

وقال حاكيا عن موسى : ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكْفُرُوٓا۟ أَنتُمْ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴾ [إبراهيم : ٨] .

وقال سبحانه وتعالى : ﴿ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [آل عمران : ٩٧]

وقال : ﴿ لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ ﴾ [الحج : ٣٧]

والمعنى : أنه تعالى يحب من عباده أن يتقوه ويطيعوه كما أنه يكره منهم أن يعصوه ولهذا يفرح بتوبة التائبين أشد من فرح من ضلت راحلته التي عليها طعامه وشرابه بفلاة من الأرض وطلبها حتى أعيى وأيس منها واستسلم للموت وأيس من الحياة ثم غلبته عينه فنام واستيقظ وهي قائمة عنده ، وهذا أعلى ما يتصوره المخلوق من الفرح . هذا كله مع غناه عن طاعات عباده إليه وأنه إنما يعد نفعها إليهم دونه ولكن هذا من كمال جوده وإحسانه إلى عباده ومحبته لنفعهم ودفع الضر عنهم ، فهو يحب من عباده أن يعرفوه ويحبوه ويتقوه ويطيعوه و يتقربوا إليه ، ويحب أن يعلموا أنه لا يغفر الذنوب غيره وأنه قادر على مغفرة ذنوب عباده . كما في رواية عبد الرحمن بن غنم عن أبي ذر لهذا =

= الحديث : « من علم منكم أني ذو قدرة على المغفرة ثم استغفرني غفرت له ولا أبالي » .

وفي الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم : « أن عبدا أذنب ذنبا فقال : يا رب إني فعلت ذنبا فاغفر لي . فقال الله : علم عبدي أن له ربا يغفر الذنوب ويأخذ بالذنب قد غفرت لعبدي » .

وفي حديث على بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم : « أنه لما ركب دابته حمد الله ثلاثا وكبر ثلاثا وقال : سبحانك إني ظلمت نفسي فاغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت . ثم ضحك وقال : إن ربك ليعجب من عبده إذا قال رب اغفر لي ذنوبي ، يعلم أنه لا يغفر الذنوب غيري » .

رواه الإمام أحمد والترمذي وصححه . وفي الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « والله لله أرحم بعباده من الوالدة بولدها » .

كان بعض أصحاب ذي النون يطوف ينادي : آه أين قلبي ؟ من وجد قلبي ؟ فدخل يوما بعض السكك فوجد صبيا يبكي ، وأمه تضربه ثم أخرجته من الدار وأغلقت الباب دونه ، فجعل الصبي يلتفت يمينا وشمالا لا يدري أين يذهب ولا أين يقصد فرجع إلى باب الدار فجعل يبكي ويقول : يا أماه من يفتح لي الباب إذا أغلقت بابك عني ومن الذي يدنيني إذا غضبت علي ؟ فرحمته أمه فنظرت من خلل الباب فوجدت ولدها تجري الدموع على خديه متمعكا في التراب ففتحت الباب وأخذته حتى وضعته في حجرها وجعلت تقبله وتقول : يا قرة عيني ويا عزيز نفسي أنت الذي حملتني على نفسك وأنت الذي تعرضت لما حل بك ، لو كنت أطعتني لم تلق مني مكروها . فتواجد الفتى ثم صاح وقال : قد وجدت قلبي . قد وجدت قلبي . =

= وتفكروا في قوله تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ [آل عمران: ١٣٥] . فإن فيه إشارة إلى أن المذنبين ليس لهم من يلجأون إليه ويعولون عليه في مغفرة ذنوبهم غيره ، وكذلك قوله في حق الثلاثة الذين خلفوا : ﴿ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓا۟ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [التوبة : ١١٨] فرتب توبته على ظنهم أن لا ملجأ من الله إلا إليه ، فإن العبد إذا خاف من مخلوق ؛ هرب منه وفر إلى غيره . وأما من خاف من الله فما له من ملجأ يلجأ إليه . ولا مهرب يهرب إليه إلا هو فيهرب منه إليه كما كان النبي صلى الله عليه وسلم يقول في دعائه : « لا ملجأ ولا منجا منك إلا إليك » وكان يقول : « أعوذ برضاك من سخطك وبعفوك من عقوبتك وبك منك » .

قال الفضيل بن عياض رضي الله تعالى عنه : « ما من ليلة اختلط ظلامها وأرخى الليل سربال سترها إلا نادى الجليل جل جلاله : من أعظم مني جودا والخلائق لي عاصون وأنا لهم مراقب ، أكلؤهم في مضاجعهم كأنهم لم يعصوني ، وأتولى حفظهم كأنهم لم يذنبوا فيما بيني وبينهم ، أجود بالفضل على العاصي وأتفضل على المسيء ؟ من ذا الذي دعاني فلم أستجب إليه ؟ أم من ذا الذي سألني فلم أعطه ؟ أم من الذي أناخ ببابي فنحيته ؟ أنا الفضل ومني الفضل ، أنا الجواد ومني الجود ، وأنا الكريم ومني الكرم . ومن كرمي أن أغفر للعاصين بعد المعاصي ومن كرمي أن أعطي العبد ما سألني وأعطيه ما لم يسألني ، ومن كرمي أن أعطي التائب كأنه لم يعصني . فأين إلى غيره يهرب الخلائق ؟ وأين عن بابه يلتجئ العاصون ؟ » خرجه أبو نعيم .

ولبعضهم في المعنى قائل : =

= أسأت ولم أحسن وجئتك تائبا وأنـي لعبد عن مواليه يهــرب
يؤمل غفرانا فـإن خـاب ظنــه فما أحد منه على الأرض أخيب

فقوله بعد هذا : « يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ؛ ما زاد ذلك في ملكي شيئا ، ولو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك من ملكي شيئا » هو إشارة إلى أن ملكه لا يزيد بطاعة الخلق ولو كانوا كلهم بررة أتقياء قلوبهم على قلب أتقى رجل منهم ، ولا ينقص ملكه بمعصية العاصين ولو كان الجن والإنس كلهم عصاة فجرة قلوبهم على قلب أفجر رجل منهم ، فإنه سبحانه الغني بذاته عمن سواه وله الكمال المطلق في ذاته وصفاته وأفعاله فملكه ملك كامل لا نقص فيه بوجه من الوجوه على أي وجه كان .

ومن الناس من قال : إن إيجاده لخلقه على هذا الوجه الموجود أكمل من إيجاده على غيره وهو خير من وجوده على غيره وما فيه من الشر : فهو شر إضافي نسبي بالنسبة إلى بعض الأشياء دون بعض ، وليس شرا مطلقا بحيث يكون عدمه خيرا من وجوده من كل وجه بل وجوده خير من عدمه وقال : هذا معنى قوله : « بيده الخير » .

ومعنى قول النبي صلى الله عليه وسلم : « والشر ليس إليك » يعني أن الشر المحض الذي عدمه خير من وجوده ؛ ليس موجودا في ملكك ، فإن الله تعالى أوجد خلقه على ما تقتضيه حكمته وعدله ، وخص قوما من خلقه بالفضل وترك آخرين منهم في العدل لما له في ذلك من الحكمة البالغة ، وهذا فيه نظر ، وهو يخالف ما في الحديث من أن جميع الخلق لو كانوا على صفة أكمل خلقه من البر والتقوى ؛ لم يزد ذلك في ملكه شيئا ولا قدر جناح بعوضة ، ولو كانوا على صفة أنقص خلقه من الفجور ؛ لم ينقص ذلك من ملكه شيئا . فدل على أن ملكه كامل على أي وجه كان ، لا يزاد ولا يكمل بالطاعة ولا ينقص بالمعاصي ولا يؤثر فيه شيء . =

= وفي هذا الكلام دليل على أن الأصل في التقوى والفجور هي القلوب ، فإذا بر القلب واتقى ؛ برت الجوارح وإذا فجر القلب فجرت الجوارح . كما قال النبي صلى الله عليه وسلم : « التقوى هٰهنا » وأشار إلى صدره .

فقوله : « لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا في صعيد واحد فسألوني فأعطيت كل إنسان مسألته ؛ ما نقص ذلك مما عندي إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل البحر » .

فالمراد بهذا : ذكر كمال قدرته سبحانه وكمال ملكه وأن ملكه وخزائنه لا تنفد ولا تنقص بالعطاء ولو أعطي الأولين والآخرين من الجن والإنس جميع ما سألوه في مقام واحد . وفي ذلك حث للخلق على سؤاله وإنزال حوائجهم به .

وفي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « يد الله ملأى لا تغيضها نفقة . سحاء الليل والنهار ، أفرأيتم ما أنفق ربكم منذ خلق السماوات والأرض : فإنه لم يغض ما في يمينه » .

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إذا دعا أحدكم فلا يقل اللّهم اغفر لي إن شئت ولكن ليعزم وليعظم الرغبة فإن الله لا يتعاظمه شيء » .

وقال أبو سعيد الخدري رضى الله تعالى عنه : إذا دعوتم الله فارفعوا في المسألة فإن ما عنده لا ينفده شيء ، وإذا دعوتم فاعزموا فإن الله لا مستكره له .

وفي بعض الإسرائيليات يقول الله عز وجل : « أيؤمل غيري للشدائد والشدائد بيدي وأنا الحي القيوم ؟ ويرجى غيري ويطرق بابه بالبكرات وبيدى مفاتيح الخزائن وبابي مفتوح لمن دعانى ؟ من ذا الذي أملني لنائبة فقطعت به ؟ أو من ذا الذي رجاني لعظيم فقطعت به ؟ أو من ذا الذي طرق بابي فلم أفتحه له ؟ أنا غاية الآمال فكيف تنقطع الآمال دوني ؟ أبخيل أنا فيبخلني عبدي ؟ أليس الدنيا والآخرة والكرم والفضل كله لي ؟ فما يمنع المؤملين أن يؤملوني ؟ =

= لو جمعت أهل السماوات والأرض ثم أعطيت كل واحد منهم ما أعطيت الجميع وبلغت كل واحد أمله لم ينقص ذلك من ملكي عضو ذرة ، كيف ينقص ملك أنا قَيِّمُهُ ؟ فيا بؤسا للقانطين من رحمتي ، ويا بؤسا لمن عصاني وتوثب على محارمي » .

وقوله : « ولم ينقص ذلك مما عندي إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل البحر » لتحقيق أن ما عنده لا ينقص البتة ، كما قال سبحانه : ﴿ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ ﴾ [النحل : ٩٦] فإن البحر إذا غمس فيه إبرة ثم أخرجت لم تنقص من البحر بذلك شيئا وكذلك لو فرض أنه شرب منه عصفور مثلا فإنه لا ينقص من البحر ألبتة ، ولهذا ضرب الخضر لموسى عليهما السلام هذا المثل في نسبة علمهما إلى علم اللّٰه عز وجل وهذا لأن البحر لا يزال تمده مياه الدنيا وأنهارها الجارية فمهما أخذ منه لم ينقصه شيء لأنه يمده ما هو أزيد مما أخذ منه . وهكذا طعام الجنة وما فيها ؛ فإنه لا ينقص كما قال تعالى : ﴿ وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ﴿٣٢﴾ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴿٣٣﴾ ﴾ [الواقعة] .

وقد جاء : « كلما نزعت ثمرة ؛ عاد مكانها مثلها » وروي : « مثلاها فهي لا تنقص أبدا » ويشهد لذلك : قول النبي صلى اللّٰه عليه وسلم في خطبة الكسوف : « ورأيت الجنة فتناولت منها عنقودا ولو أخذته لأكلتم منه ما بقيت الدنيا » .

أخرجاه في الصحيحين من حديث ابن عباس رضي اللّٰه تعالى عنهما ورواه الإمام أحمد من حديث جابر ولفظه : « ولو أتيتكم به لأكل منه من بين السماء والأرض لا ينقصونه شيئا » .

وهكذا لحم الطير الذي يأكله أهل الجنة يستخلف ويعود كما كان حيا لا ينقص منه شيء . =

= وقد روي هذا الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم من وجوه فيها ضعف ، وقاله كعب ، وروي أيضا عن أبي أمامة الباهلي من قوله : قال أبو أمامة : وكذلك الشراب يشرب منه حتى تنتهي نفسه ثم يعود مكانه . ورؤى بعض العلماء الصالحين بعد موته بمدة في المنام فقال : « ما أكلت منذ فارقتكم إلا بعض فرخ أما علمتم أن طعام الجنة لا ينفد » .

وقد تبين في الحديث الذي رواه الترمذي وابن ماجه السبب الذي لأجله لا ينقص ما عند الله بالعطاء بقوله : « ذلك بأني جواد واجد ماجد ، أفعل ما أريد ، عطائي كلام وعذابي كلام ، إنما أمري لشيء إذا أردت إنما أقول له كن فيكون » .

وهذا مثل قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [يس : ٨٢] .

وقوله سبحانه وتعالى : ﴿ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [النحل : ٤٠] .

وفي مسند البزار بإسناد فيه نظر من حديث أبي هريرة رضي الله تعالى عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « خزائن الله الكلام فإذا أراد الله شيئا قال له كن فكان » .

فهو سبحانه إذا أراد شيئا من عطاء أو عذاب أو غير ذلك قال له : ﴿ كُن فَيَكُونُ ﴾ فكيف يتصور أن ينقص هذا ، وكذلك إذا أراد أن يخلق شيئا قال له : ﴿ كُن فَيَكُونُ ﴾ .

كما قال : ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [آل عمران : ٥٩] .

وفي بعض الآثار الإسرائيلية : « أوحى الله تعالى إلى موسى عليه الصلاة والسلام : يا موسى . لا تخافن غيري ما دام لي السلطان . وسلطاني دائم لا ينقطع ، يا موسى . لا تهتمن برزقي أبدا ما دامت مملوءة لا تفنى أبدا ، يا موسى . =

= لا تأنس بغيري ما وجدتني أنيسا لك ، متى طلبتني وجدتني ، يا موسى . لا تأمن مكري ما لم تجز الصراط إلى الجنة » .

وقال بعضهم :

لا تخضعن لمخلوق على طمع   فإن ذلك نقص منـك بالدين

واسترزق اللَّه ممـا في خزائنه   فإن رزقك بين الكاف والنـون

وقوله : « يا عبادي إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها » يعني : أنه سبحانه يحصي أعمال عباده ثم يوفيهم إياها بالجزاء عليها . وهذا كقوله : ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝٨ ﴾ [الزلزلة] وقوله : ﴿ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾ [الكهف : ٤٩] .

وقوله تعالى : ﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا ﴾ [آل عمران : ٣٠] .

وقوله سبحانه وتعالى : ﴿ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ ۚ أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ ۚ ﴾ [المجادلة : ٦] .

وقوله : « ثم أوفيكم إياها » الظاهر أن المراد توفيتها يوم القيامة كما في تعالى : ﴿ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۖ ﴾ [آل عمران : ١٨٥] ويحتمل أن المراد : يوفي عباده جزاء أعمالهم في الدنيا والآخرة كما في قوله : ﴿ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ ﴾ [النساء : ١٢٣] .

وقد روي عن النبي صلى اللَّه عليه وسلم أنه فسر ذلك بأن المؤمنين يجازون بسيئاتهم في الدينا ، وتدخر لهم حسناتهم في الآخرة فيوفون أجورهم ، وأما الكافر فإنه يعجل له في الدنيا ثواب حسناته وتدخر له سيئاته فيعاقب بها في الآخرة ويوفيه جزاءها من خير أو شر ، فالشر يجازى به مثله من غير زيادة إلا أن يعفو اللَّه عنه ، والخير تضاعف الحسنة عنه بعشر أمثالها إلى سبعمائة =

= ضعف . إلى أضعاف كثيرة لا يعلم قدرها إلا الله ، كما قال الله سبحانه وتعالى : ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [الزمر : ١٠] وقوله : « فمن وجد خيرا فليحمد الله ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه » إشارة إلى أن الخير كله فضل من الله على عبده من غير استحقاق له ، والشر كله من عند ابن آدم من اتّباع هوى نفسه كما قال عز وجل : ﴿ مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ﴾ [النساء : ٧٩] .

وقال علي رضي الله تعالى عنه : « لا يرجو عبد إلا ربه ولا يخافن إلا ذنبه » . فالله سبحانه إذا أراد توفيق عبد وهدايته ؛ أعانه ووفقه لطاعته . وكان ذلك فضلا منه ورحمة ، وإذا أراد خذلان عبد ؛ وَكَله إلى نفسه وخلى بينه وبينها ، فأغواه الشيطان لغفلته عن ذكر الله واتبع هواه وكان أمره فرطا وكان ذلك عدلا منه فإن الحجة قائمة على العبد بإنزال الكتاب وإرسال الرسول ، فما بقي لأحد من الناس على الله حجة بعد الرسل . فقوله بعد هذا : « فمن وجد خيرا فليحمد الله ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه » إن كان المراد من وجد ذلك في الدنيا ؛ فإنه يكون حينئذ مأمورا بالحمد لله على ما وجده من جزاء الأعمال الصالحة الذي عجل له في الدنيا كما قال : ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [النحل : ٩٧] ويكون مأمورا بلوم نفسه على ما فعلت من الذنوب ، التي وجد عاقبتها في الدنيا . كما قال تعالى : ﴿ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [السجدة : ٢١] فالمؤمن إذا أصابه في الدنيا بلاء رجع إلى نفسه باللوم ودعاه ذلك إلى الرجوع إلى الله بالتوبة والاستغفار .

وفي المسند وسنن أبي داود عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إن المؤمن إذا أصابه سقم ثم عافاه الله منه ؛ كان كفارة لما مضى من ذنوبه وموعظة له =

= فيما يستقبل من عمره ، وإن المنافق إذا مرض وعوفي ؛ كان كالبعير عقله أهله وأطلقوه لا يدري بما عقلوه ولا بما أطلقوه » .

وقال سلمان الفارسي : « إن المسلم ليبتلى فيكون كفارة لما مضى ومستعتبا فيما بقى ، وإن الكافر يبتلى فمثله كمثل البعير أطلق فلم يدر لما أطلق وعقل » وإن كان المراد : من وجد خيرا أو غيره في الآخرة ؛ كان إخبارا منه بأن الذين يجدون الخير في الآخرة يحمدون الله على ذلك ، وأن من وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه حين لا ينفعه اللوم . فيكون الكلام لفظه لفظ الأمر ومعناه الخبر ، كقوله صلى الله عليه وسلم : « من كذب على متعمدا فليتبوأ مقعده من النار » .

والمعنى : أن الكاذب عليه ؛ يتبوأ مقعده من النار . وقد أخبر الله تعالى عن أهل الجنة أنهم يحمدون الله على ما رزقهم من فضله فقال : ﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ ﴾ [الأعراف : ٤٣] .

وقال تعالى : ﴿ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ ﴾ [الزمر : ٧٤] .

وقال تعالى : ﴿ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴿٣٥﴾ ﴾ [فاطر] .

وأخبر عن أهل النار أنهم يلومون أنفسهم أشد المقت فقال تعالى : ﴿ وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم ﴾ [إبراهيم : ٢٢] . =

○ ○ ○

= وقال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى ٱلْإِيمَٰنِ فَتَكْفُرُونَ ﴾ [غافر : ١٠] .

وقد كان السلف الصالح يجتهدون في الأعمال الصالحة حذرا من لوم النفس عند انقطاع الأعمال على التقصير . وفي الترمذي عن أبي هريرة رضي الله تعالي عنه مرفوعا : « ما من ميت يموت إلا ندم ؛ إن كان محسنا ندم على أن لا يكون ازداد ، وإن كان مسيئا ندم أن لا يكون استعتب » وقيل لمسروق : لو قصرت عن بعض ما تصنع من الاجتهاد فقال : والله لو أتاني آت فأخبرني أن الله لا يعذبني لاجتهدت في العبادة . قيل : كيف ذاك ؟ قال : حتى تعذرني نفسي إن دخلت النار أن لا ألومها ؛ أما بلغك في قول الله سبحانه وتعالى : ﴿ وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ ﴾ [القيامة : ٢] إنما لاموا أنفسهم حين صاروا إلى جهنم الزبانية وحيل بينهم وبين ما يشتهون وانقطعت عنهم الأماني ورفعت عنهم الرحمة وأقبل كل امرئ منهم يلوم نفسه .

وكان عامر بن عبد قيس يقول : « والله لأجتهدن ثم والله لأجتهدن ، فإن نجوت فبرحمة الله ، وإلا لم ألم إلا نفسي . وكان زياد بن عياش يقول لابن المنكدر ولصفوان بن سليم : الجد الجد والحذر الحذر . فإن يكن الأمر على ما نرجو كان فضلا ، وإلا لم تلوما إلا أنفسكما » وكان مطرف بن عبد الله يقول : « اجتهدوا في العمل فإن يكن الأمر ما نرجو من رحمة الله وعفوه كانت لنا درجات ، وإن يكن الأمر شديدا كما نخاف ونحذر لم نقل : ﴿ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ﴾ [فاطر : ٣٧] نقول : قد عملنا فلم ينفعنا ذلك » .

حماية عقائد الناس

السؤال : **ما هى الجهة المنوطة بحماية عقائد الناس مما ينشر فى وسائل الإعلام المختلفة ؟**

الجواب : هل المسألة دين أو عبث ؟! إن كان الأمر عبثًا فلندع لأهل العبث أن يتحدثوا فيه .. أما إن كان دينا فلماذا لا يكون أهل الذكر من العلماء هم أهل الاختصاص والمراجعة فيه ؟ (1) .

---

(1) قال الله سبحانه وتعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ﴾ [النساء : ٥٩] .

قال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما : وأولى الأمر منكم ، يعنى أهل الفقه والدين .

وكذا قال مجاهد وعطاء والحسن البصرى وأبو العالية : العلماء . والظاهر – والله أعلم – أنها عامة فى كل أولى الأمر ، من الأمراء والعلماء .

وقال الله سبحانه وتعالى : ﴿ لَوۡلَا يَنۡهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلۡأَحۡبَارُ عَن قَوۡلِهِمُ ٱلۡإِثۡمَ وَأَكۡلِهِمُ ٱلسُّحۡتَۚ ﴾ [المائدة : ٦٣] .

وقال سبحانه تعالى : ﴿ فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴾ [النحل : ٤٣] .

وفى الحديث الشريف الصحيح المتفق على صحته ؛ عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه ؛ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أنه قال : « من أطاعنى فقد أطاع الله ، ومن عصانى فقد عصى الله ، ومن أطاع أميرى فقد أطاعنى ، ومن عصى أميرى فقد عصانى » (1) . =

---

(1) رواه البخارى [٧١٣٧] ، ومسلم [٣٣/١٨٣٥] .

= فهذه أوامر بطاعة العلماء والأمراء ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ أَطِيعُوا اللَّهَ ﴾ أى اتبعوا كتابه ، ﴿ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ ﴾ أى : خذوا سنته ﴿ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ ﴾ [النساء : ٥٩] ، أى فيما أمروكم به من طاعة اللّه لا فى معصية اللّه ؛ فإنه لا طاعة لمخلوق فى معصية اللّه ؛ كما تقدم فى الحديث الصحيح : « إنما الطاعة فى المعروف »(١) .

وروى الإمام أحمد عن عمران بن حصين رضى اللّه تعالى عنه ، عن النبى صلى اللّه عليه وسلم قال : « لا طاعة فى معصية اللّه إنما الطاعة فى المعروف »(٢) .

وقوله : ﴿ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ ﴾ [النساء : ٥٩] ، قال مجاهد وغير واحد من السلف : أى إلى كتاب اللّه وسنة رسوله ، وهذا أمر من اللّه عز وجل بأن كل شيء تنازع الناس فيه من أصول الدين وفروعه أن يردُّوا التنازع فى ذلك إلى الكتاب والسنة كما قال تعالى : ﴿ وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ﴾ [الشورى : ١٠] . فما حكم به كتاب اللّه وسنة رسوله وشهدا له بالصحة فهو الحق ، وماذا بعد الحق إلا الضلال ؟! ولهذا قال تعالى : ﴿ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾ [النساء : ٥٩] . فدل على أن من لم يتحاكم فى محل النزاع إلى الكتاب والسنة ولا يرجع إليهما فى ذلك فليس مؤمنا باللّه ولا باليوم الآخر ، وقوله : ﴿ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ﴾ [النساء : ٥٩] . أى التحاكم إلى كتاب اللّه وسنة رسوله ، والرجوع فى فصل النزاع إليهما ﴿ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾ أى وأحسن عاقبة ومآلا ، كما قاله السّدى وغير واحد ، وقال مجاهد : وأحسن جزاء ، وهو قريب .

عمدة التفسير [٣/٢٠٨-٢٠٩] .

---

(١) أخرجه البخارى [٦٧٢٦] ومسلم [٣٩/١٨٤٠] عن على رضى اللّه تعالى عنه .

(٢) رواه مسلم [٣٩/١٨٤٠] ، وأبو داود [٢٦٢٥] .

وأحب أن أقول إن الأزهر الشريف بلجانة المختلفة هو أقدر جهة فى مصر لبيان كل ما يتعلّق بدين اللّه وأضيف بأن الفتاوى الفردية الآن محتاجة لإعادة نظر ، فالمشاكل معقدة والأمور متشابكة بعد هذا الانفتاح الكبير الذى نراه ونلحظه مما جعل العالم كله أمة واحدة .

○ ○ ○

مواجهة الإلحاد

السؤال : كيف يواجه المسلمون الذين يروجون للإلحاد أو من يقف معهم ؟

الجواب : قال الله تعالى : ﴿ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلْكِتَـٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ ۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ ﴾ [النساء : ١٤٠] .

لا أذهب إليهم .. أعطى مناعة لمن هو معى .. يقاطعهم المجتمع كله .. أقول للناس جميعًا احذروا هؤلاء .

ولنتدبر قوله تعالى : ﴿ سَمِعْتُمْ ﴾ يعنى : مجرد السماع يحتاج إلى موقف .

وهناك فى سورة الأنعام قال سبحانه وتعالى : ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَـٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَـٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾[1] [الأنعام : ٦٨] قال سبحانه فى آية

---

(١) قال ابن كثير فى تأويل قول الله تعالى : ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَـٰتِنَا ﴾ أى : بالتكذيب والاستهزاء ﴿ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ﴾ أى : حتى يأخذوا فى كلام آخر غير ما كانوا فيه من التكذيب ﴿ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَـٰنُ ﴾ والمراد بذلك كل فرد من آحاد الأمة ، أن لا يجلس مع المكذبين الذين يحرفون آيات الله ويضعونها على غير موضعها ، فإن جلس أحد منهم ناسياً ، فلا يقعد بعد الذكر ﴿ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾ . ولهذا ورد فى الحديث : « رفع عن أمتى الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه »[1] . =

---

(١) روى ابن ماجه [٢٠٤٥] عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الله وضع عن أمتى الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه » . وصححه الألبانى فى صحيح ابن ماجه [١٦٦٣] . =

الأنعام : ﴿ رَأَيْتَ ﴾ وقال فى آية النساء : ﴿ سَمِعْتُمْ ﴾ إذن .. مجرد الرؤية أو السماع للذين يخوضون توجب المقاطعة .

ولكن كيف تأتى المقاطعة لهؤلاء الذين يخوضون فى آيات اللّه ؟

= وقال السدى عن أبى مالك وسعيد بن جبير فى قوله : ﴿ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ ﴾ قال : إن نسيتَ فذكرتَ فلا تجلس معهم . وكذا قال مقاتل بن حيان . وهذه الآية هى المشار إليها فى قوله : ﴿ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ ﴾ [النساء : ١٤٠] .

أى : إنكم إذا جلستم معهم وأقررتموهم على ذلك فقد ساويتموهم فى الذى هم فيه .

وقوله : ﴿ وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ ﴾ [الأنعام : ٦٩] .

أى : إذا تجنبوهم فلم يجلسوا معهم فى ذلك فقد برئوا من عهدتهم وتخلصوا من إثمهم .

وقوله : ﴿ وَلَٰكِن ذِكْرَىٰ ﴾ [الأنعام : ٦٩] ، أى : ولكن أمرناكم بالإعراض عنهم حينئذ تذكيرًا لهم عما هم فيه ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ ذلك ولا يعودون إليه .

عمدة التفسير [٤٧-٥/٤٨] .

= وفى رواية عنده [٢٠٤٣] عن أبى ذر قال : قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : « إن اللّه تجاوز عن أمتى الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه » ، وصححه الألبانى فى صحيح ابن ماجه [١٦٦٢] .

وفى رواية عنده [٢٠٤٤] عن أبى هريرة رضى اللّه تعالى عنه قال : قال رسول اللّه ﷺ : « إن اللّه تجاوز لأمتى عما توسوس به صدورها ، مالم تعمل به أو تتكلم به . وما استكرهوا عليه » . وصححه الألبانى فى صحيح ابن ماجه [١٦٦٣] .

القانون المدنى حين يجرم واحدا من المجتمع يحبسه ليعزله عن المجتمع .. ولكن الإسلام لايفعل ذلك .. بل يحبس المجتمع كله عنه ، فالجانى حر ولكن المجنى عليه - وهو المجتمع - محبوس عنه .. وهذا أشد أنواع المقاطعة .

الرسول صلى اللّٰه عليه وسلم فعل ذلك مع الثلاثة المخلَّفين ، حبس المجتمع عنهم ، ليس المجتمع فقط ، بل حبس عنهم أخص من فى المجتمع وهن زوجاتهم .. وتأمل كيف يكون حال من لا يجد زوجته تتعامل معه أو حتى تقربه .

لذلك وصف القرآن حال من قاطعتهم الأمة فقال فى الثلاثة المخلفين :
﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ وَضَاقَتۡ عَلَيۡهِمۡ أَنفُسُهُمۡ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلۡجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيۡهِ ﴾ [التوبة ١١٨] .

وقد يقول قائل : زمان كان المجتمع ملتزما .. والآن الناس لا تقاطع .. أقول : ابحث لماذا أصبح المجتمع غير ملتزم قبل أن تبحث عن المنحرفين ..!!

الأصل ألا تتعامل معه ، وإذا أعطيناه نعطى له مكرمة لا مكافأة .

والذى يجعل المجرم يستشرى فى إجرامه أن المجرم يجد احتراما ولو ظاهريًا من جيرانه ، ولو أن أىّ أحد فعل إجراما وقوطع لعاد صالحا وصلح المجتمع .. ولكن مع الأسف يُكرّم من قبل المنتفعين والأفاقين ..!

إننى أقول للمنحرفين : أعطونى قضية من أقضية الحياة ، العقل المجرد لايحكم بصدقها وحقها . لماذا عندكم حفيظة على الإسلام .. ؟

○○○

يظهره على الدين كله .. كيف ؟

السؤال :

ما معنى قول الله تعالى : ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴾ [التوبة : ٣٣]

الجواب : الحق سبحانه وتعالى قال : ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴾ [التوبة : ٣٣] .

يظهره طواعية أو جبرًا .. اختيارًا أو قهرا .. بملكة الإيمان أو برفع الحاجة .. فلا تخافوا يا أحباء الله على دين الله . إن ربكم سبحانه يقرر فى آية أُحب أن تذكروها دائماً ، يقول تبارك وتعالى : ﴿ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَـٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ ﴾ [الفتح : ٢٨] .

نلحظ أن : ﴿ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ ﴾ جاءت بالرفع على الاستئناف لا بالنصب عطفًا على : ﴿ وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ ﴾ ، لماذا ؟ لأنها عُلْيَا ابتداء .. لم تكن سفلى ثم صارت عُلْيا .. لا .. وإنما هى عليا من الأصل .. وكلمة الكفر سفلى بكلمة الإيمان [1] .

---

(١) جاء في الجزء السادس من كتاب البداية والنهاية للحافظ ابن كثير تحت عنوان : باب ما أخبر به صلى الله عليه وسلم من الكائنات المستقبلة في حياته وبعده . وهذا باب عظيم لا يمكن استقصاء جميع ما فيه لكثرتها ، ولكن نحن نشير =

= إلى طرف منها وبالله المستعان ، وعليه التكلان ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العزيز الحكيم . وذلك منتزع من القرآن ومن الأحاديث ، أما القرآن فقال تعالى في سورة المزمل – وهي من أوائل ما نزل بمكة – : ﴿ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ [المزمل : ٢٠] ومعلوم أن الجهاد لم يشرع إلا بالمدينة بعد الهجرة . وقال تعالى في سورة القمر – وهي مكية – : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ﴿٤٤﴾ سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ ﴾ [القمر] . ووقع هذا يوم بدر وقد تلاها رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو خارج من العريش ورماهم بقبضة من الحصباء فكان النصر والظفر ، وهذا مصداق ذاك . وقال تعالى : ﴿ تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿١﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ﴿٢﴾ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴿٣﴾ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ﴿٤﴾ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ﴿٥﴾ ﴾ [المسد] . فأخبر أن عمه عبد العزى بن عبد المطلب الملقب بأبي لهب سيدخل النار هو وامرأته ، فقدر الله عز وجل أنهما ماتا على شركهما لم يسلما ، حتى ولا ظاهرا ، وهذا من دلائل النبوة الباهرة ، وقال تعالى : ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ [الإسراء : ٨٨] وقال تعالى : ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟ ... ﴿٢٤﴾ ﴾ [البقرة] . فأخبر أن جميع الخليقة لو اجتمعوا وتعاضدوا وتناصروا وتعاونوا على أن يأتوا بمثل هذا القرآن في فصاحته وبلاغته وحلاوته وإحكام أحكامه وبيان حلاله وحرامه وغير ذلك من وجوه إعجازه لما استطاعوا ذلك ، ولما قدروا عليه ولا على عشر سور منه ، بل ولا سورة ، وأخبر أنهم لن يفعلوا ذلك أبدا ، ولن لنفي التأبيد في المستقبل ، ومثل هذا التحدي وهذا القطع وهذا الإخبار الجازم لا يصدر إلا عن واثق بما =

= يخبر به ، عالم بما يقوله ، قاطع أن أحدا لا يمكنه أن يعارضه ، ولا يأتي بمثل ما جاء به عن ربه عز وجل ، وقال تعالى : ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ﴾ [النور: ٥٥] . وهكذا وقع سواء بسواء ، مكن الله هذا الدين وأظهره ، وأعلاه ونشره في سائر الآفاق ، وأنفذه وأمضاه ، وقد فسر كثير من السلف هذه الآية بخلافة الصديق ، ولا شك في دخوله فيها ، ولكن لا تختص به بل تعمه كما تعم غيره ، كما ثبت في الصحيح : « إذا هلك قيصر فلا قيصر بعده ، وإذا هلك كسرى فلا كسرى بعده ، والذي نفسي بيده لتنفقن كنوزهما في سبيل الله »(١) . وقد كان ذلك في زمن الخلفاء الثلاثة أبي بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم وأرضاهم وقال تعالى : ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴾ [التوبة : ٣٣] . وهكذا وقع وعم هذا الدين ، وغلب وعلا على سائر الأديان ، في مشارق الأرض ومغاربها ، وعلت كلمته في زمن الصحابة ومن بعدهم ، وذلت لهم سائر البلاد ، ودان لهم جميع أهلها ، على اختلاف أصنافهم ، وصار الناس إما مؤمن داخل في الدين ، وإما مهادن باذل الطاعة والمال ، وإما محارب خائف وجل من سطوة الإسلام وأهله . وقد ثبت في الحديث : « إن الله زوى لي مشارق الأرض ومغاربها وسيبلغ ملك أمتي ما زوى لي منها »(٢). وقال تعالى : ﴿ قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُوْلِى بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ ﴾ [الفتح : ١٦] . وسواء كان هؤلاء هوازن أو أصحاب =

(١) رواه البخارى [٦٢٥٤] عن جابر بن سمرة رضى الله تعالى عنه واللفظ له ، ومسلم [٧٥/٢٩١٨] عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه .

(٢) رواه مسلم [١٩/٢٢١٥] وأبو داود [٤٢٥٢] والترمذى [٢١٧٦] وابن ماجه [٣٩٥٢] عن ثوبان .

مسيلمة ، أو الروم ، فقد وقع ذلك ، وقال تعالى : ﴿ وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ وَكَفَّ أَيْدِيَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢٠﴾ وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُواْ عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴿٢١﴾ ﴾ [الفتح] . وسواء كانت هذه الأخرى خيبر أو مكة فقد فتحت وأخذت كما وقع به الوعد سواء بسواء ، وقال تعالى : ﴿ لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ ۖ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ ۖ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُواْ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴾ [الفتح : ٢٧] . فكان هذا الوعد في سنة الحديبية عام ست ، ووقع إنجازه في سنة سبع عام عمرة القضاء كما تقدم . وذكرنا هناك الحديث بطوله ، وفيه أن عمر قال : يا رسول الله ألم تكن تخبرنا أنا سنأتي البيت ونطوف به ؟ قال : بلى ، أفأخبرتك أنك تأتيه عامك هذا ؟ قال : لا . قال : فإنك تأتيه وتطوف به . وقال تعالى : ﴿ وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ ﴾ [الأنفال : ٧] . وهذا الوعد كان في وقعة بدر لما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم من المدينة ليأخذ عير قريش ، فبلغ قريشا خروجه إلى عيرهم ، فنفروا في قريب من ألف مقاتل ، فلما تحقق رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه من قدومهم وعده الله إحدى الطائفتين أن سيظفره بها ، إما العير وإما النفير ، فود كثير من الصحابة - ممن كان معه - أن يكون الوعد للعير ، لما فيه من الأموال وقلة الرجال ، وكرهوا لقاء النفير لما فيه من العدد والعدد ، فخار الله لهم وأنجز لهم وعده في النفير بهم بأسه الذي لا يرد ، فقتل من سراتهم سبعون وأسر سبعون وفادوا أنفسهم بأموال جزيلة ، فجمع لهم بين خيري الدنيا والآخرة ، ولهذا قال سبحانه وتعالى : ﴿ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [الأنفال : ٧] . وقد تقدم بيان هذا في غزوة بدر ، وقال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِيٓ أَيْدِيكُم مِّنَ ٱلْأَسْرَىٰٓ إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ =

= ﴿ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الأنفال : ٧٠]
وهكذا وقع فإن اللّٰه عوض من أسلم منهم بخيرى الدنيا والآخرة . ومن ذلك ما ذكره البخاري أن العباس جاء إلى رسول اللّٰه صلى اللّٰه عليه وسلم فقال : يا رسول اللّٰه أعطني ، فإني فاديت نفسي ، وفاديت عقيلا ، فقال له : خذ ، فأخذ في ثوب مقدارا لم يمكنه أن يقله ، ثم وضع منه مرة بعد مرة حتى أمكنه أن يحمله على كاهله ، وانطلق به كما ذكرناه في موضعه مبسوطا . وهذا من تصديق هذه الآية الكريمة ، وقال تعالى : ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَ ﴾ [التوبة : ٢٨] . وهكذا وقع عوضهم اللّٰه عما كان يغدو إليهم مع حجاج المشركين ، بما شرعه لهم من قتال أهل الكتاب ، وضرب الجزية عليهم وسلب أموال من قتل منهم على كفره ، كما وقع بكفار أهل الشام من الروم ومجوس الفرس بالعراق ، وغيرها من البلدان التي انتشر الإسلام على أرجائها ، وحكم على مدائنها وفيفائها قال تعالى : ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴾ [التوبة : ٣٣] . وقال تعالى : ﴿ سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ ۖ فَأَعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ ۖ إِنَّهُمْ رِجْسٌ ﴾ [التوبة : ٩٥] . وهكذا وقع لما رجع صلى اللّٰه عليه وسلم من غزوة تبوك كان قد تخلف عنه طائفة من المنافقين ، فجعلوا يحلفون باللّٰه لقد كانوا معذورين في تخلفهم ، وهم في ذلك كاذبون ، فأمر اللّٰه رسوله أن يجري أحوالهم على ظاهرها ، ولا يفضحهم عند الناس ، وقد أطلعه اللّٰه على أعيان جماعة منهم أربعة عشر رجلا كما قدمناه لك في غزوة تبوك ، فكان حذيفة بن اليمان ممن يعرفهم بتعريفه إياه صلى اللّٰه عليه وسلم . وقال تعالى : ﴿ وَإِن كَادُوا۟ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا ۖ وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [الإسراء : ٧٦] . وهكذا وقع ، لما اشتوروا عليه ليثبتوه أو يقتلوه أو يخرجوه من بين أظهرهم ، =

....

= ثم وقع الرأى على القتل ، فعند ذلك أمر الله رسوله بالخروج من بين أظهرهم ، فخرج هو وصديقه أبو بكر ، فكمنا في غار ثور ثلاثا ، ثم ارتحلا بعدها كما قدمنا ، وهذا هو المراد بقوله : ﴿ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [التوبة : ٤٠] . وهو المراد من قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴾ [الأنفال : ٣٠] . ولهذا قال : ﴿ وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [الإسراء : ٧٦] . وقد وقع كما أخبر فإن الملأ الذين اشتوروا على ذلك لم يلبثوا بمكة بعد هجرته صلى الله عليه وسلم إلا ريثما استقر ركابه الشريف بالمدينة وتابعه المهاجرون والأنصار ، ثم كانت وقعة بدر فقتلت تلك النفوس وكسرت تلك الرؤوس ، وقد كان صلى الله عليه وسلم يعلم ذلك قبل كونه من إخبار الله له بذلك ، ولهذا قال سعد بن معاذ لأمية بن خلف : أما إني سمعت محمدا صلى الله عليه وسلم يذكر أنه قاتلك ، فقال : أنت سمعته ؟ قال : نعم . قال : فإنه والله لا يكذب ، وسيأتي الحديث في بابه . وقد قدمنا أنه عليه السلام جعل يشير لأصحابه قبل الوقعة إلى مصارع القتلى ، فما تعدى أحد منهم موضعه الذي أشار إليه صلوات الله وسلامه عليه . وقال تعالى : ﴿ الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِىٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ۝٣ فِى بِضْعِ سِنِينَ ۗ لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ ۚ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝٤ بِنَصْرِ ٱللَّهِ ۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٥ وَعْدَ ٱللَّهِ ۖ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝٦ ﴾ [الروم] . وهذا الوعد وقع كما أخبر به ، وذلك أنه لما غلبت فارس الروم فرح المشركون ، واغتم بذلك =

= المؤمنون ؛ لأن النصارى أقرب إلى الإسلام من المجوس ، فأخبر اللَّه رسوله صلى اللَّه عليه وسلم بأن الروم ستغلب الفرس بعد هذه المدة بسبع سنين ، وكان من أمر مراهنة الصديق رؤوس المشركين على أن ذلك سيقع في هذه المدة ، ما هو مشهور كما قررنا في كتابنا التفسير ، فوقع الأمر كما أخبر به القرآن ، غلبت الروم فارس بعد غلبهم غلبا عظيما جدا ، وقصتهم في ذلك يطول بسطها ، وقد شرحناها في التفسير بما فيه الكفاية ولله الحمد والمنة . وقال تعالى : ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾ [فصلت : ٥٣] . وكذلك وقع ، أظهر اللَّه من آياته ودلائله في أنفس البشر وفي الآفاق بما أوقعه من الناس بأعداء النبوة ، ومخالفي الشرع ممن كذب به من أهل الكتابين ، والمجوس والمشركين ، ما دل ذوي البصائر والنهى على أن محمدا رسول اللَّه حقا ، وأن ما جاء به من الوحي عن اللَّه صدق ، وقد أوقع له في صدور أعدائه وقلوبهم رعبا ومهابة وخوفا ،كما ثبت عنه في الصحيحين أنه قال : نصرت بالرعب مسيرة شهر ، وهذا من التأييد والنصر الذي آتاه اللَّه عز وجل ، وكان عدوه يخافه وبينه وبينه مسيرة شهر ، وقيل : كان إذا عزم على غزو قوم أرعبوا قبل مجيئه إليهم ، وو روده عليهم بشهر صلوات اللَّه وسلامه عليه دائما إلى يوم الدين . وقال السيوطي في الدر المنثور : أخرج أحمد ومسلم والحاكم وابن مردويه عن عائشة رضي اللَّه عنها أن رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم قال : « لا يذهب الليل والنهار حتى تعبد اللات والعزى » . فقالت عائشة رضي اللَّه تعالى عنها : يا رسول اللَّه إني كنت أظن حين أنزل اللَّه : ﴿ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ﴾ أن ذلك سيكون تاما فقال : إنه سيكون من ذلك إن شاء اللَّه ثم يبعث اللَّه ريحا طيبة فيتوفى من كان في قلبه مثقال حبة من خردل من خير فيبقى من لا خير فيه يرجعون إلى دين آبائهم » . وأخرج أبو الشيخ عن السدي رضي اللَّه =

= تعالى عنه ﴿ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ ﴾ [التوبة : ٣٣] يعني بالتوحيد والقرآن والإسلام . وأخرج ابن مردويه والبيهقي في سننه عن ابن عباس رضي الله عنه في قوله : ﴿ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ ﴾ قال : يظهر الله نبيه صلى الله عليه وسلم على أمر الدين كله فيعطيه إياه كله ولا يخفى عليه شيء منه وكان المشركون واليهود يكرهون ذلك . وأخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي في سننه عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال : بعث الله محمدا صلى الله عليه وسلم ليظهره على الدين كله ، فديننا فوق الملل ، ورجالنا فوق نسائهم ولا يكون رجالهم فوق نسائنا . وأخرج سعيد بن منصور وابن المنذر والبيهقي في سننه عن جابر رضي الله عنه في قوله ﴿ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ﴾ قال : لا يكون ذلك حتى لا يبقى يهودي ولا نصراني صاحب ملة إلا الإسلام حتى تأمن الشاة الذئب والبقرة الأسد والإنسان الحية وحتى لا تقرض فأرة جرابا وحتى توضع الجزية ويكسر الصليب ويقتل الخنزير وذلك إذا نزل عيسى ابن مريم عليه السلام .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن قتادة رضي الله تعالى عنه في قوله : ﴿ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ﴾ قال : الأديان ستة . الذين آمنوا ، والذين هادوا ، والصابئين ، والنصارى ، والمجوس ، والذين أشركوا . فالأديان كلها تدخل في دين الإسلام ، والإسلام لا يدخل في شيء منها ، فإن الله قضى فيما حكم وأنزل أن يظهر دينه على الدين كله ولو كره المشركون . وأخرج عبد بن حميد وأبو الشيخ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه في قوله : ﴿ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ﴾ قال : خروج عيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام . قال القرطبي قوله تعالى : ﴿ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدۡ نَصَرَهُ ٱللَّهُ ﴾ يقول : تعينوه بالنفر معه في غزوة تبوك . عاتبهم الله بعد انصراف نبيه عليه السلام من تبوك . قال النقاش : هذه أول آية نزلت من سورة « براءة » =

شعار حرية الفكر

السؤال : **البعض يدافع عن الملاحدة تحت شعار واسع وهو شعار حرية الفكر ؟**

الجواب : إن أصل التدين يعصم الفكر من أن يخوض فى مسألة الهوى ويلونها لذلك فالمسائل التى ليس فيها هوى الدين ، الدين لم يتعرض لها .. والرسول صلى الله عليه وسلم حسمها فى المسائل التجريبية المعملية كما قال فى مسألة تأبير النخل : « أنتم أعلم بأمور دنياكم »(١) . فالدين يتدخل فى حرية فكر تخدم هوى .

= والمعنى : إن تركتم نصره فالله يتكفل به إذ قد نصره الله في مواطن القلة وأظهره على عدوه بالغلبة والعزة . وقيل : فقد نصره الله بصاحبه في الغار بتأنيسه له وحمله على عنقه وبوفاته ووقايته له بنفسه ومواساته له بماله . قال الليث بن سعد : ما صحب الأنبياء عليهم السلام مثل أبي بكر الصديق . وقال سفيان بن عيينة . خرج أبو بكر بهذه الآية من المعاتبة التي في قوله : ﴿ إِلَّا تَنصُرُوهُ ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا ﴾ [التوبة : ٤٠] . أي : من الملائكة . والكناية في قوله : ﴿ وَأَيَّدَهُۥ ﴾ ترجع إلى النبي صلى الله عليه وسلم . والضميران يختلفان وهذا كثير في القرآن وفي كلام العرب . ﴿ وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ﴾ أي كلمة الشرك . ﴿ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ﴾ قيل : لا إله إلا الله . وقيل : وعد النصر .

(١) روى ابن ماجه [٢٤٧١] عن عائشة رضى الله تعالى عنها ؛ أن النبى صلى الله عليه وسلم سمع صوتا فقال : « ما هذا الصوت ؟ قالوا : النخل يؤبرونها ، فقال : لو لم يفعلوا لصلح فلم يؤبروا عامئذ فصار شيصا فذكروا للنبى صلى الله عليه وسلم ، فقال : إن كان شيئًا من أمر دنياكم فشأنكم به وإن كان من أمور دينكم فإلى » . وصححه الألبانى [٢٠٠٣] .

وقلنا : إن الموجات الحضارية فى العالم لها موجة مادية وموجة نظرية .. المادية خاضعة للعلم المعملى .. وهذه هل اختلفت المعسكرات فيها ؟ .. لا .. ليس هناك كهرباء أمريكية وكهرباء روسية .. المعمل لا يجامل ..!

لذا تجد المعسكرات المتحاربة تسرق من بعضها نتائج العلم المادى ولكنها تغلق أبوابها أمام العلم النظرى .

الدين جاء ليمنع الهوى فى العلم النظرى .. والآفة كلها من تحكم الهوى ، فالذين يعملون هواهم فيما جاء فيه حكم من اللَّه تعالى نقول لهم : لقد خنتم أمانة اللَّه فيكم وصددتم عن غاية الدين فيكم .

لذا عندما أراد اللَّه أن يعطى رسوله المناعة قال فيه : ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝٤ ﴾ [النجم] فمنهج اللَّه حارس لبشرية رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم .

والذين يتبعون أهواءهم لا رأى لهم ، لأن آفة الرأى الهوى كما يقول أهل العلم .

لذلك يقول الحق تبارك وتعالى : ﴿ وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ ﴾ [المؤمنون : ٧١] .

إذن .. فاللَّه يعصمنا من الأهواء ، حتى يكون هوى واحدٌ هو الذى يحكمنا والرسول يشرحها فيقول : « حتى يكون هواه تبعًا لما جئت به »[(١)] .

فعندما تجد فى الأمر اختلافًا فى الأهواء فانظر إلى أمر اللَّه فيه .. افعل ولا تفعل .. فإن لم تفعل فى أمر قال اللَّه فيه « أفعل » حدث الفساد .. وإن

---

(١) رواه البخارى فى كتاب قرة العينين برفع اليدين فى الصلاة رقم [٤٥] وقال الحافظ فى الفتح [٢٩٠/١٣] أخرجه الحسن بن سفيان وغيره ورجاله ثقات ، وقد صححه النووى فى آخر كتاب الأربعين له .

فعلت فى أمر قال اللّٰه فيه « لا تفعل » حدث الفساد .. ومالم يقل اللّٰه فيه « افعل .. ولا تفعل » فمعناه أن الأمر يصلح بوجوده وعدمه [1] .

---

(١) يعلمنا الإسلام أن أول حوار فى تاريخ الكون بدأ بين رب الكون وواحد من

= إن الإسلام قد قدم لأهل الكتاب من اليهود والنصارى ما يمكن وصفه بأعدل برنامج للتعايش والتآخى ونصر القيم التوحيدية الأصيلة التى يفترض أنها تجمع بين أصحاب الرسالات الثلاثة يقول ربنا : ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران : ٦٤] منتهى الإنصاف ! لم يطلب منهم ولا حتى الإيمان بمحمد ، أى صورة سيكون العالم عليها لو أن أهل الكتاب استجابوا لهذه الدعوة النبيلة .

الإسلام أول من أقام دولة متعددة الأديان موحدة المواطنة فى ديننا . تعدد واختلاف البشر دينيا وقوميا هو ظاهرة أبدية تعبر عن إرادة اللّٰه الذى خلقهم شعوبا وقبائل ليتعارفوا ، وليست خطأ عارضا لابد أن يزول بوحدة مزعومة للجنس البشرى !

الإسلام هو الدين الوحيد الذى أعطى الشرعية للأسرة المتعددة الأديان فيجلس على المائدة الواحدة العم المسلم والخالة أو الخال المسيحى أو اليهودى .

هذا عن المسلمين فماذا عن غيرهم ؟

وحتى اليوم وفى نهاية التاريخ والنظام العالمى الجديد ومشارف القرن الحادى والعشرين والطريق إلى المريخ مازالت مدفعية المتنصرين تدك المساجد وترفع الصليب ، أو أصنام الإله راما فوق المآذن ، فعل ذلك الفرنسيون فى منتصف القرن التاسع عشر والبلغار والصرب والهندوك فى نهاية القرن العشرين ، ولكن هل من حادثة واحدة لحرق كنيسة أو كنيست أو صعود المسلمين فى القرن السابع أكرر السابع فوق كنيسة أو كنيس لوضع شعار لا إله إلا اللّٰه يوم اكتسحت جيوش المسلمين العالم ؛ هل أحرقوا كنيسة أو حطموا صليبا ، أو قتلوا قسا أو حاخاما ؟! =

○○○

= **ماذا تعنى حرية الفكر عند الشيوعيين ؟**

تعنى حرية إنكار وجود اللّٰه ، حرية نشر الإلحاد ، حرية التطاول على الأنبياء ، حرية انتهاك حرمات اللّٰه ، حرية تشويه المقدسات ، حرية تأييد كل من يهاجم العقائد ، حرية إلغاء المؤسسات الإسلامية ، حرية مصادرة آراء الأزهر الشريف ، حرية تجريد الإنسان من فطرته ، حرية الدفاع عن كل زنديق ومارق .

بعد هذا أفنحن الذين يقعقع لنا بالشنان أو يخشى منا على حرية المتدينين والأديان ؟!

الأنوار الكاشفة للشيخ محمد متولى الشعراوى [٧٥-٧٩] .

الخلافة الإسلامية

السـؤال :

كيف الرد علي من يزعم أن الخلافة الإسلامية تقوم علي حكم شرعي فاسد رهيب نتاج ظلمات الجاهلية وتم في ظل رغبة كل من المهاجرين والأنصار في تصفية كل طرف للطرف الآخر وسعي كل منها للإمارة لحماية نفسه من الإبادة ؟

الجواب : ربما كانت هناك شبهة من هذا الزعم لو بقيت الخلافة فى المهاجرين والأنصار وحدهم . ولكن الإسلام انساح إلى حضارات كبيرة اجتذبت الإسلام ، لأنه خلصها من مساوئها .

فلو أن الإسلام بقى فى الأوس والخزرج والمهاجرين لصح هذا الزعم ، ولكنه جابه القوتين العظميين فى العالم فى وقت واحد ، يعنى لم يجابه كلا منهما على حدة .

ونحن بهذا نثبت أن الأمة جاءت بنظام قبلته الأمم الحضارية وعاشت به ، ونحن نعلم : إنها أمة أُمية ، فلا يجوز أن يقال إنها قفزة حضارية .

مع أنه خلص حضارتى الفرس والروم من مساوئهما ، وارتضاه أهل هاتين الحضارتين نظامًا لهم ؟ (1) .

---

(1) نقلاً عن كتاب الأنوار الكاشفة لما فى كتاب العشماوى من الخطأ والتضليل والمجازفة التى شرفت مكتبتنا بنشره ردًا على كتاب الخلافة الإسلامية للمستشار محمد سعيد العشماوى .

وهذه شذرات من بعض ما ورد فى القرآن الكريم والسنة المطهرة ، ونقله الأئمة الأعلام إلينا عن خلفاء الرسول صلى اللّه عليه وسلم وصحبه المطهرين : =

= قال القرطبى فى تفسير سورة البقرة [٢٥٣] : وهكذا القول في الصحابة إن شاء الله تعالى اشتركوا في الصحبة ثم تباينوا في الفضائل بما منحهم الله من المواهب والوسائل فهم متفاضلون بتلك مع أن الكل شملتهم الصحبة والعدالة والثناء عليهم وحسبك بقوله الحق : ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ ﴾ [الفتح : ٢٩] إلى آخر السورة . وقال : ﴿ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓا۟ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ۚ ﴾ [الفتح : ٢٦] ثم قال : ﴿ لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ ۚ ﴾ [الحديد : ١٠] وقال : ﴿ لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ ﴾ [الفتح : ١٨] فعم وخص ونفى عنهم الشين والنقص رضي الله عنهم أجمعين ونفعنا بحبهم آمين . وقال القرطبى فى تفسير سورة الفتح [٢٩] روى أبو عروة الزبيري من ولد الزبير: كنا عند مالك بن أنس فذكروا رجلا ينتقص أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقرأ مالك هذه الآية ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ ﴾ حتى بلغ « يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار » . فقال مالك : من أصبح من الناس في قلبه غيظ على أحد من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد أصابته هذه الآية ذكره الخطيب أبو بكر. قلت : لقد أحسن مالك في مقالته وأصاب في تأويله . فمن نقص واحدا منهم أو طعن عليه في روايته فقد رد على الله رب العالمين وأبطل شرائع المسلمين قال الله تعالى : ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ ﴾ الآية . وقال : ﴿ لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ ﴾ [الفتح : ١٨] إلى غير ذلك من الآي التي تضمنت الثناء عليهم والشهادة لهم بالصدق والفلاح قال الله تعالى: ﴿ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ ﴾ [الأحزاب: ٢٣] . وقال : ﴿ لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ﴾ إلى قوله ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴾ [الحشر : ٨] ثم قال عز من قائل : ﴿ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ =

= ﴿ وَٱلۡإِيمَٰنَ مِن قَبۡلِهِمۡ ﴾ إلى قوله : ﴿ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴾ [الحشر : ٩] .
وهذا كله مع علمه تبارك وتعالى بحالهم ومآل أمرهم وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « خير الناس قرني ثم الذين يلونهم » وقال : « لا تسبوا أصحابي فلو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهبا لم يدرك مد أحدهم ولا نصيفه » خرجهما البخاري . وفي حديث آخر : « فلو أن أحدكم أنفق ما في الأرض لم يدرك مد أحدهم ولا نصيفه » . قال أبو عبيد : معناه لم يدرك مد أحدهم إذا تصدق به ولا نصف المد فالنصيف هو النصف هنا . وكذلك يقال للعشر عشير وللخمس خميس وللتسع تسيع وللثمن ثمين وللسبع سبيع وللسدس سديس وللربع ربيع . ولم تقل العرب للثلث ثليث . وفي البزار عن جابر مرفوعا صحيحا : « إن الله اختار أصحابي على العالمين سوى النبيين والمرسلين واختار لي من أصحابي أربعة - يعني أبا بكر وعمر وعثمان وعليا - فجعلهم أصحابي » . وقال : « في أصحابي كلهم خير » . وروى عويم بن ساعدة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الله عز وجل اختارني واختار لي أصحابي فجعل لي منهم وزراء وأختانا وأصهارا فمن سبهم فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين ولا يقبل الله منه يوم القيامة صرفا ولا عدلا» . والأحاديث بهذا المعنى كثيرة فحذار من الوقوع في أحد منهم كما فعل من طعن في الدين فقال : إن المعوذتين ليستا من القرآن وما صح حديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في تثبيتهما ودخولهما في جملة التنزيل إلا عن عقبة بن عامر وعقبة بن عامر ضعيف لم يوافقه غيره عليها فروايته مطروحة . وهذا رد لما ذكرناه من الكتاب والسنة وإبطال لما نقلته لنا الصحابة من الملة . فإن عقبة بن عامر بن عيسى الجهني ممن روى لنا الشريعة في الصحيحين البخاري ومسلم وغيرهما فهو ممن مدحهم الله ووصفهم وأثنى عليهم ووعدهم مغفرة وأجرا عظيما . فمن نسبه أو واحدا من الصحابة إلى =

= كذب فهو خارج عن الشريعة مبطل للقرآن طاعن على رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم . ومتى ألحق واحد منهم تكذيبا فقد سب لأنه لا عار ولا عيب بعد الكفر باللّه أعظم من الكذب وقد لعن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم من سب أصحابه فالمكذب لأصغرهم - ولا صغير فيهم - داخل في لعنة اللّه التي شهد بها رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم وألزمها كل من سب واحدا من أصحابه أو طعن عليه . وعن عمر بن حبيب قال : حضرت مجلس هارون الرشيد فجرت مسألة تنازعها الحضور وعلت أصواتهم فاحتج بعضهم بحديث يرويه أبو هريرة عن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم فرفع بعضهم الحديث وزادت المدافعة والخصام حتى قال قائلون منهم : لا يقبل هذا الحديث على رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم لأن أبا هريرة متهم فيما يرويه وصرحوا بتكذيبه ورأيت الرشيد قد نحا نحوهم ونصر قولهم فقلت أنا : الحديث صحيح عن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم وأبو هريرة صحيح النقل صدوق فيما يرويه عن النبي صلى اللّه عليه وسلم وغيره فنظر إلي الرشيد نظر مغضب وقمت من المجلس فانصرفت إلى منزلي فلم ألبث حتى قيل : صاحب البريد بالباب فدخل فقال لي : أجب أمير المؤمنين إجابة مقتول وتحنط وتكفن فقلت: اللّهم إنك تعلم أني دافعت عن صاحب نبيك وأجللت نبيك أن يطعن على أصحابه فسلمني منه . فأدخلت على الرشيد وهو جالس على كرسي من ذهب حاسر عن ذراعيه بيده السيف وبين يديه النطع فلما بصر بي قال لي : يا عمر ابن حبيب ما تلقاني أحد من الرد والدفع لقولي بمثل ما تلقيتني به فقلت : يا أمير المؤمنين إن الذي قلته وجادلت عنه فيه ازدراء على رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم وعلى ما جاء به إذا كان أصحابه كذابين فالشريعة باطلة والفرائض والأحكام في الصيام والصلاة والطلاق والنكاح والحدود كله مردود غير مقبول فرجع إلى نفسه ثم قال : أحييتني يا عمر بن حبيب أحياك اللّه وأمر =

= لي بعشرة آلاف درهم . قلت : فالصحابة كلهم عدول أولياء الله تعالى وأصفياؤه وخيرته من خلقه بعد أنبيائه ورسله. هذا مذهب أهل السنة والذي عليه الجماعة من أئمة هذه الأمة . وقد ذهبت شرذمة لا مبالاة بهم إلى أن حال الصحابة كحال غيرهم فيلزم البحث عن عدالتهم . ومنهم من فرق بين حالهم في بداءة الأمر فقال : إنهم كانوا على العدالة إذ ذاك ثم تغيرت بهم الأحوال فظهرت فيهم الحروب وسفك الدماء فلا بد من البحث . وهذا مردود فإن خيار الصحابة وفضلاءهم كعلي وطلحة والزبير وغيرهم رضي الله عنهم ممن أثنى الله عليهم وزكاهم ورضي عنهم وأرضاهم ووعدهم الجنة بقوله تعالى : « مغفرة وأجرا عظيما » . وخاصة العشرة المقطوع لهم بالجنة بإخبار الرسول هم القدوة مع علمهم بكثير من الفتن والأمور الجارية عليهم بعد نبيهم بإخباره لهم بذلك . وذلك غير مُسقط من مرتبتهم وفضلهم إذ كانت تلك الأمور مبنية على الاجتهاد وكل مجتهد مصيب .

روى أبو داوود [٤٦٠٧] عن عبد الرحمن بن عمرو السلمي وحجر بن حجر قالا : أتينا العرباض بن سارية وهو ممن نزل فيه : ﴿ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ ﴾ [التوبة : ٩٢] فسلمنا وقلنا أتيناك زائرين وعائدين ومقتبسين فقال العرباض صلى بنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم ثم أقبل علينا فوعظنا موعظة بليغة ذرفت منها العيون ووجلت منها القلوب فقال قائل يا رسول الله كأن هذه موعظة مودع فماذا تعهد إلينا فقال أوصيكم بتقوى الله والسمع والطاعة وإن عبدا حبشيا فإنه من يعش منكم بعدي فسيرى اختلافا كثيرا فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء المهديين الراشدين تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ وإياكم ومحدثات الأمور فإن كل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة . وصححه الألباني . =

= روى البخارى [٣٦٩١] ومسلم [٢/٢٣٨٢] عن أبي سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم جلس على المنبر فقال إن عبدا خيره الله بين أن يؤتيه من زهرة الدنيا ما شاء وبين ما عنده فاختار ما عنده فبكى أبو بكر وقال : فديناك بآبائنا وأمهاتنا فعجبنا له وقال الناس انظروا إلى هذا الشَيخ يخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم عن عبد خيره الله بين أن يؤتيه من زهرة الدنيا وبين ما عنده وهو يقول فديناك بآبائنا وأمهاتنا فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم هو المخير وكان أبو بكر هو أعلمنا به وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم إن من أمن الناس علي في صحبته وماله أبا بكر ولو كنت متخذا خليلا من أمتي لاتخذت أبا بكر إلا خلة الإسلام لا يقين في المسجد خوخة إلا خوخة أبي بكر .

روى البخارى [٣٤٧٤] ومسلم [١٤/٢٣٨٩] عن بن أبي مليكة عن بن عباس رضي الله تعالى عنهما قال إني لواقف في قوم فدعوا الله العمر بن الخطاب وقد وضع على سريره إذا رجل من خلفي قد وضع مرفقه على منكبي يقول رحمك الله إن كنت لأرجو أن يجعلك الله مع صاحبيك لأني كثيرا مما كنت أسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول كنت وأبو بكر وعمر وفعلت وأبو بكر وعمر وانطلقت وأبو بكر وعمر فإن كنت لأرجو أن يجعلك الله معهما فالتفت فإذا هو علي بن أبي طالب .

روى البخارى [٣٤٦٤] ومسلم [١٧/٢٣٩٢] عن أبى هريرة رضي الله تعالى عنه قال سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول بينا أنا نائم رأيتني على قليب عليها دلو فنزعت منها ما شاء الله ثم أخذها ابن أبي قحافة فنزع بها ذنوبا أو ذنوبين وفي نزعه ضعف والله يغفر له ضعفه ثم استحالت غربا فأخذها ابن الخطاب فلم أر عبقريا من الناس ينزع نزع عمر حتى ضرب الناس بعطن . =

= روى أحمد في المسند [٣/٤٠٨] عن نافع بن عبد الحرث قال : خرجت مع رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم حتى دخل حائطا فقال لي أمسك علي الباب فجاء حتى جلس على القف ودلي رجليه في البئر فضرب الباب قلت من هذا قال أبو بكر قلت يا رسول اللَّه هذا أبو بكر قال ائذن له وبشره بالجنة قال فأذنت له وبشرته بالجنة قال فدخل فجلس مع رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم على القف ودلي رجليه في البئر ثم ضرب الباب فقلت من هذا فقال عمر فقلت يا رسول اللَّه هذا عمر قال ائذن له وبشره بالجنة قال فأذنت له وبشرته بالجنة قال فدخل فجلس مع رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم على القف ودلي رجليه في البئر قال ثم ضرب الباب فقلت من هذا قال عثمان فقلت يا رسول اللَّه هذا عثمان قال ائذن له وبشره بالجنة معها بلاء فأذنت له وبشرته بالجنة فجلس مع رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم على القف ودلي رجليه في البئر .

ورواه أبو داوود [٥١٨٨] وقال الألباني : حسن الإسناد .

وروى الترمذي [٣٧٠١] عن كثير مولى عبد الرحمن بن سمرة قال جاء عثمان إلى النبي صلى اللَّه عليه وسلم بألف دينار قال الحسن بن واقع وكان في موضع آخر من كتابي في كمه حين جهز جيش العسرة فينثرها في حجره قال عبد الرحمن فرأيت النبي صلى اللَّه عليه وسلم يقلبها في حجره ويقول ما ضر عثمان ما عمل بعد اليوم مرتين . وحسنه الألباني .

وروى الترمذي [٢٢٢٦] عن سفينة رضي اللَّه تعالى عنه قال قال رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم الخلافة في أمتي ثلاثون سنة ثم ملك بعد ذلك ثم قال لي سفينة أمسك خلافة أبي بكر وخلافة عمر وخلافة عثمان ثم قال لي أمسك خلافة علي قال فوجدناها ثلاثين سنة .وقال الألباني : صحيح .

وروى البخاري [٣٤٨٣] عن أنس بن مالك رضي اللَّه تعالى عنه قال : صعد النبي صلى اللَّه عليه وسلم أحدا ومعه أبو بكر وعمر وعثمان فرجف بهم فضربه برجله وقال اثبت أحد فما عليك إلا نبي أو صديق أو شهيدان . =

....

○○○

= روي الترمذي [٣٧١٢] عن عمران بن حصين رضي الله تعالى عنه قال بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم جيشا واستعمل عليهم علي بن أبي طالب فمضى في السرية فأصاب جارية فأنكروا عليه وتعاقد أربعة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا إذا لقينا رسول الله صلى الله عليه وسلم أخبرناه بما صنع علي وكان المسلمون إذا رجعوا من السفر بدأوا برسول الله صلى الله عليه وسلم فسلموا عليه ثم انصرفوا إلى رحالهم فلما قدمت السرية سلموا على النبي صلى الله عليه وسلم فقام أحد الأربعة فقال يا رسول الله ألم تر إلى علي بن أبي طالب صنع كذا وكذا فأعرض عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قام الثاني فقال مثل مقالته فأعرض عنه ثم قام الثالث فقال مثل مقالته فأعرض عنه ثم قام الرابع فقال مثل ما قالوا فأقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم والغضب يعرف في وجهه فقال ما تريدون من علي ما تريدون من علي ما تريدون من علي إن عليا مني وأنا منه وهو ولي كل مؤمن بعدي .
وقال الألباني : صحيح .

الاتجاه العسكرى في الإسلام

السؤال : **يزعم بعض أعداء الإسلام أن الاتجاه العسكرى فى الإسلام بدأ بغزوة خيبر . ذلك أن أهلها لم يكونوا من المشركين . كما أن أهل خيبر لم يكونوا قد أساءوا إلى النبي أو إلى الإسلام بشيء ؟**

الجواب : هذا كلام لا يستطيع اليهود أنفسهم أن يقولوه ، لماذا ؟ لأن وقائع التاريخ تكذبه . والمسلمون لم يفعلوا ذلك إلا بعد أن حاول بنو النضير أن يغتالوا النبى صلى اللَّه عليه وسلم حين كان عندهم ، وذلك بإلقاء حجر عليه من أعلى أحد المنازل ، فأخبره اللَّه بهذه المؤامرة ، فترك المكان ، وقرر بعدها إجلاء بنى النضير فخرجوا من المدينة ، وذهب زعماؤهم إلى خيبر . وهناك دبروا لإشعال حرب ضد النبى صلى اللَّه عليه وسلم فذهب وفد منهم إلى مكة ، واتفقوا مع أبى سفيان ومع قبيلة غطفان على ذلك .

يعنى يهود خيبر اشتركوا فى تكوين الأحزاب ، وحدثت غزوة الخندق .. ونقض بنو قريظة العهد أيضًا . فهل بعد ذلك يزعم أحد بأن يهود خيبر لم يسيئوا إلى النبى صلى اللَّه عليه وسلم[1] ؟!

---

(١) لما حدث للأحزب ما حدث أرسل رسول اللَّه صلى اللَّه غليه وسلم حذيفة بن اليمان يأتيه بخبرهم ، فوجدهم وقد تهيَّأوا للرحيل ، فرجع إلى رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم ، فأخبره برحيل القوم ، فأصبح رسولُ اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم ، وقد ردَّ اللَّه عدوَّهُ بغيظه ، لم ينالوا خيراً ، وكفاه اللَّه قتالهم ، فصدق وعده ، وأعز جنده ، ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده ، فدخل المدينة ووضع السلاح ، فجاءه جبريل عليه السلام ، وهو يغتسل فى بيت أم سلمة ، =

= فقال : أَوَضَعْتُمُ السلاحَ ؟ إن الملائكة لم تضع بعد أسلحتها ، انهض إلى غزو هؤلاء ، يعنى بنى قريظة ، فنادى رسولُ اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم : « من كان سامعا مطيعا ، فلا يُصلّين العصر إلا فى بنى قريظة [1] ، فخرج المسلمون سِراعاً ، وكان من أمره وأمر بنى قريظة ما قدمناه ، واستشهد يومَ الخندق ويوم قريظة نحو عشرة من المسلمين ، وكان أبو رافع ممن أَلَّبَ الأحزاب على رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم ، ولم يُقتل مع بنى قريظة كما قتل صاحبه حُيى بن أخطب ، ورغبت الخزرج فى قتله مساواةً للأوس فى قتل كعب بن الأشرف ، وكان اللَّه سبحانه وتعالى قد جعل هذين الحيَّيْن يتصاولان بين يدى رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم فى الخيرات ، فاستأذنوه فى قتله ، فأذن لهم فانتدب له رجالٌ كلهم من بنى سلمة ، وهم عبدُ اللَّه بن عتيك ، وهو أمير القوم ، وعبد اللَّه بن أُنيس ، وأبو قتادة ، والحارث بن رِبْعى ، ومسعود بن سنان ، وخُزاعى بن أسود ، فساروا حتى أتوه فى خيبر فى دار له ، فنزلوا عليه ليلاً ، =

(١) أخرجه البخارى [٤١١٩/٦٩] ، ومسلم [١٧٧٠] عن ابن عمر رضى اللَّه تعالى عنهما قال : قال النبى صلى اللَّه عليه وسلم يوم الأحزاب : « لا يصلين أحدكم العصر إلا فى بنى قريظة » ، فأدرك بعضهم العصر فى الطريق ، فقال بعضهم : لا نصلى حتى نأتيها ، وقال بعضهم : بل نصلى لم يرد منا ذلك ، فذُكر ذلك للنبى صلى اللَّه عليه وسلم ، فلم يعنف واحدا منهم ، لفظ البخارى ، ولفظ مسلم : نادى فينا رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم يوم انصرف عن الأحزاب : « لا يصلين أحد الظهر إلا فى بنى قريظة » ، فتخوف ناس فوت الوقت فصلوا دون بنى قريظة ، وقال آخرون : لا نصلى إلا حيث أمرنا رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم وإن فاتنا الوقت ، قال : فما عنف واحدا من الفريقين .
وفى هذا الحديث من الفقه : أنه لا يعاب على من أخذ بظاهر حديث أو آية ، ولا على من استنبط من النص معنى يخصصه .

= فقتلوه ، ورجعوا إلى رسول اللّٰه صلى اللّٰه عليه وسلم ، وكلهم ادعى قتله ، فقال : « أرونى أسيافكم » فلما أروه إياها ، قال لسيف عبد اللّٰه بن أنيس : « هذا الذى قتله أرى فيه أثر الطعام » [1] .

وقال ابن الجوزى : وحاصر رسول اللّٰه صلى اللّٰه عليه وسلم بنى قريظة خمسا وعشرين ليلة حتى أجهدهم الحصار ، وقذف اللّٰه فى قلوبهم الرعب .

وكان حُيَيُّ بن أخطب دخل على بنى قريظة فى حصنهم حين رجعت عنهم قريش وغطفان وفاءً لكعب بن أسد بما كان عاهده عليه ، فلما أيقنوا أن رسول اللّٰه صلى اللّٰه عليه وسلم غير منصرف عنهم حتى يناجزهم قال لهم كعب بن أسد يا معشر يهود قد نزل بكم من الأمر ما ترون ، وإني عارض عليكم خلالاً ثلاثاً فخذوا أيها شئتم ، فقالوا : وما هى ؟ قال نتابع هذا الرجل ونصدقه فواللّٰه لقد تبين لكم أنه نبى مرسل وأنه للذى تجدونه فى كتابكم ، فتأمنون على دمائكم وأبنائكم ونسائكم ، قالوا : لا نفارق حكم التوراة أبداً ولا نستبدل به غيره ، قال : فإذا أبيتم عليّ هذه فهلم فلنقتل أبناءنا ونساءنا ثم نخرج إلى محمد وأصحابه رجالاً مصلتين بالسيوف لم نترك وراءنا ثقلاً حتى يحكم اللّٰه بيننا وبين محمد ، فإن نهلك نهلك ، ولم نترك وراءنا نسلاً نخشي عليه وإن نظهر فلعمرى لتجدن النساء والأبناء ، قالوا : نقتل هؤلاء المساكين فما خير العيش بعدهم ! قال : فإذا أبيتم على هذه فإن الليلة ليلة السبت وإنه عسى أن يكون محمد وأصحابه قد أمِنوا فيها فانزلوا لعلنا نصيب من محمد وأصحابه غِرّة ، قال : نفسد سبتنا ونحدث فيه ما لم يُحدث من كان قبلنا إلا من قد علمت فأصابه ما لم يخف عليك من المسخ ! قال : ما بات رجلٌ منكم منذ ولدته أمه حازماً ليلة واحدة من الدهر! .

ثم إنهم بعثوا إلى رسول اللّٰه صلى اللّٰه عليه وسلم : أن ابعث إلينا أبا لُبَابة بن عبد المنذر ، أخا بنى عمرو بن عوف - وكانوا حلفاء الأوس - نستشيره فى =

---

(١) زاد المعاد [٣/٢٧١ - ٢٧٦] .

= أمرنا فأرسله رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم فلما رأوه قام إليه الرجال وجهش إليه النساء والصبيان يبكون فى وجهه ، فرقّ لهم وقالوا له : يا أبا لبابة أترى أن ننزل على حكم محمد ؟ قال : نعم ، وأشار بيده إلى حَلْقه : إنه الذبح . قال أبو لُبابة : فواللّه ما زالت قدماى من مكانهما حتى عرفت أنى قد خُنْت اللّه ورسوله ، ثم انطلق أبو لبابة على وجهه ولم يأت رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم حتى ارتبط فى المسجد إلى عمود من عمده . وقال : لا أبرح مكانى هذا حتى يتوب اللّه علىّ مما صنعت ، وعاهَد اللّه : أن لا أطأ بنى قريظة أبداً ولا أرى فى بلد خنت اللّه ورسوله فيه أبدا .

فلما بلغ رسولَ اللّه صلى اللّه عليه وسلم خبره وكان قد استبطأه قال : « أمَا إنه لو كان جاءنى لاستغفرت له ، فأمّا إذ فعل ، فما أنا بالذى أطلقه من مكانه حتى يتوب اللّه عليه » ، فنزلت توبته على رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم وهو فى بيت أم سلمة ، قالت : سمعت رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم من السَّحر وهو يضحك ، قلت : مم تضحك أضحك اللّه سنك ؟ قال : « تِيب على أبى لبابة » ، قالت : قلت : أفلا أبشره يا رسول اللّه . قال : « بلي إن شئت » . قال : فقامت على باب حجرتها ، وذلك قبل أن يضرب عليهن الحجاب فقالت : يا أبا لبابة أبشر فقد تاب اللّه عليك ، قالت : فثار الناس إليه ليُطْلقوه فقال : لا واللّه حتى يكون رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم هو الذى يطلقنى بيده ، فلما مرَّ عليه خارجاً إلى صلاة الصبح أطلقه .

وذكر ابن هشام أن أبا لبابة أقام مرتبطاً بالجذع ست ليال تأتيه امرأته فى كل وقت صلاة فتحله للصلاة ، ثم يعود فترتبطه بالجذع .

والآية التى نزلت فى توبته : ﴿ وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُواْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [التوبة : ١٠٢] وأنزل اللّه فى أبى لبابة ، فيما روي عن عبد اللّه بن قتادة : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ =

= ﴿لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَـٰنَـٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْـلَمُونَ﴾ [الأنفال : ٢٧] .
ثم إن ثعلبة بن سَعْيَة وأسيد بن سَعْية وأسد بن عمير وهم نفر من بنى هُذَيْل ليسوا من بنى قريظة ولا بنى النضير ، نسَبهم فوق ذلك هم بنو عم القوم ، أسلموا تلك الليلة التى نزلت فيها بنو قريظة على حكم رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم فأحرزوا دماءهم وأموالهم ، وكان إسلامهم فيما زعموا عمّا كان ألقاه إليهم من أمر رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم ابن الهيّبان القادم عليهم قبل الإسلام متوكِّفًا لخروج رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم محققًا لنبوته ، فنفع اللَّه هؤلاء الثلاثة بذلك واستنقذهم به من النار .
وخرج فى تلك الليلة عمر بن سُعْدَى القُرظي ، فمرّ بحرس رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم وعليه محمد بن مَسْلمة ، فلما رآه قال : من هذا ؟ قال : أنا عمرو بن سُعدى ، وكان عمرو قد أبىَ أن يدخل مع بنى قريظة فى غَدْرهم برسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم وقال : لا أغدر بمحمد أبدا ، فقال محمد بن مَسْلمة حين عرفه : اللَّهُمَّ لا تحرمنى إقالة عثراتِ الكرام ! ثم خلى سبيله ، فخرج على وجهه حتى بات فى مسجد رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم بالمدينة تلك الليلة ثم ذهب فلم يُدْرَ أين توجّه من الأرض إلى يوم هذا ، فذكر شأنهُ لرسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم فقال : ذاك رجلٌ نجّاه اللَّه بوفائه ، وبعض الناس يزعم أنه كان أوثق برُمَّةٍ فيمن أوثق من بنى قريظة حين نزلوا على حكم رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم ، فأصبحت رُمَّته ملقاة ولا يدرى أين ذهب . فقال رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم فيه تلك المقالة . فاللَّه أعلم أىّ ذلك كان ، ولما نزل بنو قريظة على حكم رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم تواثبت الأوسُ فقالوا : يا رسول اللَّه إنهم مَوَالينا دون الخزرج ، وقد فعلتَ فى موالى إخواننا بالأمس ما قد علمت – يريدون بنى قَيْنقاع – وما كان من حصار رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم لهم ونزولهم على حكمه ، وكيف سأله إياهم عبدُ اللَّه بن أُبىّ =

= ابن سَلُول فوهبهم له ، فلما كلمته الأوس قال رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم : « ألا ترضون يا معشر الأوس أن يحكم فيهم رجلٌ منكم ؟ » قالوا : بلى . قال : « فذاك إلى سعد بن معاذ » .

وكان رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم قد جعل سَعد بن معاذ فى خيمة لامرأة من أَسْلَم يقال لها : رُفيدة فى مسجده كانت تداوى الجرحى وتحتسب بنفسها على خدمة من كانت به ضيعة من المسلمين ، وكان رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم قد قال لقومه حين أصابه السهم فى الخندق : « اجعلوه فى خيمة رُفَيدة حتى أعوده من قريب » ، فلما حكَّمه رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم فى بنى قريظة أتاه قومه فحملوه على حمار قد وطأوا له بوسادة من أدم - وكان رجلاً جسيماً - ثم أقبلوا معه إلى رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم وهم يقولون : يا أبا عمر أحسنْ فى مواليك فإن رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم إنما ولاك ذلك لتُحسن فيهم ، فلما أكثروا قال : لقد آن لسعد أن لا تأخذه فى اللَّه لومةُ لائم !

فرجع بعضُ من كان معه من قومه إلى دار بنى عبد الأشهل فنعى لهم رجالَ بنى قُريظة قبل أن يصل إليهم سعد عن كلمته التى سمع منه .

فلما انتهى سعدٌ إلى رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم والمسلمين قال رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم : « قوموا إلى سيدكم »[1] فأما المهاجرون من قريش فيقولون : إنما أراد الأنصارَ ، وأما الأنصار فيقولون : قد عمّ بها رسولُ اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم المسلمين ، فقاموا إليه فقالوا : يا أبا عمرو إن رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم قد ولاك أمرَ مَواليك لتحكم فيهم ، فقال سعد بن معاذ : عليكم بذلك عهدُ اللَّه وميثاقه : إنّ الحكم فيهم لما حكَمْتُ ؟ قالوا : نعم . قال : وعلى من ها هنا - فى الناحية التى فيها رسولُ اللَّه صلى اللَّه =

(١) أخرجه البخارى [٣٠٣٤] ومسلم [١٧٦٨/٦٤] .

= عليه وسلم – وهو مُعْرِض عن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم إجلالاً له . فقال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : « نعم » . قال سعد : فإني أحكم فيهم أن تُقتل الرجال وتقسّم الأموالُ وتُسْبى الذرارى والنساء . فقال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : « قد حكمتَ فيهم بحكم اللّه من فوق سبعة أرْقعة [1] » .

ثم استُنزلوا فحبسهم رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم فى المدينة فى دار امرأة من بنى النجار ، ثم خرج صلى اللّه عليه وسلم إلى سوق المدينة فَخنْدَق بها خنادق ، ثم بعث إليهم فضرب أعناقهم فى تلك الخنادق ، يُخْرج بهم إليها أرسالاً ، وفيهم عدوّ اللّه حُيَى بن أَخْطب وكعب بن أسد رأس القوم ، وهم ستمائة أو سبعمائة ، والمكثر يقول : كانوا بين الثمانمائة والتسعمائة ، قالوا لكعب بن أسد – وهم يُذهب بهم إلى رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم أرسالاً – : يا كعب ما تراه يصنع بنا ؟ قال : أفى كل موطن لا تَعْقلون ! ألا ترون أن الداعى لا يَنزع وأن الذاهب لا يرجع ؟! هو واللّه القتل .

فلم يزل ذلك الدأب حتى فرغ منهم رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم وأتي بعدوّ اللّه حُيَي بن أخطب وعليه حلة فُقَاحِيّة [2] قد شقها عليه من كل ناحية قَدْر أنملة لئلا يُسْلَبها ، مجموعة يداه إلى عنقه بحبل ، فلما نظر إلى رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم قال : أما واللّه ما لُمت نفسى فى عداوتك ولكن من يَخْذِلْ اللّه يُخْذلْ ! ثم أقبل على الناس فقال : يا أيها الناس ، إنه لا بأس بأمر اللّه كتاب وقدَر ومَلْحمة كُتبت على بنى إسرائيل ! ثم جلس فضُربت عنقه . فقال فى ذلك جبل بن جوَّال الثعلبى : =

---

(١) الطبقات لابن سعد [٧٤/٢] .

(٢) الفقاح : الزهر إذا انشقت أكمته ، والمراد أنها كانت تضرب إلى الحمرة ، قال ابن هشام : فقاحية : ضرب من الوشى .

= لَعمرُك ما لام ابنُ أخطبَ نفسه ولكنه من يَخْـذل اللّه يُخْـذَل

لجاهَد حتى أَبْلغَ النفس عُذْرها وقَلْقل يبغى العِزّ كلَّ مِقَلْقَلِ[1]

بل ابتغى عدوُّ اللّه ذلَّ الأبد فوجده ، وجاهد اللّه فجهدَه فأصبح برأيه القائل[2] وسعيه الخاسر من الذين لهم خزي فى الدنيا ولهم فى الآخرة عذابُ النار .

وقُتل من نساء بنى قريظة امرأة واحدة لم يقتل من نسائهم غيرها ، قالت عائشة أم المؤمنين رضى اللّه تعالى عنها : واللّه إنها لعندى تُحدِّث معي وتضحك ظهرا وبطنا ، ورسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم يقتل رجالها فى السوق إذ هتف هاتف باسمها : أين فلانة قالت : أنا واللّه قلت لها : ويلك ما لك ؟ قالت : أقتل ، قلت : ولم ؟ قالت : لحدثٍ أحْدثته ، فانطلق بها فضربت عنقها ، فكانت عائشة تقول : واللّه لا أنسى عجباً منها طيب نفسها وكثرة ضحكها وقد علمت أنها تُقتل .

قال ابن هشام : هى التى طرحت الرَّحا على خلاد بن سُوَيْد فقتلته .

وكان الزبير بن باطا القُرظي قد مَنَّ على ثابت بن قيس بن شَمَّاس فى الجاهلية ، أخذه يوم بُعَاث فجزَّ ناصيته ثم خلّي سبيله . فجاءه ثابت لمّا قُتل بنو قريظة وهو شيخ كبير فقال : يا أبا عبد الرحمن هل تعرفني ؟ قال : وهل يجهل مثلي مثلك ، قال : فإني أردتُ أن أجزيك بيدك عندى . قال : إنّ الكريم يجزى الكريم ، ثم أتى ثابتٌ رسولَ اللّه صلى اللّه عليه وسلم فقال : يارسول اللّه إنه كان للزبير عليَّ مِنّة وقد أحببت أن أجزيه بها فهَبْ لى دمَه . فقال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : « هو لك » ، فأتاه فقال : إن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم قد وهب لي دَمَك فهو لك قال : شيخ كبير لا أهل له ولا ولد فما =

(١) قلقل : سعى وتحرك .

(٢) القائل : المخطئ .

= يصنع بالحياة ؟ فأتي ثابتٌ رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم فقال : بأبى أنت وأمى يا رسول اللّه امرأته وولده ، قال : « هم لك » . فأتاه فقال : قد وهب لى رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم أهلك وولدك فهم لك . قال : أهل بيت بالحجاز لا مال لهم فما بقاؤهم على ذلك ؟ فأتى ثابتٌ رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم فقال يا رسول اللّه ماله ؟ قال : « هو لك » ، فأتاه ثابت فقال : قد أعطاني رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم مالَك فهو لك ، فقال : أى ثابت ما فعل الذى كان وجهه مرآة صينية يتراءى فيها عذارى الحى ، كعب بن أسد ؟ قال : قُتل . قال : فما فعلَ سيدُ الحاضر والبادى حُيَى بن أخطب ؟ قال : قُتل ، قال : فما فعل مُقدمتنا إذا شَدَدْنا وحاميتنا إذا فرَرْنا عَزّال بن شموال ؟ قال قُتل . قال : فما فعل المجلسان ، يعنى بنى كعب بن قريظة وبنى عمرو بن قريظة ؟ قال : ذهبوا فقتلوا ، قال : فإنى أسألك ياثابت بيدى عندك ألّا ألحقتنى بالقوم ، فواللّه ما فى العيش بعد هؤلاء من خير فما أنا بصابر للّه فَيْلة دلوِ ناضحِ حتى ألقي الأحبة ، فقدَّمه ثابت فضرب عنقه .

فلما بلغ أبا بكر الصديق رضى اللّه تعالى عنه قوله : « ألقى الأحبة » قال : يلقاهم واللّه فى نار جهنم خالداً مخلداً فيها أبداً .

وكان رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم قد أمر بقتل كل من أنبت منهم ، قال عطية القرظى : كنت غلاماً فوجدونى لم أنبت فخلوا سبيلى .

وكان رفاعة بن شموال القرظى رجلاً قد بلغ فلاذ بسَلْمى بنت قيس أم المنذر ، أخت سليط بن قيس ، وكانت إحدي خالات رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم قد صلَّت القبلتين معه وبايعته بيعةَ النساء فقالت : يا نبى اللّه بأبى أنت وأمى هب لى رفاعة ، فإنه زعم أنه سيصلّى ويأكل لحم الجمل . فوهبه لها فاستحيَتْه . =

= ثم إن رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم قسم أموال بنى قريظة ونساءهم وأبناءهم على المسلمين ، وأعلم فى ذلك اليوم سهمان الخيل وسهمان الرجال وأخرج منها الخُمس ، فكان للفارس ثلاثة أسهم ، وللفرس سهمان ولفارسه سهم ، وللراجل ومن ليس له فرس سهم ، فكانت الخيل يوم بنى قريظة ستة وثلاثين فرساً ، وكان أول فيَء وقعت فيه السهمان وأخرج منه الخمس ، فعلى سُنّتها وما مضى من رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم وقعت المقاسم ومضت السُّنة فى المغازى .

ثم بعث رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم سعد بن زيد الأنصاري الأشهلي بسبايا من سبايا بنى قريظة إلى نجد فابتاع له بهم خيلاً وسلاحاً .

وكان رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم قد اصطفى لنفسه من نسائهم ريحانة بنت عمرو بن خُناقة من بنى عمرو بن قريظة ، فكانت عنده حتى توفى عنها وهى فى ملكه ، وكان عرض عليها أن يتزوجها ويضرب عليها الحجاب فقالت يا رسول اللَّه بل تتركنى فى ملكك فهو أخفّ علىّ وعليك فتركها . وكانت حين سبَاها قد تعصَّت بالإسلام وأبت إلا اليهودية ، فعزلها رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم ووجد فى نفسه لذلك من أمرها ، فبينما هو مع أصحابه إذ سمع وَقع نعلين خلفه فقال : إن هذا لثعلبة بن سَعْية يبشرنى بإسلام ريحانة ، فجاءه فقال : يا رسول اللَّه قد أسلمت ريحانة ، فسرَّه ذلك من أمره [1] .

هذا عن بنى قريظة ، أما ما ورد فى شأن خيبر فروى ابن هشام فى السيرة وابن كثير فى البداية والنهاية وغيرهما :

لما قدم رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم من الحديبية مكث بها ذا الحجة مُنْسلخ سنة ست ، وبعض المحرم من سنة سبع ، ثم خرج فى بقية منه إلى خيبر غازياً . =

(١) الاكتفاء [١٧٦/٢ - ١٨٦] بتصرف .

= وكان الله تبارك وتعالى وعده إياها بالحديبية بقوله عز من قائل : ﴿ وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ وَكَفَّ أَيْدِيَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴾ [الفتح : ٢٠] يعنى بالمعجل صلح الحديبية ، والمغانم الموعود بها فتح خيبر .

فخرج إليها رسول الله صلى الله عليه وسلم مستنجزا ميعاد ربه ، وواثقا بكفايته ، ونصره ، ودفع الراية إلى على بن أبى طالب ، وكانت بيضاء ، فسلك على عِصْر [١] فبنى له فيها مسجدا ، ثم على الصهباء ، ثم أقبل بجيشه حتى نزل به بواد يقال له الرَّجيع فنزل بينهم وبين غطفان ليحول بينهم وبين أن يمدّوا أهل خيبر وكانوا لهم مظاهرين على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فذكر أن غطفان لما سمعت بمنزله من خيبر جمعوا ، ثم خرجوا ليظاهروا يهود عليه حتى إذا ساروا مَنْقلة [٢] سمعوا خلفهم فى أموالهم ، وأهليهم حسًا ظنوا أن القوم قد خالفوا إليهم ، فرجعوا على أعقابهم ، فأقاموا فى أهليهم وأموالهم وخلوا بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وخيبر .

قال أبو معتب بن عمرو : لما أشرف رسول الله صلى الله عليه وسلم على خيبر ، قال لأصحابه ، وأنا فيهم : « قفوا » ثم قال : « اللَّهُمَّ ربَّ السموات السبع وما أظللن ، ورب الأرضين السبع وما أقللن ، ورب الشياطين وما أضللن ، ورب الرياح وما أذرَيْنَ فإنا نسألك خيرَ هذه القرية ، وخير أهلها وخير ما فيها ، ونعوذ بك من شرها ، وشر أهلها وشر ما فيها » ثم قال : « أقدموا بسم الله » قال : وكان يقولها لكل قرية دخلها [٣] . =

(١) عصر : جبل بين المدينة ووادى الفرع .

(٢) المنقلة : المرحلة من الطريق .

(٣) رواه ابن هشام [٣٢٩/٢] عن ابن إسحاق حدثنى من لا أتهم عن عطاء بن أبى مروان الأسلمى عن أبيه عن أبى معتب بن عمرو ، والرجل المبهم سماه البيهقى =

....

= وقال أنس بن مالك : كان رسول اللّٰه صلى اللّٰه عليه وسلم إذا غزا قوماً لم يُغِرْ عليهم حتى يصبح ، فإن سمع أذاناً أمسك ، وإن لم يسمع أذاناً ، أغار فنزلنا خيبر ليلاً فبات رسول اللّٰه صلى اللّٰه عليه وسلم حتى إذا أصبح لم يسمع أذاناً فركب ، وركبنا معه ، فركبت خلف أبي طلحة وإن قدمي لتمس قدَم رسول اللّٰه صلى اللّٰه عليه وسلم ، واستقبلنا عمال خيبر غادين ، قد خرجوا بمساحيهم ومكاتلهم ، فلما رأوا رسول اللّٰه صلى اللّٰه عليه وسلم والجيش قالوا : محمد والخميس معه ! فأدبروا هراباً ، فقال رسول اللّٰه صلى اللّٰه عليه وسلم : « اللّٰه أكبر خربت خيبر ! إنا إذا نزلنا بساحة قومٍ ﴿ فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴾ »[1] . =

= فى روايته « صالح بن كيسان » فيما ذكره ابن كثير فى « البداية » [١٨٣/٤] ، لكن الراوى عنه - هو إبراهيم بن إسماعيل بن مجمع - ضعيف ، لكن يشهد له ما أخرجه الحاكم [٤٤٦/١] و [١٠١/٢] ، والهيثمى [٢٥٢/٥] وابن السنى [٥٢٥] من حديث صهيب رضى اللّٰه تعالى عنه قال : إن النبى صلى اللّٰه عليه وسلم لم ير قرية يريد دخولها إلا قال حين يراها : « اللَّهُمَّ رب السماوات السبع وما أظللن ... » وآخر من حديث أبى لبابة بن المنذر قال الهيثمى فى « المجمع » [١٣٤/١٠] رواه الطبرانى فى « الأوسط » وإسناده حسن .

(١) رواه ابن هشام [٢٩٩/٤] عن ابن إسحاق وروى البخارى [٢٩٤٣] عن حميد قال : سمعت أنسا رضى اللّٰه تعالى عنه يقول : « كان رسول اللّٰه صلى اللّٰه عليه وسلم إذا غزا قوما لم يغر حتى يصبح ، فإن سمع أذانًا أمسك ، وإن لم يسمع أذانًا أغار بعدما يصبح . فنزلنا خيبر ليلًا .

وروى مسلم [١٢٠/١٣٦٥] عن أنس أن رسول اللّٰه صلى اللّٰه عليه وسلم غزا خيبر . قال : فصلينا عندها صلاة الغداة بغلسٍ . فركب نبى اللّٰه صلى اللّٰه عليه وسلم . وركب أبو طلحة وأنا رديف أبي طلحة فأجرى نبى اللّٰه صلى اللّٰه عليه وسلم فى زقاق خيبر . وإن ركبتى لتمس فخذ نبى اللّٰه صلى اللّٰه عليه وسلم =

....

قال ابن إسحاق : وتدنَّى [1] رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم الأموال يأخذها مالاً مالاً ، ويفتحها حصناً حصناً ، فكان أول حصونهم افتتح حصن ناعم ، وعنده قُتل محمود بن مَسْلمة ، أُلقيت عليه رحى منه فقتلته ، ثم القموص حصن ابن الحقيق وأصاب رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم منهم سبايا منهن صفية بنت حُيَيّ بن أخطب ، وكانت عند كنانة بن الربيع بن أبى الحُقَيْق ، وبنتى عم لها ، فاصطفى صفية لنفسه بعد أن سأله إياها دحية الكلبى ، فلما اصطفاها لنفسه ، أعطاه ابنتى عمها ، وكان بلال هو الذى جاء بصفية وبأخرى معها فمرّ بهما على قتلى من قتلى يهود ، فلما رأتهم التى مع صفية صاحت ، وصكَّت وجهها ، وحثت التراب على رأسها ، فلما رآها رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم قال : « أغربوا عنى هذه الشيطانة » وأمر بصفية فحِيزتْ خلفه ، وألقى عليها رداءه ، فعرف المسلمون أنه قد اصطفاها لنفسه ، فذكر أن رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم قال لبلال حين رأى بتلك اليهودية ما رأى : « أنُزعت منك الرحمة يا بلال حين تمر بامرأتين على قتلى رجالهما ؟ » .

وكانت صفية قد رأت فى المنام ، وهى عروس بكنانة بن الربيع بن أبى الحقيق أن قمراً وقع فى حجرها ، فعرضت رؤياها على زوجها فقال : ما هذا إلا أنك تمنين ملك الحجاز محمدا ! فلطم وجهها لطمة خضَّر عينيها منها . فأتى بها رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم ، وبها أثر منه فسألها ما هو فأخبرته بالخبر . =

= وانحسر الإزار عن فخذ نبى اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم . وإنى لأرى بياض فخذ نبى اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم . فلما دخل القرية قال : « اللَّه أكبر ! خربت خيبر . إنا إذا نزلنا بساحة قوم ﴿ فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴾ [الصافات : ١٧٧] . قالها ثلاث مرار . قال وقد خرج القوم إلى أعمالهم . فقالوا : محمد . قال عبد العزيز : وقال بعض أصحابنا : والخميس . قال : وأصبناها عنوة .

(١) تدنى : جعل يأخذ الأدنى فالأدنى .

....

= ولما أعرس بها رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم بخيبر أو ببعض الطريق ، وبات بها فى قُبة له بات أبو أيوب الأنصارى متوشحاً السيفَ يحرسه ، ويطيف بالقبة حتى أصبح رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم ، فلما رأى مكانه قال : « ما لك يا أبا أيوب ؟ » قال : يا رسول اللَّه خِفْت عليك من هذه المرأة ، وكانت امرأة قد قتلت أباها وزوجها وكانت حديثة عهد بكفر فخفتُها عليك ، فزعموا أن رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم قال : « اللَّهُمَّ احفظ أبا أيوب كما بات يحفظنى » .

وأتى رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم بكنانة بن الربيع ، وكان عنده كنز بنى النضير ، فسأله عنه فجحد أن يكون يعلم مكانه ، فأتى رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم برجل من يهود فقال : إنى رأيت كنانة يطيف بهذه الخربة كلّ غَداة ، فقال رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم لكنانة : أرأيت إن وجدناه عندك أقتلك ؟ قال : نعم ، فأمر رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم بالخربة فحفرت ، فأخرج منها بعض كنزهم ثم سأله ما بقى فأبى أن يريه ، فأمر به الزبير بن العوام فقال : عذِّبه حتى تستأصل ما عنده ، فكان الزبير يقدح بزند فى صدره حتى أشرف على نفسه ، ثم دفعه رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم إلى محمد ابن مَسْلمة فضرب عنقه بأخيه محمود بن مسلمة . وفشت السبايا من خيبر فى المسلمين ، وأكل المسلمون لحومَ الحمر من حمرها .

قال ابن عقبة : كانت أرضاً وخيمة شديدة الجهد ، فجهد المسلمون جهدا شديدا وأصابتهم مَسْغَبة شديدة ، فوجدوا أحمرة إنسية ليهود لم يكونوا أدخلوها الحصن فانتحروها ، ثم وجدوا فى أنفسهم من ذلك ، فذكروها لرسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم فنهاهم عن أكلها .

قال أبو سليط فيما ذكر ابن إسحاق : أتانا نهى رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم عن أكل لحوم الحمر الإنسية ، والقدور تفور بها فكفأناها على وجوهها . =

= وذكر أيضاً أن رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم ، قام يومئذ فى الناس ، فنهاهم عن أمور سماها لهم ، قال مكحول : نهاهم يومئذ عن أربع : إتيان الحبالى من النِساء [1] ، وعن أكل الحمار الأهلى ، وعن أكل كل ذى ناب من السباع ، وعن بيع المغانم حتى تقسم .

وحدَّث جابر بن عبد اللَّه ولم يشهد خيبر أن رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم حين نهى الناس عن أكل لحوم الحمر أذن لهم فى لحوم الخيل .

وافتتح رُوَيْفع بن ثابت قرية من قرى المغرب ، يقال لها جِرْبَةَ [2] فقام خطيبا فقال : يا أيها الناس إنى لا أقول لكم إلا ما سمعت من رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم يقول فينا يوم خيبر ، قام فينا فقال : « لا يحلّ لامرئ يؤمن باللَّه واليوم الآخر أن يصيب امرأة من السبى حتى يستبرئها ، ولا يحل لامرئ يؤمن باللَّه واليوم الآخر أن يبيع مَغْنماً حتى يُقسم ، ولا يحل لامرئ يؤمن باللَّه واليوم الآخر أن يركب دابة من فَيْء المسلمين حتى إذا أعجفها ردَّها فيه ، ولا يحل لامرئ يؤمن باللَّه واليوم الآخر أن يلبس ثوباً من فىء المسلمين حتى إذا أخْلَقه رده فيه » [3] .

وقال عبادة بن الصامت : نهانا رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم يوم خيبر أن نبيع أو نبتاع تِبر الذهب بالذهب العَيْن ، وتبر الفضة بالورق العين ، وقال : « ابتاعوا تِبْر الذهب بالورق العين ، وتبر الفضة بالذهب العين » [4] . =

(١) أى : من السبايا قبل استبرائهن بالوضع .

(٢) جربة : جزيرة بالغرب من ناحية قابس .

(٣) رواه أبو داود [٢٧٠٨] وحسنه الألبانى : [٢٣٥٦] عن رويفع بن ثابت الأنصارى رضى اللَّه تعالى عنه .

(٤) السيرة النبوية لابن هشام [المجلد الرابع – ذكر المسير إلى خيبر فى المحرم سنة سبع] .

= ولما أصاب المسلمين بخيبر ما أصابهم من الجهد أتى بنو سَهْم من أسلم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقالوا : يا رسول الله لقد جُهِدْنا ، وما بأيدينا من شيء ، فلم يجدوا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئًا يعطيهم إياه ، فقال : « اللَّهُمَّ إنك قد عرفت حالهم وأن ليست بهم قوة وأن ليس بيدى شيء أعطيهم إياه ؛ فافتح عليهم أعظم حصونها عنهم غناءً ، وأكثرها طعاماً وودَكًا » ، فغدا الناسُ ، وفتح الله عليهم حصن الصَّعب بن معاذ ، وما بخيبر كان أكثر طعاماً وودكًا منه .

ولما افتتح رسول الله صلى الله عليه وسلم من حصونهم ما افتتح وحاز من الأموال ما حاز انتهوا إلى حصنيهم « الوطيح » و « السلالم » وكانا آخر حصون أهل خيبر افتتاحاً ، فحاصرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بضع عشرة ليلة ، وخرج مَرْحب اليهودى من حصنهم قد جمع سلاحه وهو ينادى من يبارز . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من لهذا ؟ » قال محمد بن مسلمة : أنا له يا رسول الله ، أنا والله الموتور الثائر قتل أخى بالأمس .

قال : « فقم إليه اللَّهُمَّ أعِنْه عليه » فلما دنا أحدهما من صاحبه دخلت بينهما شجرة عُمْرية [١] من شجر العُشر [٢] فجعل أحدهما يلوذ بها من صاحبه كلما لاذ بها منه اقتطع صاحبه بسيفه ما دونه منها حتى برز كل واحد منهما لصاحبه ، وصارت بينها كالرجل القائِم ما فيها فَنَن ، ثم حمل مرحب على محمد بن مسلمة فاتقاه بدرقته ، فوقع سيفه فيها فعضَّت به فأمسكته ، وضربه محمد بن مسلمة حتى قتله .

ثم خرج بعد مَرْحب أخوه ياسر وهو يقول : من يبارز ؟ فخرج إليه الزبير بن العوام ، فيما ذكر هشام بن عروة ، فقالت أمه صفية بنت عبدالمطلب : يقتل =

---

(١) عمرية : قديمة معمرة .

(٢) العشر : شجر فيه حراق لم يقتدح الناس فى أجود منه .

....

= ابنى يا رسول اللَّه ؟ قال : بل ابنك يقتله إن شاء اللَّه . فخرج الزبير فالتقيا فقتله الزبير .

وحدَّث سلمة بن عمرو بن الأكوع قال : قال رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم يومَ خيبر : « لأعطين الراية غداً رجلاً يحب اللَّه ورسوله يفتحُ اللَّه على يديه ليس بفرّار »[1] فدعا عليا بن أبى طالب رضى اللَّه تعالى عنه وهو أرمَد فتفل فى عينه ثم قال : « خذ هذه الراية فامضِ بها حتى يفتح اللَّه عليك » . فخرج وهو يهرول بها هرولةً وإنا لخلفه نتبع أثره ، حتى ركز رايته فى رضم من حجارة تحت الحصن ، فاطلع إليه يهودى من رأس الحصن فقال : من أنت ؟ قال : أنا على بن أبى طالب . قال اليهودى : علوتم ، وما أُنزل على موسى ، أو كما قال ، فما رجع حتى فتح اللَّه على يديه .

وقال أبو رافع ، مولى رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم : خرجنا مع عِلى رضى اللَّه عنه حين بعثه رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم برايته ، فلما دنا من الحصن خرج إليه أهله فقاتلهم فضربه رجل من يهود فطرح ترسه من يده ، فتناول علىّ باباً كان عند الحصن فترّس به عن نفسه ، فلم يزل فى يده وهو يقاتل حتى فتح اللَّه عليه ثم ألقاه من يده حين فرغ ، فلقد رأيتنى فى نفر معى سبعة وأنا ثامنهم نجهد على أن نقلب ذلك الباب فما نَقْلبه .

وحدث أبو اليسر كعب بن عمرو قال: إنا لمع رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم بخيبر ذات عشية إذ أقبلت غنم لرجل من يهود تريد حصنهم ونحن محاصروهم ، فقال رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم : « من رجل يُطْعمنا من هذه الغنم ؟ » فقال أبو اليسر : أنا يا رسول اللَّه ، قال : « فافعل » قال : فخرجت أشتد مثل الظليم ، فلما رآنى رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم موليًّا قال : « اللَّهُمَّ أمتعنا به ! » قال : فأدركت الغنم ، وقد دخلت أولاها =

---

(١) أخرجه مسلم [١٣٢/١٨٠٧] .

= الحصن فأخذت شاتين من أخراها فاحتضنتهما تحت يدى ، ثم أقبلت بهما أشتد كأنه ليس معى شىء ، حتى ألقيتهما عند رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم فذبحوهما فأكلوهما . فكان أبو اليسر من آخر أصحاب رسول اللَّه موتاً ، فكان إذا حدّث هذا الحديث بكى ثم قال : أُمْتِعوا بى لَعمْرى حتى كنت من آخرهم !

وحاصر رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم أهل خيبر فى حصنيهم « الوَطيح » و « السُّلالم » حتى إذا أيقنوا بالهلكة سألوه أن يسيِّرهم ، وأن يحقن لهم دماءهم ففعل ، وكان رسولُ اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم قد حاز الأموال كلها الشق ونَطَاة والكتيبة ؛ وجميع حصونهم إلا ما كان من ذَيْنك الحصنين ، فلما سمع بهم أهل فدَك قد صنعوا ما صنعوا بعثوا إلى رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم أن يسيزهم ، وأن يحقن لهم دماءهم ، ويخلّوا له الأموال ففعل .

فلما نزل أهل خيبر على ذلك سألوا رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم أن يعاملهم فى الأموال على النصف ، وقالوا : نحن أعلم بها منكم وأعْمر لها ، فصالحهم رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم على أنا إذا شئنا أن نخرجكم أخرجناكم فصالحه أهل فَدك على مثل ذلك ، فكانت خيبر فيئًا بين المسلمين . وكانت فدك خالصة لرسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم لأنهم لم يُجلبوا عليها بخيل، ولا ركاب .

فلما اطمأن رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم أهدت له زينب بنت الحارث امرأة سلام بن مِشكم شاة مَصْلية [1] ، وقد سألت أى عضو من الشاة أحبّ إليه ؟ فقيل لها : الذراع ، فأكثرت فيه من السم ، ثم سمَّت سائر الشاة ، ثم جاءت بها فلمَّا وضعتها بين يديه تناول الذراع فلاك منها مضغة فلم يسُغها ، ومعه بشر بن البراء ابن مَعْرور قد أخذ منها كما أخذ رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم ، فأما بشر

(١) مصلية : مشـوية .

فأساغها وأما رسول اللّٰه صلى اللّٰه عليه وسلم فلفظها ثم قال : « إن هذا العظم ليخبرنى أنه مسموم » ثم دعا بها فاعترفت فقال : « ما حملك على ذلك ؟ » قالت بلغت من قومى ما لم يخفَ عليك فقلت : إن كان ملكاً استرحت منه ؛ وإن كان نبياً فيخبر ، فتجاوز عنها رسول اللّٰه صلى اللّٰه عليه وسلم [١] .

ومات بشر بن البراء من أكلته التى أكل .

وذكر ابن عقبة أن رسول اللّٰه صلى اللّٰه عليه وسلم تناول الكتف من تلك الشاة فانتهش منها وتناول بشر عظماً فانتهش منه ؛ فلما اسْتَرط [٢] رسول اللّٰه صلى اللّٰه عليه وسلم لقمته استرط بشر ما فيه فقال رسول اللّٰه صلى اللّٰه عليه وسلم : « ارفعوا أيديكم فإن كتف هذه الشاة يخبرنى أنى نُعيت فيها » فقال بشر بن البراء : والذى أكرمك لقد وجدت ذلك فى أكلتى التى أكلت ، فما منعنى أن ألفظها إلا أنى أعظمت أن أنغصك طعامك ، فلما أسغتَ ما فى فيك لم أكن أرغب بنفسى عن نفسه ، ورجوت أن لا تكون استرطتها وفيها نَعِىٌ . فلم يقم بشر من مكانه حتى عاد لونه مثل الطيلسان ، وماطله وجعه حتى كان لا يتحول إلا ما حوِّل .

قال جابر بن عبد اللّٰه : واحتجم رسول اللّٰه صلى اللّٰه عليه وسلم يومئذ على الكاهل ، حجمه أبو طَيْبة مولى بنى بياضة ، وبقى رسول اللّٰه صلى اللّٰه عليه وسلم بعده ثلاث سنين حتى كان وجعه الذى توفى منه فدخلت عليه أم بشر بنت البراء بن معرور تعوده فيما ذكر ابن إسحاق فقال لها : يا أم بشر إن هذا لأوان وجدت انقطاع أبهرى من الأكلة التى أكلت مع ابنك بخيبر [٣] . =

---

(١) أخرجه البخارى [٤٢٤٩] ، وأبو داود [٤٥٠٩] ، وأحمد فى المسند [٤٥١/٢] من حديث أبى هريرة رضى اللّٰه تعالى عنه .

(٢) استرط : ابتلع .

(٣) أخرجه البخارى [٤٤٢٨] من حديث عائشة رضى اللّٰه تعالى عنها .

= قال : فإن كان المسلمون ليرون أن رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم مات شهيدا مع ما أكرمه اللَّه به من النبوة .

وشهد خيبر مع رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم نساءٌ من نساء المسلمات فرضخ لهن عليه السلام من الفيء ولم يضرب لهن بسهم ، حدثت بنت أبى الصَّلْت عن امرأة غِفارية سمَّتها قالت : أتيت رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم فى نسوة من بنى غفار وهو يسير إلى خيبر فقلنا : يا رسول اللَّه قد أردنا الخروج معك إلى وجهك هذا فنداوِى الجرحى ونعين المسلمين بما استطعنا ، فقال : « على بركة اللَّه » قالت : فخرجنا معه فلما افتتح خيبر رضَخ لنا من الفيء ، وأخذ هذه القلادة التى ترين فى عنقى فأعطانيها ، وعلَّقها بيده فى عنقى ، فواللَّه لا تفارقنى أبداً . قالت : فكانت فى عنقها حتى ماتت ثم أوصت أن تُدفن معها .

واستشهد بخيبر من المسلمين نحوًا من عشرين رجلاً منهم عامر بن الأكوع عم سَلمة بن عمرو بن الأكوع ؛ وكان رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم قد قال له فى مسيره إلى خيبر : « انزل يا ابن الأكوع فخذ لنا من هَنَاتك ! » (1) فنزل يرتجز برسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم فقال :

واللَّه لولا اللَّه ما اهتدينا ... ولا تصدقنا ، ولا صلينا

إنا إذا قوم بَغَـوْا علينـا ... وإن أرادوا فتنـــة أبينا

فأنزلنْ سـكينةً علينـــا ... وثبت الأقـدام إنْ لاقينا

فقال رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم : « يرحمك اللَّه » فقال عمر بن الخطاب : وجبت واللَّه يا رسول اللَّه لو أمتعتنا به ! فقتل يوم خيبر شهيدا ، وكان قَتْله أن سيفه رجع عليه وهو يقاتل فكلمه كلْما شديدا فمات منه ، فكان المسلمون قد شكُّوا فيه وقالوا : إنما قتله سلاحه ، حتى سأل ابنُ أخيه سلمة رسولَ اللَّه =

---

(1) أخرجه البخارى [٤١٩٦] .

= صلى اللَّه عليه وسلم عن ذلك وأخبره بقول الناس فقال رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم : « إنه لشهيد » وصلى عليه فصلى عليه المسلمون .

ومنهم الأسود الراعى من أهل خيبر ، وكان من حديثه أنه أتى رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم وهو محاصر لبعض حصون خيبر ومعه غنم كان فيها أجيرا لرجل من يهود ، فقال : يا رسول اللَّه اعرض علىَّ الإسلام ، فعرضه عليه فأسلم ، وكان رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم لا يَحْقِر أحداً أن يدعوه إلى الإسلام ؛ ويعرضه عليه ، فلما أسلم قال : يا رسول اللَّه إنى كنت أجيرا لصاحب هذه الغنم وهى أمانة عندى فكيف أصنع بها ؟ قال : « اضرب وجوهها فإنها سترجع إلى ربها » أو كما قال . فقام الأسود فأخذ حفنة من الحصباء فرما بها فى وجوهها وقال : ارجعى إلى صاحبك فواللَّه لا أصحبك ، وخرجت مجتمعة كأن سائقاً يسوقها حتى دخلت الحصن ثم تقدم الأسود إلى ذلك الحصن ليقاتل مع المسلمين فأصابه حجر فقتله ، وما صلى للَّه صلاةً قط ، فأتى به رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم فوضع خلفه وسجِّى بشملة كانت عليه فالتفت إليه رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم ومعه نفر من أصحابه ثم أعرض عنه فقالوا : يا رسول اللَّه لم أعرضت عنه ؟ قال : « إن معه الآن زوجتين من الحور العين ! » .

وذكر ابن إسحاق عن عبيد اللَّه بن أبى نَجيح أن الشهيد إذا ما أصيب نزلت زوجتاه من الحور العين عليه ينفضان التراب عن وجهه ويقولان : ترَّب اللَّه وجه من ترَّبك وقتل من قتلك .

قال : ولما افتتحت خيبر كلم رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم الحجاج بن عِلاط السُّلمى ثم البهزى فقال : يا رسول اللَّه إن لى بمكة مالاً عند صاحبتى أم شيبة بنت أبى طلحة ومالا متفرقاً فى تجار أهل مكة فأذن لى يا رسول اللَّه . =

= فأذن له قال : إنه لا بد لى يا رسول اللّه من أن أقول . [1] قال : « قل » .
قال الحجاج : فخرجت حتى إذا قدمت مكة وجدت بثنية البيضاء رجالاً من قريش يتسمَّعون الأخبار ، ويسألون عن أمر رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ، وقد بلغهم أنه سار إلى خيبر ، وعرفوا أنها قرية الحجاز ريفاً ومنعة ورجالاً ، فهم يتحسسون الأخبار ويسألون الركبان ، فلما رأونى ولم يكونوا علموا بإسلامى قالوا : الحجاجُ بن علاط ؟ عنده واللّه الخبر ، أخبرنا يا أبا محمد فإنه قد بلغنا أن القاطع سار إلى خيبر ، وهى بلد يهود وريف الحجاز ، قلت : قد بلغنى ذلك وعندى الخبر ما يسرّكم ، قال : فالتبطوا [2] بجنَبى ناقتى يقولون : إيه ياحجاج ؟ قلت : هُزم هزيمة لم يسمعوا بمثلها قط وقُتل أصحابه قتلاً لم تسمعوا بمثله قط وأسر محمدٌ أسراً ، قالوا : لا نقتله حتى نبعث به إلى مكة فيقتلونه بين أظهرهم بمن كان أصاب من رجالهم ، قال : فقاموا وصاحوا بمكة وقالوا : قد جاءكم الخبر ، وهذا محمد إنما تنظرون أن يقدم به عليكم فيقتل بين أظهركم .
قال : فقلت : أعينونى على جمع مالى بمكة على غرمائى فإنى أريد أن أقدم خيبر فأصيب به من أهل محمد وأصحابه قبل أن يسبقنى التجار إلى ما هنالك ، فقاموا فجمعوا إلىّ مالى كأَحثّ جمعٍ سمعت به ، وجئت صاحبتى فقلت : مالى ، وقد كان لى عندها مال موضوع لعلى ألحق بخيبر فأصيب من فُرص البيع قبل أن يسبقنى التجار .
قال : فلما سمع العباس بن عبد المطلب الخبر وجاءه عنى أقبل حتى وقف إلى جنبى وأنا فى خيمة من خيام التجار فقال : يا حجاج ما هذا الذى جئتَ به ؟ =

(١) أقول : أى احتال عليهم بكلام لا أعتقده .
(٢) التبطوا : مشوا بجانبها .

= قلت : وهل عندك حِفْظ لما وضعتُ عندك ؟ قال : نعم . قلت : فاستأخر عنى حتى ألقاك على خلاء فإنى فى جمع مالى كما ترى فانصرف عنى حتى أفرغ ، قال : حتى إذا فرغت من جمع كل شيء كان لى بمكة وأجمعت الخروج لقيتُ العباس فقلت : احفظ علىّ حديثى يا أبا الفضل ، فإنى أخشى الطلب ثلاثاً ثم قل ما شئت . قال : أفعل ، قلت : فإنى والله لقد تركت ابن أخيك عروساً ببنت ملكهم يعنى صفية بنت حيى ، ولقد افتتح خيبر وانتثل [1] ما فيها وصارت له ولأصحابه ، قال : ما تقول يا حجاج ؟ قلت : إى والله فاكتم عنى ولقد أسلمتُ وما جئت إلا لآخذ مالى فرقاً من أن أغلَب عليه ، فإذا مضت ثلاث فأظهر أمرك فهو والله على ما تحب .

قال : حتى إذا كان اليوم الثالث لبس العباس حلة له وأخذ عصاه ثم خرج حتى أتى الكعبة فطاف بها فلما رأوه قالوا : يا أبا الفضل هذا والله التجلّد لحرّ المصيبة ! قال : كلا والله الذى حلفتهم به لقد افتتح محمد خيبر وتُرك عروساً بابنة ملكهم وأحرز أموالهم وما فيها فأصبحت له ولأصحابه . قالوا : ما جاءك بهذا الخبر ، قال : الذى جاءكم بما جاءكم به ، ولقد دخل عليكم مُسلماً وأخذ ماله فانطلق ليلحق بمحمد وأصحابه فيكون معه ، قالوا : يالَ عباد الله ! انفلت عدو الله ، أما والله لو علمنا لكان لنا وله شأن . ولم ينشبوا أن جاءهم الخبر بذلك [2] .

وذكر ابن عُقْبة أن بنى فَزَارة قدِموا على أهل خيبر فى أول أمرهم ليعينوهم فراسلهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن لا يعينوهم وأن يخرجوا عنهم على أن يعطيهم من خيبر شيئًا سماه لهم ، فأبوا عليه وقالوا : جيراننا وحلفاؤنا ، =

(١) انتثل : استخرج .

(٢) رواه عبد الرزاق فى المصنف [٩٧٧١] ، وأحمد فى المسند [١٣٨/٣] ، وذكره الهيثمى فى المجمع [١٥٤/٦] وقال : رواه أحمد وأبو يعلى والبزار والطبرانى ورجاله ثقات .

= فلما فتح اللّٰه خيبر أتاه من كان هنالك من بنى فزارة فقالوا : الذى وعدتنا ؟ فقال : لكم ذو الرقيبة ، لجبل من جبال خيبر ، قالوا : إذن نقاتلك ، قال : موعدكم جَرْفاء [1] ، فلما سمعوا ذلك من رسول اللّٰه خرجوا هاربين .
قال ابن إسحاق : وكانت المقاسم على أموال خيبر على الشق ونطاة والكتيبة ، وكانت الشق ونطاة فى أسْهُمِ المسلمين وكانت الكتيبة خمس اللّٰه وسَهْم النبى صلى اللّٰه عليه وسلم وسهم ذوى القربى والمساكين [2] وطُعْم أزواج النبى صلى اللّٰه عليه وسلم ، وطعم رجال مشوا بين رسول اللّٰه صلى اللّٰه عليه وسلم وبين أهل فَدك بالصلح .
وقُسمت خيبر على أهل الحديبية من شهد خيبر ومن غاب عنها ، ولم يغب عنها إلا جابر بن عبد اللّٰه بن عمرو بن حرام ، فقسم له رسول اللّٰه صلى اللّٰه عليه وسلم كسهم من حضرها ، وفى هذه الغزوة بين رسول اللّٰه صلى اللّٰه عليه وسلم سهمان الخيل والراجل ، فجعل للفرس سهمين ولفارسه سهماً وللراجل سهماً ، فجرت المقاسم على ذلك فيما بعد ، ويومئذ عرّب العربى من الخيل وهجّن الهجين .
وذكر ابن عقبة أنه قدم على رسول اللّٰه صلى اللّٰه عليه وسلم بخيبر نفر من الأشعريين فيهم أبو عامر الأشعرى قدموا إلى المدينة مع مهاجرة الحبشة ورسول اللّٰه صلى اللّٰه عليه وسلم بخيبر فمضوا إليه وفيهم أبان بن سعيد بن العاص والطفيل يعنى ابن عمرو الدَوْسى ذا النور ، وأبو هريرة ونفر من دوس فرأى رسول اللّٰه صلى اللّٰه عليه وسلم - ورأيه الحق - أن لا يخيب مَسِيرهم ولا يبطل سفرهم فشركهم فى مقاسم خيبر وسأل أصحابه ذلك فطابوا به نفساً .
ولم يذكر ابن عقبة جعفر بن أبى طالب فى هؤلاء القادمين على رسول اللّٰه =

(١) جرفاء : قال فى معجم البلدان : ويوم جرفاء من أيام العرب ، ولعله موضع .
(٢) زاد الطبرى : وابن السبيل .

....

= صلى اللّٰه عليه وسلم بخيبر من أرض الحبشة وهو أولهم وأفضلهم ، وما مثل جعفر يتخطى ذكره ، ومن البعيد أن يغيب ذلك عن ابن عقبة ، فاللّٰه أعلم بعذره .

وقد ذكر ابن إسحاق أن رسول اللّٰه صلى اللّٰه عليه وسلم كان بعث عمرو بن أمية الضمرى إلى النجاشى فيمن كان أقام بأرض الحبشة من أصحابه فحملهم فى سفينتين فقدم بهم عليه وهو بخيبر بعد الحديبية ، فذكر جعفراً أولهم وذكر معه ستة عشر رجلاً قدموا فى السفينتين بصحبته .

وذكر ابن هشام عن الشعبى أن جعفراً قدم على رسول اللّٰه صلى اللّٰه عليه وسلم يوم فتح خيبر فقبَّل رسول اللّٰه صلى اللّٰه عليه وسلم ما بين عينيه والتزمه وقال : ما أدرى بأيّهما أسره أبفتح خيبر أم بقدوم جعفر ؟!

ولما جرت المقاسم فى أموال خيبر اتسع فيها المسلمون ووجدوا بها مرفقاً لم يكونوا وجدوه قبل ، حتى لقال عبد اللّٰه بن عمر رضى اللّٰه عنهما فيما خرج له البخارى [1] فى صحيحه : ما شبعنا حتى فتحنا خيبر .

وأقرَّ رسول اللّٰه صلى اللّٰه عليه وسلم يهودَ خيبر فى أموالهم يعملون فيها للمسلمين على النصف مما يخرج منها كما تقدم .

قال ابن إسحاق : فكان رسول اللّٰه صلى اللّٰه عليه وسلم يبعث إلى أهل خيبر عبد اللّٰه بن رواحة خارصاً بين المسلمين وبين يهود فيخرص عليهم فإذا قالوا تعدّيت علينا ، قال : إن شئتم فلكم وإن شئتم فلنا ، فتقول يهود : بهذا قامت السماوات والأرض .

وإنما خرص عليهم عبدُ اللّٰه عاماً واحداً ثم أصيب بمؤتة يرحمه اللّٰه فكان جبّار ابن صخر أخو بنى سلمة هو الذى يخرص عليهم بعده .

فأقامت يهود على ذلك لا يرى بهم المسلمون بأساً فى معاملتهم حتى عَدَوْا فى عهد سول اللّٰه صلى اللّٰه عليه وسلم على عبد اللّٰه بن سهل أخى بنى حارثة =

(١) أخرجه البخارى [٤٢٤٣] .

= فقتلوه ، فاتهمهم رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم ، والمسلمون عليه ، وكتب إليهم أن يدوه أو يأذنوه بحرب . فكتبوا يحلفون باللَّه ما قتلوه ولا يعلمون له قاتلاً ، فوداه رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم من عنده وأقرهم على ما سبق من معاملته إياهم .

فلما توفى رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم أقرهم أبو بكر الصديق على مثل ذلك حتى توفى ثم أقرهم عمر صَدْراً من إمارته ، ثم بلغ عمر أن رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم قال فى وجعه الذى قبضه اللَّه فيه : « لا يجتمعن بجزيرة العرب دينان » ففحص عمر عن ذلك حتى بلغه الثَّبت فأرسل إلى يهود فقال : إن اللَّه قد أذن فى جلائكم ، قد بلغنى أن رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم قال : « لا يجتمعن بجزيرة العرب دِينان [(١)] فمن كان عنده عهد من رسول اللَّه فليأتنى به أنفذه له ، ومن لم يكن عنده عهد من رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم فليتجهز للجلاء ، فأجلى عمر منهم من لم يكن عنده عهد من رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم .

وقال عبد اللَّه بن عمر : خرجت أنا والزبير والمقداد بن الأسود إلى أموالنا بخيبر نتعاهدها ، فلما قدمنا تفرقنا فى أموال فُعِدىَ علىّ تحت الليل ففدِعتْ يداى [(٢)] من مرفقى فلما أصبحت استصرخ علىّ صاحباى فأتيانى فأصلحا من يدى ؛ ثم قدما بى على عمر فقال : هذا عمل يهود ثم قام فى الناس خطيبا فقال : أيها الناس إن رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم كان عامَل يهود خيبر على أنا نخرجهم إذا شئنا وقد عَدوا على عبد اللَّه بن عمر ففدَعوا يديه كما بلغكم مع عَدوتهم على الأنصارى قبله لا نشك أنهم أصحابه ليس لنا هناك عدو غيرهم فمن كان له مال بخيبر فليلحق به ، فإنى مُخْرج يهود ، فأخرجهم . =

(١) أورده ابن كثير فى البداية والنهاية [٢١٩/٤] .

(٢) فدعت يداه : اعوجت مفاصلها ، كأنها قد زالت عن مواضعها .

ولما أخرج عمر رضى الله عنه يهود خيبر ركب فى المهاجرين والأنصار وخرج معه بجبار بن صخر وكان خارص أهل المدينة وحاسبهم ويزيد بن ثابت فهما قسما خيبر على أصحاب السهمين التى كانت عليها ، وذلك أن الشق والنطاة اللتين هما سهما المسلمين قسمت فى الأصل على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى ثمانية عشر سهماً ؛ ثم قسم كل قسم من هذه الثمانية عشر سهماً إلى مائة سهم لكل رجل سهم ولكل فرس سهمان ؛ وكانت عدة الذين قسمت عليهم ألف رجل وأربع مائة رجل ومائتى فرس فذلك ألف سهم وثمانمائة سهم (١) .

ثم مَن الذى قال صبغة سياسية ؟ نقول كلمة سياسة هى للبشر أى فكر بشر يقود بشرًا . أما أمر الخالق فهو منهج يلتزم به مخلوق .

أما العسكرية : فمن الذى حمل السيف ليفرض العقيدة ؟ الذى حمل السيف هم أُناس . هؤلاء الناس من الذى حمل عليهم السيف ؟ هل فرضت عليهم العقيدة بالسيف ؟.. لا . فقد عاش المسلمون فى مكة ثلاثة عشر عامًا مقهورين ومغلوبين ؛ إذن .. فمن الذى حمل السيف ؟ نقولها : ثانيًا ؟ وتتناقض أقوالهم فيقولون إنه فرض الجزية . ومعنى فرض الجزية على قوم أنه تركهم على دينهم كما يحبون وإلا لو دخل بالسيف ما كان قد فرض الجزية لأن السيف كان هو الحكم . وإنما حمل السيف لا لفرض العقيدة وإنما ليحمى اختيار العقيدة . فأنا سأقول كلامًا ومن يتعرض لكلامى ويمنع الناس من سماعه ، أو يصدهم عنه سأقاتله .

إذن .. جاء السيف ليحمى صحة اختيار العقيدة بدليل أن من يختار عقيدته يبقى على ما هو عليه وإنما أنت ستعيش فى أمة مسلمة والأمة المسلمة =

(١) الاكتفاء [٢/٢٥١ - ٢٧١] بتصرف .

○ ○ ○

= فرضت على المؤمن بها أن يدفع لبيت المال ما يقيم حركة حياة الناس ، فأنت من أجل أن تدخل فى هذه الدولة وتنتفع بما لها من خدمات لابد من دفع الجزية لأنك لو احتججت ستأخذ منه . ويبقى فرض الجزية نقضًا لقضية حمل السيف [1] .

(١) عن كتاب الأنوار الكاشفة لفضيلة الشيخ محمد متولى الشعراوى .

مفتريات حول القرآن

السؤال :

بعض المستغربين يقول : إن القرآن الكريم الذى يعتبره المؤمنون وحيًا إلهيًا تعهد اللّه بحفظه يحتوي على أخطاء لغوية ؟ كيف يمكن الرد على تلك المزاعم ودحض ذلك الفكر الضال ؟

الجواب : هذا كلام من لا يعرف شيئًا عن اللغة العربية . فالقرآن الكريم نزل فى قوم هم أئمة الفصاحة والبلاغة والبيان ولو كان فيه أخطاء نحوية ولغوية كما يَدَّعى المدعون ، لكان القوم الذين عاندوا محمدًا صلى اللّه عليه وسلم ، وعارضوه فى المعجزة ، أول من تكلم عن هذه الأخطاء ، ولكنهم كانوا مبهورين بالإعجاز القرآنى ، حتى إنهم كانوا يتخفون وراء أستار الكعبة ، ليستمعوا إلى الرسول صلى اللّه عليه وسلم ، وهو يتلو القرآن بجوار الكعبة ، وكانوا يحاولون منع القادم إلى مكة من الذهاب للرسول ، حتى لا يؤُخذ ببلاغة القرآن .

وهناك حكاية ذكرتها كتب السيرة النبوية عن الوليد بن المغيرة المخزومى ، وكانوا يلقبونه بـ « ريحانة قريش » لفصاحته وبلاغته وعلمه باللغة ، كانت قريش أرسلت الوليد هذا إلى النبى صلى اللّه عليه وسلم ليجادله فى أمر الدين الجديد .. فلما جلس قرأ عليه النبى شيئًا من القرآن ، فإذا بحلاوة الإعجاز القرآنى تأسره ، فرجع إلى قريش بوجه متغير ، يعنى كان ذاهبًا إلى الرسول صلى اللّه عليه وسلم بوجه فيه شمم ، ولكنه عاد بوجه فيه علامات المأخوذ ، فسألوه : ماذا سمعت من محمد ؟

فأجابهم : والله سمعت كلامًا ما هو من كلام الإنس ، ولا من كلام الجن . وإن له لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإن أعلاه لمثمر ، وإنّ أسفله لمغدق ، وإنه ليعلو ولا يعلى عليه ، وما هو بقول بشر[1] .

هذا كلام رجل كافر بالإسلام ، وهو قمة من قمم البلاغة والبيان ، بل إنه من أساطين اللغة فى عصره .

والأمثلة كثيرة على تحدى القرآن ببلاغته وفصاحته للعرب . فإذا جاءك من يقول : إن القرآن به أخطاء نحوية ولغوية فقل له إنك لا تعرف اللغة .. لماذا ؟

لأن اللغة لهجات مختلفة فى الجزيرة ، ولغة قريش كانت هى السائدة ، والقبائل كانت تصب عندها فى مواسم الحج فتأخذ خلاصة اللغات .ولكن الله لم يشأ أن تبقى سيادة لقريش فى هذا ، فأدخل فى القرآن الكريم لهجات لا يعرفها أحد ، حتى يمنع قريشًا من أن تقول : إن لها السيادة .

وأكثر من هذا فإن القرآن تحدى بلغاء العرب وفصحاءهم أن يأتوا بسورة أو بآية من مثله .. وطبعا عجزوا .. وكل من حاول أن يحاكى القرآن جاء بكلام سخر الناس منه .

هل بعد هذا يأتى رجل لا يعرف اللغة : لا نحوا ولا صرفا ولا فقها ، ويقول : إن القرآن به أخطاء نحوية ولغوية ؟! [2] .

---

(١) القصة ذكرها القرطبى فى التفسير [٧٤/١٩] ، والبيهقى فى الاعتقاد [٢٦٨/١] ، والحكيم الترمذى فى نوادر الأصول [٢٦٠/٣] ، وابن عبد البر فى الاستيعاب [٤٣٣/٢] ، وابن حجر فى الإصابة [٢٤٥/٢] .

(٢) نقلًا عن كتاب الأنوار الكاشفة . وقال : قال الله تعالى : ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [البقرة : ٢٣] .

قال القرطبى : قوله تعالى : ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ ﴾ أي في شك . =

= ﴿ مِّمَّا نَزَّلْنَا ﴾ يعني القرآن والمراد المشركون الذين تُحدوا فإنهم لما سمعوا القرآن قالوا : ما يشبه هذا كلام الله وإنا لفي شك منه فنزلت الآية . وقوله تعالى : ﴿ وَٱدْعُواْ شُهَدَآءَكُم ﴾ معناه أعوانكم ونصراءكم . الفراء : آلهتكم . وقال ابن كيسان : فإن قيل كيف ذكر الشهداء هاهنا وإنما يكون الشهداء ليشهدوا أمرا أو ليخبروا بأمر شهدوه وإنما قيل لهم : ﴿ فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ ﴾ فالجواب : أن المعنى استعينوا بمن وجدتموه من علمائكم وأحضروهم ليشاهدوا ما تأتون به فيكون الرد على الجميع أوكد في الحجة عليهم . وفى مختصر تفسير ابن كثير : قوله تعالى ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا ﴾ يعني محمدا صلى الله عليه وسلم فأتوا بسورة من مِثْل ما جاء به إن زعمتم أنه من عند غير الله فعارضوه بمثْل ما جاء به واستعينوا على ذلك بمن شئتم من دون الله فإنكم لا تستطيعون ذلك . قال ابن عباس ﴿ شُهَدَآءَكُم ﴾ : أعوانكم أي استعينوا بآلهتكم في ذلك يمدونكم وينصرونكم وقد تحدّاهم الله تعالى بهذا في غير موضع من القرآن فقال في سورة القَصَص : ﴿ قُلْ فَأْتُواْ بِكِتَٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ [القصص : ٤٩] وقال في سورة سبحان : ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ [الإسراء : ٨٨] وقال في سورة هود : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُواْ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُواْ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ [هود : ١٣] وقال في سورة يونس : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُواْ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ [يونس : ٣٨] وكل هذه الآيات مكية . ثم تحداهم بذلك أيضاً في المدينة فقال في هذه الآية : ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا ﴾ يعني محمدا صلى الله عليه وسلم ﴿ فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ ﴾ يعني من مثل القرآن قاله مجاهد وقتادة « واختاره ابن جرير الطبري =

= والزمخشري والرازي وأكثر المحققين) ورجح ذلك بوجوه من أحسنها: أنه تحداهم كلهم متفرقين ومجتمعين سواء في ذلك أميُّهم وكاتبهم وذلك أكمل في التحدي وأشمل من أن يتحدى آحادهم الأميين ممن لا يكتب. ولا يعاني شيئًا من العلوم وبدليل قوله تعالى : ﴿ فَأْتُواْ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ﴾ وقوله : ﴿ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ﴾ وقال بعضهم : من مثل محمد يعني من رجل أُمّيّ مثله والصحيحُ الأول لأن التحدي عام لهم كلهم مع أنهم أفصح الأمم وقد تحداهم بهذا في مكّة والمدينة مرات عديدة مع شدة عداوتهم له وبغضهم لدينه ومع هذا عجزوا عن ذلك ولهذا قال تعالى : ﴿ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ وَلَن تَفْعَلُواْ ﴾ و ﴿ وَلَن ﴾ لنفي التأبيد في المستقبل أي ولن تفعلوا ذلك أبدا وهذه أيضاً معجزة أُخرى وهو أنه أخبر خبراً جازما قاطعا غير خائف ولا مشفق أنَّ هذا القرآن لا يعارض بمثل أبد الآبدين ودهر الداهرين وكذلك وقع الأمر لم يعارض من لدنه إلى زماننا هذا ولا يمكن وأنّى يتأتى ذلك لأحد والقرآن كلام اللّه خالق كل شيء وكيف يشبه كلام الخالق كلام المخلوقين ومن تدبر القرآن وجد فيه من وجوه الإعجاز فنوناً ظاهرة وخفيه من حيث اللفظ ومن جهة المعنى قال تعالى : ﴿ كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴾ [هود : ١] فأحكمت ألفاظه وفصلت معانيه أو بالعكس على الخلاف فكل من لفظه ومعناه فصيح لا يُحاذي ولا يُداني . فقد أخبر عن مغيبات ماضية كانت ووقعت طبق ما أخبر سواء بسواء وأمر بكل خير ونهى عن كل شر كما قال تعالى : ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ﴾ [الأنعام : ١١٥] أي صدقا في الأخبار وعدلا في الأحكام فكلُّه حق وصدق وعدل وهدى ليس فيه مجازفة ولا كذب ولا افتراء كما يوجد في اشعار العرب وغيرهم من الأكاذيب والمجازفات التي لا يحسن شعرهم إلا بها كما قيل في الشعر « إن أعذبه أكذبه » وتجد في القصيدة الطويلة المديدة قد استعمل غالبها في وصف النساء أو الخيل أو =

= الخمـر أو في مدح شخص معـين أو فرس أو ناقة أو حرب أو شيء من المشاهدات المتعينة التي لا تفيد شيئاً إلا قدرة المتكلم المعين على الشيء الخفي أو الدقيق أو إبرازه إلى الشيء الواضح ثم تجد له فيه بيتاً أو بيتين أو أكثر هي بيوت القصيد وسائرها هذر لا طائل تحته. وأما القرآن فجميعه فصيح في غاية نهايات البلاغة عند من يعرف ذلك تفصيلاً وإجمالا ممن فهم كلام العرب وتصاريف التعبير فإنه إن تأملت أخباره وجدتها في غاية الحلاوة سواء كانت مبسوطة أو وجيزة وسواء تكررت أم لا وكلما تكرّر حلا وعلا لا يخلُق عن كثرة الرد ولا يملُّ منه العلماء وإن أخذ في الوعيد والتهديد جاء منه ما تقشعر منه الجبال الصم الراسيات فما ظنك بالقلوب الفاهمات وإن وعد أتى بما يفتح القلوب والآذان وشوّق إلى دار السلام ومجاورة عرش الرحمن كما قال في الترغيب : ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [السجدة : ١٧] وقال : ﴿ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ ۖ وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ [الزخرف : ٧١] وقال في الترهيب : ﴿ أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ ﴾ [الإسراء : ٦٨] ﴿ ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِىَ تَمُورُ ﴿١٦﴾ أَمْ أَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ۖ فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ ﴿١٧﴾ ﴾ [الملك] وقال في الزجر : ﴿ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ﴾ [العنكبوت : ٤٠] وقال في الـوعـظ : ﴿ أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يُمَتَّعُونَ ﴿٢٠٧﴾ ﴾ [الشعراء] إلى غير ذلك من أنواع الفصاحة والبلاغة والحلاوة. وإن جاءت الآيات في الأحكام والأوامر والنواهي اشتملت على الأمر بكل معروف حسن نافع طيب محبوب والنهي عن كل قبيح رذيل دنيء كما قال ابن مسعود وغيره من السلف : إذا سمعت الله تعالى يقول في القرآن : يا أيها الذين آمنوا فأرْعها سمعك فإنها خيرٌ يأمر به أو شر ينهى عنه ولهذا قال =

= تعالى : ﴿ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ﴾ [الأعراف : ١٥٧] الآية وإن جاءت الآيات في وصف المعاد وما فيه من الأهوال وفي وصف الجنة والنار وما أعد الله فيهما لأوليائه وأعدائه من النعيم والجحيم والملاذ والعذاب الأليم بشرت به وحذرت وأنذرت ودعت إلى فعل الخيرات واجتناب المنكرات وزهّدت في الدنيا ورغّبت في الأُخرى وثبتت على الطريقة المثلى وهدت إلى صراط الله المستقيم وشرعه القويم ونفت عن القلوب رجس الشيطان الرجيم . ولهذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما من نبي من الأنبياء إلا وقد أُعطي من الآيات ما آمن على مثله البشر وإنما كان الذي أوتيته وحيا أوحاه الله إليّ فأرجوا أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة » رواه الشيخان عن أبي هريرة واللفظ لمسلم .

وقوله صلى الله عليه وسلم : « وإنما كان الذي أوتيتُه وحياً » أي الذي اختصصت به من بينهم هذا القرآن المعجز للبشر أن يعارضوه بخلاف غيره من الكتب الإلهية فإنها ليست معجزة عند كثير من العلماء والله أعلم وله عليه الصلاة والسلام من الآيات الدالة على نبوته وصدقه فيما جاء به ما لا يدخل تحت حصر ولله الحمد والمنة . تنبيه ينبغي الوقوف عليه : قوله تعالى : ﴿ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ ﴾ وقوله في سورة يونس : ﴿ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ ﴾ يعم كل سورة في القرآن طويلة كانت أو قصيرة لأنها نكرة في سياق الشرط فتعم كما هي في سياق النفي عند المحققين من الأصوليين كما هو مقرر في موضعه فالإعجاز حاصل في طوال السور وقصارها وهذا ما لا أعلم فيه نزاعاً بين الناس سلفاً وخلفاً.

وقد قال الرازي في تفسيره: فإن قيل قوله تعالى : ﴿ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ ﴾ يتناول سورة الكوثر وسورة العصر وقل يا أيها الكافرون ونحن نعلم بالضرورة أن الإتيان بمثله أو بما يقرب منه ممكن فإن قلتم إن الإتيان بمثل هذه السور خارج =

....

= عن مقدور البشر كان مكابرة والإقدام على هذه المكابرات مما يطرق بالتهمة إلى الدين « قلنا » : فلهذا السبب اخترنا الطريق الثاني وقلنا : إن بلغت هذه السورة في الفصاحة حد الإعجاز فقد حصل المقصود وإن لم يكن كذلك كان امتناعهم من المعارضة مع شدة دواعيهم إلى تهوين أمره معجزا فعلى التقديرين يحصل المعجز هذا لفظه بحروفه والصواب أن كل سورة من القرآن معجزة لا يستطيع البشر معارضتها طويلة كانت أو قصيرة قال الشافعي رحمه الله : لو تدبر الناس هذه السورة لكفتهم : ﴿ وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ۝٣ ﴾ [العصر] . وقال الحافظ ابن كثير في الجزء السادس من كتاب البداية والنهاية : كتاب دلائل النبوة . وهو معنوية وحسية فمن المعنوية إنزال القرآن عليه وهو أعظم المعجزات وأبهر الآيات وأبين الحجج الواضحات لما اشتمل عليه من التركيب المعجز الذي تحدى به الانس والجن أن يأتوا بمثله فعجزوا عن ذلك مع توافر دواعي أعدائه على معارضته وفصاحتهم وبلاغتهم ثم تحداهم بعشر سور منه فعجزوا ثم تنازل الى التحدي بسورة من مثله فعجزوا عنه وهم يعلمون عجزهم وتقصيرهم عن ذلك وأن هذ مالا سبيل لأحد إليه أبدا قال الله تعالى قل لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا وهذه الآية مكية وقال في سورة الطور وهي مكية ﴿ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ ۚ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ۝٣٣ فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ۝٣٤ ﴾ [الطور] أي إن كنتم صادقين في أنه قاله من عنده فهو بشر مثلكم فأتوا بمثل ما جاء به فانكم مثله وقال تعالى في سورة البقرة وهي مدنية معيدا للتحدي ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝٢٣ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟ فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ۖ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ۝٢٤ ﴾ [البقرة] وقال تعالى : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ =

= ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٣﴾ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٤﴾ ﴾ [هود] وقال تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٩﴾ ﴾ [يونس] فبين تعالى أن الخلق عاجزون عن معارضة هذا القرآن بل عن عشر سور مثله بل عن سورة منه وأنهم لا يستطيعون ذلك أبدا كما قال تعالى : ﴿ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟ ﴾ أي فان لم تفعلوا في الماضي ولن تستطيعوا ذلك في المستقبل وهذا تحد ثان وهو أنه لا يمكن معارضتهم له لا في الحال ولا في المآل ومثل هذا التحدي إنما يصدر عن واثق بأن ما جاء به لا يمكن للبشر معارضته ولا الاتيان بمثله ولو كان من منقول من عند نفسه لخاف أن يعارض فيفتضح ويعود عليه نقيض ما قصده من متابعة الناس له ومعلوم لكل ذي لب أن محمدا صلى اللّٰه عليه وسلم من أعقل خلق اللّٰه بل أعقلهم وأكملهم على الاطلاق في نفس الأمر فما كان ليقدم هذا الأمر إلا وهو عالم بأنه لا يمكن معارضته وهكذا وقع فانه من لدن رسول اللّٰه صلى اللّٰه عليه وسلم وإلى زماننا هذا لم يستطع أحد أن يأتي بنظيره ولا نظير سورة منه وهذا لا سبيل اليه أبدا فانه كلام رب العالمين الذي لا يشبهه شيء من خلقه لا في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله فأني يشبه كلام المخلوقين كلام الخالق وقول كفار قريش الذي حكاه تعالى عنهم في قوله : ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا قَالُوا۟ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ ۙ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ [الأنفال : ٣١] كذب منهم ودعوى باطلة بلا دليل ولا برهان ولا حجة ولا بيان ولو كانوا صادقين لأتوا بما يعارضه بل هم يعلمون كذب أنفسهم كما يعلمون كذب أنفسهم في قولهم =

= ﴿ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٱكۡتَتَبَهَا فَهِيَ تُمۡلَىٰ عَلَيۡهِ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلٗا ۝٥ قُلۡ أَنزَلَهُ ٱلَّذِي يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ۝٦ ﴾ [الفرقان] أي أنزله عالم الخفيات رب الأرض والسماوات الذي يعلم ما كان وما يكون وما لم يكن لو كان كيف يكون فإنه تعالى أوحى الى عبده ورسوله النبي الأمي الذي كان لا يحسن الكتابة ولا يدريها بالكلية ولا يعلم شيئا من علم الأوائل وأخبار الماضين فقص الله عليه خبر ما كان وما هو كائن على الوجه الواقع سواء بسواء وهو في ذلك يفصل بين الحق والباطل الذي اختلفت في إيراده جملة الكتب المتقدمة كما قال تعالى : ﴿ تِلۡكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ نُوحِيهَآ إِلَيۡكَۖ مَا كُنتَ تَعۡلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوۡمُكَ مِن قَبۡلِ هَٰذَاۖ فَٱصۡبِرۡۖ إِنَّ ٱلۡعَٰقِبَةَ لِلۡمُتَّقِينَ ﴾ [هود : ٤٩] وقال تعالى : ﴿ كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيۡكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ مَا قَدۡ سَبَقَۚ وَقَدۡ ءَاتَيۡنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكۡرٗا ۝٩٩ مَّنۡ أَعۡرَضَ عَنۡهُ فَإِنَّهُۥ يَحۡمِلُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وِزۡرًا ۝١٠٠ خَٰلِدِينَ فِيهِۖ وَسَآءَ لَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ حِمۡلٗا ۝١٠١ ﴾ وقال تعالى : ﴿ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَمُهَيۡمِنًا عَلَيۡهِۖ ﴾ [المائدة : ٤٨] الآية ، وقال تعالى : ﴿ وَمَا كُنتَ تَتۡلُواْ مِن قَبۡلِهِۦ مِن كِتَٰبٖ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَۖ إِذٗا لَّٱرۡتَابَ ٱلۡمُبۡطِلُونَ ۝٤٨ بَلۡ هُوَ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٞ فِي صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَۚ وَمَا يَجۡحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ ۝٤٩ وَقَالُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَٰتٞ مِّن رَّبِّهِۦۖ قُلۡ إِنَّمَا ٱلۡأٓيَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٞ مُّبِينٌ ۝٥٠ أَوَلَمۡ يَكۡفِهِمۡ أَنَّآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحۡمَةٗ وَذِكۡرَىٰ لِقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ۝٥١ قُلۡ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡ شَهِيدٗاۖ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ وَكَفَرُواْ بِٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ۝٥٢ ﴾ [العنكبوت] فبين تعالى أن نفس إنزال هذا الكتاب المشتمل على علم ما كان وما يكون وحكم ما هو كائن بين الناس على مثل هذا النبي الأمي وحده كان من الدلالة على صدقه . وقال تعالى : ﴿ وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٖ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا ٱئۡتِ بِقُرۡءَانٍ غَيۡرِ هَٰذَآ أَوۡ بَدِّلۡهُۚ قُلۡ =

= مَا يَكُونُ لِيٓ أَنۡ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلۡقَآيِٕ نَفۡسِيٓۖ إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّۖ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنۡ عَصَيۡتُ رَبِّي عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ﴿١٥﴾ قُل لَّوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوۡتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ وَلَآ أَدۡرَىٰكُم بِهِۦۖ فَقَدۡ لَبِثۡتُ فِيكُمۡ عُمُرٗا مِّن قَبۡلِهِۦٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿١٦﴾ فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوۡ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ﴿١٧﴾ ﴾ [يونس] يقول لهم : إني لا أطيق تبديل هذا من تلقاء نفسي وإنما اللّٰه عز وجل هو الذي يمحو ما يشاء ويثبت وانا مبلغ عنه وأنتم تعلمون صدقي فيما جئتكم به لأني نشأت بين أظهركم وأنتم تعلمون نسبي وصدقي وأمانتي وأني لم أكذب على أحد منكم يوما من الدهر فكيف يسعني أن أكذب على اللّٰه عز وجل مالك الضر والنفع الذي هو على كل شيء قدير وبكل شيء عليم وأي ذنب عنده أعظم من الكذب عليه ونسبة ما ليس منه إليه كما قال تعالى : ﴿ وَلَوۡ تَقَوَّلَ عَلَيۡنَا بَعۡضَ ٱلۡأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذۡنَا مِنۡهُ بِٱلۡيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعۡنَا مِنۡهُ ٱلۡوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنۡ أَحَدٍ عَنۡهُ حَٰجِزِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾ [الحاقة] أي لو كذب علينا لانتقمنا منه أشد الانتقام وما استطاع أحد من أهل الأرض أن يحجزنا عنه ويمنعنا منه ، وقال تعالى : ﴿ وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوۡ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمۡ يُوحَ إِلَيۡهِ شَيۡءٞ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثۡلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُۗ وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي غَمَرَٰتِ ٱلۡمَوۡتِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓاْ أَيۡدِيهِمۡ أَخۡرِجُوٓاْ أَنفُسَكُمُۖ ٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَوۡنَ عَذَابَ ٱلۡهُونِ بِمَا كُنتُمۡ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ وَكُنتُمۡ عَنۡ ءَايَٰتِهِۦ تَسۡتَكۡبِرُونَ ﴾ [الأنعام : ٩٣] وقال تعالى : ﴿ قُلۡ أَيُّ شَيۡءٍ أَكۡبَرُ شَهَٰدَةٗۖ قُلِ ٱللَّهُۖ شَهِيدُۢ بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡۚ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَۚ ﴾ [الأنعام : ١٩] وهذا الكلام فيه الإخبار بأن اللّٰه شهيد على كل شيء وأنه تعالى أعظم الشهداء وهو مطلع علي وعليكم فيما جئتكم به عنه وتتضمن قوة الكلام قسما به أنه قد أرسلني إلى الخلق لأنذرهم بهذا القرآن فمن بلغه منهم فهو نذير له كما قال سبحانه وتعالى : ﴿ وَمَن يَكۡفُرۡ بِهِۦ مِنَ ٱلۡأَحۡزَابِ فَٱلنَّارُ مَوۡعِدُهُۥۚ فَلَا تَكُ فِي مِرۡيَةٖ مِّنۡهُۚ إِنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴾ [هود : ١٧] ففي هذا القرآن من الأخبار الصادقة عن اللّٰه وملائكته =

= وعرشه ومخلوقاته العلوية والسفلية كالسماوات والأرضين وما بينهما وما فيهن أمور عظيمة كثيرة مبرهنة بالأدلة القطعية المرشدة الى العلم بذلك من جهة العقل الصحيح كما قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴾ [الإسراء : ٨٩] وقال تعالى : ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴾ [العنكبوت : ٤٣] وقال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾ [الزمر] وفي القرآن العظيم الأخبار عما مضى على الوجه الحق وبرهانه ما في كتب أهل الكتاب من ذلك شاهدا له مع كونه نزل على رجل أمي لا يعرف الكتابة ولم يعان يوما من الدهر شيئا من علوم الأوائل ولا أخبار الماضين فلم يفجأ الناس إلا بوحي إليه عما كان من الأخبار النافعة التي ينبغي أن تذكر للاعتبار بها من أخبار الأمم مع الأنبياء وما كان منهم من أمورهم معهم وكيف نجى الله المؤمنين وأهلك الكافرين بعبارة لا يستطيع بشر أن يأتي بمثلها أبد الآبدين ودهر الداهرين ففي مكان تقص القصة موجزة في غاية البيان والفصاحة وتارة تبسط فلا أحلى ولا أجلى ولا أعلى من ذلك السياق حتى كأن التالي أو السامع مشاهد لما كان ، حاضر له معاين للخبر بنفسه كما قال تعالى : ﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ [القصص : ٤٦] وقال تعالى : ﴿ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴾ [آل عمران : ٤٤] وقال تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۖ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓا۟ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَمَا تَسْـَٔلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾ ﴾ [يوسف] إلى أن قال في آخرها : ﴿ لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى =

= بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [يوسف : ١١١] وقال تعالى : ﴿ وَقَالُواْ لَوْلَا يَأْتِينَا بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّهِۦٓ أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴾ [طه : ١٣٣] وقال تعالى : ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ ﴾ [فصلت] وعد تعالى أنه سيظهر آيات القرآن وصدقه وصدق من جاء به بما يخلقه في الآفاق من الآيات الدالة على صدق هذا الكتاب وفي نفس المنكرين له المكذبين ما فيه حجة عليهم وبرهان قاطع لشبههم حتى يستيقنوا أنه منزل من عند اللّٰه على لسان الصادق ثم أرشد إلى دليل مستقل بقوله : ﴿ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾ أي في العلم بأن اللّٰه يطلع على هذا الأمر كفاية في صدق هذا المخبر عنه إذ لو كان مفتريا عليه لعاجله بالعقوبة البليغة كما تقدم بيان ذلك ، وفي هذا القرآن إخبار عما وقع في المستقبل طبق ما وقع سواء بسواء ، وكذلك في الأحاديث حسب ما قررناه في كتابنا التفسير وما سنذكره من الملاحم والفتن كقوله تعالى : ﴿ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ [المزمل : ٢٠] وهذه السورة من أوائل ما نزل بمكة ، وكذلك قوله تعالى في سورة اقتربت وهي مكية بلا خلاف : ﴿ سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴿٤٦﴾ ﴾ [القمر] وقع مصداق هذه الهزيمة يوم بدر بعد ذلك إلى أمثال هذا من الأمور البينة الواضحة وسيأتي فصل فيما أخبر به من الأمور التي وقعت بعده عليه السلام طبق ما أخبر به ، وفي القرآن الأحكام العادلة أمرا ونهيا المشتملة على الحكم البالغة التي إذا تأملها ذو الفهم والعقل الصحيح قطع بأن هذه الأحكام إنما أنزلها العالم بالخفيات الرحيم بعباده الذي يعاملهم بلطفه ورحمته وإحسانه ، قال تعالى : =

= ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ﴾ [الأنعام : ١١٥] أي صدقا في الأخبار وعدلا في الأوامر والنواهي ، وقال تعالى : ﴿ الٓر كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴾ [هود : ١] أي أحكمت ألفاظه وفصلت معانيه . وقال تعالى : ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ ﴾ [التوبة : ٣٣] أي العلم النافع والعمل الصالح وهكذا روي عن علي بن ابي طالب رضي الله عنه أنه قال لكميل بن زياد هو كتاب الله فيه خير ما قبلكم وحكم ما بينكم ونبأ ما بعدكم وقد بسطنا هذا كله في كتابنا التفسير بما فيه كفاية ولله الحمد والمنة ، فالقرآن العظيم معجز من وجوه كثيرة من فصاحته وبلاغته ونظمه وتراكيبه وأساليبه وما تضمنه من الأخبار الماضية والمستقبلة وما اشتمل عليه من الأحكام المحكمة الجلية ، والتحدى ببلاغة ألفاظه يخص فصحاء العرب والتحدى بما اشتمل عليه من المعاني الصحيحة الكاملة وهي أعظم في التحدي عند كثير من العلماء ، يعم جميع أهل الأرض من الملتين أهل الكتاب وغيرهم من عقلاء اليونان والهند والفرس والقبط وغيرهم من اصناف بني آدم في سائر الأقطار والأمصار ، وأما من زعم من المتكلمين أن الاعجاز إنما هو من صرف دواعي الكفرة عن معارضته مع إنكار ذلك أو هو سلب قدرتهم على ذلك فقول باطل وهو مفرع على اعتقادهم أن القرآن مخلوق خلقه الله في بعض الأجرام ، ولا فرق عندهم بين مخلوق ومخلوق وقولهم هذا كفر وباطل وليس مطابقا لما في نفس الأمر ، بل القرآن كلام الله غير مخلوق ، تكلم به كما شاء تعالى وتقدس وتنزه عما يقولون علوا كبيرا ، فالخلق كلهم عاجزون حقيقة وفي نفس الأمر عن الأتيان بمثله ولو تعاضدوا وتناصروا على ذلك بل لا تقدر الرسل الذين هم افصح الخلق وأعظم الخلق وأكملهم أن يتكلموا بمثل كلام الله وهذا القرآن الذي يبلغه الرسول صلى الله عليه وسلم عن الله أسلوب كلامه لا يشبه أساليب كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم وأساليب كلامه =

....

○○○

= عليه السلام المحفوظة عنه بالسند الصحيح إليه لا يقدر أحد من الصحابة ولا من بعدهم أن يتكلم بمثل أساليبه في فصاحته وبلاغته فيما يرويه من المعاني بألفاظه الشريفة بل وأسلوب كلام الصحابة أعلى من أساليب كلام التابعين وهلم جرا إلى زماننا وعلماء السلف أفصح وأعلم وأقل تكلفا فيما يرونه من المعاني بألفاظهم من علماء الخلف وهذا يشهده من له ذوق بكلام الناس كما يدرك تفاوت ما بين أشعار العرب في زمن الجاهلية وبين أشعار المولدين الذين كانوا بعد ذلك ولهذا جاء الحديث الثابت في هذا المعنى وهو فيما رواه الامام أحمد قائلا حدثنا حجاج ثنا ليث حدثني سعيد بن أبي سعيد عن أبيه عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « ما من نبى من الأنبياء إلا قد أعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر وإنما كان الذي أوتيت وحيا أوحاه الله إلي فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة » . وقد أخرجه البخاري ومسلم من حديث الليث بن سعد به ومعنى هذا أن الأنبياء عليهم السلام كل منهم قد أوتي من الحجج والدلائل على صدقه وصحة ما جاء به عن ربه ما فيه كفاية وحجة لقومه الذين بعث إليهم سواء آمنوا به ففازوا بثواب إيمانهم أو جحدوا فاستحقوا العقوبة وقوله وإنما كان الذي أوتيت أي جله وأعظمه الوحي الذي أوحاه إليه وهو القرآن الحجة المستمرة الدائمة القائمة في زمانه وبعده ، فان البراهين التي كانت للأنبياء انقرض زمانها في حياتهم ولم يبق منها إلا الخبر عنها ، وأما القرآن فهو حجة قائمة كأنما يسمعه السامع من في رسول الله صلى الله عليه وسلم فحجة الله قائمة به في حياته عليه السلام وبعد وفاته ولهذا قال فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة أي لاستمرار ما آتاني الله من الحجة البالغة والبراهين الدامغة ، فلهذا يكون يوم القيامة أكثر الأنبياء تبعا .

اتخاذ أنداد من دون الله

السؤال : **يقول الله تعالى :** ﴿ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة : ٢٢]
فما هو الند ؟ .

الجواب : كلمة : ﴿ أَندَادًا ﴾ جمع نِدّ ، والند هو النظير أو الشبيه ، وأى عقل فيه ذرّة من فكر يبتعد عن مجرد التفكير فى مثل هذا ، فلا يجعل لله تعالى شبيهًا ولا نظيرًا ، ولا يُشَبِّهُ بالله تعالى أحدًا ؛ فالله واحد فى قدرته ، واحد فى قوته ، واحد فى أفعاله ، واحد فى ذاته ، واحد فى صفاته ، سبحانه وتعالى : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ [الشورى : ١١] .

ولا توجد مقارنة بين صفات الخالق سبحانه وتعالى وصفات المخلوق .

والله خلق لكل منا عقلاً يفكر به ، فلو عرضنا هذه المسألة على العقل لرفضها تمامًا ، لأنها لا تتفق مع عقل أو منطق ، ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ . أى تعرفون هذا جيدًا بعقولكم لأن طبيعة العقل ترفض هذا تمامًا .

فمن ذا الذى يستطيع أن يدّعى أنه خلقكم والذين من قبلكم ؟! ومن ذا الذى يستطيع أن يزعم أنه هو الذى جعل الأرض فراشًا ، وجعل السماء سقفًا محفوظًا ، أو أنزل المطر وأنبت الزرع ؟ بالطبع لا أحد .

إذن .. فأنتم تعلمون أن الأمر كله لله وحده ، ومادام لايوجد معارض ولا يمكن أن يوجد . فالقضية محسومة إبتداء للحق تبارك وتعالى .

والحق سبحانه وتعالى يقول : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ﴾ [البقرة : ١٦٥] .

لماذا اتخذ هؤلاء الناس لله تعالى أندادًا ؟ لأنهم يريدون دينا بلا منهج . يريدون أن يرضوا فطرة الإيمان التى خلقها الله فيهم . وفى الوقت نفسه يتبعون شهواتهم .

عندما فكروا فى هذا وجدوا أن أحسن طريقة هى أن يختاروا لأنفسهم إلهًا بلا منهج ، لايطلب منهم شيئًا ، ولذلك كل دعوة منحرفة تجد أنها تُبيحُ ما حرم الله ، وَتُحلُّ الإنسان من كل التكاليف الإيمانية كالصلاة والزكاة والجهاد وغيرها .

أما الذين آمنوا . فإنهم يعرفون أن الله سبحانه وتعالى إنما وضع منهجه لصالح الإنسان : فالله لا يستفيد من صلاتنا ولا من زكاتنا . ولا من أفعالنا شيئًا ، ولكننا نحن الذين نستفيد من رحمة الله ، ومن نِعَمِ الله ، والفوز بالجنة فى الآخرة (١) .

---

(١) قال الله تعالى : ﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة : ٢٢] قوله تعالى : ﴿ فَلَا تَجْعَلُوا۟ ﴾ نهي . ﴿ لِلَّهِ أَندَادًا ﴾ أي أكفاء وأمثالا ونظراء واحدها ند . وقال أبو عبيدة ﴿ أَندَادًا ﴾ أضدادا . قال القرطبى : قوله تعالى : ﴿ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ ابتداء وخبر والجملة في موضع الحال والخطاب للكافرين والمنافقين عن ابن عباس . فإن قيل : كيف وصفهم بالعلم وقد نعتهم بخلاف ذلك من الختم والطبع والصمم والعمى . فالجواب من وجهين : أحدهما - ﴿ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ يريد العلم الخاص بأن الله تعالى خلق الخلق وأنزل الماء وأنبت الرزق فيعلمون أنه المنعم عليهم دون الأنداد . الثاني - أن يكون المعنى وأنتم تعلمون وحدانيته بالقوة والإمكان لو تدبرتم ونظرتم والله أعلم . وفي هذا دليل على الأمر =

....

= باستعمال حجج العقول وإبطال التقليد. وقال ابن فورك: يحتمل أن تتناول الآية المؤمنين فالمعنى لا ترتدوا أيها المؤمنون وتجعلوا لله أندادا بعد علمكم الذي هو نفي الجهل بأن اللّه واحد. وفي مختصر تفسير ابن كثير : شرع تعالى في بيان وحدانية ألوهيته بأنه هو المنعم على عبيده ، بإخراجهم من العدم إلى الوجود وإسباغه عليهم النعم الظاهرة والباطنة ، بأن جعل لهم الأرض فراشاً : أي مهداً كالفراش مقررة موطأة مثبتة كالرواسي الشامخات . ﴿ وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً ﴾ وهو السقف كما قال تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ۖ وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ ﴾ [الأنبياء : ٣٢] ﴿ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً ﴾ والمرادُ به السحاب ههنا في وقته عند احتياجهم إليه فأخرج لهم به من أنواع الزروع والثمار رزقاً لهم ولأنعامهم . ومضمونه : أنه الخالق الرازق مالك الدار وساكنيها ورازقهم ، فبهذا يستحق أن يعبد وحده ولا يشرك به غيره ولهذا قال : ﴿ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ وفي الصحيحين عن ابن مسعود قال قلت : يا رسول اللّه أيّ الذنب أعظم عند اللّه ؟ قال : « أن تجعل للّه ندا وهو خلقك » الحديث . وكذا حديث معاذ : أتدري ما حق اللّه على عباده « أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئًا » « هو جزء من حديث أخرجه الشيخان » الحديث ؛ وفي الحديث الآخر : « لا يقولنَّ أحدكم ما شاء اللّه وشاء فلان ولكن ليقل ما شاء اللّه ثم شاء فلان » . وعن ابن عباس قال : قال رجل للنبي صلى اللّه عليه وسلم : ما شاء اللّه وشئت فقال : « أجعلتني لله نِدا ؟ قل ما شاء اللّه وحده » أخرجه النسائي وابن ماجة من حديث عيسى بن يونس .

وهذا كله صيانة وحماية لجناب التوحيد واللّه أعلم . قال ابن عباس قال اللّه تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ﴾ [البقرة : ٢١] للفريقين جميعاً من الكفار والمنافقين أي وحدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم ، وعنه أيضاً ﴿ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ : أي لا تشركوا باللّه غيره =

= من الأنداد التي لا تنفع ولا تضر ﴿ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ أنه لا رب لكم يرزقكم غيره . وقد علمتم أن الذي يدعوكم إليه الرسول صلى الله عليه وسلم من التوحيد هو الحق الذي لا شك فيه. قال أبو العالية : ﴿ فَلَا تَجْعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا ﴾ أي عدلاء شركاء وقال مجاهد ﴿ فَلَا تَجْعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ قال : تعلمون أنه إله واحد في التوراة والإنجيل . ذكر حديث في معنى هذه الآية الكريمة .

روى الإمام أحمد [١٣٠/٤] عن الحرث الأشعري أن نبيَّ الله صلى الله عليه وسلم قال : « إن الله عز وجل أمر يحيى بن زكريا عليهما السلام بخمس كلمات أن يعمل بهن وأن يأمر بني إسرائيل أن يعملوا بهن وكاد أن يبطئ فقال له عيسى عليه السلام : إنك قد أمرت بخمس كلمات أن تعمل بهن وتأمر بني إسرائيل أن يعملوا بهن ، فإمّا أن تبلغهن وإمّا أن أبلغهن ، فقال : يا أخي إني أخشى إن سبقتني أن أعذَّب أو يُخْسف بي . قال : فجمع يحيى بن زكريا بني إسرائيل في بيت المقدس حتى امتلأ المسجد فقعد على الشُّرف فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : إن الله عز وجل أمرني بخمس كلمات أن أعمل بهن وآمركم أن تعملوا بهن . أولهن أن تعبدوا الله لا تشركوا به شيئًا فإن مَثَل ذلك مثل رجل اشترى عبدا من خالص ماله بَوَرِق أو ذهب فجعل يعمل ويؤدي غلّته إلى غير سيده فأيكم سره أن يكون عبده كذلك ، وإن الله خلقكم ورزقكم فاعبدوه ولا تشركوا به شيئًا ، وآمركم بالصلاة فإن الله عز وجل ينصب وجهه لوجه عبده ما لم يلتفت ، فإذا صلّيتم فلا تلتفتوا ، وآمركم بالصيام فإن مَثَل ذلك كمثل رجل معه صرة من مسك في عصابة كلهم يجد ريح المسك وإن خلوف فم الصائم عند الله أطيب من ريح المسك. وآمركم بالصدقة فإن مثل ذلك كمثل رجل أسره العدوّ فشدُّوا يديه إلى عنقه وقدَّموه ليضربوا عنقه فقال لهم : هل لكم أن أفتدي نفسي منكم فجعل يفتدي نفسه منهم بالقليل والكثير حتى =

= فكَّ نفسه . وآمركم بذكر اللّه عز وجل كثيراً وإن مَثَل ذلك كمثل رجلٍ طلبه العدوّ سراعا في أثره فآتى حصنا حصينا فتحصَّن فيه وإن العبد أحصن ما يكون من الشيطان إذا كان في ذكر اللّه عز وجل . قال : فقال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : « وأنا آمركم بخمس اللّه أمرني بهن : الجماعة والسمع والطاعة والهجرة والجهاد في سبيل اللّه . فإنه من خرج من الجماعة قيد شبر فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه إلا أن يرجع ومن دعا بدعوى الجاهلية فهو من جثاء جهنم » قالوا : يا رسول اللّه وإن صام وصلّى قال : « وإن صام وإن صلّى وزعم أنه مسلم فادعوا المسلمين بأسمائهم بما سمّاهم اللّه عز وجل المسلمين المؤمنين عباد اللّه عز وجل » هذا حديث حسن ، وقال الأرناؤوط : حديث صحيح ، أبو خلف موسى بن خلف ـ وإن اختلف فيه ـ متابع ، وبقية رجاله ثقات رجال الصحيح . وهذه الآية دالة على توحيده تعالى بالعبادة وحده فإنَّ من تأمل هذه الموجودات عَلِم قدرةَ خالقها وحكمته وعلمه وإتقانه وعظيم سلطانه كما قال بعض الأعراب وقد سئل : ما الدليل على وجود الرب تعالى فقال : يا سبحان اللّه إن البعر ليدل على البعير وإن أثر الأقدام لتدل على المسير فسماءٌ ذات أبراج وأرضٌ ذات فجاج وبحارٌ ذات أمواج! ألا يدل ذلك على وجود اللطيف الخبير . وحكى الرازي عن الإمام مالك أن الرشيد سأله عن ذلك فاستدل له باختلاف اللغات والأصوات والنغمات. وعن أبي حنيفة أن « بعض الزنادقة » سألوه عن وجود الباري تعالى فقال لهم : دعوني فإني مفكر في أمر قد أخبرت عنه ذكروا لي أن سفينة في البحر موقرة فيها أنواع من المتاجر وليس بها أحد يحرسها ولا يسوقها – وهي مع ذلك تذهب وتجيء وتسير بنفسها وتخترق الأمواج العظام حتى تتخلص منها وتسير حيث شاءت بنفسها من غير أن يسوقها أحد . فقالوا : هذا شيء لا يقوله عاقل ! فقال : ويحكم هذه الموجودات بما فيها من العالم العلوي والسفلي وما اشتملت عليه =

= من الأشياء المحكمة ليس لها صانع ! فبهت القوم ورجعوا إلى الحق وأسلموا على يديه . وعن الشافعي أنه سئل عن وجود الصانع فقال : هذا ورق التوت طعمُه واحدٌ تأكله الدود فيخرج منه الإبريسم « الإبريسم : الحرير » وتأكله النحل فيخرج منه العسل وتأكله الشاة والبقر والأنعام فتلقيه بعراً وروثاً وتأكله الظباء فيخرج منها المسك وهو شيء واحد وعن الإمام أحمد بن حنبل أنه سئل عن ذلك فقال : ههنا حصنٌ حصين أملس ليس له باب ولا منفذ ، ظاهره كالفضة البيضاء وباطنه كالذهب والإبريز فبينا هو كذلك إذ انصدع جداره فخرج منه حيوان سميع بصير ذو شكلٍ حسن وصوت مليح يعني بذلك البيضة إذا خرج منها الدجاجة . وقال ابن المعتز :

فيا عجبا كيف يعصى الإله ... أم كيف يجحده الجاحد

وفي كل شيء له آية ... تدل على أنه واحد

وقال آخرون : من تأمّل هذه السماوات في ارتفاعها واتساعها وما فيها من الكواكب الكبار والصغار النيرة من السيارات ومن الثوابت وشاهدها كيف تدور مع الفلك العظيم في كل يوم وليلة دويرة ولها في أنفسها سير يخصها وانظَر إلى البحار المكتنفة للأرض من كل جانب والجبال الموضوعة في الأرض لتقر ويسكن ساكنوها مع اختلاف أشكالها وألوانها كما قال تعالى : ﴿ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴾ [فاطر : ٢٧] وكذلك هذه الأنهار السارحة من قطر إلى قطر للمنافع وما ذرأ في الأرض من الحيوانات المتنوعة والنبات المختلف الطعوم والأشكال والألوان مع اتحاد طبيعة التربة والماء استدل على وجود الصانع وقدرته العظيمة وحكمته ورحمته بخلقه ولطفه بهم وإحسانه إليهم لا إله غيره ولا ربَّ سواه عليه توكلت وإليه أنيب . والآيات في القرآن الدالة على هذا المقام كثيرة جدًّا .

وقال الحافظ فى الفتح : وَقَوْلِهِ جَلَّ ذِكْرُهُ : ﴿ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [فصلت : ٩] . وَقَوْلِهِ : ﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا =

= ءَاخَرَ ﴾ [الفرقان : ٦٨] . ﴿ وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾ وَقَالَ عِكْرِمَةُ : ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴾ ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ ﴾ وَ ﴿ مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ﴾ فَذَلِكَ إِيمَانُهُمْ وَهُمْ يَعْبُدُونَ غَيْرَهُ وَمَا ذُكِرَ فِي خَلْقِ أَفْعَالِ الْعِبَادِ وَأَكْسَابِهِمْ لِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ﴾ وَقَالَ مُجَاهِدٌ مَا نَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ إِلَّا بِالْحَقِّ بِالرِّسَالَةِ وَالْعَذَابِ . ﴿ لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّـٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ ﴾ الْمُبَلِّغِينَ الْمُؤَدِّينَ مِن الرُّسُلِ ﴿ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ﴾ عِنْدَنَا ﴿ وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ ﴾ الْقُرْآنُ ﴿ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ ﴾ الْمُؤْمِنُ يَقُولُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ هَذَا الَّذِي أَعْطَيْتَنِي عَمِلْتُ بِمَا فِيهِ .
قوله : « باب قول اللَّه تعالى فلا تجعلوا لله أندادا ، وقوله : وتجعلون له أندادا ذلك رب العالمين » ثم ذكر آيات وآثارا إلى ذكر حديث ابن مسعود « سألت النبي صلى اللَّه عليه وسلم أي الذنب أعظم قال أن تجعل لله ندا وهو خلقك » الند بكسر النون وتشديد الدال يقال له النديد أيضا وهو نظير الشيء الذي يعارضه في أموره وقيل ند الشيء من يشاركه في جوهره وهو ضرب من المثل لكن المثل يقال في أي مشاركة كانت فكل ند مثل من غير عكس قاله الراغب قال والضد أحد المتقابلين وهما الشيئان المختلفان اللذان لا يجتمعان في شيء واحد ، ففارق الند في المشاركة ووافقه في المعارضة قال ابن بطال : غرض البخاري في هذا الباب إثبات نسبة الأفعال كلها لله تعالى سواء كانت من المخلوقين خيرا أو شرا ، فهي لله تعالى خلق وللعباد كسب ، ولا ينسب شيء من الخلق لغير اللَّه تعالى فيكون شريكا وندا ومساويا له في نسبة الفعل إليه ، وقد نبه اللَّه تعالى عباده على ذلك بالآيات المذكورة وغيرها المصرحة بنفي الأنداد والآلهة المدعوة معه ، فتضمنت الرد على من يزعم أنه يخلق أفعاله . وقال الكرماني : الترجمة مشعرة بأن المقصود إثبات نفي الشريك عن اللَّه سبحانه وتعالى فكان المناسب ذكره في أوائل « كتاب التوحيد » لكن ليس المقصود =

= هنا ذلك ، بل المراد بيان كون أفعال العباد بخلق اللّٰه تعالى ، إذ لو كانت أفعالهم بخلقهم لكانوا أندادا لله وشركاء له في الخلق ولهذا عطف ما ذكر عليه وتضمن الرد على الجهمية في قولهم لا قدرة للعبد أصلا ، وعلى المعتزلة حيث قالوا لا دخل لقدرة اللّٰه تعالى فيها ، والمذهب الحق أن لا جبر ولا قدر بل أمر بين أمرين فإن قيل لا يخلو أن يكون فعل العبد بقدرة منه أولا ، إذ لا واسطة بين النفي والإثبات ، فعلى الأول يثبت القدر الذي تدعيه المعتزلة وإلا ثبت الجبر الذي هو قول الجهمية فالجواب أن يقال : بل للعبد قدرة يفرق بها بين النازل من المنارة والساقط منها ولكن لا تأثير لها ، بل فعله ذلك واقع بقدرة اللّٰه تعالى ، فتأثير قدرته فيه بعد قدرة العبد عليه وهذا هو المسمى بالكسب ، وحاصل ما تعرف به قدرة العبد أنها صفة يترتب عليها الفعل والترك عادة وتقع على وفق الإرادة انتهى .

عَنْ عَمْرِو بْنِ شُرَحْبِيلَ قَالَ : قَالَ عَبْدُ اللَّهِ : قَالَ رَجُلٌ : يَا رَسُولَ اللَّهِ أَيُّ الذَّنْبِ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ ؟ قَالَ أَنْ تَدْعُوَ لِلَّهِ نِدًّا وَهُوَ خَلَقَكَ ، قَالَ : ثُمَّ أَيْ ؟ قَالَ : ثُمَّ أَنْ تَقْتُلَ وَلَدَكَ مَخَافَةَ أَنْ يَطْعَمَ مَعَكَ .. قَالَ : ثُمَّ أَيْ ؟ قَالَ : أَنْ تُزَانِيَ حَلِيلَةَ جَارِكَ فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَصْدِيقَهَا ﴿ وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ ﴿٦٩﴾ ﴾ [الفرقان] . الآية روى البخارى و مسلم عن أبى موسى رضى الله تعالى عنه ليس أحد أصبر على أذى سمعه من اللّٰه : إنهم ليدعون له ولدا ، أو يجعلون له أندادا وهو مع ذلك يعافيهم ويرزقهم .

وفى حاشية السندي على النسائي [٣٧٧٢] أَخْبَرَنَا يُوسُفُ بْنُ عِيسَى قَالَ : حَدَّثَنَا الْفَضْلُ بْنُ مُوسَى، قَالَ : حَدَّثَنَا مِسْعَرٌ عَنْ مَعْبَدِ بْنِ خَالِدٍ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ يَسَارٍ عَنْ قُتَيْلَةَ امْرَأَةٍ مِنْ جُهَيْنَةَ : « أَنَّ يَهُودِيًا أَتَى النَّبِيَّ صلى اللّٰه عليه وسلم فَقَالَ : إِنَّكُمْ تُنَدِّدُونَ وَإِنَّكُمْ تُشْرِكُونَ تَقُولُونَ مَا شَاءَ اللَّهُ وَشِئْتَ وَتَقُولُونَ وَالْكَعْبَةِ فَأَمَرَهُمُ النَّبِيّ صلى اللّٰه عليه وسلم إِذَا أَرَادُوا أَنْ يَحْلِفُوا أَنْ يَقُولُوا وَرَبِّ الْكَعْبَةِ وَيَقُولُونَ مَا شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ شِئْتَ ». قال السندي : قوله : « إنكم تنددون » ضبط بتشديد الدال الأول أي تتخذون أندادا .

لا إكراه فى الدين

السؤال : **ما قول فضيلتكم فى أن المسلمين يكرهون الناس على الدخول فى الدين ؟**

الجواب : لو كان الإسلامُ يُكرِهُ الناس على اعتناقه لما كان هناك ما يعرف فى كتب الفقه بالجزية (١) .

إذن .. فالإسلام لم يكُره أحدًا على اعتناقه ، وإنما حماه من القوة التى تسيطر عليه حتى لا يُكرهه أحد على ترك دينه ، وهو حر بعد ذلك فى أن يسلم أو لا يسلم .

وكأن الذين ينتقدون الإسلام يدافعون عنه ، فسهامهم قد ارتدت إليهم .

وهنا يثور تساؤل : إذا كان الأمر كذلك فلماذا كانت حروب المسلمين ؟

نقول : إن الحروب فى الإسلام كانت لمواجهة الذين يفرضون العقائد الباطلة على غيرهم ، ويحجرونهم عليها فجاء الإسلام ليقول لهؤلاء : ارفعوا أيديكم عن الناس واجعلوهم أحرارًا فى أن يختاروا ما يعتقدون أنه الحق ،

---

(١) قال الأصفهانى : الجزية : ما يؤخذ من أهل الذمة ، وتسميتها بذلك للاجتزاء بها عن حقن دمهم . قال الله تعالى : ﴿ حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴾ [التوبة : ٢٩] ، ويقال : جازيك فلان ، أى : كافيك .

ويقال : جزيته بكذا وجازيته ، ولم يجئ فى القرآن إلا جزى دون جازى ، وذاك أن المجازاة هى المكافأة ، وهى المقابلة من كل واحد من الرجلين ، والمكافأة هى : مقابلة نعمة بنعمة هى كفؤها . وهى المقابلة من كل واحد من الرجلين ، ونعمة الله تتعالى عن ذلك ، ولهذا لا يستعمل لفظ المكافأة فى الله عز وجل . [راجع : البصائر ٣٨١/١] وهذا ظاهر .

[مفردات ألفاظ القرآن - كتاب الجيم] .

ومعلوم أن الإنسان إذا كان على حريته فلا يمكن أن يختار إلا الحق ، ولذلك فكثير من الناس الذين يقرأون قول الله سبحانه وتعالى : ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ ﴾ [البقرة :٢٥٦] . لا يفطنون إلى أن العلة واضحة فى قوله سبحانه من الآية نفسها : ﴿ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَيِّۚ ﴾[1].

إذن .. فالمسألة واضحة فلماذا تُكره الناس وقد وضح أمامهم الحق والباطل ؟ نحن فقط نمنع الذين يفرضون بالقوة عقائدهم الباطلة على الناس ، فأنت تستطيع أن تُكره القالب ، لكن لا تستطيع أن تُكره القلب . ونحن نريد أن ينبع الإيمان من القلب ، ولهذا يقول الحق لرسوله صلى الله عليه وسلم : ﴿ لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ ۝ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ ۝ ﴾ [الشعراء] .

إن الله لا يريد أعناقًا ، ولو كان يريد سبحانه أعناقًا لما استطاع أحد أن يخرج عما قدره سبحانه ، من يُريد الله أن يبتليه بمرض أو موت فلن ينجو من قدره ، إن الحق يريد إيمان قلوب لا خضوع قوالب . فالذى يجبر الآخرين على الإيمان بالإكراه لن يتبعه أحد ، وهو نفسه غير مؤمن بما يفرضه على الناس ، ولو كان مؤمنًا به لما فرضه على الناس بالقسر ، إنهم سيقبلونه عن طواعية واختيار عندما يتبيّن لهم أنه الحق المناسب لصلاح حياتهم .

ونحن نرى حولنا النظم والحكومات التى تفرض مبادئها بالسوط والقهر تتساقط تباعًا ، فعندما تتخلى هذه الحكومات عن السوط والبطش فإن الشعوب تتخلى عن تلك الأفكار المعارضة للحكومات . والقرآن هنا يعالج هذه المسألة عندما يتحدث عن القتال وتشريع القتال ، فهو سبحانه لم يأذن بالقتال خلال فترة الدعوة المكية التى استمرت ثلاثة عشر عامًا ، ثم أذن الله به

---

(١) لم أجدها .

بعد الهجرة إلى المدينة . وقد كان من الضرورى أن يتأخر أمر القتال ، لأن الحق أراد أولاً أن يلتفت المسلمون إلى اتباع المنهج حتى يكونوا لغيرهم قدوة ، ويرى الغير فيهم أسوة حسنة ، لذلك قال الحق سبحانه وتعالى : ﴿ فَٱعْفُوا۟ وَٱصْفَحُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ ﴾ [البقرة : ١٠٩] .

وقال سبحانه : ﴿ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَدَعْ أَذَىٰهُمْ ﴾ [الأحزاب : ٤٨] .

لماذا كل هذا التدرج ؟ لأن الحق سبحانه وتعالى يعلم أن الدعوة للإسلام ستدخل كل البيوت ، وسيضم البيت الواحد كافرًا ، ومؤمنًا ، ولو أنه سبحانه وتعالى شرع القتال من البداية لصار فى كل بيت معركة .

○ ○ ○

الإسلام .. التحقق والتطبيق

السؤال : **كيف يتم تحقيق الإسلام فى ظل الظروف الحالية ؟**

الجواب : يظن الناس أن الدعاة إلى اللّٰه تعالى هم الذين تعلموا فى الأزهر الشريف فقط ، وأن الذين يلبسون العمائم هم الذين عليهم البلاغ والوعظ والإرشاد ، نعم هذا صحيح ، ولكن يجب على كل من علم حكمًا من أحكام اللّٰه تعالى أن يبلغه ، فهو حينئذٍ عالم به ، ولذلك يقول رسول اللّٰه ﷺ : « نضر اللّٰه امرأ سمع منا شيئًا فبلغه كما سمع ، فرب مبلغ أوعى من سامع »(١)

---

(١) رواه الترمذى [٢٦٥٧] عن عبد اللّٰه بن مسعود عن أبيه رضى اللّٰه تعالى عنه ، وصححه الألبانى [٢١٤٠] .

قال المناوى فى فيض القدير : « نضر اللّٰه امرء » بفتح النون وضاد معجمة ، قال التوربشتى : الحسن والرونق يتعدى ولا يتعدى . قال الحافظ العراقى : روى مشددا ومخففا ، ومعناه ألبسه النضرة وخلوص اللون ، يعنى : جمله اللّٰه وزينه ، أو معناه : أوصله اللّٰه إلى نضرة الجنة وهى نعيمها ، قال تعالى : ﴿ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ ﴾ [الانفطار : ٢٤] ، ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴾ [القيامة : ٢٢] ، ﴿ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴾ [الإنسان : ٢٢] . وقال جرير :

طرب الحمام بذكركن فشاقنى لا زلت فى فنن الرياض الناضر

« أى مورف غض » : وقيل : معناه حسن اللّٰه وجهه فى الناس أى جاهه وقدره ، ثم إن قوله نضر يحتمل الخبر والدعاء ، وعلى كل فيحتمل كونه فى الدنيا ، وكونه فى الآخرة ، وكونه فيهما .

وفى عون المعبود : قال الخطابى : معناه الدعاء له بالنضارة وهى النعمة والبهجة ، يقال نضره اللّٰه ونضره بالتخفيف والتثقيل وأجودهما التخفيف . انتهى .

وهذا يعنى أنك طالما علمت حكما من أحكام اللّٰه فقد أصبحت عالما به ، وهنا يجب أن نلتفت لفتة ، هذه اللفتة هى : أن نحمل أمانة الإسلام كعلم ونحيا الإسلام كتطبيق ، وهذا هو مانسميه تحقيق الإسلام وتطبيق الإسلام ، فهب أننا ابتلينا بقوم أبعدونا عن تطبيق الإسلام كمنهج سلوكى للبشر فماذا يكون موقفنا ؟ موقفنا على الأقل أن نكون أمة تحقيق الإسلام ، أى تحمل الإسلام كعلم إلى أن يأذن اللّٰه بعودة المنهج الإسلامى كواقع للحياة ، ومنهج سلوكى للبشر مرة أخرى ، أما أننا نقول : مادمنا لم نحقق الإسلام كواقع فنتركه كعلم ، فهذا غير صحيح ، ولنبقِ هذه الشمعة المضيئة ونحافظ عليها حتى لا تنطفئ لعل رجلاً يأتى فيأخذ من هذه الشمعة قبسا يصيره اللّٰه شعلة عظيمة تنشر ضياءها على ربوع الدنيا ، ومن هنا أقول لبعض الشباب المتسرع فى قطف الثمرة : إن كنت ترى أن بلدك لم تحقق الإسلام منهجًا وسلوكًا ، فأنت مطالب أن تحفظ الإسلام وتحافظ عليه علماً وتحقيقًا حتى تحفظ دين اللّٰه للدنيا ، حتى يأذن اللّٰه لمن شاء أن يجرى الخير على يديه ليطبق منهج اللّٰه ، إياكم أن تقولوا وما غناؤنا بعلم الإسلام ؟ أقول : فلنجعل الإسلام محققا وإن لم يكن مطبقًا وبعد ذلك طبق الإسلام فيما ولايتك فيه على نفسك وقد قلتُ قديما إنه لو أن كل واحد منا طبق الإسلام فيما له ولاية عليه لسقط الحاكمون بغير الإسلام وحدهم ، ولو أن الحكام يعلمون أن الناس يحبون منهج اللّٰه بأنهم يرونهم يطبقونه فى نفوسهم لتقربوا إلى شعوبهم بتطبيق منهج اللّٰه ، لأن الحكام دائما يحاولون إرضاء الشعوب ، فمهمتنا إذن محصورة فى أمرين : نسعى ونلح ونجاهد فى أن نطبق الإسلام ونصفيه علما يجلى عقيدة الإسلام تجلية صافية تبين حقيقة القرآن ، وبأن اللّٰه ضَمَّن القرآن كنوزًا سيفضى اللّٰه تعالى بأسرارها حين تأتى ساعة ميلادها .

إذن .. فعملنا الآن يجب أن : نجلى الإسلام عقيدة ، ونجلى الإسلام عبادة ، ونجلى الإسلام معاملة .

الإنابة والقضاء في العبادات

السؤال :

ما حكم الإنابة والقضاء في آداء العبادات ؟

الجواب : لا يجوز لإنسان أن ينيب غيره ، ليؤدى الصلاة عنه ، لأنها عبادة بدنية والعجز عن أدائها بعيد ، لأنها تُؤدَّى بأية كيفية مستطاعة من قيام أو قعود ، أو اضطجاع ، أو إيماء بالرأس ، أو العين ، أو بجريانها على القلب ، وكذلك الصوم عبادة بدنية لاينوب فيها أحد عن أحد ، فمن لم يستطع أفطر ، وقضى عند الاستطاعة ، أو أخرج فدية إن لم توجد فرصة للاستطاعة كالعجوز ، والمريض مرضا لايرجى شفاؤه على تفصيل موجود فى كتب الفقه [1] .

أما الزكاة فتجوز الإنابة فى إخراجها من مال المزكىِّ ، لأنها عبادة مالية يتحقق الغرض منها بوصول الزكاة إلى من يستحقها بأية وسيلة تكون .

وكذلك الحج عبادة بدنية ومالية معا ، تجوز الإنابة لمن عجز ببدنه واستطاع بماله .

فقد ثبت أن امرأة من خثعم قالت للنبى صلى اللّه عليه وسلم : إن فريضة اللّه على عباده فى الحج أدركت أبى شيخًا كبيرًا لايستطيع أن يثبت على الراحلة ، أفأحج عنه ؟ قال : « نعم » [2] .

---

(١) لمزيد من المعرفة راجع كتابى : « أحكام الصلاة وصفة صلاة النبى صلى اللّه عليه وسلم كأنك تراها » . و « أحكام الصيام » كلاهما لفضيلة الشيخ الإمام وهما من منشورات مكتبة التراث الإسلامى .

(٢) أخرجه البخارى [١٥١٣] ، ومسلم [١٣٣٤/٤٠٧] عن عبد اللّه بن عباس رضى اللّه تعالى عنهما .

والمراد بالقضاء ما كان بعد الوفاة : فمن مات وعليه صلاة لم يؤدها ، لا يجوز لأحد أن يصلى عنه ، لأنها كما سبق عبادة بدنية لم يرد عن النبى صلى اللَّه عليه وسلم نص بجواز قضائها عن الميت .

ومن مات وعليه زكاة لم يخرجها ، أو دين وجب إخراجهما من تركته قبل تقسيم أنصبة الورثة ، لأنهما دين يقدم مع الوصية على التوارث لقوله تعالى : ﴿ مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصِي بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍۗ ﴾ [النساء : ١١] .

والحج واجب على المستطيع ، ومن مات ولم يحج وجبّ على غيره أن يحج عنه لورود الحديث الصحيح بذلك ، فقد قالت امرأة من جهينة للنبى صلى اللَّه عليه وسلم : إن أمى نذرت الحج ، ولم تحج حتى ماتت فهل أحج عنها ؟ فقال : « نعم ، أرأيت لو كان على أمك دين أكنت قاضيته ؟ اقضوا فدين اللَّه أحق بالوفاء »[1] .

هذا فى القضاء ، أما من أراد أن يقدم قُربة يستفيد بها الميت ، فليكن ذلك بالدعاء والاستغفار والصدقة بنية أن يكون الثواب للميت ، وكذلك بقراءة القرآن عند بعض الأئمة ، وبالحج أيضًا ليهب ثوابه إليه [2] .

○○○

---

(١) أخرجه البخارى [١٨٥٢] عن ابن عباس رضى اللَّه تعالى عنهما .

(٢) صدر عن مكتبة التراث الإسلامى كتاب « فقه الجنائز » وهو مهم جدًّا فى هذا الموضوع ، ولا نغالى إن قلنا إنه فريد فى موضوعه وأدلته ، ويجب ألا يخلوا منه بيت .

التأمين .. حلال أم حرام ؟

السؤال : **هل التأمين علي الحياة حلال أم حرام ؟**

الجواب : هذه المسائل لم يعد يفتى فيها واحد فتوى فردية ، لأن هذه المسائل أصبحت من مهمات التجمعات العلمية الفقهية ، ثم أنا شخصيًا لا أفهم ماذا تعنى شهادات الاستثمار ، فكيف أفتى فيها ، أنا لا أعرف نظامها ، فلابد أن يأتى اقتصاديون ويبينونها ، حتى أستطيع أن أقول هذا حلال وهذا حرام .. وإنما أنا شخصيًا عندما تسألنى أقول لك : لا أقبل واحدة منها على نفسى .

ثم مسألة التأمين . نحن قلنا : إن أمان المؤمن فى يد اللَّه . أنا أؤمن ضد من ؟ التأمين يعلم بلادة الحس الإيمانى .. فعندما تحدث لى حادثة أقول : الفلوس قادمة ولا أقول : يا رب احفظنى .. الحادثة التى تحدث لى فى مالى أو فى شىء قد يكون مقصود للَّه فيها أن يطهرنى .. ولنا فى الذين تركوا أولادهم ضعافًا ثم نراهم بعد مدة سادة [1] .

الإسلام عندما يطبق ككل لا يحتاج مسألة التأمين هذه على الإطلاق . الإسلام بناء لابد أن يوجد كله من أساسه دون تلفيق أو حشر .

وحين دخل مقاتل بن سليمان على المنصور فى يوم بيعته بالخلافة . قال : عظنى يا مقاتل . قال : أعظك بما رأيت أم سمعت ؟ قال : بل بما رأيت . قال : يا أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز خلف أحد عشر ولدًا ، وترك ثمانية عشر دينارًا كُفن منها بخمسة ، واشترى له قبرًا بأربعة . ووزع الباقى على ولده .

---

(١) إشارة إلى قول اللَّه تعالى : ﴿ وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا ﴾ [النساء : ٩] .

وكذلك مات هشام بن عبد الملك فكان نصيب إحدى زوجاته الأربع من النقد دون الضياع والقصور ثمانين ألفًا .

والله يا أمير المؤمنين لقد رأيت فى يوم واحد ولدًا من ولد عمر بن عبد العزيز يحمل مائة فرس فى سبيل الله . وولدًا من ولد هشام يسأل الناس فى الطريق . إذن .. فقولوا لى بالله عليكم ضد من أُؤَمّن ؟!

وتروى كتب السيرة أن عمرو بن العاص قال لمعاوية بن أبى سفيان رضى الله تعالى عنهم : يا أمير المؤمنين ماذا بقى لك من متاع الدنيا ؟

قال : أما المطعم فقد سئمت أطيبه . وأما اللباس فقد مللت ألينه ، وحظى الآن فى شربة ماء بارد فى يوم صائف تحت ظل شجرة .

وسأل معاوية عمرو قائلًا : وأنت ماذا بقى لك من متع الدنيا يا عمرو ؟

قال : أرض خوارة [1] ، بها يمن حزارة ، تدّر على فى حياتى ولولدى بعد مماتى .

وكان يسقيهما وردان الخادم ، فأراد أن يداعبه معاوية فقال : وأنت يا وردان ؟ قال : صنيعة معروف أصنعها فى أعناق قوم لا يؤدونها فى حياتى حتى تكون لعقبى فى عقبهم . قال معاوية : غلبنا اليوم العبد يا عمرو .

وقال الله تعالى : ﴿ وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا۟ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَـٰفًا خَافُوا۟ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْيَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴾ [النساء : ٩] [2] .

---

(١) الخوارة : النخلة الغريزة الحمل . القاموس المحيط [باب الراء فصل الخاء] .

(٢) جاء فى الجزء الثانى من كتاب الفقه على المذاهب الأربعة للجزايرى [مباحث الحجر - أسباب الحجر] :

يرجع سبب الحجر فى الشريعة الإسلامية على التحقيق إلى شئ واحد وهو مصلحة النوع الإنسانى كما هو الشأن فى كل قضية من قضاياها الكريمة ، فهى دائماً ترمى فى تشريعها إلى ما فيه سعادة الإنسان جماعة وأفراجاً . فمن قواعدها العامة وأسسها القويمة أنها قضت بضرورة التعاون بين الناس ، =

= فرضت على القوى أن يعين الضعيف بقدر ما يتاح له ، وحتمت على الكبير أن يساعد الصغير الذى يتولى أمره ويخلص له كل الإخلاص حتى لا تضيع عليه فرصة ينتفع بها فى دينه ودنياه . فمن ابتلاه اللَّه من الأطفال بفقد من يعطف عليه عطفا طبيعيا من والد أو أخ أو قريب كان له فى غيره عوضا ، فقد كلف اللَّه الحاكم أن يختار له من يقوم بأمر تربيته والنظر فى مصلحته والعمل على تنمية ثروته ، كما يقوم بذلك أقرب الناس إليه وألصقهم به . وقد أوصى اللَّه تعالى الأولياء والأوصياء على اليتامى والمساكين ، وحذرهم عاقبة إهمالهم والطمع فى أموالهم ، بما تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ويخافون بطشه وعقابه . وقال اللَّه سبحانه وتعالى : ﴿ وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا۟ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَـٰفًا خَافُوا۟ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْيَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ۝٩ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَـٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ۝١٠ ﴾ [النساء] ، وقال تعالى : ﴿ وَٱبْتَلُوا۟ ٱلْيَتَـٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُوا۟ ٱلنِّكَاحَ فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَٱدْفَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ وَلَا تَأْكُلُوهَآ إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُوا۟ وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ ۖ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِٱلْمَعْرُوفِ ﴾ [النساء : ٦] ، وفى الآية دلالة على أنه يصح للوصى الفقير أن يأخذ أجر عمله من مال القاصر بما هو معروف بين الناس ، فانظر كيف حذر الأوصياء فى الآية الأولى بما هو ممكن قريب الوقوع ؟ وكيف رغبهم فى حكم معاملة القاصر ؟ فإن الوصى الذى له أولاد صغار ضعاف قد يموت ويتركهم ، فلينظر على أى وجه يحب أن يعامل الناس أولاده فيعامل به من أقامه اللَّه وصيا عليه ، ليعلم أنه إذا اتقى اللَّه تعالى فى قوله وفعله كان قدوة حسنة لأبنائه فينقلون عنه الفضيلة ، فضلاً عما فى ذلك من ترك حسن الذكرى وطيب الأثر ، ولذلك فى قلوب الناس منزلة رفيعة تحبب إليهم مودة ذريته الضعيفة ، ويسهل عليهم خدمتهم .

إذن .. فماذا فعل التأمين ؟

من الجائز جدًا أن نعمل جمعية تضامن . فإذا حدث لواحد منا مصيبة نتضامن معه . إذن .. فأنا وأنت الدافعون . وهم المنفقون . إنما اليوم تعمل الشركات بقانون الاحتمال ، فالمنتفع بالفائض كله من المال هو الشركة .

إنما إذا اجتمع عشرة وتعهدوا بأن الذى يحدث له شيء يرفعه الآخرون .. فأهلاً وسهلاً .. هذا تضامن إسلامى وإخوة إسلامية .. ولقد عملنا فى جدة نظامًا للتجار فى هذا الشأن .. أنا سألتهم .. الشركات التى تؤمنون عندها على بضائعكم ألها عمل فى حفظ هذه البضائع ؟ هل للشركات عمل فى حزمها ؟ هل لها عمل فى مراقبتها ؟ قالوا : لا . قلت : ولماذا تأخذ الفلوس ؟ قالوا : تأخذها بقانون الاحتمال ، وليس لها عمل .. لو كان لها مندوب يعمل على حزم البضائع أو غير ذلك لكانت حلالًا ، لأن لها عملا وخدمة تؤديها . فقلت للتجار : أنتم المستوردون فى جدة ، خمسون واحدًا ، فلماذا لا تتضامنون مع بعضكم بأن الذى يحصل لبضاعته شيء يسنده الباقون ؟ وهنا يكون التأمين على الواقع وليس على الاحتمال . فقالوا : نعمل الشركات ، ونضع احتياطات من النقود فى الصندوق حتى لا نطلب وقت أن تحدث الكارثة ؟ فقلت لهم : ليكن كذلك .

○ ○ ○

الانفجار السكانى

السؤال : يتحجج البعض بأن الانفجار السكانى من معوقات التنمية الاقتصادية ؟ فما رأى فضيلتكم فى ذلك ؟

الجواب : هناك انفجار سكانى .. هذا صحيح .. وعندما نحكم المقاييس والمعايير والخط البيانى .. يكون هناك خطر كما يقولون من هذا العدد الهائل لماذا ؟

لأننا نعلم العدد الذى سيأتى ، ولم نخطط له ، ولا فى ماذا نستخدمه ، ولا سألنا أنفسنا ماذا أعددنا من الحركة فى الأرض لنواجه هذا العدد !!

ماذا فعلنا فى المقابل ؟ قلنا : إننا سنقلل السكان ، إذن .. فنحن « قدرنا » ولكن على الطرف السلبى ، ولم نقدر على الطرف الإيجابى ، يدل من أن نقول : إن هذا العدد سيحتاج إلى أرض كذا ، وإلى مصانع كذا .. ثم نعمل من أجل زيادتها ، جئنا للناحية الضعيفة وقلنا : لا .. ننقص العدد .

إذن .. قدرنا بمعدل الزيادة كل عام كذا .. فى سنة كذا يكون كذا .. صحيح عدد رهيب .. انفجار سكانى لابد فى المقابل أن نزيد الإنتاج ؟

إذن .. فنحن اتجهنا إلى الجانب السلبى الذى يعين على الكسل ، ولم نذهب إلى الجانب الإيجابى لننتج كذا ونفعل كذا وكذا ، ونلتزم ونضع خطة ملزمة ، لقد ذهبنا إلى الناحية التى لا تحتاج إلى مجهود ، وطالبنا الناس بتقليل عدد السكان .

ونحن إذا أخذنا المسألة فى حياة الأفراد العاديين أنفسهم ، نجد أن أسلوب المعالجة يختلف .. مثلاً الشخص يقول لنفسه : عندى ثلاثة أولاد . ودخلى الشهرى مائتى جنيه ، فهل ذلك يكفى ؟ لا .. لا يكفى ، إذن لابد أن أجد

عملاً اضافيا فى فترة المساء . أعمل فى محل تجارى ، أو أعمل على تاكسى ، أو أقف فى كشك ، وهكذا يسوى الأفراد حياتهم .. أنت هنا تواجه زيادة تبعات الحياة ، ولا تأتى للتبعات نفسها وتقول : لا .. أنقصها ، وهناك شخص آخر لم يفعل ذلك ..

فحينما تزيد عليه تبعات الحياة ، يكون الضيق .. بينما من تنبه قبل أن تحل الأزمة لم يحدث عنده الضيق .

ونحن - كمجتمع - لم نفعل مقدمًا لنواجه زيادة تبعات الحياة ، ولذلك حينما يقال : إن النبى عليه الصلاة والسلام استعاذ من الفقر ، وكثرةُ العيال ، نقول : نعم استعاذ من اجتماعهما !! فأنت لماذا قدرت على كثرة العيال ، ولم تقدر على الفقر ؟ لماذا لم تتحرك فى الحياة لتتغلب على الفقر ؟ « هناك أناس قدروا على الثانية ، فلم يهتموا بالأولى » .. أى : استطاعوا التغلب على الفقر ، فلم يضرهم كثرة العيال [1] .

---

(١) روى البخارى [٦٣٤٧] ومسلم [٥٣/٢٧٠٧] عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه ؛ أن النبى صلى الله عليه وسلم « كان يتعوذ من سوء القضاء ، ومن درك الشقاء ، ومن شماتة الأعداء » .

قال النووى : **الاستعاذة من « سوء القضاء »** يدخل فيها سوء القضاء فى الدين والدنيا والبدن والمال والأهل . وقد يكون ذلك فى الخاتمة .

« **درك الشقاء** » المشهور فيه فتح الراء . وحكاه القاضى وغيره أن بعض رواة مسلم رواه بإسكانها . وهى لغة . ودرك الشقاء يكون فى أمور الآخرة والدنيا ومعناه أعوذ بك أن يدركنى شقاء .

« **شماتة الأعداء** » هى فرح العدو ببلية تنزل بعدوه . يقال منه : شمت يشمت فهو شامت . وأشمته غيره . =

....

ooo

= « جهد البلاء » روى عن ابن عمر رضى الله تعالى عنهما أنه فسره بقلة المال وكثرة العيال . وقال غيره : هى الحال الشاقة .

مسلم بشرح النووى [٩/٣٨] .

وقال الله تعالى : ﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَـٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَـٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ﴾ [الإسراء : ٣١] .

التفسير : هذه الآية الكريمة دالة على أن الله تعالى أرحم بعباده من الوالد بولده ، لأنه نهى عن قتل الأولاد ، كما أوصى الآباء بالأولاد فى الميراث ، وكان أهل الجاهلية لا يورثون البنات ، بل كان أحدهم ربما قتل ابنته لئلا تكثر عيلته ، فنهى الله تعالى عن ذلك ، وقال : ﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَـٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَـٰقٍ ﴾ ؛ أى : خوف أن تفتقروا فى ثانى الحال ، ولهذا قدم الإهتمام برزقهم ، فقال تعالى : ﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَـٰدَكُم مِّنْ إِمْلَـٰقٍ ﴾ [الأنعام : ١٥١] ؛ أى : من فقر ، ﴿ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ﴾ .

وقوله : ﴿ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ﴾ : أى : ذنباً عظيماً ، وفى الصحيحين عن عبد الله بن مسعود ، قلت : يا رسول الله أى الذنب أعظم عند الله ؟ قال : « أن تجعل لله نداً وهو خلقك » ، قال : قلت له : إن ذلك لعظيم . قال : قلت : ثم أى ؟ قال : « ثم أن تقتل ولدك مخافة أن يُطعم معك » ، قال : قلت : ثم أى ؟ قال : « ثم أن تزانى حليلة جارك »[١] .

مختصر تفسير ابن كثير [الإسراء - ٣١] .

---

(١) رواه البخارى [٤٢٠٧] ومسلم [١٤١/٨٦] .

باب

القضاء والقدر والرزق



جسم الإنسان

السؤال : **هل جسم الإنسان يسير بإرادة الله تعالى أم بإرادة الإنسان ؟**

الجواب : جسم الإنسان مقهور لله سبحانه وتعالى فى معظم أعضائه .. بل هو مقهور لله فى كل ما يتصل بحياة الإنسان ووظائفها .. ففى أجسادنا أعضاء كثيرة لا نعرف عنها شيئًا .. ولا نحس بها إلا إذا أصابها المرض أو التلف ، ولكنها ما دامت تؤدى مهمتها بشكل طبيعى فنحن لا نحس بها .

فإذا نظرنا إلى دورة الحياة فى أجسادنا .. نحن نأكل الطعام ونمضغه بأسناننا ، ثم ينزل من الفم إلى البلعوم ومنه إلى المعدة ليُهضم فى عملية ميكانيكية معقدة ، ثم إلى الأمعاء الدقيقة ليمتص الجسم ما يحتاجه منه ، ثم بواسطة الدم يحمل إلى أجزاء الجسم المختلفة ليكون وقود حياة للإنسان ، وتخرج الفضلات من الأمعاء .

فإذا ما تأملنا دورة الطعام هذه ، فهل نملك مما يحدث من تفاعل بين أجسادنا وبين الطعام شيئًا ؟ .. الحقيقة لا .. فعندما ينزل الطعام الى المعدة وتفرز عليه العصارات المختلفة .. هذه مسألة قهر .. فلا أحد بإرادته يقول لمعدته افرزى العصارات اللازمة للطعام .. ولا أحد يستطيع أن يوقف فرز هذه العصارات حتى لا تهضم الطعام .. ولكنها عملية تتم داخل أجسادنا ولا نشعر بها .. فإذا عُرض علينا فيلم يوضح لنا ماذا يحدث فى المعدة التى احتضنت كل هذه العمليات دون أن ندرى عنها شيئًا ، لوجدنا عظمة الله وقدرته ولا يملك الإنسان تجاه ذلك إلا أن يقول : ﴿ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحۡسَنُ ٱلۡخَٰلِقِينَ ﴾ [المؤمنون : ١٤] .

فإذا انتقلنا بعد ذلك إلى الكبد مثلاً .. ومعلوم للكافة عظمة مهمته وأهميتها ، والسؤال : هل نشعر بعمله حين يبدأ العمل أو بمهامه التى يقوم بها ؟ .. بالطبع لا .. فالكبد قائم بعمله فى الجسد .. دون أن نعرف أو نشعر بهذه العملية التى تتم داخل أجسادنا .. بل ربما طوال العمر ما دام لا يحدث اختلال فى وظائفه فإننا لا نشعر بوجوده .

والقلب تلك المضغة الصغيرة التى وضع فيها سر الحياة ، هل نستطيع أن نجعل القلب ينبض حين نريد ؟ .. أو يتوقف عن النبض عندما نريد ؟

وفى رئتيك عملية تبادل الأكسوجين وثانى أكسيد الكربون مستمرة ليلاً ونهارًا ، ولو توقفت الرئتان عن العمل لتوقفت حياة الإنسان ، فهل أنت الذى تدير هذا التبادل ؟ أو هل تستطيع أن تتحكم فيه ؟

وكذلك الدورة الدموية التى فى جسدك .. هل تستطيع أن تتحكم فيها وتطلب منها أن تضخ الدم هنا وتمتنع عن الضخ هناك ! عشرات الأشياء التى يتكون منها الدم .. من كرات حمراء وكرات بيضاء وغير ذلك هل تدرى عنه شيئًا ؟

إن هناك معارك تدور داخل شرايينك .. يدخل الميكروب أو الفيروس جسد المريض .. وتبدأ كرات الدم البيضاء فى التصدى له .. وتعدّ له من أنواع المقاومة ما يقضى على الميكروب ويعيد لك الصحة .. أأنت تفعل ذلك ؟ بالطبع لا .

إذن .. فكل هذا مقهور للّه سبحانه وتعالى .. لا تدرى أنت عنه شيئًا .. وإذا رأيته فإنك تذهل من أن كل هذا يحدث فى جسمك .. وأنت لا تستطيع أن توقفه أو تسيره .

إذن .. كل هذه العمليات التى تدور فى جسدك .. لا إرادة لك فيها .. ولا سلطان لك عليها .. أى أنها لا تأخذ منك أية تعليمات .. وأنت لا تستطيع أن تجعلها تعمل أو تتوقف .. وهذا من رحمة اللّٰه سبحانه وتعالى .. فلو أن هذه الأشياء تخضع لإرادتك لكانت مصيبة كبرى .

تصور أنه مطلوب منك أن تأمر القلب أن يدق .. والمعدة أن تعمل ، والرئة أن تتنفس .. لن يكون عندك وقت لتفعل هذا .. وإذا كان عندك الوقت لما استطعت أن تسعى فى الحياة .. وأن ترتقى بحضارتك .. وأن تطبق منهج اللّٰه .. بل لم تكن لتستطيع أن تنام .. وكيف تنام والقلب يعمل بأمر منك .. إنه سيتوقف ساعة نومك .. وكيف يستطيع الطفل الصغير الذى لا يدرك شيئًا .. أن يجعل هذه الأجهزة تعمل ولا تتوقف .

○ ○ ○

كل ميسر لما خُلق له

السؤال : **إذا كان اللّه سبحانه يهدى من يشاء ويضل من يشاء فكيف إذن يكون الحساب عدلاً ؟ وهل يملك أحدًا من أمره شيئًا أمام مشيئة اللّه سبحانه وتعالى ؟**

الجواب : هذا السؤال لا تجده إلا على ألسنة الذين أسرفوا على أنفسهم وعصوا اللّه .. فلا تجد أحدًا يقول بالمقابل .. إذا كان كل شيء مكتوبًا .. فلماذا يدخلنى اللّه الجنة وينعمنى فيها ؟ .. ذلك سؤال لا تسمعه أبدًا .. وإنما تسمع دائمًا من يقول لك إن الحساب ليس عدلاً .. لأن كل شيء مكتوب ، وكل شيء هو من قدر اللّه .

اللّه سبحانه وتعالى قد أعطى للإنسان حرية الاختيار فى حياته .. ومن هنا جاء السؤال .. ذلك أن الحرية الممنوحة للإنسان .. يظن بعض الناس أنها تتصادم مع مشيئة اللّه .. مع أن الحقيقة غير ذلك تمامًا .

ويحتج بعض الناس خطأ ببعض آيات من القرآ الكريم ، يقول تعالى : ﴿ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ [الإنسان : ٣٠] .

وقوله سبحانه وتعالى لرسوله صلى اللّه عليه وسلم : ﴿ إِنَّكَ لَا تَهۡدِى مَنۡ أَحۡبَبۡتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِى مَن يَشَآءُۚ ﴾ [القصص : ٤٨] .

وقوله جل جلاله : ﴿ مَّا يَفۡتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحۡمَةٖ فَلَا مُمۡسِكَ لَهَاۖ وَمَا يُمۡسِكۡ فَلَا مُرۡسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴾ [فاطر : ٨] .

وإذا كان ذلك كذلك .. فكيف نُحاسب يوم القيامة ؟

نقول : إن اللّٰه سبحانه وتعالى له ما يشاء فى كونه .. ولا يوجد فى كون اللّٰه شىء يخرج عن مشيئة اللّٰه .. تلك هى الحقيقة التى نبدأ بها .. ومع هذه الحقيقة فإن الناس هم الذين يلقون بأنفسهم إلى التهلكة .. وخلق اللّٰه هم الذين يفعلون ما يجعلهم يستحقون عذاب اللّٰه .. أو يستحقون رحمته .. كما يقول اللّٰه جل جلاله : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَـٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ [يونس : ٤٤] .

أى : أن الناس هم الذين يظلمون أنفسهم ، ومن الظلم جحد الحق ، وهذا هو الظلم الأعلى ، ومن الظلم أن يُعطى الإنسان نفسه شهوة عاجلة ؛ ليذوق من بعد ذلك عذابًا آجلًا ، وهو بذلك يحرم نفسه من النعيم المقيم ، وهو حين يظلم نفسه يكون قد افتقد القدرة على قياس عمره فى الدنيا ، فالعمر مهما طال قصير ، وما دام الشىء له نهاية فهو قصير .

والحق سبحانه وتعالى حين يخاطب الناس ، فهو قد نصب لهم آيات باقية إلى أن تقوم الساعة ، وكلهم شركاء فيها ، وهى الآيات الكونية [1] ، وبعد ذلك خَصَّ كل رسول بآية ومعجزة ، وأنزل منهجًا بـ « افعل » و « لا تفعل » ،

---

(١) قد جعل اللّٰه فى الكون آيات خاطب بها سبحانه كل الناس ليتفكروا فيها وليصلوا بها إلى أن لهذا الكون خالقاً واحدًا ، وقد جمعها اللّٰه فى قوله تعالى : ﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَـٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَـٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة : ١٦٤] .

وبين فى آيات الكتاب ما المطلوب فعله ، وما المطلوب أن نمتنع عنه[1] ، وترك لك بقية الأمور مباحة .

والمثال الذى أضربه دائماً : هو التلميذ الذى يرسب آخر العام ، هذا التلميذ لم تظلمه المدرسة ، بدليل أن غيره قد نجح ؛ لذلك لا يصح أن يقال : إن المدرسة أسقطت فلانًا ، ولكن الصحيح أن نقول : إن فلاناً قد أسقط نفسه ، وأن زميله قد أنجح نفسه ، ودور المدرسة فى ذلك هو إعلان النتيجة .

ومن الظلم أيضًا أن يستكثر الظالم نعمة عند المظلوم ، فيريد أن يأخذها منه ، ولا يمكن أن يكون الحق سبحانه وتعالى ظالماً يستكثر نعم عباده لأنه مُنزَّه عن ذلك ، فضلاً عن أن خلقه ليس عندهم نعم يريدها هو ، فهو الذى أعطاها لهم ؛ ولذلك لا يأتى منه سبحانه أى ظلم ، وإن جاء الظلم فهو من الإنسان نفسه [2] .

---

(١) ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَـٰدَكُم مِّنْ إِمْلَـٰقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُواْ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [الأنعام : ١٥١] .

(٢) كنا في جنازة في بقيع الغرقد . فأتانا رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقعد وقعدنا حوله . ومعه مخصرة . فنكس فجعل ينكت بمخصرته . ثم قال : « ما منكم من أحد ما من نفس منفوسة إلا وقد كتب الله مكانها من الجنة والنار . وإلا وقد كتبت شقية أو سعيدة »

قال فقال رجل : يا رسول الله ! أفلا نمكث على كتابنا وندع العمل ؟ فقال : « من كان من أهل السعادة فسيصير إلى عمل أهل السعادة . ومن كان من أهل الشقاوة فسيصير إلى عمل أهل الشقاوة » . =

....

ooo

= فقال : « اعملوا فكل ميسر » .

أما أهل السعادة فييسرون لعمل أهل السعادة . وأما أهل الشقاوة فييسرون لعمل أهل الشقاوة . ثم قرأ : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ ۝١٠ ﴾ [الليل] .

« بقيع الغرقد » : هو مدفن المدينة .

« مخصرة » : المخصرة ما أخذه الإنسان بيده واختصره من عصا لطيفة وعكاز لطيف وغيرهما .

« فنكس » أي : خفض رأسه وطأطأه إلى الأرض على هيئة المهموم .

« ينكت » أي : يخط بها خطا يسيرا مرة بعد مرة . وهذا فعل المفكر المهموم.

« أفلا نمكث على كتابنا » قال القاضي : يعني إذا سبق القضاء بمكان كل نفس من الدارين وما سبق به القضاء فلابد من وقوعه فأي فائدة في العمل فندعه .

قال الطبري : هذا الذي انقدح في نفس الرجل هي شبهة النافين القدر . وأجاب عليه السلام بما لم يبق معه إشكال . وتقدير جوابه أن الله سبحانه غيب عنا المقادير . وجعل الأعمال أدلة على ما سبقت به مشيئته من ذلك. فأمرنا بالعمل فلا بد لنا من امتثال أمره .

وروى البخارى [٦٥٩٦] ومسلم [٩/٢٦٤٩] عن عمران بن حصين رضى الله تعالى عنه قال : قيل : يا رسول الله ! أعلم أهل الجنة من أهل النار ؟ قال : فقال : نعم . قال : قيل : ففيم يعمل العاملون ؟ قال : كل ميسر لما خلق له .

العمل .. والإيمان بالقدر

السؤال : **بعض المشككين فى عدل الله سبحانه وتعالى يحاولون إدخال اليأس في قلوب الناس حتي يصرفوهم عن العبادة حيث يقول هؤلاء : إذا كان الحق سبحانه وتعالى خلق للجنة أهلها ، وخلق للنار أهلها ، فما هو جدوى العمل إذن ؟**

الجواب : الإنسان خلق مختارًا .. ولكن هل أعطى الإنسان مطلق الاختيار ؟ .. بعض الذين يدَّعون أنهم متحررون .. ويتبعون عقولهم وأفكارهم .. يقولون بحماسة : نعم نحن لنا مطلق الاختيار .. بل إن بعض الناس قد ذهب إلى أبعد من ذلك .. فقالوا إن الإنسان الذكى يستطيع أن يصنع قدره .. وأن يضع نفسه فى المكان الذى يريده من الحياة.

نقول لهؤلاء جميعًا : كفاكم جهلًا .. فإن ما تقولونه يكذبه الواقع ، وتكذبه الحياة بكل أحداثها .. الإنسان لم يعطه الحق سبحانه وتعالى اختيارًا مطلقًا .. وإنما أعطاه الاختيار الذى يتناسب مع مهمته فى الحياة. فاللَّه سبحانه وتعالى حكيم ، ولذلك فكل شىء يفعله بحكمة .. واللَّه تبارك وتعالى عليم .. فكل شىء يتم فى كونه بعلم وليس بفوضى أو بعفوية .. أو بأشياء تحدث هكذا لا ترابط بينها .

وإذا استعرض كل منا شريط حياته .. بل إذا نظر داخل نفسه وداخل جسده ، يجد أن هناك أشياء كثيرة لا تخضع لحريته أو اختياره .. بل إن معظم حياة الإنسان لا تخضع لاختياره .

ولنبدأ القصة من أولها .. عندما يأتى الإنسان إلى هذا الكون .. لحظة مولده .. أهو الذى اختار مكان مولده ؟ .. أو يوم مولده ؟ أو ساعة ميلاده ؟ .. لا أحد منا يختار لحظة ميلاده فى الدنيا .. بل كلنا يأتى للحياة بقَدر اللَّه سبحانه وتعالى .. فبداية الحياة لكل بشر ليست من اختياره .. ومكان هذه البداية ليس من اختياره .. وجنسه .. هل هو ذكر أم أنثى ؟ ليس من اختياره .. وجنسيته هل هو عربى أم بريطانى أم أمريكى ؟ لا اختيار له فيها .. ثم بعد ذلك يأتى جسده .. أطويل هو أم قصير ؟ .. ما هو لون عينيه ؟ .. ما هو لون شعره ؟ .. ما هى صورة وجهه ؟ .. من هو أبوه ومن هى أمه ؟ .. هل هو صحيح السمع سليم البصر ؟ .. هل هو سليم اليدين والقدمين ؟ .. فى جسده عيب أو مرض أم هو صحيح ؟ .. كل هذا وغيره لا اختيار للإنسان فيه .. ومن هنا فقد نبهنا الحق سبحانه وتعالى .. إلى محدودية الاختيار فى الإنسان منذ لحظة ميلاده .. وفى ذلك يقول جل جلاله : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ ﴾ [آل عمران : ٦] .

وهكذا نسب الحق تبارك وتعالى كل ما يتعلق بلحظة الميلاد والتكوين البشرى إلى طلاقة قدرته وحده .. ولم يعط للإنسان اختيارًا فى أن يولد أبيض أو أسود .. صحيحًا أم مريضًا .. ولا فى صورة وجهه .. ولا فى تكوين جسده (١) .

---

(١) أخرج مسلم [٣/٢٦٤٥] عن عبد اللَّه بن مسعود رضى اللَّه تعالى عنه قال : « الشقى من شقى فى بطن أمه والسعيد من وعظ بغيره فأتى رجلاً من أصحاب رسول اللَّه ﷺ يقال له حذيفة بن أسيد الغفارى فحدثه بذلك من قول ابن مسعود فقال وكيف يشقى رجل بغير عمل ؟ فقال له الرجل : =

= أتعجب من ذلك ! فإنى سمعت رسول اللّه ﷺ يقول : « إذا مر بالنطفة ثنتان وأربعون ليلة بعث اللّه إليها ملكاً فصورها وخلق سمعها وبصرها وجلدها ولحمها وعظامها ، ثم قال : يا رب أذكر أم أنثى فيقضى ربك ما شاء ويكتب الملك ثم يقول : يا رب أجله ، فيقول ربك ما شاء ويكتب الملك ثم يقول يا رب : رزقه ؛ فيقضى ربك ما شاء ، ويكتب الملك ثم يخرج الملك بالصحيفة فى يده فلا يزيد على أمر ولا ينقص » .

وأخرج مسلم [٢/٢٦٤٥] عن حذيفة بن أسيد الغفارى رضى اللّه تعالى عنه قال : سمعت رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم بأذنى هاتين يقول : « إن النطفة تقع فى الرحم أربعين ليلة ثم يتصور عليها الملك ، قال زهير حسبته قال الذى يخلقها ، فيقول يا رب : أذكر أو أنثى ؟ فيجعله اللّه ذكراً أو أنثى ، ثم يقول : يا رب أسوى أو غير سوى ؟ فيجعله اللّه سويا أو غير سوى ، ثم يقول : يا رب ما رزقه ، ما أجله ، ما خلقه ، ثم يجعله اللّه شقيا أو سعيدا » .

وأخرج البخارى [٤٦٦٦] عن على رضى اللّه تعالى عنه ، قال ؛ كان النبى صلى اللّه عليه وسلم فى جنازة فأخذ شيئاً فجعل ينكت به الأرض ، فقال : ما منكم من أحد إلا وقد كتب مقعده من النار ومقعده من الجنة ، قالوا : يا رسول اللّه أفلا نتكل على كتابنا وندع العمل ؟ قال : اعملوا فكل ميسر لما خلق له أما من كان من أهل السعادة فييسر لعمل أهل السعادة وأما من كان من أهل الشقاء فييسر لعمل أهل الشقاوة ثم قرأ : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٦ ﴾ [الليل :٦] .

وأخرج البخارى [١٢٩٦] ومسلم [٧/٢٦٤٧] عن على رضى اللّه تعالى عنه قال : كان رسول اللّه ﷺ ذات يوم جالسا وفى يده عود ينكت به فرفع رأسه فقال : ما منكم من نفس إلا وقد علم منزلها من الجنة والنار ؛ قالوا : =

= يا رسول اللَّه فلم نعمل أفلا نتكل ؟ قال : فكل ميسر لما خلق له . ثم قرأ : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ۝ ﴾ [الليل] .

وأخرج مسلم [٨/٢٦٤٨] عن جابر رضى اللَّه تعالى عنه قال : جاء سراقة بن مالك بن جعشم قال : يا رسول اللَّه ! بين لنا ديننا كأنا خلقنا الآن فيما العمل اليوم ؟ أفيما جفت به الأقلام . وجرت به المقادير ، أم فيما نستقبل ؟ قال : لا . بل فيما جفت به الاقلام وجرت به المقادير « قال : ففيم العمل ؟ قال ؛ قال زهير : ثم تكلم أبو الزبير بشىء لم أفهمه . فسألت : ما قال : فقال اعملوا فكل ميسر .

قال النووى فى شرح مسلم : « وفى هذه الأحاديث كلها : دلالات ظاهرة لمذهب أهل السنة فى إثبات القدر ، وأن جميع الواقعات بقضاء اللَّه تعالى وقدره ، خيرها وشرها نفعها وضرها ، وقد سبق فى أول كتاب الإيمان قطعة صالحة من هذا قال اللَّه سبحانه وتعالى : ﴿ لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ ﴾ [الأنبياء : ٢٣] . فهو ملك للَّه تعالى ، ويفعل ما يشاء ، ولا اعتراض على المالك فى ملكه ، ولأن اللَّه تعالى لا علة لأفعاله ، قال الإمام أبو المظفر السمعانى : سبيل معرفة هذا الباب التوقيف من الكتاب والسنة دون محض القياس ومجرد العقول ، فمن عدل عن التوقيف فيه ضل وتاه فى بحار الحيرة ، ولم يبلغ شفاء النفس ، ولا يصل إلى ما يطمئن به القلب ، ولأن القدر سر من أسرار اللَّه تعالى التى ضربت من دونها الأستار ، واختص اللَّه به وحجبه عن عقول الخلق ومعارفهم ، لما علمه من الحكمة ، وواجبنا أن نقف حيث حد لنا ، ولا نتجاوزه ، وقد طوى اللَّه تعالى علم القدر على العالم ، فلم يعلمه نبى مرسل ، ولا ملك مقرب ، وقيل : إن سر القدر ينكشف قبل دخولها ، واللَّه أعلم . =

= وفى هذه الأحاديث : النهى عن ترك العمل ، والاتكال على ما سبق به القدر بل تجب الأعمال ، والتكاليف التى ورد الشرع بها ، وكل ميسر لما خلق له ، ولا يقدر على غيره ، ومن كان من أهل السعادة يسره الله لعمل السعادة ، ومن كان من أهل الشقاوة يسره الله لعملهم كما قال تعالى : ﴿ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ ﴾ [الليل : ١٠] ، كما صرحت به هذه الأحاديث .

قال الله تعالي : ﴿ مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ ۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ [آل عمران : ١١٧] .

قال القرطبي : مثل نفقة الكافرين في بطلانها وذهابها وعدم منفعتها كمثل زرع أصابه ريح باردة أو نار فأحرقته وأهلكته فلم ينتفع أصحابه بشيء بعد ما كانوا يرجون فائدته ونفعه . ﴿ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ ﴾ بذلك ﴿ وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ بالكفر والمعصية ومنع حق الله تعالى .

وقيل : ظلموا أنفسهم بأن زرعوا في غير وقت الزراعة أو في غير موضعها فأدبهم الله تعالى لوضعهم الشيء في غير موضعه .

وقال ابن جرير الطبري : يعني بذلك جل ثناؤه : شبه ما ينفق الذين كفروا: أي : شبه ما يتصدق به الكافر من ماله فيعطيه من يعطيه على وجه القربة إلى ربه وهو لوحدانية الله جاحد ولمحمد صلى الله عليه وسلم مكذب في أن ذلك غير نافع له مع كفره وأنه مضمحل عند حاجته إليه ذاهب بعد الذي كان يرجو من عائدة نفعه عليه كشبه ريح فيها برد شديد ﴿ أَصَابَتْ ﴾ هذه الريح التي فيها البرد الشديد ﴿ حَرْثَ قَوْمٍ ﴾ يعني : زرع قوم قد أملوا إدراكه ورجوا ريعه وعائدة نفعه ﴿ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ﴾ يعني أصحاب الزرع عصوا الله =

○○○

= وتعدوا حدوده ﴿ فَأَهْلَكَتْهُ ﴾ يعني : فأهلكت الريح التي فيها الصر زرعهم ذلك بعد الذي كانوا عليه من الأمل ورجاء عائدة نفعه عليهم .

يقول تعالى ذكره : فكذلك فعل الله بنفقة الكافر وصدقته في حياته حين يلقاه يبطل ثوابها ويميت رجاءه منها .

وخرج المثل للنفقة والمراد بالمثل : صنيع الله بالنفقة فبين ذلك قوله تعالى : ﴿ كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ ﴾ فهو كما قد بينا في مثله من قوله : ﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا ﴾ [البقرة : ١٧] وما أشبه ذلك . فتأويل الكلام : مثل إبطال الله أجر ما ينفقون في هذه الحياة الدنيا كمثل ريح فيها صر .

الفرار من قدر اللّٰه

السؤال : **هـل يمكن الفـرار من قـدر اللّٰه سبحانه وتعالى للنجاة من المـوت أو المـرض أو القتل أو غير ذلك ؟**

الجواب : الفرار من الموت مستحيل [١] ، والموت له أجل محدد ، لا يتأخر دقيقة ولا يتقدم [٢] ، ولقد ستر اللّٰه سبب الموت وستر زمنه [٣] ، حتى لا يفهم أحد أنها عملية ميكانيكية .. يولد الإنسان ثم يتقدم به العمر فيموت .. أى أن هناك زمنًا محددًا لحياة كل فرد فينا .. نولد فإذا بلغنا الستين أو السبعين نموت .. ولذلك فإن اللّٰه تعالى جعل الموت بلا أسباب .. فالجنين يموت فى بطن أمه .. والمريض يموت بسبب المرض .. والصحيح يموت ولا نعرف لموته سببًا .. والطفل يموت والشاب يموت والعجوز يموت .

إذن .. فهذا يحدث بأمر اللّٰه ، ولا تدفعه الأسباب ، وربما تجد مريضين بمرض واحد ، ويعالجان عند طبيب واحد ، أحدهما يموت بعد أيام والآخر يعيش لسنوات طويلة .

على أن هناك جدلاً يثيره بعض الناس فى مسألة الموت فيأتى واحد ويقول أنا أحكم على هذا بالإعدام فيموت .. أو أنا أستطيع أن أُمِيتَ من أريد .. بأن

---

(١) إشارة لقوله تعالى : ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ﴾ [آل عمران : ١٨٥] .

(٢) إشارة إلى قول اللّٰه تبارك وتعالى : ﴿ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ [الأعراف : ٣٤] .

(٣) إشارة لقوله اللّٰه تعالى : ﴿ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ﴾ [لقمان : ٣٤] .

أمسك مدفعًا أو مسدسًا أو سكينًا ، وأقتل الإنسان الذى أريده أن يموت فيموت .

إذن .. فالحديث عن الأجل نجد بعض الناس يحاولون التشكيك فيه .. وهم يدعون أن الموت يمكن أن يكون فى يد بشر ، فإذا أردتُ أن أُميتَ إنسانًا قتلته فمات ، نقول لهم : إنكم خلطتم بين الموت وبين القتل ، اللّه سبحانه وتعالى وحده هو الذى يميت .. أما الإنسان فإنه لا يميت ولكنه يقتل .. وإذا قرأت قول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ ﴾ [آل عمران : ١٤٤] .

إذن .. فالموت غير القتل ،لأن الحق سبحانه وتعالى قال : ﴿ مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ﴾ ، والحق جل جلاله فرق بين الموت والقتل فى آيات كثيرة فى القرآن الكريم منها قول اللّه تبارك وتعالى : ﴿ لَّوْ كَانُوا۟ عِندَنَا مَا مَاتُوا۟ وَمَا قُتِلُوا۟ ﴾ (1) [آل عمران : ١٥٦] .

---

(١) قال اللّه تعالي : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾ [البقرة : ٢٥٨] .

قال القرطبي : في قصص هذه المحاجة روايتان : إحداهما أنهم خرجوا إلى عيد لهم فدخل إبراهيم على أصنامهم فكسرها فلما رجعوا قال لهم : أتعبدون ما تنحتون فقالوا : فمن تعبد قال : أعبد ربي الذي يحيي ويميت .

وقال بعضهم : إن نمروذ كان يحتكر الطعام فكانوا إذا احتاجوا إلى الطعام =

= يشترونه منه فإذا دخلوا عليه سجدوا له فدخل إبراهيم فلم يسجد له فقال :
مالك لا تسجد لي ؟
قال : أنا لا أسجد إلا لربي .
فقال له نمروذ : من ربك ؟
قال إبراهيم : ربي الذي يحيي ويميت .
وذكر زيد بن أسلم أن النمروذ هذا قعد يأمر الناس بالميرة فكلما جاء قوم يقول : من ربكم وإلهكم فيقولون أنت فيقول : ميروهم . وجاء إبراهيم عليه السلام يمتار فقال له : من ربك وإلهك ؟
قال إبراهيم : ربي الذي يحيي ويميت فلما سمعها نمروذ قال : أنا أحيي وأميت فعارضه إبراهيم بأمر الشمس فبهت الذي كفر وقال لا تميروه فرجع إبراهيم إلى أهله دون شيء فمر على كثيب رمل كالدقيق فقال في نفسه : لو ملأت غرارتي من هذا فإذا دخلت به فرح الصبيان حتى أنظر لهم فذهب بذلك فلما بلغ منزله فرح الصبيان وجعلوا يلعبون فوق الغرارتين ونام هو من الإعياء فقالت امرأته : لو صنعت له طعاما يجده حاضرا إذا انتبه ففتحت إحدى الغرارتين فوجدت أحسن ما يكون من الحوارى فخبزته فلما قام وضعته بين يديه فقال : من أين هذا ؟! فقالت : من الدقيق الذي سقت . فعلم إبراهيم أن اللَّه تعالى يسر لهم ذلك .
وذكر أبو بكر بن أبي شيبة عن أبي صالح قال : انطلق إبراهيم النبي عليه السلام يمتار فلم يقدر على الطعام فمر بسهلة حمراء فأخذ منها ثم رجع إلى أهله فقالوا : ما هذا ؟ فقال : حنطة حمراء ففتحوها فوجدوها حنطة حمراء قال : وكان إذا زرع منها شيئا جاء سنبله من أصلها إلى فرعها حباً متراكباً .
وقال الربيع وغيره في هذا القصص : إن النمروذ لما قال أنا أحيي وأميت =

....

= أحضر رجلين فقتل أحدهما وأرسل الآخر فقال : قد أحييت هذا وأمت هذا فلما رد عليه بأمر الشمس بهت .

وروي في الخبر : أن الله تعالى قال وعزتي وجلالي لا تقوم الساعة حتى آتي بالشمس من المغرب ليعلم أني أنا القادر على ذلك . ثم أمر نمروذ بإبراهيم فألقي في النار وهكذا عادة الجبابرة فإنهم إذا عورضوا بشيء وعجزوا عن الحجة اشتغلوا بالعقوبة فأنجاه الله من النار على ما يأتي .

وقال السدي : إنه لما خرج إبراهيم من النار أدخلوه على الملك - ولم يكن قبل ذلك دخل عليه - فكلمه وقال له : من ربك ؟

فقال : ربي الذي يحيي ويميت .

قال النمروذ : أنا أحيي وأميت وأنا آخذ أربعة نفر فأدخلهم بيتا ولا يطعمون شيئا ولا يسقون حتى إذا جاعوا أخرجتهم فأطعمت اثنين فحييا وتركت اثنين فماتا . فعارضه إبراهيم بالشمس فبهت .

وذكر الأصوليون في هذه الآية أن إبراهيم عليه السلام لما وصف ربه تعالى بما هو صفة له من الإحياء والإماتة لكنه أمر له حقيقة ومجاز قصد إبراهيم عليه السلام إلى الحقيقة وفزع نمروذ إلى المجاز وموه على قومه فسلم له إبراهيم تسليم الجدل وانتقل معه من المثال وجاءه بأمر لا مجاز فيه ﴿ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ﴾ أي : انقطعت حجته ولم يمكنه أن يقول أنا الآتي بها من المشرق لأن ذوي الألباب يكذبونه .

وذكر ابن هشام في السيرة في المجلد الرابع تحت عنوان : ذكر ما أنزل الله في أحد من القرآن .تحذيرهم أن يكونوا ممن يخشون الموت في الله قال : قال الله تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَقَالُواْ لِإِخْوَٰنِهِمْ إِذَا ضَرَبُواْ فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ كَانُواْ غُزًّى لَّوْ كَانُواْ عِندَنَا مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ لِيَجْعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ =

= ﴿ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [آل عمران : ١٥٦]
أي : لا تكونوا كالمنافقين الذين ينهون إخوانهم عن الجهاد في سبيل الله والضرب في الأرض في طاعة الله عز وجل وطاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم ويقولون إذا ماتوا أو قتلوا لو أطاعونا ﴿ مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا ﴾ ليجعل الله ذلك حسرة في قلوبهم « لقلة اليقين بربهم » ﴿ وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ ﴾ أي : يعجل ما يشاء ويؤخر ما يشاء من ذلك من آجالهم بقدرته .

قال تعالى : ﴿ وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ [آل عمران : ١٥٧] أي : إن الموت لكائن لابد منه فموت في سبيل الله أو قتل خير لو علموا وأيقنوا مما يجمعون من الدنيا التي لها تأخرون عن الجهاد تخوّف الموت والقتل لما جمعوا من زهرة الدينا زهادةً في الآخرة ﴿ وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ ﴾ [آل عمران : ١٥٨] أي ذلك كان ﴿ لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ ﴾ : أي أن إلى الله المرجع فلا تغرنكم الدنيا ، ولا تغتروا بها وليكن الجهاد وما رغّبكم الله فيه من ثوابه آثر عندكم منها .

وروى البخاري [٥٣٩٧] ومسلم [٩٨/٢٢١٩] عن عبد الله بن عباس رضي الله تعالي عنهما : أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه خرج إلى الشأم حتى إذا كان بسَرْغ لقيه أمراء الأجناد أبو عبيدة بن الجراح وأصحابه فأخبروه أن الوباء قد وقع بأرض الشأم .

قال ابن عباس : فقال عمر : ادع لي المهاجرين الأولين فدعاهم فاستشارهم وأخبرهم أن الوباء قد وقع بالشأم فاختلفوا فقال بعضهم : قد خرجت لأمر ولا نرى أن ترجع عنه وقال بعضهم : معك بقية الناس وأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا نرى أن تُقْدِمَهُمْ على هذا الوباء فقال : ارتفعوا عني ثم قال : ادع لي الأنصار فدعوتهم فاستشارهم فسلكوا سبيل المهاجرين =

= واختلفوا كاختلافهم فقال : ارتفعوا عني ثم قال: ادع لي من كان ها هنا من مشيخة قريش من مهاجرة الفتح فدعوتهم فلم يختلف منهم علي رجلان فقالوا : نرى أن ترجع بالناس ولا تُقْدِمَهُمْ على هذا الوباء فنادى عمر في الناس : إني مُصَبِّحٌ على ظَهْرٍ فأصْبِحُوا عليه .

قال أبو عبيدة بن الجراح : أفرارا من قدر اللَّه فقال عمر : لو غيرك قالها يا أبا عبيدة ! نعم نفر من قدر اللَّه إلى قدر اللَّه أرأيت لو كان لك إبل هبطت واديا له عدوتان إحداهما خصبة والأخرى جدبة أليس إن رعيت الخصبة رعيتها بقدر اللَّه وإن رعيت الجدبة رعيتها بقدر اللَّه قال : فجاء عبد الرحمن بن عوف وكان متغيّبا في بعض حاجته فقال : إن عندي في هذا علما سمعت رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم يقول : « إذا سمعتم به بأرض فلا تَقْدَمُوا عليه وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا فرارا منه » .

قال : فحمد اللَّهَ عمرُ ثم انصرف .

قال الحافظ في الفتح : هذا الطاعون الذي وقع بالشام حينئذ هو الذي يسمى طاعون عمواس : سمي بذلك لأنه عم وواسى . قوله : « حتى إذا كان بسرغ » : مدينة افتتحها أبو عبيدة وهي واليرموك والجابية متصلات وبينها وبين المدينة ثلاث عشرة مرحلة .

وقال ابن عبد البر : قيل : إنه واد بتبوك وقيل : بقرب تبوك .

وقال الحازمي : هي أول الحجاز وهي من منازل حاج الشام وقيل : بينها وبين المدينة ثلاث عشرة مرحلة . قوله : « لقيه أمراء الأجناد أبو عبيدة بن الجراح وأصحابه » هم : خالد بن الوليد ويزيد بن أبي سفيان وشرحبيل بن حسنة وعمرو بن العاص وكان أبو بكر قد قسم البلاد بينهم وجعل أمر القتال إلى خالد ثم رده عمر إلى أبي عبيدة وكان عمر رضي اللَّه تعالى عنه قسم =

= الشام أجنادا : الأردن جند وحمص جند ودمشق جند وفلسطين جند وقنسرين جند وجعل على كل جند أميرا ومنهم من قال : إن قنسرين كانت مع حمص فكانت أربعة ثم أفردت قنسرين في أيام يزيد بن معاوية .

قوله : « فنادى عمر في الناس : إني مصبح على ظهر فأصبحوا عليه » زاد يونس في روايته « فإني ماض لما أرى فانظروا ما آمركم به فامضوا له قال فأصبح على ظهر » .

قوله : « فقال أبو عبيدة » وهو إذ ذاك أمير الشام « أفرارا من قدر اللّٰه » أي : أترجع فرارا من قدر اللّٰه .

وفي رواية هشام بن سعد « وقالت طائفة منهم أبو عبيدة : أمن الموت نفر إنما نحن بقدر لن يصبنا إلا ما كتب اللّٰه لنا » .

قوله : « فقال عمر لو غيرك قالها يا أبا عبيدة » أي لعاقبته أو لكان أولى منك بذلك أو لم أتعجب منه ولكني أتعجب منك مع علمك وفضلك كيف تقول هذا ويحتمل أن يكون المحذوف : لأدبته أو هي للتمني فلا يحتاج إلى جواب والمعني أن غيرك ممن لا فهم له إذا قال ذلك يعذر .

قوله : « نعم نفر من قدر اللّٰه إلى قدر اللّٰه »

في رواية هشام بن سعد « إن تقدمنا فبقدر اللّٰه وإن تأخرنا فبقدر اللّٰه » وأطلق عليه فرارا لشبهه به في الصورة وإن كان ليس فرارا شرعيا . والمراد أن هجوم المرء على ما يهلكه منهي عنه . ولو فعل لكان من قدر اللّٰه وتجنبه ما يؤذيه مشروع وقد يقدر اللّٰه وقوعه فيما فر منه فلو فعله أو تركه لكان من قدر اللّٰه فهما مقامان : مقام التوكل ومقام التمسك بالأسباب كما سيأتي تقريره .

ومحصل قول عمر : « نفر من قدر اللّٰه إلى قدر اللّٰه » أنه أراد أنه لم يفر من قدر اللّٰه حقيقة وذلك أن الذي فر منه أمر خاف على نفسه منه فلم يهجم عليه والذي فر إليه أمر لا يخاف على نفسه منه إلا الأمر الذي لا بد من وقوعه سواء كان ظاعنا أو مقيما .

الموتة الصغرى والكبرى

السؤال : **كيف يتوفى الله الأنفس حين موتها ؟ وفى نفس الوقت النفس التي لم تمت في منامها يمسكها حتي يقضي فيها بالموت ؟**

الجواب : قال اللّه تعالى : ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الزمر : ٤٢] أشياء تحدث لنا ونحن نائمون .. نحلم بها ونراها ولا تحدث خارج منطقة العقل والذاكرة .. لأننا حينما نستيقظ من النوم نستطيع أن نحكى ما رأيناه فى المنام بدقة .. فكأن ذاكرتنا تعى ما رأيناه وإلا ما استطعنا أن نصفه .. وآلة إدراك بصرى غير العين شاهدت مشاهدة واضحة .. فيها تفاصيل كثيرة .. وإلا ما استطعنا أن نصف ما شهدناه فى الأحلام .. والحوار الذى حدث مع أولئك الذين انتقلوا إلى العالم الآخر .. حوار نعيه ونعرفه لأننا نستطيع أن نتذكره وأن نرويه .. ربما بنفس العبارات والكلمات ..

إذن .. فالإنسان فى لحظة واحدة .. ينتقل من قوانين إلى قوانين أخرى لا نعرف عنها شيئًا .. ولكنها قوانين نخضع لها فى ساعة النوم .. ولكن السؤال هنا .. هل هذه القوانين التى نخضع لها أثناء النوم لنا فيها إرادة واختيار ؟ .. أى هل يستطيع واحد منا وهو نائم أن يختار الأحداث التى يراها فى المنام ؟ .. ويقول سأرى كذا ولن أرى كذا ؟ .. أو سأتحدث مع فلان ولن أتحدث مع فلان ؟ .. أو سأقول كذا ولن أقول كذا ؟ .. أو يقول سأذهب فى منامى الليلة إلى أوربا وفى منامى القادم إلى « روسيا » ؟ .. بالطبع لا .. لأن

الإنسان وهو نائم .. خرج عن منطقة الاختيار البشرى .. فلم يعد مختارًا فيما يرى وما لا يرى .. ولم يعد مستطيعًا أن يختار الكلمات التى يتحدث بها .. وتلك التى يخفيها فى نفسه ولا ينطق بها .. ولا هو متحكم فى أى شىء يراه .. ومع أن الرؤية تتفق مع منطق العقل البشرى .. فإذا جاءك إنسان وقال لك : إنى رأيت فى المنام كذا وكذا ، فإنك لا تكذبه .. بل لا تناقشه .. ولكن تعرف أن هناك منامًا ورؤيا فى النوم .. لأنك أحيانًا تتعرض لذلك .. فأنت لا تتهمه بأنه جاء بشىء لا يقبله العقل من ناحية ما حدث .. ولكنك تعطى لقوانين العقل فى اليقظة إجازة .. أى لا تتخذها مقياسًا لما يحدث فى النوم .. ولا ندخل الرؤيا التى يراها أى إنسان فى مجال النقاش العقلى .. ولا نجادله فيها .. لأنك تعرف بحكم تجربتك أنت : أن الإنسان قد يرى فى منامه أشياء لا تخضع لقوانين العقل فى اليقظة .

ولكن أحدًا لا يستطيع ولن يستطيع أن يعطينا تفسيرًا علميًا للقوانين التى يخضع لها الإنسان وهو نائم .. وكيف ينتقل نفس الشخص من قانون إلى قانون فى لحظة واحدة .. ثم يعود إلى قانون اليقظة بمجرد أن يستيقظ من نومه .. ثم يعود مرة أخرى لقوانين النوم عندما ينام .. ولا يستطيع إنسان مهما بلغ علمه أن يحدد لنا كيفية هذا الانتقال من قانون لقانون .. ولا كيف يتم .. ولكننا نعرف أن النوم حقيقة وتجربة يمر بها كل إنسان .. بل ونعرف أيضًا أننا فى قوانين النوم نخرج عن مقاييس الزمن .. ولذلك عندما أنامَ اللَّهُ سبحانه وتعالى أهل الكهف .. ثلاثمائة سنة وتسعًا بالتقويم الهجرى .. ثم استيقظوا لم يعرفوا كم الوقت الذى مر عليهم وهم نائمون ؟ ولذلك رغم أنهم ناموا هذا الفترة الطويلة .. ماذا قالوا عندما استيقظوا ؟ .. يقول الحق

سبحانه وتعالى : ﴿ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُواْ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ﴾ [الكهف : ١٩] .

إذن .. فالإنسان النائم لا يحس بالزمن .. ولذلك فإن أهل الكهف قاسوا فترة نومهم على عادة الإنسان فى النوم .. وهو أن ينام جزءًا من اليوم .. فإن كان متعبًا ومجهدًا قد ينام يومًا بأكمله .. ولكن أكثر من ذلك لا يحدث عادة .

وإذا أردنا أن نقيس ذلك على أنفسنا .. فإننا عندما ننام ونستيقظ من النوم .. لا نعرف عدد الساعات التى قضيناها ونحن نائمون إلا إذا نظرنا إلى آلة من آلات قياس الوقت كالساعة .. أو علامة من علامات قياس الوقت كالليل والنهار .. كأن يكون قد نمنا فى ضوء النهار واستيقظنا فى ظلمة الليل أو العكس .. ولكن عدد الساعات بالتحديد لا يمكن أن يعرفها بشر منا .. إلا إذا نظرنا إلى الساعة .

ولقد أراد الحق سبحانه وتعالى أن يريحنا من البحث عن قوانين النوم ويعرفنا أننا لن نصل إليها .. فقال جل جلاله : ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الزمر : ٤٢] .

وبذلك نعرف أن النوم يخضع لقوانين البرزخ .. ونحن لا نعرف شيئًا عن قوانين الحياة فى البرزخ .. إلا ما أخبرنا الله به .. ولذلك فإننا لن نعرف شيئًا عن قوانين النوم .. إلا أن هناك أشياء يبصر بها الإنسان غير العينين اللتين نبصر بهما فى اليقظة .. وأن هناك ما يعطى الإنسان الحركة غير القدمين اللتين يتحرك بهما فى عالم اليقظة .. وأن هناك كلامًا ننطقه بغير اللسان الذى

ننطق به فى عالم اليقظة .. وأن عالم البرزخ لا يعتمد على حواس الجسد المادى التى تكون معطلة تمامًا أثناء النوم .. إنما هناك حواس أخرى موجودة فينا .. نستخدمها فى عالم البرزخ .. وأن عالم البرزخ ليس فيه اختيار بشرى .. كما أن النوم ليس فيه اختيار بشرى .. وأنه ليس فيه إحساس بالزمن .. كما أننا لا نحس بالزمن وقت النوم .. وأننا نلتقى فيه بمن انتقلوا إلى رحمة اللّٰه قبلنا .. كما يحدث فى عالم النوم .

○○○

الحرية في مجال التكليف

السؤال : الحق سبحانه وتعالي أعطي الإنسان الحرية المطلقة فى مجال التكليف فى أن يفعل أو لا يفعل ، ثم يحاسبه على عمله .. كيف ؟!

الجواب : أنت مقهور فى معظم أجزاء جسدك .. وهذا القهر جاء من اللّٰه جل جلاله رحمة بك كى تستطيع الحياة والعمل والسعى ، وإلا لو كنت مختارًا فى جسدك لَمَاَ أمكنك أن تبقى على قيد الحياة .

إذن .. فمعظم أجزاء جسم الإنسان مقهورة للّٰه سبحانه وتعالى .. تعمل بالقهر وليس بالاختيار .. وتعمل ما شاء اللّٰه سبحانه وتعالى لها أن تعمل .. وتتوقف حين يأمرها الخالق بالتوقف .

إذن .. فليس لك اختيار فى معظم أجزاء جسدك .. وليس لك علم بها .. إلا ما أراد اللّٰه لك أن تعلم عنها .. فإذا شاء جل جلاله إخفاء علم فى جسدك عن البشرية كلها .. أخفاه .. وإذا كنت تستغرب هذه العبارة .. فإن الحق سبحانه وتعالى أخفى عن عباده أمر الروح ..

قال تبارك وتعالى : ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْـرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُـم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيـلًا ﴾ [الإسراء : ٨٥] .

وليقل لنا علماء الدنيا كلها أين الروح التى تعطى الحياة للجسد ؟ .. هل هى فى القلب الذى ينبض ؟ .. أو فى العقل الذى يفكر ؟ .. أو فى الدورة الدموية التى لا تتوقف ؟ .. أو فى القدم التى تتحرك ؟ .. أو فى العين التى تبصر ؟ .. أو فى الأذن التى تسمع ؟ .. أين هى ؟ .. سؤال لا يستطيع العلم

أن يجيب عنه .. فهو سر لا يعلمه إلا الحق سبحانه وتعالى .. وسيبقى سرًّا لا يعلمه إلا الله [(١)] .

فإذا كانت الروح وهى مخلوق فى جسدك .. تحس بوجودها وتعرف آثارها لأنها هى التى تعطيك الحياة .. ولا تعرف عنها شيئًا .. لأن الله سبحانه

---

(١) روى البخارى [١٢٥] ومسلم [٢٧٩٤ /٣٢] عن عبد الله رضى الله تعالى عنه قال : بينا أنا أمشي مع النبي صلى الله عليه وسلم في خرب المدينة وهو يتوكأ على عسيب معه فمر بنفر من اليهود فقال بعضهم لبعض : سلوه عن الروح وقال بعضهم : لا تسألوه لا يجيء فيه بشيء تكرهونه .
فقال بعضهم : لنسألنه فقام رجل منهم فقال : يا أبا القاسم ما الروح فسكت فقلت : إنه يوحى إليه فقمت فلما انجلى عنه فقال : ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْـرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [الإسراء : ٨٥] .
قال الخطابي ذهب أكثر أهل التأويل إلى أنهم سألوه عن الروح الذي يكون به حياة الجسد .
وقال أهل النظر منهم : إنما سألوه عن كيفية الروح ومسلكه في بدن الإنسان وكيف امتزاجه بالجسم واتصال الحياة به وهذا شيء لا يعلمه إلا الله عز وجل .
وقال أبو صالح : الروح خلق كخلق بني آدم وليسوا بيني آدم لهم أيد وأرجل .
والصحيح الإبهام لقوله : ﴿ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْـرِ رَبِّى ﴾ أي : هو أمر عظيم وشأن كبير من أمر الله تعالى مبهما له وتاركا تفصيله ليعرف الإنسان على القطع عجزه عن علم حقيقة نفسه مع العلم بوجودها. وإذا كان الإنسان في معرفة نفسه هكذا كان بعجزه عن إدراك حقيقة الحق أولى . وحكمة ذلك تعجيز العقل عن إدراك معرفة مخلوق مجاور له دلالة على أنه عن إدرك خالقه أعجز .

وتعالى ستر علمها عنك .. فكيف تقول : إن جسدك يخضع لإرادتك ؟ .. لا إنه يخضع لإرادة من خلقه .

فإذا انتقلنا بعد ذلك إلى الأشياء .. التى سخرها الله لإرادتك فى جسدك .. فاللسان مثلاً سخره الله لإرادتك .. لذلك فهو يطيعك إذا أردت أن تشهد أن لا إله إلا الله .. وينطق بها ، وهو يطيعك إذا أردت أن تنطق كلمة الكفر والعياذ بالله .. وعينك تطيعك إذا أردت أن تنظر إلى ما هو حلال .. أو أردت أن تتأمل فى آيات الله فى كونه .. وهى كذلك إذا أردت أن تنظر إلى محارم غيرك ، أو إلى ما حرمه الله عليك .

واليد تطيعك إن أردت أن تساعد بها عاجزًا على عبور الطريق .. وتطيعك إن أردت أن تعتدى بها على ضعيف .. أو تقتل بها عدوك .. والقدم تطيعك فى الذهاب إلى المسجد .. أو فى الذهاب إلى أماكن اللهو والفجور .

هذه الجوارح كلها إذا أمرتها بالطاعة أطاعت ، وإذا أمرتها بالمعصية أطاعت ، لأنها من أدوات الاختيار المسخرة لك .. ولكن لابد أن تعرف حقيقتين مهمتين .. أولاهما : أن هذه الأشياء كلها مسبحة لله سبحانه وتعالى .. والله جل جلاله قد خلق جسمك من تراب .. وذرات التراب التى خلق منها الجسد .. اختارت القهر على الطاعة .. ولذلك فهى مسبحة بذاتها .. تطيع الكافر فيما يريده .. ولكنها فى نفس الوقت تلعنه .. ويوم القيامة تشهد عليه وتكون شهادتها من أسباب دخوله النار .. واقرأ قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (1) [النور : ٢٤] .

---

(١) أخرج أبو يعلى وابن أبي حاتم والطبراني وابن مردويه عن أبي سعيد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إذا كان يوم القيامة عرف الكافر بعمله =

....

= فجحد وخاصم فيقال : هؤلاء جيرانك يشهدون عليك فيقول : كذبوا ، فيقال : أهلك وعشيرتك فيقول : كذبوا ؛ فيقال : احلفوا فيحلفون ثم يصمتهم اللّٰه وتشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم ثم يدخلهم النار » .

وأخرج ابن مردويه عن أبي أيوب قال : قال رسول اللّٰه صلى اللّٰه عليه وسلم : « إن أول من يختصم يوم القيامة الرجل وامرأته فما ينطق لسانها ولكن يداها ورجلاها يشهدان عليها بما كانت تغتاله أو توليه أو كلمة نحوها ويداه ورجلاه يشهدون عليه بما كانوا يوليها ثم يدعى الرجل وخوله فمثل ذلك » .

وأخرج أحمد وابن مردويه عن بهز بن حكيم عن أبيه عن جده قال : قال رسول اللّٰه صلى اللّٰه عليه وسلم : « إنكم تدعون مقدمة أفواهكم بالفدام وإن أول ما يبين عن أحدكم فرجه وكفه » .

وأخرج ابن مردويه عن أبي أمامة قال : قال رسول اللّٰه صلى اللّٰه عليه وسلم : « أول ما ينطق من ابن آدم يوم القيامة فخذه » .

وأخرج ابن مردويه عن أبي أمامة قال : قال رسول اللّٰه صلى اللّٰه عليه وسلم : « أول ما يستنطق من ابن آدم جوارحه في محاقير عمله .

فيقول وعزتك يا رب إن عندي المضرات العظام » .

وأخرج الحكيم الترمذي في نوادر الاصول وابن مردويه عن أبي أمامة سمعت رسول اللّٰه صلى اللّٰه عليه وسلم يقول : « إني لأعلم آخر رجل من أمتي يجوز الصراط رجل يتلوى على الصراط كالغلام حين يضربه أبوه . تزل يده مرة فتصيبها النار وتزل رجله مرة فتصيبها النار فتقول له الملائكة : أرأيت إن بعثك اللّٰه من مقامك هذا فمشيت سويا أتخبرنا بكل عمل عملته فيقول : أي وعزته لا أكتمكم من عملي شيئا فيقولون له : قم فامش سويا . فيقوم فيمشي حتى يجاوز الصراط فيقولون له : أخبرنا بأعمالك التي عملت فيقول في نفسه : =

....

○○○

= إن أخبرتهم بما عملت ردوني إلى مكاني فيقول : لا وعزته ما عملت ذنبا قط فيقولون : إن لنا عليك بينة فيلتفت يمينا وشمالا هل يرى من الآدميين ممن كان يشهد في الدنيا أحد . فلا يراه فيقول : هاتوا بينتكم فيختم الله على فيه فتنطق يداه ورجلاه وجلده بعمله فيقول : أي وعزتك لقد عملتها وإن عندي العظائم المضرات فيقول : أذهب فقد غفرتها لك » .

وأخرج ابن مردويه وابن جرير عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أول عظم يتكلم من الانسان بعد أن يختم على فيه فخذه من جانبه الأيسر » . كما في الدر المنثور .

الأمانة .. والاختيار

السؤال : **الناس تعلم أن الأمانة التى حملها الإنسان ثقيلة ، ولكن بالرغم من ذلك حملها الإنسان .. والسؤال : هل حملها رغمًا عن الله سبحانه وتعالى ؟ وهل الإنسان هو الذى أعطى لنفسه حرية الاختيار فى أن يفعل أو لا يفعل ؟**

الجواب : أخذها بمشيئة الله .. لا هذا خرج عن المشيئة .. ولا هذا خرج عن المشيئة .. وبذلك يكون الإنسان قد خُلق مختارًا .. لأن الله سبحانه وتعالى أراد له أن يكون مختارًا .. وعدل الله أبى أن يُقهر الإنسان على الاختيار .. ولكن الاختيار عُرض على الإنسان فقبله .. والعرض جاء بمشيئة الله .

والسؤال هنا لماذا خُلق الإنسان مختارًا ؟ .. نقول إن كل خلق الله سبحانه وتعالى .. المقهور على الطاعة ، إنما يثبت لِلَّه صفات الجلال والقهر .. فى أنه يستطيع أن يقهر من يشاء على ما يشاء .. ولكن هناك صفة المحبوبية لله سبحانه وتعالى فى كونه .. وهذه الصفة لا يمكن أن يثبتها لله إلا خلق يأتونه عن حب وليس عن قهر .. يعبدونه لأنهم يحبونه .. ويطيعونه لأنهم يحبون طاعته .. ولا يتم ذلك إلا أن يكون هذا الخلق قادرًا على الإيمان وقادرًا على عدم الإيمان .. قادرًا على الطاعة وقادرًا على المعصية [1] .

---

(١) قال الله تعالى : ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ =

= ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٣﴾ ﴾ [الأحزاب] .

قال القرطبي : لما بين تعالى في هذه السورة من الأحكام ما بين أمر بالتزام أوامره . والأمانة تعم جميع وظائف الدين على الصحيح من الأقوال وهو قول الجمهور .

روى الترمذي الحكيم أبو عبدالله : حدثنا إسماعيل بن نصر عن صالح بن عبد الله عن محمد بن يزيد بن جوهر عن الضحاك عن ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « قال الله تعالى لآدم يا آدم إني عرضت الأمانة على السموات والأرض فلم تطقها فهل أنت حاملها بما فيها فقال وما فيها يا رب قال : إن حملتها أجرت وإن ضيعتها عذبت ، فاحتملها بما فيها فلم يلبث في الجنة إلا قدر ما بين صلاة الأولى إلى العصر حتى أخرجه الشيطان منها » .

فالأمانة هي الفرائض التي ائتمن الله عليها العباد . وقد اختلف في تفاصيل بعضها على أقوال .

فقال ابن مسعود : هي في أمانات الأموال كالودائع وغيرها .

وروي عنه أنها في كل الفرائض وأشدها أمانة المال .

وقال أبي بن كعب : من الأمانة أن ائتمنت المرأة على فرجها .

وقال أبو الدرداء : غسل الجنابة أمانة وإن الله تعالى لم يأمن ابن آدم على شيء من دينه غيرها .

وفي حديث مرفوع « الأمانة الصلاة » إن شئت قلت قد صليت وإن شئت قلت لم أصل . وكذلك الصيام وغسل الجنابة .

وقال عبد الله بن عمرو بن العاص : أول ما خلق الله تعالى من الإنسان فرجه وقال هذه أمانة استودعتكها فلا تلبسها إلا بحق . فإن حفظتها حفظتك =

= فالفرج أمانة والأذن أمانة والعين أمانة واللسان أمانة والبطن أمانة واليد أمانة والرجل أمانة ولا إيمان لمن لا أمانة له .

وقال السدي : هي ائتمان آدم ابنه قابيل على ولده وأهله وخيانته إياه في قتل أخيه . وذلك أن الله تعالى قال له : « يا آدم هل تعلم أن لي بيتا في الأرض » ؟ قال : « اللهم لا قال : « فإن لي بيتا بمكة فأته » فقال للسماء : احفظي ولدي بالأمانة فأبت وقال للأرض : احفظي ولدي بالأمانة فأبت وقال للجبال كذلك فأبت . فقال لقابيل : احفظ ولدي بالأمانة فقال : نعم تذهب وترجع فتجد ولدك كما يسرك . فرجع فوجده قد قتل أخاه فذلك قوله تبارك وتعالى : ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ الآية .

وروى معمر عن الحسن أن الأمانة عرضت على السموات والأرض والجبال قالت : وما فيها قيل لها : إن أحسنت جوزيت وإن أسأت عوقبت . فقالت : لا .

قال مجاهد : فلما خلق الله تعالى آدم عرضها عليه قال : وما هي قال : إن أحسنت أجرتك وإن أسأت عذبتك . قال : فقد تحملتها يا رب . قال مجاهد : فما كان بين أن أتحملها إلى أن أخرج من الجنة إلا قدر ما بين الظهر والعصر .

وروى علي بن طلحة عن ابن عباس في قوله تعالى : ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ ﴾ قال : الأمانة الفرائض عرضها الله عز وجل على السموات والأرض والجبال إن أدوها أثابهم وإن ضيعوها عذبهم . فكرهوا ذلك وأشفقوا من غير معصية ولكن تعظيما لدين الله عز وجل ألا يقوموا به . ثم عرضها على آدم فقبلها بما فيها .

قال النحاس : وهذا القول هو الذي عليه أهل التفسير . وقيل : لما حضرت آدم صلى الله عليه وسلم أمر أن يعرض الأمانة على الخلق فعرضها فلم يقبلها إلا بنوه . وقيل : هذه الأمانة هي ما أودعه الله تعالى في السموات والأرض =

= والجبال والخلق من الدلائل على ربوبيته أن يظهروها فأظهروها إلا الإنسان فإنه كتمها وجحدها قال بعض المتكلمين. ومعنى ﴿ عَرَضْنَا ﴾ أظهرنا كما تقول : عرضت الجارية على البيع .

والمعنى إنا عرضنا الأمانة وتضييعها على أهل السموات وأهل الأرض من الملائكة والإنس والجن ﴿ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا ﴾ أي : أن يحملن وزرها كما قال جل وعز : ﴿ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ ﴾ [العنكبوت : ١٣] .

قوله تعالى : ﴿ وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ﴾ .

قال الحسن : المراد الكافر والمنافق . ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا ﴾ لنفسه ﴿ جَهُولًا ﴾ بربه . فيكون على هذا الجواب مجازا مثل : ﴿ وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ﴾ [يوسف : ٨٢] .

وفيه جواب آخر على أن يكون حقيقة أنه عرض على السموات والأرض والجبال الأمانة وتضييعها وهي الثواب والعقاب أي أظهر . لهن ذلك فلم يحملن وزرها وأشفقت وقالت : لا أبتغي ثوابا ولا عقابا وكل يقول : هذا أمر لا نطيقه ونحن لك سامعون ومطيعون فيما أمرن به وسخرن له قال الحسن وغيره .

قال العلماء : معلوم أن الجماد لا يفهم ولا يجيب فلا بد من تقدير الحياة على القول الأخير . وهذا العرض عرض تخيير لا إلزام . والعرض على الإنسان إلزام .

وقال القفال وغيره : العرض في هذه الآية ضرب مثل أي أن السموات والأرض على كبر أجرامها لو كانت بحيث يجوز تكليفها لثقل عليها تقلد . الشرائع لما فيها من الثواب والعقاب أي أن التكليف أمر حقه أن تعجز عنه السموات والأرض والجبال وقد كلفه الإنسان وهو ظلوم جهول لو عقل. وهذا كقول : ﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ ﴾ [الحشر : ٢١] - ثم قال : - ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ﴾ [الحشر : ٢١] .

قال القفال : فإذا تقرر في أنه تعالى يضرب الأمثال وورد علينا من الخبر ما لا =

....

= يخرج إلا على ضرب المثل وجب حمله عليه . وقال قوم : إن الآية من المجاز أي إنا إذا قايسنا ثقل الأمانة بقوة السماوات والأرض والجبال رأينا أنها لا تطيقها وأنها لو تكلمت لأبت وأشفقت فعبر عن هذا المعنى بقوله : ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ ﴾ الآية . وهذا كما تقول : عرضت الحمل على البعير فأباه وأنت تريد قايست قوته بثقل الحمل فرأيت أنها تقصر عنه . وقيل : ﴿ عَرَضْنَا ﴾ بمعنى عارضنا الأمانة بالسماوات والأرض والجبال فضعفت هذه الأشياء عن الأمانة ورجحت الأمانة بثقلها عليها . وقيل : إن عرض الأمانة على السماوات والأرض والجبال إنما كان من آدم عليه السلام . وذلك أن الله تعالى لما استخلفه على ذريته وسلطه على جميع ما في الأرض من الأنعام والطير والوحش وعهد إليه عهدا أمره فيه ونهاه وحرم وأحل فقبله ولم يزل عاملا به. فلما أن حضرته الوفاة سأل الله أن يعلمه من يستخلف بعده ويقلده من الأمانة ما تقلده فأمره أن يعرض ذلك على السماوات بالشرط الذي أخذ عليه من الثواب إن أطاع ومن العقاب إن عصى فأبين أن يقبلنه شفقا من عذاب الله. ثم أمره أن يعرض ذلك على الأرض والجبال كلها فأبياه . ثم أمره أن يعرض ذلك على ولده فعرضه عليه فقبله بالشرط ولم يهب منه ما تهيبت السماوات والأرض والجبال . ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا ﴾ لنفسه ﴿ جَهُولًا ﴾ بعاقبة ما تقلد لربه . قال الترمذي الحكيم أبو عبدالله محمد بن علي : عجبت من هذا القائل من أين أتى بهذه القصة ! فإن نظرنا إلى الآثار وجدناها بخلاف ما قال وإن نظرنا إلى ظاهره وجدناه بخلاف ما قال وإن نظرنا إلى باطنه وجدناه بعيدا مما قال ! وذلك أنه ردد ذكر الأمانة ولم يذكر ما الأمانة إلا أنه يومئ في مقالته. إلى أنه سلطه على جميع ما في الأرض وعهد الله إليه عهدا فيه أمره ونهيه وحله وحرامه وزعم أنه أمره أن يعرض ذلك على السماوات والأرض والجبال =

= فما تصنع السماوات والأرض والجبال بالحلال والحرام وما التسليط على الأنعام والطير والوحش ! وكيف إذا عرضه على ولده فقبله في أعناق ذريته من بعده. وفي مبتدأ الخبر في التنزيل أنه عرض الأمانة على السماوات والأرض والجبال – حتى ظهر الإباء منهم ثم ذكر أن الإنسان حصلها أي من قبل نفسه لا أنه حمل ذلك فسماه ﴿ ظَلُومًا ﴾ أي لنفسه ﴿ جَهُولًا ﴾ بما فيها .
وأما الآثار التي هي بخلاف ما ذكر فحدثني أبي رحمه الله قال حدثنا الفيض ابن الفضل الكوفي حدثنا السري بن إسماعيل عن عامر الشعبي عن مسروق عن عبد الله ابن مسعود قال : لما خلق الله الأمانة مثلها صخرة ثم وضعها حيث شاء ثم دعا لها السماوات والأرض والجبال ليحملنها وقال لهن : إن هذه ﴿ ظَلُومًا ﴾ ولها ثواب وعليها عقاب قالوا : يا رب لا طاقة لنا بها وأقبل الإنسان من قبل أن يدعي فقال للسماوات والأرض والجبال : ما وقوفكم قالوا : دعانا ربنا أن نحمل هذه فأشفقنا منها ولم نطقها قال : فحركها بيده وقال: والله لو شئت أن أحملها لحملتها فحملها حتى بلغ بها إلى ركبتيه ثم وضعها وقال : والله لو شئت أن أزداد لازددت قالوا: دونك! فحملها حتى بلغ بها حقويه ثم وضعها وقال : والله لو شئت أن أزداد لازددت قالوا : دونك فحملها حتى وضعها على عاتقه فلما أهوى ليضعها قالوا : مكانك ! إن هذه « الأمانة » ولها ثواب وعليها عقاب وأمرنا ربنا أن نحملها فأشفقنا منها وحملتها أنت من غير أن تدعي لها فهي في عنقك وفي أعناق ذريتك إلى يوم القيامة إنك كنت ظلوما جهولا. وذكر أخبارا عن الصحابة والتابعين تقدم أكثرها . ﴿ وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ﴾ أي التزم القيام بحقها وهو في ذلك ظلوم لنفسه . وقال قتادة : للأمانة جهول بقدر ما دخل فيه . وهذا تأويل ابن عباس وابن جبير . =

= وقال الحسن : جهول بربه . قال : ومعنى ﴿ يَحْمِلْنَهَا ﴾ خان فيها . وقال : الزجاج والآية في الكافر والمنافق والعصاة على قدرهم على هذا التأويل .
وقال ابن عباس وأصحابه والضحاك وغيره : ﴿ ٱلْإِنسَٰنُ ﴾ آدم تحمل الأمانة فما تم له يوم حتى عصى المعصية التي أخرجته من الجنة .
وعن ابن عباس أن اللّٰه تعالى قال له : أتحمل هذه الأمانة بما فيها . قال وما فيها قال : إن أحسنت جزيت وإن أسأت عوقبت . قال : أنا أحملها بما فيها بين أذني وعاتقي . فقال اللّٰه تعالى له : إني سأعينك ، قد جعلت لبصرك حجابا فأغلقه عما لا يحل لك ، ولفرجك لباسا فلا تكشفه إلا على ما أحللت لك . وقال قوم : ﴿ ٱلْإِنسَٰنُ ﴾ النوع كله . وهذا حسن مع عموم الأمانة كما ذكرناه أولا .
وقال السدي : الإنسان قابيل . فاللّٰه أعلم . وجاء في الدر المنثور في التفسير بالمأثورللإمام جلال الدين السيوطي : أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن الأنباري في كتاب الأضداد عن ابن عباس رضي اللّٰه عنهما في قوله ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ ﴾ الآية . قال : الأمانة الفرائض عرضها اللّٰه على السموات والأرض والجبال إن أدوها أثابهم وإن ضيعوها عذبهم فكرهوا ذلك واشفقوا من غير معصية ولكن تعظيما لدين اللّٰه أن لا يقوموا بها نم عرضها على آدم فقبلها بما فيها . وهو قوله ﴿ وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ يعني غرا بأمر اللّٰه .
وأخرج ابن أبي شيبه وابن المنذر وابن أبي حاتم عن أبي العالية رضي اللّٰه عنه في قوله : ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ قال : الأمانة : ما أمروا به ونهوا عنه .
وفي قوله ﴿ وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ﴾ قال : آدم . =

= وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم قال : ان الله عرض الأمانة على السماء الدنيا فأبت ثم التي تليها حتى فرغ منها ثم الأرض ثم الجبال ثم عرضها على آدم عليه السلام فقال : نعم . بين أذني وعاتقي قال الله تعالى : « فثلاث آمرك بهن فإنهن لك عون . لأني جعلت لك بصرا وجعلت لك شفرتين ففضهما عن كل شيء نهيتك عنه وجعلت لك لسانا بين لحيين فكفه عن كل شيء نهيتك عنه وجعلت لك فرجا وواريته فلا تكشفه إلى ما حرمت عليك » .

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم وابن الأنباري عن ابن جريج رضي الله عنه في الاية قال : بلغني أن الله تعالى لما خلق السماوات والأرض والجبال قال : « إني فارض فريضة وخالق جنة ونارا وثوابا لمن أطاعني وعقابا لمن عصاني فقالت السماء : خلقتني فسخرت في الشمس والقمر والنجوم والسحاب والريح والغيوب فأنا مسخرة على ما خلقتني لا أتحمل فريضة ولا أبغي ثوابا ولا عقابا ، وقالت الأرض خلقتني وسخرتني : فجرت فيَّ الأنهار فأخرجت مني الثمار وخلقتني لما شئت فإنا مسخرة على ما خلقتني لا أتحمل فريضة ولا أبغي ثوابا ولا عقابا ، وقالت الجبال : خلقتني رواسي الأرض فأنا على ما خلقتني لا أتحمل فريضة ولا أبغي ثوابا ولا عقابا فلما خلق الله آدم عرض عليه فحمله ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا ﴾ ظلمه نفسه في خطيئته ﴿ جَهُولًا ﴾ بعاقبة ما تحمل » .

وأخرج ابن أبي حاتم عن مجاهد رضي الله عنه في الآية قال : لما خلق الله السماوات والأرض والجبال عرض الأمانة عليهن فلم يقبلوها فلما خلق آدم عليه السلام عرضها عليه قال : يا رب وما هي قال : هي إن أحسنت أجرتك وإن أسأت عذبتك قال : فقد تحملت يا رب قال : فما كان بين أن أتحملها =

= إلى أن أخرج إلا قدر ما بين الظهر والعصر. وأخرج سعيد بن منصور وابن أبي شيبه وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن الأنباري في كتاب الاضداد والحاكم وصححه عن ابن عباس رضي اللّٰه عنهما في قوله : ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ ﴾ قال : عرضت على آدم عليه السلام فقيل . خذها بما فيها فإن أطعت غفرت لك وإن عصيت عذبتك قال : قبلتها بما فيها ، فما كان إلا قدر ما بين الظهر إلى الليل من ذلك اليوم حتى أصاب الذنب .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن أشوع في الآية قال عرض عليهن العمل وجعل لهن الثواب فضججن إلى اللّٰه ثلاثة أيام ولياليهن فقلن : ربنا لا طاقة لنا بالعمل ولا نريد الثواب .

وأخرج أبو عبيد وابن المنذر عن الأزواعي : أن عمر بن عبد العزيز رضي اللّٰه عنه عرض العمل على محمد بن كعب فأبى فقال له عمر رضي اللّٰه عنه: أتعصي فقال : يا أمير المؤمنين أخبرني عن اللّٰه تعالى حين عرض ﴿ ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ ﴾ هل كان ذلك منها معصية قال : لا . فتركه .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير من طريق الضحاك عن ابن عباس رضي اللّٰه عنهما قال : ان اللّٰه قال لآدم عليه السلام « إني عرضت الأمانة على السماوات والأرض والجبال فلم تطقها فهل أنت حاملها بما فيها قال : أي رب وما فيها قال : إن حملتها أجرت وإن ضيعتها عذبت قال : قد حملتها بما فيها قال : فما عبر في الجنة إلا قدر ما بين الأولى والعصر حتى أخرجه إبليس من الجنة » قيل للضحاك : وما الأمانة قال : هي الفرائض وحق على كل مؤمن أن لا يغش مؤمنا ولا معاهدا في شيء قليل ولا كثير فمن فعل فقد خان أمانته ومن انتقص من الفرائض شيئا فقد خان أمانته . =

= وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة رضي الله عنه ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ ﴾ قال : يعني به الدين والفرائض والحدود ﴿ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا ﴾ قيل لهن : إن تحملنها وتؤدين حقها . فقلنا : لا نطيق ذلك ﴿ وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ﴾ قيل له : أتحملها قال : نعم . قيل : أتؤدي حقها فقال : أطيق ذلك قال الله ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ أي ظلوما بها جهولا عن حقها ﴿ لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ ﴾ [الأحزاب : ٧٣] قال : هذا اللذان خاناها ﴿ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ﴾ قال : هذا اللذان أدياها ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن سعيد بن جبير رضي الله عنه ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ ﴾ قال : الفرائض .

وأخرج الفريابي عن الضحاك رضي الله عنه في قوله ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ ﴾ قال : الدين .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد عن زيد بن أسلم رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « الأمانة ثلاث : الصلاة والصيام والغسل من الجنابة » .

وأخرج الفريابي وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم والبيهقي في سننه عن أبي بن كعب رضي الله عنه قال : من الأمانة أن ائتمنت المرأة على فرجها .

وأخرج ابن أبي الدنيا في الورع والحكيم الترمذي عن عبد الله بن عمرو قال : أول ما خلق الله من الانسان فرجه ثم قال : هذه أمانتي عندك فلا تضيعها إلا في حقها . فالفرج أمانة والسمع أمانة والبصر أمانة . =

= وأخرج ابن أبي الدنيا والبيهقي في شعب الإيمان عن ابن عمرو رضي اللّٰه عنه قال : من تضييع الأمانة : النظر في الحجرات والدور .

وأخرج عبد بن حميد عن الحسن رضي اللّٰه عنه قال : قال رسول اللّٰه صلى اللّٰه عليه وسلم : « إلا ومن الأمانة إلا ومن الخيانة ان يحدث الرجل أخاه بالحديث فيقول : اكتم عني . فيفشيه » .

وأخرج أحمد وعبد بن حميد ومسلم عن أبي سعيد الخدري رضي اللّٰه عنه قال : قال رسول اللّٰه صلى اللّٰه عليه وسلم : « إن من أعظم الأمانة عند اللّٰه يوم القيامة الرجل يفضي إلى امرأته وتفضي اليه ثم ينشر سرها » .

وأخرج الطبراني وأحمد وعبد بن حميد وأبو داود والترمذي وحسنه وأبو يعلى والبيهقي والضياء عن جابر رضي اللّٰه عنه أن رسول اللّٰه صلى اللّٰه عليه وسلم قال : « إذا حدث الرجل بالحديث ثم التفت فهي أمانة » .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن الحسن رضي اللّٰه عنه في قوله ﴿ لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ ... ﴾ قال : هما اللذان ظلماها واللذان خاناها : المنافق والمشرك .

وأخرج ابن جرير بسند ضعيف عن الحكم بن عمير وكان من أصحاب النبي صلى اللّٰه عليه وسلم قال : قال النبي صلى اللّٰه عليه وسلم : « إن الأمانة والوفاء نزلا على ابن آدم مع الأنبياء فارسلوا به فمنهم رسول اللّٰه ومنهم نبي ومنهم نبي رسول اللّٰه ونزل القرآن وهو كلام اللّٰه ونزلت العربية والعجمية فعلموا أمر القرآن وعلموا أمر السنن بألسنتهم ولن يدع اللّٰه شئيا من أمره مما يأتون ومما يجتنبون وهي الحجج عليهم إلا بينت لهم فليس أهل لسان إلا وهم يعرفون الحسن من القبيح ثم الأمانة أول شيء يرفع ويبقى أثرها في جذور قلوب الناس ثم يرفع الوفاء والعهد والذم وتبقى الكتب لعالم يعلمها وجاهل =

خلق يقول يا رب إني أحبك ولذلك آمنت بك .. دون أن يكون هناك قهر بل حب .. يا رب إني أحب طاعتك ولذلك أطيعك .. لا عن قهر ولكن عن حب .. سأفعل يا رب ما أمرتنى به وابتعد عما نهيتنى عنه .. وإن كنتُ قادرًا يا رب على أن أفعل المعصية .. يزينها لى هوى نفسى .. ويزينها لى شياطين الإنس والجن .. ولكن يا رب حبك فى قلبى أكبر من حب الدنيا كلها .. وكل ما تريده مني يا إله الكون أن أفعله .. سأفعله ، لأنى أحبك يا الله .. وأحب رضاك .

هذا هو معنى الاختيار فى الكون .. الله سبحانه وتعالى لا يريد قوالب تخضع .. ولكنه يريد قلوبًا تخشع .. ولذلك فهو يريد أن يأتيه الإنسان بقلب طائع عن حب .. والإيمان هو اختبار لحب الله فى القلب .. فإذا كان حب الله فى قلبك عظيمًا .. كان إيمانك بمنهجه أعظم .. وإذا كان حبك لله ضعيفًا .. ابتعدت عن منهجه (١) بمقدار هذا الضعف .

= يعرفها وينكرها ولا يحملها حتى وصل الي والى أمتي فلا يهلك على الله إلا هالك ولا يغفله إلا تارك والحذر أيها الناس واياكم والوسواس الخناس فانما يبلوكم أيكم أحسن عملا » والله أعلم .

(١) روي البخاري [١٦] ومسلم [٦٧/٤٣] عن أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان : أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يقذف في النار » .

قال الحافظ فى الفتح : وفي قوله « حلاوة الإيمان » استعارة تخييلية شبه رغبة المؤمن في الإيمان بشيء حلو وأثبت له لازم ذلك الشيء وأضافه إليه وفيه =

....

= تلميح إلى قصة المريض والصحيح لأن المريض الصفراوي يجد طعم العسل مرا والصحيح يذوق حلاوته على ما هي عليه وكلما نقصت الصحة شيئا ما نقص ذوقه بقدر ذلك فكانت هذه الاستعارة من أوضح ما يقوي استدلال المصنف على الزيادة والنقص . قال الشيخ أبو محمد بن أبي جمرة : إنما عبر بالحلاوة لأن الله شبه الإيمان بالشجرة في قوله تعالى : ﴿ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ ﴾ [إبراهيم : ٢٤] فالكلمة هي كلمة الإخلاص والشجرة أصل الإيمان وأغصانها اتباع الأمر واجتناب النهي وورقها ما يهتم به المؤمن من الخير وثمرها عمل الطاعات وحلاوة الثمر جني الثمرة وغاية كماله تناهي نضج الثمرة وبه تظهر حلاوتها . قوله : « أحب إليه » منصوب لأنه خبر يكون قال البيضاوي : المراد بالحب هنا الحب العقلي الذي هو إيثار ما يقتضي العقل السليم رجحانه وإن كان على خلاف هوى النفس كالمريض يعاف الدواء بطبعه فينفر عنه ويميل إليه بمقتضى عقله فيهوى تناوله فإذا تأمل المرء أن الشارع لا يأمر ولا ينهي إلا بما فيه صلاح عاجل أو خلاص آجل والعقل يقتضي رجحان جانب ذلك [١/ ٦١] تمرن على الائتمار بأمره بحيث يصير هواه تبعا له ويلتذ بذلك التذاذا عقليا إذ الالتذاذ العقلي إدراك ما هو كمال وخير من حيث هو كذلك . عبر الشارع عن هذه الحالة بالحلاوة لأنها أظهر اللذائذ المحسوسة . قال : وإنما جعل هذه الأمور الثلاثة عنوانا لكمال الإيمان لأن المرء إذا تأمل أن المنعم بالذات هو الله تعالى وأن لا مانح ولا مانع في الحقيقة سواه وأن ما عداه وسائط وأن الرسول هو الذي يبين له مراد ربه اقتضى ذلك أن يتوجه بكليته نحوه : فلا يحب إلا ما يحب ولا يحب من يحب إلا من أجله . وأن يتيقن أن جملة ما وعد وأوعد حق يقينا . ويخيل إليه الموعود كالواقع فيحسب أن مجالس الذكر رياض الجنة وأن العود إلى الكفر إلقاء في النار . =

= انتهى ملخصا . وشاهد الحديث من القرآن قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ ﴾ - إلى أن قال - ﴿ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾ ثم هدد على ذلك وتوعد بقوله : ﴿ فَتَرَبَّصُواْ ﴾ . « فائدة » : فيه إشارة إلى التحلي بالفضائل والتخلي عن الرذائل فالأول من الأول والأخير من الثاني .
وقال غيره : محبة اللّٰه على قسمين فرض وندب : فالفرض : المحبة التي تبعث على امتثال أوامره والانتهاء عن معاصيه والرضا بما يقدره فمن وقع في معصية من فعل محرم أو ترك واجب فلتقصيره في محبة اللّٰه حيث قدم هوى نفسه . والتقصير تارة يكون مع الاسترسال في المباحات والاستكثار منها فيورث الغفلة المقتضية للتوسع في الرجاء فيقدم على المعصية أو تستمر الغفلة فيقع. وهذا الثاني يسرع إلى الإقلاع مع الندم . إلى الثاني يشير حديث : « لا يزني الزاني وهو مؤمن ». والندب : أن يواظب على النوافل ويتجنب الوقوع في الشبهات والمتصف عموما بذلك نادر . قال : وكذلك محبة الرسول على قسمين كما تقدم ويزاد أن لا يتلقى شيئا من المأمورات والمنهيات إلا من مشكاته ولا يسلك إلا طريقته ويرضى بما شرعه حتى لا يجد في نفسه حرجا مما قضاه ويتخلق بأخلاقه في الجود والإيثار والحلم والتواضع وغيرها فمن جاهد نفسه على ذلك وجد حلاوة الإيمان وتتفاوت مراتب المؤمنين بحسب ذلك .

وقال الشيخ محيي الدين : هذا حديث عظيم أصل من أصول الدين . ومعنى حلاوة الإيمان استلذاذ الطاعات وتحمل المشاق في الدين وإيثار ذلك على أعراض الدنيا ومحبة العبد لله تحصل بفعل طاعته وترك مخالفته وكذلك الرسول . إنما قال : « مما سواهما » ولم يقل : « ممن » ليعم من يعقل ومن لا يعقل . قال : وفيه دليل على أنه لا بأس بهذه التثنية . =

....

= وأما قوله للذي خطب فقال : ومن يعصهما « بئس الخطيب أنت » فليس من هذا لأن المراد في الخطب الإيضاح وأما هنا فالمراد الإيجاز في اللفظ ليحفظ ويدل عليه أن النبي - صلى الله عليه وسلم - حيث قاله في موضع آخر قال : « ومن يعصهما فلا يضر إلا نفسه » .
واعترض بأن هذا الحديث إنما ورد أيضا في حديث خطبة النكاح . وأجيب : بأن المقصود في خطبة النكاح أيضا الإيجاز فلا نقض . وثم أجوبة أخرى منها : دعوى الترجيح فيكون حيز المنع أولى لأنه عام . والآخر يحتمل الخصوصية ولأنه ناقل والآخر مبني على الأصل ولأنه قول والآخر فعل . ورد بأن احتمال التخصيص في القول أيضا حاصل بكل قول ليس فيه صيغة عموم أصلا ومنها دعوى أنه من الخصائص فيمتنع من غير النبي - صلى الله عليه وسلم - ولا يمتنع منه لأن غيره إذا جمع أوهم إطلاقه التسوية بخلافه هو فإن منصبه لا يتطرق إليه إيهام ذلك . وإلى هذا مال ابن عبد السلام . ومنها دعوى التفرقة بوجه آخر وهو أن كلامه - صلى الله عليه وسلم - هنا جملة واحدة فلا يحسن إقامة الظاهر فيها مقام المضمر وكلام الذي خطب جملتان لا يكره إقامة الظاهر فيهما مقام المضمر . وتعقب هذا بأنه لا يلزم من كونه لا يكره إقامة الظاهر فيهما مقام المضمر أن يكره إقامة المضمر فيها مقام الظاهر فما وجه الرد على الخطيب مع أنه هو - صلى الله عليه وسلم - جمع كما تقدم ويجاب : بأن قصة الخطيب - كما قلنا - ليس فيها صيغة عموم بل هي واقعة عين فيحتمل أن يكون في ذلك المجلس من يخشى عليه توهم التسوية.
ومن محاسن الأجوبة في الجمع بين حديث الباب وقصة الخطيب أن تثنية الضمير هنا للإيماء إلى أن المعتبر هو المجموع المركب من المحبتين لا كل واحدة منهما فإنها وحدها لاغية إذا لم ترتبط بالأخرى . فمن يدعي حب الله مثلا =

= ولا يحب رسوله لا ينفعه ذلك ويشير إليه قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ ﴾ [آل عمران : ٣١] فأوقع متابعته مكتنفة بين قطري محبة العباد ومحبة اللّٰه تعالى للعباد . وأما أمر الخطيب بالإفراد فلأن كل واحد من العصيانين مستقل باستلزام الغواية إذ العطف في تقدير التكرير والأصل استقلال كل من المعطوفين في الحكم ويشير إليه قوله تعالى : ﴿ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ﴾ [النساء : ٥٩] فأعاد « أطيعوا » في الرسول ولم يعده في أولي الأمر لأنهم لا استقلال لهم في الطاعة كاستقلال الرسول . انتهى ملخصا من كلام البيضاوي والطيبي . ومنها أجوبة أخرى فيها تكلم : منها أن المتكلم لا يدخل في عموم خطابه ومنها أن له أن يجمع بخلاف غيره . قوله : « وأن يحب المرء » قال يحيى بن معاذ : حقيقة الحب في اللّٰه أن لا يزيد بالبر ولا ينقص بالجفاء . قوله : « وأن يكره أن يعود في الكفر » . زاد أبو نعيم في المستخرج من طريق الحسن بن سفيان عن محمد بن المثنى شيخ المصنف : « بعد إذ أنقذه اللّٰه منه » وكذا هو في طريق أخرى للمصنف والإنقاذ أعم من أن يكون بالعصمة منه ابتداء بأن يولد على الإسلام ويستمر أو بالإخراج من ظلمة الكفر إلى نور الإيمان كما وقع لكثير من الصحابة. وعلى الأول فيحمل قوله : « يعود » على معنى الصيرورة بخلاف الثاني فإن العود فيه على ظاهره . فإن قيل : فلم عدى العود بفي ولم يعده بإلى فالجواب : أنه ضمنه معنى الاستقرار وكأنه قال : يستقر فيه .
ومثله قوله تعالى : ﴿ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ ﴾ [الأعراف : ٨٩] . « تنبيه » : هذا الإسناد كله بصريون . وأخرجه المصنف بعد ثلاثة أبواب من طريق شعبة عن قتادة عن أنس واستدل به على فضل من أكره على الكفر فترك البتة إلى أن قتل وأخرجه من هذا الوجه في الأدب في فضل الحب في اللّٰه ولفظه =

....

○ ○ ○

= في هذه الرواية : « وحتى أن يقذف في النار أحب إليه من أن يرجع إلى الكفر بعد إذ أنقذه الله منه » .

وهي أبلغ من لفظ حديث الباب لأنه سوى فيه بين الأمرين وهنا جعل الوقوع في نار الدنيا أولى من الكفر الذي أنقذه الله بالخروج منه في نار الأخرى وكذا رواه مسلم من هذا الوجه وصرح النسائي في روايته والإسماعيلي بسماع قتادة له من أنس والله الموفق .

وأخرجه النسائي من طريق طلق بن حبيب عن أنس وزاد في الخصلة الثانية ذكر البغض في الله ولفظه : « وأن يحب في الله ويبغض في الله » وقد تقدم للمصنف في ترجمته : « والحب في الله والبغض في الله من الإيمان » وكأنه أشار بذلك إلى هذه الرواية .

لماذا نحاسب يوم القيامة ؟

السؤال :

كيف يمكن فهم قوله تعالى : ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ﴾ [فاطر : ٨] **والحساب يوم القيامة ؟**

الجواب : يقول اللّه تبارك وتعالى : ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ﴾ [القصص : ٤٨] .

ويقول سبحانه : ﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ وَلَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [النحل : ٩٣] .

فطالما الهداية من اللّه والإضلال كذلك فلماذا نحاسب يوم القيامة ؟

نقول : إن اللّه سبحانه وتعالى يحكم فى ملكه ما يشاء .. ولا يوجد فى كون اللّه شيء يخرج .. أ. يستطيع أن يخرج عن مشيئته سبحانه .. تلك هى الحقيقة التى نبدأ بها .. ومع هذه الحقيقة فإن الناس هم الذين يلقون بأنفسهم إلى التهلكة .. وخلق اللّه هم الذين يفعلون ما يجعلهم يستحقون عذاب اللّه .. أو يستحقون رحمته .. كما يقول اللّه جل جلاله : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ [(1)] [يونس : ٤٤] .

---

(١) في مختصر تفسير ابن كثير : يقول اللّه تعالى : ﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ ﴾ أيها الناس ﴿ أُمَّةً وَٰحِدَةً ﴾ أي : لوفق بينكم ولما جعل اختلافاً ولا تباغضا ولا شحناء ﴿ وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ﴾ ثم يسألكم يوم القيامة عن جميع أعمالكم فيجازيكم عليها على الفتيل والنقير والقطمير . لا انقطاع ولا نفاذ له فإنه دائم لا يحول ولا يزول ﴿ وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓاْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ قسم من الرب تعالى مؤكد باللام =

= أنه يجازي الصابرين بأحسن أعمالهم أي : ويتجاوز عن سيئها . وفي الفصل الثالث من كتاب قواعد العقائد في لوامع الأدلة للعقيدة للإمام الغزالي : الركن الثالث : العلم بأفعال اللّه تعالي قال : إن فعل العبد وإن كان كسباً للعبد فلا يخرج عن كونه مراداً للّه سبحانه . فلا يجري في الملك والملكوت طرفة عين ولا لفتة خاطر ولا فلتة ناظر إلا بقضاء اللّه وقدرته وبإرادته ومشيئته . ومنه الشر والخير والنفع والضر والإسلام والكفر والعرفان والنكر والفوز والخسران والغواية والرشد والطاعة والعصيان والشرك والإيمان لا راد لقضائه ولا معقب لحكمه يضل من يشاء ويهدي من يشاء ﴿ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴾ [الأنبياء : ٢٣] ويدل عليه من النقل قول الأمة قاطبة « ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن » وقول اللّه عز وجل ﴿ أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ﴾ [الرعد : ٣١] .

وقوله تعالى ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَـَٔاتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا ﴾ [السجدة : ١٣] ويدل عليه من جهة العقل أن المعاصي والجرائم إن كان اللّه يكرهها ولا يريدها وإنما هي جارية على وفق إرادة العدو إبليس لعنه اللّه مع أنه عدو للّه سبحانه والجاري على وفق إرادة العدو أكثر من الجاري على وفق إرادته تعالى فليت شعري كيف يستجيز المسلم أن يرد ملك الجبار ذي الجلال والإكرام إلى رتبة لو ردت إليها رياسة زعيم ضيعة لاستنكف منها إذ لو كان ما يستمر لعدو الزعيم في القرية أكثر مما يستقيم له لاستنكف من زعامته وتبرأ عن ولايته . والمعصية هي الغالبة على الخلق وكل ذلك جار عند المبتدعة على خلاف إرادة الحق تعالى ، وهذا غاية الضعف والعجز تعالى رب الأرباب عن قول الظالمين علوا كبيرا . ثم مهما ظهر أن أفعال العباد مخلوقة للّه صح أنها مرادة له فإن قيل : فكيف ينهى عما يريد ويأمر بما لا يريد قلنا: الأمر غير الإرادة . =

وبداية .. فإن الله تبارك وتعالى .. خلق كل خلقه على أساس الاختيار .. ولكن هناك خلق اختاروا مرة واحدة .. فاختاروا أن يكونوا مقهورين .. وهناك خلق آخر اختاروا أن يعطوا الاختيار المتعدد .. بحيث أصبح لكل منهم اختيار طوال فترة حياته الدنيوية .. هناك الملائكة ، وهؤلاء ستر الله عنا كيف خلقوا .. وهم كما قال الله سبحانه وتعالى : ﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ [الأنبياء : ٢٠] .

وكذلك هم : ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [١] [التحريم : ٦] .

هؤلاء الملائكة هم الذين يوكل الله سبحانه وتعالى إليهم ما يشاء فى كونه .. فكل شيء فى الكون موكَّلٌ به ملك حسبما يشاء الله جل جلاله .. منهم حملة العرش والملائكة المقربون إلى الحق سبحانه وتعالى .. والعالون ،

= ولذلك إذا ضرب السيد عبده فعاتبه السلطان عليه فاعتذر بتمرد عبده عليه فكذبه السلطان – فأراد إظهار حجته بأن يأمر العبد بفعل ويخالفه بين يديه – فقال له : أسرج هذه الدابة بمشهد من السلطان فهو يأمره بما لا يريد امتثاله ولو لم يكن آمرا لما كان عذره عند السلطان ممهدا ولو كان مريدا لامتثاله لكان مريدا لهلاك نفسه وهو محال .

(١) قال القرطبي قوله سبحانه وتعالى : ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم : ٦] أي : لا يخالفونه في أمره من زيادة أو نقصان . ﴿وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ أي : في وقته فلا يؤخرونه ولا يقدمونه . وقيل : أي لذتهم في امتثال أمر الله كما أن سرور أهل الجنة في الكون في الجنة ذكره بعض المعتزلة . وعندهم أنه يستحيل التكيف غدا . ولا يخفى معتقد أهل الحق في أن الله يكلف العبد اليوم وغدا ولا يذكر التكليف في حق الملائكة . ولله أن يفعل ما يشاء .

وملائكة الموت ، والملائكة المكلفون بالإنسان كالحفظة الكرام .. الذين يكتبون ما يفعله البشر من أعمال وغيرهم وغيرهم .

ومن الأجناس التى اختارت القهر .. فهى مقهورة على اختيار منها .. كل أجناس الكون ما عدا الإنس والجن .

فإذا قرأنا قول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ (1) [الأحزاب : ٧٢] .

---

(١) قال الأستاذ سيد قطب في الظلال : إن السماوات والأرض والجبال - التي اختارها القرآن ليحدث عنها - هذه الخلائق الضخمة الهائلة التي يعيش الإنسان فيها أو حيالها فيبدو شيئا صغيرا ضئيلا . هذه الخلائق تعرف بارئها بلا محاولة وتهتدي إلى ناموسه الذي يحكمها بخلقتها وتكوينها ونظامها وتطيع ناموس الخالق طاعة مباشرة بلا تدبر ولا واسطة . وتجري وفق هذا الناموس دائبة لا تني ولا تتخلف دورتها جزءًا من ثانية وتؤدي وظيفتها بحكم خلقتها وطبيعتها غير شاعرة ولا مختارة . هذه الشمس تدور في فلكها دورتها المنتظمة التي لا تختل أبدا . وترسل بأشعتها فتؤدي وظيفتها التي قدرها الله لها و تجذب توابعها بلا إرادة منها فتؤدي دورها الكوني أداء كاملا . وهذه الأرض تدور دورتها وتخرج زرعها وتقوت أبناءها وتواري موتاها وتتفجر ينابيعها . وفق سنة الله بلا إرادة منها وهذا القمر وهذه النجوم والكواكب وهذه الرياح والسحب وهذا الهواء وهذا الماء وهذه الجبال وهذه الوهاد .. كلها .. كلها .. تمضي لشأنها بإذن ربها وتعرف بارئها وتخضع لمشيئته بلا جهد منها ولا كد ولا محاولة .. لقد أشفقت من أمانة التبعة . أمانة الإرادة . أمانة المعرفة الذاتية . أمانة المحاولة الخاصة وحملها الإنسان الإنسان الذي =

= يعرف الله بإدراكه وشعوره . ويهتدي إلى ناموسه بتدبره وبصره . ويعمل وفق هذا الناموس بمحاولته وجهده . ويطيع الله بإرادته وحمله لنفسه ومقاومة انحرافاته ونزغاته ومجاهدة ميوله وشهواته .. وهو في كل خطوة من هذ الخطوات مريد . مدرك . يختار طريقه وهو عارف إلى أين يؤدي به هذا الطريق إنها أمانة ضخمة حملها هذا المخلوق الصغير الحجم القليل القوة الضعيف الحول المحدود العمر الذي تناوشه الشهوات والنزعات والميول والأطماع وإنها لمخاطرة أن يأخذ علي عاتقه هذه التبعة الثقيلة .

ومن ثم : ﴿ كَانَ ظَلُومًا ﴾ لنفسه ﴿ جَهُولًا ﴾ لطاقته .

هذا بالقياس إلى ضخامة ما زج بنفسه لحمله . فأما حين ينهض بالتبعة . حين يصل إلى المعرفة الواصلة إلى بارئه والاهتداء المباشر لناموسه و الطاعة الكاملة لإرادة ربه . المعرفة والاهتداء والطاعة التي تصل في طبيعتها وفي آثارها إلى مثل ما وصلت إليه من سهولة ويسر وكمال في السماوات والأرض والجبال .. الخلائق التي تعرف مباشرة وتهتدي مباشرة وتطيع مباشرة ولا تحول بينها وبين بارئها وناموسه وإرادته الحوائل . ولا تقعد بها المثبطات عن الانقياد والطاعة والأداء .. حين يصل الإنسان إلى هذه الدرجة وهو واع مدرك مريد . فإنه يصل حقا إلى مقام كريم ومكان بين خلق الله فريد . إنها الإرادة والإدراك والمحاولة وحمل التبعة .. هي هي ميزة هذا الإنسان على كثير من خلق الله . وهي هي مناط التكريم الذي أعلنه الله في الملأ الأعلى وهو يسجد الملائكة لآدم . وأعلنه في قرآنه الباقي وهو يقول : ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ ﴾ [الإسراء : ٧٠] .. فليعرف الإنسان مناط تكريمه عند الله . ولينهض بالأمانة التي اختارها و التي عرضت على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها .. ! ذلك كان ﴿ لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًۢا ﴾ [الأحزاب : ٧٣] .

نعرف أن السماوات والأرض والجبال وغيرها من المخلوقات عُرضت عليها الأمانة أو حرية الاختيار .. أى عُرض عليها أن تكون مختارة قادرة على الطاعة .. وقادرة على المعصية .. ولكن أجناس الكون ما عدا الإنس والجن رفضت الاختيار .. وقالت يا رب لا نقدر على أنفسنا .. ولا نقدر على حمل الأمانة فاجعلنا يا رب مقهورين .. ولولا أن اللّه سبحانه وتعالى أخبرنا بهذا فى كتابه العزيز .. لما عرفنا أن الأمانة عُرضت على السماوات والأرض والجبال وغيرها .. وأنهم اختاروا أن يكونوا مقهورين .. ورفضوا حمل الأمانة التى حملها الإنسان .

ولكن ما هى الأمانة ؟ .. الأمانة هى أن يأتمنك إنسان على شىء يودعه عندك وترده له عندما يطلبه .. بشرط ألا يكون هناك شىء مكتوب .. أو شهادة من الناس على أنه قد أودع عندك هذا الشىء .

إذن .. فباختيار الإنسان حمل الأمانة .. ولكن هل حملها رغماً عن اللّه سبحانه وتعالى ؟ هل الإنسان هو الذى أعطى لنفسه حرية الاختيار أن يفعل أو لا يفعل .. أم أن الذى أعطاه هذه الحرية هو الحق سبحانه وتعالى ؟ .. طبعًا الإنسان لم يعط لنفسه شيئًا .. ولكن اللّه سبحانه وتعالى شاءت قدرته أن

= فاختصاص الإنسان بحمل الأمانة وأخذه على عاتقه أن يعرف بنفسه ويهتدي بنفسه ويعمل بنفسه ويصل بنفسه .. هذا كان ليحتمل عاقبة اختياره وليكون جزاؤه من عمله . وليحق العذاب على المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات . وليمد اللّه يد العون للمؤمنين والمؤمنات فيتوب عليهم مما يقعون فيه تحت ضغط ما ركب فيهم من نقص وضعف وما يقف في طريقهم من حواجز وموانع وما يشدهم من جواذب وأثقال .. فذلك فضل اللّه وعونه . وهو أقرب إلى المغفرة والرحمة بعباده : ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ .

يعطى الإنسان الاختيار فخلق مختارًا .. ولو أن الله جل جلاله شاء أن يخلق الإنسان مقهورًا لحدث ذلك .. ولذلك يلفتنا الحق سبحانه وتعالى إلى تلك الحقيقة فى قوله جل جلاله : ﴿ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ ﴾ (1) [الشعراء : ٤] .

وقوله جل جلاله : ﴿ أَفَلَمْ يَاْيْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ﴾ [الرعد : ٣١] .

---

(١) قال الأستاذ سيد قطب : ﴿ فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ ﴾ ملوية محنية حتي لكأن هذه هيئة لهم لا تفارقهم فهم عليها مقيمون . ولكنه – سبحانه – لم يشأ أن يجعل مع هذه الرسالة الأخيرة آية قاهرة . لقد جعل آيتها القرآن . منهاج حياة كاملة . معجزا في كل ناحية : معجزا في بنائه التعبيري وتنسيقه الفني باستقامته على خصائص واحدة في مستوى واحد لا يختلف ولا يتفاوت ولا تتخلف خصائصه كما هي الحال في أعمال البشر . إذ يبدو الارتفاع والانخفاض والقوة والضعف في عمل الفرد الواحد المتغير الحالات . بينما تستقيم خصائص هذا القرآن التعبيرية على نسق واحد ومستوى واحد ثابت لا يتخلف يدل على مصدره الذي لا تختلف عليه الأحوال . معجزا في بنائه الفكري وتناسق أجزائه وتكاملها فلا فلتة فيه ولا مصادفة . كل توجيهاته وتشريعاته تلتقي وتتناسق وتتكامل وتحيط بالحياة البشرية وتستوعبها وتلبيها وتدفعها دون أن تتعارض جزئية واحدة من ذلك المنهاج الشامل الضخم مع جزئية أخرى ودون أن تصطدم واحدة منها بالفطرة الإنسانية أو تقصر عن تلبيتها .. وكلها مشدودة إلى محور واحد وإلى عروة واحدة في اتساق لا يمكن أن تفطن إليه خبرة الإنسان المحدودة . ولا بد أن تكون هناك خبرة مطلقة غير مقيدة بقيود الزمان والمكان . هي التي أحاطت به هذه الإحاطة ونظمته هذا التنظيم . معجزا في يسر مداخله إلى القلوب والنفوس ولمس مفاتيحها وفتح =

إذن .. فإن أحدًا فى الكون لم يأخذ شيئًا إلا بمشيئة اللَّه .. الأجناس التى اختارت القهر أخذت القهر بمشيئة اللَّه سبحانه وتعالى .. والأجناس المختارة أخذت الاختيار بمشيئة الحق جل جلاله .. فكل ما فى الكون خاضع لمشيئة خالقه .. المقهور على الطاعة أخذها بمشيئة اللَّه تبارك وتعالى .

○○○

= مغاليقها واستجاشة مواضع التأثر والاستجابة فيها وعلاجه لعقدها ومشكلاتها في بساطة ويسر عجيبين وفي تربيتها وتصريفها وفق منهجه بأيسر اللمسات دون تعقيد ولا التواء ولا معاظلة . لقد شاء اللَّه أن يجعل هذا القرآن هو معجزة هذه الرسالة - ولم يشأ أن ينزل آية قاهرة مادية تلوي الأعناق وتخضعها وتضطرها إلى التسليم - ذلك أن هذه الرسالة الأخيرة رسالة مفتوحة للأمم كلها وللأجيال كلها . وليست رسالة مغلقة على أهل زمان أو أهل مكان . فناسب أن تكون معجزتها مفتوحة كذلك للبعيد والقريب . لكل أمة ولكل جيل . والخوارق القاهرة لا تلوي إلا أعناق من يشاهدونها ثم تبقى بعد ذلك قصة تروى لا واقعا يشهد .. فأما القرآن فها هو ذا بعد أكثر من أربعة عشر قرنا كتاب مفتوح ومنهج مرسوم يستمد منه أهل هذا الزمان ما يقوم حياتهم - لو هدوا إلي اتخاذه إمامهم - ويلبي حاجاتهم كاملة ويقودهم بعدها إلى عالم أفضل وأفق أعلى ومصير أمثل . وسيجد فيه من بعدنا كثيرا مما لم نجده نحن ذلك ، إنه يعطي كل طالب بقدر حاجته ويبقى رصيده لا ينفد بل يتجدد ولكن لم يكونوا يفطنون إلى هذه الحكمة الكبرى . فكانوا يعرضون عما يتنزل عليهم من هذا القرآن العظيم حينا بعد حين .

الإنفاق وطيبات الرزق

السؤال : كيف يكون الإنفاق من طيبات ما كسبنا ؟

الجواب : يقول الحق سبحانه : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَـٰتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ ۖ وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُواْ فِيهِ ۚ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴾ [البقرة . ٢٦٧] .

إن هذه الآية تعطى صورًا تحدث فى المجتمع البشرى . وكانت هذه الصور تحدث فى مجتمع المدينة بعد أن أسس فيها رسول اللّٰه صلى اللّٰه عليه وسلم دولة الإسلام . فبعض من الناس كانوا يحضرون العِذق من النخل ويعلقه فى المسجد من أجل أن يأكل منه من يريد ، والعِذق هو فرع قوى من النخل يضم الكثير من الفروع الصغيرة المعلقة عليها ثمار البلح. وكان بعضهم يأتى بعِذق غير ناضج أو بالحَشَف وهو أردأ التمر ، فأراد اللّٰه أن يجنبهم هذا الموقف ، حتى لا يجعلوا للّٰه ما يكرهون ، فأنزل هذا القول الحكيم : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَـٰتِ مَا كَسَبْتُمْ ﴾ [1] .

---

(١) قال القرطبي قوله تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ ﴾ هذا خطاب لجميع أمة محمد صلى اللّٰه عليه وسلم . واختلف العلماء في المعنى المراد بالإنفاق هنا فقال علي بن أبي طالب وعبيدة السلماني وابن سيرين : هي الزكاة المفروضة نهى الناس عن إنفاق الرديء فيها بدل الجيد. قال ابن عطية : والظاهر من قول البراء بن عازب والحسن وقتادة أن الآية في التطوع ندبوا إلى ألا يتطوعوا إلا بمختار جيد . والآية تعم الوجهين لكن صاحب الزكاة تعلق بأنها مأمور بها والأمر على الوجوب وبأنه نهى عن الرديء وذلك مخصوص بالفرض وأما التطوع فكما للمرء أن يتطوع بالقليل فكذلك له أن يتطوع بنازل في القدر =

....

= ودرهم خير من تمرة . تمسك أصحاب الندب بأن لفظة افْعَلْ صالح للندب صلاحيته للفرض والرديء منهي عنه في النقل كما هو منهي عنه في الفرض والله أحق من اختير له .

وروى البراء أن رجلا علق قِنْوَ حَشَف فرآه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : « بئسما علق » فنزلت الآية خرجه الترمذي .

والأمر على هذا القول على الندب ندبوا إلى ألا يتطوعوا إلا بجيد مختار . وجمهور المتأولين قالوا : معنى ﴿ مِن طَيِّبَٰتِ ﴾ من جيد ومختار ﴿ مَا كَسَبْتُمْ ﴾ .

وقال ابن زيد : من حلال : ﴿ مَا كَسَبْتُمْ ﴾ .

وفي مختصر تفسير ابن كثير : يأمر تعالى عباده المؤمنين بالإنفاق والمراد به الصدقة ههنا من طيبات ما رزقهم من الأموال التي اكتسبوها يعني التجارة بتيسيره إياها لهم وقال علي والسدي : ﴿ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ ﴾ يعني الذهب والفضة ومن الثمار والزروع التي أنبتها لهم من الأرض قال ابن عباس: أمرهم بالإنفاق من أطيب المال وأجوده وأنفسه ونهاهم عن التصدق برذالة المال ودنيئه وهو خبيثه فإن الله طيب لا يقبل إلا طيباً ولهذا قال : ﴿ وَلَا تَيَمَّمُوا۟ ٱلْخَبِيثَ ﴾ أي تقصدوا الخبيث ﴿ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ ﴾ : أي لو أعطيتموه ما أخذتموه إلا أن تتغاضوا فيه فالله أغنى منكم فلا تجعلوا لله ما تكرهون وقيل معناه : لا تعدلوا عن المال الحلال وتقصدوا إلى الحرام فتجعلوا نفقتكم منه .

وعن عبد الله بن مسعود قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الله قسم بينكم أخلاقكم كما قسم بينكم أرزاقكم وإن الله يعطي الدنيا من يحب ومن لا يحب ولا يعطي الدين إلا لمن أحب فمن أعطاه الله الدين فقد أحبه =

= والذي نفسي بيده لا يُسْلم عبد حتى يسلم قلبُه ولسانه ولا يؤمن حتى يأمن جاره بوائقه - قالوا : وما بوائقه يا نبي اللّه قال : غشه وظلمه - ولا يكسب عبد مالاً من حرام فينفق منه فيبارك له فيه ولا يتصدق به فيقبل منه ولا يتركه خلف ظهره إلا كان زاده إلى النار ، إن اللّه لا يمحو السيئ بالسيئ ولكن يمحو السيئ بالحسن إن الخبيث لا يمحو الخبيث » « رواه الإمام أحمد عن عبد اللّه ابن مسعود مرفوعاً » .

قال ابن كثير : والصحيح القول الأول .

قال ابن جرير رحمه اللّه : عن البراء بن عازب رضي اللّه عنه في قول اللّه تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ ﴾ الآية قال نزلت في الأنصار كان الأنصار إذا كانت أيام جذاذ النخل أخرجت من حيطانها البسر فعلقوه على حبل بين الأسطوانتين في مسجد رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم فيأكل فقراء المهاجرين منه فيعمد الرجل منهم إلى الحشف فيدخله مع أقناء البسر يظن أن ذلك جائز فانزل اللّه فيمن فعل ذلك : ﴿ وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ ﴾ « أخرجه ابن ماجه والحاكم وقال: صحيح على شرط الشيخين » .

وقال ابن ابي حاتم : عن البراء رضي اللّه عنه « ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون ولستم بآخذيه إلا أن تغمضوا فيه » قال : نزلت فينا كنا أصحاب نخل فكان الرجل يأتي من نخله بقدر كثرته وقلته فيأتي الرجل بالقنو فيعلقه في المسجد وكان أهل الصفّة ليس لهم طعام فكان أحدهم إذا جاع جاء فضربه بعصاه فسقط منه البسر والتمر فياكل وكان أناس ممن لا يرغبون في الخير يأتي بالقنو الحشف والشيص فيأتي بالقنو قد انكسر فيعلقه فنزلت : ﴿ وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُواْ فِيهِ ﴾ قال: لو أن =

إن الإنفاق يجب أن يكون من الكسب الطيب الحلال ، فلا تأتى بمال من مصدر غير حلال لتنفق منه على أوجه الخير. فاللَّه طيب لا يقبل إلا طيبًا . ولا يكون الإنفاق من رُذَال وردِيء المال .

= أحدكم أهدي له مثل ما أعطى ما أخذ إلا على إغماض وحياء فكنا بعد ذلك يجيء الرجل منا بصالح ما عنده . وعن عبد اللّه بن مغفل في هذه الآية : ﴿ وَلَا تَيَمَّمُوا۟ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ ﴾ قال : «كسب المسلم لا يكون خبيثاً ولكن لا يصَّدق بالحشف والدرهم الزيف وما لا خير فيه » وقال الإمام أحمد عن عائشة قالت : أتي رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم بضب فلم يأكله ولم ينه عنه قلت : يا رسول اللّه نطعمه المساكين قال : « لا تطعموهم مما لا تأكلون » . وعن البراء « ولستم بآخذيه إلا أن تغمضوا فيه » يقول : لو كان لرجل على رجل فأعطاه ذلك لم يأخذه إلا أن يرى أنه قد نقصه من حقه رواه ابن جرير عن البراء بن عازب وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس : « ولستم بآخذيه إلا أن تغمضوا فيه » يقول : لو كان لكم على أحد حق فجاءكم بحق دون حقكم لم تأخذوه بحساب الجيد حتى تنقصوه فكيف ترضون لي ما لا ترضون لأنفسكم وحقي عليكم من أطيب أموالكم وأنفَسه. وقوله تعالى : ﴿ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴾ أي : وإن أمركم بالصدقات وبالطيب منها فهو غني عنها وما ذاك إلا أن يساوي الغني الفقير كقوله : ﴿ لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ ﴾ وهو غني عن جميع خلقه وجميع خلقه فقراء إليه . وهو واسع الفضل لا ينفد ما لديه فمن تصدق بصدقة من كسب طيب فليعلم أن اللّه غني واسع العطاء كريم جواد وسيجزيه بها ويضاعفها له أضعافاً كثيرة من يقرض غير عديم ولا ظلوم وهو الحميد : أي المحمود في جميع أفعاله وأقواله وشرعه وقدره لا إله إلا هو ولا رب سواه .

ويحدد الحق سبحانه وتعالى وسيلة الإنفاق من عطائه فيقول : ﴿ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ ﴾ وهو سبحانه يذكرنا دائمًا حين يقول : ﴿ أَنفِقُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ ﴾ ألا تظن الكسب هو الأصل فى الرزق . لا ، إن الكسب هو حركة موهوبة لك من اللّه. إنك أيها العبد إنما تتحرك بطاقة موهوبة لك من اللّه ، وبفكر ممنوح لك من اللّه ، وفى أرض سخرها لك اللّه ، إنها الأدوات المتعددة التى خصك بها اللّه وليس فيها ما تملكه أنت من ذاتيتك. ولكن الحق يحترم حركة الإنسان وسعيه إلى الرزق فيقول : ﴿ أَنفِقُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ ﴾ .

ويحذرنا الحق من أن نختار الخبيث وغير الصالح من نتاج عملنا لننفق منه بقوله سبحانه : ﴿ وَلَا تَيَمَّمُوا۟ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ ﴾ أى لا يصح ولا يليق أن نأخذ لأنفسنا طيبات الكسب ونعطى اللّه ردئ الكسب وخبيثه؛ لأن الواحد منا لا يرضى لنفسه أن يأخذ لطعامه أو لعياله هذا الخبيث غير الصالح لننفق منه أو لنأكله. ﴿ وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُوا۟ فِيهِ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴾ أى أنك أيها العبد المؤمن لن ترضى لنفسك أن تأكل من الخبيث إلا إذا أغمضت عينيك ، أو تم تنزيل سعره لك؛ كأن يعرض عليك البائع شيئًا متوسط الجودة أو شيئًا رديئًا بسعر يقل عن سعر الجيد .

لقد أراد الحق سبحانه وتعالى أن يوضح لنا بهذه الصور أوجه الإنفاق :

إن النفقة لا تنقص المال وإنما تزيده سبعمائة مرة .

إن النفقة لا يصح أن يبطلها الإنسان بالمن والأذى .

إن القول المعروف خير من الصدقة المتبوعة بالمن أو الأذى .

إن الإنفاق لا يكون رئاء الناس إنما يكون ابتغاءً لمرضاة اللّه .

وهذه الآية الكريمة تعالج آفات الإنفاق سواءً آفة الشُح أو آفة المَنّ أو الأذى ، أو الإنفاق من أجل التظاهر أمام الناس ، أو الإنفاق من ردئ المال .

الأحجبة والأحجار هل تجلب الرزق

السؤال : **ما رأي الدين فى الأحجبة والأحجار وغيرها مما يعتقد أنه يجلب الرزق ؟**

الجواب : حول ما يعتقده بعض السذج من خرافات يأباها العقل السليم خاصة ببعض الأحجبة والأحجار وغيرها وغيرها ، والتى يقال إنها تجلب الرزق !! هذا الاعتقاد فى الخرافات موجود على مر العصور ، وفى معظم الدول ، حتى إنه فى معابد البوذيين فى كوريا واليابان يوجد نوع من الأحجار ذى لون خاص يقال إنها تجلب الرزق ويقبل الناس على شرائها وتعليقها فى بيوتهم أو حول رقابهم .

كذلك هناك من يتفاءل بحدوة الحصان فيضعها على باب منزله ، أو يعلق صورة مصغرة لها حول رقبته !! كل هذا كلام خطأ وعودة لعباده الأصنام بصورة أو بأخرى .. فالحجر لا ينفع ولا يضر يستوى فى ذلك الحجر الكريم وغير الكريم .. وحدوة الحصان ما لها والرزق ؟!

إن الرزق فى السماء يختص به الرزاق سبحانه وتعالى ، ولا علاقة لشيء على ظهر الأرض أو فى باطنها بالرزق .

ويجب أن نلتفت إلى دقائق الأسرار وإلى كنوز المعانى التى تتضمنها الآيات القرآنية وإلى تلك العطاءات الربانية التى يدخرها رب العزة لعباده الصالحين .. الذين أحسنوا التوكل [١].

---

(١) روى أحمد في المسند [٤ / ١٥٦] عن عقبة بن عامر الجهني ان رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم أقبل إليه رهط فبايع تسعة وأمسك عن واحد فقالوا =

= يا رسول اللّه بايعت تسعة وتركت هذا قال : إن عليه تميمة فادخل يده فقطعها فبايعه وقال من علق تميمة فقد أشرك . وقال الأرناؤوط : إسناده قوى .
روى ابن حبان في صحيحه [٦٠٨٦] عن عقبة بن عامر يقول سمعت رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم يقول من علق تميمة فلا أتم اللّه له ومن علق ودعة فلا ودع اللّه له . وقال الأرناؤوط : خالد بن عبيد المعافرى لم يوثقه غير المؤلف ، ولم يرو عنه غير حيوة بن شريح ومشرح بن هاعان حسن الحديث ، وباقى رجاله ثقات رجال لصحيح .
وفي مختار الصحاح : التَّمِيمةُ عوذة تعلق على الإنسان وفي الحديث « من علق تميمة فلا أتم اللّه له » قيل هي خرزة وأما المعاذات إذا كتب فيها القرآن وأسماء اللّه تعالى فلا بأس بها و التَّمْتَامُ الذي فيه تَمْتمةٌ وهو الذي يتردد في التاء .
وقال ابن الأثير في النهاية : وفي حديث عبد اللّه رضي اللّه عنه : التمائم جمع تَمِيمة وهي خَرَزات كانت العرب تُعلّقها على أولادهم يَتَّقُون بها العين في زعْمهم فأبْطلها الإسلام . ومنه حديث ابن عمررضي اللّه تعالى عنهما : ما أبالي ما أتَيْتُ إن تعلَّقْتُ تميمة .
والحديث الآخر من علَّق تَميمةً فلا أتمّ اللّه له ،كأنهم كانوا يعتقدون أنها تمام الدَّواء والشفاء وإنما جعلها شركاً لأنهم أرادوا بها دفْع المقاديرالمكتوبة عليهم فطلبوا دفْع الأذَى من غير اللّه الذي هو دافِعه .
وقال ابن منظور في لسان العرب قوله تعالى : « إن اللّه هو الرزّاق ذو القُوَّةِ المَتِينُ » . يقال : رَزَقَ الخلقَ رَزْقاً ورِزْقاً فالرَّزق بفتح الراء هو المصدر الحقيقي والرِّزْقُ الاسم يجوز أَن يوضع موضع المصدر. ورزَقه اللّه يرزُقه رِزقاً حسناً : نعَشَه . والرَّزْقُ على لفظ المصدر : ما رَزقه إِيّاه والجمع أَرزاق . =

= وقوله تعالى : ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴾ قيل : رزقاً ههنا مصدر فقوله شيئاً على هذا منصوب برزقاً وقيل : بل هو اسم فشيئاً على هذا بدل من قوله رزقاً .

وفي حديث ابن مسعود رضى اللّه تعالى عنه : عن النبي صلى اللّه عليه وسلم أَن اللّه تعالى يَبعث الملَك إلى كل مَن اشتملت عليه رَحِم أُمه فيقول له : اكتب رِزْقَه وأَجلَه وعملَه وشقي أَو سعيد . فيُختم له على ذلك[1] .

وقوله تعالى : ﴿ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ﴾ قيل : هو عنب في غير حينه . وقوله تعالى : ﴿ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا ﴾ .

قال الزجاج : روي أَنه رِزق الجنة قال أَبو الحسن : وأَرى كرامته بَقاءه وسَلامته مما يَلحَق أَرزاقَ الدنيا . =

---

(١) روى البخارى [٧٤٥٤] بلفظ : خلق أحدكم يجمع فى بطن أمه أربعين يوما أو أربعين ليلة ثم يكون علقة مثله ، ثم يكون مضغة مثله ، ثم يبعث إليه الملك فيؤذن بأربع كلمات فيكتب رزقه ، وأجله ، وعمله ، وشقى أم سعيد ، ثم ينفخ فيه الروح فإن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى لا يكون بينها وبينه إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخل النار ، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينها وبينه إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل عمل أهل الجنة فيدخلها .

ورواه مسلم [١/٢٦٤٣] بلفظ : إن أحدكم يجمع خلقه فى بطن أمه أربعين يوما ثم يكون فى ذلك علقة مثل ذلك ، ثم يكون فى ذلك مضغة مثل ذلك ، ثم يرسل الملك فينفخ فيه الروح ويؤمر بأربع كلمات : يكتب رزقه ، وأجله ، وعمله ، وشقى أو سعيد ، فوالذى لا إله غيره إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها ، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها .

....

○○○

= وقوله تعالى : ﴿ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ ﴾ انتصاب رِزقاً على وجهين : أَحدهما على معنى رَزَقْناهم رزقاً لأَن إِنْباتَه هذه الأَشياء رزق ويجوز أَن يكون مفعول له المعنى فأَنبتنا هذه الأَشياء للرِّزْق . وارْتَزَقَه واسْتَرْزَقَه : طلب منه الرِّزق .

الـــــرزق

السؤال : ما هــو الــرزق ؟

الجواب : الرزق هو ما ينتفع به الإنسان سواء أكان حلالاً أم حراما ، طيبًا أو خبيثًا ، فكل ما تنتفع به هو رزق لك ، وكل ما لا تنتفع به – وإن كنت تملكه – ليس رزقًا لك بل هو رزق غيرك ، وهناك فرق بين الكسب والرزق .. وبين العمل والرزق .. فلا يمكن أن تقول إن ما يكسبه إنسان يمثل رزقه ، ولا أن تقول إن عمله يمثل رزقه ، فما يكسبه الإنسان فيه رزقه ورزق زوجته ورزق أولاده ورزق آخرين لا يعلمهم . وكل واحد منهم يصل إليه رزقه تمامًا دون أن ينقص شيئًا .

إننا نتعجب كثيرًا عندما نرى كيفية وصول الرزق إلى الإنسان .. لا أحد يعرف مكان الرزق ، فقد يذهب بحثًا عنه إلى أكثر من مكان فلا يحصل على شيء ولا يصل إلى شيء ، ولكن الرزق يعرف دائمًا مكان صاحبه . ويعرف عنوانه وكيف يصل إليه .. ولا يتوه عنه أبدًا .. ذلك لأنه في السماء [1].

---

(١) قال القرطبي قوله تعالى :﴿ وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزۡقُكُمۡ وَمَا تُوعَدُونَ ﴾ .

قال سعيد بن جبير والضحاك : الرزق هنا ما ينزل من السماء من مطر وثلج ينبت به الزرع ويحيا به الخلق .

قال سعيد بن جبير : كل عين قائمة إنها من الثلج . وعن الحسن أنه كان إذا رأى السحاب قال لأصحابه : فيه والله رزقكم ولكنكم تحرمونه بخطاياكم.

وقال أهل المعاني : ﴿ وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزۡقُكُمۡ ﴾ معناه وفي المطر رزقكم سمي المطر سماء لأنه من السماء ينزل . قال الشاعر :

إذا سقط السماء بأرض قوم ... رعينـــاه وإن كانوا غضابا =

مقدر من اللّه سبحانه وتعالى .. وما دام مقدرًا فلابد أن يصل إلى صاحبه[1] .
والناس تعتقد أن المقدر هو الرزق الحلال فقط ، لكن الحقيقة أن المقدر هو

= وقال ابن كيسان : يعني وعلى رب السماء رزقكم نظيره : ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا ﴾ [هود : ٦] .
وقال سفيان الثوري : ﴿ وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ ﴾ أي عند اللّه في السماء رزقكم .
وقيل : المعنى وفي السماء تقدير رزقكم وما فيه لكم مكتوب في أم الكتاب.
وعن سفيان قال : قرأ واصل الأحدب ﴿ وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ ﴾ فقال : ألا أرى رزقي في السماء وأنا أطلبه في الأرض ! فدخل خربة فمكث ثلاثا لا يصيب شيئا فإذا هو في الثالثة بدوخلة رطب وكان له أخ أحسن نية منه فدخل معه فصارتا دوخلتين فلم يزل ذلك دأبهما حتى فرق اللّه بالموت بينهما .

(١) قال القرطبي قوله تعالى : ﴿ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ﴾ ﴿ كُلُواْ ﴾ فيه حذف تقديره وقلنا كلوا فحذف اختصارا لدلالة الظاهر عليه والطيبات هنا قد جمعت الحلال واللذيذ .
وقال في موضع آخر : المراد بالأكل الانتفاع من جميع الوجوه . وقيل : هو الأكل المعتاد .
وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي اللّه عنه قال قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : « أيها الناس إن اللّه تعالى طيب لا يقبل إلا طيبا وإن اللّه أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين فقال ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُواْ صَٰلِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴾ [المؤمنون: ٥١] .
وقال : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ﴾ ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر يمد يديه إلى السماء يا رب يا رب ومطعمه =

الرزق الحلال والرزق الحرام أيضًا يقول اللَّه سبحانه وتعالى : ﴿ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ﴾ [البقرة : ٥٧] .
فكأن هناك رزقًا طيبًا ورزقًا غير طيب .

○○○

= حرام ، ومشربه حرام ، وملبسه حرام وغذي بالحرام ، فأنى يستجاب لذلك[1] » .
قال النووي : يطيل السفر في وجوه الطاعات كحج وزيارة مستحبة وصلة وغير ذلك . قوله صلى اللَّه عليه وسلم : « وغذي بالحرام » هو بضم الغين وتخفيف الذال المكسورة . قوله صلى اللَّه عليه وسلم : « فأنى يستجاب لذلك » أي من أين يستجاب لمن هذه صفته وكيف يستجاب له .

(١) رواه مسلم [٦٥/١٠١٥] والترمذى [٢٩٨٩] وأحمد فى المسند [٣٢٨/٢] .

أكل حقوق الناس

السؤال : **ما هي عوامل ذهاب الرزق ؟**

الجواب : حرمان المساكين والفقراء حقهم يذهب الله بسببه الرزق كما جاء في قوله تعالى الآيات : ﴿ فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾ ﴾ [القلم] .

إذ من موجبات زيادة الرزق والبركة تأدية حق الفقير والمسكين فيه [1].

---

(١) قال الله تعالى : ﴿ إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴿١٨﴾ فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾ فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ ﴿٢١﴾ أَنِ اغْدُوا عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَارِمِينَ ﴿٢٢﴾ فَانطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ ﴿٢٣﴾ أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ ﴿٢٤﴾ وَغَدَوْا عَلَىٰ حَرْدٍ قَادِرِينَ ﴿٢٥﴾ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ ﴿٢٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٢٧﴾ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴿٢٨﴾ قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَاوَمُونَ ﴿٣٠﴾ قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ ﴿٣١﴾ عَسَىٰ رَبُّنَا أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا رَاغِبُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَٰلِكَ الْعَذَابُ ۖ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ .

قال ابن كثير في البداية : هذا مثل ضربه الله لكفار قريش فيما أنعم به عليهم من إرسال الرسول العظيم الكريم إليهم فقابلوه بالتكذيب والمخالفة كما قال تعالى ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا ۖ وَبِئْسَ الْقَرَارُ ﴿٢٩﴾ ﴾ .

قال ابن عباس هم كفار قريش فضرب تعالى لهم مثلا بأصحاب الجنة المشتملة على أنواع الزروع والثمار التي قد انتهت واستحقت أن تجد وهو الصرام ولهذا قال اذ أقسموا فيما بينهم ليصرمنها أي ليجدنها وهو الاستغلال مصبحين =

= أي وقت الصبح حيث لا يراهم فقير ولا محتاج فيعطوه شيئا فحلفوا على ذلك ولم يستثنوا في يمينهم فعجزهم اللّه وسلط عليها الآفة التي أحرقتها وهي السفعة التي اجتاحتها ولم تبق بها شيئا ينتفع به ولهذا قال : ﴿ فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾ ﴾ أي : كالليل الأسود المنصرم من الضياء وهذه معاملة بنقيض المقصود ﴿ فَتَنَادَوْاْ مُصْبِحِينَ ﴾ أي فاستيقظوا من نومهم فنادى بعضهم بعضا قائلين : ﴿ ٱغْدُواْ عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰرِمِينَ ﴾ أي باكروا إلى بستانكم فاصرموه قبل أن يرتفع النهار ويكثر السؤال ﴿ فَٱنطَلَقُواْ وَهُمْ يَتَخَٰفَتُونَ ﴾ أي يتحدثون فيما بينهم خفية قائلين لا يدخلنها اليوم عليكم مسكين أي اتفقوا على هذا واشتوروا عليه ﴿ وَغَدَوْاْ عَلَىٰ حَرْدٍ قَٰدِرِينَ ﴾ أي انطلقوا مجدين في ذلك قادرين عليه مضمرين على هذه النية الفاسدة وقال عكرمة والشعبي وغدوا على حرد أي غضب على المساكين وأبعد السدي في قوله : إن اسم حرثهم حرد ﴿ فَلَمَّا رَأَوْهَا ﴾ أي وصلوا اليها ونظروا ما حل بها وما قد صارت إليه من الصفة المنكرة بعد تلك النضرة والحسن والبهجة فانقلبت بسبب النية الفاسدة فعند ذلك قالوا : ﴿ إِنَّا لَضَآلُّونَ ﴾ أي قد نهينا عنها وسلكنا غير طريقها ثم قالوا : ﴿ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴾ أي بل عوقبنا بسبب سوء قصدنا وحرمنا بركة حرثنا ﴿ قَالَ أَوْسَطُهُمْ ﴾ قال ابن عباس ومجاهد وغير واحد هو أعدلهم وخيرهم ﴿ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴾ قيل تستثنون قاله مجاهد والسدي وابن جرير وقيل تقولون خيرا بدل ما قلتم من الشر قالوا : ﴿ قَالُواْ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَٰوَمُونَ ﴿٣٠﴾ قَالُواْ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ ﴿٣١﴾ ﴾ [القلم] . فندموا حيث لا ينفع الندم واعترفوا بالذنب بعد العقوبة ؛ وذلك حيث لا ينجع وقد قيل إن هؤلاء كانوا اخوة وقد ورثوا هذه الجنة من أبيهم وكان يتصدق منها كثيرا فلما صار أمرها إليهم استهجنوا أمر أبيهم وأرادوا استغلالها من غير أن يعطوا الفقراء شيئا =

= فعاقبهم اللّه أشد العقوبة ولهذا أمر اللّه تعالى بالصدقة من الثمار وحث على ذلك يوم الجداد كما قال تعالى : ﴿ كُلُوا مِن ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَءَاتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ ﴾ [الأنعام : ١٤١] ثم قيل كانوا من أهل اليمن من قرية يقال لها ضروان وقيل من أهل الحبشة واللّه أعلم قال اللّه تعالى ﴿ كَذَٰلِكَ الْعَذَابُ ﴾ أي : هكذا نعذب من خالف أمرنا ولم يعطف على المحاويج من خلقنا ﴿ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ ﴾ أي أعظم وأحكم من عذاب الدنيا ﴿ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ وقصة هؤلاء شبيه بقوله تعالى : ﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ﴿١١٣﴾ ﴾ [النحل] .

قيل هذا مثل مضروب لأهل مكة وقيل هم أهل مكة أنفسهم ضربهم مثلا لأنفسهم ولا ينافي ذلك واللّه أعلم .

قال القرطبي قوله تعالى : ﴿ فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ ﴾ أي كالليل المظلم عن ابن عباس والفراء وغيرهما . قال الشاعر :

تطاول ليلك الجون البهيم   فما ينجاب عن صبح صريم

أي احترقت فصارت كالليل الأسود .

وعن ابن عباس أيضا : كالرماد الأسود . قال : الصريم الرماد الأسود ، بلغة خزيمة الثوري : كالزرع المحصود . فالصريم بمعنى المصروم أي المقطوع ما فيه .

وقال الحسن : صرم عنها الخير أي قطع فالصريم مفعول أيضا .

وقال المؤرج : أي كالرملة أنصرمت من معظم الرمل . يقال : صريمة وصرائم فالرملة لا تنبت شيئا ينتفع به .

وقال الأخفش : أي كالصبح انصرم من الليل . =

= وقال المبرد : أي كالنهار فلا شيء فيها .

قال شمر : الصريم الليل والصريم النهار أي ينصرم هذا عن ذاك وذاك عن هذا .

وقيل : سمي الليل صريما لأنه يقطع بظلمته عن التصرف ولهذا يكون فعيل بمعنى فاعل .

قال القشيري : وفي هذا نظر لأن النهار يسمى صريما ولا يقطع عن تصرف .

﴿ فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ ﴾ ينادي بعضهم بعضا ليقطعن ثمر نخيلهم إذا أصبحوا بسدفة من الليل لئلا ينتبه المساكين ﴿ أَنِ اغْدُوا عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَارِمِينَ ﴾ عازمين على الصرام والجداد .

قال قتادة : حاصدين زرعكم .

وقال الكلبي : ما كان في جنتهم من زرع ولا نخيل. فتحالفوا بينهم ليغدون غدوة قبل خروج الناس ثم ليصرمنها ولا تعرف المساكين .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس في قوله: ﴿ فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ ﴾ قال : هو أمر من الله .

وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج في قوله : ﴿ فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ ﴾ قال : عذاب : عنق من النار خرجت من وادي جهنم. وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن قتادة في قوله : ﴿ فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ ﴾ قال : أتاها أمر الله ليلا ﴿ فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ ﴾ قال : كالليل المظلم .

وأخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن مسعود قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إياكم والمعاصي إن العبد ليذنب فينسى به الباب من العلم وإن العبد ليذنب الذنب فيحرم به قيام الليل وإن العبد ليذنب الذنب فينسى فيحرم به رزقا قد كان هيئ له ثم تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾ ﴾ قد حرموا خير جنتهم بذنبهم ».

فالزكاة والصدقة يطهران المال وينميانه ولا ينقصانه ، بينما أكل الربا واستغلال حاجة الفقير يمحق المال ويذهب به تمامًا .. مع أن الصدقة فى ظاهرها نقص والربا فى ظاهره الزيادة ولكن الحق سبحانه وتعالى يمحق الربا ويربى الصدقات (١).

---

(١) روى مسلم [٢٥٨٨ / ٦٩] عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صلى اللَّه عليه وسلم قَالَ: « مَا نَقَصَتْ صَدَقَةٌ مِنْ مَالٍ . وَمَا زَادَ اللَّهُ عَبْداً بِعَفْوٍ إِلاَّ عِزّا . وَمَا تَوَاضَعَ أَحَدٌ لِلَّهِ إِلاَّ رَفَعَهُ اللَّهُ » .

قال النووي قوله صلى اللَّه عليه وسلم : « ما نقصت صدقة من مال » ذكروا فيه وجهين : أحدهما معناه أنه يبارك فيه ويدفع عنه المضرات فينـ ، نقص الصورة بالبركة الخفية وهذا مدرك بالحس والعادة . والثاني أنه وإن نقصت صورته كان في الثواب المرتب عليه جبر لنقصه وزيادة إلى أضعاف كثيرة .

قال الصنعاني في سبل السلام : فسر العلماء عدم النقص بمعنيين :

الأول : أنه يبارك له فيه ويدفع عنه الآفات فيجبر نقص الصورة بالبركة الخفية .

والثاني : أنه يحصل بالثواب الحاصل عن الصدقة جبران نقص عينها فكأن الصدقة لم تنقص المال لما يكتب اللَّه من مضاعفة الحسنة إلى عشر أمثالها إلى أضعاف كثيرة .

قلت : والمعنى الثالث أنه تعالى يخلفها بعوض يظهر به عدم نقص المال بل ربما زادته ودليله قوله تعالى : ﴿ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ ﴾ وهو مجرّب محسوس .

وقال الأصفهاني في مفردات ألفاظ القرآن : ولما كان الخير الإلهي يصدر من حيث لا يحس وعلى وجه لا يحصى ولا يحصر قيل لكل ما يشاهد منه زيادة غير محسوسة : هو مبارك وفيه بركة وإلى هذه الزيادة أشير بما روي أنه : « لا ينقص مال من صدقة » الحديث أخرجه مسلم في صحيحه وروايته فيه : =

= « ما نقصت صدقة من مال » لا إلى النقصان المحسوس حسب ما قال بعض الخاسرين حيث قيل له ذلك فقال : بيني وبينك الميزان .

قال ابن جرير الطبري في تأويل قول الله تعالي ﴿ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾ وأصل الزكاة : نماء المال وتثميره وزيادته . ومن ذلك قيل : زكا الزرع إذا كثر ما أخرج الله منه وزكت النفقة إذا كثرت . وقيل : زكا الفرد إذا صار زوجا بزيادة الزائد عليه حتى صار به شفعا . . وإنما قيل للزكاة زكاة وهي مال يخرج من مال لتثمير الله بإخراجها مما أخرجت منه ما بقي عند رب المال من ماله . وقد يحتمل أن تكون سميت زكاة لأنها تطهير لما بقي من مال الرجل وتخليص له من أن تكون فيه مظلمة لأهل السهمان كما قال جل ثناؤه مخبرا عن نبيه موسى صلوات الله عليه :﴿ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً ﴾ [الكهف: ٧٤] يعني بريئة من الذنوب طاهرة وكما يقال للرجل : هو عدل زكي لذلك المعنى . وهذا الوجه أعجب إلي في تأويل زكاة المال من الوجه الأول وإن كان الأول مقبولا في تأويلها . وإيتاؤها : إعطاؤها أهلها .

وفي الدر المنثور للسيوطي في تأويل قول الله تعالي : ﴿ يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَيُرْبِى ٱلصَّدَقَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴿٢٧٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٧﴾ ﴾ [البقرة] .

أخرج ابن جرير وابن المنذر من طريق ابن جريج عن ابن عباس﴿ يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰا۟ ﴾ قال : ينقص الربا ﴿ وَيُرْبِى ٱلصَّدَقَٰتِ ۗ ﴾ قال : يزيد فيها . وأخرج أحمد وابن ماجة وابن جرير والحاكم وصححه والبيهقي في شعب الإيمان عن ابن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم قال « إن الربا وإن كثر فإن عاقبته تصير إلى قل » . وأخرج عبد الرزاق عن معمر قال : سمعنا أنه لا يأتي على صاحب الربا =

= أربعون سنة حتى يمحق . وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد والبخاري ومسلم والترمذي والنسائي وابن ماجة والبيهقي في الأسماء والصفات عن أبي هريرة قال : قال رسول اللّٰه صلى اللّٰه عليه وسلم « من تصدق بعدل تمرة من كسب طيب ولا يقبل اللّٰه إلا طيبا فإن اللّٰه يقبلها بيمينه ثم يربيها لصاحبها كما يربي أحدكم فلوه حتى تكون مثل الجبل » .

وأخرج الشافعي وأحمد وابن أبي شيبة وعبد بن حميد والترمذي وصححه وابن جرير وابن خزيمة وابن المنذر وابن أبي حاتم والدارقطني في الصفات عن أبي هريرة قال : قال رسول اللّٰه صلى اللّٰه عليه وسلم « إن اللّٰه يقبل الصدقة ويأخذها بيمينه فيربيها لأحدكم كما يربي أحدكم مهره أو فلوه حتى إن اللقمة لتصير مثل أحد وتصديق ذلك في كتاب اللّٰه ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ ﴾ [التوبة / ١٠٤] . و ﴿ يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرْبِي ٱلصَّدَقَٰتِۗ ﴾ » .

وأخرج البزار وابن جرير وابن حبان والطبراني عن عائشة قالت : قال رسول اللّٰه صلى اللّٰه عليه وسلم « إن اللّٰه تبارك وتعالى يقبل الصدقة ولا يقبل منها إلا الطيب ويربيها لصاحبها كما يربي أحدكم مهره أو فصيله حتى أن اللقمة تصير مثل أحد وتصديق ذلك في كتاب اللّٰه : ﴿ يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرْبِي ٱلصَّدَقَٰتِۗ ﴾ .

وأخرج الحكيم الترمذي في نوادر الأصول عن ابن عمر قال : قال رسول اللّٰه صلى اللّٰه عليه وسلم « إن المؤمن يتصدق بالتمرة أو بعدلها من الطيب ولا يقبل اللّٰه إلا الطيب فتقع في يد اللّٰه فيربيها له كما يربي أحدكم فصيله حتى تكون مثل التل العظيم ثم قرأ ﴿ يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرْبِي ٱلصَّدَقَٰتِۗ ﴾ .

وأخرج ابن المنذر عن الضحاك في الآية قال: أما ﴿ يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ ﴾ =

= فإن الربا يزيد في الدنيا ويكثر ويمحقه اللّٰه في الآخرة ولا يبقى منه لأهله شيء وأما قوله ﴿ وَيُرْبِي ٱلصَّدَقَٰتِۗ ﴾ فإن اللّٰه يأخذها من المتصدق قبل أن تصل إلى المتصدق عليه فما يزال اللّٰه يربيها حتى يلقى صاحبها ربه فيعطيها إياه وتكون الصدقة التمرة أو نحوها فما يزال اللّٰه يربيها حتى تكون مثل الجبل العظيم.

وأخرج الطبراني عن أبي برزة الأسلمي قال : قال رسول اللّٰه صلى اللّٰه عليه وسلم « إن العبد ليتصدق بالكسرة تربو عند اللّٰه حتى تكون مثل أحد » .

وفي مختصر تفسير ابن كثير : يخبر تعالى أنه يمحق الربا أي يذهبه إما بأن يذهبه بالكلية من يد صاحبه أو يحرمه بركة ماله فلا ينتفع به بل يعدمه به في الدنيا ويعاقبه عليه يوم القيامة كما قال تعالى :﴿ قُل لَّا يَسۡتَوِي ٱلۡخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوۡ أَعۡجَبَكَ كَثۡرَةُ ٱلۡخَبِيثِۚ ﴾ وقال تعالى : ﴿ وَيَجۡعَلَ ٱلۡخَبِيثَ بَعۡضَهُۥ عَلَىٰ بَعۡضٖ فَيَرۡكُمَهُۥ جَمِيعٗا فَيَجۡعَلَهُۥ فِي جَهَنَّمَۚ ﴾ وقال : ﴿ وَمَآ ءَاتَيۡتُم مِّن رِّبٗا لِّيَرۡبُوَاْ فِيٓ أَمۡوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرۡبُواْ عِندَ ٱللَّهِۖ ﴾ .

وقال ابن جرير: في قوله : ﴿ يَمۡحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ ﴾ وهذا نظير الخبر الذي روي عن عبد اللّٰه بن مسعود أنه قال : « الربا وإن كثر فإن عاقبته تصير إلى قلّ » وهذا الحديث رواه الإمام أحمد في مسنده عن ابن مسعود عن النبي صلى اللّٰه عليه وسلم قال : « الربا وإن كثر فإن عاقبته تصير إلى قل »[1] وهذا من باب المعاملة بنقيض المقصود كما قال صلى اللّٰه عليه وسلم : « من احتكر على المسلمين طعامهم ضربه اللّٰه بالإفلاس والجذام »[2] .

وقوله تعالى : ﴿ وَيُرْبِي ٱلصَّدَقَٰتِۗ ﴾ قرئ بضم الياء والتخفيف من ربا الشيء يربو أي كثّره ونمّاه وقرىء « يُربي » بالضم والتشديد من التربية . =

(١) رواه أحمد في المسند [٣٩٥/١] وقال الأرناؤوط : حديث صحيح .

(٢) رواه أحمد في المسند [٢١/١] عن فروخ مولى عثمان ، وقال الأرناؤوط : إسناده ضعيف .

= قال البخاري عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من تصدّق بعدل تمرة من كسب طيب ولا يقبل الله إلا الطيب فإن الله يتقبلها بيمنيه ثم يربيّها لصاحبها كما يربّي أحدكم فلوه حتى يكون مثل الجبل »[1] رواه البخاري في كتاب الزكاة وأخرجه مسلم بنحوه .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الله عزّ وجلّ يقبل الصدقة ويأخذها بيمينه فيربيها لأحدكم كما يربي أحدكم مهره أو فلوه حتى إن اللقمة لتصير مثل أحد » . وتصديق ذلك في كتاب الله عز وجل : ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ ﴾ [التوبة : ١٠٤] ﴿ يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرْبِي ٱلصَّدَقَٰتِ ﴾ رواه أحمد والترمذي وقال : حسن صحيح[2] .

عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن العبد إذا تصدق من طيّب تقبلها الله منه وأخذها بيمينه ورباها كما يربي أحدكم مهره أو فصيله وإن الرجل ليتصدق باللقمة فتربوا في يد الله أو قال : في كف الله حتى تكون مثل الجبل فتصدقوا »[3] رواه أحمد قال ابن كثير صحيح الإسناد ولكن لفظه عجيب .

وعن عائشة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إن الله يربي لأحدكم التمرة واللقمة كما يربي أحدكم فلوه أو فصيله حتى يكون مثل أحد »[4] =

(١) رواه البخارى [١٤١٠] ومسلم [٦٣/١٠١٤] .

(٢) رواه الترمذى [٦٦٢] وأحمد فى المسند [٤٧١/٢] وقال الأرناؤوط : حديث صحيح ، وهذا إسناد فى المتابعات .

(٣) رواه أحمد فى المسند [٢٦٨/٢] وقال الأرناؤوط : إسناده صحيح على شرط الشيخين .

(٤) رواه أحمد فى المسند [٢٥١/٦] وقال الأرناؤوط : صحيح لغيره .

كذلك فإن أكل حقوق الناس يذهب الرزق واقرأ قوله سبحانه وتعالى :
﴿ فَأَمَّا ٱلۡإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبۡتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكۡرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَكۡرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبۡتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيۡهِ رِزۡقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّاۖ بَل لَّا تُكۡرِمُونَ ٱلۡيَتِيمَ ﴿١٧﴾ وَلَا

= رواه أحمد وقد تفرد به من هذا الوجه وعن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إن الرجل ليتصدق بالصدقة من الكسب الطيب ولا يقبل الله إلا الطيب فيتلقاها الرحمن بيده فيربيها كما يربي أحدكم فلوه أو وصيفه »[1] رواه البزار عن أبي هريرة مرفوعاً .

وقوله تعالى : ﴿ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴾ أي لا يحب كفور القلب أثيم القول والفعل ولا بد من مناسبة في ختم هذه الآية بهذه الصفة وهي أن المرابي لا يرضى بما قسم الله له من الحلال ولا يكتفي بما شرع له من الكسب المباح فهو يسعى في أكل أموال الناس بالباطل بأنواع المكاسب الخبيثة فهو جحود لما عليه من النعمة ظلوم آثم بأكل أموال الناس بالباطل . ثم قال تعالى مادحاً للمؤمنين بربهم المطيعين أمره المؤدين شكره المحسنين إلى خلقه في إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة مخبراً عما أعد لهم من الكرامة وأنهم يوم القياة من التبعات آمنون فقال : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴾ .

---

(١) روى ابن أبى شيبة فى مصنفه عن القاسم بن محمد قال : سمعت أبا هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم يقول : إن الله يقبل الصدقة ويأخذها بيمينه فيربيها لصاحبه كما يربى أحدكم فلوه أو فصيله حتى إن اللقمة لتصير مثل أُحد وتصديق ذلك فى كتاب الله عز وجل : ﴿ هُوَ يَقۡبَلُ ٱلتَّوۡبَةَ عَنۡ عِبَادِهِۦ وَيَأۡخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ ﴾ و ﴿ يَمۡحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرۡبِي ٱلصَّدَقَٰتِۗ ﴾ .

﴿ تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿١٨﴾ وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا ﴿١٩﴾ وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴿٢٠﴾ ﴾ [الفجر] .

إذن .. فأكل حقوق الناس وعدم رعاية الله فى المال والاستيلاء على أموال اليتامى والضعفاء يذهب الرزق ويمنعه[1] .

(١) في مختصر تفسير ابن كثير : يقول تعالى منكرا على الإنسان إذا وسع الله تعالى عليه في الرزق ليختبره فيعتقد أن ذلك من الله إكرام له وليس كذلك بل هو ابتلاء وامتحان كما قال تعالى : ﴿ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴾ وكذلك في الجانب الآخر إذا ابتلاه وامتحنه وضيق عليه في الرزق يعتقد أن ذلك من الله إهانة له قال الله تعالى : ﴿ كَلَّا ﴾ أي ليس الأمر كما زعم لا في هذا ولا في هذا فإن الله تعالى يعطي المال من يحب ومن لا يحب ويضيق على من يحب ومن لا يحب وإنما المدار في ذلك على طاعة الله في كل من الحالين إذا كان غنيا بأن يشكر الله على ذلك وإذا كان فقيرا بأن يصبر وقوله تعالى : ﴿ كَلَّا ۖ بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ ﴾ فيه أمر بالإكرام له كما جاء في الحديث : « خير بيت في المسلمين بيت فيه يتيم يحسن إليه وشر بيت في المسلمين بيت فيه يتيم يساء إليه » أخرجه عن عبد الله من المبارك . وقال صلى الله عليه وسلم : « أنا وكافل اليتيم كهاتين في الجنة » وقرن بين أصبعيه الوسطى والتي تلي الابهام[2] أخرجه أبو داود ﴿ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴾ يعني لا يأمرون بالإحسان إلى الفقراء والمساكين ويحث بعضهم على بعض في ذلك ﴿ وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ ﴾ يعني الميراث ﴿ أَكْلًا لَّمًّا ﴾ أي من أي جهة حصل لهم من حلال أو حرام ﴿ وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴾ أي كثيرا فاحشا .
=

(١) رواه أبو داود [٥١٥٠] عن سهل رضى الله تعالى عنه ، وقال الألبانى : صحيح .

....

○○○

= وروى ابن حبان في صحيحه عن ثوبان رضي اللّه تعالي عنه قال : قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم إن الرجل ليحرم الرزق بالذنب يصيبه ولا يرد القدر إلا بالدعاء ولا يزيد في العمر إلا البر[1] .

قال أبو حاتم : قوله صلى اللّه عليه وسلم في هذا الخبر لم يرد به عمومه وذاك أن الذنب لا يحرم الرزق الذي رزق العبد بل يكدر عليه صفاءه إذا فكر في تعقيب الحالة فيه ودوام المرء على الدعاء يطيب له ورود القضاء فكأنه رده لقلة حسه بألمه والبر يطيب العيش حتى كأنه يزاد في عمره بطيب عيشه وقلة تعذر ذلك في الأحوال .

(١) رواه ابن حبان [٨٧٢] وقال الأرناؤوط : حديث حسن .

الشكر لله يحفظ النعمة

السؤال : ما هى عوامل حفظ وزيادة الرزق ؟

الجواب : هناك عوامل جعلها اللَّه سبحانه وتعالى لحفظ الرزق وزيادته وليس معنى ذلك أنه إذا فعلنا ذلك فلابد أن يكثر الرزق ، لا .. فلا شيء يحكم مشيئة اللَّه فى كونه ولكن علينا أن نبتغى الوسيلة وأن نسعى .

أول هذه العوامل هى الرضا بقضاء اللَّه والشكر على القضاء واللَّه سبحانه وتعالى يجازى من رضى بقضائه بأن يزيده من نعمه ورزقه .. واقرأ قول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن ﴾[1] [إبراهيم : ٧] .

---

(١) قال ابن القيم في عدة الصابرين [١/٩٥] : أخبر سبحانه أن أهل الشكر هم المخصوصون بمنته عليهم من بين عباده فقال : ﴿ وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوا أَهَٰؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّن بَيْنِنَا ۗ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ ﴾ وقسم الناس إلى شكور وكفور فأبغض الأشياء اليه الكفر وأهله وأحب الأشياء اليه الشكر وأهله قال تعالى في الانسان : ﴿ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴾ وقال عن نبيه سليمان : ﴿ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ﴾ وقال تعالى : ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۖ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴾ وقال تعالى : ﴿ إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ ۖ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ ۖ وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ ۗ ﴾ وهذا كثير في القرآن يقابل سبحانه بين الشكر والكفر فهو ضده قال تعالى : ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ ۚ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا ۗ وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴾ والشاكرون هم الذين ثبتوا على نعمة =

= الإيمان فلم ينقلبوا على أعقابهم وعلق سبحانه المزيد بالشكر والمزيد منه لا نهاية له كما لا نهاية لشكره . انتهى

وقال الله تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَٰهُمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٦٥﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا۟ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم ۚ مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴾ [المائدة]

قال القرطبي : « لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم » .

قال ابن عباس وغيره : يعني المطر والنبات وهذا يدل على أنهم كانوا في جدب . وقيل : المعنى لوسعنا عليهم في أرزاقهم ولأكلوا أكلا متواصلا وذكر فوق وتحت للمبالغة فيما يفتح عليهم من الدنيا ونظير هذه الآية ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ ﴾ [الطلاق : ٢] ﴿ وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴾ [الجن : ١٦] ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [الأعراف : ٩٦] فجعل تعالى التقى من أسباب الرزق كما في هذه الآيات ووعد بالمزيد لمن شكر فقال : ﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۖ ﴾ [إبراهيم : ٧] .

وقال : كان ابن مسعود يقرأ : « وإذ قال ربكم » والمعنى واحد . ﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۖ ﴾ أي لئن شكرتم إنعامي لأزيدنكم من فضلي الحسن : لئن شكرتم نعمتي لأزيدنكم من طاعتي . ابن عباس : لئن وحدتم وأطعتم لأزيدنكم من الثواب والمعنى متقارب في هذه الأقوال والآية نص في أن الشكر سبب المزيد .

وسئل بعض الصلحاء عن الشكر لله فقال : ألا تتقوى بنعمه على معاصيه .

وحكي عن داود عليه السلام أنه قال : أي رب كيف أشكرك وشكري لك =

....

= نعمة مجددة منك علي . قال : يا داود الآن شكرتني . قلت : فحقيقة الشكر على هذا الاعتراف بالنعمة للمنعم . وألا يصرفها في غير طاعته وأنشد الهادي وهو يأكل : أنالك رزقه لتقوم فيه بطاعته وتشكر بعض حقه فلم تشكر لنعمته ولكن قويت على معاصيه برزقه فغص باللقمة وخنقته العبرة .

وقال جعفر الصادق : إذا سمعت النعمة الشكر فتأهب للمزيد .

وقال السيوطي في الدر المنثور : أخرج ابن أبي حاتم عن الربيع رضي الله عنه في قوله : ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾ قال : أخبرهم موسى عليه السلام عن ربه عز وجل أنهم إن شكروا النعمة زادهم من فضله وأوسع لهم في الرزق وأظهرهم على العالمين . وأخرج عبد الله بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة رضي الله عنه في قوله : ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾ قال : حق على الله أن يعطي من سأله ويزيد من شكره والله منعم يحب الشاكرين فاشكروا لله نعمه. وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن سفيان الثوري رضي الله عنه في قوله ﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ ﴾ قال : لا تذهب أنفسكم إلى الدنيا فإنها أهون على الله من ذلك. ولكن يقول ﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ ﴾ هذه النعمة إنها مني ﴿ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾ من طاعتي .

وأخرج ابن أبي الدنيا والبيهقي في شعب الإيمان عن أبي زهير يحيى بن عطارد ابن مصعب عن أبيه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما أعطي أحد أربعة فمنع أربعة : ما أعطي أحد الشكر فمنع الزيادة لأن الله تعالى يقول : ﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾ وما أعطي أحد الدعاء فمنع الإجابة لإن الله يقول : ﴿ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ ﴾ وما أعطي أحد الاستغفار فمنع المغفرة لإن الله يقول : ﴿ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴾ [نوح : ١٠] وما أعطي أحد التوبة فمنع التقبل لإن الله يقول : ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ =

= عَنۡ عِبَادِهِۦ ﴾ [الشورى : ٢٥] . وأخرج أحمد والبيهقي عن أنس رضي الله عنه قال : « أتى النبي صلى الله عليه وسلم سائل فأمر له بتمرة فلم يأخذها وأتاه آخر فأمر له بتمرة فقبلها وقال : تمرة من رسول الله صلى الله علية وسلم . فقال للجارية : اذهبي إلى أم سلمة فأعطيه الأربعين درهما التي عندها » .

وأخرج البيهقي عن أنس – رضي الله عنه – : « أن سائلا أتى النبي صلى الله عليه وسلم فأعطاه تمرة فقال الرجل سبحان الله !... نبي من الأنبياء يتصدق بتمرة فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : أما علمت أن فيها مثاقيل ذر كثيرة فأتاه آخر فسأله فأعطاه فقال تمرة من نبي لا تفارقني هذه التمرة ما بقيت ولا أزال أرجو بركتها أبدا. فأمر له النبي صلى الله عليه وسلم بمعروف وما لبث الرجل أن استغنى » .

وأخرج أبو نعيم في الحلية من طريق مالك بن أنس عن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين قال – لما قال له سفيان الثوري – رضي الله عنه – : لا أقوم حتى تحدثني – قال جعفر – رضي الله عنه – : أما إني أحدثك وما كثرة الحديث بخير لك يا سفيان إذا أنعم الله عليك بنعمة فأحببت بقاءها ودوامها فأكثر من الحمد والشكر عليها فإن الله تعالى قال في كتابه : ﴿ لَئِن شَكَرۡتُمۡ لَأَزِيدَنَّكُمۡ ﴾ وإذا استبطأت الرزق فأكثر من الاستغفار فإن الله قال في كتابه : ﴿ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارٗا ﴿١٠﴾ يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا ﴿١١﴾ وَيُمۡدِدۡكُم بِأَمۡوَٰلٖ وَبَنِينَ ﴿١٢﴾ ﴾ [نوح] يعني في الدنيا والآخرة ﴿ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ جَنَّٰتٖ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ أَنۡهَٰرٗا ﴾ [نوح : ١٢] يا سفيان إذا أحزنك أمر من سلطان أوغيره فأكثر من لا حول ولا قوة إلا بالله فإنها مفتاح الفرج وكنز من كنوز الجنة .

وأخرج ابن مرويه عن ابن مسعود رضي الله عنه سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « من أعطي الشكر لم يحرم الزيادة لإن الله تعالى يقول :=

= ﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾ ومن أعطي التوبة لم يحرم القبول لإن الله يقول : ﴿ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ ﴾ .

وأخرج البخاري في تاريخه والضياء المقدسي في المختارة عن أنس رضي الله عنه قال قال : رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من ألهم خمسة لم يحرم خمسة من ألهم الدعاء لم يحرم الإجابة لأن الله يقول : ﴿ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ ومن ألهم التوبة لم يحرم القبول لأن الله يقول : ﴿ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ ﴾ ومن ألهم الشكر لم يحرم الزيادة لأن الله تعالى يقول : ﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾ ومن ألهم الاستغفار لم يحرم المغفرة لأن الله تعالى يقول : ﴿ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴾ ومن ألهم النفقة لم يحرم الخلف لأن الله سبحانه وتعالى يقول : ﴿ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ ﴾ [سبأ : ٣٩] .

وذهب أبو جعفر الطبري وأبو العباس المبرد إلى أن الحمد والشكر بمعنى واحد سواء وليس بمرضي . وحكاه أبو عبدالرحمن السلمي في كتاب « الحقائق » له عن جعفر الصادق وابن عطاء . قال ابن عطاء : معناه الشكر لله إذ كان منه الامتنان على تعليمنا إياه حتى حمدناه. واستدل الطبري على أنهما بمعنى بصحة قولك : الحمد لله شكرا .

قال ابن عطية : وهو في الحقيقة دليل على خلاف ما ذهب إليه لأن قولك شكرا إنما خصصت به الحمد لأنه على نعمة من النعم .

وقال بعض العلماء : إن الشكر أعم من الحمد لأنه باللسان وبالجوارح والقلب والحمد إنما يكون باللسان خاصة . وقيل : الحمد أعم لأن فيه معنى الشكر ومعنى المدح وهو أعم من الشكر لأن الحمد يوضع موضع الشكر ولا يوضع الشكر موضع الحمد . =

....

= وروي عن ابن عباس أنه قال : الحمد لله كلمة كل شاكر وإن آدم عليه السلام قال حين عطس : الحمد لله . وقال الله لنوح عليه السلام : ﴿ فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [المؤمنون : ٢٨] وقال إبراهيم عليه السلام : ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ ﴾ [إبراهيم : ٣] . وقال في قصة داود وسليمان : ﴿ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [النمل : ١٥] . وقال لنبيه صلى الله عليه وسلم . ﴿ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا ﴾ [الإسراء : ١١١] . وقال أهل الجنة : ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ ﴾ [فاطر : ٣٤] . ﴿ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [يونس : ١٠] . فهي كلمة كل شاكر .

قال القرطبي : الصحيح أن الحمد ثناء على الممدوح بصفاته من غير سبق إحسان والشكر ثناء على المشكور بما أولى من الإحسان. وعلى هذا الحد قال علماؤنا : الحمد أعم من الشكر لأن الحمد يقع على الثناء وعلى التحميد وعلى الشكر والجزاء مخصوص إنما يكون مكافأة لمن أولاك معروفا فصار الحمد أعم في الآية لأنه يزيد على الشكر . ويذكر الحمد بمعنى الرضا يقال : بلوته فحمدته أي رضيته . ومنه قوله تعالى : ﴿ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴾ [الإسراء : ٧٩]. وقال عليه السلام : « أحمد إليكم غسل الإحليل » أي أرضاه لكم . ويذكر عن جعفر الصادق في قوله ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾ : من حمده بصفاته كما وصف نفسه فقد حمد لأن الحمد حاء وميم ودال فالحاء من الوحدانية والميم من الملك والدال من الديمومية فمن عرفه بالوحدانية والديمومية والملك فقد عرفه وهذا هو حقيقة الحمد لله .

وقال شقيق بن إبراهيم في تفسير ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾ قال : هو على ثلاثة أوجه : أولها إذا أعطاك الله شيئا تعرف من أعطاك . =

....

= والثاني أن ترضى بما أعطاك .

والثالث ما دامت قوته في جسدك ألا تعصيه فهذه شرائط الحمد .

وقال سهل بن عبدالله الشكر: الاجتهاد في بذل الطاعة مع الاجتناب للمعصية في السر والعلانية . وقالت فرقة أخرى : الشكر هو الاعتراف في تقصير الشكر للمنعم ولذلك قال تعالى : ﴿ ٱعْمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ﴾ [سبأ: ١٣] فقال داود : كيف أشكرك يا رب والشكر نعمة منك قال الآن قد عرفتني وشكرتني إذ قد عرفت أن الشكر مني نعمة قال : يا رب فأرني أخفى نعمك علي قال : يا داود تنفس فتنفس داود فقال الله تعالى من يحصي هذه النعمة الليل والنهار . وقال موسى عليه السلام : كيف أشكرك وأصغر نعمة وضعتها بيدي من نعمك لا يجازى بها عملي كله فأوحى الله إليه يا موسى الآن شكرتني . وقال الجنيد : حقيقة الشكر العجز عن الشكر وعنه قال : كنت بين يدي السري السقطي ألعب وأنا ابن سبع سنين وبين يديه جماعة يتكلمون في الشكر فقال لي : يا غلام ما الشكر فقلت : ألا يعصى الله بنعمه قال لي : أخشى أن يكون حظك من الله لسانك قال الجنيد فلا أزال أبكي على هذه الكلمة التي قالها السري لي ، وقال الشبلي الشكر : التواضع والمحافظة على الحسنات ومخالفة الشهوات وبذل الطاعات ومراقبة جبار الأرض والسماوات وقال ذو النون المصري أبو الفيض : الشكر لمن فوقك بالطاعة ولنظيرك بالمكافأة ولمن دونك بالإحسان والإفضال .

وقال ابن جرير الطبري في تأويل قوله سبحانه وتعالى : ﴿ وَٱشْكُرُواْ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ ﴾. يعني تعالى ذكره بذلك : اشكروا لي أيها المؤمنون فيما أنعمت عليكم من الإسلام والهداية للدين الذي شرعته لأنبيائي وأصفيائي ﴿ وَلَا تَكْفُرُونِ ﴾ يقول : ولا تجحدوا إحساني إليكم فأسلبكم نعمتي التي أنعمت=

فالشكر مجلبة للزيادة .. والرضا يجلب الخير ، ولقد أعلمنا الله سبحانه وتعالى في القرآن الكريم كيف أن الكفر بالنعمة يذهب الرزق ، وعدم الرضا يبدل الحال إلى أسوأ وأشد .. ويقص القرآن الكريم قصة سبأ فيقول : ﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴾ [سبأ : ١٥] .

كان ذلك حال أهل سبأ أعطاهم الله رزقًا وفيرًا جنات عن يمين وجنات عن شمال مملوءة بالخيرات ليأكلوا منها حيث شاءوا .. فهل رضوا وشكروا نعمة الله ؟ لا ، إنما قابلوا الرزق بالكفر والجحود وأعرضوا عن نعمة الله وعن شكر المنعم فماذا حدث لهم ؟ يكمل القرآن قصتهم للعظة والاعتبار فيقول : ﴿ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَٰلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ ﴿١٧﴾ ﴾ [سبأ] .

= عليكم ولكن اشكروا لي عليها وأزيدكم فأتمم نعمتي عليكم وأهديكم لما هديت له من رضيت عنه من عبادي فإني وعدت خلقي أن من شكر لي زدته ومن كفرني حرمته وسلبته ما أعطيته . والعرب تقول : نصحت لك وشكرت لك ولا تكاد تقول نصحتك وربما قالت شكرتك ونصحتك .

من ذلك قول الشاعر :

هم جمعوا بؤسى ونعمى عليكم   فهلا شكرت القوم إن لم تقاتل

وقال النابغة في : « نصحتك » :

نصحت بني عوف يتقبلوا رسولي   ولم تنجح لديهم وسائلي

لقد أراد اللّٰه سبحانه وتعالى أن ينبهنا إلى أن الكفر بالنعمة يزيلها ، وأن الكفر بالرزق يذهبه ، وإننا لابد أن نستقبل الرزق بالشكر .. وأن نستقبل كل أحداث الحياة بكلمة : « الحمد للّٰه » .. فالحمد يزيد كل شيء .. واللّٰه محمود دائمًا لأن قضاءه كله خير ولا يأتى منه سبحانه إلا الخير .. ولكن شهوات النفس هى التى تتحكم وتريد أن تجعل نفسها حكمًا على أحداث الكون .. فما تريده وتشتهيه تظن أنه خير ، وما لا تريده تظن أنه شر ، وهى لا تحكم على أساس إصلاح هذا الكون ، ولكنها تحكم على أساس المنفعة الشخصية .. ولو أفسدت كل شيء !!

ويلفتنا اللّٰه سبحانه وتعالى إلى مُذْهِبَات الرزق فى آيات كثيرة فى القرآن الكريم منها قصة أصحاب الجنة الذين كان أبوهم صالحًا وكان يعطى الفقراء والمساكين من ثمار هذه الجنة ، فلما مات الأب قرر أولاده حرمان الفقراء والمساكين من حقهم فأحرق اللّٰه الجنة كما أخبر القرآن الكريم : ﴿ فَانطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ ﴿٢٣﴾ أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ ﴿٢٤﴾ وَغَدَوْا عَلَىٰ حَرْدٍ قَادِرِينَ ﴿٢٥﴾ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ ﴿٢٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٢٧﴾ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴿٢٨﴾ قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَاوَمُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [القلم] .

○○○

زيادة الرزق ونقصانه

السؤال : **هل الرزق يزيد وينقص ؟**

الجواب : يتساءل كثير من الناس عن الرزق .. وهل يزيد وينقص ؟ أو أنه لا تعتريه زيادة أو نقصان ؟ وهل هناك أشياء تحفظ الرزق من الزوال ؟ أو أن الإنسان رزقه محدد بصرف النظر عن سلوكه فى الحياة الدنيا ؟ وهل هناك أعمال تجلب الرزق ، وأعمال أخرى تجعله شحيحًا ؟

إن بعض الناس يتحدث عن أحجار وأحجبة تزيد الرزق فهل ذلك صحيح ؟ وهل إنجاب البنات يوسع الرزق كما يقول كثير من الناس ؟

نقول : إن معنى تحديد الرزق أساسًا هو عدم خضوعه لأسباب البشر ، لأنه خاضع لمشيئة الله سبحانه وتعالى وحده ، وما دام الله يرزق من يشاء بغير حساب فالمشيئة مطلقة . والله سبحانه وتعالى بيده الرزق . يزيده إن شاء . وينقصه إن شاء ويمسكه - أى يمنعه - إن شاء ، وهذا معنى قول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ أَمَّنْ هَٰذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ ۚ بَل لَّجُّوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ ﴾ [الملك : ٢١] .

إن الله تعالى إن أمسك رزقه ، فلن يوجد رزاق غيره سبحانه يمد الناس باحتياجاتهم ، ولسائل أن يسأل إذا كان الله تعالى هو الرزاق وحده فلماذا جاء قوله تعالى : ﴿ وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ ﴾ [النساء : ٥] .

نقول : إن من كرم الله سبحانه وتعالى أنه أطلق على خلقه صفة من صفاته حيث إنهم يرزقون غيرهم .. لقد قدر سعيهم فى سبيل الرزق فنسبه إليهم رغم أن الرزاق هو الله سبحانه وتعالى ولكنه سبحانه جعل عباده وسيلة لمناولة الرزق لغيرهم . فالأب ينفق على أولاده وعلى زوجته ورزقهم مضمون فى رزقه .. والرجل الصالح ينفق على الفقراء والعاجزين عن كسب الرزق .

ويجب أن نفهم أن هناك فرقًا بين الإيجاد من عدم ، وبين توجيه الشىء الموجود فى يدك إلى يد غيرك[1] .

○○○

(١) روى أحمد فى المسند [٥/٢٨٢] وابن ماجه [٩٠-٤٠٢٢] عن ثوبان رضى اللّه تعالى عنه قال ، قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : إن الرجل ليحرم الرزق بالذنب يصيبه ولا يرد القدر إلا الدعاء ولا يزيد فى العمر إلا البر .
وروى الترمذى [٢١٣٩] عن سلمان رضى اللّه تعالى عنه قال ، قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم عن ثوبان قال قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم إن العبد ليحرم الرزق بالذنب يصيبه ولا يرد القدر إلا الدعاء ولا يزيد فى العمر إلا البر ، ولا يرد القضاء إلا الدعاء ، ولا يزيد فى العمر إلا البر .
ورواه الروياني [١/١٦٢] عن ثوبان به ، وزاد فيه : إن فى التوراة لمكتوب : ياابن آدم اتق ربك ، وبر والديك ، وصل رحمك ، أمدد لك فى عمرك ، وأيسر لك يسرك ، وأصرف عنك عسرك .
وفي تفسير ابن كثير عند تأويل قول اللّه تعالى : قوله : ﴿ يَمْحُوا۟ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ ﴾ [الرعد : ٣٩] . اختلف المفسرون فى ذلك : فقال الثوري ، عن ابن عباس : يدبر أمر السنة ، فيمحو اللّه ما يشاء ، إلا الشقاء والسعادة والحياة والموت . وفي رواية « يمحو اللّه ويثبت » قال : كل شيء إلا الموت والحياة ، والشقاء والسعادة ، فإنه قد فرغ منهما ، وهذا قول مجاهد أيضا حيث قال : إلا الحياة والموت والشقاوة والسعادة فإنهما لا يتغيران ، وقال منصور : سألت مجاهدا فقلت : أرأيت دعاء أحدنا ، يقول : اللّهم إن كان اسمي فى السعداء فأثبته فيهم ، وإن كان فى الأشقياء فامحه عنهم ، واجعله فى السعداء ، فقال : حسن ؛ ثم لقيته بعد ذلك بحول أو أكثر فسألته عن ذلك ، فقال : =

= ﴿ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةٖ مُّبَٰرَكَةٍۚ ﴾ الآيتين ، قال : يقضى فى ليلة القدر ما يكون فى السنة من رزق أو معصية ، ثم يقدم ما يشاء ويؤخر ما يشاء ، فأما كتاب السعادة والشقاء فهو ثابت لا يتغير ، وقال الأعمش عن أبي وائل : إنه كان كثيرا يدعو بهذا الدعاء : اللَّهم إن كنت كتبتنا أشقياء فامحه ، واكتبنا سعداء ، وإن كنت كتبتنا سعداء فأثبتنا ، فإنك تمحو ما تشاء وتثبت وعندك أم الكتاب ، أخرجه ابن جرير .

وقال ابن جرير ، عن أبي عثمان النهدي أن عمر بن الخطاب رضي اللّه عنه قال وهو يطوف بالبيت ويبكي : اللَّهم إن كنت كتبت عليَّ شقوة أو ذنبا فامحه ، فإنك تمحو ما تشاء وتثبت وعندك أم الكتاب ، فاجعله سعادة ومغفرة .

ومعنى هذه الأقوال أن الأقدار ينسخ اللّه ما يشاء منها ويثبت منها ما يشاء ، وقد يستأنس لهذا القول بما رواه الإمام أحمد ، عن ثوبان قال ، قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : « إن الرجل ليحرم الرزق بالذنب يصيبه ، ولا يرد القدر إلا الدعاء ، ولا يزيد فى العمر إلا البر » ، رواه أحمد والنسائي وابن ماجه[1] .

وثبت فى الصحيح أن صلة الرحم تزيد فى العمر[2] ، وفي حديث آخر : « إن =

---

(١) رواه أحمد فى المسند [٥/٢٧٧] وابن ماجه [٤٠٢٢] وقال الألبانى حسن دون قوله : « وإن الرجل ... » .

(٢) روى البخارى [٢٠٦٧] ومسلم [٢١/٢٥٥٧] عن أنس بن مالك أن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم قال : « من أحب أن يبسط له فى رزقه وينسأ له فى أثره فليصل رحمه .

= الدعاء والقضاء ليعتلجان بين السماء والأرض »[1] . وقال الكلبي : يمحو الرزق ويزيد فيه ، ويمحو من الأجل ويزيد فيه .
وقال العوفي عن ابن عباس : هو الرجل يعمل بطاعة اللّٰه ، ثم يعود لمعصية اللّٰه فيموت على ضلالة ، فهو الذي يمحو ؛ والذي يثبت الرجل يعمل بمعصية وقد كان سبق له خير حتى يموت وهو فى طاعة اللّٰه وهو الذي يثبت . قال علي ابن أبي طلحة ، عن ابن عباس : ﴿ يَمْحُوا۟ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ ﴾ [الرعد : ٣٩] . يقول : يبدل ما يشاء فينسخه ، ويثبت ما يشاء فلا يبدله ﴿ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَـٰبِ ﴾ [الرعد : ٣٩] ، وجملة ذلك عنده فى أم الكتاب الناسخ وما يبدل وما يثبت كل ذلك فى كتاب ، وقال مجاهد : قالت كفار قريش لما نزلت ﴿ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِىَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ [الرعد : ٣٨] ، ما نرى محمدا يملك شيئاً وقد فرغ من الأمر ، فأنزلت هذه الآية تخويفاً ووعيدا لهم : إنا إن شئنا أحدثنا له من أمرنا ما شئنا ، ونحدث فى كل رمضان ، فيمحو ما يشاء ويثبت ما يشاء من أرزاق الناس ومصائبهم وما يعطيهم وما يقسم لهم . وقال الحسن البصري ﴿ يَمْحُوا۟ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ ﴾ قال : من جاء أجله يذهب ويثبت الذي هو حي يجري إلى أجله ، وقد اختار هذا القول أبو جعفر بن جرير رحمه اللّٰه . =

(١) قال الحافظ ابن حجر فى تلخيص الحبير : قوله يروى فى الخبر الدعاء والبلاء يعتلجان . أى : يتدافعان . البزار والحاكم من حديث عائشة رفعته : لا ينفع حذر من قدر والدعاء ينفع – أحسبه قال ما لم ينزل القدر – وإن الدعاء ليلقى البلاء فيتعالجان إلى يوم القيامة . وفى إسناده زكريا بن منظور وهو متروك ، ورواه البزار من حديث أبى هريرة وفى إسناده إبراهيم بن خثيم بن عراك عن أبيه قال لا يروى عن أبى هريرة إلا بهذا الإسناد .

....

= وفي كشف الخفاء للعجلوني [١٢٩٧] الدعاء يرد البلاء . وقال : رواه الطبراني وأبو الشيخ عن أبي هريرة وابن عباس مرفوعا ، ورواه الديلمي عنه بلفظ : « الدعاء يرد القضاء » فى حديث أوله : « بر الوالدين يزيد فى العمر » ، ورواه الطبراني عن أنس رفعه بلفظ : « أُدعوا ، فإن الدعاء يرد القضاء » ، والطبراني أيضا عن سلمان رفعه « لا يرد القضاء إلا الدعاء ، ولا يزيد فى العمر إلا البر »(١) ، والطبراني أيضا عن ثوبان رفعه بلفظ « لا يرد القدر إلا الدعاء ولا يزيد فى العمر إلا البر »(٢) ، الحاكم عن ثوبان أيضا بلفظ : « الدعاء يرد القضاء ، وإن البر يزيد فى الرزق ، وإن العبد ليحرم الرزق بالذنب يذنبه » ، وفي لفظ : « يصيبه »(٣) ، وروى أحمد والطبراني أيضا عن معاذ بن جبل مرفوعا : « لن ينفع حذر من قدر ، ولكن الدعاء ينفع مما نزل ومما لم ينزل ، فعليكم بالدعاء عباد الله »(٤) ، وروى الطبراني عن عائشة مرفوعا : « لا يغني حذر من قدر ، والدعاء ينفع مما نزل ومما لم ينزل ، وإن الدعاء ليلقى البلاء فيعتلجان إلى =

(١) رواه الطبرانى فى المعجم الكبير [٦١٢٨/٢٥١/٦] والترمذى [٢٢٢٥] وابن ماجه [٤٠٢٢] . وقال الألبانى : حسن .

(٢) رواه الطبرانى فى المعجم الكبير [١٤٤٢/١٠٠/٢] وابن ماجه [٤٠٢٢] والسلسلة الصحيحة للألبانى [١٥٤] وأحمد فى المسند [٢٨٠/٥] . وقال الأرناؤوط : حسن لغيره دون قوله : « وإن العبد ليحرم الرزق » . وهذا إسناد ضعيف .

(٣) رواه الحاكم [٦٠٣٨/٥٤٨/٣] .

(٤) رواه أحمد فى المسند [٢٣٤/٥] وقال الأرناؤوط : إسناده ضعيف لضعف شهر بن حوشب . ورواه الطبرانى فى الكبير [٢٠١/١٠٣/٢٠] وقال الهيثمى فى المجمع [١٤٦/١٠] . وشهر بن حوشب لم يسمع من معاذ ، ورواية إسماعيل بن عياش عن أهل الحجاز ضعيفة .

○○○

= يوم القيامة »[1] ، وللترمذي عن ابن عمر مرفوعا : « إن الدعاء ينفع مما نزل ومما لم ينزل »[2] ، وأخرج أيضا حديث سلمان المار وقال حسن غريب ، وأخرج أحمد حديث ثوبان ، وصححه ابن حبان والحاكم وتقدم له طريق أخرى في : « إن الله لا يعذب بقطع الرزق » ، وأخرج أحمد وابنه حديث معاذ ، وأخرج العسكري حديث عائشة رضى الله تعالى عنها مرفوعا بلفظ : « لا ينفع حذر من قدر ، والدعاء يرد البلاء ، وقرأ : ﴿ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُواْ ﴾ ، قال دعوا ، قالت : وإن كان شيء يرد الرزق ، فإن الصُّبْحَة تمنع الرزق . وأرادت بالصبحة نوم الغداة لمن تعودها .

وذكر النووي في كتاب الأذكار ، كتاب جامع الدّعوات . بابٌ في آدابِ الدعاء ؛ قال : قال الغزالي : فإن قيل : فما فائدة الدعاء مع أن القضاءَ لا مَرَدَّ له ؟ فاعلم أن من جملة القضاء ردّ البلاء بالدعاء ، فالدعاءُ سببٌ لردّ البلاء ووجود الرحمة ، كما أن الترسَ سبب لدفع السلاح ، والماءُ سببٌ لخروج النبات من الأرض ؛ فكما أن الترسَ يدفع السهمَ فيتدافعان ، فكذلك الدعاءُ والبلاء ، وليس من شرط الاعتراف بالقضاء أن لا يحملَ السلاح ، وقد قال الله تعالى : ﴿ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ ﴾ [النساء : ١٠٢] ، فقدَّرَ الله تعالى الأمرَ وقدَّرَ سببَه . وفيه من الفوائد ما ذكرناه ، وهو حضور القلب والافتقار ، وهما نهاية العبادة والمعرفة ، والله أعلم .

---

(١) رواه الطبراني في الأوسط [٢٤٩٨/٦٦/٣] .

(٢) رواه الترمذى [٣٥٤٨] وحسنه الألبانى .

رزق الدنيا ورزق الآخرة

السؤال : **ما الفرق بين رزق الدنيا ورزق الآخرة ؟**

الجواب : إننا إذا تحدثنا عن قضية الرزق فلابد أن نفرق بين رزق الدنيا ورزق الآخرة .. الرزق فى الدنيا للكافر والمؤمن .. أما طيبات الرزق فى الآخرة فهى للمؤمن وحده .

رزق الدنيا بالكد والسعى ، أما رزق الآخرة فهو مباشرة من الرزاق سبحانه ، فساعة يتمنى الإنسان فى الجنة شيئا ما : يجده على الفور أمامه .

ويجب أن نتنبه إلى عدل اللّه فى رزقه بالنسبة لطوائف المجتمع .. ذلك أن كل طائفة من طوائف المجتمع لها وقت تكون فيه على قمة الرزق الظاهر فى المجتمع .

فى فترة من الفترات كان الرزق فى المال فى أيدى خريجى الجامعات .. الذى يحصل على شهادة جامعية يحصل على أعلى دخل فى المجتمع ، حتى تكونت طبقة تسمى طبقة خريجى الجامعات ، بحيث كان السؤال الأول لأى شاب يتقدم للزواج من فتاة . هل عنده شهادة جامعية أو لا ؟ ثم انقلبت المسألة فأصبح الآن الحرفيون وأصحاب المهن هم على قمة الرزق المادى .

وحكمة ذلك أن المجتمع قد اعتبر الشهادة الجامعية هى وسيلة اتساع رزق . وأراد اللّه سبحانه وتعالى أن نعلم أنه لا توجد وسيلة لاتساع الرزق إلا بمشيئته تبارك وتعالى .. فقلب الأمور .. وبدلاً من أن يكون المدخل لاتساع الرزق هو الشهادة الجامعية .. أصبح المدخل لاتساع الرزق هو الحرفة ، وذلك لحكمة يريدها سبحانه وتعالى .

ooo

الحيـاة الدنيـا

السؤال : إذا كان اللّه تعالى قدر وقضى فما قيمة الحياة والعمل فيها ؟

الجواب : بعض الناس يقول إذا كانت هذه هى الحقيقة .. وهذا هو المصير الذى لا فكاك منه فلماذا رحلة الحياة ؟

نقول : ليكن كل منا شهيدًا على نفسه .. حتى لا يأتى يوم القيامة مجادلاً ويقول يا رب لو اختبرتنى لفعلت كذا وكذا . وهذا هو نفس ما يحدث فى امتحانات نهاية العام .. فلو أن الجامعة اعتمدت الناجحين على أساس آراء الأساتذة .. لزعم كل واحد من الطلبة أنه لو امتحن لكان الأول مع مرتبة الشرف ! لقد وضعت الجامعة نظام الامتحانات ليس لأنها تجهل الإجابات التى حددتها فى الأسئلة .. وإنما ليكون الطالب شهيدًا على نفسه . حتى إذا جاء مجادلاً جىء بأوراقه . وإذا جئت أنت مجادلاً يوم القيامة جاءوا بكتابك .

إن الكسب الحرام يجلب غضب اللّه .. وهو مهما زاد عدده : قل نفعه ومحيت بركته . أما الكسب الحلال فإنه مهما قل عدده أشاع فى النفس السكينة ، وكثر نفعه وزادت بركته .. وغمره الرضا ، حتى إن صاحبه ليعجب من نفسه .. كما يعجب الآخرون ..كيف يكفى هذا المال القليل حاجته وحاجة زوجه وأولاده ؟! إنهم لا يعرفون الدروس الخصوصية التى استشرت وعمت الأسر المصرية فى هذا الزمان . إنهم ينجحون بتفوق .. إنهم متحابون مترابطون .. محبوبون .. وما ذلك إلا ببركة الرزق الحلال الذى ينعمون به .. بينما الرزق الحرام لا يجلب لمكتسبه إلا الهموم وسخط اللّه وغضبه .. ثم لا بركة فيه ولا انتفاع !

وكما نعلم : الرزق فى الدنيا هو للمؤمن وللكافر .. لأنه عطاء ربوبية .. ولذلك فإنك تجد الكافر ربما كان له متاع فى الدنيا أكثر من المؤمن .. لأنه يأخذ أجره كله فى الدنيا ولا أجر له فى الآخرة ، وجزاؤه النار والعياذ بالله .. واقرأ قول الحق تبارك وتعالى : ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ ۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ [هود] .

إن الكافر قد يُعْطَى من نعيم الدنيا ويمتَّع بما فيها أكثر من المؤمن ، لأنه يؤتى أجره كله فى الدنيا .. أما فى الآخرة فلا أجر له .. وإذا كان الرزق فى الدنيا للمؤمن وغير المؤمن .. فإن طيبات الرزق فى الآخرة للمؤمنين وحدهم .. واقرأ قوله سبحانه وتعالى : ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾(1) [الأعراف : ٣٢] .

ooo

---

(١) روى الطبرى فى تفسير قوله تعالى : ﴿ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ﴾ [الليل : ١] : عن النزال بن سبرة ، قال : قال النبى صلى الله عليه وسلم : « ما من نفس منفوسة إلا قد كتب الله عليها ما هى لا قيته » وأعرابى عند النبى صلى الله عليه وسلم مرتاد ، فقال الأعرابى : فما جاء بى أضرب من وادى كذا وكذا ، إن كان قد فرغ من الأمر ؟! فنكت النبى صلى الله عليه وسلم فى الأرض ، حتى ظن القوم أنه ود أنه لم يكن تكلم بشىء منه ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم : « كل ميسر لما خلق له ، فمن يرد الله به خيرا يسره لسبيل الخير ، ومن يرد به شرا يسر لسبيل الشر » ، فلقيت عمرو بن مرة ، فعرضت عليه هذا الحديث ، فقال : قال النبى صلى الله عليه وسلم .. وزاد فيه : =

○○○

= ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ۝ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ۝ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ۝ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ ۝ ﴾ [الليل] .

وروى البخارى [٦٥٩٦] ومسلم [٩/٢٦٤٩] واللفظ له عن عمران بن حصين رضى الله تعالى عنه قال : قيل : يا رسول الله ! أعلم أهل الجنة من أهل النار ؟ قال : فقال : « نعم » . قال : قيل : ففيم يعمل العاملون ؟ قال : «كل ميسر لما خلق له » .

وروى مسلم [١٠/٢٦٥٠] عن أبى الأسود الدئلى ، قال : قال لى عمران بن الحصين : أرأيت ما يعمل الناس اليوم ويكدحون فيه ، أشىء قضى عليهم ومضى عليهم من قدر ما سبق ؟ أو فيما يستقبلون به مما أتاهم به نبيهم ، وثبتت الحجة عليهم ؟ فقلت : بل شىء قضى عليهم ، ومضى عليهم . قال : فقال : أفلا يكون ظلما ؟ قال : ففزعت من ذلك فزعا شديدا . وقلت : كل شىء خلق الله وملك يده . ﴿ لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ ﴾ [الأنبياء : ٢٣] فقال لي : يرحمك الله ! إنى لم أرد بما سألتك إلا لأحزر عقلك . إن رجلين من مزينة أتيا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالا : يا رسول الله ! أرأيت ما يعمل الناس اليوم ، ويكدحون فيه ، أشىء قضى عليهم ومضى فيهم من قدر قد سبق ، أو فيما يستقبلون به مما أتاهم به نبيهم ، وثبتت الحجة عليهم ؟ فقلت : « لا . بل شىء قضى عليهم ، ومضى فيهم . وتصديق ذلك فى كتاب الله عز وجل : ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ۝ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ۝ ﴾ [الشمس]

قوله : « ويكدحون فيه » الكدح هو السعى فى العمل . سواء أكان للآخرة أم الدنيا . وقوله : « لأحزر عقلك » أى لأمتحن عقلك وفهمك ومعرفتك .

الحلال والحرام فى الرزق

السؤال : **إذا كان الرزق مقدرًا لماذا نحاسب على الرزق الحرام ؟**

الجواب : قال تعالى : ﴿ وَمَن رَّزَقْنَٰهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا ﴾ [النحل : ٧٥] .

إذن .. فهناك رزق حسن ، ورزق غير حسن ، قد يقول بعض الناس ما دام الرزق مقدرًا .. سواء أكان حلالاً أم حرامًا فلماذا نحاسب على الرزق الحرام ؟

نقول : إن اللّه سبحانه وتعالى قدر رزق الإنسان. فإذا آمن الإنسان بذلك فلن تمتد يده إلى الحرام أبدًا ، لأنه يعرف أنه ما دام هذا رزقه فلابد أنه آتيه ، وما عليه إلا أن يصبر ، وإذا مرت به شدة أو أية ظروف أخرى تستدعى التحمل ، فعليه أن يستمسك بالإيمان ، فإن صبر على الرزق واستمسك بالإيمان أتاه رزقه كله حلالاً .. وإن لم يصبر على الرزق واعتراه الخوف مما قد يمر به من ضيق ، وملأ الفزع قلبه فإنه يمد يده إلى المال الحرام .

امتداد اليد إلى المال الحرام يأتى من الخوف من الفقر وعدم الاطمئنان . الإنسان يريد أن يؤمِّن مستقبله ومستقبل أولاده ، ولا أمان إلا فى يد اللّه .. وإنسان آخر يريد أن يكون له رأسمال ليحميه من الفقر ، وثالث يعتقد أنه عن طريق الحرام يستطيع أن يملك ويحصل على الثراء .. كل هؤلاء جميعًا استطاع الشيطان أن يسيطر عليهم بالخوف وفى ذلك يقول اللّه سبحانه وتعالى : ﴿ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ ﴾ [آل عمران : ١٧٥] .

فكأن من وظيفة الشيطان أن يدخل الرعب إلى قلب الإنسان .. وأسهل طريق يدخل منه إلى القلب هو الرزق .. إنه يأتى ويوسوس إليك .. أطع

رؤساءك واشهد زورًا وإلا قطعوا رزقك .. افعل ما يطلبونه منك من معاص ولا تعرض نفسك وأولادك للفقر .. افعل كذا .. وافعل كذا .. ويظل الشيطان يُخوِّف الإنسان فيوقعه فى معصية بعد معصية ، حتى تصبح المعصية فى نفسه مسألة عادية تحدث كل يوم ، وتصبح النفس أمارة بالسوء لا تحاسب نفسها على المعاصى .

وما دمت قد آمنتُ بالله واحدًا ورازقًا ، فإنه يتعين علىّ أن أثق فى كل ما يخبرنى به ثقة لا يعتريها شك .. حتى لا أعطى الشيطان فرصة يشوش بها علىّ .. فعندما أسمع قول الحق سبحانه يقسم بذاته على صدقه فى ضمان الرزق لعباده بقوله تعالى : ﴿ وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزۡقُكُمۡ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ إِنَّهُۥ لَحَقّٞ مِّثۡلَ مَآ أَنَّكُمۡ تَنطِقُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [الذاريات] .

فيجب أن أشعر بالأمان فى حياتى لأن الرزاق سبحانه هو القائل ، وقوله الحق والصدق ، ويجب أن أنتزع من النفس كل هواجسها فيما يتعلق بالخوف على الرزق .

○○○

الرزق الحرام .. والقضاء والقدر

السؤال :

إذا كان الرزق مقدرًا ومعلومًا ، وكل إنسان لا يأخذ إلا رزقه .. فهل الرزق الحرام يندرج تحت المقدر والمعلوم ؟ وإذا كان الله سبحانه وتعالى قد كتبه علىّ ، فما هو ذنبى حتى أحاسب عليه فى الآخرة ؟

الجواب : إن هذه القضية محتاجة إلى مناقشة مستفيضة حتى نلم بأبعادها فنبدأ أولاً : بمعرفة من أين يأتى الرزق الحرام ؟ أو ما هو الدافع للإنسان ليمد يده لمال حرام ؟

إن الدافع كما قلنا هو الخوف من الفقر .. ويصور الله تعالى هذا الخوف الإنسانى من الفقر عندما أمر المؤمنين أن يمنعوا المشركين من دخول مكة رغم ما يمثلونه لأهلها من انتعاش اقتصادى فى ذلك الوقت ؛ وذلك فى قوله تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُواْ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَـٰذَا ۚ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾[1] [التوبة : ٢٨] .

(١) قال السيوطي فى الدر المنثور : ﴿ فَلَا يَقْرَبُواْ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَـٰذَا ﴾ [التوبة : ٢٨] ، وهو العام الذي حج فيه أبو بكر رضي الله تعالى عنه . نادى علي رضي الله عنه بالأذان ، وذلك لتسع سنين من الهجرة ، وحج رسول الله صلى الله عليه وسلم فى العام المقبل حجة الوداع لم يحج قبلها ولا بعدها منذ هاجر ، فلما نفى الله تعالى المشركين عن المسجد الحرام شق ذلك على المسلمين ، فأنزل الله تعالى : ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ =

= ﴿ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ ﴾ فأغناهم اللّٰه تعالى بهذا الخراج : الجزية الجارية عليهم يأخذونها شهرا شهرا وعاما عاما ، فليس لأحد من المشركين أن يقرب المسجد الحرام بعد عامهم ذلك إلا صاحب الجزية أو عبد رجل من المسلمين .

وأخرج سعيد بن منصور وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي اللّٰه عنهما قال : كان المشركون يجيئون إلى البيت ويجيئون معهم بالطعام يتجرون فيه ، فلما نهوا عن أن يأتوا البيت قال المسلمون : فمن أين لنا الطعام؟ فأنزل اللّٰه ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَ ﴾ قال : فأنزل اللّٰه عليهم المطر وكثر خيرهم حين ذهب المشركون عنهم .

وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن سعيد بن جبير رضي اللّٰه عنه قال : لما نزلت ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا ﴾ شق على أصحاب النبي صلى اللّٰه عليه وسلم وقالوا : من يأتينا بطعامنا وبالمتاع ؟ فنزلت ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَ ﴾ الآية .

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس رضي اللّٰه عنهما قال : لما نفى اللّٰه تعالى المشركين عن المسجد الحرام ألقى الشيطان فى قلوب المؤمنين فقال : من أين تأكلون وقد نفى المشركون وانقطعت عنكم العير؟ قال اللّٰه تعال ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَ ﴾ فأمرهم بقتال أهل الكفر وأغناهم من فضله .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد رضي اللّٰه عنه فى الآية قال : قال المؤمنون : قد كنا نصيب من متاجر المشركين . فوعدهم اللّٰه تعالى أن يغنيهم من فضله عوضا لهم بأن لا يقربوا المسجد الحرام ، فهذه الآية من أول براءة فى القراءة وفي آخرها التأويل . =

إن اللّه سبحانه وتعالى - وهو الخبير بالنفس البشرية لأنه خالقها - قد أعلمنا أن الإنسان يخاف من الفقر إذا تأثرت أسباب الرزق عنده. وقد منع اللّه تبارك وتعالى المشركين من أن يدخلوا إلى مكة أو يقتربوا من المسجد الحرام ، وكان معنى هذا بالنسبة لسكان مكة كسادًا فى الرزق .. لأن هؤلاء المشركين كانوا يأتون كل عام إلى مكة فى موسم الحج ويبتاعون ويشترون وينفقون ويحدثون رواجًا اقتصاديًا يستمر أثره فى العام كله .. فظن أهل مكة من المؤمنين أنه إذا مُنِعَ هؤلاء المشركون امتنعت أسباب الرزق .

ولكن اللّه يطمئن أهل مكة بأن له سبحانه فضلاً كبيرًا .. وأنه سيغنيهم من هذا الفضل إذا توقفت الأسباب . ولكن هل يدخل اليقين إلى قلب كل إنسان وهو يرى أسباب الرزق تبتعد ؟ هل يحس الإنسان بالأمان ؟

الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم ؟ هم الذين يحسون به . أما ضعاف الإيمان فإنهم يريدون شيئًا ماديًا يرتكنون إليه .

○○○

= وأخرج عبد الرزاق والنحاس فى ناسخه عن عطاء رضي اللّه عنه فى قوله : ﴿ فَلَا يَقْرَبُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ ﴾ قال : يريد الحرم كله . وفي لفظ : لا يدخل الحرم كله مشرك .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن عكرمة رضي اللّه عنه فى قوله ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً ﴾ قال : الفاقة .

وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير رضي اللّه عنه فى قوله ﴿ فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ ﴾ قال : أغناهم اللّه تعالى بالجزية الجارية .

رزق الإيجاب .. ورزق السلب

السؤال : **ما هو رزق الإيجاب ورزق السلب ؟**

الجواب : الرزق هنا رزقان .. رزق الإيجاب الذى يزيد الدخل ، ورزق السلب الذى يمنع أن ينفق هذا المال فيما لا طائل منه أو ما ليس فى حاجة إليه بحيث يستنفد كله أو جزء كبير منه .

والإنسان حين ينظر إلى رزق الإيجاب الذى يزيد ما عنده من مال .. لابد أن ينظر أيضًا إلى رزق السلب الذى تسلب منه البركة .. والبركة تجعلك فى كثير من الأحيان تتعجب .. كيف يعيش فلان بمرتبه البسيط ؟ فإذا بحثت وجدت أن اللّه سبحانه وتعالى قد ملأ نفسه ونفس زوجته وأولاده بالقناعة . فالذى رزقه حلالٌ لا تمتد عينه أبدًا إلى تلك الأشياء غالية الثمن التى لا يقدر عليها .. وإذا لفت أحدهم نظره إلى ذلك قال وهو يبعد نظره عنها : هذه الأشياء ليست لنا .. يقولها وهو مؤمن بأن ما يحصل عليه فيه الكفاية وزيادة وتجده يأكل الطعام البسيط وهو سعيد سعادة كبيرة .. وينام الليل لا يؤرقه شىء .. لأن لديه ما يكفى مطالبه الأساسية فى الحياة .

○○○

الـرزق .. وعطاء الربوبية

السؤال : **ما هو نفع الرزق ؟**

الجواب : الرزق هو ما ينتفع به الإنسان أو المرزوق ، وهذا الانتفاع له اتجاهان :

انتفاع « مادى » يستبقى به الإنسان حياته .

وانتفاع « فى القيم » يثرى به الإنسان حياته ، هذا رزق ، وهذا رزق .

ما هو الانتفاع المادى ؟ وما هو الانتفاع فى القيم ؟

الحق سبحانه وتعالى له عطاءان : عطاء ألوهية .. وعطاء ربوبية . وكل منهما يختلف عن الآخر .

عطاء الربوبية .. أن اللَّه سبحانه وتعالى هو رب العالمين .. رب المؤمن ورب الكافر .. رب من يعبده ورب من يكفر به ، ولأنه سبحانه رب كريم ، ولأنه عز وجل هو الذى استدعى خلقه إلى الحياة ، فكان لابد أن يضمن لهم استبقاء الحياة بالرزق ، ولذلك قدر فى الأرض أقواتها ، وهذه الأقوات المقدرة فى الأرض موجودة منذ خلق اللَّه الأرض ، وتتسع لرزق كل حى عليها ولا تنتهى إلى أن تقوم الساعة وتنتهى الحياة على هذه الأرض[1] .

---

(١) قال اللَّه تعالى : ﴿ وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ﴾ [فصلت : ١٠]
قال السدي والحسن : أرزاق أهلها ومصالحهم . وقال قتادة ومجاهد : خلق فيها أنهارها وأشجارها ودوابها فى يوم الثلاثاء والأربعاء . وقال عكرمة والضحاك معنى : ﴿ وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا ﴾ أي أرزاق أهلها وما يصلح لمعايشهم من التجارات والأشجار والمنافع فى كل بلدة ما لم يجعله فى الأخرى ليعيش بعضهم من بعض بالتجارة والأسفار من بلد إلى بلد . =

....

○○○

= قال عكرمة : حتى إنه فى بعض البلاد ليتبايعون الذهب بالملح مثلا بمثل . وقال مجاهد والضحاك : السابري من سابور ، والطيالسة من الري ، والحبر اليمانية من اليمن .

﴿ فِىٓ أَرۡبَعَةِ أَيَّامٖ ﴾ يعني : فى تتمة أربعة أيام . ومثاله قول القائل : خرجت من البصرة إلى بغداد فى عشرة أيام ، وإلى الكوفة فى خمسة عشر يوما ؛ أي فى تتمة خمسة عشر يوما . قال معناه ابن الأنباري وغيره .

﴿ سَوَآءٗ لِّلسَّآئِلِينَ ﴾ قال الحسن : المعنى فى أربعة أيام مستوية تامة . الفراء : فى الكلام تقديم وتأخير ، والمعنى : وقدر فيها أقواتها سواء للمحتاجين . واختاره الطبري . وقرأ الحسن ، البصري ويعقوب الحضرمي « سواء للسائلين » بالجر وعن ابن القعقاع « سواء » بالرفع ؛ فالنصب على المصدر و « سواء » بمعنى استواء أي استوت استواء . وقيل : على الحال والقطع ؛ والجر على النعت لأيام أو لأربعة أي « في أربعة أيام » مستوية تامة . والرفع عن الابتداء والخبر « للسائلين » أو على تقدير هذه « سواء للسائلين » . وقال أهل المعاني : معنى « سواء للسائلين » ولغير السائلين ؛ أي خلق الأرض وما فيها لمن سأل ولمن لم يسأل ، ويعطي من سأل ومن لايسأل .

باب

الطهارة والصلاة

باب

الصلاة في الكعبة

صفة الوضوء

السؤال : كيف أتوضأ الوضوء الصحيح ؟ وما هى أركانه الصحيحة ، وما هى سننه ؟

الجواب : يقول الله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغۡسِلُواْ وُجُوهَكُمۡ وَأَيۡدِيَكُمۡ إِلَى ٱلۡمَرَافِقِ وَٱمۡسَحُواْ بِرُءُوسِكُمۡ وَأَرۡجُلَكُمۡ إِلَى ٱلۡكَعۡبَيۡنِۚ وَإِن كُنتُمۡ جُنُبٗا فَٱطَّهَّرُواْۚ وَإِن كُنتُم مَّرۡضَىٰٓ أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوۡ جَآءَ أَحَدٞ مِّنكُم مِّنَ ٱلۡغَآئِطِ أَوۡ لَٰمَسۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمۡ تَجِدُواْ مَآءٗ فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدٗا طَيِّبٗا فَٱمۡسَحُواْ بِوُجُوهِكُمۡ وَأَيۡدِيكُم مِّنۡهُۚ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجۡعَلَ عَلَيۡكُم مِّنۡ حَرَجٖ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمۡ وَلِيُتِمَّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴾ [المائدة : ٦] .

الله سبحانه يأمرنا بوضوح محدد : إذا أردتم القيام إلى الصلاة فلابد لكم من تنفيذ عملية الوضوء .

وتتعرض الآية إلى الأركان الأساسية فى الوضوء . وقد يلتبس الأمر على بعض الناس ولا يستطيع أن يميز بين سنن الوضوء وأركان الوضوء ؛ لأن السنن تقتضى أن يغسل الإنسان يديه ثم يتمضمض ، ثم يستنشق الماء وهكذا . هذه هى السنن التى تمتزج بالأركان الأساسية للوضوء .

ويبدأ الحق أركان الوضوء الأساسية بقوله : ﴿ فَٱغۡسِلُواْ وُجُوهَكُمۡ ﴾ والغسل يتطلب إسالة الماء على العضو وأن يقطر منه الماء بعد ذلك . والمسح هو اللمس بالماء ليصيب العضو ولا يتقطر منه الماء ؛ إنه مجرد بلولة بالماء . والحق سبحانه وتعالى حينما تكلم فى هذه الآية عن الوضوء ، تكلم عن أشياء تُغسل وعن شىء يُمسح . فالأمر بالغسل يشمل الوجه واليدين إلى المرفقين والرجلين إلى الكعبين . والأمر بالمسح يشمل بعض الرأس . والغسل قد يكفى

مرة أو اثنتين أو ثلاثًا ليتأكد الإنسان تمامًا من الغسل ، ولكن إذا كانت المياه قليلة فيكفى أن يغسل الأجزاء المطلوبة مرة وأن يتأكد أنه قد غسل المساحات المطلوبة .

إن الزيادة على المرة الواحدة إلى ثلاث مرات أمر مسنون لا واجب ، وغسل الوجه معروف تمامًا للجميع ، فالوجه هو ما به المواجهة . والمواجهة تكون من منبت الشعر إلى الذقن ، وتحت منتهى لحييه وهما العظمان اللذان تنبت عليهما الأسنان السفلى ، هذا فى الطول ، وفى العرض يشمل الوجه ما بين شحمتى الأذنين . ولا أحد يختلف فى تحديد الوجه ، ولذلك أطلق الحق الوجه ولم يعينه بغاية ، فلم يقل : اغسل وجهك من كذا إلى كذا ؛ ولكنه أمر بغسل الوجه ، فلا اختلاف فى مدلول الوجه لدى الجميع . والكل متفق عليه .

هذا إذا ما بدأنا بالفروض الأساسية . لكن إذا ما بدأنا بالسنن فنحن نغسل الكفين إلى الرسغين أولاً ثم نتمضمض ونستنشق إلى آخره .

وبعض العارفين بالله يقول عن هذه المقدمات التى هى من السنن : إنها لم تأت هكذا ؛ لأن تعريف الماء هو : السائل الذى لا لون له ولا طعم ولا رائحة ، وإن تغير أى وصف من هذه الأوصاف يكون السائل قد خرج عن المائية . فساعة تأخذ الماء بيديك ستطمئن على لون الماء ، وتعرف أنه لا لون له ، وعندما تتمضمض فأنت تطمئن إلى أنه لا طعم له ؛ وعندما تستنشق فأنت تطمئن على أن الماء لا رائحة له ، وبذلك تطمئن إلى أن الماء الذى تستعمله فى الوضوء يكون قد استوفى الأوصاف قبل أن تبدأ فى عمل المطلوب من أركان الوضوء التى يطلبها الله ، والسنة تقدمت هنا على الأركان لحكمة هى أن توفر للإنسان الثقة فى الماء الذى يتوضأ منه . وبعد ذلك يغسل الإنسان الوجه من منابت شعر الرأس وتحت منتهى لحييه وذلك طولاً وما بين شحمتى الأذنين عرضًا .

وبعد غسل الوجه قال الحق : ﴿ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ ﴾ وميز الحق هنا الأيدى بتحديد المساحة المطلوب غسلها بأنها إلى المرافق ، أى أنه زاد غاية لم توجد فى الوجه ، ولكن جاء الأمر بغسل اليدين إلى المرافق ؛ لأن اليد تطلق فى اللغة ويراد بها الكف ، مثال ذلك فى حكم الحق على السارق والسارقة .

﴿ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا ﴾ [المائدة : ٣٨] .

وتطلق اليد أيضًا ويراد بها الكف والساعد إلى المرفق . وتطلق اليد أيضًا ويراد بها إلى الكتف . فلليد ثلاث إطلاقات . ولو أن الحق قد أمر بغسل اليد ولم يحدد الغسل بـ : ﴿ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ ﴾ لغسل البعض كفيه فقط ، وغسل البعض يديه إلى المرافق ، ولغسل البعض يديه إلى الكتفين ؛ ولأن الحق يريد غسل اليد على وجه واحد محدد ؛ لذلك قال : ﴿ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ ﴾[1] .

---

(١) قال القرطبى ، قوله تعالى : ﴿ فَٱغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ وَٱمْسَحُواْ بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ ﴾ [المائدة : ٦] . ذكر تعالى أربعة أعضاء : الوجه وفرضه الغسل ، واليدين كذلك ، والرأس وفرضه المسح اتفاقا ، واختلف فى الرجلين على ما يأتى ، لم يذكر سواها فدل ذلك على أن ما عداها آداب وسنن . والله تعالى أعلم .

ولابد فى غسل الوجه من نقل الماء إليه ، وإمرار اليد عليه ؛ وهذه حقيقة الغسل عندنا ، وقد بيناه فى « النساء » . وقال غيرنا : إنما عليه إجراء الماء وليس عليه دلك بيده ؛ ولا شك أنه إذا انغمس الرجل فى الماء وغمس وجهه أو يده ولم يدلك يقال : غسل وجهه ويده ، ومعلوم أنه لا يعتبر فى ذلك غير حصول الاسم ، فإذا حصل كفى . والوجه فى اللغة مأخوذ من المواجهة ، وهو عضو مشتمل على أعضاء وله طول وعرض ؛ فحده فى الطول من مبتدأ سطح الجبهة إلى منتهى اللحيين ، ومن الأذن إلى الأذن فى العرض ، وهذا =

= فى الأمرد ، وأما الملتحى فإذا اكتسى الذقن بالشعر فلا يخلو أن يكون خفيفا أو كثيفا ؛ فإن كان الأول بحيث تبين منه البشرة فلابد من إيصال الماء إليها ، وإن كان كثيفا فقد انتقل الفرض إليه كشعر الرأس ؛ ثم ما زاد على الذقن من الشعر واسترسل من اللحية ، فقال سحنون عن ابن القاسم : سمعت مالكا سئل : هل سمعت بعض أهل العلم يقول : إن اللحية من الوجه فليمر عليها الماء ؟ قال : نعم ، وتخليلها فى الوضوء ليس من أمر الناس ، وعاب ذلك على من فعله . وذكر ابن القاسم أيضا عن مالك قال : يحرك المتوضئ ظاهر لحيته من غير أن يدخل يده فيها ؛ قال : وهى مثل أصابع الرجلين . قال ابن عبد الحكم : تخليل اللحية واجب فى الوضوء والغسل . قال أبو عمر : روى عن النبى صلى اللّٰه عليه وسلم أنه خلل لحيته فى الوضوء من وجوه كلها ضعيفة[1] . وذكر ابن خويز منداد : أن الفقهاء اتفقوا على أن تخليل اللحية ليس بواجب فى الوضوء ، إلا شىء روى عن سعيد بن جبير ؛ قوله ما بال الرجل يغسل لحيته قبل أن تنبت فإذا نبتت لم يغسلها [2] ، وما بال الأمرد يغسل ذقنه ولا يغسله ذو اللحية ؟ قال الطحاوى : التيمم واجب فيه مسح البشرة قبل نبات الشعر فى الوجه ثم سقط بعده عند جميعهم . فكذلك الوضوء . =

---

(١) رواه أحمد [٦/٢٣٤] عن عائشة رضى اللّٰه تعالى عنها بلفظ : « كان رسول اللّٰه صلى اللّٰه عليه وسلم إذا توضأ خلل لحيته بالماء » وقال الأرناؤوط : حسن لغيره . وابن ماجه [٤٣١] عن أنس بن مالك رضى اللّٰه تعالى عنه وصححه الألبانى ، وأبو يعلى فى المسند [١٦٠٤/١٨٠/٣] عن حسان بن بلال المزنى ، وقال محققه : إسناده ضعيف تضعف عبد الكريم بن أبى المخارق ، وباقى رجاله ثقات . والطبرانى فى المعجم الكبير [٨٠٧٠/٢٧٨/٨] عن أبى أمامة رضى اللّٰه تعالى عنه .

(٢) رواه ابن أبى شيبة فى مصنفه [١٣٢] .

= قال أبو عمر : من جعل غسل اللحية كلها واجبا جعلها وجها ؛ لأن الوجه مأخوذ من المواجهة ، والله قد أمر بغسل الوجه أمرا مطلقا لم يخص صاحب لحية من أمرد ؛ فوجب غسلها بظاهر القرآن لأنها بدل من البشرة .
قلت - أى القرطبى - : واختار هذا القول ابن العربى وقال : وبه أقول ؛ لما روى أن النبى صلى الله عليه وسلم كان غسل لحيته [1]، خرجه الترمذى وغيره ؛ فعين المحتمل بالفعل .
وحكى ابن المنذر عن إسحاق أن من ترك تخليل لحيته عامدا أعاد . وروى الترمذى عن عثمان بن عفان أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يخلل لحيته[2] ؛ قال : هذا حديث حسن صحيح ؛ قال أبو عمر : ومن لم يوجب غسل ما انسدل من اللحية ذهب إلى أن الأصل المأمور بغسله البشرة ، فوجب غسل ما ظهر فوق البشرة ، وما انسدل من اللحية ليس تحته ما يلزم غسله ، فيكون غسل اللحية بدلا منه . واختلفوا أيضا فى غسل ما وراء العذار إلى الأذن ؛ فروى ابن وهب عن مالك قال : ليس ما خلف الصدغ الذى من وراء شعر اللحية إلى الذقن من الوجه . قال أبو عمر : لا أعلم أحدا من فقهاء الأمصار قال بما رواه ابن وهب عن مالك . وقال أبو حنيفة وأصحابه : البياض بين العذار والأذن من الوجه . وغسله واجب ؛ ونحوه قال الشافعى وأحمد : يغسل البياض استحبابا ؛ قال ابن العربى : والصحيح عندى أنه لا يلزم غسله إلا للأمرد لا للمعذر . قلت : وهو اختيار القاضى عبد الوهاب ؛ وسبب الخلاف هل تقع عليه المواجهة أم لا ؟ والله تعالى أعلم . وبسبب هذا الاحتمال اختلفوا هل يتناول الأمر بغسل الوجه باطن الأنف والفم أم لا ؟ فذهب أحمد بن حنبل وإسحاق وغيرهما إلى وجوب ذلك فى الوضوء =

(١) رواه ابن أبى شيبة فى مصنفه [١٢٨] عن ابن سيرين قال : رأيته يغسل لحيته فقلت له : من السنة غسل اللحية ؟ فقال : لا .
(٢) رواه الترمذى [٣١] وقال الألبانى : صحيح .

= والغسل ، إلا أن أحمد قال : يعيد من ترك الاستنشاق فى وضوئه ولا يعيد من ترك المضمضمة .

وقال عامة الفقهاء : هما سنتان فى الوضوء والغسل ؛ لأن الأمر إنما يتناول الظاهر دون الباطن ، والعرب لا تسمى وجها إلا ما وقعت به المواجهة ، ثم إن اللَّه تعالى لم يذكرهما فى كتابه ، ولا أوجبهما المسلمون ، ولا أتفق الجميع عليه ؛ والفرائض لا تثبت إلا من هذه الوجوه . وأما العينان فالناس كلهم مجمعون على أن داخل العينين لا يلزم غسله ، إلا ما روى عن عبد اللَّه بن عمر أنه كان ينضح الماء فى عينيه [1] ؛ وإنما سقط غسلهما للتأذى بذلك والحرج به ؛ قال ابن العربى : ولذلك كان عبد اللَّه بن عمر لما عمى يغسل عينيه إذ كان لا يتأذى بذلك ؛ وإذا تقرر هذا من حكم الوجه فلابد من غسل جزء من الرأس مع الوجه من غير تحديد ، كما لابد على القول بوجوب عموم الرأس من مسح جزء معه من الوجه لا يتقدر ؛ وهذا ينبنى على أصل من أصول الفقه وهو : « أن ما لا يتم الواجب إلا به واجب مثله » واللَّه أعلم .

قوله تعالى : ﴿ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ ﴾ [المائدة : ٦] واختلف الناس فى دخول المرافق فى التحديد ؛ فقال قوم : نعم ؛ لأن ما بعد ﴿ إِلَى ﴾ إذا كان من نوع ما قبلها دخل فيه ؛ قال سيبويه وغيره ، وقد مضى هذا فى « البقرة » مبينا . وقيل : لا يدخل المرفقان فى الغسل ؛ والروايتان مرويتان عن مالك ؛ الثانية لأشهب ؛ والأولى عليها أكثر العلماء وهو الصحيح ؛ لما رواه الدارقطنى عن جابر أن النبى صلى اللَّه عليه وسلم كان إذا توضأ أدار الماء على مرفقيه [2] .

وقد قال بعضهم : إن ﴿ إِلَى ﴾ بمعنى مع ، كقولهم : الذود إلى الذود إبل ، أى مع الذود ، وهذا لا يحتاج إليه كما بيناه فى « النساء » ؛ ولأن اليد =

---

(١) رواه عبد الرزاق فى مصنفه [٩٩١] وابن أبى شيبه فى مصنفه [١٠٦٩] والبيهقى فى السنن الكبرى [٨٠٧] .

(٢) رواه الدارقطنى فى سننه [١٥] والبيهقى فى السنن الكبرى [٢٥٩] .

= عند العرب تقع على أطراف الأصابع إلى الكتف ، وكذلك الرجل تقع على الأصابع إلى أصل الفخذ ؛ فالمرفق داخل تحت اسم اليد ، فلو كان المعنى مع المرافق لم يفد ، فلما قال : ﴿ إِلَى ﴾ اقتطع من حد المرافق عن الغسل ، وبقيت المرافق مغسولة إلى الظفر ، وهذا كلام صحيح يجرى على الأصول لغة ومعنى ؛ قال ابن العربى : وما فهم أحد مقطع المسألة إلا القاضى أبو محمد فإنه قال : إن قوله : ﴿ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ ﴾ حد للمتروك من اليدين لا للمغسول فيه ؛ ولذلك تدخل المرافق فى الغسل .

قلت : وما كانت اليد والرجل تنطلق فى اللغة على ماذكرنا كان أبو هريرة يبلغ بالوضوء إبطه وساقه ويقول : سمعت خليلى صلى الله عليه وسلم يقول : « تبلغ الحلية من المؤمن حيث يبلغ الوضوء »(١) .

قال القاضى عياض : والناس مجمعون على خلاف هذا ، وألا يتعدى بالوضوء حدوده ؛ لقوله عليه السلام : « فمن زاد فقد تعدى وظلم »(٢) .

وقال غيره : كان هذا الفعل مذهبا له ومما انفرد به ، ولم يحكه عن النبى صلى الله عليه وسلم وإنما استنبطه من قوله عليه السلام « أنتم الغر المحجلون »(٣) . ومن قوله : « تبلغ الحلية » كما ذكر . =

(١) رواه مسلم [٢٥٠/٤٠] وأحمد [٣٧١/٢] والسنن الكبرى [١٤٢] والبيهقى فى السنن [٢٦٠] .

(٢) رواه الطبرانى فى المعجم الكبير [١١٠٩١/٦٢/١١] عن ابن عباس رضى الله تعالى عنه ، وابن أبى شيبة فى مصنفه [٥٨] عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده رضى الله تعالى عنهم ، وقال فى مجمع الزوائد [٢٣١/١] وفيه سويد بن عبد العزيز ضعفه أحمد ويحيى وجماعة ووثقه دحيم .

(٣) رواه مسلم [٣٤/٢٤٦] عن نعيم بن عبد الله المُجمر رضى الله تعالى عنه ، والبيهقى فى السنن الكبرى [٣٦٨] ، وأبو يعلى [٢١٦٢/١١٨/٤] عن جابر رضى الله تعالى عنه .

= قوله تعالى : ﴿ وَأَرْجُلَكُمْ ﴾ قرأ نافع وابن عامر والكسائى و « أرجلكم » بالنصب ؛ وروى الوليد بن مسلم عن نافع أنه قرأ : « وأرجلكم » بالرفع وهى قراءة الحسن والأعمش سليمان ؛ وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وحمزة و « أرجلكم » بالخفض وبحسب هذه القراءات اختلف الصحابة والتابعون ؛ فمن قرأ بالنصب جعل العام « اغسلوا » وبنى على أن الفرض فى الرجلين الغسل دون المسح ، وهذا مذهب الجمهور والكافة من العلماء ، وهو الثابت من فعل النبى ، واللازم من قول فى غير ما حديث ، وقد رأى قوما يتوضأون وأعقابهم تلوح فنادى بأعلى صوته : « ويل للأعقاب من النار أسبغوا الوضوء »(١) . ثم إن اللَّه حدهما فقال : ﴿ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ ﴾ كما قال فى اليدين : ﴿ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ ﴾ فدل على وجوب غسلهما ؛ واللَّه أعلم . ومن قرأ بالخفض جعل العامل الباء ، قال ابن العربى : اتفقت العلماء على وجوب غسلهما ، وما علمت من رد ذلك سوى الطبرى من فقهاء المسلمين ، والرافضة من غيرهم ، وتعلق الطبرى بقراءة الخفض .

قلت : قد روى عن ابن عباس أنه قال : الوضوء غسلتان ومسحتان . وروى أن الحجاج خطب بالأهواز فذكر الوضوء فقال : اغسلوا وجوهكم وأيديكم وامسحوا برؤوسكم وأرجلكم ، فإنه ليس شىء من ابن آدم أقرب من خبثه من قدميه ، فاغسلوا بطونهما وظهورهما وعراقيبهما . فسمع ذلك أنس بن مالك فقال : صدق اللَّه وكذب الحجاج ؛ قال اللَّه تعالى : ﴿ وَٱمْسَحُواْ بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ ﴾ قال : وكان إذا مسح رجليه بلهما ، وروى عن أنس أيضا أنه قال : نزل القرآن بالمسح والسنة بالغسل »(٢) وكان عكرمة يمسح رجليه =

(١) رواه البخارى [١٦٣] عن أبى هريرة رضى اللَّه تعالى عنه ، ومسلم [٢٦/٢٤١] وأبو داود [٩٧] عن عبداللَّه بن عمرو وابن ماجه عن عبد اللَّه بن عمر ، وأحمد [٤٩٨/٢] .

(٢) شرح معانى الآثار [٢٠٤] عن الشعبى .

= وقال : ليس فى الرجلين غسل إنما نزل فيه المسح . وقال عامر الشعبى : نزل جبريل بالمسح ؛ ألا ترى أن التيمم يمسح فيه ما كان غسلا ، ويلغى ما كان مسحا . وقال قتادة : افترض الله غسلتين ومسح . وذهب ابن جرير الطبرى إلى أن فرضهما التخيير بين الغسل والمسح ، وجعل القراءتين كالروايتين ؛ قال النحاس : ومن أحسن ما قيل فيه ؛ أن المسح والغسل واجبان جميعا ، فالمسح واجب على قراءة من قرأ بالخفض ، والغسل واجب على قراءة من قرأ بالنصب ، والقراءتان بمنزلة آيتين . قال ابن عطية : وذهب قوم ممن يقرأ بالكسر إلى أن المسح فى الرجلين هو الغسل . قلت : وهو الصحيح ؛ فإن لفظ المسح مشترك ، يطلق بمعنى المسح ويطلق بمعنى الغسل ؛ قال الهروى : أخبرنا الأزهرى أخبرنا أبو بكر محمد بن عثمان بن سعيد الدارمى عن أبى حاتم عن أبى زيد الأنصارى قال : المسح فى كلام العرب يكون غسلا ويكون مسحا ، ومنه يقال للرجل إذا توضأ فغسل أعضاءه : قد تمسح ؛ ويقال : مسح الله ما بك إذا غسلك وطهرك من الذنوب ، فإذا ثبت بالنقل عن العرب أن المسح يكون بمعنى الغسل فترجح قول من قال : إن المراد بقراءة الخفض الغسل ؛ بقراءة النصب التى لا احتمال فيها ، وبكثرة الأحاديث الثابتة بالغسل ، والتوعد على ترك غسلها فى أخبار صحاح لا تحصى كثرة أخرجها الأئمة ؛ ثم إن المسح فى الرأس إنما دخل بين ما يغسل لبيان الترتيب على أنه مفعول قبل الرجلين ، التقدير فاغسلوا وجوهكم وأيديكم إلى المرافق وأرجلكم إلى الكعبين وامسحوا برؤوسكم ؛ فلما كان الرأس مفعولا قبل الرجلين قدم عليهما فى التلاوة - والله أعلم - لا أنهما مشتركان مع الرأس لتقدمه عليهما فى صفة التطهير . وقد روى عاصم بن كليب عن أبى عبد الرحمن السلمى قال : قرأ الحسن والحسين - رحمة الله تعالى عليهما - ﴿ وَأَرْجُلَكُمْ ﴾ فسمع على ذلك وكان يقضى بين الناس فقال : « وأرجلكم » هذا من المقدم والمؤخر من الكلام =

= وروى أبو إسحاق عن الحارث عن على رضى اللّٰه تعالى عنه قال : اغسلوا الأقدام إلى الكعبين . وكذا روى عن ابن مسعود وابن عباس أنهما قرآ « وأرجلكم » بالنصب . وقد قيل : إن الخفض فى الرجلين إنما جاء مقيدا لمسحهما لكن إذا كان عليهما خفان ، وتلقينا هذا القيد من رسول اللّٰه صلى اللّٰه عليه وسلم ، إذ لم يصح عنه أنه مسح رجليه إلا وعليهما خفان ، فبين صلى اللّٰه عليه وسلم بفعله الحال التى غسل فيه الرجل والحال التى تمسح فيه ، وهذا حسن . فإن قيل : إن المسح على الخفين منسوخ بسورة « المائدة » - وقد قال ابن عباس : ورد المسح أبو هريرة وعائشة ، وأنكره مالك في رواية عنه - فالجواب أن من نفى شيئا وأثبته غيره فلا حجة للنافى ، وقد أثبت المسح على الخفين عدد كثير من الصحابة وغيرهم ، وقد قال الحسن : حدثنى سبعون رجلا من أصحاب النبى صلى اللّٰه عليه وسلم أنهم مسحوا على الخفين ؛ وقد ثبت بالنقل الصحيح عن همام قال : بال جرير ثم توضأ ومسح على خفيه ؛ قال إبراهيم النخعى : وإن رسول اللّٰه صلى اللّٰه عليه وسلم بال ثم توضأ ومسح على خفيه . وقال إبراهيم النخعى : كان يعجبهم هذا الحديث ؛ لأن إسلام جرير كان بعد نزول « المائدة » وهذا نص يرد ما ذكروه وما احتجوا به من رواية الواقدى عن عبد الحميد بن جعفر عن أبيه أن جريرا أسلم فى ستة عشر من شهر رمضان ، وأن « المائدة » نزلت فى ذى الحجة يوم عرفات ، وهذا حديث لا يثبت لوهاه ؛ وإنما نزل منها يوم عرفة « اليوم أكملت لكم دينكم » على ما تقدم ؛ قال أحمد بن حنبل : أنا استحسن حديث جرير فى المسح على الخفين ؛ لأن إسلامه كان بعد نزول « المائدة » ، وأما ما روى عن هريرة وعائشة رضي اللّٰه عنهما فلا يصح ، أما عائشة فلم يكن عندها بذلك علم ؛ ولذلك ردت السائل إلى علي رضي اللّٰه تعالى عنه وأحالته عليه فقالت : سله =

= فإنه كان يسافر مع رسول اللّٰه صلى اللّٰه عليه وسلم [1] ؛ الحديث . وأما مالك فما روي عنه من الإنكار فهو منكر لا يصح ، والصحيح ما قاله عند موته لابن نافع قال : إني كنت آخذ في خاصة نفسي بالطهور ولا أرى من مسح مقصرا فيما يجب عليه . وعلى هذا حمل أحمد بن حنبل ما رواه ابن وهب عنه أنه قال : لا أمسح في حضر ولا سفر . قال أحمد : كما روي عن ابن عمر أنه أمرهم أن يمسحوا خفافهم وخلع هو وتوضأ وقال : حبب إلي الوضوء ؛ ونحوه عن أبي أيوب . وقال أحمد رضي اللّٰه عنه : فمن ترك ذلك على نحو ما تركه ابن عمر وأبو أيوب ومالك لم أنكره عليه ، وصلينا خلفه
ولم نعبه ، إلا أن يترك ذلك ولا يراه كما صنع أهل البدع ، فلا صلى خلفه . واللّٰه أعلم . وقد قيل : إن قوله : ﴿ وَأَرْجُلَكُمْ ﴾ معطوف على اللفظ دون المعنى ، وهذا أيضا يدل على الغسل فإن المراعى المعنى لا اللفظ ، وإنما خفض للجوار كما تفعل العرب ؛ وقد جاء هذا في القرآن وغيره قال اللّٰه تعالى : ﴿ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ ﴾ [الرحمن : ٣٥] بالجر لأن النحاس الدخان . وقال : ﴿ بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ۝ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ ۝ ﴾ [البروج] بالجر .
قال أبو حاتم : كان الوجه القطر بالرفع ولكنه جره على جوار المور ؛ كما قالت العرب : هذا جحر ضب خرب ؛ فجروه وإنما هو رفع . وهذا مذهب الأخفش وأبي عبيدة ورده النحاس وقال : هذا القول غلط عظيم ؛ لأن =

(١) رواه مسلم [٨٥/٢٧٦] عن شريح بن هانئ قال : أتيت عائشة أسألها عن المسح على الخفين فقالت : عليك بابن أبي طالب فسله فإنه كان يسافر مع رسول اللّٰه صلى اللّٰه عليه وسلم فسألناه فقال : جعل رسول اللّٰه صلى اللّٰه عليه وسلم ثلاثة أيام ولياليهن للمسافر ويوما وليلة للمقيم » ، وأحمد في المسند [١/٩٦،١٢٠،١٤٦] .

= الجوار لا يكون في الكلام أن يقاس عليه ، وإنما هو غلط ونظيره الإقواء .
قلت : والقاطع في الباب من أن فرض الرجلين الغسل ما قدمناه ، وما ثبت من قوله عليه الصلاة والسلام : « ويل للأعقاب وبطون الأقدام من النار »[1] فخوفنا بذكر النار عل مخالفة مراد الله عز وجل ، ومعلوم أن النار لا يعذب بها إلا من ترك الواجب ، ومعلوم أن المسح ليس شأنه الاستيعاب ولا خلاف بين القائلين بالمسح على الرجلين أن ذلك على ظهورهما لا على بطونهما ، فتبين بهذا الحديث بطلان قول من قال بالمسح ، إذ لا مدخل لمسح : بطونهما عندهم ، وإنما ذلك درك بالغسل لا بالمسح . ودليل آخر من وجهة الإجماع ؛ وذلك أنهم اتفقوا على أن من غسل قدميه فقد أدى الواجب عليه ، واختلفوا فيمن مسح قدميه ؛ فاليقين ما أجمعوا عليه دون ما اختلفوا فيه . ونقل الجمهور كافة عن كافة عن نبيهم صلى الله عليه وسلم أنه كان يغسل رجليه في وضوئه مرة واثنتين وثلاثا حتى ينقيهما ؛ وحسبك بهذا حجة في الغسل مع ما بيناه ، فقد وضح وظهر أن قراءة الخفض المعني فيها الغسل لا المسح كما ذكرنا ، وأن العامل في قوله : « وأرجلكم » قوله : « فاغسلوا » والعرب قد تعطف الشيء على الشيء بفعل ينفرد به أحدهما تقول : أكلت الخبز واللبن أي وشربت اللبن .
وقال ابن جرير الطبرى : اختلف أهل التأويل في المرافق ، هل هي من اليد الواجب غسلها أم لا ؟ بعد إجماع جميعهم على أن غسل اليد إليها واجب .
فقال مالك بن أنس وسئل عن قول الله : ﴿ فَٱغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ ﴾ [المائدة : ٦] . أترى أن يخلف المرفقين في الوضوء ؟ قال : الذي أمر به أن يبلغ « المرفقين » ، قال تبارك وتعالى : ﴿ فَٱغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ ﴾ فذهب هذا يغسل خلفه ! فقيل له : فإنما يغسل إلى المرفقين والكعبين =

(١) سبق تخريجه .

لا يجاوزهما ؟ فقال : لا أدري ما لا يجاوزهما ؛ أما الذي أمر به أن يبلغ به فهذا :
إلى المرفقين والكعبين . حدثنا يونس ، عن أشهب عنه . وقال الشافعي : لم أعلم مخالفا في أن المرافق فيما يغسل كانه يذهب إلى أن معناها : ﴿ فَٱغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ﴾ أن تغسل ﴿ ٱلْمَرَافِقِ ﴾ .
وقال آخرون : إنما أوجب الله بقوله : ﴿ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ ﴾ غسل اليدين إلى المرافق ، فالمرفقان غاية لما أوجب الله غسله من آخر اليد ، والغاية غير داخلة في الحد ، كما غير داخل الليل فيما أوجب الله تعالى على عباده من الصوم بقوله : ﴿ ثُمَّ أَتِمُّواْ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِ ﴾ [البقرة : ١٨٧] . لأن الليل غاية لصوم الصائم ، إذا بلغه فقد قضى ما عليه . قالوا : فكذلك المرافق في قوله : ﴿ فَٱغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ ﴾ غاية لما أوجب الله غسله من اليد .
والصواب من القول في ذلك عندنا : أن غسل اليدين إلى المرفقين من الفرض الذي إن تركه أو شيئا منه تارك لم تجزه الصلاة مع تركه غسله . فأما المرفقان وما وراءهما ، فإن غسل ذلك من الندب الذي ندب إليه صلى الله عليه وسلم أمته بقوله : « أمتي الغر المحجلون من آثار الوضوء ، فمن استطاع منكم أن يطيل غرته فليفعل »[1] فلا تفسد صلاة تارك غسلهما وغسل ما وراءهما ، لما قد بينا قبل فيما مضى من أن لك غاية حدت بـ «إلىٰ» فقد تحتمل في كلام العرب دخول الغاية في الحد وخروجها منه . وإذا احتمل الكلام ذلك لم يجز لأحد القضاء بأنها داخلة فيه ، إلا لمن لا يجوز خلافه فيما بين وحكم ، =

(١) رواه أحمد فى المسند [٢/٣٣٤] عن أبى هريرة بلفظ : « إن أمتى يوم القيامة هم الغر المحجلون من آثار الوضوء فمن استطاع منكم أن يطيل غرته فليفعل » وقال الأرناؤوط : حديث صحيح .

= ولا حكم بأن المرافق داخلة فيما يجب غسله عندنا ممن يجب التسليم بحكمه .

وفى الفقه على المذاهب الأربعة للجزيرى : فى كتاب الطهارة ، مباحث الوضوء ، فرائض الوضوء :

الفرض : معناه في اللغة القطع . والحز ، تقول فرضت الحبل : إذا قطعته ، وفرضت الخشبة إذا حززتها ، ولم تكمل قطعها ، وأما معناه في الشرع فهو ما أثيب فاعله ، وعوقب تاركه ، ثم إن الفقهاء قد اصطلحوا على الفرض مساو للركن ، فركن الشيء وفرضه شيء واحد ، وفرقوا بينهما وبين الشرط ، بأن الفرض أو الركن ما كان من حقيقة الشيء ، والشرط ما توقف عليه وجود الشيء ، ولم يكن من حقيقته ، مثلاً الصلاة من فرائضها التكبيرة ، والركوع ، والسجود ، الخ ، ومن شروط صحتها دخول الوقت ، فإذا صلى قبل الوقت فإنه يكون قد أتى بحقيقة الصلاة ، ولكنها تكون باطلة في نظر الشريعة ، لأنه شرط لها دخول الوقت ، كما ستعرفه في « مباحث الصلاة » .

وبعد : فإن فرائض الوضوء قد اختلف في عدها أئمة المذاهب الأربعة ، ولكن الثابت بكتاب اللّه تعالى أربعة : أحدها : غسل الوجه ؛ ثانيها : غسل اليدين إلى المرفقين : ثالثها : مسح الرأس كلاً ، أو بعضاً ، رابعها : غسل الرجلين إلى الكعبين ، قال تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ وَٱمْسَحُواْ بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ ﴾ وهذا القدر متفق عليه بين الأئمة الأربعة ، ولم يختلفوا إلا في كيفية مسح الرأس ، فمنهم من قال تمسح كلها ، ومنهم من قال يمسح بعضها ؛ كما ستعرفه ؛ وقد زاد بعض الأئمة فرائض على هذه الأربعة دون بعض ؛ فلنذكر لك فرائض الوضوء مجتمعة في كل مذهب على حدة ، كي لا تتفرق المسائل ؛ فيتعذر تحصيلها ؛ ثم ننبه على القدر المتفق عليه ؛ كما هو موضح ، تحت =

= الجدول الذي أمامك « الحنفية قالوا : إن فرائض الوضوء مقصورة على هذه الأربعة ، بحيث لو فعلها المكلف بدون زيادة عليها ، فإنه يكون متوضئا ، تصح منه الصلاة وغيرها مما يتوقف على الوضوء ؛ كمس مصحف وستعلم حكم تارك السنة في « مبحث سنن الوضوء » .

وإليك بيان فرائض الوضوء الأربعة عن الحنفية ، الأول : غسل الوجه ويتعلق به أمور : أحدها : بيان حده طولاً وعرضاً ، ثانيها : بيان ما يجب غسله مما ينبت عليه من شعر الذقن والشارب والحاجبين ؛ ثالثها : بيان ما يجب غسله من العينين ظاهرا وباطنا ؛ وما لا يجب ؛ رابعها بيان ما يجب غسله من طاقة الأنف ؛ فأما حد الوجه طولاً ، لمن لا لحية له فهو يبتدئ من منابت سعر الرأس المعتاد ؛ إلى منتهى الذقن ؛ ومنابت الشعر المعتاد من فوق الجبهة ويسميها العامة - القورة - فالرجل العادي يبتدئ وجهه من أول الشعر النابت في نهاية جبهته ؛ وأما غير العادي فلا يخلو حاله ، إما أن يكون أصلع ؛ أو يكون أفرع - بالفاء ، لا بالقاف - فالأصلع هو الذي ذهب شعر رأسه من أمام ، حتى كأنه خلق بدون شعر ، وحكم هذا أنه لا يجب عليه أن يغسل كل ما ليس عليه شعر من الصلع ؛ وإنما يغسل القدر الذي ينبت عنده شعر الرأس غالباً ، وهو ما فوق الجبهة بيسير ، وأما الأفرع وهو الذي طال شعره ؛ حتى نزل على جبهته ؛ وربما وصل عند بعض الناس إلى قرب حاجبيه ؛ ويعبر عنه بعضهم - بالأعم - فإن حكمه في ذلك كالأصلع ، بمعنى أنه يجب عليه غسل ما فوق الجبهة بيسير ؛ لأن غالب الناس ينبت شعر رأسهم في هذا المكان ، والمعول عليه في مثل هذا اتباع الغالب ، فمن شذ عن غالب الناس في الخلقة ، فإنه لا يكلف بغير تكليفهم أما حد الوجه عرضاً ، فإنه يبتدئ من أصل الأذن إلى أصل الأذن الأخرى ، ويعبر عنه بعضهم بوتد الأذن ، فالبياض الموجود بين الذقن وبين الأذن داخل في الوجه طبعاً ، فيجب غسله عندهم ، فهذا حد =

= الوجه عند الحنفية طولاً وعرضاً .أما الشعر الثابت في الوجه ، فأهمه شعر اللحية ، وشعر الشارب ، فأما حكم شعر اللحية ، فإنه يجب أن يغسل منها ما كان على جلد الوجه من أعلاه إلى نهاية جلد الذقن ، وتسمى – البشرة – وما طال عن ذلك ، فإنه لا يجب غسله ، فالناس الذين يطيلون لحاهم لا يجب عليهم إلا غسل الشعر الذي على جلد الوجه ، والشعر الذي على ظاهر جلد الذقن ، أما ما عدا ذلك فإنه لا يجب غسله ، ثم إن كان الشعر خفيفا يمكن أن ينفذ الماء منه إلى ظاهر جلد الوجه ، فبعضهم قال : إن كان كثيفاً غزيرا – لا يصل الماء إلى ما تحته من الجلد ، فإن الوضوء يبطل ، وبعضهم قال : لا يبطل الوضوء بذلك ، بل يكتفي بغسل ظاهره كاللحية ، وهذا هو الذي عليه الفتوى في الوضوء ، أما في الغسل ، فإنه لا يغتفر ذلك ، بل يبطل الغسل إذا كان الشارب كثيفاً ، ولعل علة ذلك ، أن الشارع قد نهى عن إطالته ، لما يحمل من أقذار الطعام ونحوها ، فشدد في غسله ، كي لا يطيله الناس بدون أية فائدة .

هذا ، وبقي من الشعر الذي ينبت على الحاجبين ، وحكمه أنه إن كان خفيفا يمكن أن ينفذ منه الماء إلى ظاهر الجلد ، فإنه يجب تحريكه ، كي ينفذ الماء إلى ما تحته ، وإن كان غزيرا ، فإنه لا يجب تخليله .

وأما الأنف ، فإنه يجب عليه غسل ظاهرها كلها ، لأنها من الوجه . فإذا ترك جزءا منها ، ولو صغيرا ، فسد وضوؤه ، ومن الأنف القطعة الحاجزة بين طاقتيها من أسفلها ، أما غسل باطن الأنف ، فإنه ليس بفرض عند الحنفية ، نعم إذا كان بالوجه جرح أحدث أثراً غائراً ، فإنه يجب إيصال الماء إليه كما يجب إيصال الماء إلى ما بين تكاميش الوجه ، ويعبر عنها العامة – بالكراميش – فيقولون : إن وجه فلان كرمش . هذا ، وإذا توضأ ثم حلق شعر لحيته ، أو شعر رأسه ، فإن وضوءه لا يبطل ذلك . =

= الثاني : من فرائض الوضوء غسل اليدين مع المرفقين ، والمرفق عظم المفصل البارز في نهاية الذراع ، ويتعلق بهذا الفرض مباحث : أحدها : إذا كان للإنسان إصبع زائدة فإنه يجب غسله أما إذا كان له يد زائدة ، فإن كانت محاذية ليده الأصلية ، فإنه يجب عليه غسلها ، وإن كانت طويلة عنها ، فإنه يجب عليه أن يغسل منها المحاذي لليد الأصلية ، وأما الزائد عنها فلا يجب عليه غسله ، ولكنه يندب أن يغسله ، ثانيها : إذا لصق بيده ، أو بأصل ظفره طين أو عجين ، فإنه يجب عليه إزالته ، وإيصال الماء إلى أصل الظفر ، وإلا بطل وضوءه ، وأصل الظفر هو القدر الملصق بلحم الإصبع ، فإن طال الظفر نفسه حتى خرج عن رأس الإصبع فإنه يجب غسله ، وإلا بطل الوضوء ، أما ما تحت الظفر من درن ووسخ ، فإن المفتي به أنه لا يضر ، سواء كان المتوضئ قاطنا بمدينة أو قرية ؛ دفعاً للمشقة والحرج ، ولكن بعض محققي الحنفية يرى ضرورة غسل الأوساخ اللاصقة بباطن الظفر من الأذى ، على أنهم اغتفروا للخباز الذي تطول أظفاره ، فيبقى تحتها شيء من العجين لضرورة المهنة ، ولا يضر أثر الحناء ، وأثر الصباغة ؛ وأما نفس جرم الحناء المتجسد على اليد ، فإنه يضر ، لأنه يمنع من وصول الماء إلى البشرة ، ومن قطع بعض يده ، وجب عليه أن يغسل ما بقي ، وإذا قطع محل الفرض كله ، سقط الغسل ، الثالث : غسل الرجلين مع الكعبين ، وهما العظمان البارزان في أسفل الساق ، فوق القدم ، ويجب عليه أن يتعهد عقبيه بالغسل بالماء ، كما يجب عليه أن يتعهد الشقوق التي تكون في باطن القدم ، فإذا قطع قدمه كله أو بعضه ، كان حكمه حكم قطع الذراع المتقدم ، وإذا دهن رجليه ، أو ذراعيه ، ثم توضأ فتقطع الماء ، ولم يقبله العضو بسبب الدسومة ، فإنه لا يضر ، وإذا كان برجله شق ، فوضع فيه مرهماً ، أو نحوه ، فإن كان يضره إيصال الماء إلى ما تحت =

= المرهم ، فإنه لا يجب عليه غسله ، وإلا وجب عليه أن ينزعه ، ويغسل ما تحته ، وإذا كان برجله شقوق - تقشف - ونحوه ، بحيث يضرها الغسل ، أو وضعها في الماء وإخراجها سريعاً بدون ذلك ، فإنه يسقط عنه فرض غسلها ، وعليه أن يمسحها بالماء ، فإن عجز عن مسحها سقط عنه المسح أيضاً ، فلا يجب عليه إلا غسل ما لا يتضرر من غسله ، الرابع : من فرائض الوضوء ، فمسح ربع الرأس ، ويقدرون ربع الرأس بكف ، فالواجب أن يمسح من رأسه بقدر الكف كلها ، فلو أصاب الماء كف يده ، ثم وضعها على رأسه ، من خلف ، أو أمام ، أو أي ناحية فإنه يجزئه ، على أنه لا يلزم أن يكون المسح بنفس الكف ، فلو أصاب الماء ربع رأسه بأي سبب ، فإنه يكفي ويشترط للمسح باليد أن يكون بثلاث أصابع ، على الأقل ، لأجل أن يصيب الماء ربع الرأس قبل أن يجف ، إذ لو مسح بأصبعين فقط ربما يجف الماء قبل تحريكهما ؛ لمسح باقي الربع ؛ فلا يصل الماء إلى القدر المطلوب مسحه ، فإذا مسح برؤوس الأصابع ، وكان الماء متقاطراً ، يمكن أن يصل إلى القدر المطلوب مسحه ، فإنه يصح ، وإلا فلا ، على أن لا يشترط أن يمسح رأسه بماء جديد ، فلو كانت يده مبلولة ، فإنه يجزئه ، ولا يجزئه أن يأخذ البلل من على عضو من أعضائه ، فلو غسل ذراعه ، وكانت يده جافة ، فأخذ البلل من على ذراعه ومسح به ، فإنه لا يكفي ؛ ومن كان شعر رأسه طويلاً نازلاً على جبهته ، أو عنقه ، فمسح عليه . فإنه لا يجزئه ، لأن الغرض هو أن يمسح نفس ربع الرأس ، فإن كانت محلوقة . فالأمر ظاهر ، وإن كان عليها شعر ، فإنه يجب عليه أن يمسح على الشعر النابت في نفس الرأس ، فلا بد أن يكون الشعر الممسوح نابتاً على جزء من رأسه ، فإن كان بعض رأسه محلوقاً ، وبعضها غير محلوق ، فإنه يصح أن يمسح على الربع الذي يختاره ، وإذا مسح على الشعر ، ثم حلقه فإن =

= وضوءه لا يبطل ، وإذا أخذ قطعة من الثلج ، فمسح بها رأسه ، أجزأه ، وإذا غسل رأسه مع وجهه ، أجزأه عن المسح ، ولكنه يكره ، ولا يجوز المسح على العمامة ونحوهما إلا للمعذور ، كما لا يصح أن تمسح المرأة على ما يغطي رأسها من - منديل ، أو طرحة - أو نحو ذلك ، إلا إذا كان خفيفاً ، ينفذ منه الماء إلى الشعر ، وإذا كان على رأسها خضاب - حناء ، أو صبغ - فمسحت عليه ، فإذا تلون الماء بلون الصبغ ، وخرج عن حكم الماء المتقدم ، فإنه لا يصح ، وإلا جاز .

فهذه هي فرائض الوضوء عند الحنفية ، وما عداها ، فإنه سنة .

والمالكية قالوا : فرائض الوضوء سبعة :

الفرض الأول : النية ، ويتعلق بها مباحث :

١ - تعريفها وكيفيتها . ٢ - زمنها ، ومحلها .

٣ - شروطها . ٤ - مبطلاتها .

فأما تعريفها ، وكيفيتها ، فهي قصد الفعل ، وإرادته ، فمن قصد فعل أمر من الأمور ، فإنه يقال له : نوى ذلك الفعل ، وكيفيتها في الوضوء هي أن يريد المحدث استباحة ما منعه الحدث الأصغر ، أو يقصد أداء فرض الوضوء ، أو يقصد رفع الحدث ، وظاهر أن محل القصد إنما هو القلب ، فمتى قصد الوضوء بكيفية من الكيفيات المذكورة ، فقد نواه ، ولا يشترط أن يتلفظ بلسانه ، كما لا يشترط استحضار النية ، إلى آخر الوضوء ، فلو ذهل عنها في أثنائه ، فإنها لا تبطل ، وأما زمن النية فهو في أول الوضوء ، فلو غسل بعض الأعضاء بدون نية ، فإن وضوءه يبطل ، ويغتفر تقدمها على الفعل بزمن يسير عرفاً ، فلو جلس للوضوء ونواه ، ثم جاء الخادم بإبريق ، وصب على يديه ، ولم ينو بعد ذلك ، فإن وضوءه يصح ؛ لأنه لم يفصل بين وضوئه ، وبين =

= النية فاصل كثير ، وقد عرفت أن محلها القلب ، وأما شروطها فهي ثلاثة : الإسلام ؛ التمييز ؛ الجزم ، فإذا نوى غير المسلم فعل عبادة من العبادات ، فإن نيته لا تصح ، وكذا إذا نوى الصغير الذي لا يميز التكاليف الدينية ، ولا يعرف معنى الإسلام ، ومثله المجنون ، أما الصبي المميز ، فإن نيته تصح وكذا إذا تردد في النية ، فإنها لا تصح فإذا قال في نفسه : نويت الوضوء إن كنت قد أحدثت ، فإن نيته لا تصح ، بل لا بد من الجزم بالنية ؛ وأما ما يبطل النية ، فهو أن يرفضها أثناء وضوئه بمعنى أنه ينوي إبطال الوضو ، وعدم الاعتداد به ، أما إذا رفضها بعد تمام الوضوء ، فإنه لا يضر ؛ لأن الوضوء بعد تمامه يقع صحيحاً ، فلا يبطله إلا ما ينقضه من النواقض الآتي بيانها .

الفرض الثاني : من فرائض الوضوء غسل الوجه ، وحد الوجه طولاً وعرضاً ، هو الحد الذي ذكره الحنفية ، إلا أن المالكية قالوا : إن البياض الذي فوق وتدي الأذنين المتصل بالرأس من أعلى لا يجب غسله ، بل مسحه ؛ لأنه من الرأس لا من الوجه ، ومثله شعر الصدغين ، فإنه من الرأس لا من الوجه ، أما الحنفية فإنهم يقولون : إنه من الوجه ، فغسله فرض لا بد منه .

الفرض الثالث : غسل اليدين مع المرفقين ، ويجب عندهم ما يجب عند الحنفية من غسل تكاميش الأنامل ، وغسل ما تحت الأظافر الطويلة ، التي تستر رؤوس الأنامل ، ويقولون : إن وسخ الأظفار يعفى عنه ، إلا إذا تفاحش وكثر .

الفرض الرابع : مسح جميع الرأس ، ويبتدئ حد الرأس من منابت شعر الرأس المعتاد من الأمام ، وينتهي إلى نقرة القفا من الخلف ، ويدخل فيه شعر الصدغين ، والبياض الذي خلفه فوق وتدي الأذنين ، كذلك يدخل البياض الذي فوق الأذنين المتصل بالرأس ، وإذا طال شعر الرأس كثيراً ، أو قليلاً ، =

= فإنه يجب مسحه عندهم ، وإذا ضفر أحد شعره ، فإنه يجب عليه أن ينقضه عندهم ، بشرط أن يضفره بثلاثة خيوط . أما إذا ضفره بخيطين فأقل ، فإن كان تضفيره شديداً ، فإنه يجب نقضه ، وإن كان خفيفاً ، فإنه لا يضر ، وكذا لا يضر إذا ضفر الشعر بلا خيط ، سواء شفره بشدة أو لا . فالشرط في نقض الشعر عند المسح أن يضفره بخيوط . كما يفعل بعض أهل القرى . أما ما هو متعارف عند جمهور المصريين من جمع الشعر بغير تضفير . فإنه لا يضر . كما لا يضر تضفيره بغير خيط . وقد عرفت أن مذهب الحنفية أنه يكتفي بمسح ربع الرأس مطلقاً . وسيأتي مذهب الشافعية . وفيه سعة أكثر من ذلك . فإنه يكتفي عندهم بمسح أي جزء . قليلاً كان أو كثيراً ، وإذا غسل رأسه فإنه يكفيه عن مسحها إلا أنه مكروه ؛ لأن اللّه أمر بالمسح لا بالغسل ، وإن مسح شعر رأسه ثم أزاله فإنه لا يجب عليه تجديد المسح . حتى ولو كشط الجلد بعد المسح ، وهذا متفق عليه أما ظاهر الأذنين فإنه لا يجب مسحهما لأنهما ليستا من الرأس . وهذا متفق عليه إلا سنة الحنابلة فإنهم قالوا : إنهما من الرأس كما ستعرف في مذهبهم .

الفرض الخامس : غسل الرجلين مع الكعبين . وقد عرفت مما ذكر في مذهب الحنفية أن الكعبين هما العظمان البارزان في أسفل ساق الرجل فوق القدم . ويجب عليه أن يغسل الشقوق التي في باطن قدمه وظاهره كما في مذهب الحنفية . وإذا قطع محل الفرض كله سقط التكليف كما تقدم عند الحنفية .

مبحث بيان عدد السنن وغيرها من مندوبات ، ونحوها

عرفت أن المذاهب مختلفة في بيان السُّنة ، والمندوب ، والمستحب ، والفضيلة ، وعرفت أن بعض الأئمة يعتبر السنة ، والمندوب ، والمستحب ، والتطوع كلها ألفاظ مترادفة بمعنى واحد ، وبعضهم يفرق بين هذه الألفاظ ، فلذا سنذكر لك تحت الخط الذي أمامك تفصيل كل مذهب على حدة : =

= **الحنفية قالوا** : سنن الوضوء منها ما هو مؤكد يثاب على فعله ، ويعاقب على تركه ، كالواجب ، وعرفت أنهم يفرقون بين الفرض والواجب ، فسنن الوضوء المؤكدة أمور : منها التسمية ، وهي سُنة لازمة ، سواء كان المتوضئ مستيقظاً من نوم أو لا ، ومحلها عند الشروع في الوضوء ، حتى لو نسيها ثم ذكرها بعد غسل بعض الأعضاء فسمى ، لا يكون آتياً بالسنة ، على أنه إذا نسيها ، فإنه يأتي بها متى ذكرها قبل الفراغ من الوضوء ، كي لا يخلو الوضوء عنها ، وله أن يسمي قبل الاستنجاء وبعده ، بشرط أن لا يسمي في حال الانكشاف ، ولا في محل النجاسة ، كما سيأتي في « مباحث الاستنجاء » .

والتسمية المروية عن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم هي أن يقول : « بسم اللّه العظيم ، والحمد للّه على دين الإسلام » ، ولو قال في ابتداء الوضوء : لا إله إلا اللّه ، أو قال : الحمد للّه ، أو قال : أشهد أن لا إله إلا اللّه ، فقد أتى بالسنة ؛ ومنها غسل اليدين إلى الرسغين ، والرسغ معروف ، وهو النقرة المتوسطة في ظاهر الكف ، بين الإصبع الوسطى ، والإصبع التي قبلها ، وبعض الحنفية يرى أن غسل اليدين إلى الرسغين ثلاث مرات قبل وضعها في الإناء فرض ، تقديمه على باقي أعمال الوضوء سنة ، وفي كيفية غسل اليد ني الآنية تفصيل ، وذلك لأنه لا يخلو إما أن يكون الإناء مفتوحاً - كالحلة ، والصحن - أو يكون مضموماً - كالإبريق - فإن كان إبريقاً فيستحب أن يمسكه بيده اليسرى ، ويصب الماء على يده اليمنى ثلاث مرات ثم يمسكه بيده اليمنى ويصب على يده اليسرى ثلاث مرات ، وإن كان مفتوحاً ، فإن كان معه كوز ونحوه ، اغترف به وصب على يده اليسرى ثلاث مرات ، ثم على يده اليمنى بالصفة التي ذكرت ، وإن لم يكن معه إناء صغير يغترف به ، فيستحب أن =

= يدخل في الماء أصابع يده اليسرى مضمومة ، دون الكف ، كي يغترف بها الماء وكيفية ذلك أن يضم أصابع اليد إلى بعضها ، واليد مفتوحة ، إلا أنه يقوسها قليلاً ، كي لا ينزل الماء منها ، ولا يدخل كفه في الماء ، فإن أدخل كفه كلها في الماء ، كان الماء الملاقي للكف مستعملاً ، لما عرفت أنه ماء قليل ، إلا إذا غلب على ظن المتوضئ أن الملاقي للكف لا يساوي نصف الماء الذي اغترف منه ، فإذا أراد المتوضئ أن يضع يده في الماء القليل ويبقى على حاله طهورا غير مستعمل ، فعليه أن ينوي الاغتراف من هذا الماء ، دون الغسل ، بمعنى أن يقول في نفسه : نويت أن أغترف من هذا الماء ، ثم يغسل به العضو الذي يريد غسله ، وبذلك لا يستعمل الماء ؛ لأنه إنما يستعمل إذا نوى أن يتوضأ به من أول الأمر ؛ لأنك قد عرفت فيما مضى أن الماء لا يستعمل إلا إذا أريد باستعماله العبادة .

هذا كله إذا لم يكن على يده نجاسة محققة ، فإن كانت على يده نجاسة ، ووضعها في الماء فإنه يتنجس ، سواء نوى الاغتراف أم لم ينو ، فإن عجز عن أخذ الماء من الإناء بكوز ، أو بمنديل طاهر أو نحوهما ، فإنه يمكنه أن يأخذه بفمه ، ويغسل النجاسة ، فإن عجز ، ولم يجد غيره تركه وتيمم ، ولا إعادة عليه ، ومنها المضمضة ، والاستنشاق ، وهما سنتان مؤكدتان عند الحنفية ، بمعنى الواجب ، فتركهما إثم ، ولا يلزم أن يأخذ لكل مرة ماء ، بل إذا أخذ الماء بكفه ، فتمضمض ببعضه ، واستنشق بالباقي ، فإنه لا يجوز ، أما إذا وضع الماء في كفه ، ثم استنشق به ، وأعاده ثانياً إلى كفه ، وتمضمض به بعد ذلك ، فإنه لا يجوز ، ثم إن المضمضة هي عبارة عن أن يغسل جميع فمه بالماء ؛ ويكفي وضع الماء في فمه بدون تحريك ، ولو وضع الماء في فمه ولم يطرحه ، بل شربه ، فإنه يجزئه في السنة ، بشرط أن يملأ الفم ثلاث مرات ، =

= أما إذا امتص الماء مصاً ، فإنه لا يجزئه ، وأما الاستنشاق فهو جذب الماء بنفسه إلى داخل أنفه ، بحيث يصل الماء إلى مارن الأنف ، وهو نهاية العظمة اللينة ، أما ما فوق ذلك فإنه لا يسن إيصال الماء إليه ، كما لا يسن جذب الماء إلى الداخل بالتنفس ، وتسن المبالغة في المضمضة ، والاستنشاق لغير الصائم ، وتكره له ، كي لا يفسد صومه ، وقد عرفت أن السنة أن تكون المضمضة ثلاثاً ، والاستنشاق ثلاثاً ، وكيفية الاستنشاق أن يضع الماء في أنفه بيده اليمنى ، ويتمخط بيده اليسرى ، ويعبر المالكية عن هذه الحالة بالاستنشاق ، ويعدونه من السنن المؤكدة ، كما ستعرفه عندهم ، ومنها تخليل أصابع اليدين والرجلين والتخليل عبارة عن إدخال بعض الأصابع في بعض بماء متقاطر ، وهو سنة مؤكدة ، بلا خلاف ومحل كونه سنة إذا وصل الماء إلى داخلها ، وهي مضمومة ، وإلا كان تخليلها واجباً وكيفية التخليل في اليدين أن يشبك أصابعه ببعضها ، وفي الرجلين أن يخلل بخنصر يده اليسرى خنصر رجله اليمنى ، وهكذا حتى يختم بخنصر رجله اليسرى ، وهذه الكيفية هي الأولى ، وله أن يخللها بأي كيفية ، ومنها تكرار الغسل ثلاث مرات ، فغسل العضو وتعميمه كله بالماء مرة واحدة فرض والغسلة الثانية ، والغسلة الثالثة سنتان مؤكدتان على الصحيح ، ويشترط في الغسلة الأولى المفروضة أن يسيل الماء على العضو ، ويتقاطر منه قطرات ، فلو غسل العضو مرة ، ولم يعمه الماء كله ، ثم غسله بالماء ثانية ، وثالثة حتى عمه الماء بالغسلة الثالثة ، فإنه يسقط عنه الفرض ، ولا يكون آتياً بالسنة ، ومن السنن المؤكدة مسح جميع الرأس ، فلو اقتصر على مسح الجزء المفروض مسحه ، وتكرر ذلك منه ، فإنه يأثم وكيفية مسح الرأس أن يضع أصابعه على مقدم رأسه ، ثم يمر بهما على جميع رأسه إلى قفاه - بحيث يستوعب كل الرأس ، ثم إن بقي بيده بلل ، فإنه يسن له =

= أن يسرد مسح الرأس ، وإلا فلا ، كما يقول المالكية ، ومنها مسح الأذنين ، وكيفيته أن يمسح باطن الأذنين ، ومؤخرهما بالماء الذي يمسح به رأسه ، وإذا أخذ لهما ماء جديداً كان حسناً ، ورجح بعض الحنفية مسحهما بماء جديد ، ومحل هذا ما إذا بقي على كفه ماء بعد مسح الرأس ، أما إذا جف الماء ، فإنه ينبغي أن يأخذ لها ماء جديداً ، ويمسح ظاهر الأذنين بباطن الإبهامين ، ويمسح باطن الأذنين بالسبابتين ، وهما الإصبعان اللذان يقعان بعد الإبهامين ، ومنها النية ، وكيفيتها أن ينوي في نفسه رفع الحدث ، أو ينوي الوضوء ، أو ينوي الطهارة ، أو ينوي استباحة الصلاة ، والأفضل أن يقول : نويت أن أتوضأ للصلاة تقرباً إلى الله تعالى ، أو يقول : نويت رفع الحدث ، أو نويت الطهارة ، أو نويت استباحة الصلاة والتلفظ بذلك مستحب ، لما عرفت من أن محل النية إنما هو القلب ، وأما وقت النية فهو عند غسل الوجه .

وهذا ، وقد عد بعض الحنفية النية من المستحبات لا من السنن المؤكدة ، ولكن الصحيح أنها سنة ، ومنها الترتيب ، وهو أن يبدأ الفرائض بغسل الوجه ، ثم يغسل اليدين إلى المرفقين ثم بمسح ربع الرأس ، ثم بغسل الرجلين إلى الكعبين . كما ذكر الله تعالى في قوله : ﴿ فَٱغۡسِلُواْ وُجُوهَكُمۡ وَأَيۡدِيَكُمۡ إِلَى ٱلۡمَرَافِقِ وَٱمۡسَحُواْ بِرُءُوسِكُمۡ وَأَرۡجُلَكُمۡ إِلَى ٱلۡكَعۡبَيۡنِۚ ﴾ [المائدة : ٦] والترتيب من السنن المؤكدة على الصحيح ، وعدّه بعض الحنفية من المستحبات ، ومنها الفور . ويعبر عنه بالموالاة ، وهي التتابع ، وحد الفور هو أن لا يجف الماء عن العضو قبل أن يغسل العضو الذي بعده ، بشرط أن لا يكون الزمن معتدلاً ، فإن كان شديد الحرارة ، أو شديد البرودة . فإنه لا يعتبر جفافه بسرعة على أن محل كون الفور سنة إذا لم يكن هناك عذر ، فإن فرغ ماء الوضوء بعد غسل الوجه مثلاً ، ثم انتظر الماء ، فجف الماء من عليه قبل أن يجيء الماء ، فلا بأس بذلك ، وقد عرفت حكم الفور في فرائض الوضوء ، عند المالكية ، وغيرهم =

= ومن السنن المؤكدة السواك ، ولا يشترط أن يكون من شجر الأراك المعروف ، بل الأفضل أن يكون من أشجار مرة ، لأنه يساعد على تطييب الفم ، وله فوائد معروفة ، فهو يقوي اللثة ، وينظف الأسنان ، ويقوي المعدة ، كي لا يصل إليها شيء من أدران الفم ، والأفضل أن يكون رطباً ، وأن يكون في غلظ الخنصر ، وطول الشبر ، فإذا لم يجد سواكاً فإنه - الفرشة - تقوم مقامه ، وإذا لم يجدها استاك بإصبعه ، ويقوم مقام السواك العلك - اللبان - فإذا وجد السواك ؛ فيندب أن يمسكه بيمينه ، ويجعل الخنصر أسفله ، والإبهام أسفل رأس السواك ، وباقي الأصابع فوقه ، ووقت الاستياك هو وقت المضمضة ، وإذا كان لا يطيقه ؛ فإنه يتركه للضرورة ؛ ويكره أن يستاك وهو مضطجع .

هذا .. وقد اختلف في أشياء : منها أن يأخذ الإناء بيمينه عند غسل الرجلين ، فيصب على مقدم رجله اليمنى ، ويدلكه بيساره ، فيغسلها ثلاثاً ، ثم يفيض الماء على مقدم رجله اليسرى : ويدلكه كذلك ، ومنها أن يبدأ من رؤوس الأصابع في اليدين والرجلين ، ومنها أن يبدأ بمقدم الرأس في المسح ، ومنها الترتيب في المضمضة ، والاستنشاق ، فيقدم ، المضمضة على الاستنشاق ، ومنها المبالغة في المضمضة والاستنشاق ؛ عدا أن يكون صائماً ، فتكره المبالغة ، كما تقدم ، ومنها أن يضع الماء في أنفه ويجذبه بنفسه حتى يصل إلى أعلى الأنف ، ومنها عدم الإسراف في الماء إذا كان يعتقد أن ما زاد عن الثلاث مطلوب منه في الوضوء ؛ وإلا كان عدم الإسراف مندوباً لا سنة ، ومنها إعادة غسل اليدين مع غسل الذراعين إلى المرفقين ، فغسل اليدين أولاً سنة ، ثم إعادة غسلهما مع الذراعين سنة أخرى ، فلو غسل يديه أولاً ، ثم غسل وجهه ، وغسل ذراعيه من كوع يده إلى المرفقين ، فقد جاء بالفرض ، وترك السنة ، فهذه سنن الوضوء عند الحنفية . =

= **المالكية قالوا** : سنن الوضوء المؤكدة التي يثاب المكلف على فعلها ، ولا يعاقب على تركها هي : أولاً : غسل اليدين إلى الرسغين ، والرسغ - مفصل الكف - وكيفية غسل اليدين : تتبع الماء قلة وكثرة ، فإن كان الماء قليلاً ، هو ما لا يزيد عن صاع ، كما تقدم في « مباحث المياه » ولم يكن جارياً ، فإن أمكن الإفراغ منه الصفحة ، فلا تحصل السنة إلا بغسلهما قبل إدخالهما فيه ، ولو كانتا طاهرتين ونظيفتين ، فإن أدخلهما في الإناء قبل غسلهما في هذه الحالة ، أو أدخل إحداهما فعل مكروهاً ، وفاتته سنة الغسل ، وإن كان الماء كثيراً ؛ أو جارياً ، فإن السنة تحصل بغسلهما مطلقاً ، سواء كان الغسل داخل الماء ، أو خارجه . أما إذا كان الماء قليلاً ، ولا يمكن الإفراغ منه ، كالحوض الصغير ، فإن كانت يداه نظيفتين أو عليهما وساخة ، لا يتغير الماء بهما إذا أدخلهما فيه ، فإنه يغترف بيديه ، أو إحداهما ، ويغسل خارجه ، وتحصل السنة بذلك ، فإن كانت يداه غير نظيفتين ، وخاف تغير الماء بإدخالهما فيه ، احتال على الأخذ منه بفمه ، أو بخرقة نظيفة ، فإن لم يكن ذلك ، تركه وتيمم ، إن لم يجد غيره ؛ ثانياً : المضمضة ، وهي إدخال الماء في الفم وطرحه ، فلو دخل الماء فمه بدون قصد ، أو أدخله ولم يحركه ، أو أدخله وحركه ، ولم يطرحه ، بأن ابتلعه ، فإنه لا يكون آتياً بالسنة ، وفي ذلك مخالفة للحنفية الذين قالوا : إن السنة تحصل بدخول الماء ولو لم يطرحه أو يحركه ؛ ثالثاً : الاستنشاق ، وهو جذب الماء بنفسه إلى داخل أنفه ، ولا تحصل السنة عندهم إلا بجذبه بالنفس ، خلافاً للحنفية ، رابعاً : الاستنثار وهو طرح الماء من الأنف بالنفس ، بأن يضع إصبعيه السبابة ، والإبهام من يده اليسرى ، على أعلى مارن أنفه ، عند إنزال الماء منها ، وإذا كان بأنفه قذارة متجمدة من مخاط وغيره ، أخرجها بخنصر يده اليسرى ، خامساً : مسح الأذنين ظاهراً وباطناً . =

= ويدخل في ذلك صماخ الأذنين ؛ سادساً : تجديد الماء لمسح الأذنين فلا يكفي في السنة أن يمسح بالبلل الباقي من مسح الرأس ، خلافاً للحنفية ، والأفضل في كيفية المسح عندهم أن يدخل أطراف سبابته في صماخي الأذنين - داخل الأذن - ويضع إبهاميه خلفهما ، ويثني إصبعيه السبابة والإبهام ، ويديرهما حتى يتم مسحهما ، ظاهراً وباطناً ، وإذا مسحهما بأي كيفية أخرى أجزأه ، إنما المطلوب تعميمهما بالمسح ، سابعاً : الترتيب بين أعضاء الوضوء ، بأن يقدم الوجه على اليدين ، واليدان على الرأس ، والرأس على الرجلين ، كما قال الحنفية ؛ ثامناً : مسح الرأس إن بقي بيده بلل من المسحة الأولى ، وإلا فلا يسن ؛ تاسعاً : تحريك خاتمه الذي يصل الماء إلى ما تحته ، وللمالكية في هذا تفصيل حسن ، وذلك لأنهم قالوا : إن الخاتم إما أن يكون لبسه مباحاً ، أو حراماً ، أو مكروهاً ، فإن كان مباحاً - وهو للرجل ما كان فضة ، وكان وزنه لا يزيد عن درهمين ، وكان واحداً غير متعدد ، فإنه لا يجب تحريكه سواء كان ضيقاً أو واسعاً ، وسواء وصل الماء إلى ما تحته أو لم يصل ، وهذا الحكم عام في الوضوء والغسل ، على أنه إن نزعه بعد تمام وضوئه أو غسله ، فإنه يجب عليه غسل ما تحته إن كان ضيقاً ، وظن أن الماء لم يصل إلى ما تحته ؛ أما إذا كان حراماً - وهو ما اتخذ من ذهب ، أو من فضة تزيد على درهمين ، أو كان متعدداً ، كأن لبس خاتمين ، أو أكثر - فإن كان واسعاً أجزأه تحريكه ، ولا يفترض عليه دلك ما تحته بيده ، بل يكتفي بدلك ما تحته بالخاتم نفسه ، أما إن كان ضيقاً ، فإنه يجب نقله من محله حتى يتمكن من دلك ما تحته ؛ ومثل المحرم في ذلك الحكم الخاتم المكروه ، وهو ما كان من نحاس ، أو رصاص ، أو حديد .

هذا في الرجل ، أما المرأة فإنه يباح لها أن تلبس ما شاءت من حلي . سواء كان متخذاً من ذهب أو غيره . فإذا لبست أساور أو خلاخل فلا يجب =

= عليها تحريكها وإن لم يصل الماء إلى ما تحتها سواء كانت ضيقة أو واسعة . إلا أنها إذا نزعتها بعد تمام الوضوء أو الغسل فإنها يجب عليها غسل ما تحتها إن كانت ضيقة . وظنت عدم وصول الماء إليه .
وقال ابن رشد في بداية المجتهد ونهاية المقتصد في كتاب الطهارة من الحدث ، كتاب الوضوء :
فأما الدليل على وجوبها فالكتاب والسنة والإجماع . أما الكتاب فقوله تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغۡسِلُواْ وُجُوهَكُمۡ وَأَيۡدِيَكُمۡ إِلَى ٱلۡمَرَافِقِ ﴾ الآية . فإنه اتفق المسلمون على أن امتثال هذا الخطاب واجب على كل من لزمته الصلاة إذا دخل وقتها . وأما السنة فقوله عليه الصلاة والسلام : « لا يقبل الله صلاة بغير طهور ولا صدقة من غلول »(١) وقوله عليه الصلاة والسلام : « لا يقبل الله صلاة من أحدث حتى يتوضأ »(٢) وهذان الحديثان ثابتان عند أئمة النقل . وأما الإجماع ، فإنه لم ينقل عن أحد من المسلمين في ذلك خلاف ، ولو كان هناك خلاف لنقل ، إذ العادات تقتضي ذلك . وأما من تجب عليه فهو البالغ العاقل ، وذلك أيضا ثابت بالسنة =

---

(١) رواه مسلم [٢٢٤] عن مصعب بن سعد قال : دخل عبد الله بن عمر على ابن عامر يعوده وهو مريض فقال : ألا تدعو الله لى يا ابن عمر ؟ قال : إنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « لا تقبل صلاة بغير طهور ولا صدقة من غلول » . والبيهقى فى السنن الكبرى [٧٦٢٩] والنسائى فى السنن الكبرى [٧٩] وأبو داود [٥٩] والترمذى [١] وابن ماجه [٢٧٢،٢٧١] وأحمد فى المسند [٧٣،٥٧،٥١/٢] .

(٢) رواه البخارى [١٣٥] عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه ، ومسلم [٢/٢٢٥] وأحمد فى المسند [٣٠٨/٢] والترمذى [٣٣٠] .

= والإجماع . أما السنة فقوله عليه الصلاة والسلام : « رفع القلم عن ثلاث ، فذكر : الصبي حتى يحتلم ، والمجنون حتى يفيق »[1] وأما الإجماع ، فإنه لم ينقل في ذلك خلاف ، واختلف الفقهاء هل من شرط وجوبها الإسلام أم لا ؟ وهي مسألة قليلة الغناء في الفقه ؛ لأنها راجعة إلى الحكم الأخروي . وأما متى تجب فإذا دخل وقت الصلاة ، أو أراد الإنسان الفعل الذي الوضوء شرط فيه ، وإن لم يكن ذلك متعلقا بوقت ، أما وجوبه عند دخول وقت الصلاة على المحدث فلا خلاف فيه لقوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ﴾ الآية ، فأوجب الوضوء عند القيام إلى الصلاة ، ومن شروط الصلاة دخول الوقت ، وأما دليل وجوبه عند إرادة الأفعال التي هو شرط فيها فسيأتي ذلك عند ذكر الأشياء التي يفعل الوضوء من أجلها واختلاف الناس في ذلك .

وأما معرفة فعل الوضوء فالأصل فيه ما ورد من صفته في قوله تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ وَٱمْسَحُواْ بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ ﴾ . وما ورد من ذلك أيضا في صفة وضوء النبي صلى الله عليه وسلم في الآثار الثابتة ، ويتعلق بذلك مسائل اثنتا عشرة مشهورة تجري مجرى الأمهات ، وهي راجعة إلى معرفة الشروط والأركان وصفة الأفعال وأعدادها وتعيينها وتحديد محال أنواع أحكام جميع ذلك .

المسألة الخامسة من التحديد :

اتفق العلماء على أن غسل اليدين والذراعين من فروض الوضوء لقوله تعالى : ﴿ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ ﴾ واختلفوا في إدخال المرافق فيها ؛ فذهب الجمهور =

(١) رواه البيهقى فى السنن الكبرى [٨٠٩١] عن ابن عباس رضى الله تعالى عنه ، وأحمد فى المسند [١٠١/٦] عن عائشة رضى الله تعالى عنها . وقال الأرناؤوط : إسناده جيد .

= ومالك والشافعي وأبو حنيفة إلى وجوب إدخالها ، وذهب بعض أهل الظاهر وبعض متأخري أصحاب مالك والطبري إلى أنه لا يجب إدخالها في الغسل ؛ والسبب في اختلافهم في ذلك الاشتراك الذي في حرف إلى ، وفي اسم اليد في كلام العرب وذلك أن حرف إلى مرة يدل في كلام العرب على الغاية ، ومرة يكون بمعنى مع ، واليد أيضا في كلام العرب تطلق على ثلاثة معان على الكف فقط ، وعلى الكف والذراع ، وعلى الكف والذراع والعضد ، فمن جعل « إلى » بمعنى مع « هنا في نسخة فاس بمعنى من » ، أو فهم من اليد مجموع الثلاثة الأعضاء أوجب دخولها في الغسل « فيها هنا زيادة لأن إلى عنده تكون بمعنى من ومبدأ الشيء من الشيء » ، ومن فهم من « إلى » الغاية ومن اليد ما دون المرفق ولم يكن الحد عنده داخلا في المحدود لم يدخلهما في الغسل ، وخرج مسلم في صحيحه عن أبي هريرة أنه غسل يده اليمنى حتى أشرع في العضد ثم اليسرى كذلك ، ثم غسل رجله اليمنى حتى أشرع في الساق ، ثم غسل اليسرى كذلك ، ثم قال هكذا رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يتوضأ »(١) . وهو حجة لقول من أوجب إدخالها في الغسل ؛ لأنه إذا تردد اللفظ بين المعنيين على السواء وجب أن لا يصار إلى أحد المعنيين إلا بدليل ، وإن كانت « إلى » في كلام العرب أظهر في معنى الغاية منها في معنى مع ، وكذلك اسم اليد أظهر فيما دون العضد منه فيما فوق العضد ، فقول من لم يدخلها من جهة الدلالة اللفظية أرجح ، وقول من أدخلها من جهة هذا الأثر أبين ، إلا أن يحمل هذا الأثر على الندب ، والمسألة محتملة كما ترى ، وقد قال قوم : إن الغاية إذا كانت من جنس ذي الغاية دخلت فيه ، وإن لم تكن من جنسه لم تدخل فيه . =

(١) رواه مسلم [٢٤٦/٣٤] .

= وقال في الباب الأول في معرفة الطهارة التي هذه الطهارة بدل منها : اتفق العلماء على أن هذه الطهارة هي بدل من الطهارة الصغرى ، واختلفوا في الكبرى ، فروى عن عمر وابن مسعود أنهما كانا لا يريانها بدلا من الكبرى ، وكان علي وغيره من الصحابة يرون أن التيمم يكون بدلا من الطهارة الكبرى ، وبه قال عامة الفقهاء . والسبب في اختلافهم الاحتمال الوارد في آية التيمم ، وأنه لم تصح عندهم الآثار الواردة بالتيمم للجنب ، أما الاحتمال الوارد في الآية فلأن قوله تعالى ﴿ فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً فَتَيَمَّمُواْ ﴾ يحتمل أن يعود الضمير الذي فيه على المحدث حدثا أصغر فقط ، ويحتمل أن يعود عليهما معا ، لكن من كانت الملامسة عنده في الآية الجماع فالأظهر أنه عائد عليهما معا ، و من كانت الملامسة عنده هي اللمس باليد ، أعني قوله تعالى ﴿ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ ﴾ فالأظهر أنه إنما يعود الضمير عنده على المحدث حدثا أصغر فقط ، إذ كانت الضمائر إنما يحمل أبدا عودها على أقرب مذكور إلا أن يقدر في الآية تقديما وتأخيرا حتى يكون تقديرها هكذا ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ وَٱمْسَحُواْ بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَٱطَّهَّرُواْ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا ﴾ . ومثل هذا ليس ينبغي أن يصار إليه إلا بدليل ، فإن التقديم والتأخير مجاز وحمل الكلام على الحقيقة أولى من حمله على المجاز ، وقد يظن أن في الآية شيئا يقتضي تقديما وتأخيرا ، وهو أن حملها على ترتيبها يوجب أن المرض والسفر حدثان ، لكن هذا لا يحتاج إليه إذا قدرت أو ههنا بمعنى الواو ، وذلك موجود في كلام العرب في مثل قول الشاعر :

وكان سيان أن لا يسرحوا نعما أو يسرحوه بها واغبرت السرح =

= فإنه إنما يقال : سيان زيد وعمرو . وهذا هو أحد الأسباب التي أوجبت الخلاف في هذه المسألة . وأما ارتيابهم في الآثار التي وردت في هذا المعنى فبين مما خرجه البخاري ومسلم : أن رجلا أتى عمر رضي الله تعالى عنه فقال : أجنبت فلم أجد الماء ، فقال : لا تصل ، فقال عمار : أما تذكر يا أمير المؤمنين إذ أنا وأنت في سرية فأجنبنا فلم نجد الماء ، فأما أنت فلم تصل ، وأما أنا فتمعكت في التراب فصليت ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « إنما كان يكفيك أن تضرب بيديك ثم تنفخ فيهما ثم تمسح بهما وجهك وكفيك ، فقال عمر : اتق الله يا عمار ، فقال : إن شئت لم أحدث به »[1] وفي بعض الروايات : أنه قال له عمر : « نوليك ما توليت »[2] ، وخرج مسلم عن شقيق قال : كنت جالسا مع عبد الله بن مسعود وأبي موسى فقال أبو موسى : يا أبا عبد الرحمن أرأيت لو أن رجلا أجنب فلم يجد الماء شهرا كيف يصنع بالصلاة ؟ فقال عبد الله لأبي موسى : لا يتيمم وإن لم يجد الماء شهرا ، فقال أبو موسى : فكيف بهذه الآية في سورة المائدة ﴿ فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا ﴾ فقال عبد الله : لو رخص لهم في هذه الآية لأوشك إذا برد عليهم الماء أن يتيمموا بالصعيد ، فقال أبو موسى لعبد الله ألم تسمع لقول عمار ؟ وذكر له الحديث المتقدم ، فقال له عبد الله : أولم تر عمر لم يقنع بقول عمار[3] لكن الجمهور رأوا أن ذلك قد ثبت من حديث عمار وعمران ابن الحصين ، خرجهما البخاري ، وإن نسيان عمر ليس مؤثرا في وجوب =

---

(١) رواه مسلم [١١٠/٣٦٨] وأحمد في المسند [٢٦٥/٤] عن عبد الرحمن بن أبزي عن أبيه رضى الله تعالى عنهما .

(٢) رواه مسلم [١١٢/٣٦٨] .

(٣) رواه البخارى [٣٤٠] ومسلم [١١٠/٣٦٨] .

= العمل بحديث عمار ، وأيضا فإنهم استدلوا بجواز التيمم للجنب والحائض بعموم قوله عليه الصلاة والسلام : « جعلت لي الأرض مسجدا وطهورا »[1] .
وأما حديث عمران بن الحصين فهو : أن رسول اللّٰه صلى اللّٰه عليه وسلم رأى رجلا معتزلا لم يصل مع القوم فقال : « يا فلان أما يكفيك أن تصلي مع القوم ؟ فقال : يا رسول اللّٰه أصابتني جنابة ولا ماء ، فقال عليه الصلاة والسلام : « عليك بالصعيد فإنه يكفيك »[2] ولموضع هذا الاحتمال اختلفوا : هل لمن ليس عنده ماء أن يطأ أهله أم لا يطؤها ؟ أعني من يجوز للجنب التيمم .
وقال رسول اللّٰه صلى اللّٰه عليه وسلم : « الوضوء شطر الإيمان »[3] أي شرط جواز الصلاة لأن الشطر في الأصل هو النصف والإيمان هاهنا أريد به الصلاة كما في قوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَـٰنَكُمْ ﴾ [البقرة : ١٤٣] .
أي صلاتكم إلى بيت المقدس سميت الصلاة إيمانا لأن جوازها وقبولها به فجعل الوضوء نصف الصلاة على معنى أنهما فعلان أحدهما وهو الوضوء شرط للآخر وهو الصلاة .
والوضوء مأخوذ من الوضاءة وهي النظافة والحسن يقال : وضؤ يوضؤ وضاءة فهو وضيء من حد شرف أي حسن ونظف والمتوضئ ينظف أعضاءه ويحسنها والوضوء يذكر ويراد به غسل اليد وحدها قال النبي عليه السلام : =

(١) رواه البخارى [٢٣٨] والترمذى [٣١٧] والنسائى فى المجتبى [٤٣٢] وابن ماجه [٥٦٧] وأحمد [٣٠١/١] .
(٢) رواه البخارى [٣٣٧] وأحمد [٤٣٤/٤] .
(٣) رواه الترمذى [٣٥١٧] وابن ماجه [٢٨٠] والنسائى فى السنن الكبرى [٢٢١٧] وصححه الألبانى .

....

○○○

= « الوضوء قبل الطعام ينفي الفقر وبعده ينفي اللمم »[1] أي الجنون لأنه تنظيف لليد وتحسين لها والوضوء مما مسته النار والوضوء من ثور أقط أي قطعة منه والوضوء من مس الذكر هذا كله محمول عندنا على غسل اليد لما قلنا وقال النبي عليه السلام في مس الذكر : « إنما هو بضعة منك »[2] بفتح الباء أي قطعة لحم مجتمعة والبضع القطع من حد صنع .

(١) رواه مسند الشهاب [٣١٠] عن موسى بن جعفر عن أبيه عن جده متصلا رضى الله تعالى عنهم .

(٢) رواه أحمد فى المسند [٢٢/٤] عن قيس بن خلف عن أبيه رضى الله تعالى عنهما . وقال الأرناؤوط : حديث حسن .
ورواه الطبراني فى المعجم الكبير [٩٢١٤/٢٤٧/٩] عن أرقم بن شرحبيل رضى الله تعالى عنهما . وقال فى مجمع الزوائد [٢٤٤/١] رجاله موثقون .
ورواه عبد الرزاق [٤٣٠] .

لا يتوضأ من الشك حتى يستيقن

السؤال : **يغلبني الوسواس دائمًا عن وضوئي ، أتوضأت أم لا ؟ فماذا أفعل ؟**

الجواب : أصل الحكم به أن تطرح الشك ، وتستصحب الأصل . بمعنى أنك كنت فى الأصل متوضئًا ، ثم شككت أأحدثت أم لا ؟ إذن أكون متوضئًا .

وإن كنت محدثًا ثم شككت هل توضأت أم لا ؟ فأكون محدثًا .

فالفتوى هى : استصحاب الأصل ، وترك الشك ، وإبقاء ما كان على ما كان عليه (١).

---

(١) روى البخارى [١٣٧] ومسلم [٩٨/٣٦١] عن سعيد بن المسيب وعن عباد ابن تميم عن عمه رضى اللّٰه تعالى عنهم أنه شكا إلى رسول اللّٰه صلى اللّٰه عليه وسلم الرجل الذى يخيل إليه أنه يجد الشئ فى الصلاة ؛ فقال : « لا ينفتل - أو لا ينصرف - حتى يسمع صوتا أو يجد ريحا .

قال الحافظ فى الفتح ؛ قال النووى : هذا الحديث أصل فى حكم بقاء الأشياء على أصولها حتى يتيقن خلاف ذلك ، ولا يضر الشك الطارىء عليها . وأخذ بهذا الحديث جمهور العلماء . وروى عن مالك النقض مطلقا ، وروى عنه النقض خارج الصلاة دون داخلها ، وروى هذا بالتفصيل عن الحسن البصرى ، والأول مشهور مذهب مالك قاله القرطبى ، وهو رواية ابن القاسم عنه . وروى ابن نافع عنه لا وضوء عليه مطلقا كقول الجمهور ، وروى ابن وهب عنه : أحب إلى أن يتوضأ . ورواية التفضيل لم تثبت عنه وإنما هى لأصحابه وحمل بعضهم الحديث على من كان به وسواس ، وتمسك بأن الشكوى لا تكون إلا عن علة ، وأجيب بما دل على التعميم وهو حديث أبى هريرة عند مسلم ولفظه : « إذا وجد أحدكم فى بطنه شيئا فأشكل عليه أخرج منه =

الوضوء من لحوم الإبل

السؤال : **هل يجب الوضوء على من أكل لحوم الإبل والغنم ؟**

الجواب : فقط لحم الجزور هو الوارد ، والعبرة بعموم النص لا بخصوص السبب ، لأن النبى صلى الله عليه وسلم أمر الصحابة بالوضوء[1] .

= شيء أم لا فلا يخرجن من المسجد حتى يسمع صوتا أو يجد ريحا » . وقوله فلا يخرجن من المسجد أى من الصلاة ، وصرح بذلك أبو داود في روايته . وقال العراقى : ما ذهب إليه مالك راجح ، لأنه احتاط للصلاة وهى مقصد ، وألغى الشك فى السبب المبرئ ، وغيره احتاط للطهارة وهى وسيلة وألغى الشك فى الحدث الناقض لها ، والاحتياط للمقاصد أولى من الاحتياط للوسائل . وجوابه أن ذلك من حيث النظر قوى لكنه مغاير لمدلول الحديث لأنه أمر بعدم الانصراف إلى أن يتحقق وقال الخطابى : يستدل به لمن أوجب الحد على من وجد منه ريح الخمر لأنه اعتبر وجدان الريح ورتب عليه الحكم ، ويمكن الفرق بأن الحدود تدرأ بالشبهة والشبهة هنا قائمة ، بخلاف الأول فإنه متحقق .

(١) روى مسلم [٩٧/٣٦٠] عن جابر بن سمرة ؛ أن رجلا سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم : أأتوضأ من لحوم الغنم ؟ قال : « إن شئت ، فتوضأ . وإن شئت ، فلا تتوضأ » قال : أتوضأ من لحوم الإبل؟ قال : « نعم . فتوضأ من لحوم الإبل » . قال : أصلي في مرابض الغنم ؟ قال : « نعم » قال : أصلي في مبارك الإبل ؟ قال : « لا » .

قال النووى : أما أحكام الباب فاختلف العلماء في أكل لحوم الجزور ، فذهب الأكثرون إلى أنه لا ينقض الوضوء ، وممن ذهب إليه الخلفاء الأربعة الراشدون =

ooo

= أبو بكر وعمر وعثمان وعلي وابن مسعود وأبي بن كعب وابن عباس وأبو الدرداء وأبو طلحة وعامر بن ربيعة وأبو أمامة وجماهير التابعين ، ومالك وأبو حنيفة والشافعي وأصحابهم . وذهب إلى انتقاض الوضوء به أحمد بن حنبل وإسحاق ابن راهوية ويحيى بن يحيى وأبو بكر بن المنذر وابن خزيمة ، واختاره الحافظ أبو بكر البيهقي ، وحكى عن أصحاب الحديث مطلقاً ، وحكى عن جماعة من الصحابة رضي الله عنهم أجمعين ، واحتج هؤلاء بحديث الباب مطلقاً ، وحكى عن جماعة من الصحابة رضي الله عنهم أجمعين ، واحتج هؤلاء بحديث الباب . وقوله صلى الله عليه وسلم : « نعم فتوضا من لحوم الإبل »[1] .

وعن البراء بن عازب قال : سئل النبي صلى الله عليه وسلم عن الوضوء من لحوم الإبل فأمر به . قال أحمد بن حنبل رحمه الله وإسحاق بن راهوية : صح عن النبي صلى الله عليه وسلم في هذا حديثان : حديث جابر وحديث البراء ، وهذا المذهب أقوى دليلاً وإن كان الجمهور على خلافه . وقد أجاب الجمهور عن هذا الحديث بحديث جابر كان آخر الأمرين من رسول الله صلى الله عليه وسلم ترك الوضوء مما مست النار ، ولكن هذا الحديث عام ، وحديث الوضوء من لحوم الإبل خاص ، والخاص مقدم على العام والله أعلم . وأما إباحته صلى الله عليه وسلم الصلاة في مرابض الغنم دون مبارك الإبل فهو متفق عليه ، والنهي عن مبارك الإبل وهي أعطانها نهي تنزيه ، وسبب الكراهة ما يخاف من نفارها وتشويشها على المصلي والله أعلم .

(١) رواه أبو داود [١٨٤] وقال الألباني : صحيح ، ومسند الطيالسي [١/١٠٠/٧٣٥] .

ماذا يفعل الإمام إذا انتقض وضوؤه

السؤال : **ماذا يفعل الإمام إذا انتقض وضوؤه وهو يؤم الناس فى الصلاة ؟**

الجواب : إذا طرأ على الإمام حدث وهو يصلى ، كأن ينتقض وضوؤه مثلاً ، فيمكنه أن يتقدم من يقف خلفه ليصلى بالناس إمامًا ، ويذهب الإمام ليجدد وضوءه ، ثم يأتى ليكمل الصلاة مأمومًا .

ولذلك فلابد أن تتوفر فيمن يقف خلف الإمام شروط الإمامة ، بأن يكون من أولى الأحلام ، وأن يكون عارفًا بأحكام الصلاة[1] .

---

(١) روى ابن ماجه [١٢٢١] عَن عائشة رضى اللّه تعالى عنها قالت : قال رَسُول اللّهِ صَلَى اللّهُ عَلَيْهِ وَسلَّمْ « من أصابه قيء أو رعاف أو قلس أو مذي ، فلينصرف ، فليتوضأ . ثم ليبن على صلاته ، وهو في ذلك لا يتكلم » .
فِي الزَوائِد : في إسناده إسماعيل بن عياش . وقد روى عَن الحجازيين ، وروايته عنهم ضعيفة . وضعفه الألبانى .
وروى مالك فى الموطأ [١/٣٨/٧٧] عن نافع أن عبد اللّه بن عمر رضى اللّه تعالى عنهما كان إذا رعف انصرف فتوضأ ثم رجع فبني ولم يتكلم .
روى البخارى [٦٨٤] ومسلم [٤٢١/١٠٢] عن سهل بن سعد الساعدي رضى اللّه تعالى عنه أن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ذهب إلى بني عمرو ابن عوف ليصلح بينهم فحانت الصلاة فجاء المؤذن إلى أبي بكر فقال أتصلي للناس فأقيم قال نعم فصلى أبو بكر فجاء رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم والناس في الصلاة فتخلص حتى وقف في الصف فصفق الناس وكان أبو بكر لا يلتفت في صلاته فلما أكثر الناس التصفيق التفت فرأى رسول اللّه صلى اللّه =

= عليه وسلم فأشار إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم أن امكث مكانك فرفع أبو بكر رضي الله تعالى عنه يديه فحمد الله على ما أمره به رسول الله صلى الله عليه وسلم من ذلك ثم استأخر أبو بكر حتى استوى في الصف وتقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم فصلى فلما انصرف قال يا أبا بكر ما منعك أن تثبت إذ أمرتك فقال أبو بكر ما كان لابن أبي قحافة أن يصلي بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما لي رأيتكم أكثرتم التصفيق من رابه شيء في صلاته فليسبح فإنه إذا سبح التفت إليه وإنما التصفيق للنساء . قال النووى : فيه جواز خرق الإمام الصفوف ليصل إلى موضعه إذا احتاج إلى خرقها لخروجه لطهارة أو رعاف أو نحوهما ورجوعه ، وكذا من احتاج إلى الخروج من المأمومين لعذر ، وكذا له خرقها في الدخول إذا رأى قدامهم فرجة فإنهم مقصرون بتركها ، واستدل به أصحابنا على جواز اقتداء المصلي بمن يحرم بالصلاة بعده ، فإن الصديق رضي الله عنه أحرم بالصلاة أولاً ثم اقتدى بالنبي صلى الله عليه وسلم حين أحرم بعده هذا هو الصحيح في مذهبنا .

روى أبو داود [١٠٠٥] عن علي بن طلق رضى الله تعالى عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا فسا أحدكم في الصلاة فلينصرف فليتوضأ وليعد صلاته . وضعفه الألباني .

قال صاحب عون المعبود : « إذا فسا » : فعل ماض من فسا فسوا من باب قبل والاسم الفساء بالضم والهمزة والمد وهو ريح يخرج بغير صوت يسمع . قاله في المصباح . وقال الطيبي : أي أحدث بخروج ريح من مسلكه المعتاد « فلينصرف » : أي من صلاته « فليتوضأ وليعد الصلاة » : فيه دليل على أن الفساء ناقض للوضوء ، وأنه تبطل به الصلاة ، ويلزم إعادة الصلاة منه لا البناء =

....

○○○

= عليها وهو قول للشافعي ، ويعارضه حديث عائشة رضي اللَّه عنها أن رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم قال "من أصابه قيء أو رعاف أو قلس أو مذى فلينصرف فليتوضأ ثم ليبن على صلاته وهو في ذلك لا يتكلم" أخرجه ابن ماجه وضعفه أحمد وغيره . وجه التضعيف أن رفعه غلط والصواب أنه مرسل . قال أحمد والبيهقي المرسل الصواب فمن يحتج بالمرسل ذهب إلى حديث عائشة ويقول إن المحدث يخرج من الصلاة ويعيد الوضوء ويبنى عليها ولا تفسد صلاته بشرط أن لا يفعل مفسداً ، وهذا هو مذهب مالك وأبي حنيفة وقول للشافعي . قلت : حديث علي بن طلق له ترجيح على حديث عائشة من جهة الإسناد لأن حديث علي صححه أحمد وحسنه الترمذي وحديث عائشة لم يقل أحد بصحته . قال المنذري : وأخرجه الترمذي والنسائي بنحوه أتم منه .

وروى ابن ماجه [١٢٢٢] وأبو داود [١١١٤] عَن عائشة رضى اللَّه تعالى عنها ؛ عَن النَّبِي صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمْ قال : إذا صلى أحدكم فأحدث فليمسك على أنفه ، ثم لينصرف . ولفظ أبو داود :فليأخذ بأنفه . وصححهما الألباني .

قال الخطابي : إنما أمره أن يأخذ بأنفه ليوهم القوم أن به رعافاً . وفي هذا الباب من الأخذ بالأدب في ستر العورة وإخفاء القبيح والتورية بما هو أحسن ، وليس يدخل في باب الرياء والكذب ، وإنما هو من التجمل واستعمال الحياء وطلب السلامة من الناس .

لماذا البول يفسد الوضوء ؟

السؤال : **إذا كان البـول يفســد الوضـــوء ، فلماذا لا يفسده وهو داخل الجسم ؟**

الجواب : طالما أن البول فى المثانة داخل الجسم ، فإن له فائدة وهى وجوده لضرورة تقتضى ذلك ، وأنه طالما خرج من حدود الباطن للجزء الظاهرى من البدن ، أصبح فضلة ، وقد استغنى الجسم عنها .

ولذلك فإن الطهارة ينقضها كون هذا البول خرج من الداخل ، لأنه أصبح خبثًا ، وفضلات البدن من داخله ، ومثله مثل البراز تمامًا .

○ ○ ○

حكم الوضوء للمرأة مع وجود إفرازات

السؤال : **هل تتوضأ المسلمة لكل صلاة ، إذا كانت تخرج منها إفرازات ؟**

الجواب : إن لم يكن العلاج لهذه الحالة طبيًا ، وإلى أن يتم العلاج ، يمكن للمرأة أن تصلى مع وجود الإفرازات ، على أن تتوضأ لكل صلاة وضوءًا خاصًا ، فلا تصلى الظهر والعصر بوضوء واحد ، وَلَوْلَمْ ينتقض وضوؤها الأول ، ولكن يجب أن تتوضأ لأن لكل فرض وضوءًا خاصًا ، وتصلى ، وتتم الصلاة ، حتى مع نزول الإفرازات ، على أن تحتاط الاحتياط اللازم لمثل هذه الحالات[1] .

---

(١) روى البخارى [٢٢٨] ومسلم [٦٢/٣٣٣] عن عائشة رضى اللّه تعالى عنها قالت : جاءت فاطمة بنت أبي حبيش إلى النبي صلى اللّه عليه وسلم فقالت : يا رسول اللّه ، إني امرأة أستحاض فلا أطهر ، أفأدع الصلاة؟ فقال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : لا ، إنما ذلك عرق ، وليس بحيض ، فإذا أقبلت حيضتك فدعي الصلاة ، وإذا أدبرت فاغسلي عنك الدم ثم صلي . قال : وقال أبي : ثم تؤضي لكل صلاة ، حتى يجيء ذلك الوقت .
وروى البخارى [٣٢٧] ثم اعلم أن مذهبنا أن المستحاضة لا تصلي بطهارة واحدة أكثر من فريضة واحدة مؤداة كانت أو مقضية ، وتستبيح معها ما شاءت من النوافل قبل الفريضة وبعدها ، ولنا وجه أنها لا تستبيح أصلاً لعدم ضرورتها إليها النافلة ، والصواب الأول . وحكى مثل مذهبنا عن عروة بن الزبير وسفيان الثوري وأحمد وأبي ثور ، وقال أبو حنيفة : طهارتها مقدرة بالوقت فتصلي في الوقت بطهارتها الواحدة ما شاءت من الفرائض الفائتة . =

= وقال ربيعة ومالك وداود : دم الاستحاضة لا ينقض الوضوء فإذا تطهرت فلها أن تصلي بطهارتها ما شاءت من الفرائض إلى أن تحدث بغير الاستحاضة والله أعلم . قال أصحابنا : ولا يصح وضوء المستحاضة لفريضة قبل دخول وقتها . وقال أبو حنيفة يجوز . ودليلنا أنها طهارة ضرورة فلا تجوز قبل وقت الحاجة . قال أصحابنا : وإذا توضأت بادرت إلى الصلاة عقب طهارتها ، فإن أخرت بأن توضأت في أول الوقت وصلت في وسطه نظر إن كان التأخير للاشتغال بسبب من أسباب الصلاة كستر العورة والأذان والإقامة والاجتهاد في القبلة والذهاب إلى المسجد الأعظم والمواضع الشريفة والسعي في تحصيل سترة تصلي إليها وانتظار الجمعة والجماعة وما أشبه ذلك جاز على المذهب الصحيح المشهور ، ولنا وجه أنه لا يجوز وليس بشيء ، وأما إذا أخرت بغير سبب من هذه الأسباب وما في معناها ففيه ثلاثة أوجه أصحها لا يجوز وتبطل طهارتها . والثاني : يجوز ولا تبطل طهارتها ولها أن تصلي بها ولو بعد خروج الوقت . والثالث : لها التأخير ما لم يخرج وقت الفريضة فإن خرج الوقت فليس لها أن تصلي بتلك الطهارة ، فإذا قلنا بالأصح وأنها إذا أخرت لا تستبيح الفريضة فبادرت فصلت الفريضة فلها أن تصلي النوافل ما دام وقت الفريضة باقياً ، فإذا خرج وقت الفريضة فليس لها أن تصلي بعد ذلك النوافل بتلك الطهارة على أصح الوجهين والله أعلم . قال أصحابنا : وكيفية نية المستحاضة في وضوئها أن تنوي استباحة الصلاة ولا تقتصر على نية رفع الحدث . ولنا وجه أنه يجزئها الاقتصار على نية رفع الحدث .

ووجه ثالث : أنه يجب عليها الجمع بين نية استباحة الصلاة ورفع الحدث والصحيح الأول ، فإذا توضأت المستحاضة استباحت الصلاة . وهل يقال : ارتفع حدثها فيه أوجه لأصحابنا الأصح أنه لا يرتفع شيء من حالتها بل =

= تستبيح الصلاة بهذه الطهارة مع وجود الحدث كالمتيمم فإنه محدث عندنا . والثاني : يرتفع حدثها السابق والمقارن للطهارة دون المستقبل . والثالث : يرتفع الماضي وحده . واعلم أنه لا يجب على المستحاضة الغسل لشيء من الصلاة ولا في وقت من الأوقات إلا مرة واحدة في وقت انقطاع حيضها ، وبهذا قال جمهور العلماء من السلف والخلف ، وهو مروي عن علي وابن مسعود وابن عباس وعائشة رضي اللّٰه عنهم ، وهو قول عروة بن الزبير وأبي سلمة بن عبد الرحمن ومالك وأبي حنيفة وأحمد ، وروي عن ابن عمر وابن الزبير وعطاء بن أبي رباح أنهم قالوا : يجب عليها أن تغتسل لكل صلاة ، وروي هذا أيضاً عن علي وابن عباس ، وروي عن عائشة أنها قالت : تغتسل كل يوم غسلاً واحداً . وعن المسيب والحسن قالا : تغتسل من صلاة الظهر إلى صلاة الظهر دائماً واللّٰه أعلم . ودليل الجمهور أن الأصل عدم الوجوب فلا يجب إلا ما ورد الشرع بإيجابه ، ولم يصح عن النبيّ صلى اللّٰه عليه وسلم أنه أمرها بالغسل إلا مرة واحدة عند انقطاع حيضها وهو قوله صلى اللّٰه عليه وسلم : « إذا أقبلت الحيضة فدعي الصلاة وإذا أدبرت فاغتسلي » «ليس في هذا ما يقتضي تكرار الغسل . وأما الأحاديث الواردة في سنن أبي داود والبيهقي وغيرهما أن النبيّ صلى اللّٰه عليه وسلم أمرها بالغسل فليس فيها شيء ثابت ، وقد بين البيهقي ومن قبله ضعفها ، وإنما صح في هذا ما رواه البخاري ومسلم في صحيحهما : « أن أم حبيبة بنت جح رضي اللّٰه عنها استحيضت فقال لها : إنما ذلك عرق فاغتسلي ثم صلي » ، فكانت تغتسل عند كل صلاة . قال الشافعي رحمه اللّٰه تعالى : إنما أمرها رسول اللّٰه صلى اللّٰه عليه وسلم أن تغتسل وتصلي وليس فيه أنه أمرها أن تغتسل لكل صلاة ، قال : ولا شك إن شاء اللّٰه تعالى أن غسلها كان تطوعاً غير ما أمرت به وذلك واسع لها ، هذا كلام =

....

○○○

= الشافعي بلفظه . وكذا قال شيخه سفيان بن عيينة والليث بن سعد وغيرهما وعباراتهم متقاربة والله أعلم . واعلم أن المستحاضة على ضربين : أحدهما أن تكون ترى دماً ليس بحيض ولا يخلط بالحيض كما إذا رأت دون يوم وليلة . والضرب الثاني أن ترى دماً بعضه حيض وبعضه ليس بحيض بأن كانت ترى دماً متصلاً دائماً أو مجاوزاً لأكثر الحيض ، وهذه لها ثلاثة أحوال :

أحدها : أن تكون مبتدأة وهي التي لم تر الدم قبل ذلك وفي هذا قولان للشافعي أصحهما ترد إلى يوم وليلة ، والثاني : إلى ست أو سبع . والحال الثاني : أن تكون معتادة فترد إلى قدر عادتها في الشهر الذي قبل شهر استحاضتها . والثالث : أن تكون مميزة ترى بعض الأيام دماً قوياً وبعضها دماً ضعيفاً كالدم الأسود والأحمر فيكون حيضها أيام الأسود بشرط أن لا ينقص الأسود عن يوم ليلة ولا يزيد على خمسة عشر يوماً ، ولا ينقص الأحمر عن خمسة عشرة ، ولهذا كله تفاصيل معروفة لا نرى الإطناب فيها هنا لكون هذا الكتاب ليس موضوعاً لهذا ، فهذه أحرف من أصول مسائل المستحاضة أشرت إليها وقد بسطتها بشواهدها وما يتعلق بها من الفروع الكثيرة في شرح المهذب والله أعلم .

ومسلم [٦٣/٣٣٤] عن عائشة زوج النبي صلى الله عليه وسلم : أن أم حبيبة استحضيت سبع سنين ، فسألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ذلك ، فأمرها أن تغتسل ، فقال : « هذا عرق » . فكانت تغتسل لكل صلاة .

هل المانيكير يبطل الوضوء

السؤال : هل طـــلاء الأظافر « المانيكير » يبطــل الوضوء .. ولذلك يجب إزالته عند كل وضوء ؟

الجواب : نعم .. وقد أجبت عن السؤال بنفسك . فما دمت قد قلت : إنه طلاء ، إذن فهو طبقة يمكن إزالتها ، وما دام طلاء الأظافر يكون طبقة ، فهو شيء عازل يعزل ما تحته عن أن تصيبه الطهارة عند الوضوء ، فوجوده لا يحقق الوضوء أصلاً .

والذين زينوا للمرأة مثل هذا الذى يقولون من أن المانيكير ليس له تأثير فى الوضوء أرادوا أن يجعلوه صبغًا . ونقول : لو كان صبغًا لما أمكن إزالته ، مثل الحناء مثلاً ؛ كذلك يروج البعض أن الظفر جزء ميت لا إحساس فيه . ونقول : لو أنه ميت ما كان ينمو ، ولما اضطررت إلى أن تقصه من حين لآخر ، وهذا دليل على أنه حى لا ميت .

ثمة شيء آخر : الذين حللوا طلاء الأظافر بالمانيكير خلطوا بين « الصبغ » الذى هو « الحناء » وبين الطلاء المعروف .. والفرق بين الاثنين كبير .. بدليل أن المرأة تستخدم عند إزالة الطلاء مادة تعرف « بالأسيتون » ، والحناء لا يفلح عند إزالتها ألف « أسيتون » . وباقى المساحيق كلها حرام .. أما الكحل فهو حلال ، وهو للشفاء والزينة ، فالزينة منه جاءت تبعًا . والأصل فيه وقاية للعين وعلاجها . ولو علمت المرأة ضرر هذه المساحيق على بشرتها لابتعدت عنها .

---

(١) النواقض : جمع ناقضة ، أو ناقض ، يقال : نقضت الشيء ، إذا أفسدته ، وقد يقال : إن التعبير بالنواقض التي تدل على إفساد الوضوء من أصله ، يقتضي =

= أن الوضوء قد اتصف بالفساد قبل طرو الحدث ، وعلى هذا فالصلاة به قبل عروض المفسد تكون باطلة ؛ لأن المفروض أنه قد اتصف بالفساد من أصله ، ولذا عبر بعضهم بالأحداث جمع حدث ، فراراً من هذا الاعتراض ، والجواب عن هذا أن المراد بطلانه بعد وقوع الحدث المبطل ، لا وصفه بالبطلان من أساسه .

وتنقسم نواقض الوضوء إلى أقسام : الأول ما خرج من أحد السبيلين - القبل ، والدبر - وهذا ينقسم إلى قسمين ، لأنه إما أن يكون معتاداً ، وإما أن يكون غير معتاد ، الثاني : ما قد يترتب عليه الخروج من أحد السبيلين ، وهذا ينقسم إلى أربعة أقسام : أحدها : غيبة العقل ؛ ثانيها : المنى ، المالكية قالوا : إن المني الخارج بغير لذة معتادة لا يوجب الغسل ، بل ينقض الوضوء فقط ، خلافاً للأئمة الثلاثة ، وقد مثلوا لذلك بما إذا نزل في ماء ساخن ، فلات وأمنى . الشافعية قالوا : خروج المني يوجب الغسل ، سواء خرج بلذة أو بغير لذة ، فمتى تحقق كونه منيا وجب عليه أن يغتسل ، وسيأتي بيان مذهبهم في « مباحث الغسل » ، ومع كونه يوجب الغسل ، فإنه لا ينقض الوضوء عندهم امرأة تشتهي ، ومثلها لمس الأمرد ؛ وهذا ينقض بشروط ستعرفها ؛ ثالثها : مس الذكر ونحوه بدون حائل ؛ وهذا أيضاً ينقض في بعض المذاهب دون بعض ؛ رابعها : ما يخرج من غير القبل ، أو الدبر ، كالدم ، وفي ذلك تفصيل ستعرفه ؛ فجملة أقسام النواقض ستة ، وإليك بيانها :

فالأول ، وهو ما خرج من أحد السبيلين بطريق العادة ، منه ما ينقض الوضوء فقط ، ومنه ما يوجب الغسل ؛ فأما الذي ينقض الوضوء ، ولا يوجب الغسل ، فهو البول ، والمذي ، والودي ؛ فأما البول فهو معروف ، وأما المذي فهو ماء أصفر رقيق ، يخرج من القبل عند اللذة غالباً ، وأما الودي فهو ماء ثخين =

= أبيض ، يشبه المني ، ويخرج عقب البول غالباً . ومثل الودي الهادي ، وهو ماء أبيض ، يخرج من قبل المرأة الحامل قبل ولادتها ، والمني الخارج بغير لَذة ، وهو معروف ، ولا يخفي أن كل هذه الأشياء تخرج من القُبُل ؛ وأما الذَي يخرج من الدبر ، فهو الغائط ، والريح ، وقد بينا في أول مباحث الطهارة حكمة نقض الوضوء بالريح ؛ فارجع إليها إن شئت ، وكل هذه الأشياء مجمع على نقض الوضوء بها .

والثاني ، وهو ما خرج من أحد السبيلين بطريق معتاد ، مثل الحصى ، المالكية قالوا : لا ينتقض الوضوء إلا بالخارج المعتاد من المخرج المعتاد ، بشرط أن يكون خروجه من المخرج المعتاد في حال الصحة ، فالحصى ، والدود ، والدم ، والقيح ، والصديد الخارجة من أحد السبيلين لا تنقض الوضوء . بشرط أن يكون الحصى أو الدود متولداً في المعدة . أما إذا لم يكن متولداً في المعدة . كأن ابتلع حصاة . أو دودة . فخرجت من المخرج المعتاد . كانت ناقضة . لأنها تكون غير معتادة حينئذ ، والدود ، والدم والقيح ، والصديد ، فإنه ينقض الوضوء ، سواء خرج من القبل ، أو خرج من الدبر .

فهذه هي الأمور الخارجة من أحد السبيلين ، وبقي الكلام في نقض الوضوء بغير الخارج ، وقد عرفت أنها أربعة أقسام :

الأول : أن يغيب عقل المتوضئ إما بجنون ، أو صرع ، أو إغماء . وإما بتعاطي ما يستلزم غيبته من خمر . أو حشيش أو بنج . أو نحو ذلك من المغيبات .

ومن ذلك النوم . وهو ناقض للوضوء لا بنفسه « الحنابلة قالوا : النوم ينقض الوضوء بنفسه . حتى ولو وضع مقعدته على أي شيء يأمن معه خروج ريح إلا إذا كان النوم يسيراً .

الشافعية قالوا : النوم ينقض بنفسه إن نام بدون أن يمكن مقعدته من الأرض ونحوها ولو تحقق عدم خروج الحدث ، بل بما يترتب عليه من حصول =

= الحدث . وفي ذلك الناقض تفصيل المذاهب الحنفية قالوا : النوم لا ينقض بنفسه على الصحيح . خلافاً للشافعية والحنابلة . وإنما ينقض النوم في ثلاثة أحوال : الأول : أن ينام مضطجعاً - على جنبه - الثاني أن ينام مستلقياً على قفاه ؛ الثالث : أن ينام على أحد وركيه ؛ لأنه في هذه الأحوال لا يكون ضابطاً لنفسه لاسترخاء مفاصله . أما إذا نام وهو جالس ومقعدته متمكنة من الأرض أو غيرها فإنه لا وضوء عليه على الأصح . فإذا كان في هذه الحالة مستنداً إلى وسادة - مخدة - ونحوها . ثم رفعت الوسادة وهو نائم فإن سقط وزالت مقعدته عن الأرض انتقض وضوءه أما إذا بقي جالساً ولم تتحول مقعدته فإن وضوءه لا ينتقض . وكذا لا ينتقض وضوءه إذا نام واقفاً . أو راكعاً ركوعاً تاماً . كركوعه الكامل في الصلاة ، أو ساجداً ، لأنه في هذه الحالة يكون متماسكاً ، وإذا نام نوماً خفيفاً ، وهو مضطجع ، بحيث يسمع من يتحدث عنده ، فإنه لا ينقض ، أما إذا لم يسمع ، فإنه ينقض ، والدليل على أن النوم لا ينقض إلا في حالة النوم مضطجعاً قوله صلى الله عليه وسلم : « إن الوضوء لا يجب إلا على من نام مضطجعاً ، فإنه إذا اضطجع استرخت مفاصلة »(١) رواه أبو داود ، والترمذي ؛ ورواه أحمد في « مسنده » والطبراني في « معجمه » وقد قاس الحنفية على النوم مضطجعاً حالتين . أن ينام مستلقياً على قفاه ؛ أو ينام على أحد وركيه لأن العلة في النقض ، وهي استرخاء المفاصل موجودة فيهما ، ولا ينقض النوم وضوء المعذور ، وهو من قام به سلس بول أو انفلات ريح . ينقض وضوءه ؛ لأن الخارج منه بسبب العذر لا ينقض الوضوء حال اليقظة ، فلا ينقض حال النوم من باب أولى . =

(١) رواه أبو داود [٢٠٢] والترمذى [٧٧] وضعفه الألبانى ، والبيهقى فى السنن الكبرى [٥٩٢] والطبرانى فى المعجم الكبير [١٢٧٤٨/١٢١/١٢] عن ابن عباس رضى الله تعالى عنه .

= الشافعية قالوا : إن النوم ينقض إذا لم يكن ممكناً مقعده بمقره ، بأن نام جالساً ، أو راكباً بدون مجافاة بين مقعده وبين مقره ، فلو نام على ظهره أو جنبه . أو كان بين مقعده ومقره تجاف ، بأن كان نحيفاً انتقض وضوءه ، ولا ينقضه النعاس ، وهو ثقل في الدماغ يسمع معه كلام الحاضرين . وإن لم يفهمه بخلاف النوم .

الحنابلة قالوا : إن النوم ينقض الوضوء في جميع أحواله ، إلا إذا كان يسيراً في العرف وصاحبه جالس أو قائم .

المالكية قالوا : إن النوم ينقض الوضوء إذا كان ثقيلاً : قصيراً ، أو طويلاً ، سواء كان النائم مضطجعاً ، أو جالساً ، أو ساجداً ، ولا ينتفض بالنوم الخفيف ، طويلاً كان ، أو قصيراً ، إلا أنه يندب الوضوء من الخفيف إن طال ، وشرط نقض الوضوء بالنوم الثقيل القصير أن لا يكون النائم مسدود المخرج ، كأن يلف ثوباً ويضعه بين إليتيه ، ويجلس عليه ، ويستيقظ وهو بهذه الحال وأما الثقيل الطويل فينقض مطلقاً ولو كان مسدوداً . والثقيل ما لا يشعر صاحبه بالأصوات . أو بانحلال حبوته إن كان جالساً محتبياً . أو بسقوط شيء من يده أو بسيلان ريقه ، أو نحو ذلك .

القسم الثاني من النواقض بغير الخارج : لمس من يشتهي ، سواء أكان امرأة ، أم غلاماً ، وقد اصطلح الفقهاء ، الشافعية ، والحنابلة : اصطلحوا على خلط أحكام المس بأحكام اللمس . بخلاف المالكية والحنفية . فقد ذكروا حكم اللمس وحده ، وحكم المس وحده ، وخصوا المس بما كان باليد . والأمر في ذلك سهل » على أن اللمس تارة يكون باليد ، وتارة يكون بغيرها من أجزاء البدن ، أما المس ، فإنه ما كان باليد خاصة ، ولكل منهما أحكام : فأما لمس من يشتهي فإنه ينقض الوضوء ، بشروط منفصلة في المذاهب . =

= « الشافعية قالوا : إن لمس الأجنبية – ويسمى مساً – ينقض مطلقاً . ولو بدون لذة . ولو كان الرجل هرماً والمرأة عجوز شوهاء . وهذا هو المقرر في مذهب الشافعية ، كان اللامس شيخاً أو شاباً . وقد يقال : إن الشأن في المرأة العجوز الشوهاء عدم التلذذ بلمسها : فأجابوا بأن المرأة ما دامت على قيد الحياة لا تعدم من يتلذذ بها ، وإنما ينقض اللمس بشرط عدم الحائل بين بشرة – جلد – اللامس والملموس ، ويكفي الحائل الرقيق عندهم ، ولو كان الحائل من الوسخ المتراكم من الغبار ، لا من العرق ، فلا ينقض لمس رجل لرجل آخر ، ولو كان الملموس أمرد جميلاً ، ولكن يسن منه الوضوء ، ولا ينقض لمس أنثى لمثلها ، ولا « خنثى لخنثى » أو لرجل ؛ أو لامرأة ، ولا ينقض إلا إذا بلغ اللامس والملموس حد الشهوة عند أرباب الطباع السليمة . واستثنوا من بدن المرأة شعرها ؛ وسنها ؛ وظفرها ، فإن لمسها لا ينقض الوضوء ؛ ولو تلذذ به ، لأن من شأن لمسها عدم التلذذ ، وقد يقال : إن السن في الفم ، والناس يتغزلون في الأسنان ، ويتلذذون بها أكثر من سائر أجزاء البدن ، فكيف يعقل أن يكون الشأن في لمسها عدم اللذة ؟ ولكن الشافعية يقولون : إنه لو صرف النظر عن لمس الفم ، ولمس يحيط بالأسنان ؛ كان السن مجرد عظم لا تلذذ به وهذا هو معنى أن الشأن فيها عدم التلذذ ، وينتقض الوضوء بلمس الميت . ولا ينتقض بلمس المحرم – وهي من حرم نكاحها على التأبيد ، بسبب نسب أو رضاع ، أو مصاهرة – أما التي لا يحرم زواجها على التأبيد ؛ كأخت الزوجة ، وعمتها ، وخالتها ، فإن لمس إحداهن ينقض الوضوء ، وكذا ينتقض بلمس أو الموطوءة بشبهة ، وبنتها ، فإن زواجهما ، وإن كان محرماً على التأبيد ، ولكن التحريم لم يكن بنسب ولا رضاع ، ولا مصاهرة ، وقد عرفت أن كل ذلك يسمى مسّا ، كما يسمى لمسا . =

= الحنابلة قالوا : ينتقض الوضوء بلمس المرأة بشهوة بلا حائل ، لا فرق بين كونها أجنبية مَحْرماً ، ولا بين كونها حية أو ميتة ، شابة كانت أو عجوزاً . كبيرة أو صغيرة ، تشتهي عادة ، ومثل الرجل في ذلك المرأة ، بحيث لو لمست رجلاً انتقض وضوؤها بالشروط المذكورة ، ولا ينقض اللمس إلا إذا كان لجزء من أجزاء البدن ، غير الشعر ، والسن ، والظفر ، فإن لمس هذه الأجزاء الثلاثة ، لا ينتقض الوضوء ، أما الملموس فلا ينتقض وضوؤه ، ولو وجد لذة ، ولا ينقض لمس رجل لرجل ، ولو كان جميلاً ؛ ولا لمس امرأة لامرأة ؛ ولا خنثى لخنثى ، ولو وجد اللامس لذة .

وبذلك تعلم أن الحنابلة متفقون مع الشافعية في أن لمس المرأة بدون حائل ينقض الوضوء ، ولو كانت عجوزاً شوهاء ما دامت تشتهي عادة . ومختلفون معهم في لمس المحارم ، فالحنابلة يقولون : إنه ينقض مطلقاً ، حتى لو لمس المتوضئ أمه ، أو أخته ؛ فإن وضوءه ينتقض بذلك اللمس ؛ خلافاً للشافعية ؛ ومتفقون معهم على أن لمس الرجل للرجل لا ينقض «ولو كان الملموس أمرد جميلاً » ، إلا أن الشافعية قالوا : يسن منه الوضوء : واتفقوا على أن لمس شعر المرأة وظفرها وأسنانها لا ينقض ، فلم يختلفوا إلا في تفاصيل خفيفة ذكرها الشافعية ، فلذلك أوردنا لك كل مذهب على حدة .

المالكية قالوا : إذا لمس المتوضئ غيره بيده أو بجزء من بدنه ، فإن وضوءه ينتقض . بشروط بعضها في اللامس ، وبعضها في الملموس . فيشترط في اللامس أن يكون بالغاً ، وأن يقصد اللذة أو يجدها بدون قصد فمتى قصد اللذة انتقض وضوءه ولو لم يلتذ باللمس فعلاً . ومثل ذلك ما إذا لم يقصد لذة ولكن التلذذ باللمس . وأن يكون الملموس عارياً . أو مستوراً بساتر خفيف فإن كان الساتر كثيفاً . فلا ينتقض الوضوء . إلا إذا كان اللمس بالقبض على عضو وقصد اللذة أو وجدها وأن يكون الملموس ممن يشتهي عادة ، =

= فلا ينتقض الوضوء بلمس صغيرة لا تشتهي . كبنت خمس سنين ، ولا بلمس عجوز انقطع إرب الرجال منها . لأن النفوس تنفر عنها ، ومن أجزاء البدن الشعر ، فينتقض الوضوء بلمس شعر المرأة إذا قصد لذة ، أو وجدها ، أما إذا لمست المرأة بشعرها يداً ، فإن وضوءها لا ينتقض ، وكذا لا ينتقض بلمس شعر رجل بشعر امرأة ، أو بلمس ظفر بظفر ، لفقد الإحساس فيهما عادة .
وقد عرفت أن المدار في اللمس على قصد اللذة أو وجدانها ، لا فرق بين أن يكون الملموس امرأة أجنبية ، أو زوجة ، أو شاباً أمرد ، أو شاباً له لحية جديدة ، يلتذذ به عادة ، أما إذا كان الملموس مَحْرَماً ، كأخت . أو بنتها ، أو عمة . أو خالة . وكان اللامس شهويا فقصد اللذة . ولكنه لم يجدها فإن وضوءه لا ينتقض بمجرد قصد اللذة . بخلاف ما إذا كانت أجنبية . ومن اللمس القبلة على الفم . وتنقض الوضوء مطلقاً . ولو لم يقصد اللذة أو يجدها أو كانت القبلة بإكراه ، ولا تنقض القبلة إذا كانت لوداع أو رحمة بحيث يكون الغرض منها ذلك في نفسه . بدون أن يجد لذة . فإن وجد لذة فإنها تنقض .
هذا كله بالنسبة للامس . أما الملموس فإن كان بالغاً ووجد اللذة انتقض وضوءه ، فإن قصد اللذة فإنه يصير لامساً يجري عليه حكمه السابق .
هذا ولا ينتقض الوضوء بفكر . أو نظر من غير لمس ولو قصد اللذة أو وجدها أو حصل له إنعاظ فإن أمذى بسبب الفكر أو النظر انتقض وضوءه بالمذي . وإن أمني وجب عليه الغسل بخروج المني .
الحنفية قالوا : إن اللمس لا ينقض بأي جزء من أجزاء البدن ولو كان اللامس والملموس عاريين . فلو كان الرجل متوضئاً ونام مع زوجته في سرير واحد وهما عاريان متلاصقان . فإن وضوءهما لا ينتقض إلا في حالتين : الحالة الأولى : أن يخرج منهما شيء من مذي ونحوه ، الحالة الثانية : أن يضع فرجه على فرجها . وذلك ينقض وضوء الرجل بشرطين : الشرط الأول : أن =

....

○○○

= ينتصب الرجل ، الشرط الثاني : أن لا يوجد حائل يمنع حرارة البدن ، أما وضوء المرأة فإنه ينتقض بمجرد ذلك التلاصق ، متى كان الرجل منتصباً .
فإذا فرض ونامت امرأة مع أخرى ، وتلاصقتا بهذه الكيفية ، فإن وضوءهما ينتقض بمجرد تلاصق الفرجين ببعضهما ، وهما عاريتان وبقيت صورة أخرى ، وهي أن يتلاصق رجل مع آخر وهما عاريان ، كما قد يقع في الحمام حال الزحام ، وحكم هذه الحالة هو أن لا ينتقض وضوءهما ، إلا إذا كان اللامس منتصبا .

هل يغنى الغسل عن الوضوء

السؤال : هل يغنى الغسل عن الوضوء ؟

الجواب : يتوقف على سبب الغسل وكيفيته . فإن كان الاستحمام للنظافة ، أى لمجرد غسل البدن والرأس ، فإنه لا يغنى عن الوضوء ، وأما إن كان الاستحمام لإزالة الحدث الأكبر ، فإن الوضوء فى مثل هذه الحالة يدخل فى الاستحمام .

ويجب أن نفهم أن هناك أشياء لا تطلب فى الوضوء ، ويبطل الغسل إن لم تفعل ، فأنت لا يطلب منك فى الوضوء فرضًا أن تتمضمض أو تستنشق ، لكن فى غسل الجنابة فرض عليك ذلك . وهناك نجد أن فى الغسل شيئًا غير موجود فى الوضوء ، فأنت إذا توضأت بدون أن تتمضمض أو تستنشق فإن وضوءك سليم ، أما فى الغسل ولم تتمضمض ولم تستنشق فغسلك باطل .

فالوضوء الشرعى هو غسل اليدين والوجه ومسح الرأس وغسل الرجلين ، وما زاد على ذلك فليس فرضًا ، ولكنه سنن .

أما فى الغسل فالمضمضة والاستنشاق فرض فيه ، لأنهما من ظاهر الجسد ، ولا تفطر إذا فعلتهما فى صيامك ، لأنك لم تدخلْ شيئًا فى جوفك ، فداخل الفم ليس من داخل الجوف .

○○○

الصلاة

السؤال : **متى شرعت الصلاة ؟**

الجواب : أصل الصلاة موجود منذ أن خلق الله الخلق .

والصلاة موجودة فى كل رسالات الرسل من أول آدم عليه السلام إلى سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم .

واقرأ قول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى ۖ وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَـٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴾ [البقرة : ١٢٥] .

إذن .. فالصلاة بالركوع والسجود سابقة على نزول الرسالة على سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام .

بل إنها فى عهد إبراهيم خليل الرحمن كان مقرها البيت الحرام . حيث عهد الحق سبحانه إلى خليله إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام أن يطهرا البيت الحرام للراكعين والساجدين .

وقوله سبحانه لمريم عليها السلام : ﴿ يَـٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴾ [آل عمران : ٤٣] .

إذن .. من آيات الحق سبحانه السابقة نعلم أن الصلاة كانت موجودة منذ أن أوجد الحق التكليف بالإيمان .

لكن مع رسالة الإسلام .. ومع مجىء البشير النذير محمد عليه الصلاة والسلام أخذت الصلاة الإسلامية خاصيتها وجمعت ميزة كل صلوات الرسل السابقين على رسول الله صلى الله عليه وسلم .

لقد كانت صلوات الرسل فى بعض الأزمنة ركعتين فى أول النهار وركعتين فى آخر النهار ، فلما جاء الأمر بالصلاة فى الإسلام أخذت الصلاة كل مميزات الصلاة وأضيف إليها ما كلف اللّه تعالى به نبيه ورسوله محمد صلى اللّه عليه وسلم .

ونحن نعلم أن الصلاة فى شريعة الإسلام فرضت فى ليلة الإسراء والمعراج . والصلاة هى خشوع للحق ليظل الإنسان في ربانية العزة ويظل فى عبودية لهذه الربانية . والصلاة هى الشحنة التى يتجدد بها إقبال المؤمن على أوامر الحق بجد واجتهاد .

○○○

فرضية الصلاة

جاء فى حديث الإسراء والمعراج : ثم علا به – أى النبى صلى اللَّه عليه وسلم – فوق ذلك بما لا يعلمه إلا اللَّه حتى جاء إلى سدرة المنتهى ، ودَنَا الجبار رب العزة فتدلى حتى كان منه قاب قوسين أو أدنى ، فأوحى اللَّه فيما أوحى خمسين صلاة على أُمتك كل يوم وليلة ، ثم هبط حتى بلغ موسى فاحتبسه موسى فقال : يا محمد ماذا عهد إليك ربك ؟ قال : عهد إلى خمسين صلاة كل يوم وليلة ، قال : إن أُمتك لا تستطيع ذلك ، فارجع فليخفف عنك ربك وعنهم ، فالتفت النبى صلى اللَّه عليه وسلم إلى جبريل كأنه يستشيره فى ذلك فأشار إليه جبريل أن نعم إن شئت ، فعلا به إلى الجبار فقال وهو مكانه : يا رب خفف عنا ، فإن أمتى لا تستطيع هذا ، فوضع عنه عشر صلوات ثم رجع إلى موسى فاحتبسه فلم يزل يردده موسى إلى ربه حتى صارت إلى خمس صلوات ، ثم احتبسه موسى عند الخمس ، فقال : يا محمد واللَّه لقد راودت بنى إسرائيل قومى على أدنى من هذا ، فضعُفُوا فتركوه فأُمتك أضعف أجسادًا وقلوبًا وأبدانًا وأبصارًا وأسماعًا ، فارجع فليخفف عنك ربك وكل ذلك يلتفت النبىصلى اللَّه عليه وسلم إلى جبريل ليشير عليه ولا يكره ذلك جبريل فرفعه عند الخامسة فقال : يا رب إن أُمتى ضعفاء أجسادُهم وقلوبهم وأسماعهم وأبدانهم فخفف عنا ؟ فقال الجبار : يا محمد ، قال : لبيك وسعديك قال : إنه لا يبدل القول لدى كما فرضت عليك فى أُم الكتاب قال : فكل حسنة بعشر أمثالها فهى خمسون فى أُم الكتاب ، وهى خمس عليك ، فرجع إلى موسى فقال : كيف فعلت ؟ فقال : خفف عنا أعطانا بكل حسنة عشر أمثالها قال موسى : قَدْ واللَّه راودت بنى إسرائيل على

أدنى من ذلك فتركوه ، ارجع إلى ربك فليخفف عنك أيضًا قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : قد واللّه استحييت من ربى مما اختلفت إليه قال : فاهبط بسم اللّه ، قال : واستيقظ وهو فى المسجد الحرام .

وربما يتبادر إلى أذهاننا جميعاً تساؤل وهو : إذا كانت الصلاة قد فرضت فى المعراج ، وهذه المرائى قد رآها رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ، قبل أن تفرض الصلاة على أمته . والتساؤل نفسه يمكن أن يكون مطروحا بالنسبة لآكل الربا ، وآكل مال اليتامى ، فلماذا لم يفرضا وقتها ؟! والصورة الأخرى التى تدل على تشريعات اجتماعية ، فى المجتمع الإسلامي ، لم تكن قد فرضت بعد ؛لأن كل التشريعات فرضت بعد ذلك فى المدينة المنورة بعد الهجرة ، ولكن سنجتزئ بالمثال الخاص بالصلاة ، لماذا ؟ لأن كل التكاليف والأوامر فى الإسلام إنما كانت بوحى من اللّه تبارك وتعالى إلى رسوله صلى اللّه عليه وسلم عن طريق جبريل عليه السلام ، لكن للصلاة منزلة خاصة ، فهى لم تفرض عن طريق جبريل ، وكانت هى العبادة الوحيدة التى فرضها اللّه مباشرة على رسوله صلى اللّه عليه وسلم .

وأما مسألة المرائى التى أُرِيَها رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ، لأمور لم تكن قد شرعت فى الإسلام ؛ لأن تشريعها سيتأخر ، فالعلم عند اللّه سبحانه وتعالى فى المسائل ليس مترتبا ، بأن يعلم شيئا يقع أولا ، وبعد ذلك شىء يقع ثانيًا .

وإنما كل الكون ، بما كان وسيكون ، معلوم للّه سبحانه وتعالى وحدة واحدة حتى قبل أن يكون ، فهو سبحانه وتعالى خالقه وموجده بما فيه - وكأن الحق سبحانه وتعالى أمد رسوله ﷺ بنهايات هذه الأشياء ، حتى إذا ما أنزل تكليفًا ، أقبل الناس عليه بجد واجتهاد مستسلمين مذعنين ، لماذا ؟ ؛ لأنهم علموا مسبقًا ، ماذا يكون جزاء من يخالف منهج اللّه سبحانه وتعالى .

إذن .. علم اللّٰه تعالى فى التكليف ، وعلم اللّٰه تعالى فى الجزاء ، لا ترتيب فيه أبدًا كطريقتنا ، بل كل شيء عند اللّٰه هو هو . فهو سبحانه خالق التكليف ، وخالق الجزاء . فإذا كان اللّٰه تعالى قد عرض لنا صورة لشيء سيكلّفنا به فيما بعد ؛ فلأن الواقع في الجزاء عنده ، هو هذا ، ولن يتغير ولن يتجدد فيه شيء آخر أبدًا . ولذلك يجب أن نفطن إلى أن اللّٰه سبحانه وتعالى حينما يتكلم عن أمر مستقبلي ، يتكلم عنه لا بصفة الاستقبالية ، فصفة الاستقبالية يأخذها البشر بزمانهم فقط . أما بالنسبة للحق سبحانه وتعالى ، فلا استقبال ولا حال ولا ماضي ؛ لذلك تجد هذا واضحا فى قول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُۚ ﴾ لو أن هذا الكلام من عند غير اللّٰه سبحانه وتعالى ، لقلنا : كيف يقول : ﴿ أَتَىٰٓ ﴾ وبعد ذلك يقول : ﴿ تَسۡتَعۡجِلُوهُۚ ﴾ ، وهل نستعجل إلا ما لم يأتِ ؟

اللّٰه تبارك وتعالى حين يقول : ﴿ أَتَىٰٓ ﴾ فى أمر ما ، يأتى أو سيأتي ، فهو آتٍ لا محالة ، فلا زمن عند اللّٰه تعالى ، فكذلك هذه الأشياء وإن كانت ستأتى بعد ذلك ، والمخالفون سيأتون بعد ذلك ، إلا أن اللّٰه أعد لهم ذلك الجزاء ، وإن كان قبل أن يوجد التكليف لعلمه سبحانه بما كان وسيكون[1] .

---

(١) قال الإمام أبو بكر بن خزيمة فى باب ذكر إثبات العلم للّٰه جل وعلا : تباركت أسماؤه وجل ثناؤه ، بالوحى المنزل على النبى المصطفى صلى اللّٰه عليه وسلم الذى يقرأ فى المحاريب والكتاتيب من العلم الذى هو من علم العام ، لا بنقل الأخبار التى هى من نقل علم الخاص ، ضد قول الجهمية المعطلة الذين لا يؤمنون بكتاب اللّٰه ، ويحرفون الكلم عن مواضعه ، تشبها باليهود - ينكرون أن للّٰه علما ، يزعمون أنهم يقولون أن اللّٰه هو العالم ، وينكرون أن للّٰه علمًا مضافًا إليه من صفات الذات .
=

أما مسألة الصلاة : فهنا بحث يجب أن نبحثه ، وهو أنه وردت الأحاديث الصحيحة بأن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم صلّى إماماً بالأنبياء فى بيت المقدس ، قبل أن يُعرج به إلى السماء . والصلاة فرضت بعد العروج ؟ فنقول لهم : نعم ، الصلاة على هيئتها الحالية ؛ فرضت فى رحلة المعراج . أما الصلاة كصلاة فهى موجودة فى كل رسالة ، وعند أتباع كل رسول . ولذلك فالحق سبحانه وتعالى يقول لإبراهيم وإسماعيل عليهما السلام : ﴿ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴾ .

= قال اللّه جل وعلا فى محكم تنزيله : ﴿ لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ ﴾ [النساء : ١٦٦] وقال عز وجل : ﴿ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ ﴾ [هود : ١٤] .

فأعلمنا اللّه أنه أنزل القرآن بعلمه ، وخبرنا جل ثناؤه أن أىَّ أنثى لا تحمل ولا تضع إلا بعلمه ، فأضاف اللّه جل وعلا إلى نفسه العلم .

فكفرت الجهمية وأنكرت أن يكون لخالقنا علم مضاف إليه من صفات الذات ، تعالى اللّه عما يقول الطاعنون فى علم اللّه علوًا كبيرًا ، فيقال لهم : خبرونا عمن هو عالم بالأشياء كلها ، أله علم أم لا ؟ فإن قال : اللّه يعلم السر والنجوى وأخفى وهو بكل شىء عليم ، أله علم أم لا علم له ؟ فلا جواب لهم لهذا السؤال إلا الهرب ، ﴿ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [البقرة : ٢٥٨]

كتاب التوحيد [١/٢٢،٢٣] .

وعن ابن عمر رضى اللّه عنهما عن النبى صلى اللّه عليه وسلم قال : « مفاتيح الغيب خمس لا يعلمها إلا اللّه ، لا يعلم ما تغيض الأرحام إلا اللّه ، ولا يعلم ما فى غدٍ إلا اللّه ، ولا يعلم متى يأتى المطر أحد إلا اللّه ، ولا تدرى نفسٌ بأى أرض تموت إلا اللّه ، ولا يعلم متى تقوم الساعة إلا اللّه » .

أخرجه البخارى [٧٣٧٩] .

وأيضاً فى سورة آل عمران : ﴿ يَـٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴾ [آل عمران : ٤٣] .

وفى آية أخرى : ﴿ رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ [إبراهيم : ٣٧] .

إذن .. فهناك ركوع وهناك سجود ، من يوم أن خلق اللّه الأرض ، ومن يوم أن جعل اللّه التكليف .. فكان هناك صلاة ولكن لا كالصلاة الآن ؛ فالصلاة الآن جمعت ميزات كل صلوات الرسل . فصلوات الرسل كانت فى بعض الأزمنة غدوة وعشيه ، ركعتين فى أول النهار ، وركعتين فى آخره ،لها شكل خاص فى القيام ، وشكل خاص فى الركوع ، وشكل خاص فى السجود . فلما فرضت الصلاة فى الإسلام الخاتم ، أخذت كل ميزات الصلوات السابقة ، ولم يأخذ رسول من الرسل السابقة العدد الذى فرض على أمة محمد صلى اللّه عليه وسلم ، بذلك التوزيع الزمني ، خمسة أوقات فى اليوم والليلة ، ولذلك نجد أن موسى عليه السلام استكثر هذا .

إذن .. كانت هناك صلاة ، ولكن الصلاة التى فرضت ، هى الصلاة الجامعة لكل مزايا الصلوات المتقدمة ، عند الرسل السابقين ، عليهم الصلاة والسلام .

بعد ذلك نقول : إن التكاليف التى يكلّف اللّه بها عباده ، بواسطة الرسل ، هى تكاليف لتنظيم حركة حياتهم من ناحية مجتمعهم ، ومن ناحية سياستهم ، واقتصادهم ، وأخلاقهم . وإن الإقبال على هذا المنهج ، لابد وأن يكون بدافع أن اللّه تعالى هو الذى أمر به .. لماذا ؟ لأن البشر لهم فى مثل هذه الأمور تشريعات اجتماعية ، وخلقية ، فما الذى يجعلنى أرغب عن تشريعات البشر ، إلى تشريعات الحق سبحانه وتعالى ؟ لأننى آمنت بأن اللّه سبحانه

وتعالى هو الإله الحق المستحق للعبادة وحده ، ولذلك وجب على أن أتلقى تكاليفى منه وحده سبحانه .

إذن .. فالحق تعالى ، الذى آمنت به ، يطلب منى أن أقف بين يديه ، كل يوم خمس مرات ؛ لأظل دائما موصولا به سبحانه ، وأظل فى عبودية دائمة له سبحانه . والصلاة هى الشحنة التى تشحذ همة المؤمن ؛ ليقبل على أوامر ربه بجد واجتهاد ، وأن هذه الشحنة هى الأساس ، الذى سيحرك هذه « القاطرة » الإنسانية نحو الأوامر والنواهى الإلهية .

لقد كانت الصلاة فى فرضها والتكليف بها ، تختلف عن كل الأحكام ، بأنها فرضت من اللّه تعالى مباشرة .

ولنضرب مثلًا - وللّه تعالى المثل الأعلي- إن الرئيس حينما يكتب إلى مرؤوسه كتابًا ، فيكون أمرا عاديا ، فإذا كان الأمر أهم ، استدعاه عنده ، وقال له : افعل كذا وكذا . فهو لم يستدعِهِ إلا لأن هذا أمر بالغ الأهمية ؛ ولأن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم جُعل له المعراج تكريماً لقربه من حضرة ربه . وما دام تكريماً لقربه من حضرة ربه ، ومحمد صلى اللّه عليه وسلم مبعوث رحمة للعالمين جميعاً ، وحرصه على أمته حرص شديد ، لم يشأ اللّه تعالى فى مقام قربه منه ، إلا أن يردّه إلى أمته بما يقرب المؤمنين به من اللّه سبحانه وتعالى ، فكانت الصلاة هدية القرب للقرب .

المعراج كان تكريماً لرسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ؛ لأنه كان قرباً من اللّه سبحانه وتعالى . لم يستأثر رسول اللّه ﷺ وحده بالتكريم ، ولكن لأنه يحب أمته ، لابد أن يرجع بهدية من اللّه تعالى إلى من يؤمن به ؛ لتكون وسيلة إلى القربى . ولذلك يقول الحق : ﴿ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ﴾[1] [العلق : ١٩] . فكأن

(١) يقول البقاعى : ﴿ وَٱسْجُدْ ﴾ أى دم على صلاتك وخضوعك بنفسك ، وجدد ذلك فى كل وقت . ولما كان السجود أقرب مقرب للعبد إلى اللّه ، =

= قال : ﴿ وَاقْتَرِب ﴾ أى اجتهد بسرك فى بلوغ درجة القرب إلى ربك بكل عبادة ، لاسيما الصلاة . فإنه أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد[1] ، وقد شرح هذا المقام كما تقدم فى الفاتحة قوله ﷺ : « أعوذ بعفوك من عقوبتك »[2] فإن هذه الجملة أفادت - كما قال فى كتاب الشكر - مشاهدة أفعال اللّه فقط ، فكأنه لم ير إلا اللّه وأفعاله ، فاستعاذ بفعله من فعله . قال : ثم اقترب ففنى فى مشاهدة الأحوال ، وترقى إلى مصادر الأفعال ، وهى الصفات ، فقال : « أعوذ برضاك من سخطك » لأنّهما صفتان . ثم رأى ذلك نقصانًا فى التوحيد ، فاقترب وترقى من مقام مشاهدة الصفات ، إلى مشاهدة الذات. فقال : « وأعوذ بك منك » ، فراراً منه إليه من غير رؤية فعل وصفة. ولكنه رأى نفسه فارًا منه إليه ومستعيذًا ومثنيًا ، ففنى عن مشاهدة نفسه إذ رأى ذلك نقصانًا ، فاقترب فقال : أنت كما أثنيت على نفسك ، لا أحصى ثناء عليك[3] فقوله : لا أحصى خبر عن فناء نفسه ، وخروجه عن مشاهدتها ، =

---

(١) عن أبى هريرة رضى اللّه عنه أن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم قال : « أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد ، فأكثروا الدعاء » . أخرجه مسلم [٢١٥/٤٨٢] والنسائى فى الكبرى [٧٢٣] .

(٢) راجع نظم الدرر [٣٤،٣٣/١] .

(٣) عن عائشة رضى اللّه عنها قالت : فقدت رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ليلة من الفراش ، فالتمستُه ، فوقعتْ يدى على بطن قدميه ، وهو فى المسجد ، وهما منصوبتان وهو يقول : « اللّهم أعوذ برضاك من سخطك ، وبمعافاتك من عقوبتك ، وأعوذ بك منك . لا أحصى ثناءً عليك . أنت كما أثنيت على نفسك » .
أخرجه مسلم [٢٢٢/٤٨٦] واللفظ له ، وأبو داود [٨٧٩] ، والنسائى فى المجتبى [٢١٠/٢] ، وابن ماجة [٣٨٤١] .

= وقوله : « أنت كما أثنيت » بيان أنه المثنى والمثنى عليه ، وأن الكل منه بدأ وإليه يعود ، وأن كل شيء هالك إلا وجهه ، فكان أول مقامه نهاية مقامات الموحدين . وهو أول أفعاله ، فيستعيذ بفعل من فعل ، فانظر إلى ماذا انتهت نهايته ؟ إذن .. انتهى إلى الواحد الحق ، حتى ارتفع من نظره ومشاهدته سوى الذات الحق . ولقد كان صلى اللَّه عليه وسلم لا يرقى من مرتبة إلى أخرى ، إلا ويرى الأولى بعدًا بالإضافة إلى الثانية ، فكان يستغفر اللَّه من الأولى ، ويرى ذلك نقصا فى سلوكه ، وتقصيرًا فى مقامه . وإليه الإشارة بقوله صلى اللَّه عليه وسلم « إنه ليغان على قلبى حتى أستغفر اللَّه فى اليوم والليلة سبعين مرة »[1] فكان ذلك لترقيه إلى سبعين مقامًا ، بعضها يعد نقصًا لنقص أوائلها ، وإن كان مجاوزًا أقصى غايات مقامات الخلق ، ولكن كان نقصانًا بالإضافة إلى أواخرها ، فإن استغفاره لذلك .

ولما قالت له عائشة رضى اللَّه عنها : قد غفر اللَّه لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ، فما هذا البكاء فى السجود ، وما هذا الجهد الشديد؟ قال : « أفلا أكون عبدًا شكورًا ؟ »[2] معناه : أفلا أكون طالبا للمزيد فإن الشكر سبب الزيادة ؛ حيث قال تعالى : ﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾ [إبراهيم : ٧] انتهى .

وهو على ما ترى من النفاسة ، فمن أكثر من الدعاء فى سجوده ، فقمن أن يستجاب له ، والصلاة لا تكون قراءة ، فإذا فعلت ذلك احتجبت عن الأغيار بحجاب منيع ، فازددت صفاء وصنت حالك عن الغِيَر - كما يرشد إليه ما فى صحف إبراهيم عليه الصلاة والسلام ، ينبغى للعاقل أن يكون حافظًا =

---

(١) أخرجه مسلم [٤١/٢٧٠٢] عن الأغر المزنى بلفظ : « إنه ليغان على قلبى ، وإنى لأستغفر اللَّه فى اليوم مائة مرة » . وأخرجه أبو داود [١٥١٥] .

(٢) أخرجه البخارى [١١٣٠،٤٨٣٦] ، ومسلم [٧٩/٢٨١٩،٨٠،٨١] .

السجود الذى هو أظهر مظاهر الخضوع فى الصلاة ، هو الذى يقرب الإنسان إلى اللَّه تعالى وذلك القرب الذى اقتربه رسول اللَّه من ربه ، فكأن اللَّه سبحانه وتعالى حيا محمدًا ﷺ ، حين قرّبه منه فى الملأ الأعلى ، بأن حمّله هدية إلى المؤمنين برسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم ؛ لتكون لهم مدخلاً للقرب من اللَّه ، كما كان لرسول اللَّه حظه فى القرب منه سبحانه وتعالى .

ولتوضيح معنى أن الصلاة تقربك من الحضرة الإلهية ، نقول :

إن الإنسان خلق من اللَّهِ تعالى ، فاللَّه تعالى هو مُبْدِعُه ، وهذا الخلق والإبداع يقف كل يوم خمس مرات ، فلابد أن يكون على أوفى شىء من الضبط . وقلنا : إن المهندس من البشر ، يصلح الآلة بشيء مادى يصنعه فيها ، ولكن الحق سبحانه وتعالى - لأنه غيب بالنسبة لنا - يُصْلِح عبده الذى يقف بين يديه ، فى لحظة القرب هذه ، بأمر غيبى أيضاً ، وليس بعملية مادية . فتخرج من مقامك بين يدى ربك ، وأنت منشرح الصدر ، وقد انزاحت همومك من على كاهلك ، وقوى إيمانك وتوثَّقت صلتك باللَّه تعالى .

إذن .. فالصلاة هى التى تعلم الإنسان ، كيف يقبل على التكاليف ، وإذا كان الإسلام قد بنى على خمس :

١ - شهادة أن لا إله إلا اللَّه ، وأن محمدًا رسول اللَّه .

٢ - وإقام الصلاة .

٣ - وإيتاء الزكاة .

٤ - وصوم رمضان .

= للسانه ، عارفًا بزمانه مقبلاً على شأنه » - واللَّه أعلم فقد رجع آخرها إلى الأول ، أوجه وأجمل وأكمل ، واللَّه الهادى .

نظم الدرر [٢٢/١٧٣-١٧٥] .

٥ - وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلاً .

فلننظر إلى هذه الأركان ، قد لا توجد هذه الأركان فى بعض الناس ، صحيح هى أركان الإسلام ، ولكن ليست هى أركان المسلم . بمعنى : أن المسلم قد يكون فقيراً فلا تجب عليه الزكاة (١) ، والمسلم قد يكون مريضاً أو على سفر ، فلا يصوم ، ويسقط عنه فرض الصوم لأجل مسمّى(٢) ، وقد لا يستطيع الحج ، فيسقط عنه فرض الحج(٣) .

---

(١) عن ابن عباس رضى اللّٰه عنهما أن رسول اللّٰه ﷺ لما بعث معاذًا رضى اللّٰه عنه على اليمن قال : إنك تقدم على قوم أهل كتاب ، فليكن أول ما تدعوهم إليه عبادة اللّٰه ، فإذا عرفوا اللّٰه فأخبرهم أن اللّٰه قد فرض عليهم صلوات فى يومهم وليلتهم . فإذا فعلوا الصلاة فأخبرهم أن اللّٰه قد فرض عليهم زكاة تؤخذ من أموالهم وترد على فقرائهم ، فإذا أطاعوا بها فخذ منهم ، وتوق كرائم أموال الناس .

أخرجه البخارى [١٣٩٥،١٤٥٨،١٤٩٦،٤٣٤٧،٧٣٧١،٧٣٧٢] واللفظ له ، ومسلم [١٩] .

(٢) وذلك قول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ ۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا۟ ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [البقرة : ١٨٥] .

(٣) قال سبحانه وتعالى : ﴿ فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا ۗ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [آل عمران : ٩٧] .

وعن عبد اللّٰه بن عباس رضى اللّٰه عنهما قال كان الفضل رديف رسول اللّٰه صلى اللّٰه عليه وسلم ، فجاءت امرأة من خثعم ، فجعل الفضل ينظر إليها =

إذن .. هى أركان الإسلام ، وليست أركان المسلم ؛ لأن المسلم يعتمد أولاً على الشهادة ثم الصلاة بإقامتها . وعلى هذا فإن الركن الأساسى ، الذى لا ينفك عن الإنسان المسلم أبداً ، بعد الشهادة هو الصلاة .

والشهادة قد يقولها المسلم مرة عند دخوله الإسلام فهى مفتاح دخول الدين وإن كان عليه بالطبع أن يرددها باستمرار مع المؤذن ، ويجدد بها إيمانه دوما ، وأما الصلاة فلا تنفك عن المسلم أبدا حتى وهو فى الحرب ، أو وهو مريض ؛ إذ يجب عليه أن يؤدى الصلاة ، حتى ولو بقلبه .

إذن .. فلا عذر لمن لا يؤديها أبدا ، لا مهرب ولا مفر[1] .

= وتنظر إليه ، وجعل النبى صلى الله عليه وسلم يصرف وجه الفضل إلى الشق الآخر ، فقالت : يا رسول الله إن فريضة الله على عباده فى الحج أدركت أبى شيخًا كبيرًا لا يثبت على الراحلة ، أفأحج عنه ؟ قال : نعم وذلك فى الوداع .

أخرجه البخارى [١٥١٣،١٨٥٤،١٨٥٥،٤٣٩٩،٦٢٢٨] .

(١) عن عمران بن حصين ، قال : قال النبى ﷺ : صلِّ قائماً ، فإن لم تستطع فقاعدا ، فإن لم تستطع فعلى جنب » . أخرجه البخارى [١١١٧] .

وعن جابر أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : بين الكفر والإيمان ترك الصلاة

أخرجه الترمذى [٢٦١٨] وقال : حديث حسن صحيح ، واللفظ له ، وابن ماجه [١٠٧٨] ، وصححه الألبانى .

وعن عبد الله بن بريدة عن أبيه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : العهد الذى بيننا وبينهم الصلاة ، فمن تركها فقد كفر » .

أخرجه الترمذى [٢٦٢١] وقال : حديث حسن صحيح غريب ، والنسائى فى المجتبى [١/٢٣١،٢٣٢] ، وابن ماجه [١٠٧٩] ، وصححه الألبانى .

أنت مطلوب منك أن تشهد بأن لا إله إلا اللّه ، وأن محمدًا رسول اللّه ، ولو مرةً واحدة ؛ إذ هى مفتاح دخولك الإسلام ، وبعد ذلك قد تصوم أو لا تصوم ، وذلك حسب الصحة والمرض والسفر ، وقد لا تحج إذا كنت غير مستطيع للحج فلا تحج ، فما الذى بقى لك من أركان الإسلام ، بقى لك الصلاة ، وهى الركن المتكرر الدائم ؛ لذلك فالصلاة عماد الدين[1] .

وإذا نظرت إلى الصلاة وجدت - مع كونها لا تسقط عن مسلم أبدا - فيها كل أركان الإسلام ؛ لأنك لابد فى الصلاة أن تشهد أن لا إله إلا اللّه ، وأن محمدا رسول اللّه ، فالركن الأول مكرر فيها .

وأيضاً إيتاء الزكاة ، ما الزكاة ؟ إن الزكاة هى شىء من مال يعطى للمحتاج ؛ أى أن تضحى بشىء من مالك ، والمال فى عرف الإسلام فرع الوقت ؛ لأن العمل يحتاج إلى وقت ، فكأنك ضحّيت ببعض مالك الناتج من عملك ، الناتج من استغلال وقتك . والصلاة لا تأخذ من المال ، ولكن تأخذ

---

(١) الصلاة عماد الدين ، ولقد وعد اللّه تعالى بالجنة من يحافظ على الصلاة ، وأوعد بالويل الذين هم عن صلاتهم ساهون ، كما فى قوله تعالى : ﴿ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝ ﴾ [الماعون] ، وقوله تعالى : ﴿ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ۝ قَالُواْ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ۝ ﴾ [المدثر] .

وعن أبى هريرة رضى اللّه عنه قال : إن النبى ﷺ قال : « إن أول ما يحاسب به العبد يوم القيامة صلاته ، فإن وجدت تامة ، كتبت تامة ، وإن كان انتقص منها شىء » ؛ قال : انظروا ، هل تجدون له من تطوع يُكَمّلُ له ما ضيع من فريضة ، ثم سائر الأعمال تجرى على حسب ذلك » أخرجه النسائى فى المجتبى [١/٢٣٢] ، وصححه الألبانى .

من الوقت الذى يُعمل فيه العمل ، الذى يأتى بالمال ، فكأن الزكاة أخذت شيئاً من المال الناتج عن العمل ، والعمل الناتج عن الوقت . إلا أن الصلاة أخذت من الوقت نفسه ، من الأساس الأصيل .

إذن .. حينما تأخذ من يومك ساعةً للصلاة ، تكون قد اقتطعتَ جزءًا من الوقت ، فجعلته للصلاة ، كما تقتطع جزءا من المال .

إذن .. فالزكاة اقتطاع من المال ، والمال ناشئ عن العمل ، والعمل يحتاج إلى وقت ، فالصلاة تقتطع من الوقت الأساسي ، ففيها زكاة أهم من المال . والذى يمنع الناس عن كثير من الصلاة ، هو أن يقولوا : إنها تحتاج إلى وقت ، وهذا يعطّلنا عن مصالحنا . فيكون ردّنا عليهم بأن نقول لهم : كما أن اللّه سبحانه وتعالى سمى نقصان المال من الزكاة : زكاة ، فهو لم يسمّهِ نقصاناً ، ولكن سمّاه زكاة ، ونماء[1] ، فيجب أن تستقبل أيضًا الوقت الضائع عندك

---

(١) يقول العلامة الراغب الأصفهانى : أصل الزكاة النمو الحاصل عن بركة اللّه تعالى ، ويعتبر ذلك بالأمور الدنيوية والأخروية ، يقال : زكا الزَّرع يزكو ، إذا حصل منه نموّ وبركة . وقوله : ﴿ أَيُّهَآ أَزۡكَىٰ طَعَامٗا ﴾ [الكهف : ١٩] إشارة إلى ما يكون حلالاً لا تُستوخم عقباه ، ومنه الزكاة لما يخرج الإنسان من حق اللّه تعالى إلى الفقراء ، وتسميته بذلك لما يكون فيها من رجاء البركة ، أو لتزكية النفس ، أى تنميتها بالخيرات والبركات أو لهما جميعا ، موجودان فيها ، وقرن اللّه تعالى الزكاة بالصلاة فى القرآن بقوله : ﴿ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾ [البقرة : ٤٣] وبزكاة النفس وطهارتها ، يصير الإنسان بحيث يستحق فى الدنيا الأوصاف المحمودة الأجر والمثوبة . وهو أن يتحرَّى الإنسان ما فيه تطهيره ، وذلك ينسب تارة للعبد ؛ لكونه مكتسبًا لذلك ، نحو : ﴿ قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴾ [الشمس : ٩] وتارة ينسب إلى اللّه تعالى ؛ لكونه فاعلا =

فى الصلاة ، الذى تقول عليه : ضائعاً ، استقبالك الناقص يخرج من مالك ، فهو ينمّيه ويزيده ولا ينقصه . فكذلك الوقت إذا ضحّيت منه ببعضه ، وجعلته للّه سبحانه وتعالى ، فإن البركة فى بقية الوقت ، ستعوّضك كل ما قد مضى ، كما أن الزكاة نماء ، والربا محق .

وأيضاً فيها صوم ، وما هو الصوم ؟ الصوم هو الإمساك عن شهوتى البطن والفرج ، فى نهار رمضان . وأنا فى الصلاة أمسك عن شهوتى البطن والفرج ، وعن الحركة والكلام ، وعن كل شىء .

= لذلك نحو : ﴿ بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ ﴾ [النساء : ٤٩] وتارة إلى النبى صلى اللّه عليه وسلم ، لكونه واسطة فى وصول ذلك إليهم ، نحو : ﴿ تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا ﴾ وتارة إلى العبادة ، التى هى آلة فى ذلك ، نحو : ﴿ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا ﴾ أى مزكّى بالخِلقة ، وذلك على طريق ما ذكرنا من الاجتباء ، وهو أن يجعل بعض عباده عالماً وطاهر الخلق ، لا بالتعلم والممارسة ، بل بتوفيق إلهي . كما يكون حال الأنبياء والرسل ، وينعته بالمزكّى لما يكون عليه فى الاستقبال ، لا فى الحال والمعنى سيتزكى ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ﴾ ، أى يفعلون ما يفعلون من العبادة ليزكّيهم اللّه أو ليزكّوا أنفسهم والمعنيان واحد . وليس قوله للزكاة مفعولا لقوله فاعلون ، بل اللام فيه للعلة والقصد . وتزكية الإنسان نفسه ضربان : أحدهما : بالفعل وهو محمود وإليه قصد بقوله : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴾ .

والثانى : بالقول كتزكية العدل غيره ، وذلك مذموم أن يفعل الإنسان بنفسه ، وقد نهى اللّه تعالى عنه فقال : ﴿ فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمْ ﴾ [النجم:٣٢] ونهيه عن ذلك تأديب لقبح مدح الإنسان نفسه ، عقلا وشرعًا ، قيل لحكيم : ما الذى لا يحسن وإن كان حقا ؟ فقال : مدح الرجل نفسه .

مفردات ألفاظ القرآن [٢١٨] .

إذن .. فهناك لون من الصيام متعلقاته فى المنع ، أوسع من متعلقات الصيام[1] .

وأيضاً فيها قصد البيت الحرام والاتجاه إليه ؛ لأنك تستحضر وأنت تصلى الكعبة ، بيت اللّه سبحانه وتعالى ، فتتجه إليه ، وتتحرى عن اتجاهه .

ولما كانت الصلاة هى الركن الوحيد الذى لا يسقط عن المسلم ، جاءت فيها كل الأركان فى شهادة أن لا إله إلا اللّه ، وأن محمدًا رسول اللّه . ومن الزكاة بشيء أكثر فائدةً من المال ، بل بالوقت الذى يأتى بالمال ، ومن صومٍ صمته فوق ما تصوم فى رمضان ،واستحضار لبيت ربك فى كل وقت من الأوقات ، فكأنك حججت بقلبك ، وإن عجزت عن الحج بجسدك .

ولكن .. ماذا عن دور موسى عليه السلام فى النصح بمراجعة اللّه سبحانه وتعالى ؛ للتخفيف عن المسلمين بإنقاص الصلاة ؟

هنا نريد أن نقول : فرضية الصلاة كانت بالمباشرة - كما قلنا سابقًا - لأهميتها ، والرواية التى قالت لنا : إن اللّه سبحانه وتعالى قد فرض خمسين

---

(١) يقول الراغب الأصفهانى : الصوم فى الأصل : الإمساك عن الفعل مطعماً كان أو كلاماً أو مشياً ؛ ولذلك قيل للفرس الممسك عن السير أو العلف : صائم ، قال الشاعر :

خيلٌ صيامٌ وأخرى غير صائمةٍ

وقيل للريح الراكدة : صومٌ ، ولاستواء النهار صومٌ ؛ تصوراً لوقوف الشمس فى كبد السماء ، والصوم فى الشرع : إمساك المكلّف بالنية ، من الخيط الأبيض إلى الخيط الأسود ، عن تناول الأطيبين والاستمناء والاستقاء .

مفردات ألفاظ القرآن [٢٩٨] .

صلاة ، ولما أخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم موسى بذلك ، فقال له : ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف ، وتكرر ذلك حتى صارت خمساً [1] .

في هذا المقام أحب أن أُذكر المسلمين بأن كراهيتنا لليهود ، يجب ألا تنسحب على موسى عليه السلام . يجب أن يُفهم هذا الكلام جيداً ، فلا يدخل في نفوسنا شيء على موسى عليه السلام ؛ لأن موسى عليه السلام ، رسول من رسل الله سبحانه وتعالى ، بل هو من أولي العزم من الرسل[2] .

---

(١) عن أنس بن مالك : أن ابن عباس وأبا حبَّة الأنصاري كانا يقولان : قال النبي صلى الله عليه وسلم : ثم عرج بي حتى ظهرتُ لمستوى أسمع فيه صريف الأقلام قال ابن حزم وأنس ابن مالك : قال النبي صلى الله عليه وسلم : ففرض على أمتي خمسين صلاة ، فرجعت بذلك حتى مررت على موسى فقال : ما فرض الله على أمتك ؟ قلت : فرض خمسين صلاة . قال : فارجع إلى ربك ، فإن أمتك لا تطيق ذلك . فراجعته فوضع شطرها . فرجعت إلى موسى قلت : وضع شطرها . قال : فارجع إلى ربك ، فإن أمتك لا تطيق . فراجعته ، فوضع شطرها . فرجعت إليه فقال : ارجع إلى ربك فإن أمتك لا تطيق . فراجعته فقال : هي خمس وهي خمسون ، لايُبدَّل القول لدي . فرجعت إلى موسى فقال : راجع ربك . فقلت : استحييت من ربي . جزء من حديث أخرجه البخاري [٣٤٩ ، ١٦٣٦ ، ٣٣٤٢] واللفظ له ، ومسلم [١٦٣/٢٦٣] .

(٢) قال الله تعالى : ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ ﴾ [البقرة : ٢٨٥] .

وجاء في الحديث الطويل الذي رواه عمر بن الخطاب رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم ، أنه سُئل عن الإيمان فقال : « أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، وتؤمن بالقدر خيره وشره » جزء من حديث أخرجه البخاري [٥٠، ٤٧٧٨] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه ، ومسلم [١/٨] واللفظ له .

وكونه طلب من رسول الله ﷺ أن يرجع إلى ربه فيسأله التخفيف ، هل فى ذلك وصاية ؟ وما نوع هذه الوصاية ؟ الوصاية تكون من الإنسان الذى يأتى ليفرض عليّ أمرا أكثر ، أما الوصاية التى تأتى بالتخفيف ، فهل توصف بأنها وصاية ؟ إنه يريد أن يخّفف عنى أمورا ، يعلم هو أننى لا أطيقها .

وقد ورد فى الحديث : « فإن أمتك لا تطيق ذلك » ، فهل يريد أن يقّلل من شأن الأمة الإسلامية واحتمالها ، كما يقول بعض الموتورين ممن لا عقل لهم ؟

نقول : لا ، انظر حينما يقول موسى لمحمد عليه الصلاة والسلام : « أنا جرّبتُ الأمم قبلك » ، لم يكن الله سبحانه وتعالى قد فرض على قوم موسى عليه السلام إلا صلاتين ، صلاة بالعشي ، وصلاة بالغداة ، ومع ذلك ما قاموا بها . فموسى عليه السلام وهو الذى عاش مع قومه طويلاً يدعوهم إلى الله تعالى ويرغبهم ، ومع ذلك لم يقوموا بوقتين من الأوقات ، ويقول ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فهذا دليل على أنه يحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويحب أمة رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ ولذلك يريد ألا يعرضها لما تعرضت له أمته ، من أنها لم تستطع . فهذه ليست شهادة بأننا ضعفاء ، وإنما هو يخشى أننا قد لا نقوى على هذا ، لماذا ؟ لأنه جرب مع أمته فلم تقو .

ومعنى جرب فى قومه ، فهذه شهادة ضد أمته ، وليست ضدنا نحن ؛ لأن معنى ذلك أنه عرف أن أمته لم تستطع ، ولم تقدر ، فخشى علينا . ما الذى جعله يخشى علينا ؟ يقينه بما فعلته أمته .

إذن .. فهذا أمر ضدهم ، وليس ضدنا نحن .

ثم نأتى إلى السؤال عن كثرة أنبياء بنى إسرائيل ، الذين قابلهم الرسول صلى الله عليه وسلم نقول : إن الأنبياء – كما سبق أن قلنا – إنما جاءوا لتبليغ منهج الله تعالى إلى خلق الله تعالى ليعالجوا أدواء البشر .

فكأنهم الأطباء الذين أرسلهم اللّه تعالى ؛ ليعالجوا البشرية من علاتها ، فإذا ما كثر على أمة أطباء ، فاعلم أن أمراضها كثيرة . وما دام أنبياء بنى إسرائيل كانوا كثيرين ، فمعناه أن بلاءهم كان كثيراً ، وأن نبياً واحداً لم يكفهم ، وهذا دليل على استفحال الأدواء فيهم ، وأن نبياً واحداً لم يكن ليكفيهم ؛ ولذلك لا يؤخذ كون اليهود أكثر الأمم أنبياءً ، على أنهم أحسن الأمم وأعظمها .

ونكرر قولنا لهم : إن الأنبياء ، كالأطباء ، وكثرتهم عند اليهود تدل على أن أمراضهم كثيرة معضلة ، وإن طبيبا واحدا لم يكن كافيًا ، فعلى الرغم من تعدد الأنبياء ، كان ما كان منهم[1] .

---

(١) قال اللّه سبحانه وتعالى : ﴿ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [البقرة : ٤٧] .

قال ابن كثير : يذكِّرهم تعالى بسالف نعمه على آبائهم وأسلافهم ، وما كان فضَّلهم به من إرسال الرسل منهم ، وإنزال الكتب عليهم وعلى سائر الأمم من أهل زمانهم ، كما قال سبحانه وتعالى : ﴿ وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَٰهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الدخان : ٣٢] . وقال تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [المائدة : ٢٠] .

قال أبو جعفر الرازى عن الربيع بن أنس عن أبى العالية فى قوله تعالى : ﴿ وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ . قال بما أعطوا من الملك والرسل والكتب على من كان فى ذلك الزمان فإنّ لكل زمان عالمًا .

وروى عن مجاهد والربيع بن أنس وقتادة وإسماعيل بن أبى خالد نحو ذلك ويجب الحمل على هذا ؛لأن هذه الأمة أفضل ؛ منهم لقوله تعالى خطاباً لهذه الأمة ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ﴾ [آل عمران : ١١٠] =

ooo

= وفى المسانيد والسنن عن معاوية القشيرى قال : قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : « أنتم توفون سبعين أمّة أنتم خيرها وأكرمها على اللّه » والأحاديث فى هذا كثيرة تذكر عند قوله تعالى : ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ .
وقيل : المراد تفضيل بنوع ما من الفضل على سائر الناس ، ولا يلزم تفضيلهم مطلقاً حكاه الرازى وفيه نظر . وقيل : إنهم فُضلوا على سائر الأمم ؛ لاشتمال أمّتهم على الأنبياء منهم حكاه القرطبى فى تفسيره ؛ لأن العالمين عام يشتمل من قبلهم ومن بعدهم من الأنبياء ، فإبراهيم الخليل قبلهم وهو أفضل من سائر أنبيائهم ، ومحمد بعدهم وهو أفضل من جميع الخلق وسيد ولد آدم فى الدنيا والآخرة صلوات اللّه وسلامه عليه .

تفسير ابن كثير [٨٥/١] بتصرف .

وقال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ ۖ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ۗ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴾ [البقرة : ٨٧] .
قال أبو حيان : أرسل اللّه على أثر موسى رسلاً هم : يوشع ، وشمويل ، وشمعون ، وداود ، وسليمان ، وشعيا ، وأرميا ، وعزير ، وحزقيل ، وإلياس ، واليسع ، ويونس ، وزكريا ، ويحيى . وغيرهم . البحر المحيط [٤٨٠/١] .
وقال ابن عطية : يُروى أن بنى إسرائيل كانوا يقتلون فى اليوم ثلاثمائة نبى ثم تقوم سوقهم آخر النهار ، ورُوى : سبعين نبيّا ثم تقوم سوق بقلهم آخر النهار .
المحرر الوجيز [١٧٦/١، ١٧٧] .

هى خمس .. والثواب على خمسين

إذا كان اللّه قد جعلها خمس صلوات ، فلماذا أمر فى بدء الأمر بخمسين ؟

نقول : إن التكاليف من اللّه سبحانه وتعالى ، ليست لحاجة اللّه تعالى إلى فعلنا ، وإنما هى لصالحنا نحن . فالأساس الأصيل ، أن التكاليف لا ينتفع اللّه تعالى بها ، وإنما هى لصالحنا نحن ، فحين يكلّفنا اللّه سبحانه وتعالى تكليفًا ، فإنه يكون لصالحنا ، ويعطينا على هذا التكليف أجراً إن قمنا به .

وحين فرض اللّه سبحانه وتعالى الصلاة خمسين وصيّرها إلى خمس ، هل أنقص ما يريد إعطاءه من الثواب ،أم ظل الثواب خمسين ؟

نقول : لقد ظل الثواب خمسين .

إذن .. فالعطاء غير متناسب مع العمل ، فتقرير العطاء من اللّه تعالى على الخمسين ، وظل العطاء هو العطاء ، وبعد ذلك خُفِّفت الوسيلة لا العطاء ، فبعد أن كانت خمسين أصبحت خمساً ، ولكن الثواب ظل كما هو .

وكثير من الناس يقول : كيف ينسخ اللّه تعالى الحكم ، قبل أن نمكّن من الفعل ؟ فيكون الرّد عليهم : إن الناس يفهمون أن مراد التكليف من اللّه سبحانه وتعالى ، إنما هو فعل الشىء المكلف به ، بمعنى أن المراد من كل تكليف من اللّه سبحانه وتعالى لخلقه ، أمران :

الأمر الأول : الإيمان بالتكليف وعدم ردّه .

الأمر الثانى : فعله .

فإذا قبلت الأول ، فقد أخذت شقاً من الأمر بالتكليف ، وبعد ذلك الشق الآخر وهو الفعل ، وأنا أريد أن أوضح هذه النقطة ، فأقول مثلاً : إبليس عصى ربه ، وآدم عصى ربه ، لماذا طرد إبليس من رحمة اللّه ؟ ولماذا تلقى آدم كلمات من ربه ، فتاب اللّه عليه ؟

هنا ننظر إلى معصية كل منهما ، فإبليس عصى اللّه تعالى فى أنه رد الأمر التكليفى على اللّه تعالى ، وقال : ﴿ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴾ [الإسراء : ٦١] بمعنى أنه لا يعجبنى هذا التكليف ، فأنا خير منه .

إذن .. فقد رد التكليف على من ؟ على اللّه تعالى .

لكن آدم عليه السلام لم يردّ التكليف على اللّه تعالى(١) ، بل اتهم نفسه وقال كما ورد فى الذكر الحكيم فى سورة الأعراف آية [٢٣] : ﴿ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴾ فحين كلّف اللّه سبحانه وتعالى رسوله أن تكون الصلاة خمسين ، قبلها رسول اللّه ﷺ ، وانصاع لأمر التكليف ، ولم يعارض فيه . ثم بعد ذلك طلب التخفيف .

فيكون قبوله صلى اللّه عليه وسلم هو التسليم بأمر اللّه سبحانه وقبول التكليف ، ثم بعد ذلك : فعله شىء آخر .

فالذى نسخ ليس قبول التكليف ، ولكن الذى نسخ هو فعل التكليف . فالخمسون صلاة ، صارت خمسًا ، فهل يكون اللّه سبحانه وتعالى قد كلّف

---

(١) قال القاسمى فى قوله تعالى : ﴿ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا ﴾ أى أضررناها بالمعصية ﴿ وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا ﴾ أى ما سلف ﴿ وَتَرْحَمْنَا ﴾ أى بالتوبة وقبولها ﴿ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴾ أى لنصيرن ممن خسر جميع ما حصل له من الكمالات .

قال الضحاك ابن مزاحم فى قوله : ﴿ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا ... ﴾ الآية : هى الكلمات التى تلقاها آدم من ربه .

لطيفة : قال الجشميّ : يقال إن آدم عليه السلام سعد بخمسة أشياء : اعترف بالذنب ، وندم عليه ، ولام نفسه ، وسارع إلى التوبة ، ولم يقنط من الرحمة . وشقى إبليس بخمسة أشياء : لم يقر بالذنب ، ولم يندم ، ولم يلم نفسه بل أضاف إلى ربه فلم يتب ، وقنط من الرحمة . تفسير القاسمى [٧/٢٦٤٣] .

بشيء ، وقبل أن يمكن منه نسخه ؟ نقول : إنه مكّن فى واحدة ، ولم يمكّن من الثانية ، مكن من ماذا ؟ من أنه قبل أمر التكليف .

وشاهد ذلك فى قصة نبى الله ابراهيم عليه السلام : إن الحق سبحانه وتعالى طلب من إبراهيم عليه السلام أن يذبح ولده ، ماذا كان من إبراهيم ؟ قال : ﴿ يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ فَٱنظُرۡ مَاذَا تَرَىٰۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّآ أَسۡلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلۡجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَٰدَيۡنَٰهُ أَن يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدۡ صَدَّقۡتَ ٱلرُّءۡيَآۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ ﴾ [الصافات] ، أى : تقبلتَ يا إبراهيم الأمر بإيمان ويقين ، وأقبلتَ أنتَ وولدكَ لتفعله ، فتكون المسألة قد انتهت ، فهذا هو المراد من إبراهيم[(١)] ، فكأن الأمر التكليفى يطلب منه شيئان :

---

(١) يقول ابن كثير : يذكر تعالى عن خليله إبراهيم ، أنه لما هاجر من بلاد قومه سأل ربه أن يهب له ولداً صالحاً ، فبشره الله تعالى بغلام حليم وهو إسماعيل عليه السلام ؛ لأنه أول من ولد له على رأس ست وثمانين سنة من عمر الخليل . وهذا ما لا خلاف فيه بين أهل الملل ؛ لأنه أول ولده وبكره ، وقوله : ﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعۡيَ ﴾ أى شبَّ وصار يسعى فى مصالحه كأبيه ، قال مجاهد : ﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعۡيَ ﴾ أى شبَّ وارتحل وأطاق ما يفعله أبوه من السعى والعمل . فلما كان هذا رأى إبراهيم عليه السلام فى المنام أنه يؤمر بذبح ولده . هذا وفى الحديث عن ابن عباس مرفوعاً : رؤيا الأنبياء وحى[(١)] . قاله عبيد بن عمير أيضاً ، وهذا اختبار من الله عز وجل لخليله ، فى أن يذبح هذا الولد العزيز ، الذى جاءه على كبر وقد طعن فى السن ، بعدما أمر بأن يسكنه هو وأمه فى بلاد قفر ، وواد ليس به حسيس ولا أنيس ، ولا زرع ولا ضرع . فامتثل أمر =

---

(١) جزء من حديث أخرجه البخارى [٨٥٩،١٣٨] .

= اللَّه فى ذلك وتركهما هناك ؛ ثقة باللَّه وتوكّلاً عليه ؛ فجعل اللَّه لهما فرجاً ومخرجاً ورزقهما من حيث لا يحتسبان . ثم لما أمر بعد هذا كله بذبح ولده ، هذا الذى قد أفرده عن أمر ربه ، وهو بكره ووحيده الذى ليس له غيره ، أجاب ربه وامتثل أمره وسارع إلى طاعته . ثم عرض ذلك على ولده ؛ ليكون أطيب لقلبه وأهون عليه من أن يأخذه قسرا ويذبحه قهرا ﴿ قَالَ يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ فَٱنظُرۡ مَاذَا تَرَىٰۚ ﴾ فبادر الغلام الحليم لطاعة والده الخليل إبراهيم ، فقال : ﴿ يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ . وهذا الجواب فى غاية السداد والطاعة للوالد ولرب العباد ، قال اللَّه تعالى : ﴿ فَلَمَّآ أَسۡلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلۡجَبِينِ ﴾ قيل : ﴿ أَسۡلَمَا ﴾ أى استسلما لأمر اللَّه وعزما على ذلك .

وقيل : هذا من المقدّم والمؤخّر ، والمعنى ﴿ وَتَلَّهُۥ لِلۡجَبِينِ ﴾ : أى ألقاه على وجهه . قيل : أراد أن يذبحه من قفاه ؛ لئلا يشاهده فى حال ذبحه ، قاله ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير وقتادة والضحاك . وقيل : بل أضجعه كما تضجع الذبائح ، وبقى طرف جبينه لاصقاً بالأرض ، و ﴿ أَسۡلَمَا ﴾ أى سمى إبراهيم وكبر ، وتشهد الولد للموت .

قال السدى وغيره : أَمَرّ السكين على حلقه فلم تقطع شيئاً ويقال : جعل بينها وبين حلقه صفيحة من نحاس واللَّه أعلم .

فعند ذلك نودى من اللَّه عز وجل : ﴿ أَن يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ . قَدۡ صَدَّقۡتَ ٱلرُّءۡيَآۚ ﴾ أى قد حصل المقصود من اختبارك وطاعتك ومبادرتك إلى أمر ربك . وبَذْلِكَ ولدك للقربان ، كما سمحت ببدنك للنيران ، وكما مالك مبذول للضيفان ؛ لهذا قال تعالى : ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡبَلَٰٓؤُاْ ٱلۡمُبِينُ ﴾ [الصافات : ١٠٦] أى الاختبار الظاهر البين . =

= وقوله : ﴿ وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴾ أى وجعلنا فداء ذبح ولده ، ما يَسره الله تعالى له من العوض عنه ، والمشهور عن الجمهور أنه كبش أبيض أعين أقرن ، رآه مربوطاً بسمرة فى ثبير .

قال الثورى عن عبد الله بن عثمان بن خثيم ، عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : كبش قد رعى فى الجنة أربعين خريفاً . وقال سعيد بن جبير : كان يرتع فى الجنة حتى تشقق عنه ثبير وعليه عهن ، أى صوف أحمر ، وعن ابن عباس : هبط عليه من ثبير كبش أعين أقرن له ثغاء ، فذبحه ، وهو الكبش الذى قربه ابن آدم فتقبل منه . رواه ابن أبى حاتم .

قال مجاهد : فذبحه بمنى ، وقال عبيد بن عمير : ذبح بالمقام . فأما ما روى عن ابن عباس أنه كان وعلا ، وعن الحسن : أنه كان تيساً من الأروي ، واسمه جرير فلا يكاد يصح عنهما . ثم غالب ما هاهنا من الآثار مأخوذ من الإسرائيليات . وفى القرآن كفاية عما جرى من الأمر العظيم والاختبار الباهر ، وأنه فدى بذبح عظيم ، وقد ورد فى الحديث أنه كان كبشاً .

قال الإمام أحمد : حدثنا سفيان حدثنا منصور عن خاله نافع عن صفية بنت شيبة قالت : أخبرتنى امرأة من بنى سليم ولدت عامة أهل دارنا ، قالت : أرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم لى عثمان بن طلحة ، وقال مرة : إنها سألت عثمان : لم دعاك رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قال : « إنى كنت رأيت قرنى الكبش حين دخلت البيت ، فنسيت أن آمرك أن تخمرهما فخمرهما ، فإنه لا ينبغى أن يكون فى البيت شىء يشغل المصلى » .

قال سفيان : لم تزل قرنا الكبش فى البيت حتى احترق البيت فاحترقا [1]. =

---

(١) رواه أحمد فى المسند [٦٨/٤، ٣٨٠/٥] عن صفية بنت شيبة أم منصور . وقال الأرناؤوط : إسناده صحيح ، رجاله ثقات رجال الشيخين غير مسافع فمن رجال مسلم وهو ثقة .

الأول : أن يؤمن به ، وأن يتلقاه بالقبول والتسليم والرضا وعدم الرفض والرد .

والثانى : أن يفعله ؛ ولذلك إذا جاء واحد لم يُصَلِّ ، ونقول له : أنت لم تُصَلِّ ، فهل أنت منكر للصلاة أم كسلان ؟ فإن كان منكرا ، فنقول له : كفرت . لماذا ؟ لأنه ردّ الأمر فى الأول . وإن كان متكاسلاً فنقول له : يجب أن تصلي ، فأنت عاصٍ للّه تعالى بترك الصلاة ويخشى عليك كذا وكذا .

والذى يتعامل بالربا ، إن قال : إن الربا حرام ، ولكننى مضطّر إليه ويعدد أسباب اضطراره ، ويطلب من اللّه تعالى أن يعاونه على الخلاص منه فإنه قد قبل الحكم من اللّه سبحانه وتعالى ، ولكن نفسه ضعُفت فلم ينفذه . فهذا مؤمن عاصٍ ، لكن الذى يحل الربا أو يحل بعض صوره ، يكون قد دخل فى منطقة الكفر ، لماذا ؟ لأنه لم يقبل الحكم من اللّه ، ورده عليه سبحانه وتعالى .

○○○

= وهذا روى عن ابن عباس أن رأس الكبش لم يزل معلقاً عند ميزاب الكعبة قد يبس . وهذا وحده دليل على أن الذبيح إسماعيل ؛ لأنه كان هو المقيم بمكة . وإسحاق لا نعلم أنه قدمها فى حال صغره . واللّه أعلم .

البداية والنهاية [١/١٤٨-١٤٩] .

صلاة القانتين .. ودوام الولاء لله

إن الصلاة هى الركن الذى يتكرر كل يوم خمس مرات بخلاف بقية الأركان فالزكاة لا تكون إلا كل عام ، وكذلك الصيام ، وحج الفريضة لا يكون إلا مرة واحدة فى العمر . وتكرار الصلاة فى اليوم خمس مرات ، ذلك للتعبير عن دوام الولاء العبودى لله تبارك وتعالى .

قال تعالى : ﴿ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [البقرة : ١١٠] .

والصلاة حين تتكرر كل يوم ؛ فإنها تعطى المؤمن شحنة اليقين والإيمان ، وتأخذه من دنياه للوقوف بين يدى الله سبحانه وتعالى خمس مرات فى اليوم والليلة ، وهذه هى العبادة التى لا تسقط أبدًا عن الإنسان ؛ فهو يؤديها في حال الصحة ، وحال المرض . فالمؤمن يستطيع أن يصلى واقفًا ، وأن يصلى جالسًا ، وأن يصلى راقدًا ولا مانع إذا اضطرته الظروف أن يجرى مراسم الصلاة على قلبه(١) .

وعندما يرتفع صوت المؤذن بقوله : « الله أكبر » ، فهذه دعوة للإقبال على الله تعالى ، إقبال فى ساعة معلومة ؛ للوقوف بين يديه سبحانه ، واستحضار عظمته ، فيعطينا سبحانه وتعالى المدد .

يقول الله سبحانه وتعالى : ﴿ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ﴾ [البقرة : ٢٣٨] ، والقنوت فى الصلاة معناه : الخشوع والاطمئنان والمداومة ، والإنسان القانت

---

(١) أخرج البخارى [١١١٧] عن عمران بن حصين رضى الله تعالى عنه قال : « كان بى بواسير فسألت النبى صلى الله عليه وسلم عن الصلاة ؟ فقال : « صلِّ قائمًا ؛ فإن لم تستطع فقاعدًا ، فإن لم تستطع فعلى جنب » .

صادق مع نفسه ذلك لأن العبد قد لا يفهم أو يدرك المراد من التكليف ولذا فإقبال العبد على التكليف بخشوع وحب وطاعة لأمر الحق تبارك وتعالى الذى نشق فى حكمته ولا نعلم مراده قد يدخلنا فى نورانية لنرى العلة من هذا التكليف ذلك بأن يرينا فرقانًا فى أنفسنا يقول رب العزة سبحانه : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ [الأنفال : ٢٩] ، أى : ينصركم وينجيكم مما تخافون(١) .

« ولذلك إن كنت تريد أن تعرف علّة أى حكم كلفك اللّه به فاتق اللّه فى تنفيذه فإن الحق سبحانه وتعالى يقول : ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۖ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ ۗ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة : ٢٨٢]

ولقد مدح اللّه تعالى المتقين فى قوله تعال : ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ (١٤) قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ۚ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ (١٥) الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (١٦) الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ (١٧) ﴾ [آل عمران] .

---

(١) قوله تعالى : ﴿ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا ﴾ قال الواحدى : بين حقكم وباطل من يبغيكم السوء من أعدائكم بنصره إياكم عليهم وهذا قول مقاتل .
وقال عكرمة والسدى : ﴿ فُرْقَانًا ﴾ نجاة ، يعنى : أن اللّه تعالى يفرق بينكم وبين من تخافون فتنجون ، والفرقان مصدر لفرق .
التفسير الوسيط [٢/٤٥٤] .

وكلمة : « قانتين » هى وصف لمن يعيشون القنوت . والقنوت هو عبادة مع خضوع وخشوع ومداومة .

والحق لم يشرع العبادات كى ينفذها الناس حتى ينقذوا أنفسهم من العذاب فحسب ، لكن الحق أراد بالتكليف أن يرفع من قيمة الإنسان فى الحياة ولذا فالتكليف يُعد نعمة من اللَّه سبحانه أجراها على عباده .

والذى يؤدى الصلاة بقنوت يكون أهلاً لمودة اللَّه ، أما الذى أدى الصلاة ثم تركها بعد ذلك ، ولم يداوم عليها بدون عذر ، كأنه لم يجد حلاوة العبادة ولم يجد اللَّه سبحانه أهلا للود والعياذ باللَّه فامتنع عن الوقوف بين يديه .

والعبد القانت لا يترك عبادةً دخل فيها تطوعًا للَّه إلا بعذر ؛ لأنه ذاق حلاوة استدامة العبادة للَّه ، وما دام قد أدرك حلاوة العبادة فهو يقبل عليها بخشوع واطمئنان ومداومة ؛ وبذا يدخل دائرة القانتين وفى ذلك يقول الرسول صلى اللَّه عليه وسلم : « أحب الأعمال إلى اللَّه تعالى أدومها وإن قلّ[1] » فالمداومة على العمل وإن قل تجعل العبد داخلاً فى عباد اللَّه القانتين ، أى : المداومين على العبادة .

ولقد كانت السيدة مريم رضى اللَّه تعالى عنها أهلا لاصطفاء اللَّه تعالى لها وذلك قول الحق سبحانه : ﴿ وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [آل عمران : ٤٢] .

ولذلك كان حقًا عليها بعد هذا التكريم بالاصطفاء أن تكون من القانتين قال تعالى : ﴿ يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴾ [آل عمران : ٤٣] .
وهذا أمر بالعبادة الخاشعة المستديمة لربها قنوتًا وسجودًا بل ﴿ وَٱسْجُدِى ﴾ أى : أكثرى من السجود والخشوع ؛ لأن السجود هو أعلى مراتب الخضوع .

---

(١) أخرجه مسلم [٢١٨/٧٨٣] عن عائشة رضى اللَّه تعالى عنها .

لكن أيعفيها هذا اللون من الخضوع مما يكون من الركوع لله سبحانه مع الناس ؟ لا .. لقد صدر أمر الحق سبحانه بأن تكون من الراكعين مع الناس ، وذلك قوله تعالى : ﴿ وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴾ ، وكأن الله تعالى يقول لها : لا يعفيك من الركوع أنك فعلت الأمر الأعلى منه فى الخضوع وهو السجود ، بل عليك أن تركعى مع اراكعين فلا يحق لك يا مريم أن تقولى : لقد أمرنى الله بأمر أعلى ولن أنفذ الأمر الأدنى ، لذا يجب أن تكونى أيضًا فى ركب الراكعين .

ولكن لماذا لم يقل الحق سبحانه مع الراكعات ؟ إن الله سبحانه حينما تكلم عن آدم سماه : « نفس » وهى كلمة مؤنثة ، لذا فليس نص التأنيث فى اللفظ أنه أقل معنىً من التذكير . كما أن كلمة : « ناس » نص فى مجموع الإنسان وهى تطلق مرة على المذكر ومرة على المؤنث ؛ وعليه فالتذكير والتأنيث علامة لوضع الأشياء فى مسمياتها الحقيقية كوسيلة للتخاطب وليست هناك أفضلية . وإنما يدمج الله تعالى المرأة فى الرجل ؛ لأنها مبنية على الستر والحجاب ، فهى مطمورة فيه ، وداخلة فيه .

فإذا قال سبحانه : ﴿ وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴾ فالركوع ليس خاصًا بالمرأة حتى يقال : اركعى مع الراكعات . وإذا قال : اركعى مع الراكعات ، وهى فى محرابها والناس يصلون ، هل تمتنع عن الصلاة لأنه لا يوجد راكعات[1] ؟

---

(١) قال الفخر الرازى : لِمَ لم يقل : واركعى مع الراكعات ؟ والجواب : لأن الاقتداء بالرجال حال الاختفاء من الرجال أفضل من الاقتداء بالنساء .

التفسير الكبير [٤٤/٨] . =

إذن .. فقوله : ﴿ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴾ أعم ؛ لأنه أدخل الراكعات فى الراكعين ، ولو قال : الراكعات ، لم تدخل فى الراكعين .

ooo

= وقال أبو حيان : وجاء ﴿ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴾ دون الراكعات ؛ لأن هذا الجمع أعم إذ يشمل الرجال والنساء على سبيل التغليب ، والمناسبة أواخر الآيات قبل وبعد ، ولأن الاقتداء بالرجال أفضل إن قلنا إنها مأمورة بصلاة الجماعة .

البحر المحيط [٣/١٤٩] .

صلاة الخاشعين .. والاستعانة بالصبر والصلاة

الخشوع : هو الخضوع لمن ترى أنه فوقك بلا منازع وهو الله سبحانه وتعالى وهو الذى خلق ووهب وأوجد من العدم ، وقول الحق : ﴿ وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴾ [البقرة : ٤٥] يلفتنا إلى أن مطلوب الإيمان شاق ويحتاج إلى ضرورة الاستعانة بالصبر والصلاة ؛ لأن المسألة ليست سهلة بل تحتاج إلى جهد فالصبر معناه حمل النفس على أمرٍ صعب ، وكل مؤمن يدخل منهج الإيمان محتاج إلى الاستعانة بالصبر ليحمل نفسه على مشقة المنهج وتكاليفه ، وليمنع نفسه عن الشهوات التى حرمها الله سبحانه تعالى . وقد فسر بعض العلماء « الصبر » بأنه الصيام وما يتبعه من مشقات(١) .

---

(١) وفى الحديث عن حذيفة رضى الله عنه قال : « كان النبى صلى الله عليه وسلم ، إذا حزبه أمر صلى » . أخرجه أبو داود [١٣١٩] ، وأحمد فى المسند [٥ / ٣٨٨] ، وحَسَّنَه الألبانى فى صحيح أبى داود [١١٧١] .

وعن صهيب الرومى رضى الله عنه عن النبى : صلى الله عليه وسلم : « .. كانوا - يعنى الأنبياء - يفزعون إذا فزعوا إلى الصلاة .. » . أخرجه أحمد فى المسند [٣٣٣/٤] وقال الأرناؤوط : إسناده صحيح على شرط مسلم .

وعن ابن عباس رضى الله عنه : نعى إليه أخوه قُثَم وهو فى مسير فاسترجع ثم تنحى عن الطريق فصلى ركعتين أطال فيهما الجلوس ، ثم قام يمشى إلى راحلته وهو يقول : ﴿ وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴾ [البقرة : ٤٥] أخرجه سعيد بن منصور فى سننه [٦٣٢/٢] بسند صحيح ، وابن جرير الطبرى فى تفسيره [١٤/٢ رقم ٨٥٢] .

وروى الطبرى بسنده عن أبى العالية فى قوله : ﴿ وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ﴾ يقول : استعينوا بالصبر والصلاة على مرضاة الله ، واعلموا أنهما من طاعة الله . =

= وعن الربيع فى قوله : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ﴾ ، اعلموا أنهما عونٌ على طاعة اللّٰه .

وأما قوله : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ ، فإن تأويله : فإن اللّٰه نَاصرهُ وظَهيرهُ وراضٍ بفعله ، كقول القائل : « افعل يَا فلان كذا وأنا معك » ، يعنى : إنى ناصرُك على فعلك ذلك ومُعينك عليه .

وقال الطبرى : وهذه الآية حضٌّ من اللّٰه تعالى على طاعته ، واحتمال مكروهها على الأبدان والأموال ، فقال : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ﴾ على القيام بطاعتى ، وأداء فرائضى فى ناسخ أحكامى ، والانصراف عما أنسخه منها إلى الذى أُحدِثه لكم من فرائضى ، وأنقلكم إليه من أحكامى ، والتسليم لأمرى فيما آمركم به فى حين إلزامكم حكمه ، والتحول عنه بعد تحويلى إياكم عنه - وإن لحقكم فى ذلك مكروهٌ من مقالة أعدائكم من الكفار بقذفهم لكم الباطل ، أو مشقةٌ على أبدانكم فى قيامكم به ، أو نقصٌ فى أموالكم - وعلى جهاد أعدائكم وحربهم فى سبيلى ، بالصبر منكم لى على مكروه ذلك ومَشقته عليكم ، واحتمال عنائه وثقله ، ثم بالفزع منكم فيما يَنوبكم من مفْظِعات الأمور إلى الصلاة لى . فإنكم بالصبر على المكاره تُدركون مرضاتى ، وبالصلاة لى تستنجحون طلباتكم قبَلى ، ومدركون حاجاتكم عندى ، فإنى مع الصابرين على القيام بأداء فرائضى وترك معاصىَّ ، أنصرُهم وأرعاهم وأَكْلَؤُهُمْ ؛ حتى يظفروا بما طلبوا وأمَّلوا قِبَلى .

تفسير الطبرى [٣/٢١٣ ، ٢١٤] .

وقال القاسمى فى قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ﴾ أرشد تعالى المؤمنين ، إثر الأمر بالشكر فى الآية قبل ، بالاستعانة بالصبر والصلاة . لأن العبد إما أن يكون فى نعمة فيشكر عليها . أو فى نقمة فيصبر عليها . كما =

= جاء فى الحديث[1] : « عجبا للمؤمن لا يقضى له قضاء إلا كان خيراً له . إن أصابته سراء فشكر كان خيرا له . وإن أصابته ضراء فصبر كان خيراً له » . وبَيّن تعالى أن أجود ما يستعان به على تحمل المصائب فى سبيل اللّه ، الصبر والصلاة . كما تقدم فى قوله : ﴿ وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَـٰشِعِينَ ﴾ . وفى الحديث[2] : أن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم كان إذا حَزَبَه أمر صلّى . ثم إن الصبر صبران : صبر على ترك المحارم والمآثم ، وصبر على فعل الطاعات والقربات . والثانى أكثر ثوابا . لأنه المقصود . وأما الصبر الثالث ، وهو الصبر على المصائب والنوائب ، فذاك أيضا واجب . كالاستغفار من المعائب .

وقال **الإمام ابن تيمية** فى كتابه « السياسة الشرعية » : وأعظم عون لولىّ الأمر خاصةً ، ولغيره عامة ثلاثة أمور :

أحـدها : الإخلاص للّه ، والتوكل عليه بالدعاء وغيره . وأصل ذلك المحافظة على الصلاة بالقلب والبدن .

والثانى : الإحسان إلى الخلقِ بالنفع والمال الذى هو الزكاة .

والثالث : الصبر على الأذى من الخلق وغيره من النوائب . ولهذا يجمع اللّه بين الصلاة والصبر كثيراً كقوله تعالى : ﴿ وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ﴾ .=

---

(١) أخرجه مسلم [٢٩٩٩/٦٤] عن صهيب بلفظ : « عجباً لأمر المؤمن ، إن أمره كله خير . وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن . إن أصابته سراء شكر . فكان خيرا له . وإن أصابته ضرّاء صبر ، فكان خيرًا له » . وأخرج أحمد فى المسند [٢٤/٥] عن أنس بن مالك قال : قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : « عجباً للمؤمن ، لا يقضى اللّه له شيئًا إلا كان خيراً له » . وقال الأرناؤوط : حديث صحيحٌ وهذا إسناد حسن من أجل ثعلبة بن عاصم وباقى رجال الإسناد ثقات .

(٢) تقدم ، أخرجه أحمد فى المسند [٣٣٨/٥] ، وأبو داود [١٣١٩] ، وحسنه الألبانى عن حذيفة بن اليمان رضى اللّه عنه .

= وكقوله تعالى : ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ ۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴿١١٤﴾ وَٱصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٥﴾ ﴾ [هود] .

وقوله : ﴿ فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ۖ وَمِنْ ءَانَآئِ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴾ [طه : ١٣٠] .

وأما قِرانُهُ بين الصلاة والزكاة فى القرآن فكثير جداً .

فبالقيام بالصلاة والزكاة والصبر يصلح حال الراعى والرعية . إذا عرف الإنسان ما يدخل فى هذه الأسماء الجامعة ، يدخل فى الصلاة من ذكر الله تعالى ودعائه وتلاوة كتابه وإخلاص الدين له والتوكل عليه ، وفى الزكاة الإحسان إلى الخلق بالمال والنفع : من نصر المظلوم وإعانة الملهوف وقضاء حاجة المحتاج . وفى الصبر احتمال الأذى وكظم الغيظ والعفو عن الناس ومخالفة الهوى وترك الشر والبطر .

وقوله : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ قال الإمام ابن تيمية « فى شرح حديث النزول » : لفظ المعية فى كتاب الله جاء عاماً كما فى قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ ﴾ [الحديد : ٤] .

وفى قوله : ﴿ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ ﴾ [المجادلة : ٧] ، إلى قوله : ﴿ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟ ۖ ﴾ . وجاء خاصاً كما فى قوله : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴾ [النحل : ١٢٨] .

وقوله : ﴿ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴾ [طه : ٤٦] .

وقوله : ﴿ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ ﴾ [التوبة : ٤٠] .

فلو كان المراد بذاته مع كل شىء ، لكان التعميم يناقض التخصيص . فإنه قد علم أن قوله : ﴿ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ ﴾ أراد به تخصيص نفسه وأبا بكر دون عدوّهم من الكفار ، وكذلك قوله : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴾ خصهم بذلك دون الظالمين والفجار . وأيضاً ، =

....

= فلفظ المعية ليست فى لغة العرب ولا فى شيء من القرآن أن يراد بها اختلاط إحدى الذاتين بالأخرى . كما فى قوله تعالى : ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ ﴾ [الفتح : ٢٩] ، وقوله : ﴿ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [النساء:١٤٦] ، وقوله : ﴿ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ [التوبة:١١٩] ، وقوله : ﴿ وَجَٰهَدُواْ مَعَكُمْ ﴾ [الأنفال : ٧٥] . ومثل هذا كثير . فامتنع أن يكون قوله : ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ ﴾ يدل على أن تكون ذاته مختلطة بذوات الخلق . وقد بسط الكلام عليه فى موضع آخر وبيّن أن لفظ المعية فى اللغة ، وإن اقتضى المجامعة والمصاحبة والمقارنة ، فهو إذا كان مع العباد ، لم يناف ذلك علوّه على عرشه . ويكون حكم معيته فى كل موطن بحسبه . فمع الخلق كلهم بالعلم والقدرة والسلطان . ويخص بعضهم بالإعانة والنصرة والتأييد .

محاسن التأويل [٣١٦/٢ - ٣١٩] .

وقال **العلامة السعدى** رحمة اللّه تعالى عليه : أمر اللّه تعالى المؤمنين بالاستعانة على أمورهم الدنيوية ﴿ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ﴾ . فالصبر هو حبس النفس وكفها عما تكره ، فهو ثلاثة أقسام :

الأول : صبرها على طاعة اللّه ، حتى تؤديها .

الثانى : وعن معصية اللّه حتى تتركها .

الثالث : وعلى أقدار اللّه المؤلمة فلا تتسخطها .

فالصبر هو المعونة العظيمة على كل أمر ، فلا سبيل لغير الصابر ، أن يدرك مطلوبه وخصوصاً الطاعات الشاقة المستمرة ، فإنها مفتقرة أشد الافتقار إلى تحمل الصبر ، وتجرع المرارة الشاقة . فإذا لازم صاحبها الصبر ، فاز بالنجاح ، وإن رده المكروه والمشقة عن الصبر والملازمة عليها ، لم يدرك شيئاً ، وحصل على الحرمان ، وكذلك المعصية التى تشتد دواعى النفس ونوازعها إليها وهى فى محل قدرة العبد ، فهذه لا يمكن تركها إلا بصبر عظيم ، وكف لدواعى =

= قلبه ونوازعها للّه تعالى ، واستعانة باللّه على العصمة منها ، فإنها من الفتن الكبار .

وكذلك البلاء الشاق ، خصوصاً إن استمر ، فهذا تضعف معه القوى النفسانية والجسدية ، ويوجد مقتضاها ، وهو التسخط ، إن لم يقاومها صاحبها بالصبر للّه ، والتوكل عليه ، واللجوء إليه ، والافتقار على الدوام .

فعلمت أن الصبر محتاج إليه العبد ، بل مضطر إليه فى كل حالة من أحواله ، فلهذا أمر اللّه تعالى به ، وأخبر أنه : ﴿ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ أى : مع من كان الصبر لهم خلقاً وصفة ، وملكة - بمعونته وتوفيقه وتسديده - فهانت عليهم بذلك المشاق والمكاره ، وسهل عليهم كل عظيم ، وزالت عنهم كل صعوبة ، وهذه معية خاصة تقتضى محبته ومعونته ، ونصره وقربه ، وهذا منقبة عظيمة للصابرين . فلو لم يكن للصابرين فضيلة إلا أنهم فازوا بهذه المعية من اللّه ، لكفى بها فضلًا وشرفاً ، وأما المعية العامة فهى معية العلم والقدرة ، كما فى قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ﴾ وهذه عامة للخلق .

وأمر تعالى بالاستعانة بالصلاة لأن الصلاة هى عماد الدين ، ونور المؤمنين ، وهى الصلة بين العبد وبين ربه ، فإذا كانت صلاة العبد صلاة كاملة ، مجتمعاً فيها ما يلزم فيها ، وما يسن ، وحصل فيها حضور القلب الذى هو لبها ، فصار العبد إذا دخل فيها استشعر دخوله على ربه ، ووقوفه بين يديه ، موقف العبد الخادم المتأدب ، مستحضراً لكل ما يقوله وما يفعله ، مستغرقاً بمناجاة ربه ودعائه لا جرم أن هذه الصلاة ، من أكبر المعونة على جميع الأمور ، فإن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر .

ولأن هذا الحضور الذى يكون فى الصلاة ، يوجب للعبد فى قلبه ، وصفاً ، وداعياً يدعوه إلى امتثال أوامر ربه واجتناب نواهيه ، هذه هى الصلاة التى أمر اللّه أن يستعين بها على كل شىء . تيسير الكريم الرحمن [١/١٠٩ - ١١١] .

وسياق الآية كان يقتضى أن يقال : « وإنهما » ولكن قال : ﴿ وَإِنَّهَا ﴾ فهل المقصود الصبر أم الصلاة ؟

ونقول إنه عندما يأتى أمران منضمان إلى بعضهما فإن الأمور لا تستقيم إلا بهما ، كما جاءت فى قول الحق : ﴿ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴾ [التوبة : ٦٢] ذلك لأن اللَّه ورسوله يلتقيان على حق واحد وليس لكل منهما حق ، وقول الحق سبحانه ﴿ وَإِذَا رَأَوْا۟ تِجَـٰرَةً أَوْ لَهْوًا ٱنفَضُّوٓا۟ إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِمًا ﴾ [الجمعة : ١١] حيث أن للتجارة واللَّهو فى وقت الصلاة عمل واحد وهو : شَغْل المؤمنين عن العبادة والذكر .

والصبر والصلاة فيهما مشقة على النفس تبعدها عن نعيم الدنيا وزخرفها ، والصلاة تحارب استكبار النفس ؛ لذا فلا يتم الصبر بلا صلاة ولا تتقن الصلاة إلاّ بالصبر .

والخشوع يجعل الإنسان يستحضر عظمة الحق سبحانه ومدى ضآلة الإنسان أمام خالقه ؛ ذلك لأن الإنسان يعيش فى عالم من الأغيار ، ولذا يجب أن يخشع الإنسان للذى لا يتغير . والذين يغترون بالأسباب نقول لهم : اخشعوا لواهب الأسباب وخالقها ، واعلموا أن الأيام دولٌ فقوى اليوم ضعيف غدًا ، ألم يقل الحق : ﴿ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾ [آل عمران : ١٤٠] وعليه فالخشوع لا يكون إلا للَّه والخاشع هو الطائع للَّه . الممتنع عن المحرمات الصابر على الأقدار المتيقن أن الأمر كله للَّه وحده وليس لأى قوة أخرى وهذا ما يؤكده قول الحق أيضًا : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴾ [البقرة : ١٥٣] .

وقد سُئل الإمام عليّ رضى اللّٰه عنه عن حق الجار فقال : « تعلمون . أنك لا تؤذيه ؟ قالوا : نعم .. قال : وأن تصبر على أذاه » وقول الحق ﴿ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ هنا أى : يطلب منك الحق أن تواجه الحياة فى معية اللّٰه . والأحداث لا تملأ الناس بالفزع والهلع إلا ساعة الانفلات من منهج ربهم والذى يعيش فى معية ربه ومنهجه لا يجرؤ عليه شيطان ؛ لأن الشيطان بطبعه خناس ، ولا يستطيع أن يدخل مع اللّٰه سبحانه فى معركة ، ولكنه يدخل معاركه مع من يبتعدون عن منهج اللّٰه سبحانه من الناس .

إذن .. لابد أن نعشق الصبر ؛ لأنه يجعلنا دائمًا فى معية اللّٰه سبحانه ، وإن هذه الآية لا تجعل الإنسان ييأس مهما لقى فى حركة حياته من مشقة .

وقلنا : إن الإنسان المخلوق للّٰه عندما يقف كل يوم خمس مرات بين يدى اللّٰه فإنما يصلح من ذاته ويتطهر من ذنوبه (١)

إن الإنسان صنعة اللّٰه ، وعندما يذهب الإنسان إلى لقاء خالقه جل وعلا ؛ فإنه يصلح ما يصيبه من عطب ؛ وقد لا يدرى الإنسان هذا اللون من العطب . وهكذا يُعد الخالق سبحانه خلقه لمواجهة كل ألوان المتاعب فى الحياة بقوله سبحانه : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ﴾ ؛ إن الحق يدعو المؤمنين إلى الحضور الدائم فى معيته ، معية النصر والتأييد والمدد . إن أحداث الحياة والمصائب فيها لا يمكن أن تتسلط على النفس إلا إذا انعزلت النفس عن مصدر قوتها ، وفى هذا الموضع يأتى أمر الحق بالتكليف الواضح . بالصبر

---

(١) عن أبى هريرة أن رسول اللّٰه صلى اللّٰه عليه وسلم قال : « أرأيتم لو أن نهرا بباب أحدكم يغتسل منه كل يوم خمس مرات ، هل يبقى من درنه شىء ؟ » قالوا : لا يبقى من درنه شىء . قال : « فذلك مثل الصلوات الخمس يمحو اللّٰه بهن الخطايا » . أخرجه البخارى [٥٢٨] ، ومسلم [٢٨٣/٦٦٧] واللفظ له .

على إيذاء اليهود وأهل الكتاب والمشركين لمشاعر المسلمين ، قال تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴾(1) . الله تبارك وتعالى يطلب من المؤمنين أن يستعينوا بالصبر والصلاة فى أى أمر فى حركة الحياة يفوق طاقة المؤمن وقدرته ؛ لأن أى أمر لو كان فى مقدور الإنسان لما طلب المعونة ، ولنا أن نسأل : متى يطلب الإنسان المعونة ؟

(١) قال الإمام أحمد رحمة الله تعالى عليه : الصبر فى القرآن فى نحو تسعين موضعاً وهو واجب بإجماع الأمة . وهو نصف الإيمان . فإن الإيمان نصفان : نصف صبر ونصف شكر . وهو مذكور فى القرآن على ستة عشر نوعاً :

الأول : الأمر به . نحو قوله تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ﴾ [البقرة : ١٥٣] .

وقوله تعالى : ﴿ وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ﴾ [البقرة : ٤٥] . وقوله : ﴿ ٱصْبِرُوا۟ وَصَابِرُوا۟ ﴾ [آل عمران : ٢٠٠] . وقوله : ﴿ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ﴾ .

الثانى : النهى عن ضده كقوله : ﴿ فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ ﴾ [الأحقاف : ٣٥] . وقوله سبحانه : ﴿ فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ ﴾ [الأنفال : ١٥] . فإن تولية الأدبار : ترك للصبر والمصابرة . وقوله : ﴿ وَلَا تُبْطِلُوٓا۟ أَعْمَـٰلَكُمْ ﴾ . فإن إبطالها ترك الصبر على إتمامها . وقوله : ﴿ وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ ﴾ فإن الوهن من عدم الصبر .

الثالث : الثناء على أهله كقوله تعالى : ﴿ ٱلصَّـٰبِرِينَ وَٱلصَّـٰدِقِينَ ﴾ [آل عمران : ١٧] .

وقوله : ﴿ وَٱلصَّـٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴾ وهو كثير فى القرآن .

الرابع : إيجابه سبحانه محبته لهم كقوله : ﴿ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴾ .

الخامس : إيجاب معيته لهم ، وهى معية خاصة ، تتضمن حفظهم ونصرهم وتأييدهم ، ليست معية عامة ، وهى معية العلم والإحاطة ، كقوله : =

= ﴿ وَٱصْبِرُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ . وقوله سبحانه وتعالى : ﴿ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [البقرة : ٢٤٩] .

السادس : إخباره بأن الصبر خير لأصحابه ، كقوله : ﴿ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴾ . وقوله : ﴿ وَأَن تَصْبِرُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ [النساء : ٢٥] .

السابع : إيجاب الجزاء لهم بأحسن أعمالهم . كقوله تعالى : ﴿ وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓاْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ [النحل : ٩٦] .

الثامن : إيجابه سبحانه الجزاء لهم بغير حساب . كقوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [الزمر : ١٠] .

التاسع : إطلاق البشرى لأهل الصبر . كقوله تعالى : ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [البقرة : ١٥٥] .

العاشر : ضمان النصر والمدد لهم . كقوله تعالى : ﴿ بَلَىٰٓ ۚ إِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴾ [آل عمران:١٢٥]

ومنه قول النبى صلى الله عليه وسلم : « واعلم أن النصر مع الصبر »(١) .

الحادى عشر : الإخبار منه تعالى بأن أهل الصبر هم أهل العزائم . كقوله تعالى : ﴿ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴾ [الشورى : ٤٣] .

الثانى عشر : الإخبار أنه ما يُلَقَّى الأعمال الصالحة وجزاؤها والحظوظ العظيمة إلَّا أهل الصبر كقوله تعالى : ﴿ ... وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ۚ وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴾ [القصص : ٨٠] . وقوله : ﴿ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ [فصلت : ٣٥] . =

---

(١) جزء من حديث رواه أحمد فى المسند [١/٣٠٧] ، والحاكم فى المستدرك [٣/٥٤١] عن ابن عباس رضى الله عنهما بلفظ : « واعلم أن مع الصبر النصر » . وصححه الشيخ أحمد شاكر فى المسند برقم [٢٨٠٤] .

= **الثالث عشر** : الإخبار أنه إنما ينتفع بالآيات والعبر أهل الصبر . كقوله تعالى لموسى : ﴿ ... أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ [إبراهيم : ٥] .

وقوله فى أهل سبأ : ﴿ ... فَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ [سبأ : ١٩] . وقوله فى سورة الشورى : ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ .

الرابع عشر : الإخبار بأن الفوز المطلوب المحبوب والنجاة من المكروب المرهوب ودخول الجنة إنما نالوه بالصبر كقوله تعالى : ﴿ .. وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴾ [الرعد : ٢٣ ، ٢٤] .

الخامس عشر : أنه يورث صاحبه درجة الإمامة . سمعت شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه - يقول : بالصبر واليقين تنال الإمامة فى الدين . ثم تلا قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ [السجدة : ٢٤] .

السادس عشر : اقترانه بمقامات الإسلام والإيمان ، كما قرنه الله سبحانه باليقين والإيمان وبالتقوى والتوكل وبالشكر والعمل الصالح والرحمة ؛ ولهذا كان الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد ولا إيمان لمن لا صبر له . كما أنه لا جسد لمن لا رأس له .

وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : « خير عيش أدركناه بالصبر » [1]. =

---

(١) أخرجه البخارى مُعَلَّقًا بصيغة الجزم . وقال الحافظ فى الفتح : قد وصله أحمد فى كتاب الزهد بسند صحيح عن مجاهد قال : قال عمر : « وجدنا خير عيشنا الصبر » . وأخرجه أبو نعيم فى الحلية من طريق أحمد كذلك . وأخرجه عبد الله بن المبارك فى كتاب الزهد من وجه آخر عن مجاهد به . فتح البارى [١١/٣٠٣] .

= وأخبر النبى صلى اللّٰه عليه وسلم فى الحديث الصحيح : « أنه ضياء »[1] .
وقال : « ومن يتصبر يصبره الله »[2] . وفى الحديث الصحيح : « عجباً لأمر المؤمن إن أمره كله خير . وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن . إن أصابته سراء شكر . فكان خيرًا له ، وإن أصابته ضرَّاء صبر ، فكان خيرا له »[3] .
وقال للمرأة السوداء التى كانت تصرع فسألته : أن يدعو لها : « إن شئت صبرت ، ولك الجنة وإن شئت دعوت الله أن يعافيك » . فقالت : أصبر ، فقالت إنى أتكشف فادع اللّٰه لى أن لا أتكشف . فدعا لها[4] .
وأمر الأنصار رضى الله عنهم بأن يصبروا على الأثرة التى يلقونها بعده حتى يلقوه على الحوض[5] .
وأمر عند ملاقاة العدو بالصبر . وأمر بالصبر عند المصيبة . وأخبر ﷺ « أنه إنما يكون عند الصدمة الأولى »[6] .
وأمر ﷺ المصاب بأنفع الأمور له ، وهو الصبر والاحتساب . فإن ذلك يخفف مصيبته ويوقر أجره . والجزع والتسخط والتشكى يزيد فى المصيبة ، ويذهب الأجر . وأخبر ﷺ أن الصبر خير كله : فقال : « وما أعطى أحد عطاء خيرًا وأوسع من الصبر »[7] . مدارج السالكين [٢ / ١٧٤ : ١٧٨] .

---

(١) أخرجه مسلم [١/٢٢٣] ، عن أبى مالك الأشعرى رضى اللّٰه تعالى عنه .
(٢) أخرجه مسلم [١٢٤/١٠٥٣] ، عن أبى سعيد الخدرى رضى اللّٰه تعالى عنه .
(٣) أخرجه مسلم [٦٤/٢٩٩٩] ، عن صهيب الرومى رضى اللّٰه تعالى عنه .
(٤) أخرجه البخارى [٥٦٥٢] ، ومسلم [٥٤/٢٥٧٦] ، عن ابن عباس رضى اللّٰه عنهما .
(٥) أخرجه البخارى [٤٣٣٠] ، ومسلم [١٣٩/١٠٦١] ، عن عبد اللّٰه بن زيد رضى اللّٰه عنه
(٦) أخرجه البخارى [١٢٨٣] ، ومسلم [١٤/٩٢٦] ، عن أنس بن مالك رضى اللّٰه عنه .
(٧) أخرجه البخارى [١٤٦٩] ، ومسلم [١٢٤/١٠٥٣] ، عن أبى سعيد الخدرى رضى اللّٰه تعالى عنه .

الإنسان يطلب المعونة عند عدم القدرة . إذن .. لابد أن تستوعب قدرة الإنسان الفعل فيستطيع إنجازه ، ولكن ماذا يفعل الإنسان حين يجىء فعل يفوق قدرته ؟ ساعتها يجب عليه أن يستعين بالقادر الذى لا تنفد قدرته أبدًا .

إن هذه الآية يستطيع المؤمن أن يسير على هُداها فى كل حركة فى الحياة ، فيقبل على الأشياء مستعيناً بمن خلق الأشياء سبحانه ، ولا يستعين الإنسان بالخالق جل وعلا إلا إذا كان مؤمنا به .

وقول اللّٰه تعالى : ﴿ وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ ﴾ معنى ذلك أن الحق ينبهنا إلى أن هناك أحداثا ستأتى لتستنفد الطاقة البشرية وتعلو عليها وتتخطاها ، والصبر هنا يدل على أن هذه الأحداث فيها إيلام وفيها مشقة ، وكأن الحق يعد النفس المؤمنة لعملية جهادية كبيرة قد تستنفد طاقة الإنسان العادى ، لكن المؤمن يستطيع أن يتحمل مشقة الأحداث بالصبر على ما يلاقيه ، إن الحق لا يُمَنِّى المؤمنين الذين اختاروا السير على الصراط المستقيم فى الحياة ، بأن طريق الإيمان طريق سهل خالٍ من المشاقّ . إن مهمة أهل الطريق المستقيم فى الحياة أنهم أصحاب حق ، وأصحاب الحق لا تستنفر هممهم إلا حين يستشرى الباطل ، والباطل حين يرى دنياه تتزلزل من تحت أقدامه فهو يحاول جاهدا أن يصدَّ جنود الحق .

إن اللّٰه يَعِدُ المؤمنين بأنهم سيواجهون عنفا ويواجهون شراسة ويواجهون مكرا ويواجهون كيدا ، فإياكم أيها المؤمنون أن تخور منكم القوة وأنتم تؤدون المهمة ، هذه المهمة هى : إعلاء كلمة اللّٰه فى الأرض ؛ وإخراج الناس من عبادة الناس إلى عبادة اللّٰه الواحد القهار ، وهذا الأمر لن يتم بيسر وسهولة ، لابد من المشقة وتحمل تبعات ذلك .

إن أعداء الإسلام سيتكالبون عليكم فكونوا أنتم أشد منهم قوة واستعينوا بالصبر . والصبر هو أن يتحمل الإنسان لونين من المشقة .

اللون الأول من المشـقة هو : أن الطاعة قد تكون صعبة على النفس فعلى المؤمن أن يصبر عليها .

واللون الثانى من المشقة هو : أن الطاعة تتطلب أيضًا أن يكفَّ الإنسان عن شهوة تلح النفس عليها [1] ، وهذا أيضا يتطلب صبرا .

---

(١) ولذلك فقد قَسَّم العلماء « الصبر » إلى أنواع ، وذلك بالنسبة لما يستقبله العبد من أمور فى حياته وإلى أنواع أخرى بالنسبة لعلاقة المسلم بربه ، وعرَّفوا الصبر لغة وشرعاً ، وها نحن نذكر كلامهم على وجه من الاختصار الغير مخل ، فأنواع الصبر لما يستقبله العبد من أمور فى حياته هى :

١ - **الصبر فى اللغة** : الحبس والكف ومنه قوله تعالى ﴿ وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ﴾ [الكهف : ٢٨] أى : احبس نفسك معهم ، كما قال الإمام ابن القيم . مدارج السالكين [٢/١٧٨] .

٢ - **الصبر شرعاً** : حبس النفس على ما يقتضيه الشرع ، فهو حبس النفس عن الجزع والتسخط ، وحبس اللسان عن الشكوى ، وحبس الجوارح عن المعاصى والبعد عن الله نتيجة ظروف الحياة .

وقد قال الراغب : فالصبر لفظ عام وربما خولف بين أسمائه بحسب اختلاف مواقعه ، فإن كان حبس النفس لمصيبة سُمِّىَ صبراً لا غير ويضاده الجزع .

وإن كان فى محاربة سُمِّىَ شجاعة ويضاده الجبن .

وإن كان فى نائبة مضجرة سُمِّىَ رحب الصدر ويضاده الضجر .

وإن كان فى إمساك الكلام سمى كتماناً ويضاده المذل ، وقد سمى الله تعالى كل ذلك صبرا .

مفردات ألفاظ القرآن [ص ٤٧٤] . =

إذن .. فالطاعة تتطلب صبرا فى حالة تنفيذ مطلوبها وتتطلب صبرا آخر فى حالة الابتعاد عن المشقة ، إن الطاعة تتطلب الصبر على القيام بعمل فد يرى الإنسان أنه شاق ، وتنهى عن عمل قد يرى الإنسان أنه سهل وفيه لذة ، لذلك نجد الرسول صلى اللَّه عليه وسلم يقول فى الحديث : « حُفَّتِ الجَنَّةُ بِالمكارِهِ ، وحُفَّتِ النّارُ بِالشَّهَواتِ » (1) .

الطاعة إذن تتطلب لونين من الصبر ، الصبر على مشقة الطاعة لتفعلها ، والصبر على ترك المعصية لتتجنبها ، لكن إذا ما ظلت النفس مع اللَّه تعالى باتباع أمره واجتناب نهيه فلن تقدر أحداث الحياة أن تتسلط بالهموم على النفس الإنسانية . إن الإنسان المؤمن ما دام فى حصانة دينه فلا يقوى عليه حدث أبداً ، أما الإنسان المنعزل عن منهج اللَّه فهو الذى تقوى عليه أحداث الحياة ؛ لأنه يواجهها بقدرته المحدودة ، وأما الإنسان المؤمن بمنهج اللَّه فهو يعيش فى معية ربه القادر القدير ، فلا يتغلب عليه أحد أبدًا إلا إذا انعزل عن

= **وللصبر أنواع أخرى منها :**

١ - **الصبر للَّه** « فلا يرائى فيه » لقول اللَّه تعالى : ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾ [البينة : ٥] .

٢ - **الصبر بالله** : قال تعالى : ﴿ وَٱصۡبِرۡ وَمَا صَبۡرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ ﴾ [النحل : ١٢٧] . وقوله تعالى : ﴿ رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا وَتَوَفَّنَا مُسۡلِمِينَ ﴾ [الأعراف : ١٢٦] .

٣ - **الصبر عن الله** : وهو حرام وذلك لمن ذاق حلاوة القرب من الله عز وجل ثم صبر على البعد عنه بعد ذلك .

مدارج السالكين [٢ / ١٧٨] وما بعدها .

(1) أخرجه البخارى [٦٤٨٧] عن أبى هريرة رضى اللَّه عنه ، ومسلم [١/٢٨٢٢] عن أنس بن مالك رضى اللَّه عنه واللفظ له .

معيَّة ربه أو خالف فى شىء من منهجه ، فإن أراد المؤمن أن يستديم نصر اللَّه ، فليظل دائماً فى معية اللَّه ، والحق يكون مع الصابرين ؛ حتى يعلموا أن اللَّه تعالى يفرج عنهم .

إن أمر الحق للمسلمين بالصبر والصلاة ، هو تجديد استدامة الولاء له سبحانه عندما رحلوا من مكة إلى المدينة ، وكان اليهود فيها أصحاب شىء من العلم ؛ ولهم جزء من السيطرة على الاقتصاد ، لذلك جاء أمر اللَّه بالاستعانة بالصلاة لتستمر القيم التى هجرها اليهود ، وأمرهم الحق بالزكاة ؛ لأن الزكاة فى جوهرها إيجاد حركة من الإنسان ؛ لتسع حاجتة و حاجة من يعول وتزيد ، وبذلك يستغنى المسلمون عن اليهود فلا يحتاجون إلى اقتصاد يسيطر عليه هؤلاء الذين لعنهم اللَّه .

إن الأمر بالزكاة ، كان فى جوهره أمراً بزيادة الحركة فى الحياة ؛ ليواجه المسلمون أمور حياتهم بحزم ، ويصلحوا من هذه الأمور بمنهج اللَّه .

إن الحق سبحانه وتعالى يعلم أن تبعات الإيمان ، ومواجهة المؤمنين لخصوم الإيمان ستتطلب من المسلمين مشقة عنيفة ، فهى تهددهم فى ذواتهم وفى أهلهم وفى أموالهم ؛ لذلك أراد الحق سبحانه وتعالى أن يعطى المؤمنين فى هذه البيئة مناعة ضد كل هذه الأشياء ، فأمرهم بالاستعانة بالصبر والصلاة ، فقال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ .

○○○

الصلاة .. الركن الفارق بين الإسلام والكفر

لو نظرت إلى أركان الإسلام الخمسة تجد أن المسلم قد يؤدى بعضها ويسقط عنه البعض الآخر .

إذن .. فهناك فرق بين أركان الإسلام وأركان المسلم ، فالمسلم الفقير الذى لا يجد الضرورات تسقط عنه الزكاة ، ويسقط عنه الحج ، والمسلم المريض مرضاً مزمناً يسقط عنه الصوم ، وإذا كان مريضًا وفقيرًا سقطت عنه الأركان الثلاثة . ولم يبق له من الأركان إلا شهادة أن لا إله إلا اللّٰه وأن محمدًا رسول اللّٰه وإقام الصلاة ، وهذان لا يسقطهما عنه شيء ، ولا يحول دونهما حائل أبدًا ، لا فى الفقر ، ولا فى الغنى ، ولا فى الصحة ولا عند العجز .

لذا كانت الصلاة هى الفارقة بين المسلم وغير المسلم(١) وهى عماد الدين(٢) وهى فريضة فى اليوم خمس مرات لإعلان دوام الولاء للّٰه سبحانه ؛

---

(١) أخرج مسلم [١٣٤/٨٢] عن جابر رضى اللّٰه تعالى عنه قال : سمعت النبى صلى اللّٰه عليه وسلم يقول : « إن بين الرجل وبين الشرك والكفر ترك الصلاة » .
وروى الترمذى [٢٦٢١] والنسائى فى المجتبى [٤٦٣] ، ومحمد بن نصر المروزى فى كتاب الصلاة [١٠٠٣/٢] وصححه الألبانى .
عن يزيد بن حبيب الأسلمى قال : سمعت رسول اللّٰه صلى اللّٰه عليه وسلم يقول : « العهد الذى بيننا وبينهم الصلاة فمن تركها فقد كفر » .
وقال الترمذى : حديث صحيح ، إسناده على شرط مسلم .

(٢) وورد عن عمر رضى اللّٰه تعالى عنه أنه قال : « الصلاة عمود الدين » . ذكره الألبانى فى ضعيف الجامع الصغير [٣٥٦٧] وعزاه لأبى نعيم ؛ الفضل بن دُكين فى الصلاة . =

ومن ثم كانت الصلاة أهم أركان الإسلام ليس لهذا السبب سالف الذكر فقط ، ولكن لأن الصلاة أيضًا تشمل كافة الأركان .. كيف هذا ؟

إننا نعلم أن كل صلاة إنما تضم كل أركان الإسلام ففى كل صلاة نشهد أن لا إله إلا اللَّه وأن محمدًا رسول اللَّه ، وكل صلاة فيها زكاة لأن الزكاة إخراج بعض المال للفقراء ؛ والمال يأتى من العمل ، والعمل محتاج لوقت والصلاة تأخذ بعض وقتك الذى يمكن أن تستخدمه فى العمل ليعطيك رزقًا تزكى به ، فكأنك وأنت تصلى أعطيت بعض مالك للَّه تبارك وتعالى . فكأن الصلاة فيها زكاةُ الوقت .

ونأتى بعد ذلك للصوم وأنت فى الصوم تمتنع عن شهوة البطن وشهوة الفرج لبعض الوقت ، وكذلك فى الصلاة كما أنك لا تستطيع أن تأكل أثناء الصلاة ولا أن تقترب من زوجتك ، ولذا أنت بالصلاة تكون فى دائرة أوسع من الإمساك لشهوتى الفرج والبطن ذلك أنك ممنوع من الحركة وممنوع من الكلام .

فإذا جئنا إلى حج بيت اللَّه الحرام ، نقول إنك ساعة تصلى لابد أن تتجه إلى بيت اللَّه الحرام وتتحرى القبلة ، إذن فكأن بيت اللَّه الحرام الذى يقصده الحجيج يكون فى بالك وفى ذِكرك وأنت تتجه إليه فى كل صلاة .

= وروى الترمذى [٢٦١٦] عن معاذ بن جبل رضى اللَّه تعالى عنه أن رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم قال : « .. ثم قال : ألا أخبرك بملاك ذلك كله ؟ قلت : بلى يا نبى اللَّه ، قال : فأخذ بلسانه ، قال : « كف عليك هذا » . فقلت : يا نبى اللَّه وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به ؟ فقال : « ثكلتك أمك يا معاذ ، وهل يكُبُ الناسَ فى النار على وجوههم أو على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم . رأس الأمر وعموده الصلاة ، وذروة سنامه الجهاد ... » ، وصححه الألبانى .

وعلى ذلك فقد جمعت الصلاة أركان الإسلام الخمس كلها ، ولذلك قال رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم فيما يرويه عمر رضى اللَّه تعالى عنه « إن الصلاة عمود الدين » ولذا فإن من أقامها فقد أقام الدين .

والمتأمل لترتيب آيات القرآن يجد أن الصلاة مقرونة دائمًا بالزكاة لأن الزكاة طهارة المال ، والصلاة طهارة الوقت ، ونحن محتاجون إلى الوقت لنعمل فيه حتى نأتى بالمال الذى نزكى به .

ومن ثم كانت الصلاة هى أهم أركان الإسلام والتى تجمع كل أركان الإسلام لبعض المسلمين الذين تسقط عنهم بعض الأركان لمرض أو فقر ومن هنا تتجلى عظمة الصلاة .

○ ○ ○

الصلاة .. وتكفير الذنوب

قال سبحانه وتعالى : ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ ﴾ [هود : ١١٤] وهكذا كشف اللّٰه تعالى وجهًا من حكمته سبحانه فى القيام بالصلاة طرفى النهار وزلفا من الليل وهى أن الصلاة إلى الصلاة كفارة لما بينهما ما اجتنبت الكبائر ، ولكن ما هى الحسنة وما هى السيئة ؟ الحسنة هى ما رتب اللّٰه تعالى على عملها ثوابا ، والسيئة هى ما جعل اللّٰه سبحانه على عملها عقابا .

وأولى حسنات الإيمان أن نشهد أن لا إله إلا اللّٰه فَتُذْهِبُ حسنة الإيمان سيئةَ الكفر .

وقال بعض العلماء إذا كان الإيمان حسنة أذهبت سيئة الكفر ؛ فيامن تقول إن المؤمن الذى عمل الذنوب والكبائر سيخلد فى النار ما الفرق بين إنسانٍ عصى وهو مؤمن وإنسانٍ عصَى وهو كافر ؟

وإذا كان الإيمان حسنة أذهب اللّٰه تعالى بها الكفر ، ألا يذهب بها سبحانه ما هو دون الكفر ؟

إن الإيمان حسنة أذهب اللّٰه تعالى بها سيئة الكفر ، فالمؤمن العاصى مهما كانت معصيته لا يخلَّد فى النار ، لأنه ليس من العدل المساواة بين من آمن باللّٰه تعالى ولكنه حدث عنده بعض التقصير فى أمور ، وبين من لم يؤمن باللّٰه أصلًا .

إذن .. كلمة الإيمان قد صنعت حسنة كبيرة بأن أذهبت الكفر أولًا فمنعت خلود المؤمن فى النار ثانيًا ، ولذلك الفرقة الناجية التى جاءت فى أحاديث رسول اللّٰه صلى اللّٰه عليه وسلم لا يخلد فى النار منها أحد أبدًا ، وإن كان يدخلها بقدر ما ارتكب من المعاصى ، إذا لم تتداركه رحمه اللّٰه

تعالى بأن تكون حسناته أكثر فى ميزانه من سيئاته ، أو يشفع اللّه تعالى فيها ، أو تناله شفاعة النبى صلى اللّه عليه وسلم ، أو يشفع فيه أحدًا من المأذون لهم فى الشفاعة [1] .

والحسنات هى الفرائض التى فرضها اللّه تعالى على عباده ، إذن .. فالحسنات التى هى الفرائض تذهب بالسيئات التى هى المعاصى ، وما يوجب عذاب اللّه . ولكن هناك أحاديث وردت فى غير الفرائض منها مثلا صوم يوم عرفة إلى عرفة يكفر السنة الماضية والباقية[2] ، وعلى الإنسان إذا طعم طعامًا فعليه أن يقول : الحمد للّه الذى أطعمنا هذا من غير حول منى ولا قوة . وإذا لبس ثوبًا جديدًا قال : الحمد للّه الذى كسانى هذا الثوب من عير حول منى ولا قوة ، هذا الحمد يكفر الذنوب[3] .

---

(١) انظر كتاب : « الشفاعة والمقام المحمود » لفضيلة الشيخ الإمام وهو من منشورات مكتبة التراث الإسلامى بالقاهرة .

(٢) جزء من حديث أخرجه مسلم [١١٦٢/١٨٧] عن أبى قتادة الأنصارى رضى اللّه عنه .

(٣) روى أبو داود [٤٠٢٣] عن أنس رضى اللّه تعالى عنه قال : قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : « من أكل طعامًا ثم قال الحمد للّه الذى أطعمنى هذا الطعام ورزقنيه من غير حول منى ولا قوة غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، ومن لبس ثوبًا فقال : الحمد للّه الذى كسانى هذا الثوب ورزقنيه من غير حول منى ولا قوة : غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر .
وقال الألبانى فى صحيح أبى داود [٣٣٩٤] : حسن دون زيادة « وما تأخر » فى الموضعين .

وإذا قلت : سبحان اللَّه ، والحمد للَّه ولا إله إلا اللَّه واللَّه أكبر ، ولا حول ولا قوة إلا باللَّه تكفر الذنوب(١) .

إذن .. فالحسنات تكون فرضًا وتكون غير فرض ، وكلها تحسب حسنات ؛ والسيئات هى عمل توعَّدَ اللَّهُ من يعمله بالعقوبة فكيف تُذهب الحسنات السيئات ما دامت السيئات عملًا ؟ وهل العمل إذا وقع يرفع ؟ كيف تُذهب الحسنة السيئة ؟

نقول : إن السيئة إذا وقعت لا ترفع لأن الذهاب إما أن يكون ذهاب فعل وهذا ليس متأتيا ، وإما أن يكون ذهابا لأثر ذلك الفعل ، وهذا هو الذى يحدث ، فاللَّه سبحانه وتعالى يمحوه من كتاب سيئاتك .

إذن .. فإذهاب الفعل فى ذاته لا يحدث لأن الواقع لا يرفع وقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ﴾ [هود : ١١٤] ليس معناه أنها تمنعها ، لأن السيئة وقعت فعلا ، ولكن السيئة إذا وقعت فإن الذى يترتب عليها من عقاب هو الذى يُرفع بموجب فعل الحسنات(٢) .

---

(١) روى ابن ماجه [٣٨٠٧] ، والحاكم فى المستدرك [١/٦٩٣/١٨٨٧] عن أبى هريرة رضى اللَّه تعالى عنه أن رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم مر به وهو يغرس غرسًا فقال : يا أبا هريرة ما الذى تغرس ؟ قلت : غراسًا لى ، قال : ألا أدلك على غراس خير لك من هذا ؟ قال : بلى يا رسول اللَّه ، قال : « قل سبحان اللَّه ، والحمد للَّه ، ولا إله إلا اللَّه ، واللَّه أكبر ، يغرس لك بكل واحدة شجرة فى الجنة » . وصححه الألبانى .

(٢) قال ابن كثير فى قوله : ﴿ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ﴾ يقول إن فعل الخيرات يكفر الذنوب السالفة .

تفسير ابن كثير [٢/٤٤٣] . =

= وروى عن عليّ بن أبى طالب رضى الله تعالى عنه قال : كنت إذا سمعت من رسول الله حديثًا نفعنى الله بما شاء أن ينفعنى منه ، وإذا حدثنى أحد من أصحابه استحلفته ، فإذا حلف لى صدقته ، قال : حدثنى أبو بكر وصدق أبو بكر رضى الله تعالى عنه أنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : ما من عبد يذنب ذنبًا فيحسن الطهور ثم يقوم فيصلى ركعتين ثم يستغفر الله ، غفر الله له ثم قرأ هذه الآية : ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَـٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [آل عمران : ١٣٥] . فيتوضأ ويصلى ركعتين إلا غفر له (١) .

وعن عثمان بن عفان رضى الله تعالى عنه قال : رأيت رسول الله يتوضأ ، وقال من توضأ نحو وضوئى هذا ثم قام فركع ركعتين لا يحدِّث فيهما نفسه ، غفر له ما تقدم من ذنبه (٢) .

وعن عثمان رضى الله تعالى عنه ؛ قال : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يتوضأ وضوئى هذا ثم قال : ومن توضأ وضوئى هذا ثم قام فصلى صلاة الظهر غُفر له ما بينها وبين الصبح ، ثم صلى العصر غفر له ما بينها وبين صلاة الظهر ، ثم صلى المغرب غفر له ما بينها وبين صلاة العصر ، ثم صلى العشاء غفر له ما بينها وبين صلاة المغرب ، ثم لعله أن يبيت يتمرغ ليلته ، ثم إن قام فتوضأ وصلى الصبح غفر له ما بينها وبين صلاة العشاء ، وهن الحسنات يذهبن السيئات(٣) . =

---

(١) رواه أبو داود [١٥٢١] واللفظ له . والترمذى [٤٠٦] ، وابن ماجه [١٣٩٥] ، وأحمد فى المسند واللفظ له [١/٢،٨،٩،١٠] ، وصححه الألبانى .

(٢) أخرجه البخارى [١٥٩] ، ومسلم [٣/٢٢٦] ، وأبو داود [١٠٦] .

(٣) رواه أحمد فى المسند [١/٧١] وقال الأرناؤوط : إسناده حسن .

= عن أبى هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال : أرأيتم لو أن نهرًا بباب أحدكم يغتسل منه كل يوم خمس مرات هل يبقى من درنه شىء ؟ قالوا : لا يبقى من درنه شىء . قال : فذلك مثل الصلوات الخمس يمحو الله بهن الخطايا [1] .

عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ كان يقول الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة ورمضان إلى رمضان مكفرات ما بينهن إذا اجتنب الكبائر[2] .

وعن أبى أيوب الأنصارى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول : إن كل صلاة تحط ما بين يديها من خطيئة [3] .

عن عبد الله بن مسعود رضى الله تعالى عنه قال : أن رجلًا أصاب من امرأة قبلة فأتى النبى صلى الله عليه وسلم فذكر ذلك له قال : فنزلت : ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيۡلِۚ إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ ذَٰلِكَ ذِكۡرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴾ [هود : ١١٤] ، قال الرجل : ألى هذا يا رسول الله ؟ قال : لمن عمل بها من أمتى »[4] .

عن ابن مسعود رضى الله تعالى عنه قال جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله إنى عالجت امرأة فى أقصى المدينة وإنى أصبت منها ما دون أن أمسها ، فأنا هذا فاقض فى ماشئت ، فقال له عمر : لقد سترك الله لو سترت نفسك ، قال فلم يرد النبى صلى الله عليه وسلم شيئًا فقام الرجل فانطلق فأتبعه النبى صلى الله عليه وسلم رجلًا دعاه وتلا عليه =

---

(١) أخرجه البخارى [٥٢٨] ، ومسلم [٢٨٣/٦٦٧] ، والترمذى [٢٨٦٨] ، وابن ماجه [١٣٩٧] .

(٢) أخرجه مسلم [١٦/٢٣٣] .

(٣) رواه أحمد فى المسند [٤١٣/٥] .

(٤) رواه البخارى [٤٦٨٧] ، ومسلم [٣٩/٢٧٦٣] ، والترمذى [٣١١٤] .

= هذه الآية : ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيۡلِۚ إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ ذَٰلِكَ ذِكۡرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴾ .
فقال رجل من القوم يا نبى اللَّه هذا له خاصة ، قال : « بل للناس كافة »[1] .
وعن عبد اللَّه بن مسعود قال : قال رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم إن اللَّه قسم بينكم أخلاقكم كما قسم بينكم أرزاقكم ، وإن اللَّه عز وجل يعطى الدنيا من يحب ومن لا يحب ، ولا يعطى الدين إلا لمن أحب ، فمن أعطاه اللَّه الدين فقد أحبه ، والذى نفسى بيده لا يُسلم عبد حتى يسلم قلبه ولسانه ، ولا يؤمن حتى يأمن جاره بوائقه ، قالوا : وما بوائقه يا نبى اللَّه ؟ قال : « غشمه وظلمه ، ولا يكسب عبد مالًا من حرام فينفق منه فيبارك له فيه ، ولا يتصدق به فيقبل منه ، ولا يترك خلف ظهره إلا كان زاده إلى النار ، إن اللَّه عز وجل لا يمحو السيئ بالسيئ ، ولكن يمحو السيئ بالحسن ، إن الخبيث لا يمحو الخبيث»[2] .
وعن ابن عباس أن رجلًا أتى عمر فقال : امرأة جاءت تبايعه فأدخلتها الدولج ، فأصبت منها ما دون الجماع ، فقال : ويحك لعلها مغِيب فى سبيل اللَّه ؟ قال : أجل ، قال : فائت أبا بكر فاسأله ، قال : فأتاه فسأله ، فقال : لعلها مغِيب فى سبيل اللَّه ؟ فقال : مثل قول عمر ، ثم أتى النبى صلى اللَّه عليه وسلم فقال له مثل ذلك ، قال : فلعلها مغِيب فى سبيل اللَّه ؟ ونزل القرآن : ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيۡلِۚ إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ ﴾ إلى آخر الآية . فقال يا رسول اللَّه : ألى خاصة ، أم للناس عامة ؟ فضرب عمر صدره بيده =

(١) أخرجه مسلم [٤٢/٢٧٦٣] .
(٢) رواه أحمد فى المسند [٣٨٧/١] وقال الأرناؤوط : إسناده ضعيف ، وقال الدارقطنى فى العلل [٢٧١/٥] : والصحيح أنه موقوف .

= فقال : « لا .. ولا نعمة عين ، بل للناس عامة ، فقال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم صدق عمر »(1) .

وعن معاذ بن جبل أنه كان قاعدًا عند النبى صلى اللّه عليه وسلم فجاء رجل فقال يا رسول اللّه ما تقول فى رجل أصاب من امرأة لا تحل له فلم يدع شيئًا يصيبه الرجل من امرأته إلا قد أصاب منها غير أنه لم يجامعها فقال له النبى صلى اللّه عليه وسلم : « توضأ وضوءا حسنا ثم قم فصل » . فأنزل اللّه عز وجل هذه الآية يعنى قوله : ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيۡلِۚ إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ ذَٰلِكَ ذِكۡرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴾ ، فقال معاذ : أهى له خاصة أم للمسلمين عامة ، قال : « بل للمسلمين عامة »(2) .

وعن سلمان رضى اللّه تعالى عنه قال : قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : « إن المسلم إذا توضأ فأحسن الوضوء ثم صلى الصلوات الخمس تحاتت خطاياه كما يتحات هذا الورق ، وقال : ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيۡلِۚ إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ ذَٰلِكَ ذِكۡرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴾(3) . [هود : ١١٤] .

وعن معاذ أن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم قال له يا معاذ أتبع السيئة الحسنة تمحها ، وخالق الناس بخلق حسن(4) . =

---

(1) رواه أحمد فى [٢٤٥/١] وقال الشيخ شاكر : إسناده صحيح ، والدولج بفتح الدال وسكون الواو وفتح اللام قال ابن الأثير : المخدع ، وهو البيت الصغير داخل البيت الكبير .

(2) رواه الدارقطنى [١٣٤/١] .

(3) رواه أحمد فى المسند [٤٣٧/٥] . وقال الأرناؤوط : حسن لغيره ، وهذا إسناد ضعيف لضعف على بن يزيد .

(4) رواه أحمد فى المسند [٢٢٨/٥] وقال الأرناؤوط : حديث حسن ، وهذا إسناد رجاله رجال الشيخين غير ميمون بن أبى شبيب فقد روى له مسلم فى المقدمة .

○○○

= وعن أبى ذر أن رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم قال : « اتق اللَّه حيثما كنت وأتبع السيئة الحسنة تمحها وخالق الناس بخلق حسن »[1] .

وعن أبى ذر قال : قلت : يا رسول اللَّه أوصنى قال : إذا عملت سيئة فاتبعها حسنة تمحها . قال : قلت يا رسول اللَّه أمن الحسنات لا إله إلا اللَّه ؟ قال : هى أفضل الحسنات[2] .

وعن أنس بن مالك قال : قال رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم : « ما قال عبد لا إله إلا اللَّه فى ساعة من ليل أو نهار إلا طمست ما فى صحيفته من السيئات حتى يسكن إلى مثلها من الحسنات[3] .

(١) رواه أحمد فى المسند [١٥٣/٥] وقال الأرناؤوط : حسن لغيره وهذا إسناد رجاله ثقات رجال الشيخين غير ميمون بن أبى شبيب فقد روى له مسلم فى المقدمة .

(٢) رواه أحمد فى المسند [١٦٩/٥] وقال الأرناؤوط : حسن لغيره وهذا إسناد ضعيف لجهالة أشياخ شمر بن عطية .

(٣) رواه أبو يعلى الموصلى [٣٦١١/٢٩٤/٦] وقال محققه : إسناده ضعيف .

الصلاة تفرّج الهموم

يروى أنه كان رجل يسير فى الليل فرأى الجنود الذين يراقبون الطرقات فقال الرجل فى نفسه قد يظلمنى الجند بسؤالى أين كنت ؟ وإلى أين أنت ذاهب ؟ لذلك سأجرى منهم واختفى فى أى مكان وجرى الرجل واختبأ فى مكان خرب ، وداهم الجند ذلك المكان ووجدوا فيه قتيلاً وكانت كل الملابسات تشير إلى أن الرجل هو القاتل . واقتاد الجند الرجل إلى الحاكم . فماذا كان من الرجل ؟ لقد طلب الرجل أن يتوضأ وأن يصلى ركعتين للّه وأمهله الحاكم فصلى الرجل ودعا اللّه قائلاً : « اللهم إنك تعلم أنه لا شاهد لى على براءتى إلا أنت وأنت أمرتنا ألا نكتُم الشهادة فأسألك ذلك فى نفسك » .

لقد كان الرجل يؤمن يقيناً بأن اللّه قد أمر المؤمنين بألّا يكتموا الشهادة لذلك سأل الرجل ربه الحق أن يظهر براءته ، وعلى الفور دخل على الحاكم فجأة رجل وقال أنا القاتل ، فتعجب الحاكم وسأل الرجل الذى جاء ليقر أنه قاتل : لماذا تعترف على نفسك ولم يرك أحد ؟

قال القاتل : واللّه ما قررت إنما جاء هاتف فأجرى لسانى بما قلت .

القاتل يعترف أن هاتفاً قد جاء إليه فحرك خواطره فسار إلى الحاكم ليعترف أنه القاتل ، وهنا قام ولىُّ المقتول وصاحب الحق فى الدية وكان هو ابن القتيل ليقول : « اللَّهُمَّ إنى أُشْهِدُك أننى أعفيت قاتل أبى من ديته » .

إن تلك الحكاية تحكى للدلالة على طلاقة قدرة الحق سبحانه .

مظلوم برىء يصلى ركعتين للخالق كما علمنا رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم فقد كان رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم إذا حزبه أمر صلى(١) ، إن الإنسان عندما يقف بين يدى ربه ويناجيه فالحقُّ سبحانه هو القادر وحده على أن يعطى الإنسان مسألته لأننا جميعًا فى قبضته يفعل بنا ما يشاء وقت ما يشاء ، لا راد لأمره ، ولا معقب لحكمه ، فعلينا أن نصدق فى التوجه إليه ونخلص النية فى الطلب ، ونكثر فى الوقوف بين يديه ، فالصلاة لها شأن عظيم فهى ركن الإسلام الوحيد الذى فرض بالأمر المباشر من اللَّه تعالى لرسوله صلى اللَّه عليه وسلم فى ليلة الإسراء والمعراج(٢) .

---

(١) رواه أبو داود [١٣١٩] عن حذيفة رضى اللَّه تعالى عنه ، وحسنه الألبانى فى صحيح أبى داود [١١٧١] ، وأحمد فى المسند [٣٨٨/٥] .

(٢) انظر كتاب : شرح حديث الإسراء والمعراج للشيخ الإمام ، فهو كتاب فريد فى بابه ، وهو من منشورات مكتبة التراث الإسلامي .

قال الإمام القصرى : الصلاة هى أكبر شعب الإسلام بعد الشهادة للَّه للرسول ، فأما كونها من شعب الإسلام فبيّن ذلك فى حديث جبريل وغيره من الأحاديث ؛ وقد روى جابر عن رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم أنه قال : « العهد الذى بيننا وبينهم الصلاة فمن تركها فقد كفر »(١) .

وصفتها وما تحتاج إليه من أمور كل ذلك مكتوب فى كتب الفقه وأقل ما يجزى العبد فى فعلها ما رواه أبو هريرة رضى اللَّه تعالى عنه وجماعة من الرواة : أن رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم دخل المسجد فدخل رجل فصلى =

---

(١) رواه الترمذى [٢٦٢١] ، وابن ماجه [١٠٧٩] ، والبيهقى فى السنن الكبرى [٣٦٦/٣] ، وأحمد فى المسند [٣٤٦/٥] ، والحاكم فى المستدرك [٧،٦/١] ، وصححه الألبانى .

= ثم جاء فَسَلم على رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم فَرَدَّ رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم عَليه السلام . قال : « ارجع فصل فإنك لم تصل » . فرجع الرجل فصلى كما كان صلى ، ثم جاء إلى النبى صلى اللَّه عليه وسلم فسلم عليه ، فقال رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم : « وعليك السلام » ثم قال : « ارجع فصل فإنك لم تصل » حتى فعل ذلك ثلاث مرات . فقال الرجل : والذى بعثك بالحق ما أُحسن غير هذا ، علمنى . قال : « إذا قمت إلى الصلاة فكبر ، ثم اقرأ ما تيسر معك من القرآن ، ثم اركع حتى تطمئن راكعًا ، ثم ارفع حتى تعتدل قائمًا ، ثم اسجد حتى تطمئن ساجدًا ، ثم ارفع حتى تطمئن جالسًا ، ثم افعل ذلك فى صلاتك كلها »[1] .

ومنها فرائض كالصلوات الخمس ، وصلاة الجنائز ، وفى الآثار : أن اتباع الجنائز من الإيمان . فهى شعبة من الإيمان - أعنى اتباع الجنائز - لأنها تذكر بالآخرة ، والوقوف بين يديه والجزاء والثواب والعقاب ، لكنّا اختصرنا ذكرها لأنها من جملة الصلوات فلم نفرد لها بابًا .

ومنها سنن كصلاة العيدين والاستسقاء والكسوف والوتر وركعتى الفجر .

ومنها فضائل كسائر النوافل .

وتأدية الصلاة وإقامة ركوعها وسجودها وتلاوتها ظاهراً إسلام .

فأما روح الصلاة وفهم معانيها فى مقام الإيمان ومقام الإحسان ، فإن أولها بعد التطهير والنظافة والدخول على الملك ، الانتهاض إلى موضع الصلاة وهى البقعة المقدسة من مسجد مبنى وغير مبنى ، فالمراد بالانتهاض والمشى انتهاض القلب والباطن وسيره ودخوله إلى عالم الملكوت وخروجه عن عالم الدنيا =

(١) أخرجه البخارى [٧٥٧] ، ومسلم [٤٥/٣٩٧] ، وأبى داود [٨٥٦] ، والترمذى [٣٠٣] ، والنسائى [١٢٤/٢] وابن ماجه [١٠٦٠] وأحمد فى المسند [٤٣٧/٢] .

= حتى يدخل إلى متعبد الملائكة الذى وجب الإيمان بهم فى العالم المقدس الذى ليس فيه ما يشغل عن الصلاة .

ثم القيام إلى الصلاة والمراد قيام القلب إلى أعلى عليين بين يدى اللَّه تعالى .

ثم إحضار النية ، والمراد بها التقرب إلى اللَّه بالصلاة وإخراج ما فى القلب سوى من أقبل عليه وذلك إشراف على من توجه إليه وغيبه من غيره فإذا أشرف على المطلوب برفع الحجب الشاغلة عن القلب وقع له تعظيم المتجلى له وخالطته حرمته واحترامه فحينئذ يحرم بتكبيرة الإحرام لأنه فى موضع الاحترام والحرمة فيحرم عليه النظر إلى غيره والاشتغال بسواه فيقول : « اللَّه أكبر » من أن يقبل على غيره أو يلتفت له من أجل ما عرف من جلالة القدر وعظيم الخطر أخذ فى الثناء على اللَّه بالفاتحة فيقول : ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾ الذى هو على ما هو عليه ﴿ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ أى سيد العالمين فتتجلى له صفة السيادة للَّه التى استعبد بها العالمين على كثرتهم ويثنى عليه بصفاته ويناجيه بكلامه فيفهم من كلامه ومحادثته مع اللَّه بفاتحة الكتاب والسورة ما يوجب له الخضوع بين يديه فيركع لزيادة التعظيم بشهادة أوصاف المتكلم معه ، فيقول : « اللَّه أكبر » منحطًا للركوع أى أكبر مما وقع فى نفسى من تعظيمه .

والمراد من ركوع الجسد خضوع النفس والروح فى مقام الإيمان والإحسان بين يدى كبرياء الجليل العظيم .

ولذلك أُمر أن يقول فى ركوعه : « سبحان ربى العظيم » لما شاهد من معنى التعظيم الذى خضع له فيرفعه اللَّه تعالى بكرمه إلى حالته الأولى التى هرب منها إلى الركوع لأن من تواضع للَّه ، أى : لأجل عظمة اللَّه : رفعه اللَّه إليه ، فإذا رفعه إليه شاهد العبد نعمة اللَّه عليه فى رفعه فيبتدئ بالحمد والثناء فيقول : « سمع اللَّه لمن حمده ربنا ولك الحمد حمدًا كثيرًا طيبًا مباركًا » فيجد فى =

= وقوفه طمأنينة حلاوة المزيد والنعمة التى رفعه الله بها وهى استدعاؤه إلى القيام فخر ساجدًا شاكرًا ؛ لما أولاه فيضع وجهه على الأرض ظاهرًا ونفسه وروحه تحت الثرى الذى ليس وراءه فى السفل منتهى إلا نفوس العارفين والأولياء لأنهم لما هو عليه من الأسماء الحسنى والصفات العُلى شهداء فيضع نفسه تحت كل تحت ولذلك ليس وراء السجود منتهى فى التواضع والتكبير مستصحب له ، ومعناه ، أى : الله أكبر مما شاهدت ووقع فى نفسى من تعظيمه وأعلى .

فإذا وضع فى السجود نفسه أسفل من كل سفل بالمعنى الذى هو الذل شاهد من سفله علاء ربه فقال : « سبحان ربى الأعلى » فاستدعاه ربه للرفوع والقرب من البعد والمنزل الذى أنزل نفسه فى سجوده .

ومعنى التسبيح فى الركوع والسجود : تنزيه المركوع له والمسجود له من حالة الركوع والسجود أى سبحان من هو بخلاف حالة الركوع والسجود .

فلما استدعاه للرفوع قعد بالعجز بين يديه لأنه لم يطق القيام لما شاهد فى السجود من الإجلال والإعظام فقعد بين يديه بالسكينة والعجز وأقر بالعجز له أن يقوم بشىء من حق قدر ربه ولذلك أمر أن يقول فى قعوده بين السجدتين : « رب اغفر وارحم وتجاوز عما تعلم وأنت الأعز الأكرم » .

فيجد رحمة الله قد غشيته والمغفرة قد غمرته لأنه تجلى له بوصف زائد على الوصف الأول من أجل أن الرحمة مقرونة بالضعف ومسرعة إلى الاستكانة فزاد سجودًا آخر بحكم وصف آخر فعاد بالتواضع الذى هو المراد من السجود حتى لو وجد أن يضع نفسه فى أسفل مما وضعها فيه لوضعها وقد وجد الله مع كل رفع وخفض فإن الواجب على كل عبد أن يضع نفسه من التواضع فى خلاف ما هو الله عليه من الجلال والعظمة ، وذلك لا يمكن أبدًا إلا مع التجلى وزيادة التعظيم ، فكلما زاد تجلى الصفات زاد التواضع بقدر ذلك أبدًا . =

= وكذلك لما زاد الإكرام زاد الشكر والثناء والتجلى دائمًا أبد الآبدين .
وكذلك التواضع دائم أبد الآبدين والشكر والثناء وجميع ما يليق بتجلى أوصاف البارى ، والحمد للّٰه على ما هو عليه .
ثم يدعوه ربه إلى الاقتراب منه وهو معنى القيام إلى الركعة الثانية فيجرى له ما جرى له فى الأول بحكم الزيادة لأن الصلاة إنما هى ركعة واحدة فيها تمت معانى الصلاة وغير ذلك من الركعات تكرير فلا يزال ذلك دأبه مع مولاه من فهم خطابه وشهود أوصافه فى قيامه وانحطاطه ورفوعه وأذكاره وسجوده وجلوسه إلى آخر صلاته حتى يمتلئ ظاهره وباطنه نورًا وبركة ورحمة وسرورًا وتواضعًا وحياءً وغير ذلك مما لا يحصى من أحوال المصلين العارفين الخاشعين ، فعند ذلك يقعد فى آخر صلاته فيأخذ فى التشهد والشهادة للّٰه بما هو له أهل والثناء كما يجب وتفرد التحية والملك له والتزكية والتنزيه والمدح لبارئه بقول : « التحيات للّٰه الزاكيات للّٰه الطيبات »[1] .
وتفرد العبودية له بقوله : « الصلوات للّٰه » ويسلم على أكرم الوسطاء الذى هداه اللّٰه به إلى ما هو فيه محمد عليه الصلاة والسلام ثم يقر بكل ما جاء به من عند اللّٰه ويصلى عليه .
فإذا فرغ من الإقرار والشهادة بكل ما جاء به محمد عليه الصلاة والسلام من الإيمان من الغيوب والدعاء والسؤال فعند ذلك تمت له النعم بتمام الصلاة وكمالها ووجب التحلل منها بتمامها فأمر بالخروج إلى عالم الحس والملك فعند ذلك قال : « السلام عليكم » لأنه كان فى الحضرة العلية خارجًا عن عالم =

---

(١) رواه الترمذى [٢٨٩] عن عبد اللّٰه بن مسعود رضى اللّٰه تعالى عنه ، وابن ماجه [٨٩٩] ، والنسائى [٢٣٧/٢] ، وأحمد فى المسند [٤١٣/١] وقال الأرناؤوط : حديث صحيح . وأبى داود [٩٧١] عن ابن عمر رضى اللّٰه تعالى عنه .

= الحس مودعًا له كما قال محمد عليه الصلاة والسلام « صل صلاة مودع »[1].
أى لأنه خارج عن هذا العالم إلى الحضرة العلية فإذا قدم على هذا العالم وشاهد من حوله من الأملاك والإنس قال : « السلام عليكم » فيسلم على من على يمينه وشماله وحل له ما حرم عليه قبل ذلك ، ولذلك قال عليه الصلاة والسلام : « تحريمها التكبير وتحليلها التسليم »[2] .
فمن صحت له مثل هذه الصلاة وجبت له الكرامة عليها ، ومن اعترضه الوسواس فليجاهد يكتب له أجر المجاهد إذا فاتته معية الإحسان ومن اقتطعته الغفلات أمثالنا وعُدم النصيب الأوفر ومشاهدة المذكور الأكبر كُتبَ له ما عقل وذلك فضل عظيم من الله لأن صلاته كانت فى موجب الأدب أسرع إلى العقوبة منها أن يكتب له ما عقل إذ لا يدرى بين يدى من هو حتى يعرض إلى غيره بقلبه وهو واقف راكع ساجد بجسده .
فعليه أن يكثر التنفل ليجبر ذلك النقص فإنه مطالب به كما ورد : أن النوافل جبر الفرائض .
لأنه لم يؤدها على الوجه الذى يجب والمعنى الذى أمر به ولم يكلف الله الخلق من العبادة إلا ما يطيقون لكن شغلهم بغير ذكر الله حرمهم واقتطعهم عما افترض عليهم .
ونسأل الله الكريم أن يتغمدنا برحمته ويتجاوز عن ذنوبنا وتقصيرنا لرحمته ، فلو لم تكن لنا ذنوب إلا التقصير فى أداء الفرائض لكان كافيًا . =

(١) ذكره الهيثمى فى مجمع الزوائد [٢٢٩/١٠] ، والزبيدى فى إتحاف السادة المتقين [١٦١/٣] ، والمنذرى فى الترغيب والترهيب [٢٤٧/٤] والألبانى فى سلسلة الأحاديث الصحيحة [١٩١٤] .
(٢) أورده الزيلعى فى نصب الراية [٣٠٧/١] ، وابن عبد البر فى التمهيد [١٨٢/٩] ، والقرطبى فى التفسير [٦٢/١٩] ، والهيثمى فى مجمع الزوائد [١٠٤/٢] .

= فهذا هو روح الصلاة من حيث المعنى .

وقد انتظم فيما تقدم من الكلام المقامات الثلاثة من الإسلام والإيمان والإحسان . فافهم .

وأما فهم الصلاة من جهة تركيبها وتفاصيل أعضائها وهيئاتها فإنها على صورة عبادة العالم الكلى وعلى هيئة صلاة العابدين فيه .

فالقيام إلى الصلاة ليكون مع الذين يعرجون إلى الله ، تعرج الملائكة والروح إليه والوقوف ليكون مع القائمين المشاهدين ، والذكر ليكون مع الذاكرين والهبوط ليكون مع المتنزلين ، والركوع ليكون مع الراكعين الخاضعين ، والرفوع ليكون مع الصاغرين ، والسجود ليكون مع الساجدين ، والفكر والجولان بالفهم والعقل ليكون مع السائحين السابحين الدائرين ، والحضور ليكون مع الحاضرين الروحانيين ووجود الراحة والنعيم بها ليكون مع الملائكة المقربين المشتاقين المحبين ، والخشوع ليكون مع الخائفين والمكروبين . والمجاهدة بالأذكار ليكون راجمًا للشياطين كالفلكيين وإلقاء السمع مع المراقبين ورمز المعانى فى دعاء الفهم ليكون مع الحافظين الكاتبين .

ومع هذا كله فلا يقوم بشىء من حق الله عز وجل لعظيم ما هو الله عليه من جلال القدر وعظيم الخطر ؛ لكن يجد الراحة فى شهود المنة إذ هو ربه على ما هو عليه من أوصافه ، ومع ذلك استدعاه إلى أن يكون من عباده المؤمنين فيستشعر فى نفسه ذلك ويقول : كيف ذكرنى هذا الملك العظيم فى نفسه حتى ينزل من جلال كبريائه إلى صفات جناته ورحمته حتى كلمنى بكلامه واستدعانى لأن أكون من جملة المصلين من عباده فينوى ويتمنى ويود فى نفسه أن لو كان تقرب إليه بعبادة الخلق أجمعين على غاية الصفاء لو قدر =

= على ذلك ، فبهذا تفهم قوله : « نية المؤمن خير من عمله »[1] .

ثم يشهد عجزه وتقصيره عن ذلك فيرجع إلى رؤية التقصير والاستغفار من قلة القيام ببعض الواجب ، ولذلك كان رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم يستغفر بعد كل صلاة مراتٍ ، وورد ذلك فى الصحيح فيتوب من الحسنات كما يتوب العاصى من السيئات لأن : حسنات الأبرار سيئات المقربين .

ولذلك تقول الملائكة يوم القيامة : سبحانك ما عبدناك حق عبادتك .

على صفاء عبادتها من شوب الكدورات ، وهذا المعنى الذى تقوله الملائكة هو الذى قاله النبى عليه الصلاة والسلام فى قوله : « لا يدخل أحد منكم الجنة بعمله » .

قالوا : ولا أنت يا رسول اللّه ؟

قال : « ولا أنا إلا أن يتغمدنى اللّه برحمة منه وفضل »[2] .

مع اجتهاده وصفات أحواله . وليس معناه أن العمل ليس ينفع فيكون قوله محرضًا على ترك العمل بل قوله هذا مرغب فى الاجتهاد لجميع ما يقرب إلى اللّه تعالى فنبه عليه الصلاة والسلام على عظيم حق اللّه تعالى الموجب لرؤية التقصير .

فالعبادات كلها لها وجهان تنظر منهما مرة بنظر من مقام العبودية ومشاهدة الربوبية وهو من هذا الوجه الذى ذكرناه فتعرف مقدار المعبود وما تقع =

(١) رواه الطبرانى فى الكبير [٦/١٨٥/٥٩٤٢] ، وهو فى مسند الشهاب [١/١١٩/ ١٤٨] وقال الهيثمى فى مجمع الزوائد [١/٦١] ورجاله موثقون إلا حاتم ابن عباد ابن دينار الجرشى ، لم أر من ذكر له ترجمة وقال [١/١٠٩] : وفيه حاتم بن عباد ابن دينار لم أعرفه وبقية رجاله ثقات وقال المناوى أطلق الحافظ العراقى أنه ضعيف من طريقه .

(٢) أخرجه مسلم [٢٨١٦/٧٣] ، وأحمد فى المسند [٢/٥٠٩] واللفظ له .

= عبادتك فى حقه وجلالة قدره فتكون عبادة الخلق أجمعين فى ذلك أقل من غرز إبرة فى بحر لجى فيولد هذا النظر الإجهاد والانكسار والخضوع والذلة والفقر إلى اللَّه وجميع صفات العبودية الحسنى التى ساعة واحدة منها خير من عبادة ستين سنة . ومرة ينظر من مقام المنة ، وكيف ذكر الملك الأكبر الذى استعبد العرش بما حوى فى نفسه لهذا العبد الذى لا يدرى من هو فى كثرة عباد اللَّه ومماليكه ، وكيف ارتضاه للإيمان به واستدعاه لعبادته ومناجاته وللقرب منه حتى يجعله من جلسائه كما قال : أنا جليس من ذكرنى .

فيتولد من هذا النظر أيضًا أحوال كريمة لا يعلم حقيقتها إلا العارفون مثل الحياء الكائن عن الحضور والشكر الحادث عن رؤية المنة ، والمحبة المتولدة عن إحسان اللَّه .

إلى غير ذلك مما يشرحه اللَّه فى قلوب المختصين بهذا المقام وهو معنى قول اللَّه تعالى : ﴿ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ﴾ [العنكبوت : ٤٥] أى ذكر اللَّه للعبد فى نفسه أكبر من كل ما يتقرب به إليه ، فعلى هذين الوجهين من النظر درج العارفون فى علومهم وأعمالهم وبهما تزكو الأعمال عند اللَّه نسأل اللَّه الكريم أن يَمُنَّ علينا بما مَنَّ عليهم فى الدنيا والآخرة إنه ولى ذلك والقادر عليه .

واعلم أن الوجود كله بأجزائه مُصلٍ للَّه بدوام وجود الوجود لا ينفك عن الصلاة فإنه فى مقام العبودية للَّه . فمن أدام النظر رأى الوجود كله ظاهرًا وباطنًا مصليًا .

ومن ترك الصلاة فقد خالف الخليقة كلها ، ولذلك يحشر مع فرعون وهامان كما ورد فى بعض الأخبار : أن تارك الصلاة يحشر مع فرعون وهامان لأنه تأبى عن العبودية والتواضع للَّه كما فعل فرعون . فافهم .

فإن الذى لا يخضع لأحد هو اللَّه وحده ، فمن صلى بجسده وفعل أركان الصلوات كما أمر ظاهرًا وأنزل نفسه مع كل ركن منها ومعنى من معانيها =

....

○○○

= الباطنة وفهم روحه وعقله تلك المعانى وشهد المراد بكل ركن منها ومعنى من معانيها ؛ فقد صلى بجسد وفعل أركان الصلوات كما أمر بظاهره وباطنه وجملته فى عالم الحس ومقام الإسلام وفى عالم الغيب ومقام الإيمان وفى غيب الغيب ومقام الإحسان ووجد طعم المعانى الثلاث .

مَنَّ اللّه علينا وعليكم بالكمال فى كل شىء . آمين بِمَنِّه ورحمته وصلى اللّه على محمد وآله وسلم .

شعب الإيمان [ص : ١١٩:١٢٦] .

الصلاة الوسطى

قال اللَّه سبحانه وتعالى : ﴿ حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ﴾ [البقرة : ٢٣٨] .

معنى قوله تعالى : ﴿ حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ ﴾ أى : الصلوات الخمس المفروضة ؛ فما المقصود بقوله تعالى : ﴿ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ ﴾ ؟ (١) .

---

(١) أخرج البخارى [٢٩٣١] ، ومسلم [٦٢٧/٢٠٢] عن على رضى اللَّه تعالى عنه ؛ قال : لما كان يوم الأحزاب قال رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم : « ملأ اللَّه قبورهم وبيوتهم نارًا كما حبسونا وشغلونا عن الصلاة الوسطى حتى غابت الشمس » .

وفى رواية أخرى [٦٢٧/٢٠٥] عنه أيضًا قال : قال رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم يوم الأحزاب « شغلونا عن الصلاة الوسطى صلاة العصر ، ملأ اللَّه بيوتهم وقبورهم نارًا » ثم صلاها بين العشاءين ، بين المغرب والعشاء .

قوله : ﴿ حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ ﴾ هى تأنيث الأوسط ، والأوسط الأعدل من كل شىء ، وليس المراد به التوسط بين الشيئين ؛ لأن فُعْلَى : معناها التفضيل ، ولا ينبنى للتفضيل إلا ما يقبل الزيادة والنقص ، والوسط بمعنى الخيار ، والعدل يقبلهما ، بخلاف المتوسط فلا يقبلهما فلا ينى منه أفعل تفضيل .

قال الحافظ : قوله : « حبسونا عن صلاة الوسطى » أى : منعونا عن صلاة الوسطى ، أى : عن إيقاعها .

زاد مسلم من طريق شتير بن شكل عن على : « شغلونا عن الصلاة الوسطى صلاة العصر » وزاد فى آخره : « ثم صلاها بين المغرب والعشاء » .

ولمسلم عن ابن مسعود نحو حديث علىّ ، وللترمذى والنسائى من طريق زر ابن حبيش عن على مثله .

=

= ولمسلم أيضًا من طريق أبى حسان الأعرج عن عبيدة السلمانى عن على فذكر الحديث بلفظ : « كما حبسونا عن الصلاة الوسطى حتى غربت الشمس » يعنى : العصر .

وروى أحمد والترمذى من حديث سمرة رفعه قال : « صلاة الوسطى صلاة العصر » .

وروى ابن جرير من حديث أبى هريرة رفعه « الصلاة الوسطى صلاة العصر » .

ومن طريق كهيل بن حرملة : « سُئل أبو هريرة عن الصلاة الوسطى فقال : اختلفنا فيها ونحن بفناء بيت رسول اللّٰه صلى اللّٰه عليه وسلم وفينا أبو هاشم ابن عتبة فقال : أنا أعلم لكم ، فقام فاستأذن على رسول اللّٰه صلى اللّٰه عليه وسلم ثم خرج إلينا فقال : أخبرنا أنها صلاة العصر » .

ومن طريق عبد العزيز بن مروان أنه أرسل إلى رجل فقال : أى شىء سمعت من رسول اللّٰه صلى اللّٰه عليه وسلم فى الصلاة الوسطى ؟ فقال : أرسلنى أبو بكر وعمر أسأله وأنا غلام صغير فقال : هى العصر .

ومن حديث أبى مالك الأشعرى رفعه « الصلاة الوسطى صلاة العصر » .

وروى الترمذى وابن حبان من حديث ابن مسعود مثله .

وروى ابن جرير من طريق هشام بن عروة عن أبيه قال : « كان فى مصحف عائشة : حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وهى صلاة العصر » .

وروى ابن المنذر من طريق مقسم عن ابن عباس قال : « شغل الأحزاب النبى صلى اللّٰه عليه وسلم يوم الخندق عن صلاة العصر حتى غربت الشمس فقال : شغلونا عن الصلاة الوسطى » .

وأخرج أحمد من حديث أم سلمة وأبى أيوب وأبى سعيد وزيد بن ثابت وأبى هريرة وابن عباس من قولهم : إنها صلاة العصر . =

= وقد اختلف السلف فى المراد بالصلاة الوسطى ، وجمع الدمياطى فى ذلك جزءًا مشهورًا سماه « كشف الغطا عن الصلاة الوسطى » فبلغ تسعة عشر قولًا : أحدها الصبح ، أو الظهر أو العصر أو المغرب أو جميع الصلوات .
فالأول : قول أبى أُمامة وأنس وجابر وأبى العالية وعبيد بن عمير وعطاء وعكرمة ومجاهد وغيرهم نقله ابن أبى حاتم عنهم وهو أحد قولى ابن عمر وابن عباس ، ونقله مالك والترمذى عنهما ، ونقله مالك بلاغًا عن على والمعروف عنه خلافه .
وروى ابن جرير من طريق عوف الأعرابى من ابن أبى رجاء العطاردى قال : « صليت خلف ابن عباس الصبح فقنت فيها ورفع يديه ثم قال : هذه الصلاة الوسطى التى أُمرنا أن نقوم فيها قانتين » .
وأخرجه أيضًا من وجه آخر عنه وعن ابن عمرو من طريق أبى العالية : « صليت خلف عبد اللَّه بن قيس بالبصرة فى زمن عمر صلاة الغداة فقلتِ لهم : ما الصلاة الوسطى ؟ قالوا : هى هذه الصلاة » وهو قول مالك والشافعى فيما نص عليه فى « الأم » واحتجوا له بأن فيها القنوت ، وقد قال اللَّه تعالى : ﴿ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَـٰنِتِينَ ﴾ [البقرة : ٢٣٨] وبأنها لا تقصر فى السفر ، وبأنها بين صلاتى جهر وصلاتى سر .
والثانى : قول زيد بن ثابت أخرجه أبو داود من حديثه قال : « كان النبى صلى اللَّه عليه وسلم يصلى الظهر بالهاجرة ، ولم تكن صلاة أشد على أصحاب رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم منها ، فنزلت : ﴿ حَـٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ ﴾ الآية .
وجاء عن أبى سعيد وعائشة القول بأنها الظهر . أخرجه ابن المنذر وغيره ، وروى مالك فى « الموطأ » عن زيد بن ثابت الجزم بأنها الظهر وبه قال أبو حنيفة فى رواية . =

= وروى الطيالسى من طريق زهرة بن معبد قال : « كنا عند زيد بن ثابت فأرسلوا إلى أُسامة فسألوه عن الصلاة الوسطى فقال : هى الظهر » .
ورواه أحمد من وجه آخر وزاد : « كان النبى صلى اللَّه عليه وسلم يصلى الظهر بالهجير فلا يكون وراءه إلا الصف أو الصفان والناس فى قائلتهم وفى تجارتهم ، فنزلت » .
والثالث : قول علىّ بن أبى طالب فقد روى الترمذى والنسائى من طريق زر ابن حبيش قال : « قلنا لعبيدة سل عليًا عن الصلاة الوسطى ، فسأله فقال : كنا نرى أنها الصبح ، حتى سمعت رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم يقول يوم الأحزاب : شغلونا عن الصلاة الوسطى صلاة العصر » انتهى . وهذه الرواية تدفع دعوى من زعم أن قوله صلاة العصر مدرج من تفسير بعض الرواة وهى نص فى أن كونها العصر من كلام النبى صلى اللَّه عليه وسلم ، وأن شبهة من قال إنها الصبح قوية ، لكن كونها العصر هو المعتمد ، وبه قال ابن مسعود وأبو هريرة ، وهو الصحيح من مذهب أبى حنيفة وقول أحمد والذى صار إليه معظم الشافعية لصحة الحديث فيه ، قال الترمذى : هو قول أكثر علماء الصحابة . وقال الماوردى : هو قول جمهور التابعين . وقال ابن عبد البر : هو قول أكثر أهل الأثر ، وبه قال من المالكية ابن حبيب وابن العربى وابن عطية ، ويؤيده أيضًا ما روى مسلم عن البراء بن عازب « نزل حافظوا على الصلوات وصلاة العصر » فقرأناها ما شاء اللَّه ، ثم نُسخت فنزلت ﴿ حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ ﴾ ، فقال رجل : فهى إذن صلاة العصر ، فقال : أخبرتك كيف نزلت » .
والرابع : نقله ابن أبى حاتم بإسناد حسن عن ابن عباس قال : صلاة الوسطى هى المغرب ، وبه قال قبيصة بن ذؤيب أخرجه ابن جرير ، وحجتهم أنها =

= معتدلة فى عدد الركعات وأنها لا تقصر فى الأسفار وأن العمل مضى على المبادرة إليها والتعجيل لها فى أول ما تغرب الشمس وأن قبلها صلاتا سر وبعدها صلاتا جهر .

والخامس : وهو آخر ما صححه ابن أبى حاتم أخرجه أيضًا بإسناد حسن عن نافع قال : « سُئل ابن عمر فقال : هى كلهن ، فحافظوا عليهن » وبه قال معاذ ابن جبل ، واحتج له بأن قوله : ﴿ حَـٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ ﴾ يتناول الفرائض والنوافل ، فعطف عليها الوسطى وأريد بها كل الفرائض تأكيدًا لها ، واختار هذا القول ابن عبد البر .

وأما بقية الأقوال فالسادس : أنها الجمعة ، ذكره ابن حبيب من المالكية واحتج بما اختصت به من الاجتماع والخطبة ، وصححه القاضى حسين فى صلاة الخوف من تعليقه ، ورجحه أبو شامة .

السابع : الظهر فى الأيام والجمعة يوم الجمعة .

الثامن : العشاء نقله ابن التين والقرطبى واحتج له بأنها بين صلاتين لا تقصران ولأنها تقع عند النوم فلذلك أمر بالمحافظة عليها واختاره الواحدى .

التاسع : الصبح والعشاء للحديث الصحيح فى أنهما أثقل الصلاة على المنافقين ، وبه قال الأبهرى من المالكية .

العاشر : الصبح والعصر لقوة الأدلة فى أن كلًّا منهما قيل إنه الوسطى ، فظاهر القرآن الصبح ونص السنة العصر .

الحادى عشر : صلاة الجماعة .

الثانى عشر : الوتر وصنف فيه علم الدين السخاوى جزءًا ورجحه القاضى تقى الدين الأخنائى واحتج له فى جزء رأيته بخطه .

الثالث عشر : صلاة الخوف . =

= **الرابع عشر** : صلاة عيد الأضحى .
الخامس عشر : صلاة عيد الفطر .
السادس عشر : صلاة الضحى .
السابع عشر : واحدة من الخمس غير معينة قاله الربيع بن خثيم وسعيد بن جبير وشريح القاضى وهو اختيار إمام الحرمين من الشافعية ذكره فى النهاية قال : كما أخفيت ليلة القدر .
الثامن عشر : أنها الصبح أو العصر على الترديد وهو غير القول المتقدم الجازم بأن كلًا منهما يقال له الصلاة الوسطى .
التاسع عشر : التوقف فقد روى ابن جرير بإسناد صحيح عن سعيد بن المسيب قال : كان أصحاب رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم مختلفين فى الصلاة الوسطى هكذا وشبك بين أصابعه .
العشرون : صلاة الليل وجدته عندى وذهلت الآن عن معرفة قائله .
وأقوى شبهة لمن زعم أنها غير العصر مع صحة الحديث حديث البراء الذى ذكرته عند مسلم فإنه يشعر بأنها أُبهمت بعدما عينت كذا قاله القرطبى ، قال : وصار إلى أنها أُبهمت جماعة من العلماء المتأخرين ، قال : وهو الصحيح لتعارض الأدلة وعسر الترجيح . وفى دعوى أنها أُبهمت ثم عينت من حديث البراء نظر ، بل فيه أنها عينت ثم وصفت ، ولهذا قال الرجل : فهى إذن العصر ولم ينكر عليه البراء ، نعم جواب البراء يشعر بالتوقف لما نظر فيه من الاحتمال ، وهذا لا يدفع التصريح بها فى حديث علىّ .
ومن حجتهم أيضًا ما روى مسلم وأحمد من طريق أبى يونس عن عائشة أنها أمرته أن يكتب لها مصحفًا ، فلما بلغت ﴿ حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلۡوُسۡطَىٰ ﴾ قال : فأملت على « وصلاة العصر » قالت : سمعتها من رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم . =

....

= وروى مالك عن عمرو بن رافع قال : كنت أكتب مصحفًا لحفصة فقالت : إذا بلغت هذه الآية فآذنى ، فأملت على : « حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وصلاة العصر » ، وأخرجه ابن جرير من وجه آخر حسن عن عمرو ابن رافع ، وروى ابن المنذر من طريق عبيد اللَّه بن رافع « أمرتنى أم سلمة أن أكتب لها مصحفًا » فذكر مثل حديث عمرو بن رافع سواء .

ومن طريق سالم بن عبد اللَّه بن عمر أن حفصة أمرت إنسانًا أن يكتب لها مصحفًا نحوه .

ومن طريق نافع أن حفصة أمرت مولى لها أن يكتب لها فذكر مثله وزاد : « كما سمعت رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم يقولها » قال نافع : فقرأت ذلك المصحف فوجدت فيه الواو فتمسك قوم بأن العطف يقتضى المغايرة فتكون صلاة العصر غير الوسطى .

وأجيب بأن حديث علىّ ومن وافقه أصح إسنادًا وأصرح ؛ وبأن حديث عائشة قد عورض برواية عروة أنه كان فى مصحفها « وهى العصر » فيحتمل أن تكون الواو زائدة ، ويؤيده ما رواه أبو عبيد بإسناد صحيح عن أُبى بن كعب أنه كان يقرأها : « حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى صلاة العصر » بغير واو ، أو هى عاطفة لكن عطف صفة لا عطف ذات ، وبأن قوله والصلاة الوسطى والعصر لم يقرأ بها أحد ، ولعل أصل ذلك ما فى حديث البراء أنها نزلت أولًا والعصر ، ثم نزلت ثانيًا بدلها والصلاة الوسطى ، فجمع الراوى بينهما ، ومع وجود الاحتمال لا ينهض الاستدلال ، فكيف يكون مقدمًا على النص الصريح بأنها صلاة العصر .

قال شيخ شيوخنا الحافظ صلاح الدين العلائى : حاصل أدلة من قال إنها غير العصر يرجع إلى ثلاثة أنواع : =

ساعة يأتى خاص وعام مثل قوله تعالى : ﴿ رَّبِّ ٱغْفِرْ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًا ﴾ [نوح : ٢٨] . فكم مرة دخل الأب والأم هنا ، مرة عند قول الحق سبحانه : ﴿ ٱغْفِرْ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ ﴾ .

والثانية : فى قوله تعالى : ﴿ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا ﴾ .

والثالثة : فى قوله تعالى : ﴿ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ﴾ .

إذن .. إيجاد عام بعد خاص ، يعنى أن يدخل الخاص فى العام فيتكرر الأمر بالنسبة للخاص تكرارًا يناسب خصوصيته .

وقول الحق : ﴿ حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ ﴾ تعطى ذلك المعنى فإذا سألنا : ما معنى ﴿ حَٰفِظُواْ ﴾ ؟ فالحفظ يقابله النسيان أو التضييع ،

= **أحدها** : تنصيص بعض الصحابة وهو معارض بمثله ممن قال منهم إنها العصر ، ويترجح قول العصر بالنص الصريح المرفوع ، وإذا اختلف الصحابة لم يكن قول بعضهم حجة على غيره فتبقى حجة المرفوع قائمة .

ثانيها : معارضة المرفوع بورود التأكيد على فعل غيرها كالحث على المواظبة على الصبح والعشاء وقد تقدم فى كتاب الصلاة ، وهو معارض بما هو أقوى منه وهو الوعيد الشديد الوارد فى ترك صلاة العصر ، وقد تقدم أيضًا .

ثالثها : ما جاء عن عائشة وحفصة من قراءة : « حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وصلاة العصر » فإن العطف يقتضى المغايرة ، وهذا يرد عليه إثبات القرآن بخبر الآحاد وهو ممتنع ، وكونه ينزل منزلة خبر الواحد مختلف فيه . سلمنا لكن لا يصلح معارضًا للنصوص صريحًا ، وأيضًا فليس العطف صريحًا فى اقتضاء المغايرة لوروده فى نسق الصفات كقوله تعالى : ﴿ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ﴾ [الحديد : ٣] . فتح البارى [٩/٥٤-٥٧] .

والاثنان يلتقيان فالذى حفظ شيئًا ثم نسيه فقد ضيعه ، وكلها معان تلتقى فى فقد الشيء ، والحفظ معناه أن تضمن بقاء شيء كان عندك كحفظ القرآن ، أو رزقت بمال فلابد أن تحافظ عليه .

إذن .. قوله تعالى : ﴿ حَـٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ ﴾ معناه لا تضيعوها خاصة لمن ذاق حلاوة التكليف وتقرب إلى اللَّه سبحانه بما افترضه عليه ، وزاد من جنس ما افترضه عليه تطوعًا . وذلك أدعى للتمسك بها والمحافظة عليها هذا بالنسبة للصلوات الخمس .

أما قول الحق : ﴿ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ ﴾ فهو ذكرٌ للخاص بعد العام ، فكأن اللَّه سبحانه أراد المحافظة على الخاص مرتين مرة داخل دائرة العموم ﴿ وَٱلصَّلَوٰةِ ﴾ ومرة أفردها اللَّه سبحانه بالخصوص ، هى قوله : ﴿ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ ﴾ ؛ وما العلة ؟

إن « وسطى » هى تأنيث « أوسط » وهى أمر بين شيئين على الاعتدال أى أن الطرفين متساويان ولا يتم ذلك إلا إذا كانت عدد الصلوات وتر لأن عدد الصلوات لو كانت زوجية لما عرفنا الوسطى فيها ووسط الخمس أى التى يسبقها صلاتان ويعقبها صلاتان ، أى يسبقها الأولى والثانية ، ويعقبها الرابعة والخامسة .

فإذا كان الاعتبار بفرضية الصلاة فإن أول صلاة مفروضة هى صلاة الظهر وبعدها العصر فالمغرب فالعشاء فالفجر ، وعليه تكون ﴿ ٱلْوُسْطَىٰ ﴾ بتشريع الصلاة هى المغرب وهو رأى يقول به الكثير من العلماء .

وإن أخذت الوسطى بحسب عدد الركعات فهناك صلاة قوامها ركعتان كالفجر ، وصلاة قوامها أربع ركعات كالظهر والعصر والعشاء ، وصلاة من

ثلاث ركعات كالمغرب ، والوسط هنا يكون الصلاة الثلاثية وهى المغرب .

وإن أخذتها بالنسبة للنهار فالصبح أول النهار ، والظهر بعده ثم المغرب والعشاء ؛ فالوسطى هنا هى العصر .

وإن أخذتها على أنها الوسط بين الجهرية والسرية ، فيحتمل أن تكون هى الصبح أو المغرب ؛ لأن الصلوات السرية هى الظهر والعصر والجهرية هى المغرب والعشاء والفجر ، وبين العشاء والظهر تأتى صلاة الصبح ، وبين العصر والعشاء تأتى صلاة المغرب .

وإن أخذتها لاجتماع ملائكة طرفى النهار فتكون صلاة العصر وصلاة الصبح ، إذن : فالوسط يأتى من الاعتبار الذى يُحسب به إذا كان عدداً أو تشريعاً أو عدد ركعات أو سرية أو جهرية أو حسب نزول الملائكة . وكل اعتبار من هؤلاء له حكم .

ولماذا أخفى اللّه سبحانه ذكرها عنا ؟ نقول : أخفاها سبحانه ليعلمها غاية العلم ؛ ولنعلم أن هناك فرقا بين الشىء لذاته ، والشىء الذى يبهم فى سواه ؛ ليكون كل شىء هو الشىء فيؤدى ذلك إلى المحافظة على جميع الصلوات .

فإبهام الشىء إنما جاء لإشاعة بيانه ؛ ولذلك أبهم اللّه ليلة القدر لنهتم بكل الليالى وبدل أن تكون ليلة قدر يصبح ليالى قدر ، وكذلك أبهم الموت كى يعلمنا به غاية العلم .

ويريد الحق أن نقوم لكل صلاة ونحن قانتون ، والقنوت فى اللغة معناه المداومة على الشىء حتى أثناء الحروب كما أن الصلاة واجبة على الدوام حتى لو كان الإنسان سائرًا على قدميه أو راكبًا .

○ ○ ○

صلاة الجمعة

قال اللّٰه تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلْبَيْعَ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [الجمعة : ٩] .

إن اللّٰه تبارك وتعالى شرع للمسلمين أداء الصلوات جماعة فى المسجد ، والسنة المشرفة وضحت ذلك وبينته ، ولكن فى صلاة الجمعة أنزل اللّٰه تعالى آية صريحة أمر فيها سبحانه عباده المؤمنين أن يتخلوا عن كل عمل ساعة يسمعوا نداء الجمعة ويذهبوا من فورهم للمسجد .

لأن اللّٰه لا يريد استدامة الولاء الفردى فقط وإنما يريد استدامة الولاء الجماعى ، لأن الولاء الجماعى ؛ هو إعلان من كل إنسان بالعبودية للّٰه أمام بقية مخلوقات اللّٰه .

وحينئذ ينقطع من البشرية مظهر استعلاء إنسان على إنسان .. لأن الضعيف منا فى الجاه أو المال أو النفوذ أو أى مظهر من مظاهر الحياة الخارجية فى هذه الصلاة يرى من هو أقوى منه مساو له فى سجوده لربه ، وهنا يتلاشى مظهر التعالى بين البشر ، لذا يُلزمنا اللّٰه تبارك وتعالى بهذا الاجتماع الأسبوعى مرة فى يوم الجمعة تذكيرا بعظمة الخالق الحق وتعظيمًا لحقه علينا .

لأن الإنسان عُرضة أن يغفل إذا مر عليه أسبوع وهذه الغفلة قد تقوده إلى العلو أو الاستكبار .

لذا فصلاة الجمعة اجتماع عظيم يذكر الجميع بالعبودية للّٰه تعالى ، فيشعر الإنسان بالمساواة مع كل البشر .

وقول الحق سبحانه : ﴿ وَذَرُواْ ٱلْبَيْعَ ﴾ أى : اتركوا البيع ؛ ولماذا لم يأت الحق بالشراء ؟ ذلك لأن البيع دائمًا يكون أهم أركان الصفقة التى تحقق الربح

أما فى الشراء فإن الإنسان يعيش بالشراء موقفًا غير محبب إلى نفسه لأن فيه غرمًا ، بل إن المشترى قد يبحث عن سبب لكى لا يشترى وكذلك لم يَقُل الحق لنا اتركوا الزراعة أو الصناعة لأن حصيلة هذه الأشياء لا تظهر إلا بعد وقت طويل أما الصفقات التجارية فتظهر نتيجتها فورًا لذا كان ذكر المنع من البيع يقتضى منع غيره من باب أولى .

وهكذا نرى أن ترك البيع والسعى لذكر الله من أجل هدف واضح هو تجديد الولاء الجماعى لله سبحانه وتعالى ، يجعل كل فرد فى المجتمع يشعر بالعدل فيحقق المجتمع الاستطراق ، أى : مساواة أقدار الناس واحترام كل إنسان لنفسه ولمن حوله ، ويلغى التعالى أو التكبر ، أو استذلال القوى للضعيف أو خضوع الضعيف أمام القوى ، كلنا متساوون أمام القوى المتعال سبحانه (١) .

---

(١) قال الإمام القرطبى فى تفسير قول الله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلْبَيْعَ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ . فيه ثلاث عشرة مسألة :

الأولى : قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ ﴾ قرأ عبد الله بن الزبير والأعمش وغيرهما « الجُمْعة » بإسكان الميم على التخفيف ، وهما لغتان . وجمعهما جُمَع وجُمُعات ، قال الفراء : يقال : الجُمْعة - بسكون الميم - والجُمُعِة - بضم الميم - والجُمَعة - بفتح الميم - فيكون صفة اليوم ؛ أى تجمع الناس ، كما يقال : ضُحَكة للذى يضحك ، وقال ابن عباس : نزل القرآن بالتثقيل والتفخيم فاقرأوها جُمُعة ؛ يعنى بضم الميم . وقال الفراء وأبو عبيد : والتخفيف أقْيَس وأحسن ؛ نحو غُرْفة وغُرَف ، وطُرفَة وطُرف ، وحُجرة وحُجَر . وفَتحُ الميم لغة بنى عقيل . وقيل : إنها لغة رسول الله صلى الله عليه وسلم . =

= وعن سَلمان أن النبى صلى اللّٰه عليه وسلم قال : « إنما سُميت جمعة لأن اللّٰه جمع فيها خلق آدم » ، وقيل : لأن اللّٰه تعالى فرغ فيها من خلق كل شىء فاجتمعت فيها المخلوقات .

وقيل : لتجتمع الجماعات فيها .

وقيل : لاجتماع الناس فيها للصلاة . و ﴿مِن﴾ بمعنى « فى » ؛ أى فى يوم ؛ كقوله تعالى : ﴿ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ ﴾ [فاطر : ٤٠ ، الأحقاف : ٤] أى فى الأرض .

الثانية : قال أبو سلمة : أول من قال : « أما بعد » كعب بن لؤىّ ، وكان أول من سَمَّى الجمعة جمعة . وكان يقال ليوم الجمعة : العَرُوبة . وقيل : أول من سماها جمعة الأنصارُ . قال ابن سيرين : جَمّع أهل المدينة مِن قبل أن يَقدُم النبى صلى اللّٰه عليه وسلم المدينة ، وقبل أن تنزل الجمعة ؛ وهم الذين سموها الجمعة ؛ وذلك أنهم قالوا : إن لليهود يومًا يجتمعون فيه ، فى كل سبعة أيام يوم وهو السبت . وللنصارى يوم مثل ذلك وهو الأحد ، فتعالوا فلنجتمع حتى نجعل يومًا لنا نذكر اللّٰه ونصلّى فيه ونستذكر - أو كما قالوا - فقالوا : يوم السبت لليهود ، ويوم الأحد للنصارى ؛ فاجعلوه يوم العَرُوبة . فاجتمعوا إلى أسعد بن زُرَارة أبو أمامة رضى اللّٰه تعالى عنه ، فصلى لهم يومئذ ركعتين وذكرهم ، فسمّوْهُ يوم الجمعة حين اجتمعوا . فذبح لهم أسعد شاة ؛ فتعشوا وتغدوا منها لقلتهم . فهذه أول جمعة فى الإسلام .

قلت : وروى أنهم كانوا اثنى عشر رجلًا على ما يأتى . وجاء فى هذه الرواية : أن الذى جمع بهم وصلى أسعد بن زُرارة ، وكذا فى حديث عبد الرحمن بن كعب بن مالك عن أبيه كعب على ما يأتى .

وقال البيهقى : وروينا عن موسى بن عقبة عن ابن شهاب الزُّهرى أن مُصعب ابن عمير كان أول من جَمع الجمعة بالمدينة للمسلمين قبل أن يقدُمها رسول اللّٰه صلى اللّٰه عليه وسلم . =

= قال البيهقى : يحتمل أن يكون مصعب جمع بهم بمعونة أسعد بن زرارة فأضافه كعب إليه . والله أعلم .

وأما أول جمعة جمعها صلى الله عليه وسلم بأصحابه ؛ فقال أهل السير والتواريخ : قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم مهاجرًا حتى نزل بقُبَاء ، على بنى عمرو بن عوف يوم الإثنين لاثنتى عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول حين اشتد الضحى . ومن تلك السنة يُعَدّ التاريخ ، فأقام بقباء إلى يوم الخميس وأسَّس مسجدهم ، ثم يوم الجمعة إلى المدينة ؛ فأدركته الجمعة فى بنى سلم ابن عَوف فى بطن وادٍ لهم قد اتخذ القوم فى ذلك الموضع مسجدًا ؛ فجمع بهم وخطب . وهى أول خطبة خطبها بالمدينة ، وقال فيها : « الحمد لله ، أحمده وأستعينه ، وأستغفره وأستهديه ، وأومن به ولا أكفُره ، وأعادى من يكفر به ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له . وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله ، أرسله بالهُدَى ودين الحق ، والنور والموعظة والحكمة على فَترة من الرُّسل ، وقلة من العلم ، وضلالة من الناس ، وانقطاع من الزمان ، ودُنُوٍّ من الساعة ، وقُرب من الأجل ، من يُطع الله ورسوله فقد رَشَد . ومن يعص الله ورسوله فقد غَوَى وفرّط وضل ضلالًا بعيدًا . أوصيكم بتقوى الله ، فإنه خير ما أوْصَى به المسلمُ المسلمَ أن يحضه على الآخرة ، وأن يأمره بتقوى الله . واحذروا ما حذركم الله من نفسه ؛ فإن تقوى الله لمن عمل به على وجل ومخافةٍ من ربه عَون صدق على ما تبغون من أمر الآخرة . ومن يُصلح الذى بينه وبين ربه من أمره فى السر والعلانية ، لا ينوى به إلا وجه الله يكن له ذكرًا فى عاجل أمره ، وذُخْرًا فيما بعد الموت ، حين يفتقر المرء إلى ما قدم . وما كان مما سوى ذلك يَود لو أن بينه وبينه أمدًا بعيدًا . ﴿ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴾ [آل عمران : ٣٠] . هو الذى صدق قوله ، وأنجز =

= وعده ، لا خُلْف لذلك ؛ فإنه يقول تعالى : ﴿ مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ [سورة ق : ٢٩] . فاتقوا اللَّه فى عاجل أمركم وآجله فى السر والعلانية ؛ فإنه ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعْظِمْ لَهُۥٓ أَجْرًا ﴾ [الطلاق : ٥] . ومن يتق اللَّه فقد فاز فوزًا عظيمًا . وإن تقوى اللَّه توقى مقته ، وتوقى عقوبته وتوقى سخطه . وإن تقوى اللَّه تبيض الوجوه ، وترضى الرب ، وترفع الدرجة . فخذوا بحظكم ولا تفرطوا فى جنب اللَّه ، فقد علمكم كتابه ، ونهج لكم سبيله ؛ ليعلم الذين صدقوا ويعلم الكاذبين . فأحسنوا كما أحسن اللَّه إليكم ، وعادوا أعداءه ، وجاهدوا فى اللَّه حق جهاده ؛ هو اجتباكم وسمَّاكم المسلمين . ليهلك من هلك عن بينة ، ويحيا من حىّ عن بينة . ولا حول ولا قوة إلا باللَّه . فأكثروا ذكر اللَّه تعالى ، واعملوا لما بعد الموت ؛ فإنه من يُصلح ما بينه وبين اللَّه يَكْفِه اللَّه ما بينه وبين الناس . ذلك بأن اللَّه يقضى على الناس ولا يَقضُون عليه ، ويملك من الناس ولا يملكون منه . اللَّه أكبر ، ولا حول ولا قوة إلا باللَّه العلى العظيم .

وأول جمعة جُمِّعت بعدها جمعة بقرية يقال لها : « جُوَائى » من قُرى البحرين . وقيل : إن أول من سماها الجمعة كعب بن لؤى بن غالب لاجتماع قريش فيه إلى كعب ؛ كما تقدم . واللَّه أعلم .

الثالثة : خاطب اللَّه المؤمنين بالجمعة دون الكافرين تشريفًا لهم وتكريما فقال : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾ ثم خصه بالنداء ، وإن كان قد دخل فى عموم قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ﴾ [المائدة : ٥٨] ، ليدل على وجوبه وتأكيد فرضه . وقال بعض العلماء : كون الصلاة الجمعة ها هنا معلوم بالإجماع لا من نفس اللفظ .

قال ابن العربى : وعندى أنه معلوم من نفس اللفظ بنكتة وهى قوله : ﴿ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ ﴾ وذلك يفيده ؛ لأن النداء الذى يختص بذلك اليوم هو نداء =

= تلك الصلاة . فأما غيرها فهو عام فى سائر الأيام . ولو لم يكن المراد به نداء الجمعة لما كان لتخصيصه بها وإضافته إليها معنى ولا فائدة .

الرابعة : فقد تقدّم حكم الأذان فى سورة « المائدة » مستوفى . وقد كان الأذان على عهد رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم كما فى سائر الصلوات ؛ يؤذن واحد إذا جلس النبى صلى اللّه عليه وسلم على المنبر . وكذلك كان يفعل أبو بكر وعمر ، وعليّ بالكوفة ، ثم زاد عثمان على المنبر أذانًا ثالثًا على داره التى تسمى « الزوراء » حين كثر الناس بالمدينة . فإذا سمعوا أقبلوا ؛ حتى إذا جلس عثمان على المنبر أذن مؤذن النبى صلى اللّه عليه وسلم ، ثم يخطب عثمان . خرّجه ابن ماجه فى سننه من حديث محمد بن إسحاق عن الزهرى عن السائب بن يزيد قال : ما كان لرسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم إلا مؤذن واحد ؛ إذا خرج أذّن وإذا نزل أقام ، وأبو بكر وعمر كذلك ، فلما كان عثمان وكثر الناس زاد النداء الثالث على دار فى السوق يقال لها « الزوراء » ؛ فإذا خرج أذّن وإذا نزل أقام . خرّجه البخارى من طرق بمعناه . وفى بعضها : أن الأذان الثانى يوم الجمعة أمر به عثمان بن عفان حين كثر أهل المسجد ، وكان التأذين يوم الجمعة حين يجلس الإمام .

وقال الماوردى : فأما الأذان الأول فمحدث ، فعله عثمان بن عفان ليتأهب الناس لحضور الخطبة عند اتساع المدينة وكثرة أهلها . وقد كان عمر رضى اللّه تعالى عنه أمر أن يؤذن فى السوق قبل المسجد ليقوم الناس عن بيوعهم ، فاذا اجتمعوا أذن فى المسجد ، فجعله عثمان رضى اللّه تعالى عنه أذانين فى المسجد .

قال ابن العربى . وفى الحديث الصحيح : أن الأذان كان على عهد رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم واحدًا ، فلما كان زمن عثمان زاد الأذان الثالث على الزوراء ، وسماه فى الحديث ثالثًا لأنه أضافه إلى الإقامة ، كما قال ﷺ : =

= « بين كل أذانى صلاة لمن شاء » يعنى الأذان والإقامة . ويتوهم الناس أنه أذان أصلى فجعلوا المؤذنين ثلاثة فكان وهما ، ثم جمعوهم فى وقت واحد فكان وهما على وهم . ورأيتهم يؤذنون بمدينة السلام بعد أذان المنبر بين يدى الإمام تحت المنبر فى جماعة ، كما كانوا يفعلون عندنا فى الدُّول الماضية . وكل ذلك مُحْدَث .

الخامسة : قوله تعالى : ﴿ فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾ [الجمعة : ٩] اختلف فى معنى السَّعى هاهنا على ثلاثة أقوال :

أولها : القصد . قال الحسن : واللَّه ما هو بسعى على الأقدام ولكنه سَعْىٌ بالقلوب والنية .

الثانى : أنه العمل ، كقوله تعالى : ﴿ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ ﴾ ، وقوله : ﴿ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ﴾ [الليل : ٤] ، وقوله : ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴾ . وهذا قول الجمهور . وقال زهير :

سَعَى بعدهم قوم لِكَىْ يدركوهم   فلم يفعلوا ولم يلاءموا ولم يألوا

وقال أيضًا :

سَعَى ساعيًا غيظ بن مُرّة بعدما   تَبَزَّلَ ما بين العَشِيرة بالدم

أى فاعملوا على المضى إلى ذكر اللَّه واشتغلوا بأسبابه من الغسل والتطهير والتوجه إليه .

الثالث : أن المراد به السَّعى على الأقدام . وذلك فضل وليس بشرط ، ففى البخارى : أن أبا عَبْس بن جَبْر - واسمه عبد الرحمن وكان من كبار الصحابة - مشى إلى الجمعة راجلًا وقال : سمعت رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم يقول : « من اغبَرَّت قدماه فى سبيل اللَّه حرّمه اللَّه على النار » . ويحتمل ظاهره رابعًا : وهو الجرى والاشتداد . =

....

= قال ابن العربى : وهو الذى أنكره الصحابة الأعلمون والفقهاء الأقدمون . وقرأها عمر : « فامضوا إلى ذكر اللَّه » فرارًا عن طريق الجرى والاشتداد الذى يدل على الظاهر . وقرأ ابن مسعود كذلك وقال : لو قرأت ﴿ فَٱسْعَوْاْ ﴾ لسعيتُ حتى يسقط ردائى ، قرأ ابن شهاب : « فامضوا » إلى ذكر اللَّه سالكا تلك السبيل » . وهو كله تفسير منهم ؛ لا قراءة قرآن منزل ، وجائز قراءة القرآن بالتفسير فى معرض التفسير .

قال أبو بكر الأنبارى : وقد احتج من خالف المصحف بقراءة عمر وابن مسعود ، وأن خَرَشة بن الحُرّ قال : رآنى عمر رضى اللَّه تعالى عنه ومعى قطعة فيها : ﴿ فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾ فقال لى عمر : من أقرأك هذا ؟ قلت أُبَى . فقال أُبَيًّا أقرؤنا للمنسوخ . ثم قرأ عمر « فامضوا إلى ذكر اللَّه » .

وعن سالم عن أبيه قال : ما سمعت عمر يقرأ قط إلا « فامضوا إلى ذكر اللَّه » . وأخبرنا إدريس قال حدثنا خلف قال حدثنا هشيم عن المغيرة عن إبراهيم أن عبد اللَّه بن مسعود قرأ « فامضوا إلى ذكر اللَّه » ، وقال : لو كانت ﴿ فَٱسْعَوْاْ ﴾ لسعيت حتى يسقط ردائى . قال أبو بكر : فاحتج عليه بأن الأمة أجمعت على ﴿ فَٱسْعَوْاْ ﴾ برواية ذلك عن اللَّه رب العالمين ورسوله صلى اللَّه عليه وسلم . فأما عبد اللَّه بن مسعود فما صح عنه « فامضوا » لأن السند غير متصل ؛ إذ إبراهيم النخعى لم يسمع عن عبد اللَّه بن مسعود شيئًا ، وإنما ورد « فامضوا » عن عمر رضى اللَّه تعالى عنه . فإذا انفرد أحد بما يخالف الآية والجماعة كان ذلك نسيانًا منه ، والعرب مُجْمِعة على أن السعى يأتى بمعنى المضى ؛ غير أنه لا يخلو من الجد والانكماش . قال زهير :

سَعَى ساعيًا غيظ بن مُرّة بعدما ... تَبَزَّلَ ما بين العَشِيرة بالـدم

أراد بالسعى المضى بجد وانكماش ، ولم يقصد للعدو والإسراع فى الخَطو ، وقال الفراء وأبو عبيدة : معنى السعى فى الآية المضى . واحتج الفراء بقولهم : =

= وهو يسعى فى البلاد يطلب فضل الله ؛ معناه هو يمضى بجد واجتهاد ، واحتج أبو عبيدة بقول الشاعر :

أسْعَى على جُل بنى مالك كلّ امرِئ فى شأنه ساعى

فهل يحتمل السعى فى هذا البيت إلا مذهب المضى بالانكماش ؛ ومحال أن يخفى هذا المعنى على ابن مسعود على فصاحته وإتقان عربيته .

قلت : ومما يدل على أنه ليس المراد هاهنا العَدو قوله عليه الصلاة والسلام : « إذا أقيمت الصلاة فلا تأتوها وأنتم تسعون ، ولكن ائتوها وعليكم السكينة » .

قال الحسن : أمَّا والله بالسعى على الأقدام ، ولقد نُهوا أن يأتوا الصلاة إلا وعليهم السكينة والوقار ؛ ولكن بالقلوب والنية والخشوع .

وقال قتادة : السعى أن تسعى بقلبك وعملك . وهذا حسن ، فإنه جمع الأقوال الثلاثة .

السادسة : قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾ خطاب للمكلفين بإجماع ، ويخرج منه المرضى والزَّمنى والمسافرون والعبيد والنساء بالدليل ، والعميان والشيخ الذى لا يمشى إلا بقائد عند أبى حنيفة .

وروى أبو الزبير عن جابر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فعليه الجمعة يوم الجمعة إلا مريض ، أو مسافر ، أو امرأة ، أو صبى ، أو مملوك . فمن استغنى بلَهْوٍ أو تجارةٍ استغنى الله عنه والله غنى حميد » ، خرجه الدارقطنى ، وقال علماؤنا رحمهم الله ولا يتخلف أحد عن الجمعة ممن عليه إتيانها إلا بعذر لا يمكنه منه الإتيان إليها ؛ مثل المرض الحابس ، أو خوف الزيادة فى المرض ، أو خوف جور السلطان عليه فى مال أو بدون القضاء عليه بحق ، والمطر الوابل مع الوَحل عذر إن لم ينقطع . ولم يره مالك عذرًا له ؛ حكاه المهدوى . ولو تخلف عنها متخلف على ولى =

= حميم له قد حضرته الوفاة ، ولم يكن عنده من يقوم بأمره رَجَا أن يكون فى سَعَة . وقد فعل ذلك ابن عمر ، ومن تخلف عنها لغير عذر فصلى قبل الإمام أعاد ، ولا يجزئه أن يصلى قبله ، وهو فى تخلفه عنها مع إمكانه لذلك عاص لله بفعله .

السابعة : قوله تعالى : ﴿ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ ﴾ يختص بوجوب الجمعة على القريب الذى يسمع النداء ، فأما البعيد الدار الذى لا يسمع النداء فلا يدخل تحت الخطاب ، واختلف فيمن يأتى الجمعة من الدّانى والقاصى ، فقال ابن عمر وأبو هريرة وأنس : تجب الجمعة على من فى المِصْر على ستّة أميال . وقال ربيعة : أربعة أميال .

وقال مالك والليث : ثلاثة أميال .

وقال الشافعى : اعتبار سماع الأذان أن يكون المؤذن صيتًا ، والأصوات هادئة ، والريح ساكنة وموقف المؤذن عند سُور البلد .

وفى الصحيح عن عائشة : أن الناس كانوا ينتابون الجمعة من منازلهم ومن العَوَالى فيأتون فى الغبار ويصيبهم الغبار فتخرج منهم الريح ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لو اغتسلتم ليومكم هذا » قال علماؤنا : والصوت إذا كان منيعًا والناس فى هدوء وسكون فأقصى سماع الصوت ثلاثة أميال . والعَوَالى من المدينة أقربها على ثلاثة أميال .

وقال أحمد بن حنبل وإسحاق : تجب الجمعة على من سمع النداء .

وروى الدارقطنى من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إنما الجمعة على من سمع النداء » .

وقال أبو حنيفة وأصحابه : تجب على مَنْ فى المصْر ، سمع النداء أو لم يسمعه ، ولا تجب على من هو خارج المِصْر وإن سمع النداء . حتى سُئل : وهل =

= تجب الجمعة على أهل زيارة - بينها وبين الكوفة مجرى نهر - ؟ فقال لا .
وروى عن ربيعة أيضًا : أنها تجب على من إذا سمع النداء وخرج من بيته ماشيًا أدرك الصلاة .
وقد روى عن الزهرى : أنها تجب عليه إذا سمع الأذان .
الثامنة : قوله تعالى : ﴿ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾ ، دليل على أن الجمعة لا تجب إلا بالنداء ، والنداء لا يكون إلا بدخول الوقت ، بدليل قوله صلى اللّه عليه وسلم : « إذا حضرت الصلاة فأذّنا ثم أقيما وليَؤُمّكما أكبركما » قاله لمالك بن الحُويرث وصاحبه .
وفى البخارى عن أنس بن مالك أن النبى صلى اللّه عليه وسلم كان يصلى الجمعة حين تميل الشمس ، وقد روى عن أبى الصديق وأحمد بن حنبل أنها تُصَلّى قبل الزوال . وتمسك أحمد فى ذلك بحديث سَلَمة بن الأكوع : كنا نصلى مع النبى صلى اللّه عليه وسلم ثم ننصرف وليس للحيطان ظل . وبحديث أن عمر قال : ما كنا نقيل ولا نتغدى إلا بعد الجمعة . ومثلُه عن سَهْل . خرّجه مسلم . وحديث سَلَمة محمول على التبكير . رواه هشام بن عبد الملك عن يَعلَى بن الحارث عن إياس بن سلمة بن الأكوع عن أبيه .
وروى وكيع عن يعلى عن أياس عن أبيه قال : كنا نُجَمِّع مع رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم إذا زالت الشمس ثم نرجع نتتبع الفىء . وهذا مذهب الجمهور من الخلف والسلف ، وقياسًا على صلاة الظهر . وحديث ابن عمر وسهيل دليل على أنهم يبكرون إلى الجمعة تبكيرًا كثيرًا عند الغداة أو قبلها ، فلا يتناولون ذلك إلا بعد انقضاء الصلاة .
وقد رأى مالك أن التبكير بالجمعة إنما يكون قرب الزوال بيسير . وتأوّل قول النبى ﷺ : « من راح فى الساعة الأولى فكأنما قرب بَدَنَة ... » الحديث =

= بكماله . إنه كان فى ساعة واحدة . وحمله سائر العلماء على ساعات النهار الزمانية الاثنتى عشرة ساعة المستوية أو المختلفة بحسب زيادة النهار ونقصانه . ابن العربى : وهو أصح ؛ لحديث ابن عمر رضى اللّٰه تعالى عنهما : ما كانوا يُقيلون ولا يتغدون إلا بعد الجمعة لكثرة البكور إليها .

التاسعة : فرض اللّٰه تعالى الجمعة على كل مسلم ؛ ردًا على من يقول : إنها فرض على الكفاية ؛ ونقل عن بعض الشافعية . ونقل عن مالك من لم يُحقق : أنها سنة .

وجمهور الأمة والأئمة أنها فرض على الأعيان ؛ لقول اللّٰه تعالى : ﴿ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلْبَيْعَ ﴾ .

وثبت عن النبى صلى اللّٰه عليه وسلم أنه قال : « لينتهين أقوام عن ودعِهم الجمعات أو ليختمن اللّٰه على قلوبهم ثم ليكونن من الغافلين » . وهذا حجة واضحة فى وجوب الجمعة وفرضيتها .

وفى سنن ابن ماجه عن أبى الجعد الضَّمْرىّ - وكان له صحبة - قال : قال رسول اللّٰه صلى اللّٰه عليه وسلم : « من ترك الجمعة ثلاث مرات تهاونًا بها طبع اللّٰه على قلبه » . إسناده صحيح . وحديث جابر بن عبد اللّٰه قال : قال رسول اللّٰه صلى اللّٰه عليه وسلم : « من ترك الجمعة ثلاثًا من غير ضرورة طَبَع اللّٰه على قلبه » . ابن العربى : وثبت عن النبى صلى اللّٰه عليه وسلم أنه قال : « الرَّواح إلى الجمعة واجب على كل مسلم » .

العاشرة : أوجب اللّٰه السّعى إلى الجمعة مطلقًا من غير شرط . وثبت شرط الوضوء بالقرآن والسنة فى جميع الصلوات ؛ لقوله عز وجل : ﴿ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ ﴾ الآية . وقال النبى صلى اللّٰه عليه وسلم : « لا يقبل اللّٰه صلاة بغير طهور » . وأغربت طائفة فقالت : إن غسل الجمعة =

= فرض . ابن العربى : وهذا باطل ؛ لما روى النسائى وأبو داود فى سننهما أن النبى صلى اللّٰه عليه وسلم قال : « من توضأ يوم الجمعة فبها ونِعْمَت . ومن اغتسل فالغسل أفضل » .

وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة قال : قال رسول اللّٰه صلى اللّٰه عليه وسلم : « من توضأ يوم الجمعة فأحسن الوضوء ثم راح إلى الجمعة فاستمع وأنصت غفر اللّٰه له ما بين الجمعة إلى الجمعة وزيادة ثلاثة أيام . ومن مَسّ الحَصَى فقد لغا » وهذا نص .

وفى الموطأ : أن رجلًا دخل يوم الجمعة وعمر بن الخطاب يخطب ... - الحديث إلى أن قال : - مازدت على أن توضأت ، فقال عمر : والوضوء أيضًا . وقد علمت أن رسول اللّٰه صلى اللّٰه عليه وسلم كان يأمر بالغسل . فأمر عمر بالغسل ولم يأمره بالرجوع ، فدلّ على أنه محمول على الاستحباب . فلم يكن وقد تلبس بالفرض - وهو الحضور والإنصات للخطبة - أن يرجع عنه إلى السُّنة ، وذلك بمحضر فحول الصحابة وكبار المهاجرين حوالى عمر ، وفى مسجد النبى صلى اللّٰه عليه وسلم .

الحادية عشرة : لا تسقط الجمعة لكونها فى يوم عيد ، خلافًا لأحمد بن حنبل فإنه قال : إذا اجتمع عيد وجمعة سقط فرض الجمعة ؛ لتقدّم العيد عليها واشتغال الناس به عنها . وتعلق فى ذلك بما روى أن عثمان أذِن فى يوم عيد لأهل العَوَالى أن يتخلفوا عن الجمعة . وقول الواحد من الصحابة ليس بحجة إذا خولف فيه ولم يجمع معه عليه .

والأمر بالسعى متوجه يوم العيد كتوجهه فى سائر الأيام .

وفى صحيح مسلم عن النُّعمان بن بشير قال : كان رسول اللّٰه ﷺ يقرأ فى العيدين وفى الجمعة : بـ ﴿ سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴾ [الأعلى : ١] . =

= و ﴿ هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلۡغَٰشِيَةِ ﴾ [الغاشية : ١] قال : وإذا اجتمع العيد والجمعة فى يوم واحد يقرأ بهما أيضًا فى الصلاتين . أخرجه أبو داود والترمذى والنسائى وابن ماجه .

الثانية عشرة : قوله تعالى : ﴿ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ ﴾ أى : الصلاة . وقيل الخطبة والمواعظ ؛ قاله سعيد بن جبير .

ابن العربى : والصحيح أنه واجب فى الجميع ؛ وأوله الخطبة . وبه قال علماؤنا ؛ إلا عبد الملك بن الماجِشُون فإنه رآها سُنة ، والدليل على وجوبها أنها تُحَرِّم البيع ، ولولا وجوبها ما حرمته ؛ لأن المستحب لا يُحَرِّم المباح . وإذا قلنا : إن المراد بالذكر الصلاة فالخطبة من الصلاة . والعبد يكون ذاكرًا للَّه بفعله كما يكون مسبحًا للَّه بفعله . الزمخشرى : فإن قلت : كيف يفسر ذكر اللَّه بالخطبة وفيها غير ذلك ! قلت : ما كان من ذكر رسول اللَّه ﷺ والثناء عليه وعلى خلفائه الراشدين وأتقياء المؤمنين والموعظة والتذكير فهو فى حكم ذكر اللَّه . فأما ما عدا ذلك من ذكر الظلمة وألقابهم والثناء عليهم والدعاء لهم ، وهم أحقاء بعكس ذلك ؛ فهو من ذكر الشيطان ، وهو من ذكر اللَّه على مراحل .

الثالثة عشرة : قوله تعالى : ﴿ وَذَرُواْ ٱلۡبَيۡعَۚ ﴾ منع اللَّه عز وجل منه عند صلاة الجمعة ، وحرمه فى وقتها على من كان مخاطبًا بفرضها . والبيع لا يخلو عن شراء فاكتفى بذكر أحدهما ، كقوله تعالى : ﴿ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلۡحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأۡسَكُمۡۚ ﴾ وخص البيع لأنه أكثر ما يشتغل به أصحاب الأسواق ، ومن لا يجب عليه حضور الجمعة فلا يُنهى عن البيع والشراء .

وفى وقت التحريم قولان :

الأول : إنه من بعد الزوال إلى الفراغ منها ، قاله الضحاك والحسن وعطاء .

الثانى : من وقت أذان الخطبة إلى وقت الصلاة . =

= قاله الشافعى ، ومذهب مالك أن يترك البيع إذا نُودى للصلاة ، ويفسخ عنده ما وقع من ذلك من البيع فى ذلك الوقت ، ولا يفسخ العتق والنكاح والطلاق وغيره ، إذ ليس من عادة الناس الاشتغال به كاشتغالهم بالبيع . قالوا : وكذلك الشركة والهبة والصدقة نادر لا يفسخ . ابن العربى : والصحيح فسخ الجميع ، لأن البيع إنما مُنع منه للاشتغال به . فكل أمرٍ يَشْغل عن الجمعة من العقود كلها فهو حرام شرعًا مفسوخ رَدْعًا . المهدوى : ورأى بعض العلماء البيع فى الوقت المذكور جائزًا ، وتأول النهى عنه ندبًا ، واستدل بقوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ .

قلت : وهذا مذهب الشافعى ؛ فإن البيع ينعقد عنده ولا يفسخ . وقال الزمخشرى فى تفسيره : إن عامة العلماء على أن ذلك لا يؤدى إلى فساد البيع . قالوا : لأن البيع لم يحرم لعينه ، ولكن لما فيه من الذهول عن الواجب ؛ فهو كالصلاة فى الأرض المغصوبة والثوب المغصوب ، والوضوء بماء مغصوب . وعن بعض الناس أنه فاسد .

قلت : والصحيح فساده وفسخه ؛ لقوله صلى الله عليه وسلم : « كل عملٍ ليس عليه أمرنا فهو رَدٌّ » أى مردود . والله تعالى أعلم .

وقوله تعالى : ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ هذا أمر إباحة ؛ كقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَٱصْطَادُواْ ﴾ [المائدة : ٢] . يقول : إذا فرغتم من الصلاة فانتشروا فى الأرض للتجارة والتصرف فى حوائجكم . ﴿ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ ﴾ أى من رزقه . وكان عراك بن مالك إذا صلى الجمعة انصرف فوقف على باب المسجد فقال : اللهم إنى أجبت دعوتك ، وصليت فريضتك ، وانتشرت كما أمرتنى ، فارزقنى من فضلك وأنت خير الرازقين . وقال جعفر بن محمد فىقوله تعالى : ﴿ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ ﴾ إنه العمل فى يوم السبت . وعن الحسن بن سعيد بن المسيب : طلب العلم . =

....

○○○

= وقيل : صلاة التطوع .

وعن ابن عباس : لم يؤمروا بطلب شيء من الدنيا ؛ إنما هو عيادة المرضى ، وحضور الجنائز وزيارة الأخ في الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾ أي بالطاعة واللسان ، وبالشكر على ما به أنعم عليكم من التوفيق لأداء الفرائض . ﴿ لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ كي تفلحوا .

قال سعيد بن جبير : الذكر طاعة الله تعالى ، فمن أطاع الله فقد ذكره ، ومن لم يطعه فليس بذاكر وإن كان كثير التسبيح .

○ أخرج البخارى [٨٧٧] ، ومسلم [١/٨٤٤] ، والترمذى [٤٩٣] ، وابن ماجه [١٠٨٨] عن عبد الله بن عمر رضى الله تعالى عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إذا جاء أحدُكم الجمعة فليغتسل » .

○ وأخرج البخارى [٨٧٩] ، ومسلم [٥/٨٤٦] ، وابن ماجه [١٠٨٩] عن أبى سعيد الخدرى رضى الله تعالى عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « غُسل يوم الجمعة واجب على كل مُحتلِمٍ » .

○ وأخرج مسلم [٧/٨٤٦] ، عن أبى سعيد الخدرى رضى الله تعالى عنه قال ؛ إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « غُسل يوم الجمعة على كل مُحتَلِم ، وَسِواك ، ويَمَسُّ من الطيب ما قَدَر عليه » .

○ أخرج البخارى [٩٣٤] ، ومسلم [١١/٨٥١] ، والترمذى [٥١٢] ، وأبو داود [١١١٢] ، وابن ماجه [١١١٠] عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إذا قلت لصاحبك أنصت يوم الجمعة والإمام يخطب فقد لغوت » .

○ وأخرج مسلم [٢٤/٨٥٠] عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه قال ؛ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إذا كان يوم الجمعة كان على كل باب من أبواب المسجد ملائكة يكتبون الأول فالأول . فإذا جلس الإمام طووا الصحف وجاءوا يستمعون الذكر . ومثل المهجر كمثل الذى يُهدِى البدنة . ثم كالذى يُهدى بقرة ، ثم كالذى يُهدى الكبش ، ثم كالذى يُهدى الدجاجة ، ثم كالذى يُهدى البيضة » .

○ وأخرج مسلم [٢٨/٨٥٨] عن جابر بن عبد الله ؛ قال : كنا نصلى مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم نَرجع فنُريح نَوَاضِحَنَا . =

= قال حسن : فقلت لجعفر : فى أى ساعة تلك ؟ قال : زوال الشمس .

خطبة الجمعة :

○ وأخرج البخارى [٩٢٨] ، ومسلم [٣٣/٨٦١] ، والترمذى [٥٠٦] ، وأبو داود [١٠٩٢] ، وابن ماجه [١١٠٣] عن ابن عمر رضى الله تعالى عنهما قال :

كان النبى صلى الله عليه وسلم يخطب خطبتين يقعد بينهما .

○ وأخرج مسلم [٤١/٨٦٦] عن جابر بن سمرة قال : كنت أُصلى مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فكانت صلاته قصدًا ، وخطبته قصدًا .

○ وأخرج مسلم [٤٣/٨٦٧] ، وابن ماجه [٤٥] عن جابر بن عبد الله ؛ قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا خطب احمرت عيناه ، وعلا صوته ، واشتد غضبه ، حتى كأنه منذر جيش ، يقول : صبحكم ومساكم . ويقول : « بُعثتُ أنا والساعة كهاتين » ويقرن بين إصبعيه السبابة والوسطى . ويقول : « أما بعد . فإن خير الحديث كتاب الله ، وخير الهدى هدى محمد ، وشر الأمور محدثاتها ، وكل بدعة ضلالة » . ثم يقول : « أنا أَولَى بكل مؤمن من نفسه ، من تَركَ مالًا فلأهله ، ومن ترك دينا أو ضياعًا فإلىَّ وعلَىَّ » .

○ وأخرج مسلم [٤٧/٨٦٩] عن أبو وائل قال : خطبنا عمار فأوجز وأبلغ ، فلما نزل قُلنا : يا أبا اليقظان ! لقد أبلغت وأوجزت ، فلو كنت تنفست ! فقال : إنى سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن طول صلاة الرجل ، وقصر خطبته ، مَئِنَّةٌ من فقهه فأطيلوا الصلاة واقصروا الخطبة ، وإن من البيان سِحرًا » .

القراءة فى الجمعة :

○ وأخرج مسلم [٦١/٨٧٧] ، والترمذى [٥١٩] عن ابن أبى رافع ؛ قال : استخلف مروان أبا هريرة على المدينة وخرج إلى مكة ، فصلى لنا أبو هريرة الجمعة فقرأ بعد سورة الجمعة فى الركعة الآخِرَة : ﴿ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ ﴾ [المنافقون : ١] .

....

○ ○ ○

= قال : فأدركت أبا هريرة حين انصرف فقلت له : إنك قرأت بسورتين كان عليٌّ بن أبي طالب يقرأ بهما بالكوفة ، فقال أبو هريرة : إنى سمعت رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم يقرأ بهما يوم الجمعة .

○ وأخرج مسلم [٦٤/٨٧٩] ، وأبو داود [١٠٧٤] ، والترمذى [٥٢٠] ، وابن ماجه [٨٢١] عن ابن عباس ؛ أن النبى صلى اللَّه عليه وسلم كان يقرأ فى صلاة الفجر يوم الجمعة : ﴿ الٓمٓ تَنزِيلُ ﴾ [السجدة] ، و ﴿ هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَـٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ ﴾ [الإنسان : ١] .

وأن النبى ﷺ كان يقرأ فى صلاة الجمعة ، سورة الجمعة والمنافقين .

○ وأخرج مسلم [٦٨/٨٨١] ، والترمذى [٥٢٣] ، وابن ماجه [١١٣٢] عن أبى هريرة رضى اللَّه تعالى عنه قال : قال رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم : « إذا صليتم بعد الجمعة فصلوا أربعًا » .

زاد عمرو فى روايته : قال ابن إدريس : قال سُهيل : فإن عجل بك شيء فَصَلِّ ركعتين فى المسجد ، وركعتين إذا رجعت » .

○ وأخرج مسلم [٧١/٨٨٢] عن عبد اللَّه بن عمر ؛ أنه وصف تَطَوعَ صلاة رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم ؛ قال : فكان لا يُصلى بعد الجمعة حتى ينصرف ، فيصلى ركعتين فى بيته .

○ واخرج مسلم [٧٢/٨٨٢] عن سالم ، عن أبيه ؛ أن النبى صلى اللَّه عليه وسلم كان يصلى بعد الجمعة ركعتين .

التغليظ فى ترك الجمعة

○ أخرج مسلم [٨٦٥/٤٠] عن عبد اللَّه بن عمر وأبا هريرة رضى اللَّه تعالى عنهما أنهما سمعا رسول اللَّه ﷺ يقول على أعواد منبره : « لينتَهِين أقوام عن وَدْعِهِمُ الجمُعَاتِ أو ليختِمَنَّ اللَّه على قلوبهم . ثم ليكونن من الغافلين » .

○ أخرج مسلم [٦٥٢/٢٥٤] عن ابن مسعود رضى اللَّه تعالى عنه أن النبى صلى اللَّه عليه وسلم قال لقوم يتخلفون عن الجمعة : « لقد هممت أن آمر رجلًا يُصلى بالناس ، ثم أحرق على رجال يتخلفون عن الجمعة بيوتهم » .

ومن كان يؤمن باللَّه واليوم الآخر فليسع إلى الجمعة ، ومن استغنى عنها بلَهْوٍ أو تجارة استغنى اللَّه عنه ، واللَّه غنى حميد . رواه الطبرانى .

○ وروى أبو داود [١٠٥٢] عن أبى الجعد الضمرى وكانت له صُحبَة رضى اللَّه تعالى عنه عن النبى صلى اللَّه عليه وسلم قال : من ترك ثلاث جُمع تهاونًا بها طبع اللَّه على قلبه » ، وقال الألبانى : حسن صحيح .

○ وروى مالك فى الموطأ [٢٤٦] : من ترك الجمعة ثلاث مرات من غير عذر ولا علة طبع اللَّه على قلبه .

○ وروى ابن ماجه [١١٢٦] عن جابر بن عبد اللَّه رضى اللَّه تعالى عنه قال : قال رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم : « من ترك الجمعة ثلاثًا من غير ضرورة طبع اللَّه على قلبه » . وقال الألبانى : حسن صحيح .

○ وروى الطبرانى فى الكبير [١٩/٩٩/١٩٧] عن كعب بن مالك رضى اللَّه تعالى عنه عن رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم قال : لينتهين أقوام يسمعون النداء يوم الجمعة ، ثم لا يأتوها ، أو ليطبعن اللَّه على قلوبهم ثم ليكونن من الغافلين » ، وقال الهيثمى فى المجمع [٢/١٩٤] وإسناده حسن .

وقال المنذرى فى الترغيب والترهيب : إسناده حسن ، ورواه ابن ماجه [٧٩٤] عن ابن عمر وابن عباس رضى اللَّه تعالى عنهما وفيه « الجماعات » . =

....

○ ○ ○

= ○ وروى ابن ماجه [١١٢٧] عن أبى هريرة رضى اللَّه تعالى عنه قال : قال رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم : « ألا هل عَسَى أحدكم أن يتخذ الصُّبَّة من الغنم على رأس ميل أو ميلين فيتعذر عليه الكلأ فيرتفع ، ثم تجىء الجمعة فلا يجىء ولا يشهدها ، وتجىء الجمعة فلا يشهدها حتى يُطبع على قلبه . وحسنه الألبانى .

○ وروى ابن ماجه [٢٢٤] عن جابر بن عبد اللَّه رضى اللَّه تعالى عنه أيضًا قال : خطبنا رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم فقال : « يا أيها الناس تُوبُوا إلى اللَّه قبل أن تموتوا ، وبادروا بالأعمال الصالحة قبل أن تشغَلوا ، وصلوا الذى بينكم وبين ربكم بكثرة ذكركم له ، وكثرة الصدقة فى السر والعلانية تُرزقوا وتنصروا وتجبروا ، واعلموا أن اللَّه قد افترض عليكم الجمعة فى مقامى هذا ، فى يومى هذا ، فى شهرى هذا ، من عامى هذا إلى يوم القيامة ، فمن تركها فى حياتى أو بعدى وله إمام عادل أو جائر استخفافًا بها أو جحودًا بها ، فلا جمع اللَّه له شمله ، ولا بارك له فى أمره ، ألا وَلا صلاة له ، ولا زكاة له ، ولا حج له ، ولا صوم له ، ولا بر له حتى يتوب ، فمن تاب تاب اللَّه عليه ، ألا لا تؤمن امرأة رجلًا ولا يؤم أعرابى مهاجرًا ولا يؤم فاجرٌ مؤمنًا إلا أن يقهره بسلطان ، يخاف سيفه وسوطه . وضعفه الألبانى .

فضل يوم الجمعة

○ أخرج مسلم [١٧/٨٥٤] ، والترمذى [٤٩١] عن أبى هريرة رضى اللَّه تعالى عنه قال ؛ قال رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم : « خير يوم طلعت عليه الشمس يوم الجمعة ، فيه خُلق آدم ، وفيه أُدخل الجنة ، وفيه أُخرج منها » .

○ وأخرج مسلم [١٨/٨٥٤] عن أبى هريرة رضى اللَّه تعالى عنه ؛ أن النبى ﷺ قال : « خير يوم طلعت عليه الشمس ، يوم الجمعة . فيه خُلق آدم ، وفيه أُدخل الجنة ، وفيه أُخرج منها . ولا تقوم الساعة إلا فى يوم الجمعة » .

○ وأخرج البخارى [٨٧٦] ، ومسلم [١٩/٨٥٥] ، والترمذى [٤٨٨] عن أبى هريرة رضى اللَّه تعالى عنه أنه سمع رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم يقول : « نحن الآخرون السابقون يوم القيامة ، بيد أنهم أُوتوا الكتاب من قبلنا ، ثم هذا يومهم الذى فُرض عليهم فاختلفوا فيه ، فهدانا اللَّه له ، فالناس لنا فيه تبع : اليهود غدًا ، والنصارى بعد غد » .

○ وأخرج مسلم [٢٢/٨٥٦] ، وابن ماجه [١٠٨٦] عن أبى هريرة رضى اللَّه تعالى عنه قال : قال رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم : « أَضل اللَّه عن الجمعة من كان قبلنا ، فكان لليهود يوم السبت ، وكان للنصارى يوم الأحد ، فجاء اللَّه بنا ، فهدانا اللَّه ليوم الجمعة ، فجعل الجمعة والسبت والأحد ، وكذلك هُم تبع لنا يوم القيامة ، نحن الآخرون من أهل الدنيا . والأولون يوم القيامة ، المقضى لهم قبل الخلائق » . وفى رواية واصل : « المقضى بينهم » .

○ وأخرج البخارى [٨٨٣] عن سلمان الفارسى رضى اللَّه تعالى عنه ، ومسلم [٢٦/٨٥٧] عن أبى هريرة رضى اللَّه تعالى عنه ؛ عن النبى صلى اللَّه عليه وسلم قال : « مَن اغتسل ؛ ثم أتى الجمعة ، فصلى ما قُدر له ، ثم أنصت حتى يَفْرُغَ من خُطبته ثم يصلى معه ، غُفر له ما بينه وبين الجمعة الأخرى ، وفضل ثلاثة أيام » . =

....

○○○

○ وأخرج مسلم [٢٧/٨٥٧] عن أبى هريرة رضى اللَّه تعالى عنه قال : قال رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم : « مَن توضأ فأحسن الوضوء ، ثم أتى الجمعة فاستمع وأنصت غُفر له ما بينه وبين الجمعة ، وزيادة ثلاثة أيام ، ومن مس الحصى فقد لغا » .

○ وأخرج البخارى [٩٣٥] ، ومسلم [١٣/٨٥٢] ، وابن ماجه [١١٣٧] ، والترمذى [٤٩١] عن أبى هريرة رضى اللَّه تعالى عنه أن رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم ذكر يوم الجمعة فقال : « فيه ساعة لا يُوافقها عبد مسلم وهو قائم يُصلى يسأل اللَّه تعالى شيئًا إلا أعطاهُ إياه » وأشار بيده يُقلِّلها .

صلاة العيد وأحكامُها

شرعت صلاة العيد فى السنة الأولى من الهجرة وهى سنة مؤكَّدَة واظب النبى صلى اللَّه عليه وسلم عليها وأمر الرجال والنساء أن يخرجوا لها . وقد ورد فيها أحاديث منها :

○ عن أم عطية رضى اللَّه تعالى عنها ، قالت : أمرنا رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم ، أن نُخْرِجَهُنَّ فى الفطر والأَضْحَى ، العواتِقَ والحُيَّضَ وذوات الخُدُور ، فأمَّا الحُيَّضُ فيعتزلن الصلاة ويشهدن الخير ودعوة المسلمين ، قلت : يا رسول اللَّه إحدَانَا لا يكون لها جلباب . قال : « لِتُلْبِسْهَا أُخْتُهَا مِنْ جِلْبَابِهَا »(١) .

○ وعن عبد اللَّه بن بريدة عن أبيه رضى اللَّه تعالى عنه أن النبى صلى اللَّه عليه وسلم كان لا يخرج يوم الفطر حتى يُطْعَمُ ولا يطعم يوم النحر حتى ينحر (٢) .

○ وعن أنس رضى اللَّه تعالى عنه قال : « كان رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم لا يغدُو يومَ الفطر حتى يأكل تمرات » .

وقال مُرَجَّأُ بن رَجاء حدثنى عُبيدُ اللَّه قال : حدثنى أنس عن النبى صلى اللَّه عليه وسلم : « ويأكلهن وِترا »(٣) .

○ عن أبى سعيد الخدرى رضى اللَّه تعالى عنه قال : « كان رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم يخرج يوم الفِطر والأضحى إلى المصلى ، فأول شىء يبدأُ به الصلاة ، ثم ينصرف فيقوم مُقابل الناس – والناس جلوس على صُفوفهم – فيعظهم ، =

---

(١) أخرجه مسلم [١٢/٨٩٠] .

(٢) رواه الترمذى [٥٤٢] وقال حديث غريب ، وابن ماجه [١٧٥٦] ، وابن حبان [٢٨١٢] ، وأحمد [٣٥٢/٥] ، وصححه الألبانى .

(٣) أخرجه البخارى [٩٥٣] .

= ويُوصيهم ، ويأمرهم . فإن كان يُريدُ أن يقطع بَعثاً قطعه أو يأمر بشيء أمر به ، ثم ينصرف » .

قال أبو سعيد : فلم يزل الناس على ذلك حتى خرَجتُ مع مروان – وهو أمير المدينة – فى أضحى أو فطر ، فلما أتينا المصلَّى إذا منبر بناه كثير بن الصلت ، فإذا مروان يُريدُ أن يرتقيه قبل أن يُصلِّى ، فجبذت بثوبه ، فجبذنى ، فارتفع فخطب قبل الصلاة ، فقلت له : غيرتم واللَّه ، فقال : أبا سعيد قد ذهب ما تَعْلَمُ ، فقلت ما أعلم واللَّه خيرٌ مما لا أعلم .

فقال : إن الناس لم يكونوا يجلسون لنا بعد الصلاة ، فجعلتُها قبل الصلاة (١) .

○ وعن أم عطية رضى اللَّه تعالى عنها قالت : أُمِرْنا أن نخرج العواتق ذوات الخُدور (٢) .

○ وعن أم عطية رضى اللَّه تعالى عنه ، قالت : كُنا نُؤْمَرُ بالخروج فى العيدين ، والمخُبَأَةُ والبكر ، قالت : الحيض يخرُجن فيكن خلف الناس ، يُكَبِّرن مع الناس (٣) .

○ وعن ابن عمر رضى اللَّه تعالى عنهما قال : « كان رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم وأبو بكر وعمر رضى اللَّه تعالى عنهما يُصلُّون العيدين قبل الخطبة » (٤) .

○ وعن ابن عباس رضى اللَّه تعالى عنه قال : « شهدت العيد مع رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم وأبى بكر وعمر وعثمان رضى اللَّه تعالى عنهم ، فكلهم كانوا يُصلُّون قبل الخطبة » (٥) . =

---

(١) أخرجه البخارى [٩٥٦] . (٢) أخرجه البخارى [٩٧٤] .

(٣) أخرجه مسلم [١١/٨٩٠] .

(٤) أخرجه البخارى [٩٦٣] ، ومسلم [١/٨٨٤] .

(٥) أخرجه البخارى [٩٦٢] ، ومسلم [١/٨٨٤] .

....

= ○ وعن ابن عباس : « أن النبى صلى الله عليه وسلم صلى يوم الفطر ركعتين لم يُصلِّ قبلها ولا بعدها ، ثم أتى النساء ومعه بلال ، فأمرهن بالصدقة ، فجعلن يُلقِين ، تُلقى المرأة خُرصَها وسِخابَها » (١) .

○ عن ابن عمر رضى الله تعالى عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يصلى فى الأضحى والفطر ، ثم يخطب بعد الصلاة (٢) .

○ وعن أبى سعيد الخُدرى رضى الله تعالى عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خطب يوم العيد على راحلتِهِ (٣) .

○ وعن قيس بن عائذ ، هو أبو كاهلٍ رضى الله تعالى عنه ، قال : رأيت النبى صلى الله عليه وسلم يخطب على ناقة حسناء ، وحبشىٌ أخذ بخطامها (٤) .

○ وعن جابر بن عبد الله رضى الله تعالى عنه قال : سمعته يقول : « قام النبى صلى الله عليه وسلم يوم الفطر فصلى ، فبدأ بالصلاة ثم خَطب ، فلما فرغ نزل فأتى النساء فذكَّرهنَّ وهو يتوكأُ على يد بلال ، وبلال باسط ثوبه يُلقى فيه النساء الصدقة . قلت لعطاء : زكاة يوم الفطر ؟ قال : لا ، ولكن صدقة يتصدقن حينئذ : تُلقى فَتَخها ويُلقينَ . قلت : أتُرَى حقا على الإمام ذلك ويُذكرهنَّ ؟ قال : إنه لحقٌّ عليهم ، وما لهم لا يفعلونه ؟ (٥) .

○ وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما قال : « شهدت الفطر مع النبى ﷺ وأبى بكر وعمر وعثمان رضى الله عنهم يُصلُّونها قبل الخطبة ، ثم يخطب =

(١) أخرجه البخارى [٩٦٤] ، ومسلم [٢/٨٨٤] .

(٢) أخرجه البخارى [٩٥٧] .

(٣) رواه أبو يعلى فى مسنده [١١٨٢] ، وذكره الهيثمى فى مجمع الزوائد [٢/٢٠٥] وقال رواه أبو يعلى ، ورجاله رجال الصحيح .

(٤) رواه ابن ماجه [١٢٨٤] وحسنه الألبانى .

(٥) أخرجه البخارى [٩٧٨] .

....

= بعد . خرج النبى صلى الله عليه وسلم كأنى أنظر إليه حين يُجَلِّسُ بيده . ثم أقبل يشقهم حتى أتى النساء معه بلال فقال : « ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ ﴾ الآية [الممتحنة : ١٢] ثم قال حين فرغ منها : « آنتُنَّ على ذلك ؟ » قالت امرأة واحدة منهن – لم يُجِبهُ غيرها – : نعم . لا يدرى حسن من هى . قال : « فتصدقن » فبسط بلال ثوبه ثم قال : هلمَّ ، لكُنَّ فداءُ أبى وأمى . فيُلقينَ الفَتَخَ والخَواتيمَ فى ثوب بلال[1] .

○ وعن جابر بن عبد الله رضى الله تعالى عنه قال : « كان النبى صلى الله عليه وسلم إذا كان يوم عيد خالف الطريق »[2] .

○ وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج يوم أضحى أو فطر فصلى ركعتين لم يصلِّ قبلها ولا بعدها ، ثم أتى النساء ومعه بلال ، فأمرهُنَّ بالصدقة ، فجعلت المرأة تُلقى خرصها وتلقى سخابها[3] .

○ وعن جابر بن سمرة رضى الله تعالى عنه ، قال : صليت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم العيدين غير مرّةٍ ولا مرتين بغير أذان ولا إقامة[4] .

○ وعن عُبَيْدِ الله بن عبد الله ؛ أن عُمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه سأل أبَا واقِد الليثى : ما كان يقرأ به رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الأضحى والفطر ؟ فقال : كان يقرأ فيهما بـ ﴿ قٓ ۚ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ ﴾ و ﴿ ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ﴾[5] . =

---

(١) أخرجه البخارى [٩٧٩] .

(٢) أخرجه البخارى [٩٨٦] .

(٣) أخرجه البخارى [٩٦٤] ، وأخرجه مسلم [١٣/٨٨٤] ، وأحمد فى المسند [٣٤٠/١] ، وأبو داود [١١٥٩] .

(٤) أخرجه مسلم [٧/٨٨٧] ، والترمذى [٥٣٢] ، أبو داود [١١٤٨] .

(٥) أخرجه مسلم [١٤/٨٩١] ، وأبو داود [١١٥٤] ، الترمذى [٥٣٤] .

=○ وعن النعمان بن بشير ؛ قال كان رسول الله ﷺ يقرأ فى العيدين وفى الجمعة ، بـ ﴿ سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴾ ، و ﴿ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَـٰشِيَةِ ﴾[1] .

قال : وإذا اجتمع العيد والجمعة فى يوم واحد ، يقرأُ بهما أيضا فى الصلاتين .

○ وعن إياس بن أبى رملة الشامى قال : شهدت معاوية بن سفيان وهو يسأل زيد ابن أرقم قال : أشَهِدْتَ مع رسول الله صلى الله عليه وسلم عيدين اجتمعا فى يوم ؟ قال : نعم ، قال : فكيف صنع ؟ قال : صلَّى العيد ثم رَخَّص فى الجمعة ، فقال : من شاء أن يُصَلِّيَ فليُصَلِّ »[2] .

○ وعن ابن جريجٍ ، قال : قال عطاء : اجتمعِ يومِ جمعة ويوم فِطر على عهد ابن الزبير فقال : عيدان اجتمعا فى يوم واحد ، فجمعهما جميعاً فصلاهما ركعتين بُكْرَةً ، لم يزد عليهما حتى صلى العصر[3] .

○ وعن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أنه قال : « قد اجتمع فى يومكم هذا عيدان : فمن شاءَ أجزأه من الجمعة ، وإنا مجَمِّعون »[4] .

○ وعن عطاء بن أبى رباح ، قال : صلى بنا ابن الزبير فى يوم عيد فى يوم جمعة أول النهار ، ثم رُحْنَا إلى الجمعة ، فلم يخرج إلينا ، فصلينا وُحْدَاناً ، وكان ابن عباس بالطائف ، فلما قدم ذكرنا ذلك له ، فقال : أصاب السنة[5] . =

(١) أخرجه مسلم [٦٢/٨٧٨] ، وأبو داود [١١٢٢] ، والترمذى [٥٣٣] .

(٢) رواه أبو داود [١٠٧٠] ، وابن ماجه [١٣١٠] والبيهقى فى السنن الكبرى [٦٢٨٦] وصححه الألبانى .

(٣) رواه أبو داود [١٠٧٢] ، وصححه الألبانى .

(٤) رواه أبو داود [١٠٧٣] ، وابن ماجه [١٣١١] والبيهقى فى السنن الكبرى [٦٢٨٧] ، والحاكم فى المستدرك [٢٨٨/١] ، وصححه الألبانى .

(٥) رواه أبو داود [١٠٧١] ، وصححه الألبانى .

=○ وعن أبى عبيد مولى ابن أزهر : أنه شهد العيد يوم الأضحى مع عمر ، فصلى قبل الخطبة ثم خطب فقال : يا أيها الناس إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد نهاكم عن صيام هذين العيدين ، أما أحدهما : فيوم فطركم من صيامكم ، وأما الآخر فيوم تأكلون فيه من نسككم .

قال أبو عبيد : ثم شهدت مع عثمان بن عفان رضى الله تعالى عنه وكان ذلك يوم الجمعة ، فصلى قبل الخطبة ، ثم خطب فقال : « يا أيها الناس إن هذا يوم قد اجتمع لكم فيه عيدان ، فمن أحب أن ينتظر الجمعة من أهل العوالى فلينتظر ، مَنْ أحب أن يرجع فليرجع ، فقد أذنت له »[1] .

○ وعن أبى عبيد مولى ابن أزهر قال : شهدت العيد مع عثمان بن عفان رضى الله تعالى عنه ، فجاء فصلى ، ثم انصرف ، فخطب فقال : إنه قد اجتمع لكم فى يومكم هذا عيدان ، فمن أحب من أهل العالية أن ينتظر الجمعة فلينتظرها ، ومَنْ أحب أن يرجع فليرجع ، فقد أذنت له [2] .

○ وعن يزيد بن خمير الرحبى ، قال : خرج عبد الله بن بسر - صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم - مع الناس فى يوم عيد فطر - أو أضحى - ، فأنكر إبطاء الإمام ، فقال : إنا كنا قد فرغنا ساعتنا هذه ، وذلك حين التسبيح [3] .

○ وعن عائشة رضى الله تعالى عنها ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يكبر فى الفطر والأضحى : فى الأولى سبع تكبيرات ، وفى الثانية خمساً [4] . =

(١) رواه البيهقى فى السنن الكبرى [٦٢٩٢] .

(٢) رواه البيهقى فى السنن الكبرى [٦٢٩١] .

(٣) رواه أبو داود [١١٣٥] ، وابن ماجه [١٣١٧] ، وصححه الألبانى .

(٤) رواه أبو داود [١١٤٩] ، وابن ماجه [١٢٨٠] ، وصححه الألبانى .

....

=○ وعن ابن عمرو بن العاص قال : قال نبى اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم : « التكبير فى الفطر سَبْعٌ فى الأولى ، وخمس فى الآخرة ، والقراءة بعدهما كلتيهما »(١) .

○ وعنِ عمروِ بنِ شعيب ، عنِ أبيه ، عنِ جده ، أن النبي ﷺ كان يكبر فى الفطر فى الأولى سبعاً ثم يقرأ ، ثم يكبر ، ثم يقوم فيكبر أربعاً ، ثم يقرأ ، ثم يركع(٢) .

○ وعن كثير بن عبد اللَّه بن عمرو بن عوف عن أبيه ، عن جده ، أن رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم كبّر فى العيدين سبعاً فى الأولى ، وخمساً فى الآخرة (٣) .

○ وعن عمار بن سعد عن أبيه عن جده أن النبى صلى اللَّه عليه وسلم كان يخرج إلى العيد ماشياً ، ويرجع ماشياً (٤) .

○ وعن ابن عمر رضى اللَّه تعالى عنهما ، قال : كان رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم يخرج إلى العيد ماشياً ، ويرجع ماشياً (٥) .

○ وعن عائشة رضى اللَّه تعالى عنها ، قالت : دخل رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم وعندى جاريتان تُغَنِّيَانِ بغناء بُعَاثٍ ، فاضطجع على الفِرَاشِ ، وحول وجهه ، فدخل أبو بكر فانتهرَنِى ، وقال : مِزْمَارُ الشيطان عند رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم ؟ فأقبل عليه رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم ، فقال : « دَعْهُمَا » فلما غَفَلَ غَمَزْتُهُما فخرجتا ، وكان يوم عيد يلعبُ السُّودَانُ بالدَّرَقِ والحراب ، فإما سألت رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم وإما قال : « تَشْتَهِينَ تَنْظُرِينَ ؟ » =

(١) رواه أبو داود [١١٥١] ، وصححه الألبانى .

(٢) رواه أبو داود [١١٥٢] ، وابن ماجه [١٢٧٨] ، وصححه الألبانى .

(٣) رواه ابن ماجه [١٢٧٩] ، وصححه الألبانى .

(٤) رواه ابن ماجه [١٢٩٤] ، وحسنه الألبانى .

(٥) رواه ابن ماجه [١٢٩٥] ، وحسنه الألبانى .

....

○○○

= فقلت : نعم . فأقامنى وراءه ، خَدِّى على خَدِّه ، وهو يقول : « دُونَكُمْ يا بنى أرْفَدَةَ » حتى إذا مَلِلْتُ قال : « حَسْبُكِ ؟ » قلت : نعم . قال : « فاذْهَبِى » (١) .

○ وعن عائشة رضى اللّه تعالى عنها قالت : واللّه لقد رأيت رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم يقوم على باب حجرتى ، والحَبَشَةُ يلعبون بحرابهم فى مسجد رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم يَسْتُرُنِى بردَائه ، لكى أنظُرَ إلى لعبهم ، ثم يقوم من أَجْلِى ؛ حتى أكون أنا التى أنصرف . فاقْدُرُوا قَدْرَ الجارِيَة الحديثة السِّنِّ ، حريصة على اللَّهْوِ (٢) .

---

(١) رواه البخارى [٩٤٩] ومسلم [١٩/٨٩٢] واللفظ لمسلم .

(٢) أخرجه مسلم [١٨/٨٩٢] .

صلاة التطوع

○ أخرج مسلم [٢٢٦/٤٨٩] عن ربيعة بن كعب الأسلمى رضى الله تعالى عنه قال : قال لى النبى صلى الله عليه وسلم « سَلْ » ، فقلت : أسأُلك مُرافقتك فى الجنة ، فقال : « أو غير ذلك ؟ » فقلت : هو ذاك ، قال : « فأعنى على نفسك بكثرة السجود » .

○ وأخرج البخارى [١١٨٠] عن ابن عمر رضى الله تعالى عنهما قال : حفظت من النبى صلى الله عليه وسلم عشر ركعات : ركعتين قبل الظهر ، وركعتين بعدها ، وركعتين بعد المغرب في بيته ، وركعتين بعد العشاء فى بيته ، وركعتين قبل الصبح . متفق عليه . وفى رواية لهما : وركعتين بعد الجمعة فى بيته .

○ ولمسلم [٨٨/٧٢٣] عن حفصة رضى الله تعالى عنها : كان إذا طلع الفجر لا يصلى إلا ركعتين خفيفتين .

○ أخرج البخارى [١١٨٢] عن عائشة رضى الله تعالى عنها : أن النبى صلى الله عليه وسلم كان لا يدع أربعًا قبل الظهر ، وركعتين قبل الغداة .

○ وأخرج البخارى [١١٦٩] عنها رضى الله تعالى عنها قالت : لم يكن النبى ﷺ على شيء من النوافل أشد تعاهدًا منه على ركعتى الفجر . متفق عليه .

○ ولمسلم [٩٦/٧٢٥] عن عائشة رضى الله تعالى عنها « ركعتا الفجر خير من الدنيا وما فيها » .

○ وأخرج مسلم [١٠٢/٨٢٨] عن أم حبيبة رضى الله تعالى عنها قالت : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « من صلى اثنتى عشرة ركعة فى يومه وليلته بُنى له بهن بيت فى الجنة » وفى رواية [١٠٢/٨٢٨] . « تطوعًا » .

○ وللترمذى [٤١٥] نحوه ، وزاد : « أربعًا قبل الظهر ، وركعتين بعدها ، وركعتين بعد المغرب ، وركعتين بعد العشاء ، وركعتين قبل صلاة الفجر » . =

=○ وروى أبو داود [١٢٧١] عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « رحم الله امرأً صلى قبل العصر أربعًا » وحسنه الألباني .

○ وأخرج البخارى [١١٨٣] عن عبد الله بن مُغَفَّلٍ المزنى رضى الله تعالى عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « صلوا قبل صلاة المغرب ، - قال فى الثالثة : - « لمن شاء » . كراهية أن يتخذها الناس سنة .

○ وروى ابن حبان فى صحيحه [١٥٨٨] عن عبد الله المزنى رضى الله تعالى عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم صلى قبل المغرب ركعتين .

وقال الأرناؤوط : إسناده صحيح .

○ وأخرج مسلم [٨٣٦/٣٠٢] و أبو داود [١٢٨٢] عن أنس رضى الله تعالى عنه قال : كنا نصلى على عهد النبى صلى الله عليه وسلم ركعتين بعد غروب الشمس ، قبل صلاة المغرب وكان النبى ﷺ يرانا ، فلم يأمرنا ولم ينهنا .

○ أخرج البخارى [١١٧١] عن عائشة رضى الله تعالى عنها قالت : كان النبى صلى الله عليه وسلم يخفف الركعتين اللتين قبل صلاة الصبح حتى إنى أقول : هل قَرَأَ بأم الكتاب ؟ متفق عليه .

○ أخرج مسلم [٧٢٦/٩٨] عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه أن النبى ﷺ قرأ فى ركعتى الفجر ﴿ قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴾ و ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَـدٌ ﴾ .

○ أخرج البخارى [٦٢٦] وابن ماجه [١١٩٨] واللفظ له عن عائشة رضى الله تعالى عنها قالت : كان النبى صلى الله عليه وسلم إذا صلى ركعتى الفجر اضطجع على شقه الأيمن .

○ روى أحمد فى المسند [٤١٥/٢] عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إذا صلى أحدكم الركعتين قبل صلاة الصبح فليضطجع على جنبه الأيمن » وقال الأرناؤوط : إسناده صحيح . =

=○ أخرج البخارى [٩٩٠] ومسلم [١٤٥/٧٤٩] عن ابن عمر رضى اللَّه تعالى عنهما قال : قال رسول اللَّه ﷺ : « صلاة الليل مثنى مثنى ، فإذا خَشِى أحدكم الصبح صلى ركعة واحدة تُوتِرُ له ما قد صلى » . متفق عليه .
وللخمسة : وصححه ابن حبان بلفظ : « صلاة الليل والنهار مثنى » وقال النسائى : هذا خطأ .

○ أخرج مسلم [٢٠٢/١١٦٣] عن أبى هريرة رضى اللَّه تعالى عنه قال : قال رسول اللَّه ﷺ : « أفضل الصلاة بعد الفريضة ، صلاة الليل » .

○ روى أبو داود [١٤٢٢] وصححه الألبانى [١٢٦٠] عن أبى أيوب الأنصارى أن رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم قال : « الوتر حق على كل مسلم ، فمن أحب أن يُوتر بخمس فليفعل ، ومن أحب أن يوتر بثلاث فليفعل ، ومن أحب أن يوتر بواحدة فليفعل » .

○ روى الترمذى [٤٥٤] عن علىّ بن أبى طالب رضى اللَّه تعالى عنه قال : « الوتر ليس بحتم كهيئة الصلاة المكتوبة ، ولكن سنة سنها رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم . وصححه الألبانى .

○ وروى ابن حبان فى صحيحه [٢٤٠٩] عن جابر بن عبد اللَّه رضى اللَّه تعالى عنهما أن رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم قام فى شهر رمضان ، ثم انتظروه من القابلة فلم يخرج ، وقال : « إنى خشيت أن يكتب عليكم الوتر » . وقال الأرناؤوط : إسناده ضعيف .

○ وروى ابن ماجه [١١٦٨] عن خارجة بن حُذافة رضى اللَّه تعالى عنه قال : قال رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم : « إن اللَّه قد أمدكم بصلاة هى خير لكم من حُمْرِ النعم » « الوتر ، جعله الله لكم ما بين صلاة العشاء إلى أن يطلع الفجر » وقال الألبانى فى ضعيف ابن ماجه [٢٤٥] صحيح دون قوله « هى خير لكم من حمر النعم » . =

=○ أخرج البخارى [١١٤٧] ومسلم [١٢٥/٧٣٨] عن عائشة رضى اللَّه تعالى عنها قالت : ما كان رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم يَزيد فى رمضان ولا فى غيره على إحدى عشرة ركعة ، يُصلى أربعًا ، فلا تسأل عن حُسنهنَّ وطولهنَّ ، ثم يُصلى أربعًا ، فلا تسأل عن حُسنهنَّ وطولهنَّ ، ثم يصلى ثلاثًا . قالت عائشة ، فقلت : يا رسول اللَّه أتنام قبل أنْ تُوتر ؟ فقال : « يا عائشة ، إن عينى تنامان ولا ينام قلبى .

○ أخرج مسلم [١٢٣/٧٣٧] عنها رضى الله تعالى عنها قالت : « كان رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم يُصلى من الليل ثلاث عشرة ركعة ، يُوتر من ذلك بخمس ، لا يجلس فى شيء إلا فى آخرها » .

○ أخرج البخارى [٩٩٦] ومسلم [١٣٦/٧٤٥] عنها رضى اللَّه تعالى عنها قالت : من كُلِّ الليل قد أوتَر رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم ، فانتهى وتره إلى السحر . متفق عليه .

○ أخرج البخارى [١١٥٢] ومسلم [١٨٥/١١٥٩] عن عبد اللَّه بن عمرو بن العاص رضى اللَّه تعالى عنهما قال : قال رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم : « يا عبد اللَّه ، لا تكن مثل فلان ، كان يقوم من الليل ، فترك قيام الليل » .

○ وروى أحمد فى المسند [١١٠/١] وأبو داود [١٤١٦] وقال الأرناؤوط : إسناده قوى عن عليّ كرم الله وجهه قال : قال رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم : « يا أهل القرآن ، أوتروا فإن اللَّه عز وجل وِترٌ يحب الوتر » .

○ وأخرج مسلم [١٥١/٧٥١] عن ابن عمر رضى اللَّه تعالى عنهما أن النبى صلى اللَّه عليه وسلم قال : « اجعلوا آخر صلاتكم بالليل وترًا » .

○ وروى أحمد فى المسند [٢٣/٤] وقال الأرناؤوط : إسناده حسن عن طلق بن عليّ قال : سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول : « لا وتران فى ليلة » . =

....

○ وروى ابن حبان [٢٤٣٦] وقال الأرناؤوط : إسناده صحيح عن أُبى بن كعب رضى اللَّه تعالى عنه قال : كان رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم يُوتر بـ ﴿ سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴾ ، و ﴿ قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴾ ، و ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾ .

○ أخرج مسلم [١٦٠/٧٥٤] عن أبى سعيد الخدرى رضى اللَّه تعالى عنه أن النبى صلى اللَّه عليه وسلم قال : « أوتروا قبل أن تُصبحوا » .

○ وروى ابن ماجه [١١٨٨] وعنه رضى اللَّه تعالى عنه قال : قال رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم : « من نام عن الوتر أو نسيه فليصل إذا أصبح أو ذَكَرَه » . وصححه الألبانى .

○ أخرج مسلم [١٦٢/٧٧٥] عن جابر رضى اللَّه تعالى عنه قال : قال رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم : « من خاف أن لا يقوم من آخر الليل فليوتر أوله ، ومن طمع أن يقوم آخره فليوتر آخر الليل ، فإن صلاة آخر الليل مشهودة ، وذلك أفضل .

○ وروى الترمذى [٤٦٩] وأحمد [١٥٠/٢] عن ابن عمر رضى اللَّه تعالى عنهما عن النبى صلى اللَّه عليه وسلم قال : « إذا طلع الفجر فقد ذهب وقت كل صلاة الليل والوتر . فأوتروا قبل طلوع الفجر » . وقال الأرناؤوط : حديث صحيح ، وهذا إسناد حسن وبقية رجاله ثقات رجال الشيخين .

○ أخرج مسلم [٧٩/٧١٩] عن عائشة رضى اللَّه تعالى عنها قالت : كان رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم يصلى الضحى أربعًا ، ويزيد ما شاء اللَّه .

○ وأخرج مسلم [٧٦/٧١٧] عنها رضى اللَّه تعالى عنها أنها سُئلت : أكان النبى صلى اللَّه عليه وسلم يصلى الضحى ؟ قالت : لا . إلا أن يجىء من مغيبه .

○ أخرج مسلم [١٤٣/٧٤٨] عن زيد بن أرقم رضى اللَّه تعالى عنه ، أن رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم قال : « صلاة الأوابين حين تَرمَضُ الفصال » . =

○ أخرج الترمذى [٤٧٣] وعن أنس رضى اللّه تعالى عنه قال : قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : « من صلى الضحى اثنتى عشرة ركعة بنى اللّه له قصرًا من ذهب في الجنة » رواه الترمذى واستغربه . وابن ماجه [١٣٨٠] وضعفه الألبانى .

○ وروى ابن حبان فى صحيحه [٢٥٣١] عن عائشة رضى اللّه تعالى عنها قالت : « دخل رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم بيتى . فصلى الضحى ثمانى ركعات » .

○ وقال الأرناؤوط : المطلب بن عبد اللّه بن حنطب ، وثقه أبو زرعة ويعقوب بن سفيان والدارقطنى ، إلا أنهم اختلفوا فى سماعه من عائشة ، قال أبو حاتم لم يدرك عائشة ، وعامة حديثه مراسيل ، وقال أبو زرعة : أرجو أن يكون سمع منها ، وباقى السند على شرط مسلم .

○○○

صلاة الكسوف

○ أخرج البخارى [١٠٤٣] ، ومسلم [٢٩/٩١٥] عن المغيرة بن شُعبة رضى اللَّه تعالى عنه قال : انكسفت الشمس على عهد رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم ، يوم مات إبراهيم ، فقال رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم : « إن الشمس والقمر آيتان من آيات اللَّه لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته ، فإذا رأيتموهما ، فادعوا اللَّه وصلوا ، حتى ينكشف » .

○ وأخرج البخارى [١٠٥٧] ، ومسلم [٢١/٩١١] ؛ عن أبى مسعود الأنصارى رضى اللَّه تعالى عنه قال : قال رسول اللَّه ﷺ : « إن الشمس والقمر آيتان من آيات اللَّه ، يخوف اللَّه بهما عباده ، وإنهما لا ينكسفان لموت أحد من الناس ، فإذا رأيتم منها شيئًا فصلوا وادعوا اللَّه حتى ينكشف ما بكم » .

○ أخرج مسلم [٥/٩٠١] عن عائشة رضى اللَّه تعالى عنها : أن النبى ﷺ جَهَرَ فى صلاة الكسوف بقراءته فصلى أربع ركعات فى ركعتين ، وأربع سجدات .

○ وأخرج البخارى [١٠٥٢] ، ومسلم [١٧/٩٠٧] عن ابن عباس رضى اللَّه تعالى عنهما قال : انخسفت الشمس على عهد رسول اللَّه ﷺ فصلى رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم ، فقام قيامًا طويلًا ، نحوًا من قراءة سورة البقرة ، ثم ركع ركوعًا طويلًا ، ثم رفع فقام قيامًا طويلًا وهو دون القيام الأول ، ثم ركع ركوعًا طويلًا ، وهو دون الركوع الأول ، ثم سجد ، ثم قام قياما طويلًا ، وهو دون القيام الأول ، ثم ركع ركوعًا طويلًا ، وهو دون الركوع الأول ، ثم رفع ، فقام قيامًا طويلًا ، وهو دون القيام الأول ، ثم ركع ركوعًا طويلا ، وهو دون الركوع الأول ، ثم سجد ، ثم انصرف وقد تجلت الشمس ... » .

○ أخرج مسلم [١٨/٩٠٨] عن ابن عباس رضى اللَّه تعالى عنهما قال : صلى رسول اللَّه ﷺ حين كُسِفَت الشمس ثمانى ركعات فى أربع سجدات . =

....

=○ وأخرج مسلم [١٠/٩٠٤] عن جابر بن عبد الله رضى الله تعالى عنه : « ... صلى ست ركعات بأربع سجدات ... » .

○ وروى الطبراني في الكبير [١١٥٣٣/١٧٠/١١] عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما قال : إذا هاجت ريح استقبلها بوجهه وجثا على رُكبتيه ، ومد بيديه وقال : اللهم إني أسألك خير هذه الريح ، وخير ما أُرسلت به ، وأعوذ بك من شرها وشر ما أُرسلت به ، اللهم اجعلها رحمة ولا تجعلها عذابًا ، اللهم اجعلها رياحًا ولا تجعلها ريحًا » . وقال الهيثمى فى المجمع [١٣٦/١٠] وفيه حسين بن قيس الملقب بحنش وهو متروك وقد وثقه حصين بن نمير ، وبقية رجاله رجال الصحيح .

○ روى النسائي في الكبرى [٥٠٤/١٨٥/١] عن عائشة رضى الله تعالى عنها قالت : صلاة الآيات ست ركعات وأربع سجدات .

والحديث أخرجه مسلم [٧/٩٠١] بلفظ : أن النبى صلى الله عليه وسلم صلى ست ركعات وأربع سجدات » .

○ ○ ○

○ الاستسقاء هو : طلب سقاية اللَّه تعالى عند حدوث الجدب ، عن عبد اللَّه بن عمر رضى اللَّه تعالى عنه ؛ قال : أقبل علينا رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم ، فقال : « يا معشر المهاجرين ! خمسٌ إذا ابتُليتم بهن ، وأَعوذُ باللَّه أن تُدْرِكُوهُنَّ : لم تظهر الفاحشة فى قوم قط حتى يُعلنُوا بها ، إلا فشا فيهم الطاعُونُ والأوجاعُ التى لم تكن مضت فى أسلافهم الذين مَضَوْا . ولم ينقُصُوا المكيال والميزان ، إلا أُخِذُوا بالسنين وشِدة المئونَةِ وجَوْرِ السلطان عليهم . ولم يمنعوا زكاة أموالهم ، إلا مُنِعُوا القَطْرَ من السماء ، ولولا البهائم لم يُمْطَرُوا . ولم ينقُضُوا عهد اللَّه وعهد رسوله ، إلا سلط اللَّه عليهم عَدُوا من غيرهم ، فأخذوا بعض ما فى أيديهم . وما لم تَحْكُم أئمتهم بكتاب اللَّه ، ويتخيروا مما أنزل اللَّه ، إلا جعل اللَّه بأسهم بينهم » .

○ وروى ابن ماجه [١٢٦٦] عن ابن عباس رضى اللَّه تعالى عنهما قال : خرج رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم متواضعًا ، مُتبذلًا ، مُتخشعًا ، مُترسلًا ، متضرعًا ، فصلى ركعتين ، كما يصلى فى العيد ، ولم يخطب خُطبتكم هذه . وحسنه الألبانى .

○ وروى أبو داود [١١٧٣] عن عائشة رضى اللَّه تعالى عنها قالت : شَكا الناس إلى رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم قُحُوط المطر ، فأمر بمنبر ، فوُضِّع له فى المصلى ، ووعد الناس يوما يخرجون فيه .

قالت عائشة : فخرج رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم حين بَدَا حاجب الشمس ، فقعد على المنبر ، فكبر صلى اللَّه عليه وسلم وحمد اللَّه عز وجل ، ثم قال : « إنكم شكوتم جدب دياركم واستئخار المطر عن إبان زمانه عنكم وقد أمركم اللَّه عز وجل أن تدعوه ، ووعدكم أن يستجيب لكم . =

= ثم قال : « الحمد لله رب العالمين ، الرحمن الرحيم ، مالك يوم الدين ، لا إله إلا الله يفعل ما يُريد ، اللهـم أنت الله ، لا إله إلا أنت الغنى ونحن الفقـراء ، أنزل علينا الغيث ، واجعل ما أنزلت لنا قوة وبلاغًا إلى حين » .

ثم رفع يديه ، فلم يزل فى الرفع حتى بدا بياض إبطيه ، ثم حَول إلى الناس ظهره ، وقلب رداءه ، وهو رافع يديه ، ثم أقبل على الناس ونزل ، فصلى ركعتين ، فأنشأ اللَّه تعالى سحابة . فرعدت ، وبرقت . ثم أمطرت . بإذن اللَّه ، فلم يأت مسجده حتى سالت السيول ، فلما رأى سرعتهم إلى الكنِّ ضحك صلى اللَّه عليه وسلم حتى بدت نواجذه فقال : أشهد أن اللَّه على كل شىء قدير ، وأنى عبد اللَّه ورسوله . وحسنه الألبانى .

○ وأخرج البخارى [١٠١٣] ، ومسلم [٨/٨٩٧] عن أنس رضى اللَّه تعالى عنه أن رجلًا دخل المسجد يوم جمعة ، من باب كان نحو دار القضاء ورسول اللَّه ﷺ قائم يخطب . فاستقبل رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم قائمًا ، ثم قال : يا رسول اللَّه ، هَلَكَت الأموال ، وانقطعت السبل ادع اللَّه عز وجل يُغِيثُنا ، قال : فرفع رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم يديه ، ثم قال : « اللهم أغثنا ، اللهم أغثنا ، اللهم أغثنا » فذكر الحديث . وفيه الدعاء بإمساكها .

○ وأخرج البخارى [١٠١٠] عن أنس ، أن عمر رضى اللَّه تعالى عنه ، كان إذا قُحطوا استسقى بالعباس بن عبد المطلب فقال : اللهم إنا كنا نتوسل إليك بنبينا فتسقينا ، وإنا نتوسل إليك بعم نبينا فاسقنا . قال فيسقون .

○ أخرج مسلم [١٣/٨٩٨] ، وعنه رضى اللَّه تعالى عنه قال : أصابنا - ونحن مع رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم مطر - قال : فَحَسَر رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم ثوبه ، حتى أصابه من المطر ، فقلنا : يا رسول اللَّه لم صنعت هذا ؟ قال : « لأنه حديث عهد بربه تعالى » . =

....

○ ○ ○

= ○ أخرج البخارى [٥١٩/٢] عن عائشة رضى اللَّه تعالى عنها ، أن النبى صلى اللَّه عليه وسلم كان إذا رأى المطر قال : « صَيِّبًا نافعًا » .

○ وروى الطبرانى فى الدعاء [٩٦٨] عن أبى هريرة رضى اللَّه تعالى عنه أن رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم قال : « خرج سُليمان عليه السلام يستسقى ، فرأى نملة مستلقية على ظهرها رافعة قوائمها إلى السماء تقول : اللهم إنا خَلقٌ من خلقك ، ليس بنا غنى عن سُقياك ، فقال : ارجعوا فقد سُقيتُم بدعوة غيركم »[1] .

---

(١) إسناده ضعيف لضعف زيد العمى ، وروى الحاكم [١٢١٥/٤٧٣/١] ، والدارقطنى [١/٦٦/٢] عن أبى هريرة رضى اللَّه تعالى عنه قال :
قال رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم : « خرج نبى من الأنبياء يستسقى فإذا هو بنملة رافعة بعض قوائمها إلى السماء .
فقال : « ارجعوا فقد استجيب لكم من أجل شأن النملة » .
وقال الحاكم : هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه ، ووافقه الذهبى .

○ أخرج البخارى [٦٤٩] ، وأخرج مسلم [٢٤٩/٦٥٠] عن عبد اللَّه بن عمر رضى اللَّه تعالى عنهما أن رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم قال : « صلاة الجماعة أفضل من صلاة الفَذِّ بسبع وعشرين درجة » .

○ وأخرج البخارى [٦٤٤] ، ومسلم [٢٥١/٦٥١] ، عن أبى هريرة رضى اللَّه تعالى عنه أن رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم قال : « والذى نفسى بيده لقد هممت أن آمُرَ بحطب فيُحتطب ، ثم آمر بالصلاة فيُؤَذَّنَ لها ، ثم آمر رجلًا فيَؤُمَّ الناس ، ثم أُخالف إلى رجال فَأُحرق عليهم بيوتهم ، والذى نفسى بيده لو يعلم أحدهم أنه يجد عرقًا سمينا أو مرماتين حسنتين لشهد العشاء » .

○ وأخرج مسلم [٢٥٢/٦٥١] عن أبى هريرة رضى اللَّه تعالى عنه قال : قال رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم : « أثقل الصلاة على المنافقين : صلاة العشاء ، وصلاة الفجر ، ولو يعلمون ما فيهما لأتوهما ولو حبوًا » .

○ وأخرج مسلم [٢٥٥/٦٥٣] عن أبى هريرة رضى اللَّه تعالى عنه قال : أتى النبى ﷺ رجل أعمى فقال : يا رسول اللَّه ، إنه ليس لى قائد يقودنى إلى المسجد ، فسأل رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم أن يرخص له فرَخَّصَ له ، فلما ولى دعاه ، فقال : « هل تسمع النداء بالصلاة ؟ » فقال : نعم . قال : « فأجب » .

○ وروى ابن ماجه [٧٩٣] عن ابن عباس رضى اللَّه تعالى عنه ، عن النبى صلى اللَّه عليه وسلم قال : « من سمع النداء فلم يأته فلا صلاة له إلا من عذر » ، وصححه الألبانى .

○ وروى أحمد فى المسند [١٦١/٤] عن يزيد بن الأسود عن أبيه ، أنه صلى مع رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم صلاة الصبح – عنى وهو غلام شاب – ، فلما صلى رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم ، إذا هو برجلين لم يُصليا ، فدعا =

= بهما ، فجيء بهما ترعُدُ فرائصهما ، فقال لهما : « ما منعكما أن تُصليا معنا ؟ » قالا : قد صلينا في رحالنا . قال : « فلا تفعلا ، إذا صليتم في رحالكم ثم أدركتم الإمام لم يُصل فصليا معه ، فهي لكم نافلة » وقال : الأرناؤوط إسناده صحيح .

○ أخرج مسلم [٤١٧/ ٨٩] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إنما جُعل الإمام ليؤتم به ، فإذا كبر فكبروا ، وإذا ركع فاركعوا ، وإذا قال سمع الله لمن حمده ، فقولوا : اللهم ربنا لك الحمد ، وإذا صلى قائمًا فصلوا قيامًا ، وإذا صلى قاعدًا فصلوا قُعُودًا أجمعون » .

○ أخرج مسلم [٤٣٨ / ١٣٠] عن أبي سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى في أصحابه تأخرًا . فقال : « تقدموا فأتموا بي ، وليأتم بكم من بعدكم » رواه مسلم .

○ أخرج البخاري [٧٣١] عن زيد بن ثابت رضي الله تعالى عنه قال : اتخذ رسول الله حجرة قال - حسب أنه قال من حصير - في رمضان فصلى فيها ليالي فصلى بصلاته ناس من أصحابه ... الحديث ، وفيه : « أفضل صلاة المرء في بيته إلا المكتوبة » .

○ أخرج مسلم [٤٦٥/١٧٨] عن جابر بن عبد الله رضي الله تعالى عنهما أنه قال : صلى مُعاذ بن جبل الأنصاري لأصحابه العشاء فطول عليهم ، فانصرف رجل منا ، فصلى فأخبر معاذ عنه فقال إنه منافق ، فلما بلغ ذلك الرجل دخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبره ماقال معاذ . فقال النبي ﷺ : « أتريد أن تكون فتّانًا يا مُعاذ ؟ إذا أَممت الناس فاقرأ بـ ﴿ وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا ﴾ ، و ﴿ سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴾ ، و ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ﴾ و ﴿ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ﴾ » .

○ أخرج مسلم [٤١٨/٩٥] عن عائشة رضي الله تعالى عنها - في قصة صلاة رسول الله صلى الله عليه وسلم بالناس وهو مريض - قالت : فجاء رسول الله =

= صلى الله عليه وسلم حتى جلس عن يسار أبى بكر قالت : فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلى بالناس جالسًا وأبو بكر قائمًا ، يقتدى أبو بكر بصلاة النبى صلى الله عليه وسلم ، ويقتدى الناس بصلاة أبى بكر .

○ أخرج مسلم [٤٦٧/ ١٨٣] عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « إذا أم أحدُكم الناس فليخفف ، فإن فيهم الصغير والكبير والضعيف والمريض ، فإذا صلى وحده فليصل كيف شاء ».

○ أخرج البخارى [٤٣٠٢] عن عمرو بن سلمة قال : قال أَبى : جئتكم من عند النبى صلى الله عليه وسلم حقًّا . فقال : « صلوا صلاة كذا فى حين كذا ، وصلوا صلاة كذا فى حين كذا ، فإذا حَضَرَت الصلاة فليؤذن أحدكم ، وليؤمكم أكثركم قُرآنا » فنظروا فلم يكن أحدٌ أكثر قُرآنًا منى ، لما كنت أتلقى من الركبان فقدمونى بين أيديهم ، وأنا ابن ست أو سبع سنين .

○ أخرج مسلم [٦٧٣/٢٩٠] عن ابن مسعود رضى الله تعالى عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يؤُم القوم أقرؤهم لكتاب الله تعالى ، فإن كانوا فى القراءة سواء فأعلمهم بالسنة ، فإن كانوا فى السنة سواء فأقدمهم هجرة ، فإن كانوا فى الهجرة سواء فأقدمهم سِلْمًا – وفى رواية : سِنًّا – ولا يؤُمّن الرجل الرجل فى سلطانه ، ولا يقعد فى بيته على تكرمته إلا بإذنه » .

○ روى أبو دواد [٦٦٧] عن أنس رضى الله تعالى عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « رُصّوا صُفُوفَكُم ، وقاربوا بينها ، وحاذوا بالأعناق » . وصححه الألبانى .

○ أخرج مسلم [٤٤٠/١٣٢] عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « خير صفوف الرجال أولها ، وشرها آخرها ، وخير صفوف النساء آخرها ، وشرها أولها » . =

....

=○ وأخرج البخارى [٦٣١٦] ومسلم [١٨٨/٧٦٣] عن ابن عباس رضى اللّه تعالى عنهما قال : « بت ليلة عند خالتى ميمونة فقام النبى صلى اللّه عليه وسلم من الليل .. الحديث ، وفيه فقام فصلى . فقمت عن يساره فأخذ بيدى فأدارنى عن يمينه .. » .

○ أخرج البخارى [٨٧١] عن أنس رضى اللّه تعالى عنه قال : صلى النبى صلى اللّه عليه وسلم ، فى بيت أم سليم فقمت ويتيم خلفه ، وأم سُليم خلفنا .

○ أخرج البخارى [٧٨٣] عن أبى بَكَرَة رضى اللّه تعالى عنه ، أنه انتهى إلى النبى صلى اللّه عليه وسلم ، وهو راكع ، فركع قبل أن يصل إلى الصف فذكر ذلك للنبى صلى اللّه عليه وسلم ، فقال له النبى صلى اللّه عليه وسلم : « زادك اللّه حِرْصًا ولا تَعُد » .

○ وزاد أبو داود [٦٨٤] : « أيكم الذى ركع دون الصف ، ثم مشى إلى الصف » . وصححه الألبانى .

○ روى أبو داود [٦٨٢] عن وابصة بن معبد رضى اللّه تعالى عنه ، أن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم رأى رجلًا يُصلى خلف الصف وحده ، فأمره أن يُعيد الصلاة . وصححه الألبانى .

○ أخرج البخارى [٦٣٦] عن أبى هريرة رضى اللّه تعالى عنه قال : قال النبى صلى اللّه عليه وسلم : « إذا سمعتم الإقامة فامشوا إلى الصلاة ، وعليكم بالسكينة والوقار ، ولا تُسرعوا ، فما أدركتم فصلوا ، وما فاتكم فأتموا » .

○ روى أبو دواد [٥٥٤] عن أبى بن كعب رضى اللّه تعالى عنه قال : قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : « صلاة الرجل مع الرجل أزكى من صلاته وحده ، وصلاته مع الرجلين أزكى من صلاته مع الرجل ، وما كَثُر فهو أحب إلى اللّه تعالى » وحسنه الألبانى . =

....

○ ○ ○

=○ وروى أحمد [٦/٤٠٥] عن أم ورقة رضى اللَّه تعالى عنها أن النبى صلى اللَّه عليه وسلم أمرها أن تؤم أهل دارها [1] .

○ وروى أبو داود [٥٩٥] عن أنس رضى اللَّه تعالى عنه ، أن النبى صلى اللَّه عليه وسلم استخلف ابن أم مكتوم يَؤُم الناس ، وهو أعمى .

وقال الألبانى : حسن صحيح .

(١) ورواه البيهقى فى الكبرى [٣/١٣٠/٥١٣٦] وأبو داود [٥٩٢] وحسنه الألبانى .

○ أخرج البخارى [١٠٩٠] ومسلم [١/٦٨٥] عن عائشة رضى اللَّه تعالى عنها قالت : أول ما فُرضت الصلاة ركعتين ، فأُقِرت صلاة السفر وأُتمت صلاة الحَضَر .

○ روى أحمد فى المسند [١٠٨/٢] عن ابن عُمر رضى اللَّه تعالى عنهما قال : قال رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم : « إن اللَّه تعالى يُحب أن تُؤتى رُخصةُ كما يكره أن تُؤتى مَعصيتُه » . وقال الأرناؤوط : حديث صحيح .

○ وروى ابن حبان فى صحيحه [٣٥٤] عن ابن عباس رضى الله تعالى عنها قال : قال رسول الله صلى اللَّه عليه وسلم : « إن الله يحب أن تؤتى رخصه كما يُحب أن تُؤتى عزائمه » . وقال الأرناؤوط : إسناده صحيح .

○ وروى مسلم [١٢/٦٩١] عن أنس رضى اللَّه تعالى عنه قال : كان رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم إذا خرج مَسِيرَةَ ثلاثة أميال ، أو فَرَاسخ ، صلى ركعتين .

○ وأخرج البخارى [١٠٨١] ومسلم [١٥/٦٩٣] عن أنس رضى اللَّه تعالى عنه قال : خَرجنا مع رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم من المدينة إلى مكة . فكان يصلى ركعتين ركعتين حتى رجعنا إلى المدينة .. قلت : أقمتم بمكة شيئًا ؟ قال : أقمنا بها عشرًا .

○ وأخرج البخارى [١٠٨٠] عن ابن عباس رضى اللَّه تعالى عنهما قال : أقام النبى صلى اللَّه عليه وسلم : تِسْعة عشر يوما يَقصُرُ . فنحن إذا سافرنا تسعة عشر قصرنا ، وإن زدنا أتممنا .

○ وروى أبو داود [١٢٣٥] عن جابر بن عبد الله رضى اللَّه تعالى عنه قال : أقام رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم بتبوك عشرين يوما يقصر الصلاة . وصححه الألبانى .

=

....

○ ○ ○

= ○ وأخرج البخارى [١١١١] ومسلم [٤٦/٧٠٤] عن أنس رضى اللَّه تعالى عنه قال : كان رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم إذا ارتحل فى سفره قبل أن تَزِيغَ الشمس أخر الظهر إلى وقت العصر ، ثم نزل فجمع بينهما ، فإن زاغت الشمس قبل أن يرتحل صلى الظهر ثم ركب .

○ أخرج مسلم [٥٢/٧٠٦] عن معاذ رضى اللَّه تعالى عنه قال : خَرجنا مع النبى صلى اللَّه عليه وسلم فى غَزوة تبوك . فكان يصلى الظهر والعصر جميعًا والمغرب والعشاء جميعًا .

○ أخرج البخارى [١١١٧] عن عِمران بن حُصين رضى اللَّه تعالى عنه قال : كانت بى بواسير فسألت النبى صلى اللَّه عليه وسلم عن الصلاة ، فقال : « صلِّ قائمًا ، فإن لم تستطع فقاعدًا ، فإن لم تستطع فعلى جَنْبٍ » . .

○ وروى ابن خزيمة فى صحيحه [٩٧٨/٨٩/٢] والحاكم فى المستدرك [٩٤٧/٣٨٩/١] والنسائى فى المجتبى [١٦٦١] عن عائشة رضى اللَّه تعالى عنها قالت : رأيت النبى صلى اللَّه عليه وسلم يصلى مُتَرَبعًا وقال الحاكم حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه ووافقه الذهبى .

صلاة الحرب والخوف وقصر الصلاة

لأهمية الصلاة نجد أن الحق سبحانه وتعالى يحذرنا من أن يشغلنا عنها أى شاغل حتى لو كانت الحرب ، بل على العكس من ذلك ففى الحرب يكون أولى بالمسلم أن يلتحم بمنهج اللّٰه سبحانه وتعالى ، ومن ثم فقد شرع الحق سبحانه صلاة الخوف فى الحرب ، كما شرع قصر الصلوات فى السفر لئلا تكون مشقة السفر داعيًا لإهمال الصلاة قال الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا۟ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ كَانُوا۟ لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴾ [النساء : ١٠١] .

والضرب فى الأرض مقصود به أن يمشى المؤمن فى الأرض بصلابة وعزم وقوة ، والقصر فى الصلاة هو اختزال الكمية العددية لركعاتها وهو أن يؤدى المؤمن كلا من صلاة الظهر والعصر والعشاء ركعتين بدلًا من أربع ركعات ، أما الصبح والمغرب فكلاهما على حاله ركعتان وثلاث ركعات ، وهذا هو الثابت فى قصر الصلاة للسفر .

أما وقد شرع اللّٰه سبحانه وتعالى للخوف صلاة وللحرب صلاة فمعنى هذا أنه لا سبيل أبداً لأن ينسى العبد المؤمن إقامة الصلاة إقامة تقتضى ألا ينشغل المقاتلون عن العدو ، وألا يفرطوا أيضًا فى صلاتهم ، أما صلاة الحرب أو الخوف فقد وردت فى القرآن الكريم ، أما صلاة السفر فهى ثابتة بالسنة المطهرة وفيها يقُصر المؤمن من صلاته أيضًا ، ولو رأى الكافرون المؤمنين مصفوفين جميعًا فى الصلاة إنهم يهجمون عليهم هجمة واحدة لذا يأتى الخطاب فى الآية التالية موجهاً للرسول صلى اللّٰه عليه وسلم : ﴿ وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوٓا۟ أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا۟ فَلْيَكُونُوا۟ مِن وَرَآئِكُمْ

﴿وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّوا۟ فَلْيُصَلُّوا۟ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا۟ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ ۗ وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَٰحِدَةً ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَن تَضَعُوٓا۟ أَسْلِحَتَكُمْ ۖ وَخُذُوا۟ حِذْرَكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ [النساء : ١٠٢] .

هذا وقد صلى رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم صلاة الخوف بهيئات متعددة ، فكان يقسم الجيش إلى قسمين قسم يصلى معه وقسم يرقب العدو ويصلى بكل فرقة ركعتين .

أو يصلى بكل فرقة ركعة ثم يسلم ، بعد صلاة الفرقة الأولى الركعة الأولى تخرج وتأتى الثانية فيصلى الركعة وتنتهى الصلاة ثم تكمل كل منهم الركعة الأخرى ويكون الكل نال شرف الصلاة خلف النبى صلى اللّه عليه وسلم وهناك كيفية ثالثة وهى أن تبدأ الطائفة الأولى الصلاة مع النبى صلى اللّه عليه وسلم بركعة ثم يتوقف النبى صلى اللّه عليه وسلم بعد الركعة دون أن يسلم وتكمل الطائفة الأولى صلاة الركعة الثانية وتخرج من الصلاة ثم تأتى الطائفة الثانية لتصلى مع النبى صلى اللّه عليه وسلم الركعة الثانية ثم ينتظر النبى إلى أن تأتى الطائفة الثانية بالركعة الثانية ويسلم فتنال الطائفة الأولى شرف بدء الصلاة مع الرسول صلى اللّه عليه وسلم وتحظى الطائفة الثانية بشرف السلام معه صلى اللّه عليه وسلم [1] .

---

(١) أخرج البخارى [٤١٣٣] ومسلم [٨٣٩/٣٠٥] عن ابن عمر رضى الله تعالى عنهما قال : أن رسول الله صلى اللّه عليه وسلم صلى بإحدى الطائفتين ، والطائقة الأخرى مواجهة العدو ثم انصرفوا فقاموا أصحابهم فجاء أولئك فصلى بهم ركعة ، ثم سلم عليهم ، ثم قام هؤلاء فقضوا ركعتهم .

○ وأخرج مسلم [٨٤٠/٣٠٧] عن جابر بن عبد اللّه رضى الله تعالى عنه قال : شهدت مع رسول الله صلى اللّه عليه وسلم صلاة الخوف . فصفنا صفين : =

= صف خلف رسول الله صلى اللَّه عليه وسلم والعدو بيننا وبين القبلة . فكبر النبى صلى اللَّه عليه وسلم وكبرنا جميعًا . ثم ركع وركعنا جميعًا ثم رفع رأسه من الركوع ورفعنا جميعًا . ثم انحدر بالسجود ، والصف الذى يليه . وقام الصف المؤخر فى نحر العدو . فلما قضى النبى صلى اللَّه عليه وسلم السجود ، وقام الصف الذى يليه ، وانحدر الصف المؤخر بالسجود وقاموا . ثم تقدم الصف المؤخر . وتأخر الصف المقدم . ثم ركع النبى صلى اللَّه عليه وسلم وركعنا جميعًا ثم رفع رأسه من الركوع ورفعنا جميعًا . ثم انحدر بالسجود والصف الذى يليه الذى كان مؤخرًا فى الركعة الأولى . وقام الصف المؤخر فى نحور العدو . فلما قضى النبى صلى اللَّه عليه وسلم السجود والصف الذى يليه . انحدر الصف المؤخر بالسجود . فسجدوا . ثم سلم النبى صلى اللَّه عليه وسلم وسلمنا جميعًا . قال جابر : كما يصنع حَرَسُكُم هؤلاء بأمرائهم .

○ أخرج البخارى [٤١٣١] ومسلم [٣٠٩/٨٤١] عن صالح بن خوات بن جبير عن سهل بن أبى حثمة أن رسول الله صلى اللَّه عليه وسلم صلى بأصحابه فى الخوف فصفهم خلفه صفين . فصلى بالذين يلونه ركعة . ثم قام . فلم يزل قائمًا حتى صلى الذين خلفهم ركعة تقدموا وتأخر الذين كانوا قدامهم . فصلى بهم ركعة . ثم قعد حتى صلى الذين تخلفوا ركعة ثم سلم .

○ وأخرج البخارى [٤١٣٦] ومسلم [٣١١/٨٤٣] عن جابر ؛ قال : أقبلنا مع رسول الله صلى اللَّه عليه وسلم . حتى إذا كنا بذات الرقاع ، قال كنا إذا أتينا على شجرة ظليلة تركناها لرسول الله صلى اللَّه عليه وسلم . قال : فجاء رجل من المشركين وسيف رسول الله صلى اللَّه عليه وسلم معلق بشجرة . فأخذ سيف نبى الله صلى اللَّه عليه وسلم فاخترطه . فقال لرسول الله صلى اللَّه عليه وسلم : أتخافنى ؟ قال : « لا » قال : فمن يمنعك منى ؟ قال : « اللَّه يمنعنى منك » قال : فتهدده أصحاب رسول الله صلى اللَّه عليه وسلم . فأغمد =

= السيف وعلقه . قال فنوى بالصلاة . فصلى بطائفة ركعتين ثم تأخروا . وصلى بالطائفة الأخرى ركعتين . قال : فكانت لرسول الله صلى اللّٰه عليه وسلم أربع ركعات . وللقوم ركعتان .

○ وأخرج البخارى [٩٤٤] عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما قال : قام النبى صلى اللّٰه عليه وسلم وقام الناس معه فكبر وكبروا معه ، وركع وركع ناس منهم ، ثم سجد وسجدوا معه . ثم قام للثانية فقام الذين سجدوا وحرسوا إخوانهم ، وأتت الطائفة الأخرى فركعوا وسجدوا معه ، والناس كلهم فى صلاة ولكن يحرس بعضهم بعضًا .

○ وقال الحافظ فى الفتح : ورد عن النبى ﷺ فى صلاة الخوف كيفيات حملها بعض العلماء على اختلاف الأحوال ، وحملها آخرون على التوسع والتخيير .

○ وقال النووى فى شرح مسلم [٣٩١/٣] والمختار أن هذه الأوجه كلها جائزة بحسب مواطنها . وفيها تفصيل وتفريع مشهور فى كتب الفقه . قال الخطابى : صلاة الخوف أنواع ؛ صلاها النبى صلى اللّٰه عليه وسلم فى أيام مختلفة وأشكال متباينة يتحرى فى كلها ما هو أحوط للصلاة وأبلغ فى الحراسة ، فهى على اختلاف صورها متفقة المعنى ، ثم مذهب العلماء كافة أن صلاة الخوف مشروعة اليوم كما كانت إلا أبا يوسف والمزنى فقالا : لا تشرع بعد النبى صلى اللّٰه عليه وسلم لقول اللّٰه تعالى : ﴿ وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ واحتج الجمهور بأن الصحابة لم يزالوا على فعلها بعد النبى صلى اللّٰه عليه وسلم وليس المراد بالآية تخصيصه صلى اللّٰه عليه وسلم ، وقد ثبت قوله صلى اللّٰه عليه وسلم « صلوا كما رأيتمونى أصلى » [1] .

○ ○ ○

(١) جزء من حديث أخرجه البخارى [٧٢٤٦] .

مواقيت الصلاة والمحافظة عليها[1]

إن المؤمن مطالب بألا يسوف أو يؤخر الصلاة عن وقتها ، وأن يذكر الله سبحانه قائمًا وقاعدًا وعلى جنبه ، وأن تكون الصلاة دائمًا فى بؤرة شعوره ؛ لذا ينبهنا الحق سبحانه إلى ذلك فيقول عز من قائل : ﴿ فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ ۚ فَإِذَا ٱطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَـٰبًا مَّوْقُوتًا ﴾ [النساء : ١٠٣] .

أى : إن الصلاة لها وقت ولا يصح تأخيرها عن وقتها ، صحيح أن وقت صلاة الظهر ممتدة لما قبل صلاة العصر ، ولكن للوقت الأول فضله وثوابه .

وقد يقول قائل ماذا لو جاء وقت الصلاة وأنا أقوم بعمل هام مثلًا ؟ نقول لمثل هؤلاء : أسألكم بالله ماذا تصنعون أثناء هذا العمل الذى تتخيلون أنكم غير قادرين على تركه إذا اضطررتم إلى قضاء الحاجة والذهاب إلى دورة المياه ؛ فماذا تصنعون ؟! إن الله تعالى لا يبارك فى عمل يغنى عن الصلاة ، فأحسنوا توزيع عملكم بما لا يتعارض مع مواقيت الصلاة واعلموا أن الله تعالى يقول : ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ... ۝٣ ﴾ [الطلاق] .

---

(١) المواقيت جمع ميقات ، والمراد به الوقت الذى عينه الله لأداء هذه العبادة ، وهو القدر المحدود للفعل من الزمان .

وقد جاءت هذه المواقيت فى أحاديث حددها النبى ﷺ على النحو التالى :

○ أخرج مسلم [١٧٣/٦١٢] عن عبد الله بن عمرو رضى الله تعالى عنهما ، أن النبى ﷺ قال : « وقت الظهر إذا زالت الشمس ، وكان ظِل الرجل كطوله مالم يحضر العصر ، ووقت العصر مالم تصفر الشمس ، ووقت صلاة المغرب مالم يغب الشفق ، ووقت صلاة العِشاء إلى نصف الليل الأوسط ، ووقت =

= صلاة الصبح من طلوع الفجر مالم تطلع الشمس فإذا طلعت الشمس فأمسك عن الصلاة فإنها تطلع بين قرني شيطان » .

○ وله [١٧٦/٦١٣] من حديث بُريدة في العصر : « والشمس مرتفعة بيضاء نقية » .

○ وله [١٧٨/٦١٤] من حديث أبي مُوسى : « والشمس مرتفعة » .

○ و أخرج البخاري [٥٩٩] عن أبي بَرزَةَ الأسلمي رضي الله تعالى عنه قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يُصلي العصر ، ثم يرجع أحدنا إلى رحله في أقصى المدينة والشمس حية ، وكان يستحب أن يُؤَخر من العشاء ، وكان يكره النوم قبلها والحديث بعدها ، وكان ينفتل من صلاة الغداة حين يعرف الرجل جليسهُ ، وكان يقرأ بالستين إلى المائة .

○ أخرج البخاري [٥٦٥] ومسلم [٢٣٣/٦٤٦] عن جابر رضي الله تعالى عنه قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلي الظهر بالهاجرة والعصر والشمس نقية ، والمغرب إذا وجبت : والعِشاء أحيانًا يؤخرها وأحيانًا يعجل ، كان : إذا رآهم قد اجتمعوا عجّل ، وإذا رآهم قد أبطأوا أَخّرَ ، والصبح ؛ كانوا أو « قال » كان النبي صلى الله عليه وسلم يُصليها بِغَلَس .

○ ولمسلم [١٧٨/٦١٤] من حديث أبي موسى : فأقام الفجر حين انشق الفجر ، والناس لا يَكَادُ يعرف بعضهم بعضًا .

○ وأخرج البخاري [٥٥٩] ومسلم [٢١٧/٦٣٧] عن رافع بن خديج رضي الله تعالى عنه قال : كنا نُصلي المغرب مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فينصرف أحدنا وإنه ليبصر مواقع نبله .

○ وأخرج مسلم [٢١٨/٦٣٨] عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت : أَعْتَمَ النبي صلى الله عليه وسلم ذات ليلة بصلاة ، حتى ذَهَبَ عامة الليل ، وحتى نام أهل المسجد ثم خرج ، فصلى ، فقال : « إنه لوقتها لولا أن أشُق على أمتي . =

والصلاة رزق عبودى يحررك من أى خوف ، وفضلها لا حدود له ؛ لأن الذى فرضها هو ربك وخالقك ، فكيف تبخل على نفسك أن تكون موصولاً بربك ؟!

○ ○ ○

= ○ وأخرج البخارى [٥٧٩] ومسلم [١٦٣/٦٠٨] عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « من أدرك ركعة الصبح قبل أن تطلع الشمس فقد أدرك الصبح ، ومن أدرك ركعةً من العصر قبل أن تغرب الشمس فقد أدرك العصر » .

الأوقات التى نُهى عن الصلاة فيها

○ أخرج مسلم [٢٨٥/٨٢٥] عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه أن رسول الله صلى اللّه عليه وسلم نهى عن الصلاة بعد العصر حتى تغرب الشمس وعن الصلاة بعد الصبح حتى تطلع الشمس .

○وأخرج البخارى [٥٨١] ومسلم [٢٨٦/٨٢٦] عن ابن عباس قال : سمعت غير واحد من أصحاب رسول الله صلى اللّه عليه وسلم منهم عمر بن الخطاب . وكان أحبهم إلىّ ؛ أن رسول الله صلى اللّه عليه وسلم نهى عن الصلاة بعد الفجر حتى تطلع الشمس وبعد العصر حتى تغرب الشمس .

○ وأخرج البخارى [٥٨٦] ومسلم [٢٨٨/٨٢٧] عن أبى سعيد الخدرى رضى الله تعالى عنه قال : قال رسول الله صلى اللّه عليه وسلم : لا صلاة بعد صلاة العصر حتى تغرب الشمس . ولا صلاة بعد صلاة الفجر حتى تطلع الشمس .

○ وأخرج مسلم [٢٩٣/٨٣١] عن عقبة بن عامر الجهنى يقول : ثلاث ساعات كان رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ينهانا أن نصلى فيهن أو أن نقبر فيهن موتانا حين تطلع الشمس بازغة حتى ترتفع وحين يقوم قائم الظهيرة حتى تميل الشمس وحين تضيف الشمس للغروب حتى تغرب .

○ قال النووى فى شرح مسلم [٣٧٤/٣] فى أحاديث الباب نهيه ﷺ عن الصلاة بعد العصر حتى تغرب الشمس وبعد الصبح حتى تطلع الشمس ، وبعد طلوعها حتى ترتفع ، وعند استوائها حتى تزول وعند اصفرارها حتى تغرب ، وأجمعت الأمة على كراهة صلاة لا سبب لها فى هذه الأوقات ؛ واتفقوا على جواز الفرائض المؤداة فيها ، واختلفوا فى النوافل التى لها سبب كصلاة تحية المسجد ، وسجود التلاوة والشكر ، وصلاة العيد والكسوف وفى صلاة الجنازة وقضاء الفوائت ، ومذهب الشافعى وطائفة جواز ذلك كله بلا كراهة ، ومذهب أبى حنيفة وآخرين أنه داخل فى النهى لعموم الأحاديث . واحتج =

....

○○○

= الشافعي وموافقوه بأنه ثبت أن النبي صلى الله عليه وسلم قضى سنة الظهر بعد العصر ، وهذا صريح في قضاء السنة الفائتة ، فالحاضرة أولى والفريضة المقضية أولى ، وكذا الجنازة . هذا مختصر ما يتعلق بجملة أحكام الباب .

الرخصة فى الصلاة بعد العصر وقبل الغروب وقبل المغرب[1]

....

(١) روى النسائى [٥٧٣] عن على رضى الله تعالى عنه قال : نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الصلاة بعد العصر إلا أن تكون الشمس بيضاء نقية مرتفعة . وصححه الألبانى .

○ وله [٥٧٤] عن عائشة رضى الله تعالى عنها ، قالت : ما ترك رسول الله صلى الله عليه وسلم السجدتين بعد العصر عندى قط . وصححه الألبانى .

○ وله [٥٧٧] عن عائشة رضى الله تعالى عنها قالت : صلاتان ما تركهما رسول الله صلى الله عليه وسلم فى بيتى سرًا ولا علانية ركعتان قبل الفجر وركعتان بعد العصر . وقال الألبانى فى صحيح النسائى [٥٦٢] : صحيح .

○ وروى النسائى [٥٨٠] عن أم سلمة رضى الله تعالى عنها قالت : شغل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الركعتين قبل العصر فصلاهما بعد العصر . وقال الألبانى : حسن صحيح .

○ وله عن أم سلمة رضى الله تعالى عنها قالت : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يصلى ركعتين قبل العصر فشغل عنهما فركعهما حين غابت الشمس فلم أره يصليهما قبل ولا بعد . وصححه الألبانى .

○ وله [٥٨٢] عن أبى تميم الجيشانى قام ليركع ركعتين قبل صلاة المغرب فقلت لعقبة بن عامر انظر إلى هذا ! أى صلاة يصلى ؟ فالتفت إليه فرآه فقال هذه صلاة كنا نصليها على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم . وصححه الألبانى .

○○○

الصلاة فى الكعبة فى أى وقت شاء[1]

---

(١) روى الترمذى [٨٦٨] عن جُبير بن مطعم قال : قال رسول الله ﷺ : « يابنى عبد مناف ، لا تمنعوا أحدًا طاف بهذا البيت وصلى أَيَّةَ ساعة شاء من ليل أو نهار » .
وصححه الألبانى .

○ وقال الترمذى : وقد اختلف أهل العلم فى الصلاة بعد العصر وبعد الصبح بمكة : فقال بعضهم : لابأس بالصلاة والطواف بعد العصر وبعد الصبح .
وهو قول الشافعى ، وأحمد ، وإسحاق ، واحتجوا بحديث النبى ﷺ هذا .
وقال بعضهم : إذا طاف بعد صلاة العصر لم يصل حتى تغرب الشمس ، وكذلك إن طاف بعد صلاة الصبح أيضًا لم يصل حتى تطلع الشمس ، واحْتَجُّوا بحديث عمر ؛ أنه طاف بعد صلاة الصبح فلم يصل ، وخرج من مكة حتى نزل بذى طوى فصلى بعد ما طلعت الشمس . وهو قول سفيان الثورى ، ومالك بن أنس .

○ قال المباركفورى فى تحفة الأحوذى قوله : « يا بنى عبد مناف » خصهم بالخطاب دون سائر قريش لعلمه بأن ولاية الأمر والخلافة ستؤول إليهم مع أنهم رؤساء مكة وفيهم كانت السدانة والحجابة واللواء والسقاية والرفادة . قاله الطيبى « لا تمنعوا أحدًا طاف بهذا البيت » يعنى وهو قابل للتقييد بغير الأوقات المنهية إذ سبق النهى أو الصلاة بمعنى الدعاء انتهى .
قلت الظاهر أن صلاة الطواف مستثناة من الأوقات المنهية . قال المظهر : فيه دليل على أن صلاة التطوع فى أوقات الكراهة غير مكروهة بمكة لشرفها لينال الناس من فضلها فى جميع الأوقات ، وبه قال الشافعى ، وعند أبى حنيفة حكمها حكم سائر البلاد فى الكراهة لعموم العلة وشمولها . قال ابن الملك : والظاهر أن المراد بقوله وصلى أية ساعة شاء فى الأوقات الغير مكروهة توفيقًا بين النصوص انتهى .
=

....

○○○

= قلت : التوفيق بين النصوص ليس بمنحصر فى هذا ، قال الخطابى : واستدل به الشافعى على أن الصلاة جائزة بمكة فى الأوقات المنهى فيها عن الصلاة فى سائر البلدان ، واحتج له أيضًا بحديث أبى ذر قوله : إلا بمكة ، فاستثناه من بين البقاع .

وذهب بعضهم إلى تخصيص ركعتى الطواف من بين الصلاة ، قالوا إذا كان الطواف بالبيت غير محظور فى شىء من الأوقات وكان من سنة الطواف أن تصلى الركعتان بعده فقد عقل أن هذا النوع من الصلاة غير منهى عنه انتهى .

قلت : حديث أبى ذر الذى أشار إليه الخطابى هو ما رواه أحمد ورزين عنه بلفظ قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : لا صلاة بعد الصبح حتى تطلع الشمس ولا بعد العصر حتى تغرب الشمس إلا بمكة إلا بمكة إلا بمكة ، وسنده ضعيف وهو يؤيد حديث الباب .

تحفة الأحوذى [٣/٥١٤ - ٥١٥] .

والحديث رواه النسائى [٥٨٥] و[٢٩٢٤] وابن ماجة [١٢٥٤] وصححه الألبانى .

فضل الصلاة لوقتها

○ أخرج البخارى [٥٢٧] عن عبد اللّه بن مسعود رضى اللّه تعالى عنه قال : سألت رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : أى العمل أحب إلى اللّه تعالى ؟ قال : « الصلاة على وقتها » . قلت : ثم أى ؟ قال : « بر الوالدين » . قلت : ثم أى ؟ قال : « الجهاد فى سبيل اللّه » .

○ وأخرج مسلم [١٣٨/٨٥] عن عبد اللّه بن مسعود رضى اللّه تعالى عنه قال : سألت رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : أى العمل أفضل ؟ قال : الصلاة لوقتها . قلت : ثم أى ؟ قال : بر الوالدين ، قلت : ثم أى ؟ قال : الجهاد فى سبيل اللّه فما تركت أستزيده إلا إرعاء عليه .

○ وأخرج مسلم [١٤٠/٨٥] عن عبد اللّه عن النبى صلى اللّه عليه وسلم قال : أفضل الأعمال أو العمل الصلاة لوقتها وبر الوالدين .

○ وأخرج مسلم [٢٧٤/ ١٠٥] عن المغيرة بن شعبة أنه غزا مع رسول الله صلى اللّه عليه وسلم تبوك فتبرز رسول الله صلى اللّه عليه وسلم قبل الغائط فحملت معه إداوة قبل صلاة الفجر فلما رجع رسول الله صلى اللّه عليه وسلم إلى أخذت أهريق على يديه من الإداوة وغسل يديه ثلاث مرات ثم غسل وجهه ثم ذهب يخرج جبته عن ذراعيه فضاق كما جبته فأدخل يديه فى الجبة حتى أخرج ذراعيه من أسفل الجبة وغسل ذراعيه إلى المرفقين ثم توضأ على خفية ثم أقبل فأقبلت معه حتى نجد الناس قد قدموا عبد الرحمن بن عوف فصلى لهم فأدرك رسول الله صلى اللّه عليه وسلم إحدى الركعتين فصلى مع الناس الركعة الآخرة فلما سلم عبد الرحمن بن عوف قام رسول الله صلى اللّه عليه وسلم يتم صلاته فأفزع ذلك المسلمين فأكثروا التسبيح فلما قضى النبى صلى اللّه عليه وسلم صلاته أقبل عليهم ثم قال أحسنتم أو قال قد أصبتم يغبطهم أن صلوا الصلاة لوقتها . =

....

=○ وأخرج مسلم [٦٤٨/٢٣٨] عن أبي ذر رضي الله تعالى عنه قال : قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم : كيف أنت إذا كانت عليك أمراء يؤخرون الصلاة عن وقتها أو يميتون الصلاة عن وقتها ؟ قلت فما تأمرني ؟ قال صل الصلاة لوقتها فإن أدركتها معهم فصل فإنها لك نافلة .

○ وأخرج مسلم [٦٤٨/٢٣٩] عن أبي ذر رضي الله تعالى عنه قال : قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم يا أبا ذر إنه سيكون بعدي أمراء يميتون الصلاة فصل الصلاة لوقتها فإن صليت لوقتها كانت لك نافلة وإلا كنت قد أحرزت صلاتك .

وروى أبو داود [٤٢٥] عن عبادة بن الصامت رضي الله تعالى عنه قال : أشهد أني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « خمس صلوات افترضهن الله عز وجل ، من أحسن وضوءهن وصلاهن لوقتهن وأتم ركوعهن وسجودهن وخشوعهن كان له على الله عهد أن يغفر له ، ومن لم يفعل فليس له على الله عهد ، إن شاء غفر له ، وإن شاء عذبه » وصححه الألباني .

○ وروى أبو داود [٤٣٣] عن عبادة بن الصامت رضي الله تعالى عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إنها ستكون عليكم بعدي أمراء تشغلهم أشياء عن الصلاة لوقتها حتى يذهب وقتها فصلوا الصلاة لوقتها فقال رجل يا رسول الله أصلي معهم قال نعم إن شئت ، وقال سفيان الثوري : إن أدركتها معهم أأصلي معهم قال نعم إن شئت وصححه الألباني .

○ وروى النسائي [٦١٧] عن أبي قتادة رضي الله تعالى عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما ناموا عن الصلاة حتى طلعت الشمس قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : فليصلها أحدكم من الغد لوقتها . وصححه الألباني .

وروى النسائي [٧٧٩] عن عبد الله رضي الله تعالى عنه قال : قال : رسول الله صلى الله عليه وسلم لعلكم ستدركون أقوامًا يصلون الصلاة لغير وقتها فإن أدركتموهم فصلوا الصلاة لوقتها وصلوا معهم واجعلوها سبحة . وقال الألباني : حسن صحيح . =

=○ وروى الدارمى [١٢٦٦] عن كعب رضى الله تعالى عنه قال : خرج علينا رسول الله صلى اللّٰه عليه وسلم ونحن فى المسجد سبعة ، منا ثلاثة من عربنا وأربعة من موالينا أو أربعة من عربنا وثلاثة من موالينا ، قال فخرج علينا النبى صلى اللّٰه عليه وسلم من حجرة حتى جلس إلينا فقال ما يجلسكم ههنا قلنا انتظار الصلاة قال فنكت بأصبعه فى الأرض ونكس ساعة ثم رفع إلينا رأسه فقال هل تدرون ما يقول ربكم قال قلنا الله ورسوله أعلم قال إنه يقول من صلى الصلاة لوقتها فأقام حدها كان له بها علىَّ عهد أدخله الجنة ومن لم يصل الصلاة لوقتها ولم يقم حدها لم يكن له عندى عهد إن شئت أدخلته النار وإن شئت أدخلته الجنة .

○ وروى أحمد فى المسند [٣/٤٤٦] عن عاصم بن عبيد الله رضى الله تعالى عنه أن النبى صلى اللّٰه عليه وسلم قال سيكون أمراء بعدى يصلون الصلاة لوقتها ويؤخرونها فصلوها معهم ، فإن صلوها لوقتها وصليتموها معهم فلكم ولهم ، وإن أخروها عن وقتها وصليتموها معهم فلكم وعليهم ، من فارق الجماعة مات ميتة جاهلية ، ومن نكث العهد فمات ناكثا للعهد جاء يوم القيامة لا حجة له .
وقال الأرناؤوط : بعضه صحيح لغيره وهذا إسناد ضعيف لضعف عاصم بن عبيد اللّٰه وباقى رجال الإسناد ثقات رجال الشيخين .

○ وروى أحمد فى المسند [٤/٢٤٤] عن كعب بن عجرة رضى اللّٰه تعالى عنه قال : بينما أنا جالس فى مسجد رسول الله صلى اللّٰه عليه وسلم مسندى ظهورنا إلى قبلة مسجد رسول الله صلى اللّٰه عليه وسلم سبعة رهط : أربعة من موالينا ، وثلاثة من عربنا ، إذ خرج إلينا رسول الله صلى اللّٰه عليه وسلم صلاة الظهر حتى انتهى إلينا ، فقال : ما يجلسكم ههنا ؟ قلنا : يا رسول الله ننتظر الصلاة قال : فأَرَمَّ قليلا ، ثم رفع رأسه فقال : أتدرون ما يقول ربكم عز وجل قال : قلنا : الله ورسوله أعلم . قال : فإن ربكم عز وجل يقول : =

....

○○○

= من صلى الصلاة لوقتها ، وحافظ عليها ، ولم يضيعها استخفافًا بحقها فله عليَّ عهد أن أدخله الجنة ومن لم يصلها لوقتها ولم يحافظ عليها وضيعها استخفافا بحقها فلا عهد له ، إن شئت عذبته ، وإن شئت غفرت له .

وقال الأرناؤوط : مرفوعه صحيح لغيره ، وهذا إسناده ضعيف لانقطاعه .

○ وروى ابن حبان فى صحيحه [٥٩٦٤] عن أبى ذر رضى الله تعالى عنه قال : أوصانى خليلى صلى اللّٰه عليه وسلم بثلاث أن أسمع وأطيع ولو لعبد حبشى مجدع الأطراف وإذا صنعت مرقة فأكثر ماءها ثم انظر جيرانك فأنلهم منها بمعروف وصل الصلاة لوقتها فإن أتيت الإمام وقد صلى كنت قد أحرزت صلاتك وإلا فهى لك نافلة . قال الأرناؤوط : إسناده صحيح على شرط مسلم .

○ وروى ابن حبان فى صحيحه [١٥٥٨] عن عبد اللّٰه رضى اللّٰه تعالى عنه عن رسول الله صلى اللّٰه عليه وسلم قال : إنها ستكون أمراء يسيئون الصلاة يخنقونها إلى شرق الموتى فمن أدرك ذلك منكم فليصل الصلاة لوقتها وليجعل صلاته معهم سبحة . وقال الأرناؤوط : إسناده صحيح على شرط مسلم .

فضل الصلوات

إن فرض الصلاة يُعد مكرمة لأمة محمد صلى اللّه عليه وسلم ، ومن معانى الصلاة فى اللغة الدعاء : كما فى قوله سبحانه ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ ﴾ [التوبة : ١٠٣] أى : وادع لهم ؛ إن دعاءك سكن لهم .

وقد نبهنا الرسول صلى اللّه عليه وسلم إلى أن « أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد ، فأكثروا الدعاء »(١) وإذا كان السجود مظهرًا من مظاهر الذل والخشوع والخضوع للّه ، فإنك بالسجود هذا تكون أقرب ما تكون إلى ربك كما علمنا الرسول صلى اللّه عليه وسلم وفى هذا المعنى يقول الشاعر طاهر أبو فاشا كلام جميل :

يا إلهى شـــاقنى هذا الوجـود   تلك دنيـــاك فما بال الخـــلود

عزّ قدرى بك فى ذاك السجود   أنت إن ترضى كفـــانى مغنمًا

ولأهمية الصلاة نجد أنها تبقى مع الإنسان إلى آخر عهده بالحياة ، وقد أخذت الصلاة أهميتها فى التشريع على قدر أهميتها فى التكليف ، وكل تكاليف الإسلام قد جاءت بواسطة الوحى إلا الصلاة ، فقد جاءت بالتكليف المباشر من اللّه سبحانه وتعالى لنبيه محمد صلى اللّه عليه وسلم عند سدرة المنتهى ، وهذه اللفتة من اللّه تبارك وتعالى تعد تشريفًا لأمة محمد صلى اللّه عليه وسلم حيث شرعت الصلاة من مقام القرب : قرب محمد صلى اللّه عليه وسلم من ربه .

لذلك جعل اللّه الصلاة المفروضة فى القرب وسيلة لقرب أمة الرسول صلى اللّه عليه وسلم جميعاً ولذلك فهى الباقية .

---

(١) أخرجه مسلم [٤٨٢/٢١٥] عن أبى هريرة رضى اللّه تعالى عنه .

يروى أن الإمام عليا رضى الله تعالى عنه سأل بعض الصحابة : أى آية فى كتاب الله أرجى عندكم ؟

فقال البعض : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴾ [النساء : ١١٦] .

وقال البعض : ﴿ وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ [النساء : ١١٠] .

وقال البعض : ﴿ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ ﴾ [الزمر : ٥٣] .

وقال البعض : ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ [آل عمران : ١٣٥][1] .

---

(١) ورد فى الحديث أن أرجى آية فى كتاب الله تعالى هى : ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ ﴾ [الشورى : ٣٠] . وقال علىّ رضى الله تعالى عنه : هذه الآية أرجى آية فى كتاب الله عز وجل . وإذا كان يكفر عنى بالمصائب ويعفو عن كثير فما يبقى بعد كفارته وعفوه ! وقد روى هذا المعنى مرفوعًا عنه رضى الله تعالى عنه ، قال : ألا أخبركم بأفضل آية فى كتاب الله حدثنا بها النبى صلى الله عليه وسلم : ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ ﴾ الآية : « يا علىّ ما أصابكم من مرض أو عقوبة أو بلاء فى الدنيا فبما كسبت أيديكم . والله أكرم من أن يثنى عليكم العقوبة فى الآخرة وما عفا عنه فى الدنيا فالله أحلم من أن يعاقب به بعد عفوة » .

وقال علىّ رضى الله تعالى عنه لأهل العراق : إنكم تقولون إن أرجى آية فى كتاب الله تعالى : ﴿ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ ﴾ [الزمر : ٥٣] . قالوا : إنا نقول ذلك .

=

....

= قال : ولكنا أهل البيت نقول : إن أرجى آية فى كتاب اللّه قوله تعالى : ﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ﴾ [الضحى : ٥] .
وفى الحديث لما نزلت هذه الآية قال النبى صلى اللّه عليه وسلم : « إذًا واللّه لا أرضى وواحد من أمتى فى النار » .
وقال ابن المبارك : أرجى آية فى كتاب اللّه قول اللّه تعالى : ﴿ وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُوا۟ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓا۟ أُو۟لِى ٱلْقُرْبَىٰ ﴾ [النور : ٢٢] .
ذكره مسلم فى حديث الإفك [٥٦/٢٧٧٠] ، وانظر فتح البارى [٨/ ٥٢٧،٤٧٨] .
وقال ابن عباس : أرجى آية فى كتاب اللّه تعالى : ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ ۖ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ [الرعد : ٦] إذا أصروا على الكفر .
وروى حماد بن سلمة عن علىّ بن زيد عن سعيد بن المسيب قال : لما نزلت : ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ ۖ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : « لولا عفو اللّه ورحمته وتجاوزه لما هنأ أحدًا عيش ولولا عقابه ووعيده وعذابه لاتكل كل أحد » .
قال عبد اللّه بن المبارك : هذه أرجى آية فى كتاب اللّه تعالى ؛ فقال أبو بكر رضى اللّه تعالى عنه : واللّه إنى لأحب أن يغفر اللّه لى ؛ فرجع إلى مسطح النفقة التى كان ينفق عليه وقال : لا أنزعها منه أبدًا .
قيل : أرجى آية فى كتاب اللّه عز وجل قوله تعالى : ﴿ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴾ [الأحزاب : ٤٧] . وقد قال تعالى فى آية آخرى ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِى رَوْضَاتِ ٱلْجَنَّاتِ ۖ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴾ [الشورى : ٢٢] ؛ فشرح الفضل الكبير فى هذه الآية ، وبشر به المؤمنين فى تلك . =

فقال الإمام عليّ : كل ذلك صحيح ولكن ليست هى التى أقصد وصمت القوم وأحجموا .

فقال الإمام : ما بالكم يا معشر المسلمين لماذا سكتم ؟ فقالوا : لا شيء .

وهكذا جعل الإمام على رضى الله تعالى عنه القوم فى شوق لمعرفة تلك الآية فاشرأبت أعناقهم وأرهفوا السمع فقال عليّ رضى الله تعالى عنه : أرجى آية فى كتاب الله هى قول الحق سبحانه : ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ ۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴾ [هود : ١١٤] (١) .

= ومن آيات الرجاء قوله تعالى : ﴿ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ ﴾ .

وقوله سبحانه وتعالى : ﴿ ٱللَّهُ لَطِيفٌۢ بِعِبَادِهِۦ ﴾ [الشورى : ١٩] .

وقال بعضهم : أرجى آية فى كتاب الله عز وجل : ﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ﴾ [الضحى : ٥] ؛ وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يرضى ببقاء أحد من أمته فى النار .

(١) قال عليّ بن أبى طلحة عن ابن عباس ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ ﴾ قال يعنى الصبح والمغرب ، وكذا قال الحسن وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم .

وقال الحسن فى رواية وقتادة والضحاك وغيرهم هى الصبح والعصر .

وقال مجاهد هى الصبح فى أول النهار والظهر والعصر مرة أخرى .

﴿ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ ۚ ﴾ قال ابن عباس ومجاهد والحسن وغيرهم يعنى صلاة العشاء .

وقال الحسن فى رواية ابن المبارك عن مبارك بن فضالة عنه ﴿ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ ۚ ﴾ يعنى المغرب والعشاء قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « هما زلفا الليل المغرب والعشاء » وكذا قال مجاهد ومحمد بن كعب وقتادة والضحاك إنها صلاة المغرب والعشاء . =

= وكذا قال مجاهد ومحمد بن كعب وقتادة والضحاك إنها صلاة المغرب والعشاء .
وقد يحتمل أن تكون هذه الآية نزلت قبل فرض الصلوات الخمس ليلة الإسراء فإنه إنما كان يجب من الصلاة صلاتان . صلاة قبل طلوع الشمس وصلاة قبل غروبها ، وفى أثناء الليل قيام عليه وعلى الأمة ثم نسخ فى حق الأمة وثبت وجوبه عليه ثم نسخ عنه أيضًا فى قول والله أعلم .
وقوله : ﴿ إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ ﴾ يقول إن فعل الخيرات يكفر الذنوب السالفة كما جاء فى الحديث الذى رواه أحمد فى المسند [٢/١] والترمذى [٤٠٦] وابن ماجه [١٣٩٥] وأهل السنن عن أمير المؤمنين علىّ بن أبى طالب قال : كنت إذا سمعت من رسول الله حديثًا نفعنى الله بما شاء أن ينفعنى منه ، وإذا حدثنى عنه أحد استحلفته فإذا حلف لى صدقته ، وحدثنى أبو بكر وصدق أبو بكر أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « ما من رجل يذنب ذنبًا فيتوضأ ويصلى ركعتين إلا غفر له » وقال الأرناؤوط إسناده صحيح .
وأخرجه مسلم [٤/٢٢٦] عن أمير المؤمنين عثمان بن عفان أنه توضأ لهم كوضوء رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال : هكذا رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يتوضأ وقال : « من توضأ نحو وضوئى هذا ثم صلى ركعتين لا يحدث فيهما نفسه غفر له ما تقدم من ذنبه » .
○ وروى أحمد فى المسند [٧١/١] عن الحارث مولى عثمان قال : جلس عثمان يومًا وجلسنا معه فجاءه المؤذن فدعا بماء فى إناء أظنه سيكون فيه مد فتوضأ . ثم قال : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يتوضأ وضوئى هذا ثم قال : « ومن توضأ وضوئى ، ثم قام : فصلى صلاة الظهر غفر له ما كان بينها وبين الصبح ، ثم صلى العصر غفر له ما بينها وبين صلاة الظهر ، ثم صلى المغرب غفر له ما بينها =

= وبين صلاة العصر ، ثم صلى العشاء غفر له ما بينها وبين صلاة المغرب ، ثم لعله أن يبيت يتمرغ ليلته ثم إن قام فتوضأ وصلى الصبح غفر له ما بينها وبين صلاة العشاء ، وهن الحسنات يذهبن السيئات » . وقال الأرناؤوط : إسناده حسن .

○ وأخرج البخارى [٥٢٨] ومسلم [٢٨٣/٦٦٧] عن أبى هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « أرأيتم لو أن نهرا بباب أحدكم يغتسل منه كل يوم خمس مرات هل يبقى من درنه ؟ » .

قالوا : لا يبقى من درنه شيء . قال : « وكذلك مثل الصلوات الخمس يمحو الله بهن الخطايا » .

○ أخرج مسلم [١٦/٢٣٣] عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول : « الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة ورمضان إلى رمضان مكفرات لما بينهن ما اجتنبت الكبائر » .

○ وروى أحمد فى المسند [٤١٣/٥] عن أبى أيوب الأنصارى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول : « إن كل صلاة تحط ما بين يديها من خطيئة » . وقال الأرناؤوط : صحيح لغيره ، وهذا إسناد حسن .

○ أخرج البخارى [٤٦٨٧] ومسلم [٣٩/٢٧٦٣] عن ابن مسعود أن رجلًا أصاب من امرأة قبلة فأتى النبى صلى الله عليه وسلم فذكر ذلك قال : فنزلت ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴾ .

قال : فقال الرجل ألى هذه يارسول الله ؟ قال : لمن عمل بها من أمتى .

○ وروى أحمد فى المسند [٣٨٧/١] عن عبد الله بن مسعود قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الله قسم بينكم أخلاقكم كما قسم بينكم أرزاقكم وإن الله يعطى الدنيا من يحب ومن لا يحب ولا يعطى الدين إلا لمن أحب ، فمن أعطاه الله الدين فقد أحبه والذى نفسى بيده لا يسلم عبد حتى يسلم =

....

= قلبه ولسانه ، ولا يؤمن أحدكم حتى يأْمن جاره بوائقه » قالوا : وما بوائقه يا نبى اللَّه ؟ قال « غشمه وظلمه ، ولا يكسب عبد مالًا حرامًا فينفق منه فيبارك له فيه ولا يتصدق به فيقبل منه ولا يترك خلف ظهره إلا كان زاده إلى النار ، إن اللَّه لا يمحو السيىء بالسيىء ، ولكن يمحو السيىء بالحسن ، إن الخبيث لا يمحو الخبيث »(1) .

○ وروى أحمد فى المسند [٤٣٧/٥] عن أبى عثمان قال : كنت مع سلمان الفارسى تحت شجرة وأخذ منها غصنًا يابسًا فهزه حتى تحات ورقه ثم قال : يا أبا عثمان ألا تسألنى لم أفعل هذا . قلت : ولم تفعله ؟ فقال : إن المسلم إذا توضأ فأحسن الوضوء ثم صلى الصلوات الخمس تحاتت خطاياه كما يتحات هذا الورق وقال : ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيۡلِۚ إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ ذَٰلِكَ ذِكۡرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴾ . وقال الأرناؤوط : حسن لغيره ، وهذا إسناد ضعيف لضعف على بن زيد .

○ وروى أحمد فى المسند [٢٣٦/٥] عن معاذ أنه قال يارسول اللَّه أوصنى قال اتق الله حيثما كنت - أو أينما كنت - قال زدنى . قال : « أتبع السيئة الحسنة تمحها قال : زدنى ، قال : خالق الناس بخلق حسن » . وقال الأرناؤوط : حديث حسن ، وهذا إسناد ضعيف .

○ وروى أحمد فى المسند [١٦٩/٥] عن أبى ذر قال قلت يا رسول اللَّه أوصنى ؛ قال : « إذا عملت سيئة فأتبعها بحسنة تمحوها » . قال : قلت يا رسول اللَّه أمن الحسنات لا إله إلا اللَّه ؟ قال : « هى أفضل الحسنات » . وقال الأرناؤوط : حسن لغيره ، وهذا إسناد ضعيف لجهالة أشياخ شِمْر بن عطية . =

---

(1) رواه أحمد فى المسند [٣٨٧/١] وقال الشيخ أحمد شاكر : إسناده ضعيف ، ووافقه الأرناؤوط .

=○ وروى ابن حبان فى صحيحه [٣٤٣٨] وعن عمر بن مرة الجهنى رضى الله تعالى عنه قال : جاء رجل إلى النبى ﷺ ، فقال : يا رسول الله أرأيت إن شهدت أن لا إله إلا الله ، وأنك رسول الله وصليت الصلوات الخمس ، وأديت الزكاة ، وصمت رمضان وقمته فممن أنا ؟ قال : « من الصديقين والشهداء » . وقال الأرناؤوط : إسناده صحيح على شرط الشيخين .

○ وأخرج مسلم [٥/٢٢٧] : أن عثمان رضى الله تعالى عنه قال : والله لأُحَدِّثُكم حديثًا لولا آية فى كتاب الله ما حدثتكموه : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : لا يتوضأ رجل فيحسن وضوءَهُ ، ثم يصلى الصلاة إلا غَفَرَ الله له ما بينها وبين الصلاة التى تليها » .

○ وأخرج مسلم [٧/٢٢٨] فى رواية عنه رضى الله تعالى عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : ما من امرئ مسلم تحضُرُه صلاة مكتوبة ، فيحسن وضوءها وخشوعها وركوعها إلا كانت كفارة لما قبلها من الذنوب مالم تُؤتَ كبيرة ، وذلك الدهر كُله .

○ روى أحمد فى المسند [٤١٣/٥] عن أبى أيوب رضى الله تعالى عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم يقول : إن كل صلاة تَحُطُّ ما بين يديها من خطيئة . وقال الأرناؤوط : صحيح لغيره وهذا إسناد حسن .

○ وأخرج مسلم [٢٦١/٦٥٧] عن جُندُب القسرى رضى الله تعالى عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من صلى الصبح فهو فى ذمة الله فلا يطلُبُنكم الله من ذِمتهِ بشىء ، فإنه من يطلبه من ذمته بشىء يُدركه ثم يكبه على وجهه فى نار جهنم .

○ وأخرج البخارى [٥٥٥] ومسلم [٢١٠/٦٣٢] عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل =

= وملائكة بالنهار ، ويجتمعون فى صلاة الفجر ، وصلاة العصر ، ثم يعرج الذين باتوا فيكم فيسألهم ربهم ، وهو أعلم بهم : كيف تركتم عبادى ؟ فيقولون : تركناهم وهم يُصلون ، وأتيناهم وهم يصلون .

○ وروى أبوداود [١٤٢٠] عن عبادة بن الصامت رضى الله تعالى عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « خمس صلوات كتبهن الله على العباد ، فمن جاء بهن ولم يُضيع منهن شيئًا استخفافًا بحقهن كان له عند الله عهد أن يُدخله الجنة ، ومن لم يأت بهن فليس له عند الله عهد إن شاء عذبه ، وإن شاء أدخله الجنة » . وصححه الألبانى .

○ وفى رواية له [٤٢٥] : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : خمس صلوات افترضهن الله ، من أحسن وضوءهن ، وصلاهن لوقتهن ، وأتم ركوعهن وسجودهن ، وخشوعهن كان له على الله عهد أن يغفر له ، ومن لم يفعل فليس على الله عهد ، إن شاء غفر له ، وإن شاء عذبه . وصححه الألبانى .

○ وأخرج مسلم [٢٢٣/ ١] عن أبى مالك الأشعرى رضى الله تعالى عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « الطهور شطر الإيمان ، والحمد لله تملأ الميزان ، وسبحان الله ، والحمد لله تملآن أو تملأ ما بين السماء والأرض ، والصلاة نور ، والصدقة برهان ، والصبر ضياء ، والقرآن حُجة لك أو عليك » .

○ وأخرج مسلم [٢٢٥/٤٨٨] عن معدان بن أبى طلحة رضى الله تعالى عنه قال : لقيت ثوبان مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقلت : أَخبرنى بعمل أَعمله يُدخلنى الله به الجنة ، أو قال قلت : بأحب الأعمال إلى الله ، فسكت ، ثم سألته فسكت ، ثم سألته الثالثة ، فقال : سألت عن ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : عليك بكثرة السجود ، فإنك لا تسجد لله سجدة إلا رفعك الله بها درجة ، وحط بها عنك خطيئة » . =

....

○○○

=○ وروى ابن ماجه [١٤٢٤] عن عُبادة بن الصامت رضى اللَّه تعالى عنه أنه سمع رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم يقول : « ما من عبد يسجد للَّه سجدة إلا وكتب اللَّه له بها حسنة ومحا عنه بها سيئة ، ورفع له بها درجة فاستكثروا من السجود » . وصححه الألبانى .

○ وأخرج مسلم [٢١٥/٤٨٢] عن أبى هريرة رضى اللَّه تعالى عنه قال : قال رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم : « أقرب ما يكون العبد من ربه عز وجل وهو ساجد ، فأكثروا الدعاء » .

○ وأخرج مسلم [٢٢٦/٤٨٩] عن ربيعة بن كعب الأسلمى رضى اللَّه تعالى عنه قال : كُنت أبيت مع رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم فآتيه بوضوئه وحاجته ، فقال لى : سلنى ؟ فقلت أسألك مرافقتك فى الجنة . قال : أو غير ذلك ؟ قلت : هو ذاك ، قال : فأعنى على نفسك بكثرة السجود .

الكسل عن الصلاة
من علامات النفاق

يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ ﴾ [النساء : ١٤٢] كيف يقومون إلى الصلاة كسالى ؟ إن الغايات من الأحداث هى التى تضفى على الجوارح الإقبال على الأحداث فإذا كان الحدث الذى تقبل عليه حدثاً تحبه فأنت تقبل عليه بكل اشتياق ولهفة ولذلك يقيسون لهفة اللقاء لأنها هى التى تحدد درجة المحبة .

ولنفرض مثلًا أن رجلًا وزوجته يتقابلان بعد طول غياب ما الذى يبين درجة الود بينهما ؟ إن لحظة اللقاء تبين ما بينهما من مودة فإن كانت المسافة بينهما عشر خطوات فكم خطوة خطاها الاثنان وبأية سرعة ؟ إنهما قد يسرعان باللهفة فيقطعان الخطوات العشر فى ثلاث خطوات مثلًا وهذا معناه : تقصير زمن اللقاء ، وأيضاً ما الكيفية التى يتم بها السلام ؟ هل يسلم أحدهما على الآخر ببرود ، أم بنصف ود أم بود كبير أم بود مصحوب بلهفة وعناق ؟ ثم ما المدة التى يقع خلالها الاحتضان هل هى دقيقة أم دقيقتان أم ثلاث ؟

إذن .. فالذى يبين درجة الود هو التلهف فى المدة وهذه العناصر الثلاثة أخذها الشعراء للتعبير عن المودة والحب بين البشر ، وقديماً كان المتيمون بالنساء يسترون فى السلام مودتهم .

وقيل إنك إذا أردت أن تعرف المودة بين رجل وامرأة ومدى لهفة كل منهما على الآخر ، وتحكم بذلك فانظر الكيفية التى يتم بها اللقاء ؟ فإذا ما صافح الرجل المرأة .. فهل يصافحها بتلهف ؟ وهل تبادله هى هذه اللهفة ؟ فإن وجدت الكف مفرودة للمصافحة فقط فهذا سلام عادى ، أما إذا أثنى أحدهما إصبعه

البنصر على كف الآخر فعليك أن ترى أى طرف هو الذى قام بثنى إصبعه ليحتضن اليد كلها فى يده ، فإن كان ذلك هو الرجل فاللهفة منه وإن كان من المرأة فاللهفة منها وإن كان من الاثنين فاللهفة منهما معاً .

هكذا ينظر الإنسان للأحداث ، فإن كان الحدث سارا فالإنسان يقبل عليه بلهفة وإن لم يكن الحدث سارا فالإنسان يقوم إليه متثاقلا ، وهذا ما كان المنافقون إذا قاموا إلى الصلاة : ﴿ كُسَالَىٰ ﴾ كأنهم يؤدون الصلاة ليخفون بها نفاقهم ، ويستترون بها عن أعين المسلمين .

إن قيامهم إلى الصلاة لم يكن شوقاً إلى لقاء الله مثلما كان يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم لبلال رضى الله تعالى عنه « يا بلال أقم الصلاة أرحنا بها »(1) ولم يقل أرحنا منها يا بلال ، إن المؤمن يرتاح عندما يؤدى الصلاة ، أما المنافق فهى عملية شاقة بالنسبة له ، إنه يؤديها نفاقًا ليستتر بها عن أعين المسلمين ،لذلك يقوم إليها وهو كسلان .

قال الله تعالى عنهم : ﴿ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [النساء: ١٤٢]
لماذا إذن يقومون إلى الصلاة ما داموا غير مؤمنين بها ؟ إنهم يُقيمُونَ الصلاة ظاهريًا أمام الناس ليخدعوا الناس ، وحتى يراهم المسلمون وهم يصلون وهم فى هذه الصلاة التى يراءون بها الناس لا يفعلون كل المطلوب منهم لتمام الصلاة .. إنهم يفعلون المطلوب جهرا ، ولا يقومون بما افترضه الله عليهم ، والمطلوب لتمام الصلاة منه ما يفعل سرًا ومنه ما يفعل جهرًا ، مثال ذلك أنهم يقرأون الفاتحة وبعض آيات من القرآن ، ولكنهم أثناء الركوع قد لا يسبحون

(١) رواه أبو داود [٤٩٨٥] وأحمد فى المسند [٣٦٤/٥] . وقال الأرناؤوط : رجاله ثقات .

باسم اللّه العظيم ، وكذلك فى السجود أى أنهم يؤدون الجانب الجهرى من الصلاة ولا يؤدون الجانب الآخر منها .

إن فى داخل المنافق تيارين متعارضين تيار يظهر به أنه مع المؤمنين وتيار آخر مع الكافرين ؛ إن التيار الذى مع المؤمنين ، يجبر المنافق على أن يقوم إلى الصلاة ، والتيار الذى مع الكافرين يجعله كسولاً عن ذلك ، والتيار الذى مع المؤمنين يجعله يذكر اللّه قليلاً ، والتيار الذى مع الكافرين يجعله لا يذكر اللّه ومن هنا فقد جاء فى وصف رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم لصلاة الفجر أنها ثقيلة على المنافقين [1] .

○○○

(١) أخرج البخارى [٦٥٧] عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه « ليس صلاة أثقل على المنافقين من الفجر والعشاء ولو يعلمون ما فيهما لأتوهما ولو حبوًا ... » الحديث .

صفة صلاة النبى ﷺ
من التكبير حتى التسليم كأنك تراها

قال ابن القيم كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا قام إلى الصلاة واستقبل القبلة ووقف فى مُصلاه رفع يديه إلى فروع أذنيه (١) واستقبل بأصابعه القبلة ونشرها (٢) وقال : « الله أكبر » .

ولم يكن يقول قبل ذلك : نويت أن أصلى كذا وكذا مستقبل القبلة أربع ركعات فريضة الوقت أداءً لله تعالى إمامًا ، ولا كلمة واحدة من ذلك فى مجموع صلاته من أولها إلى آخرها .

فقد نقل عنه أصحابه حركاته وسكناته وهيآته حتى اضطراب لحيته فى الصلاة ، حتى إنه حمل بنت ابنته مرة فى الصلاة فنقلوه ولم يهملوه (٣) ، فكيف يتفق ملؤهم من أولهم إلى آخرهم على ترك نقل هذا المهم الذى هو شعار الدخول فى الصلاة ؟ ولعمر الله لو ثبت عنه من هذا كلمة واحدة لكُنا أول من اقتدى به فيها ، وبادر إليها .

ثم كان يمسك شماله بيميه فيضعها عليها فوق المفصل(٤) ثم يضعها على صدره (٥) ثم يقول : « سبحانك ، اللهم باعد بينى وبين خطاياى كما باعدت بين =

---

(١) أخرجه مسلم [٣٩١/٢٥و٢٦] ، وأبو داود [٧٤٥] ، وابن ماجه [٨٥٩] ، وأحمد فى المسند [٤٣٦/٣،٤٣٧] عن مالك بن الحويرث رضى الله تعالى عنه .

(٢) رواه الترمذى [٢٣٩] عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه . وضعفه الألبانى .

(٣) أخرجه البخارى [٥١٦،٥٩٩٦] ، ومسلم [٥٤٣/٤١] عن أبى قتادة رضى الله عنه .

(٤) أخرجه مسلم [٤٠١/٥٤] ، وأحمد فى المسند [٣١٧/٤،٣١٨] عن وائل بن حجر رضى الله تعالى عنه .

(٥) رواه أبو داود [٧٥٩] عن طاووس وصححه الألبانى .

....

= المشرق والمغرب ، اللهم نقنى من خطاياى كما ينقى الثوب الأبيض من الدنس ، اللهم اغسلنى من خطاياى بالماء والثلج والبرد »[1] .

وكان يقول أحيانًا : « وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفًا مسلمًا وما أنا من المشركين ﴿ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾ ﴾ [الأنعام : ١٦٢] ، اللهم أنت الملك لا إله إلا أنت وأنا عبدك ، ظلمت نفسى ، واعترفت بذنبى ، فاغفر لى ذنوبى جميعًا لا يغفر الذنوب إلا أنت ، واهدنى لأحسن الأخلاق لا يهدى لأحسنها إلا أنت ، واصرف عنى سيئها لا يصرف عنى سيئها إلا أنت ، لبيك وسعديك ، والخير كله فى يديك ، والشر ليس إليك أنا بك وإليك ، تباركت وتعاليت ، استغفرك وأتوب إليك » . ولكن هذا إنما حُفظ عنه فى صلاة الليل[2] .

وربما كان يقول : « اللّٰه أكبر كبيرا اللّٰه أكبر كبيرا ، والحمد للّٰه كثيرا والحمد للّٰه كثيرا ، وسبحان اللّٰه بكرة وأصيلا »[3] .

وربما كان يقول : « اللّٰه أكبر ، اللّٰه أكبر ، لا إله إلا أنت ، لا إله إلا أنت ، سبحان اللّٰه وبحمده ، سبحان اللّٰه وبحمده . ثم يقول : « أعوذ باللّٰه من الشيطان الرجيم » ، وربما قال : « أعوذ باللّٰه من الشيطان الرجيم من نفخه =

(١) أخرجه البخارى [٧٤٤] ، ومسلم [١٤٧/٥٩٨] ، وأبو داود [٧٨١] من حديث أبى هريرة رضى اللّٰه تعالى عنه .

(٢) أخرجه مسلم [٢٠١/٧٧١] ، وأبو داود [٧٦١] عن علىّ بن أبى طالب رضى اللّٰه تعالى عنه .

(٣) رواه أبو داود [٧٦٤] ، وابن ماجه [٨٠٧] ، وأحمد فى المسند [٨٠/٤، ٨٥] عن المطعم رضى اللّٰه تعالى عنه ، وضعفه الألبانى .

= ونفثه وهمزه » ، وربما قال : « اللهم إنى أعوذ بك من الشيطان الرجيم وهمزه ونفخه ونفثه »[1] .

ثم يقرأ فاتحة الكتاب[2]، فإن كانت الصلاة جهرية أسمعهم القراءة ولم يسمعهم : ﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾[3] فربه أعلم هل كان يقرؤها أم لا[4].
وكان يقطع قراءته آية آية ثم يقف ، على ﴿ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ ثم يبتدئ ﴿ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ ويقف ثم يبتدئ ﴿ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾ على رسل وتمهل وترتيل يمد ﴿ ٱلرَّحْمَٰنِ ﴾ ويمد ﴿ ٱلرَّحِيمِ ﴾ ، وكان يقرأ ﴿ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾ بالألف[5].

---

(١) رواه أبو داود [٧٧٥] ، والترمذى [٢٤٢] ، وابن ماجه [٨٠٤] ، وأحمد فى المسند [٥٠/٣] ، وصححه الألبانى عن أبى سعيد الخدرى رضى اللّٰه تعالى عنه .
(٢) أخرجه البخارى [٧٥٦] ، ومسلم [٣٤/٣٩٤] ، وأبو داود [٨٢٢] عن عبادة بن الصامت رضى اللّٰه تعالى عنه .
(٣) أخرجه البخارى [٧٤٣] عن أنس بن مالك رضى اللّٰه تعالى عنه : أن النبى صلى اللّٰه عليه وسلم وأبا بكر وعمر كانوا يفتتحون الصلاة بـ : ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ ، وبنحوه الترمذى [٢٤٦] ، ومسلم [٥٠/٣٩٩] .
(٤) قال ابن القيم فى زاد المعاد [٢٠٧/١] : « وكان ﷺ يجهر ببسم اللّٰه الرحمن الرحيم تارة ويخفيها أكثر مما يجهر بها ، ولا ريب أنه لم يكن يجهر بها دائمًا فى كل يوم وليلة خمس مرات أبدًا حضرًا وسفرًا ، ويخفى ذلك على خلفائه الراشدين وعلى جمهور أصحابه وأهل بلده فى الأعصار الفاضلة ، هذا من أمحل المحال حتى يحتاج إلى التشبث به بألفاظ مجملة وأحاديث واهية ، فصحيحُ تلك الأحاديث غير صريح ، وصريحها غير صحيح ، وهذا موضع يستدعى مجلدًا ضخمًا » .
(٥) رواه أحمد فى المسند [٣٠٢/٦] ، وأبو داود [٤٠٠١] ، والترمذى [٣١٠٧] عن أم سلمة رضى اللّٰه تعالى عنها . وصححه الألبانى .

....

= وإذا ختم السورة قال : « آمين » يجهر بها ويمد بها صوته ، ويجهر بها من خلفه [1] حتى يرتج المسجد .

واختلفت الرواية عنه هل كان يسكت بين الفاتحة وقراءة السورة ، أم كانت سكتة بعد القراءة كلها ؟ فقال يونس عن الحسن عن سمرة : حفظت سكتتين ، سكتة إذا كبر الإمام حتى يقرأ وسكتة إذا فرغ من فاتحة الكتاب ، وسكتة عند الركوع ، وصدقه أُبى بن كعب على ذلك[2].

ووافق يونس أشعث الحمرانى عن الحسن فقال : سكتة إذا استفتح وسكتة إذا فرغ من القراءة كلها [3].

وخالفهما قتادة فقال : عن الحسن إن سمرة بن جندب وعمران بن الحصين تذاكرا فحدث سمرة أنه حفظ عن رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم سكتتين : سكتة إذا كبر ، وسكتة إذا فرغ من قراءة ﴿ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾ فقط . فحفظ ذلك سمرة وأنكر عليه عمران بن حصين ، فكتبا فى ذلك إلى أُبى بن كعب فكان فى كتابه أن سمرة قد حفظ .

وقال قتادة أيضًا : عن الحسن عن سمرة سكتتان حفظهما عن رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم إذا دخل فى الصلاة وإذا فرغ من القراءة ، ثم قال بعد : وإذا قال : ﴿ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾[4]. =

---

(١) رواه أبو داود [٩٣٢] ، والترمذى [٢٤٨] عن وائل ابن حجر ، وصححه الألبانى .

(٢) رواه أبو داود [٧٧٧] ، وابن ماجه [٨٤٥] ، وأحمد فى المسند [١١/٥] عن سمرة رضى اللَّه تعالى عنه وضعفه الألبانى .

(٣) رواه أبو داود [٧٧٨] عن سمرة رضى اللَّه تعالى عنه ، وضعفه الألبانى .

(٤) رواه أبو داود [٧٧٩،٧٨٠] ، والترمذى [٢٥١] ، وابن ماجه [٨٤٤] ، وأحمد [٧/٥] عن سمرة بن جندب رضى اللَّه تعالى عنه وضعفه الألبانى .

= فقد اتفقت الأحاديث أنهما سكتتان **فقط إحداهما سكتة الافتتاح** ، والثانية مختلف فيها . فالذى قال : **إنها بعد قراءة الفاتحة هو قتادة ، وقد** اختلف عليه سمرة فمرة قال ذلك ، ومرة قال : بعد الفراغ من القراءة ، ولم يختلف على يونس وأشعث أنها بعد فراغه من القراءة كلها ، وهذا أرجح الروايتين . والله أعلم(١) .

وبالجملة فلم ينقل عنه صلى الله عليه وسلم بإسناد صحيح ولا ضعيف أنه كان يسكت بعد قراءة الفاتحة حتى يقرأها من خلفه وليس فى سكوته فى هذا المحل إلا هذا الحديث المختلف فيه كما رأيت ، ولو كان يسكت هنا سكتة طويلة يدرك فيها قراءة الفاتحة لما اختفى ذلك على الصحابة ، ولكان معرفتهم به ونقلهم أهم من سكتة الافتتاح .

ثم يقرأ بعد ذلك سورة طويلة تارة ، وقصيرة تارة ، ومتوسطة تارة كما تقدم ذكر الأحاديث به .

ولم يكن يبتدئ من وسط السورة ولا من آخرها ، وإنما كان يقرأ من أولها ، فتارة يكملها وهو أغلب أحواله ، وتارة يقتصر على بعضها ويكملها فى الركعة الثانية .

ولم ينقل أحد عنه أنه قرأ بآية من سورة أو بآخرها إلا فى سنة الفجر فإنه كان يقرأ فيها بهاتين الآيتين : ﴿ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا ﴾ [البقرة : ١٣٦] ، ﴿ قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ ﴾(٢) [آل عمران : ٦٤] .

وكان يقرأ بالسورة فى الركعة ، وتارة يعيدها فى الركعة الثانية ، وتارة يقرأ سورتين فى الركعة . =

(١) رواه الدارمى [٢٨٣/١] ، وأحمد فى المسند [٢١،٢٠،١٥/٥] عن سمرة بن جندب رضى الله تعالى عنه . وقال الأرناؤوط : رجاله ثقات رجال الصحيح .

(٢) سبق تخريجه .

= أما الأول : فكقول عائشة أنه قرأ فى المغرب بالأعراف فرقها فى الركعتين[1] .
وأما الثانى : فقراءته فى الصبح ﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ ﴾ فى الركعتين كلتيهما ، والحديثان فى السنن[2] .
وأما الثالث : فكقول ابن مسعود ، ولقد عرفت النظائر التى كان رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم يقرن بينها ، فذكر عشرين سورة من المفصل سورتين فى ركعة وهذا فى الصحيحين[3] . =

---

(١) روى الترمذى [٣٠٨] عن ابن عباس رضى اللَّه تعالى عنهما عن أمه أم الفضل رضى اللَّه تعالى عنها ، قالت : خرج إلينا رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم وهو عاصب رأسه فى مرضه فصلى المغرب فقرأ بالمرسلات . قالت : فما صلاها بعد حتى لقى اللَّه .
قال : وفى الباب عن جبير بن مطعم وابن عمر وأبى أيوب وزيد بن ثابت .
قال أبو عيسى : حديث أم الفضل حيث حسن صحيح . وقد روى عن النبى صلى اللَّه عليه وسلم أنه قرأ فى المغرب بالأعراف فى الركعتين كلتيهما . وروى عن النبى صلى اللَّه عليه وسلم أنه قرأ فى المغرب بالطور . وروى عن عمر أنه كتب إلى أبى موسى أن اقرأ فى المغرب بقصار المفصل . وروى عن أبى بكر الصديق أنه قرأ فى المغرب بقصار المفصل .
قال : وعلى هذا العمل عند أهل العلم وبه يقول ابن المبارك وأحمد وإسحق ، وقال الشافعى وذكر عن مالك أنه كره أن يقرأ فى صلاة المغرب بالسور الطوال نحو الطور والمرسلات . قال الشافعى : لا أكره ذلك بل أستحب أن يقرأ بهذه السور فى صلاة المغرب .
(٢) رواه أبو داود [٨١٦] عن رجل من جهينة ، وحسنه الألبانى .
(٣) أخرجه البخارى [٥٠٤٣] ، ومسلم [٢٧٥/٨٢٢] عن عبد اللَّه بن مسعود رضى اللَّه تعالى عنه .

= وكان يمد قراءة الفجر ويطيلها أكثر من سائر الصلوات ، وأقصر ما حفظ عنه أنه كان يقرأ بها فيها فى الحضر ﴿ قٓ ﴾ ونحوها .

وكان يجهر بالقراءة فى الفجر والأولين من المغرب والعشاء ويسر فيما سوى ذلك ، وربما كان يسمعهم الآية فى قراءة السر أحيانًا .

وكان يقرأ فى فجر يوم الجمعة سورة السجدة ﴿ الٓمٓ تَنزِيلُ ﴾ ، و ﴿ هَلْ أَتَىٰ ﴾ ، كاملتين ، ولم يقتصر على إحداهما ولا على بعض هذه فقط ، وكان يقرأ فى صلاة الجمعة بسورة ﴿ ٱلْجُمُعَةِ ﴾ و ﴿ ٱلْمُنَٰفِقِينَ ﴾ كاملتين ولم يقتصر على أواخرهما ، وربما كان يقرأ بسورة ﴿ ٱلْأَعْلَى ﴾ و ﴿ ٱلْغَٰشِيَةِ ﴾ .

وكان يقرأ فى العيدين بسورة ﴿ قٓ ﴾ و ﴿ ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ ﴾ كاملتين ولم يقتصر على أواخرهما .

وكان يقرأ فى صلاة السر سورة فيها « السجدة » أحيانًا فيسجد للسجدة ويسجد معه من خلفه .

وكان يقرأ فى الظهر قدر ﴿ الٓمٓ تَنزِيلُ ﴾ السجدة ونحو ثلاثين آية ، ومرة كان يقرأ فيها بـ ﴿ سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴾ ، و ﴿ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ﴾ ، و ﴿ وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ ﴾ ، و ﴿ وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ ﴾ ونحوها من السور ، ومرة بـ ﴿ لُقْمَٰنُ ﴾ ، ﴿ وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ﴾ . وكان يقوم فى الركعة الأولى منها حتى لا يسمع وقع قدم ، وكذلك كان يطيل الركعة الأولى من كل صلاة على الثانية .

وكانت قراءته فى العصر فى الركعتين الأولين فى كل ركعة قدر خمس عشر آية .

وكان يقرأ فى المغرب بـ الأعراف تارة ، و ﴿ وَٱلطُّورِ ﴾ تارة ، و ﴿ وَٱلْمُرْسَلَٰتِ ﴾ تارة ، وبالدخان تارة .

وروى عنه أنه قرأ فيها بـ ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ ، و ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾ تفرد به ابن ماجه . =

= ولعل أحد رواته وهم من قراءته بهما فى سنة المغرب فكان يقرأ بهما فى سنة المغرب فقال : كان يقرأ بهما فى المغرب أو سقطت « سنة » من النسخة . والله أعلم .

وكان يقرأ فى العشاء الآخرة بـ ﴿ وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ﴾ وسورة ﴿ إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ﴾ ويسجد فيها جميع من خلفه ، و ﴿ وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا ﴾ ونحو ذلك من السور .

وكان إذا فرغ من القراءة سكت هنيهة ليرجع إليه نفسه .

ثم كان يرفع يديه إلى أن يحاذى بهما فروع أذنيه كما رفعهما فى الاستفتاح صح عنه ذلك كما صح التكبير للركوع ، بل الذين رووا عنه رفع اليدين ههنا أكثر من الذين رووا عنه التكبير ، ثم يقول : « الله أكبر » ويخر راكعًا ويضع يديه على ركبتيه فيمكنهما من ركبتيه ، وفرج بين أصابعه وجافى مرفقيه عن جنبيه ، ثم اعتدل وجعل رأسه حيال ظهره فلم يرفع رأسه ولم يصوبه ، وهصر ظهره أى مده ولم يجمعه [1] ، ثم قال : « سبحان ربى العظيم »[2] .

وروى عنه أنه كان يقول : « سبحان ربى العظيم وبحمده » . قال أبو داود وأخاف أن لا تكون هذه الزيادة محفوظة [3] . =

(١) جزء من حديث أخرجه البخارى [٨٢٨] ، وأبو داود [٧٣٠،٧٣٣،٩٦٦] ، والترمذى [٣٠٤،٣٠٥] ، وابن ماجه [١٠٦١] عن أبى حميد الساعدى رضى الله تعالى عنه .

(٢) رواه أبو داود [٨٦٩] ، وابن ماجه [٨٨٧] ، وأحمد فى المسند [١٥٥/٤] عن عقبة ابن عامر ، وضعفه الألبانى .

(٣) رواه أبو داود [٨٧٠] عن عقبة بن عامر رضى الله تعالى عنه ، وضعفه الألبانى فى ضعيف أبو داود ، وصحح الألبانى هذه الزيادة فى صفة الصلاة [٧٧:٥٩] .

= وربما مكث قدر ما يقول القائل عشر مرات ، وربما مكث فوق ذلك ودونه [(١)] .

وربما قال : « سبحانك اللهم وبحمدك ، اللهم اغفر لى »[(٢)] .

وربما قال : « سبوح قدوس رب الملائكة والروح »[(٣)] ، وربما قال : « اللهم لك ركعت ، وبك آمنت ، ولك أسلمت ، وعليك توكلت ، أنت ربى ، خشع قلبى وسمعى ، وبصرى ودمى ، ولحمى وعظمى وعصبى لله رب العالمين »[(٤)] .

وربما كان يقول : « سبحان ذى الجبروت والملكوت ، والكبرياء والعظمة »[(٥)] .

وكان ركوعه مناسبًا لقيامه فى التطويل والتخفيف ، وهذا بين فى سائر الأحاديث[(٦)] . =

---

(١) روى أبو داود [٨٨٨] ، وأحمد فى المسند [١٦٣،١٦٢/٣] عن وهب بن مأنوس قال : سمعت سعيد بن جبير يقول : « ما صليت وراء أحد بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم أشبه صلاة برسول الله صلى الله عليه وسلم من هذا الفتى ». يعنى عمر بن عبد العزيز ، فحرزنا فى ركوعه عشر تسبيحات وفى سجوده عشر تسبيحات . وضعفه الألبانى .

(٢) أخرجه البخارى [٧٩٤] ، ومسلم [١٧/٤٨٤] عن عائشة رضى الله تعالى عنه .

(٣) أخرجه مسلم [٢٢٣/٤٨٧] ، وأبو داود [٨٧٢] عن عائشة رضى الله تعالى عنه .

(٤) جزء من حديث أخرجه مسلم [٢٠٢/٧٧١] ، وأبو داود [٧٦٠] عن علىّ رضى الله تعالى عنه .

(٥) رواه أبو داود [٨٧٣] عن عوف بن مالك الأشجعى وصححه الألبانى .

(٦) أخرجه البخارى [٧٩٢] ، ومسلم [٤٧١] ، وأبو داود [٨٥٤،٨٥٢] ، والترمذى [٢٨٠،٢٧٩] وغيرهم . عن البراء بن عازب رضى الله تعالى عنه .

قال ابن القيم : ولا يناقض هذا ما رواه البخارى فى هذا الحديث : « كان ركوع النبى صلى الله عليه وسلم وسجوده وما بين السجدتين وإذا رفع رأسه ما خلا القيام والقعود قريبًا من السواء ، فإن البراء هو القائل هذا وهذا ، فإنه فى السياق الأول =

....

= ثم كان يرفع رأسه قائلًا : « سمع الله لمن حمده »[1] ويرفع يديه كما يرفعهما عند الركوع ، فإذا أعدل قائمًا قال : « ربنا لك الحمد »[2] ، وربما قال : « اللهم ربنا ولك الحمد ملء السموات وملء الأرض ، وملء ما شئت من شيء بعد ، أهل الثناء والمجد ، أحق ما قال العبد ، وكلنا لك عبد ، اللهم لا مانع لما أعطيت ، ولا معطى لما منعت ، ولا ينفع ذا الجد منك الجد »[3] وربما زاد على ذلك : « اللهم طهرنى بالثلج والبرد والماء البارد ، اللهم طهرنى من الذنوب والخطايا كما ينقى الثوب الأبيض من الوسخ »[4] وكان يطيل هذا الركن حتى يقول القائل قد نسى ، وكان يقول فى صلاة الليل فيه : « لربى الحمد ، لربى الحمد »[5] . ثم يكبر ويخر ساجدا ولا يرفع يديه [6] وكان يضع ركبتيه قبل يديه ، هكذا قال عنه وائل بن حجر[7] وأنس بن مالك[8] . =

= أدخل فى ذلك قيام القراءة وجلوس التشهد ، وليس مراده أنهما بقدر ركوعه وسجوده ، وإلا ناقض السياق الأول والثانى ، وإنما المراد أن طولهما كان مناسبًا لطول الركوع والسجود والاعتدالين بحيث لا يظهر التفاوت الشديد فى طول هذا ، وقصر هذا .

(١) أخرج مسلم [٣٩١/٥] عن مالك بن الحويرث رضى الله تعالى عنه .

(٢) أخرج البخارى [٣٢٢٨] ومسلم [٧١/٤٠٩] عن أبى هريرى رضى الله عنه .

(٣) أخرج مسلم [٢٠٥/٤٧٧] عن أبى سعيد الخدرى رضى الله تعالى عنه .

(٤) أخرج مسلم [٢٠٤/٤٧٦] عن عبد الله بن أبى أوفى رضى الله تعالى عنه .

(٥) رواه أبو داود [٨٧٤] ، والنسائى [١٩٩/٢-٢٠٠] ، وأحمد فى المسند [٣٩٨/٥] عن حذيفة رضى الله تعالى عنه .

(٦) أخرجه البخارى [٧٣٨] ، وأبو داود [٧٢٣] ، وأحمد فى المسند [٣١٧/٤] عن وائل بن حجر رضى الله تعالى عنه .

(٧) رواه أبو داود [٨٣٨] ، والترمذى [٢٦٨] ، وابن ماجه [٨٨٢] عن وائل بن حجر ، وضعفه الألبانى .

(٨) رواه الدارقطنى [٣٤٥/١] ، والحاكم [٢٢٦/١] .

= قال عنه ابن عمر إنه كان يضع يديه قبل ركبتيه [1] .

واختلف على أبى هريرة ففى السنن عن النبى صلى الله عليه وسلم : « إذا سجد أحدكم فلا يبرك كما يبرك البعير وليضع يديه قبل ركبتيه » [2] .

وروى عنه المقبرى عن النبى صلى الله عليه وسلم : « إذا سجد أحدكم فليبدأ بركبتيه قبل يديه » [3] فأبو هريرة قد تعارضت الرواية عنه ، وحديث وائل وابن عمر قد تعارضا ، فرجحت طائفة حديث ابن عمر ، ورجحت طائفة حديث وائل بن حجر ، وسلكت طائفة مسلك النسخ وقالت : كان الأمر الأول وضع اليدين قبل الركبتين ثم نسخ بوضع الركبتين أولًا ، وهذه طريقة ابن خزيمة فى ذكر الدلائل على أن الأمر بوضع اليدين عند السجود منسوخ فإن وضع الركبتين قبل اليدين ناسخ ، ثم روى عن مصعب بن سعد قال : كنا نضع اليدين قبل الركبتين فأمرنا بوضع الركبتين قبل اليدين [4]، وهذا لو ثبت لكان فيه الشفاء لكن يحيى بن سلمة بن كهيل قال البخارى : عنده مناكير ، وقال ابن معين : ليس بشىء لا يكتب حديثه ، وقال النسائى : متروك الحديث . وهذه القصة وهم فيها يحيى أو غيره وإنما المعروف عن مصعب بن سعد عن =

(1) رواه الطحاوى فى شرح معانى الآثار [1/254] عن ابن عمر رضى الله عنهما .

(2) رواه أبو داود [840] ، والنسائى [2/207] ، وأحمد فى المسند [2/381] عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه وصححه الألبانى فى صحيح أبى داود [746] .

(3) رواه البيهقى فى السنن [2/100] وفيه : المقبرى وهو متروك الحديث ، انظر الجرح والتعديل [5/71] .

(4) رواه ابن خزيمة [628] ، والبيهقى فى السنن [2/100] من طريق إبراهيم بن إسماعيل عن أبيه عن جده ، وإبراهيم ضعيف ، وأبوه متروك ، وجده متروك ، انظر تهذيب التهذيب [11/215] .

....

أبيه نسخ التطبيق فى الركوع بوضع اليدين على الركبتين فلم يحفظ هذا الراوى وقال : المنسوخ وضع اليدين قبل الركبتين .

قال السابقون باليدين : قد صح حديث ابن عمر فإنه من رواية عبيد الله عن نافع عنه ، قال ابن أبى داود : وهو قول أهل الحديث .

قالوا : وهو أعلم بهذا من غيرهم فإنه نقل محض .

قالوا : وهذه سنة رواها أهل المدينة وهم أعلم بها من غيرهم ، قال ابن أبى داود ولهم فيها إسنادان :

أحدهما : محمدبن عبد الله بن حسن عن أبى الزناد عن الأعرج عن أبى هريرة .

والثانى : الدراوردى عن عبيد الله عن نافع عن ابن عمر .

قالوا وحديث وائل بن حجر له طريقان وهما معلولان فى أحدهما شريك تفرد به ، قال الدارقطنى : وليس بالقوى فيما يتفرد به .

والطريق الثانى : من رواية عبد الجبار بن وائل عن أبيه ولم يسمع من أبيه [1] .

قال السابقون بالركبتين : حديث وائل بن حجر أثبت من حديث أبى هريرة وابن عمر ، قال البخارى : حديث أبى الزناد عن الأعرج عن أبى هريرة لا يتابع عليه فيه محمد بن عبد الله بن الحسن قال : ولا أدرى سمع من أبى الزناد أم لا .

وقال الخطابى حديث وائل بن حجر أثبت منه ، قال وزعم بعض العلماء أنه منسوخ ولهذا لم يحسنه الترمذى وحكم بغرابته وحسن حديث وائل .

قالوا : وقد قال فى حديث أبى هريرة : « لا يبرك كما يبرك البعير » ، والبعير إذا برك بدأ بيديه قبل ركبتيه ، وهذا النهى لا يمانع قوله : « وليضع يديه قبل ركبتيه » بل ينافيه ويدل على أن هذه الزيادة غير محفوظة ، ولعل لفظها =

---

(١) رواه أبو داود [٨٣٩] عن عبد الجبار بن وائل عن أبيه رضى الله تعالى عنهما وضعفه الألبانى .

= انقلب على بعض الرواة . قالوا : ويدل على ترجيح هذا أمران آخران .
أحدهما : ما رواه أبو داود من حديث ابن عمر : « أن رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم نهى أن يعتمد الرجل على يديه فى الصلاة »[1] .
وفى لفظ : « نهى أن يعتمد الرجل على يديه إذا نهض فى الصلاة »[2] .
ولا ريب أنه إذا وضع يديه قبل ركبتيه اعتمد عليهما . فيكون قد أوقع جزءاً من الصلاة معتمدًا على يديه بالأرض ، وأيضًا فهذا الاعتماد بالسجود نظير الاعتماد فى الرفع منه سواء ، فإذا نهى عن ذلك كان نظيره كذلك .
الثانى : أن المصلى فى انحطاطه ينحط منه إلى الأرض الأقرب إليها أولًا ، ثم الذى من فوقه ثم الذى من فوقه حتى ينتهى إلى أعلى ما فيه وهو وجهه فإذا رفع رأسه من السجود ارتفع أعلى ما فيه أولًا ثم الذى دونه حتى يكون آخر ما يرتفع منه ركبتاه . واللَّه أعلم .
ثم كان يسجد على جبهته وأنفه ويديه وركبتيه وأطراف قدميه [3] ويستقبل بأصابع يديه ورجليه القبلة ، وكان يعتمد على إليتى كفيه ويرفع مرفقيه ويجافى عضديه عن جنبيه حتى يبدو بياض إبطيه ، ويرفع بطنه عن فخذيه وفخذيه عن ساقيه ، ويعتدل فى سجوده [4] ، ويمكن وجهه من الأرض مباشرا به للمصلى غير ساجد على كور العمامة [5] . =

---

(١) رواه أبو داود [٩٩٢] ، وأحمد فى المسند [١٤٧/٢] ، وانظر الذى بعده .
(٢) رواه أبو داود [٩٩٢] عن ابن عمر رضى اللَّه تعالى عنه ، وقال الألبانى : صحيح إلا لفظ ابن عبد الملك فإنه منكر .
(٣) جزء من حديث أبى حميد الساعدى سبق تخريجه .
(٤) أخرجه مسلم [٢٣٤/٤٩٤] ، وأحمد فى المسند [٢٨٣/٤، ٢٩٤] عن البراء بن عازب
(٥) ذكر أبو داود فى المراسيل أن رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم رأى رجلًا يصلى فى المسجد فسجد بجنبيه وقد اعتم على جبهته فحسر رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم عن جبهته . =

....

= قال أبو حميد الساعدى وعشرة من الصحابة يسمعون كلامه : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا قام إلى الصلاة اعتدل قائمًا ورفع يديه حتى يحاذى بهما منكبيه ، فإذا أراد أن يركع رفع يديه حتى يحاذى بهما منكبيه ثم قال : « الله أكبر » فركع ثم اعتدل فلم يصوب رأسه ولم يقنع ووضع يديه على ركبتيه وقال : « سمع الله لمن حمده » ورفع يديه واعتدل حتى رجع كل عظم فى موضعه معتدلًا ، ثم هوى ساجدا وقال : « الله أكبر » ثم جافى عضديه عن إبطه وفتح أصابع رجليه ثم ثنى رجله اليسرى وقعد عليها واعتدل حتى يرجع كل عظم موضعه معتدلًا ، ثم هوى ساجدًا وقال : « الله أكبر ، » ثم ثنى رجله وقعد واعتدل حتى يرجع كل عظم فى موضعه ، ثم نهض فصنع فى الركعة الثانية مثل ذلك ، حتى إذا قام من السجدتين كبر ورفع يديه حتى يحاذى بهما منكبيه كما صنع حين افتتح الصلاة ، ثم صنع كذلك حتى إذا كانت الركعة التى تنقضى فيها الصلاة أخر رجله اليسرى وقعد على شقه متوركًا ثم سلم[1] .

وكان يقول فى سجوده : « سبحان ربى الأعلى »[2].

وروى أنه كان يزيد عليها « وبحمده » وربما قال : « اللهم إنى لك سجدت ، وبك آمنت ، ولك أسلمت ، سجد وجهى للذى خلقه وصوره ، وشق سمعه وبصره ، تبارك الله أحسن الخالقين » وكان يقول أيضًا : « سبحانك اللهم =

= وحديث أبى هريرة : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يسجد على كور عمامته . قال ابن القيم فى زاد الميعاد [١/٢٣٢] هو من رواية عبد الله بن محرر وهو متروك .

(١) سبق تخريجه .

(٢) أخرجه مسلم [٢٠٣/٧٧٢] ، والترمذى [٢٦٢] عن حذيفة رضى الله تعالى عنه .

....

= وبحمدك ، اللهم اغفر لى » وكان يقول : « سبحانك اللهم وبحمدك لا إله إلا أنت » .

وكان يقول : « سبوح قدوس رب الملائكة والروح » وكان يقول : « اللهم اغفر لى ذنبى كله دقه وجله وأوله وآخره ، وعلانيته وسره » وكان يقول : « اللهم إنى أعوذ برضاك من سخطك ، وبمعافاتك من عقوبتك ، وأعوذ بك منك ، لا أحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك » ، وكان يجعل سجوده مناسبًا لقيامه .

ثم يرفع رأسه قائلا : « اللَّه أكبر » غير رافع يديه [1] ، ثم يفرش رجله اليسرى ويجلس عليها وينصب اليمنى ويضع يديه على فخذيه [2] ، ثم يقول : « اللهم اغفر لى وارحمنى واجبرنى واهدنى وارزقنى » وفى لفظ : « وعافنى » بدل « واجبرنى » هذا حديث ابن عباس[3] . وقال حذيفة : كان يقول بين السجدتين : « رب اغفر لى »[4] والحديثان فى السنن .

وكان يطيل هذه الجلسة حتى يقول القائل قد أوهم أو قد نسى[5] .

ثم يكبر ويسجد غير رافع يديه ، ويصنع فى الثانية مثل ما صنع فى الأولى ، =

---

(١) أخرجه البخارى [٧٣٨] . عن عبد اللَّه بن عمر رضى اللَّه تعالى عنهما .

(٢) رواه النسائى [٣٦/٣] ، وأبو داود [٩٥٧] ، وابن حبان [٤٨٥] وصححه الألبانى عن وائل بن حجر رضى اللَّه تعالى عنه .

(٣) رواه أبو داود [٨٥٠] ، والترمذى [٢٨٤] عن ابن عباس رضى اللَّه تعالى عنهما ، وحسنه الألبانى .

(٤) رواه أبو داود [٨٧٤] ، وابن ماجه [٨٩٧] عن حذيفة رضى اللَّه تعالى عنه . وصححه الألبانى .

(٥) أخرجه مسلم [١٩٦/٤٧٣] ، وأبو داود [٨٥٣] عن أنس رضى اللَّه تعالى عنه .

= ثم يرفع رأسه مكبراً وينهض على صدور قدميه معتمدًا على ركبتيه وفخذيه [1] .
وقال مالك بن الحويرث كان رسول اللّٰه صلى اللّٰه عليه وسلم إذا كان فى وتر من صلاته لم ينهض حتى يستوى قاعدًا ، فهذه تسمى جلسة الاستراحة ، ولا ريب أنه صلى اللّٰه عليه وسلم فعلها ولكن هل فعلها على أنها من سنن الصلاة وهيآتها كالتجافى وغيره ، أو لحاجته إليها لما أسن وأخذه اللحم ؟ وهذا الثانى أظهر لوجهين :
أحدهما : أن فيه جمعًا بينه وبين حديث وائل بن حجر وأبى هريرة أنه كان ينهض على صدور قدميه .
والثانى : أن الصحابة الذين كانوا أحرص الناس على مشاهدة أفعاله وهيآت صلاته كانوا ينهضون على صدور أقدامهم ، فكان عبد اللّٰه بن مسعود يقوم على صدور قدميه فى الصلاة ولا يجلس . رواه البيهقى عنه ، ورواه عن ابن عمر وابن عباس وابن الزبير وأبى سعيد الخدرى من رواية عطية العوفى عنهم وهو صحيح عن ابن مسعود ولم يكن يرفع يديه فى هذا القيام .
وكان إذا استتم قائمًا أخذ فى القراءة ولم يسكت وافتتح قراءته بالحمد للّٰه رب العالمين .
فإذا جلس فى التشهد الأول جلس مفترشًا كما جلس بين السجدتين ويضع يده اليسرى على ركبته اليسرى واليمنى على فخذه اليمنى وأشار بأصبعه السبابه ووضع إبهامه على أصبعه الوسطى كهيئة الحلقة وجعل بصره إلى موضع =

(١) لم أجد دليله ، وهو مخالف لما أخرجه البخارى [٨٢٣] ، وأبو داود [٨٤٤] ، والترمذى [٢٨٧] عن مالك بن الحويرث رضى اللّٰه تعالى عنه أنه رأى النبى صلى اللّٰه عليه وسلم : يصلى ، فإذا كان فى وترٍ من صلاته لم ينهض حتى يستوى قاعدًا .

= إشارته[1] وكان يرفع أصبعه السبابة ويحنيها قليلًا يوحد بها ربه عز وجل .
وذكر أبو داود من حديث ابن عباس عنه صلى اللَّه عليه وسلم أنه قال : هكذا الإخلاص ، « يشير بأصبعه التى تلى الإبهام » ، « وهكذا الدعاء » فرفع يديه مدًا حذو منكبيه ، « وهكذا الابتهال » فرفع يديه مدا . وقد روى موقوفًا .
ثم كان يقول : « التحيات للَّه والصلوات والطيبات ، السلام عليك أيها النبى ورحمة اللَّه وبركاته ، السلام علينا وعلى عباد اللَّه الصالحين ، أشهد أن لا إله إلا اللَّه وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله » . وكان يعلمه أصحابه كما يعلمهم القرآن[2] . وكان أيضًا يقول : « التحيات المباركات الصلوات الطيبات للَّه » هذا تشهد ابن عباس[3] .
والأول تشهد ابن مسعود وهو أكمل ، لأن تشهد ابن مسعود يتضمن جملًا متغايرة وتشهد ابن عباس جملة واحدة ، وأيضًا فإنه فى الصحيحين وفيه زيادة الواو ، وكان يعلمهم إياه كما يعلمهم القرآن .
وروى ابن عمر عنه : « التحيات للَّه الصلوات الطيبات » وفيه أنواع أخرى كلها جائزة .
وكان يخفف هذه الجلسة حتى كأنه جالس على الردف وهى الحجارة المحماة .
ثم يكبر وينهض ويصلى الثالثة والرابعة ويخففهما عن الأوليين ، وكان يقرأ فيهما بفاتحة الكتاب وربما زاد عليها أحيانا .

الصلاة وحكم تاركها [ص ١٨٨ - ٢٠٩] .

---

(١) رواه أبو داود [٩٩٠] ، وابن حبان فى صحيحه [١٩٤٤] وحسنه الألبانى عن عبد اللَّه بن الزبير رضى اللَّه تعالى عنه .
(٢) أخرجه البخارى [٦٢٦٥] ، ومسلم [٥٥/٤٠٢] عن ابن مسعود رضى اللَّه عنه .
(٣) أخرجه مسلم [٦٠/٤٠٣] ، وأبو داود [٩٧٤] عن ابن عباس رضى اللَّه تعالى عنه .

شرف العبودية للَّه تعالى

العبودية هى أرقى مراتب القرب من اللَّه تعالى ؛ لأنك تأتى إلى اللَّه طائعًا ، منفذًا للمنهج باختيارك . ولقد عُرض على رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم أن يكون مَلِكًا رسولاً ، أو عبدًا رسولاً ، فاختار أن يكون عبدًا رسولاً »(١) .

فمصدر الشرف للإنسان أن يحس ويشعر أنه عبدٌ للَّه تعالى وحده ، فيتجلى اللَّه سبحانه عليه بالرحمات ويهديه سبل الرشاد .

والإيمان كله عزة ، والناس تكره كلمة « عبودية » ؛ لأن عبودية البشر للبشر فيها ذلة ، وفيها أن السيد يأخذ خير عبده .

أما العبودية للَّه وحده فهى أن يأخذ العبد خير سيده ؛ ولذلك نجد أن اللَّه سبحانه وتعالى قد امتن على نبيه ﷺ بصفة العبودية ، فى أشرف المقامات وأعلاها فقال سبحانه : ﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ ﴾ [الإسراء : ١] .

وعبوديتك للحق سبحانه وتعالى تجعلك تنام ملء جفنيك ، فأنت عبد لإله لا تأخذه سنة ولا نوم ، وإله هو القيوم عليك وعلى كل الخلق ، وإن احتجت منه إلى شيء ما : سألته فيجيبك ، قال تعالى : ﴿ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ [غافر : ٦٠] .

---

(١) عن أبى هريرة رضى اللَّه تعالى عنه قال : جلس جبريل إلى النبى ﷺ فنظر إلى السماء ، فإذا ملك ينزل ، فقال جبريل : إن هذا الملك ما نزل منذ يوم خلق قبل الساعة ، فلما نزل قال : يا محمد أرسلنى إليك ربك : أفملكًا نبيًا يجعلك أو عبدًا رسولًا ؟ قال جبريل : تواضع لربك يا محمد . قال : « بل عبدًا رسولًا » أخرجه أحمد [٢٣١/٢] ، وابن حبان [٢١٣٧] قال الألبانى : إسناد صحيح على شرط مسلم .

فهل فى هذه العبودية شىء غير العزة ؟

إنك إن أطعت الحق سبحانه وتعالى أعززت نفسك ، فسجودك وعبوديتك لإله واحد ؛ تعفيك من أن تسجد لألوف الأقوياء فى الأرض ولجوؤك لوجه واحد يكفك كل الأوجه .

واعلم أنك إن التجأت إليه سبحانه ، وكنت فى معيته ، كنت أقوى من غيرك ، ولا يستطيع أحد أن ينالك بسوء ؛ لأنك فى معية الله ، ومن كان الله معه فلا يضره[1] .

ولكن الذى يشرد عن معية الله تعالى ويخالف منهجه هو الذى يشقى[2] .

---

(١) روى الترمذى [٢٥١٦] ، وأحمد فى المسند [١/٢٩٣] عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما قال : كنت خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم يومًا ، فقال : « ياغُلام إنى أُعلمك كلمات : احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجده تجاهك ، إذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله . واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشىء لم ينفعوك إلا بشىء قد كتبه الله لك ، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشىء لم يضروك إلا بشىء قد كتبه الله عليك ، رُفِعت الأقلامُ وجفت الصحف » وقال الشيخ أحمد شاكر إسناده : صحيح .

(٢) إشارة إلى قول الله تعالى ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَـٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾ ﴾ [طه] .

وقوله تعالى : ﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴾ [النحل : ١١٢] .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَـٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَـٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَـٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾ [الأعراف : ٩٦] .

فالحق تبارك اسمه وتعالى جده يريد منا أن نخلص النية فى صدق التوجه إليه سبحانه ، ليضفى علينا من صفات جلاله وصفات جماله .

وانظروا إلى هذ الموقف العظيم فرسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم ومعه أبو بكر الصديق رضى اللَّه تعالى عنه فى الغار . وأبو بكر يخشى على رسول الله صلى اللَّه عليه وسلم من الكفار إن أدركوهم ، فيقول له صلى اللَّه عليه وسلم بعزة الواثق من نصرة ربه وحمايته : ﴿ لَا تَحۡزَنۡ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَاۖ ﴾ [التوبة : ٤٠] . أى : إن رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم يُسرى عن صاحبه لأنهم فى معية اللَّه سبحانه وتعالى ، ذلك أن الصديق رضى اللَّه تعالى عنه قد قال : « لو أن أحدهم نظر تحت قدميه لرآنا » ، وهو كلام صحيح بحكم القانون الكونى ، ولكن رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم لا يتكلم عن القانون الكونى ، بل يتكلم عن طلاقة قدرة المكون سبحانه ، فقال : « ما ظنك باثنين اللَّه ثالثهما »[1] .

فمعية اللَّه أضفت عليهما شيئًا من جلاله وجماله سبحانه ، فحجبت رؤية الكافرين لهم فى الغار .

والحق سبحانه يطلب منك أن تواجه الحياة فى معيته سبحانه وتعالى ، فأنت فى الدنيا مثلًا لو واجهتك المشكلات ولك قريب ذو جاه أو سلطان فإنك تواجه الأمور بشجاعة معتمدًا على جاه قريبك وسلطانه مع إنه من الأغيار ، فما بالك بمعية اللَّه عز وجل الذى خضع كل من فى الوجود لعظمته وسلطانه .

---

(١) أخرج البخارى [٣٤٥٣، ٣٧٠٧، ٤٣٨٦] عن أبى بكر رضى اللَّه تعالى عنه قال : قلت للنبى صلى اللَّه عليه وسلم وأنا فى الغار ، لو أن أحدهم نظر تحت قدميه لأبصرنا ، فقال : « ماظنك يا أبا بكر باثنين اللَّه ثالثهما » .

وعلى المؤمن أن يصبر لقضاء الله تعالى ولا ييأس من رحمته فهو سبحانه : ﴿ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [البقرة : ١٥٣] . وما دام الله مع الصابرين فلا بد أن نعشق الصبر . وكيف لا نعشق ما يجعل الله معنا ؟

والعبادة كلها طاعة تتمثل فى تطبيق ما جاء به المنهج من « افعل » و « لا تفعل » ، وقد يظن البعض أن المنهج يقيد حريته ، ولكن القوى الإيمان يعتبر أن هذا القيد نعمة من الله تعالى يجب أن يحمده سبحانه عليها ؛ لأنه إذا كان قيدك أنت فى شىء فقيد كل الخلق فى هذا الشىء من أجلك .

إذن .. الأوامر والنواهى هى نعمة ، يجب أن نحمد ربنا سبحانه عليها [1] ، وكل ما يجريه الله سبحانه على العبد المؤمن يجب أن يأخذه العبد على أساس أنه نعمة[2] .

---

(١) يقول ربنا سبحانه وتعالى : ﴿ وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ ﴾ [الأعراف : ٤٣] .

(٢) أخرج مسلم [٦٤/٢٩٩٩] عن صهيب رضى الله تعالى عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم صلى الله عليه وسلم : « عجبًا لأمر المؤمن إن أمره كله خير ، وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن ، إن أصابته سراء شكر فكان خيرًا له ، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرًا له .

وورد عن سفيان فى قوله تعالى : ﴿ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ﴾ [التغابن : ١١] . قال : بالرضا والتسليم .

وعن أبى العباس بن عطاء : الرضا ترك الخلاف على الله فيما يجريه على العبد .

وكان عمر بن عبد العزيز كثيرًا ما يدعو : « اللهم رضنى بقضائك وبارك لى فى قدرك حتى لا أحب تعجيل شىء أخرته ولا تأخير شىء عجلته » . =

فحين تشعر أن التكاليف أمر ثقيل على نفسك ، فاعرف أن هذا لمصلحتك ، وعليك أن تحمد اللَّه عليه ، وبذلك يدخل المؤمن فى زمرة الحامدين .

وأنت حين تؤمن باللَّه ، يصبح اللَّه فى بالك ، فلا يشغلك شيء عنه سبحانه .

فالعبادة خضوع للَّه سبحانه وتعالى بمنهجه « افعل » و« لا تفعل » ، والصلاة أساس العبادة ، والسجود هو منتهى الخضوع للَّه ؛ لأنك تأتى بوجهك الذى هو أكرم شيء فيك وتضعه على الأرض عند موضع القدم إعلانا بخضوعك باختيارك لربك جل وعلا .

فيكون هذا هو منتهى الخضوع والخشوع والتسليم للَّه تعالى ، ويتم هذا أمام الناس جميعًا فى الصلاة [1] ؛ إذن .. فالصلاة حضور العبد فى معية ربه ومثوله بين يديه معلنا استدامة الولاء والطاعة للَّه ولرسوله ولكتابه .

= وكان رضى اللَّه تعالى عنه يقول : « ما أصبح لى هوى فى شيء سوى ما قضى اللَّه عز وجل » . وكان ذا النون رضى اللَّه تعالى عنه يقول : « ثلاثة من أعلام التسليم : مقابلة القضاء بالرضا ، والصبر على البلاء ، والشكر على الرخاء » . وثلاثة من أعلام التفويض : « ترك الحكم فى أقدار اللَّه من وقت إلى وقت وتعطيل الإرادة لإرادته فى النوافل وأسباب الدنيا ، والنظر إلى ما يقع به من تدبير اللَّه عز وجل » . وثلاثة من أعلام ذكاء القلب : « رؤية كل شيء من اللَّه ، وقبول كل شيء عنه ، وإضافة كل شيء إليه » .

القضاء والقدر للبيهقى [٩٩-١٠١] بتصرف .

(١) لذلك يكون الإنسان فى هذه الحال أقرب ما يكون من رحمة ربه وفضله ، وقد أخرج مسلم [٤٨٢/٢١٥] عن أبى هريرة رضى اللَّه تعالى عنه أن رسول اللَّه ﷺ قال : « أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد فأكثروا الدعاء » .

واللَّه سبحانه يريد منا مداومة الولاء له سبحانه ، فإذا كنت تحب اللَّه ، فأدم الولاء له باستمرار الصلاة ، واعلم أنك حين تسجد للَّه وتتذلل له ، فإنه سبحانه يزيدك عزة ويكون معك دائمًا ، ويقيك ذل الدنيا .

○○○

قيام الليل .. ومقام الإحسان

إن قيام الليل يدخل العبد فى مقام الإحسان ؛ لذا يقول الحق سبحانه : ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾ كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ [الذاريات] .

إن الإحسان هو أن تفعل شيئًا فوق ما افترضه اللَّه سبحانه ، ولكن من جنس ما افترضه اللَّه سبحانه .

والإحسان ، هو أن تعبد اللَّه كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فهو سبحانه وتعالى يراك .

فالرؤية الإيمانية هى أن تؤمن كأنك ترى ما هو غيب أمامك ، وتكون من هذه الرؤية أكثر يقينًا من رؤية العين ، لأنها رؤية إيمان ورؤية بصيرة .

وقول رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم حينما سأله جبريل عن الإحسان : « أن تعبد اللَّه كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك »[1] .

هو بيان للرؤية الإيمانية فى النفس المؤمنة ، فالإنسان حين يؤمن ، لابد أن يأخذ كل قضاياه برؤية إيمانية ، حتى إذا قرأ آية عن نعيم أهل الجنة فكأنه يرى أهل الجنة وهم ينعمون ، وإذا قرأ آية عن أهل النار اقشعر بدنه ، وكأنه يرى أهل النار وهم يعذبون .

وتروى كتب الحديث أن الحارث بن مالك الأنصارى مر برسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم ، فقال له الرسول صلى اللَّه عليه وسلم : كيف أصبحت يا حارث ؟ فقال : أصبحت مؤمنًا حقًّا .

---

(١) أخرجه البخارى [٥٠] عن أبى هريرة رضى اللَّه تعالى عنه ، ومسلم [١/٨] عن عمر بن الخطاب رضى اللَّه تعالى عنه .

قال : انظر ما تقول ، فإن لكل شيء حقيقة ، فما حقيقة إيمانك ؟

فقال : قد عزفت نفسى عن الدنيا ، وأسهرت لذلك ليلى ، وأظمأت نهارى ، وكأنى أنظر إلى عرش ربى بارزًا ، وكأنى أنظر إلى أهل الجنة يتزاورون فيها ، وكأنى أنظر إلى أهل النار يتضاغون فيها .

فقال صلى اللّٰه عليه وسلم : « يا حارث ، عرفت فالزم ثلاثًا »(١) .

والمؤمن الصادق يعرف أنه فى لقاء دائم مع اللّٰه سبحانه ، لذلك يضع برنامجًا لنفسه موجزه أنه يعلم أنه لا يغيب عن رقابة اللّٰه ولو جزئيًا من الثانية .

والمؤمن يستحضر دائما قول الله تعالى : ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ﴾ [الحديد: ٤] .

إذن .. لا أحد يغيب عن رقابة اللّٰه سبحانه طرفة عين ، لذا فيجب أن يستحي منه سبحانه . وعندما تتيقن أن اللّٰه سبحانه وتعالى ينظر إليك ، فكيف تعصيه ؟

أنت لا تجرؤ أن تفعل ذلك مع عبد مساوٍ لك ، فكيف تفعله مع اللّٰه ؟!

ونحن نعرف أنه سُن لنا قراءة القرآن ليلاً ، وصلاة التهجد ، وهذا فى مدارج المراتب الإيمانية التى يدخل بها الإنسان إلى مقام الإحسان .

فهناك مؤمن يقرأ من القرآن فى وقت من الليل ، ومؤمن آخر يقرأ من القرآن فى وقت آخر ، وكأن المؤمنين يقطعون الليل كله فى قراءة القرآن .

والذى يدخل مع ربه فى مقام الإحسان ، فهو لا يصلى فقط الصلاة المكتوبة بل يتطوع بالنوافل ويقيم الليل .

---

(١) رواه الطبرانى فى المعجم الكبير [٣/٢٦٦/٣٣٦٧] وقال الهيثمى فى المجمع [١/٥٧] وفيه ابن لهيعة : وفيه من يحتاج إلى الكشف عنه ، وعبد بن حميد فى مسنده [٤٤٥] . وذكره الحافظ ابن حجر فى الإصابة [١/٥٩٧/١٤٨] فى ترجمة الحارث بن مالك الأنصارى .

إذن .. المحسن هو الذى أدى ما افترضه اللّٰه تعالى عليه ، وزاد من جنسه فمثلاً : تعبدنا اللّٰه سبحانه بخمس صلوات مفروضات ، فنزيدها لتصل إلى عشرين مثلاً بالنوافل .

وتعبدنا اللّٰه سبحانه بصيام شهر فى العام هو رمضان ، ولكن منا من يصوم فى كل شهر عددًا من الأيام . كالثلاثة المعروفة بأيام التشريق ، أو يوم الإثنين والخميس والبعض يترقى فيصوم يوماً ويفطر يوما .

وتعبدنا اللّٰه سبحانه بالزكاة بالنصاب ، ومنا من يزيد عن النصاب ويتصدق .

وتعبدنا اللّٰه سبحانه بالحج مرة فى العمر ، ولكن منا من يكثر من عدد مرات الحج والعمرة طلبًا للأجر والثواب .

فحين يريد العبد أن يدخل فى مقام الإحسان ، فبابه هو أداء عبادات من جنس ما تعبده اللّٰه به ، فالعبد لا يخترع أو يقترح العبادة التى يعبد بها اللّٰه سبحانه وتعالى ، ولكنه يزيد من جنس ما افترضه اللّٰه سبحانه عليه .

قال سبحانه وتعالى : ﴿ ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾ كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾ وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿١٩﴾ ﴾ [الذاريات] .

وهذه دقة البيان القرآنى التى توضح مقام الإحسان ، فيكون فى مالهم حق للسائل والمحروم ، وليس هناك قدر معلوم للمال الذى يخرج ، لأن المقام هنا مقام الإحسان الذى يعلو مقام الإسلام والإيمان .

فمقام الإسلام – بالنسبة للزكاة مثلاً – قد جاء ذكره فى قول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿٢٥﴾ وَٱلَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٢٦﴾ ﴾ [المعارج] .

فالإنسان فى مقام الإسلام قد يقيد بالإخراج من ماله بحدود الزكاة ، أو فوقها قليلاً ، لكن فى مقام الإحسان فلا حدود لما يخرج من المال .

ومثل هذا أيضاً ، فقد كلف اللَّه المسلم بالصلاة ، وأعلمه بأنه فى سعة من أمره بعد صلاة العشاء ، وله الحق أن ينام إلى الفجر ، فإذا ما أذن المؤذن لصلاة الفجر فليقم إلى أداء الصلاة . لكن المحسن يريد الارتقاء بإيمانه ، فيزيد من صلواته فى الليل عملًا بقول اللَّه تعالى : ﴿ وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ ﴾ [الإسراء : ٧٩] . متأسيًا برسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم .

وهذا ما بينه الحق سبحانه وتعالى مذكرًا لنا بصفات المحسنين فقال : ﴿ وَبِٱلۡأَسۡحَارِ هُمۡ يَسۡتَغۡفِرُونَ ﴾ [الذاريات : ١٨] .

أكلف اللَّه سبحانه الخلق بأن يستغفروا بالأسحار ؟ لا . بل إن الرسول صلى اللَّه عليه وسلم يجيب على رجل سأله عن الفروض الأساسية المطلوبة منه ، فذكر له أركان الإسلام ، ومن بينها الصلوات الخمس المكتوبة .

فقال الرجل : « واللَّهِ لا أزيد على هذا ولا أنقص » .

فقال صلى اللَّه عليه وسلم : « أفلح إن صدق » (١).

---

(١) أخرج البخارى [٤٦] ، ومسلم [٨/١١] عن طلحة بن عبيد اللَّه رضى اللَّه تعالى عنه قال : جاء رجل إلى رسول اللَّه ﷺ من أهل نجد ثائر الرأس قال : يسمع دوى صوته ولا نفقه ما يقول ، حتى دنا ، فإذا هو يسأل عن الإسلام ، فقال رسول اللَّه ﷺ : « خَمسُ صلوات فى اليوم والليلة » فقال : هل على غيرها ؟ قال : « لا ، إلا أن تَطَوَّعَ » . قال رسول اللَّه ﷺ « وصيام رمضان » . قال : هل على غيره ؟ قال : « لا ، إلا أن تطوع » . قال وذكر له رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم « الزكاة » . قال : هل على غيرها ؟ قال : « لا . إلا أن تَطَوَّعَ » قال : فأدبر الرجل وهو يقول : واللَّه لا أزيد على هذا ولا أَنقُص منه . فقال رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم : « أفلَحَ إن صَدَقَ » .

وبذلك دخل هذا الأعرابى فى نطاق المفلحين .

إذن .. فالذى يزيد على هذا يدخله اللّٰه فى زمرة المحسنين .

فالإحسان ، هو أن تفعل فوق ما كلفك اللّٰه من جنس ما كلفك موقنًا أنه يراك .

فيكون قد أدخلك اللّٰه فى مقام الإحسان ، لأنك حين أديت الفرائض وزدت عليها من جنسها النوافل وذقت حلاوتها ، علمت أن اللّٰه يستحق منك أكثر مما كلفك به .

ولذلك فبعض الصالحين قال : « اللّٰهم إنى أخشى ألا تثيبنى على الطاعة ، لأننى أصبحت أشتهيها » .

أى : صارت شهوة نفسى ، فهو خائف أن يفقد حلاوة التكليف والمشقة ، فيقول : يا رب ، إنى أصبحت أحبها ، ومفروض منا أن نمنع شهوات أنفسنا ، لكنها أصبحت شهوة ، فماذا أفعل ؟

إذن .. فهذا الرجل قد دخل فى مقام الإحسان ، واطمأنت نفسه ، ورضيت ، وأصبح هواه تبعًا لما أمر به اللّٰه ورضيه .

ولذلك يجب أن نلحظ أن الحق سبحانه وتعالى حينما تكلم عن المتقين قال : ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾ ﴾ [الذاريات] .

لماذا هم محسنون يا رب ؟ يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴾ [الذاريات : ١٧] .

وهل كلفنى اللّٰه ألا أهجع إلا قليلاً من الليل ؟

لا ، إن التكليف أن يصلى الإنسان العشاء أول الليل ، ثم ينام حتى الفجر ، لكن أن تحلو للمؤمن العبادة ، ويزداد الإيمان فى القلب والجوارح ، ويأنس

العبد بالقرب من الله ، فالحق لا يرد مثل هذا العبد ، بل إنه يحبه ويقربه منه ويدخله فى مقام الإحسان .

يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُواْ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعۡمَلُونَ ﴾ [الأنعام : ١٣٢] .

فالأعمال تتفاوت ، فقد تكون فى ظاهرها قوالب متحدة ، لكن التفاوت إنما ينشأ بكثرة العمل ، أو بإخلاص العامل للعمل ، والمكتسب ، والفاعل له .

ومسألة الإخلاص هذه لا تحددها لوائح ولا قوانين ، إنما يعلمها الحق سبحانه وتعالى المطلع وحده على النوايا وأعمال القلوب .

إذن .. لا يعلمها إلا ربنا سبحانه وتعالى ، وعلى مقدار ذلك تكون الدرجات ، فالدرجات تكون على مقدار ما يزيده العبد من جنس ما فرضه الله عز وجل عليه .

والذى يؤدى ما افترضه الله سبحانه عليه يثيبه على عمله ، والذى يزيد عما فرض الله من جنس ما فرض الله هو أشد فلاحًا .

ولا يصل الإنسان إلى المرتبة التى هى أشد فلاحًا ، إلا إذا كان فى درجة أعلى .

والزيادة على ما فرضه الله ، ومن جنس ما فرض لها ملحظان :

الأول : أن العبد يشهد لربه بالرحمة ، لأنه كلف دون ما يستحق .

الثانى : أن عمل الطاعة قد خُفِّف على المؤمن فاستراح بها .

ألم يقل رسول الله ﷺ عن الصلاة : « يا بلال أرحنا بها »[1] .

---

(١) سبق تخريجه .

وربّ العزة سبحانه يقول فى الحديث القدسى : « من عادى لى وليًا فقد آذنته بالحرب وما تقرب إلىَّ عبدى بشىء أحب إلىّ مما افترضته عليه ، وما يزال عبدى يتقرب إلىّ بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به ، ويده التى يبطش بها ، ورجله التى يمشى بها ، وإن سألنى لأعطينه ، ولئن استعاذ بى لأعيذنه وما ترددت عن شىء أنا فاعله ترددى عن نفس المؤمن ، يكره الموت وأنا أكره مساءته »[1] .

إن الحق سبحانه يضع مسئولية القرب من اللَّه سبحانه فى يد الخلق ، ويسلم المؤمن مفتاح القرب من اللَّه سبحانه ، فمن يكن من أصحاب الخلق الملتزمين بالمنهج يقربه اللَّه عز وجل منه أكثر فأكثر .

إذن .. فمن الناس من يصل بطاعة اللَّه سبحانه إلى كرامة اللَّه عز وجل ، ويلزم باب الحق سبحانه حتى يفتح له ، ومن الناس من يصل بكرامة اللَّه سبحانه أولاً إلى طاعة اللَّه سبحانه ثانيا .

والحق سبحانه يريدنا أن نكون موصولين به سبحانه ، وهذه الصلة تتم بإقامة الصلاة المفروضة خمس مرات فى اليوم ، وترك سبحانه الباب مفتوحًا لتطوعك ، فلا تترك ساعة تستطيع أن تكون فيها بين يدى اللَّه مقيمًا للصلاة أو ذاكرًا أو شاكرًا إلا فعلت .

○○○

---

(١) أخرجه البخارى [٦٥٠٢] ، وابن حبان فى صحيحه [٣٤٧] عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه .

قيام الليل .. من صفات عباد الرحمن

يقول الله سبحانه وتعالى : ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا ﴿٦٤﴾ ﴾ [الفرقان]

فأول صفة لعباد الرحمن أنهم يمشون على الأرض هونًا ، أى : بوقار ورفق ولين وسكون .

وقالوا : إن المشى الهَوْن : هو الذى يسير فيه الإنسان على سجيته بدون افتعال عظمة أو مشية معينة فيها إعجاب بالنفس أو تكبر واختيال ، وبدون انكسار ، وذلة فى المشى أيضًا ، بل يمشى مشيًا طبيعيًّا .

ولا يجب أن يفتخر الإنسان بأية صفة فيه ، فالإنسان ليس عنده أية صفة ذاتية فيه حتى يختال ويتكبر بها ؛ لأن كل صفاته موهبة له من الله سبحانه .

فالمتكبر المختال إنسان ضرب على قلبه الحجاب ، فلم يلتفت إلى ربه الأعلى ، فهو يظن أنه أحسن من الناس كلهم ، ولكنه لو استحضر كبرياء ربه وعلم أن العز إزاره والكبرياء رداؤه سبحانه [١] لاستحى أن يكون متكبرًا .

إذن .. فصفة عباد الرحمن فى ذواتهم أنهم يمشون على الأرض هونًا .

أما صفتهم فى علاقاتهم بالناس فقال عنها ربنا سبحانه وتعالى : ﴿ وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴾ .

و ﴿ ٱلْجَٰهِلُونَ ﴾ هم : السفهاء ، والسفيه هو الذى لا يزن الأمور ، ولا يعقل كلامه ، ولا يضع كل كلمة موضعها ، إذًا .. فهو جاهل .

(١) جزء من حديث أخرجه مسلم [٢٦٢٠/١٣٦] عن أبى سعيد الخدرى وأبى هريرة رضى الله تعالى عنهما .

وهذا الجاهل السفيه لا تكن مثله ، وترد عليه بمثل قوله ، وإلا فلو سفهت عليه كما سفه عليك فقد صرت مثله تمامًا . فلا بد أن تشعره بالفرق بينك وبينه .

ولكن ، إذا اشتدت سفاهته عليك وطغى وبغى ، فيباح لك أن ترد العدوان بمثله ؛ لأنه قد يظن أن هذا السكوت ضعف منك ، فعليك أن تبين له أن هذا السكوت ليس ضعفًا ، ولكنه كرم خُلق (1) .

ومعنى : ﴿ قَالُوا۟ سَلَـٰمًا ﴾ أى : سلام المتاركة ، فإذا جهل عليك إنسان وسبك بلسانه حلمت عليه ، وقلت له : أنا لست مثلك حتى أرد عليك ثم تتركه وتنصرف .

وسلام المتاركة غير سلام التحية الذى تلقيه على من يقابلك حين تبدأه بالسلام ، وقد يتحول سلام المتاركة أحيانًا إلى سلام التحية للانصراف ، مثلما قال الخليل إبراهيم عليه السلام لعمه آزر بعد أن دعاه إلى الإسلام فأبى ، ولم يقتنع فانصرف عنه ، وقال له : ﴿ قَالَ سَلَـٰمٌ عَلَيْكَ ۖ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا ﴾ [مريم : ٤٧] . ذلك حال عباد الرحمن مع ذواتهم ومع الناس ، ثم من بعد ذلك يأتى حالهم مع ربهم .

قال تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَـٰمًا ﴾ [الفرقان : ٦٤] .
فساعة يبيت أحدهم فى الليل يحاسب نفسه : ماذا قدم من عمل فى نهاره ؟

---

(1) إشارة إلى قول الله تعالى : ﴿ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ۚ ﴾
وإن كانت منزلة العفو وكظم الغيظ أعلى وأجل لقول ربنا سبحانه : ﴿ وَٱلْكَـٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [آل عمران : ١٣٤] .

ويتذكر نعم الله سبحانه التى تجلت عليه فى ذلك اليوم ، وهى نعم ليست ذاتية فيه ، ولكنها موهوبة من ربه ، فيشكر الله سبحانه عليها ، ويبيت لربه ساجداً قائماً .

قال تعالى : ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ﴾ [الزمر : ٩] .

وأصل القنوت فى اللغة هو : المداومة على الشىء ، وقد حض وحث القرآن الكريم على ديمومة طاعة الله سبحانه ، ولزوم الخشوع والخضوع .

فلا يستوى الذى يخشع لله فيقوم ليله ساجدًا يرجو رحمة ربه ، مع ذلك الذى يدعو ربه فى الضراء ، وينساه فى السراء . ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [الزمر : ٩] .

أى : هل يستوى الذين يعلمون حقوق الله سبحانه ، فيطيعوه ويوحدوه ، والذين لا يعلمون فيحيدوا عن منهج الله ويخالفوه .

إن السبيل إلى مداومة التذكر هو تجديد الصلة به سبحانه ، والوقوف بين يديه خاشعين فى الصلاة .

وقد مر بنا قول الحق سبحانه : ﴿ كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ [الذاريات] .

وهذا لا يعنى أن المسلم مطالب بأن يقوم الليل كله ، ولكن عليه إن أراد زيادة فى الخير وقربًا من الله أن يقوم ولو قليلًا من الليل .

قال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما : أنه بات فى بيت خالته ميمونة بنت الحارث زوج النبى صلى الله عليه وسلم وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم عندها فى ليلتها فصلى العشاء ثم جاء إلى منزله وصلى أربع ركعات ،

ثم نام ، ثم قام ، ثم قال : نام الغليم أو كلمة تشبهها ، ثم قام فقمت عن يساره فجعلنى عن يمينه فصلى خمس ركعات ثم صلى ركعتين ثم نام حتى سمعت غطيطه أو خطيطه ثم خرج إلى الصلاة[1] .

فاللّه سبحانه يريد منك قبل أن تنام وتستريح أن تذكر الذى جعل لك الليل لباسًا والنهار معاشًا ، وأنعم عليك كل هذه النعم ، فتشكره عليها ، وليكن ذلك بصلاة ركعتين .

والحق سبحانه يقول عن النبى محمد صلى اللّه عليه وسلم وصحبه رضى اللّه تعالى عنهم : ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا ﴾ [الفتح : ٢٩] .

فهم فى ركوعهم وسجودهم إنما يعبرون عن قيم الولاء للّه تعالى . والسجود أقوى سمات الخضوع فى الصلاة ، وما داموا يصلون فلا بد أنهم يتلون آيات اللّه آناء الليل ، وهم يؤدون الصلاة بخشوع كامل .

فأهل المودة والقرب والتقوى يفاض عليهم من المولى سبحانه ، وهم ممن اختصهم اللّه بالعطاءات ، فالذى وجُدت فيه هذه الصفات ، كان مؤمنًا حقًّا وكانت له درجات عند ربه ، تناسب حظه من الإيمان وحظه من الإحسان .

○○○

---

(١) أخرجه البخارى [٦٣١٦] ، ومسلم [١٨١/٧٦٣] عن ابن عباس رضى اللّه تعالى عنهما .

الخشوع .. يزيل الكبر من القلب

فى الصلاة يمثل العبد بين يدى ربه ، وحينما يقف العبد بين يدى اللَّه سبحانه ، لا بد أن يكون فى خشوع وخضوع تام للَّه رب العالمين ، وحينئذٍ يزول كل ما في نفسه من كبرياء . فالعزة والعظمة والكبرياء للَّه تعالى وحده [(١)] .

والمتكبر غافل عن معرفة ربه سبحانه وتعالى ، فإن عدم الإيمان بالنبى ﷺ الذى فرضت عليه وعلى أمته الصلاة ، وعدم الوقوف بين يدى اللَّه سبحانه للصلاة إنما هو رفض للخضوع للَّه سبحانه ، أو استهتار بأوامره سبحانه .

والصلاة تطهر القلب من الاستكبار ؛ لذلك كان مؤدى الصلاة أنها تعود الإنسان على الخشوع والخضوع .

والخضوع الدائم للَّه يجعل الإنسان يستحضر عظمة الحق سبحانه ، فيشعر بضآلة نفسه ، ومدى عجزه أمام خالق هذا الكون العظيم .

ويعلم أن كل ما عنده يمكن أن يذهب به اللَّه تعالى فى لحظة ، ذلك أننا نعيش فى عالم الأغيار .

ولذلك فلنخضع للذى لا يتغير ؛ لأن كل ما يحصل عليه الإنسان هو من اللَّه سبحانه ، وليس من ذاته .

والذين يغترون بوجود الأسباب نقول لهم : اعبدوا واخشعوا لواهب الأسباب وخالقها ؛ لأن الأسباب لا تعمل بذاتها .

---

(١) أخرج مسلم [١٣٦/٢٦٢٠] عن أبى سعيد الخدرى وأبى هريرة رضى اللَّه تعالى عنهما قالا : قال رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم : « العز إزاره . والكبرياء رداؤه . فمن ينازعنى ، عذبته » .

والله سبحانه وتعالى يجعل الأيام دولًا ، أى : متداولة بين الناس ، إنسان يفاخر بقوته فيأتى من هو أقوى منه فيهزمه ، وإنسان يفاخر بماله ، يضيع هذا المال فى لحظة .

واقرأ قوله تعالى : ﴿ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [آل عمران : ١٤٠] .

ولذلك لا بد أن نفهم أن الإنسان الذى يستعلى بالأسباب سيأتى وقت لا تعطيه الأسباب مطلوبه ، وكثير من الناس يغتر بنعمة الله تعالى عليه ، فيتصور أن ذلك لشىء فيه .

ولهذا الإنسان نقول : لا تغتر بما عندك فإنه عطية من الله لك فاحذر أن لا تؤدى حق الله فيه ، فإذا كان مالا فساعد الفقراء ، وإن كان صحة فأعن الضعفاء ، وإن كان علما فعلم به عامة الناس . بذلك تكون أديت حق الله تعالى عليك وخشعت له ، وخضعت لسلطانه .

إذن .. الخاشع هو الطائع لله ، الممتنع عن المحرمات ، الصابر على الأقدار ، الذى يعلم يقيناً داخل نفسه أن الأمر لله وحده ، وليس لأى قوة أخرى ، فيخشع لربه خالقه وخالق هذا الكون له .

الخاشعون هم الذين يقرنون الطاعة بالثواب ، والمعصية بالعقاب والعذاب ؛ لأن الذى ينصرف عن الطاعة لمشقتها ، عزل الطاعة عن الثواب فأصبحت ثقيلة ، والذى يذهب إلى المعصية عزل المعصية عن العقاب فأصبحت سهلة .

وهكذا يتلقى المؤمن مشقات الطاعة بحب ، فيهونها الحق سبحانه عليه ، ويجعله يدرك لذة هذه الطاعة ، لتهون عليه مشقتها ، ويمده سبحانه أيضًا بالمعونة .

فالخاشع الخاضع لله يستشعر حلاوتها ؛ ولذلك كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول عندما يحزبه أمر : « أرحنا بها يا بلال »[1] أى بالصلاة .

والحق سبحانه يقول فى شأن الصلاة : ﴿ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ ﴾ .

إذن .. عندما يأتى التكليف يكون شاقًا ، وما دام شاقًا فهو بحاجة لصلابة إيمان وجلد ويقين ، بحيث يعلم أن ما قام به من عمل وإن كان شاقًا لكنه سيعطيه سعادة كبيرة جدًا .

لذلك عندما يعلم المؤمن بعطاءات الله ونعمه وإحسانه ورضوانه على عبده الطائع الخاشع فإنه يستشعر حلاوة الإيمان ويقبل على عبادته بحب ولا يجد أثرا للمشقة [2] .

والحق سبحانه وتعالى يقول : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۝ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ۝ ﴾ [المؤمنون] .

فالفلاح هو الفوز بأقصى ما تتطلع إليه النفس من خير ، وأول أسباب الفلاح عند المؤمن هو إقامة الصلاة والخشوع فيها .

إما أن تكون الصلاة سببًا من أسباب الفلاح ، فهذا يرجع إلى إقامتها لا مجرد أدائها ، بل لابد من إقامتها على الوجه الأكمل الذى يرضاه الله سبحانه بإتمام ركوعها وسجودها .

---

(١) سبق تخريجه .

(٢) أخرج البخارى [١٦] ، ومسلم [٦٧/٤٣] عن أنس رضى الله تعالى عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان : من كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما . وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله ، وأن يكره أن يعود فى الكفر بعد أن أنقذه الله منه كما يكره أن يقذف فى النار .

وكلمة : « أفلح » مأخوذة من فلح الأرض ، فاعلموا أنكم كما تفلحون الأرض وتجتهدون فى ذلك حتى تأتى لكم بالخير الكثير ، فكذلك حين تجتهدون فى العبادة وطاعة اللّٰه سبحانه فى الدنيا ، فإن ربنا يعطيكم خير الجزاء فى الآخرة .

وأول ظاهرية الفلاح هى الصلاة أيضاً ، فالصلاة صفة لازمة من صفات المؤمن .

ولكن الحق سبحانه يريد أن يبين لنا أن فلاح المؤمن ليس فى مجرد أداء الصلاة فقط ، ولكن فى الخشوع فيها .

والخشوع هو سكينة القلب واطمئنانه ، واستحضار عظمة من تقف بين يديه سبحانه وتعالى .

والخشوع أيضًا معناه : اطمئنان القلب ، ومعنى اطمئنان القلب سكونه فى مهمته هذه ، فلا ينشغل بشىء آخر ؛ لأن اللّٰه سبحانه ما جعل لرجل من قلبين فى جوفه .

يقول تعالى : ﴿ مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِۦ ﴾ [الأحزاب : ٤]

ويروى أن عمر بن الخطاب رضى اللّٰه تعالى عنه دخل المسجد فوجد رجلاً يصلى يعبث بلحيته ، فقال له : لو خشع قلبك لخشعت جوارحك .

لأن الجوارح تستمد طاقتها من القلب الذى يحركها ، فلو كان القلب مشغولًا بشىء آخر لذهل عن الجارحة .

يقول الحق سبحانه : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴿١٠٩﴾ ﴾ [الإسراء] .

الأذقان : جمع ذقن ، والذقن هو الفك الأسفل .

فساعة يخرون ليس على وجوههم فقط ، ولكن على الوجه والأنف والذقن أيضاً ، وهذا دليل على التمكن فى السجود .

﴿ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴾ . أى : كلما سمعوا آية من آيات القرآن ازدادوا خشوعاً وخشية للَّه سبحانه ، وهؤلاء يقول عنهم رب العزة سبحانه وتعالى : ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ [الأنفال : ٢] .

والوجل هو : الخوف فى فزعٍ ينشأ منه قشعريرة ، واضطراب فى القلب ، فذكر اللَّه سبحانه يدفع قلوب المؤمنين إلى الوجل ، وهذا لا يتنافى مع قول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴾ [الرعد : ٢٨] .

ولا تعارض بين القولين ؛ لأن ذكر اللَّه تعالى يأتى بأحوال متعددة ، فإن كان الإنسان مسرفًا على نفسه ، فهو يرجف حين يذكر اللَّه سبحانه الذى خالف منهجه .

وإن كان الإنسان يراعى حق اللَّه فى كل عمل قدر الاستطاعة ، فلا بد أن يطمئن قلبه لحظة ذكر اللَّه ؛ لأنه اتبع منهج اللَّه ما استطاع إلى ذلك سبيلاً .

إذن .. فالخوف أو الوجل إنما ينشأ من مهابة وسطوة صفات الجلال .

والاطمئنان إنما يجىء من إشراقات وحنان صفات الجمال .

ولذلك تجمعهما آية واحدة ، هى قول الحق تبارك وتعالى : ﴿ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ﴾ [الزمر : ٢٣] .

فالجلود تقشعر خوفًا ووجلاً ومهابة من اللّه عز وجل ، ثم تلين اطمئنانًا وطمعًا فى عفو الحَنَّان المنان سبحانه وتعالى .

وهكذا نرى أن الجلود تقشعر من هول الوعيد بالنار ، لمجرد قراءة ما ذكره القرآن عنها ، وبعد ذلك تأتى الرحمة ، وفى هذه الحالة لا تلين الجلود فقط ، ولكن لا بد أن تلين القلوب ؛ لأنها هى التى تعطى اللمحة الإيمانية لكل جوارح الجسد . فالإيمان يحرك أعضاء الجسد البشرى كله .

○○○

اسألوا اللَّه من فضله

ما دمت قد ذقت حلاوة ما أعطاك الحق سبحانه من إشراقات ونفحات وتجليات صفائية ، فعليك أن ترفع يديك داعيًا وسائلًا اللَّه شاكرًا له سبحانه .

ولا تخش ، فإن دعاءك سيصل حتمًا إلى ربك ، فهو القائل سبحانه : ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾ [البقرة : ١٨٦] .

واللَّه سبحانه وتعالى فى عطائه يحب أن يطلب منه الإنسان ، وأن يدعوه ، وأن يستعين به ، وهذا يوجب الحمد والشكر ؛ لأنه يقينا الذل فى الدنيا ، فأنت إن طلبت شيئاً من صاحب نفوذ ، فلا بد أن يحدد لك موعدًا ، أو وقت الحديث ومدة المقابلة ، وقد يضيق بك فيقف لينهى اللقاء .

أما الحق سبحانه فإن بابه مفتوح دائمًا ، فأنت تذهب إليه عندما تريد ، وترفع يديك بالدعاء والمناجاة إليه وقتما تحب ، وتسأله سبحانه ما تشاء ، فيعطيك ما تريده إن كان خيرًا لك ، ويمنع عنك ما تريده إن كان شرًا لك .

واقرأ قول الشاعر :

حَسْبُ نفسى عزًّا بأننى عبد ... يحتفى بى بلا مواعيد ربُّ

هو فى قدسه الأعز ولكن ... أنا ألقى متى وأين أحبُّ

واللَّه سبحانه وتعالى عطاؤه لا ينفد ، وخزائنه لا تفرغ ، فكلما سألته جل جلاله كان لديه المزيد ، ومهما سألته فإنه لا شىء عزيز على اللَّه سبحانه وتعالى ، إذا أراد أن يحققه لك(١) .

---

(١) أخرج مسلم [٢٥٥٧/٥٥] ، وأحمد فى المسند [١٦٠/٥] عن أبى إدريس الخولانى ، عن أبى ذَر رضى اللَّه تعالى عنه عن النبى صلى اللَّه عليه وسلم ، فيما رَوَى عن اللَّه تبارك وتعالى أنه قال : « يا عبادى ! إنى حَرَّمت الظلم على =

والله سبحانه يطلب منك أن تدعوه وأن تسأله ، فيقول سبحانه وتعالى : ﴿ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ [غافر : ٦٠] . والعلماء يقولون : إن مجرد الدعاء هو فتح من الله لعبده ، وباب من أبواب قبول مسألته .

ولنتعلم ما علمه رسول الله صلى الله عليه وسلم لعائشة أم المؤمنين رضى الله تعالى عنها حين سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الدعاء فى ليلة القدر ، فقالت : إن أدركتنى هذه الليلة ، بماذا أدعو ؟

= نفسى وجعلته بينكم مُحرمًا . فلا تظالموا . يا عبادى ! كُلكُم ضال إلا من هديته . فاستهدونى أَهدِكُم . يا عبادى ! كُلكُم جائع إلا من أطعمتُه . فاستطعمونى أُطعمكُم . يا عبادى ! كُلكم عار إلا من كَسَوتُه . فاستكسونى أكسُكم . يا عبادى ! إنكم تخطئون بالليل والنهار ، وأنا أَغفر الذنوب جميعًا فاستغفرونى أَغفر لكم . يا عبادى ! إنكم لن تبلغوا ضرى فتضرونى . ولن تبلغوا نفعى فتنفعونى . يا عبادى ! لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم . كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم . مازاد ذلك فى ملكى شيئًا . يا عبادى ! لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد . ما نقص ذلك من ملكى شيئًا . يا عبادى ! لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا فى صعيد واحد فسألونى . فأعطيت كل إنسان مسألته . ما نقص ذلك مما عندى إلا كما ينقص المخيط إذا أُدخِل البحر . يا عبادى ! إنما هى أعمالكم أُحصيها لكم . ثم أوفيكم إياها . فمن وجد خيرًا فليحمد الله . ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه » .

قال سعيد : كان أبو إدريس الخولانى ، إذا حَدَّث بهذا الحديث جثا على رُكبتيه .

انظروا إلى رسول اللّٰه صلى اللّٰه عليه وسلم ، لقد علم أم المؤمنين عائشة أن تدعو بمقاييس الخير الواسع ، فقال لها : « قولى : اللّٰهم إنك عفو تحب العفو فاعف عنى »[1] .

ولا يوجد جمال أحسن من العفو ، ولا يوجد خير أحسن من العفو .

ومعنى العفو محو الأثر ، كالسائر فى الصحراء تترك قدماه علامة ، وتأتى الريح لتزيل هذا الأثر ، كأن هناك ذنبًا والذنب له أثر ، وأنت تطلب من اللّٰه أن يمحو الذنب .

وعندما ندعو بالدعاء الذى علمه لنا الحق سبحانه : ﴿ وَٱعۡفُ عَنَّا وَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَآۚ أَنتَ مَوۡلَىٰنَا فَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾ [البقرة : ٢٨٦] .

فنحن بهذا الدعاء نتوجه إلى اللّٰه سبحانه ضارعين : أنت يا الله تعلم أننا مهما أوتينا من اليقظة الإيمانية والحرص الورعى ؛ فلن نستطيع أن نؤدى حقك كاملاً ، ولذلك لا ندخل عليك إلا من باب أن تعفو عنا .

والعفو هو : محو الذنب مع عدم المؤاخذة من اللّٰه للعبد بسببه ، أما الرحمة فهى الدعاء بألا يدخلنا فى الذنب أصلًا .

والحق سبحانه يقول : ﴿ وَيَعۡفُ عَن كَثِيرٍ ﴾ [الشورى : ٣٤] .

كلمة « يعفو » من « عفا » تدل كما قلنا من قبل على أن هناك أثرًا قد محى ، تمامًا كما يمشى إنسان فى الرمال ، فتحدث أقدامه أثرًا ، ثم تأتى الريح فتملأ مناطق هذا الأثر بالرمال وتزيله .

وهى تطلق فى الدين على محو اللّٰه سبحانه وتعالى لذنوب عباده ، فلا يعاقبهم عليها .

---

(١) رواه الترمذى [٣٥١٣] ، وابن ماجه [٣٨٥٠] ، وأحمد فى المسند [١٧١/٦] ، وصححه الألبانى .

وما دام الإنسان قد ندم واستغفر من ذنبه ، فقد تاب إلى الله تعالى وفى الحديث : أن الندم توبة (١) .

وهو وحده سبحانه الذى يملك العفو والمغفرة ، فلا يُدخلن أحدكم نفسه فى هذه المسألة ، ولا يجب أن يحرج إنسان مذنبًا ما دام قد استغفر من يملك العفو .

ومن يسمع من يستغفر الله ويطلب العفو منه سبحانه عليه أن يقول له : يعفو الله عنك .

لأنه لا أحد يعرف إن كان الله سبحانه قد عفا عنه أم لا ، ولكن علينا أن نعينه بالدعاء له .

ومن يعيّر مذنبًا تاب من ذنبه نقول له : تأدب ؛ لأنه لم يرتكب الذنب عندك ، ولكنه ارتكبه عند ربه وطلب العفو منه سبحانه ، والعفو شأن الرب العفو الغفور ، القائل سبحانه وتعالى : ﴿ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ [آل عمران : ١٣٥] .

إن الحق سبحانه وتعالى خلق خلقه ، ويعلم أن الأغيار تأتى فى خواطرهم وفى نفوسهم ، وأن شهواتهم قد تستيقظ فى بعض الأوقات ، فتنفلت إلى بعض الذنوب . وهكذا المسلم دائمًا لمة للرحمن ولمة للشيطان ، نسأل الله أن تكون اللمة الأخيرة للرحمن الرحيم .

---

(١) روى ابن ماجه [٤٢٥٢] ، وأحمد فى المسند [٣٧٦/١] عن عبد الله بن معقل ابن مقرن ، قال : دخلت مع أبى على عبد الله بن مسعود ، فقال : أنت سمعت النبى صلى الله عليه وسلم يقول : « الندم توبة » ؟ قال : نعم . وصححه الألبانى .

ولأنه رب رحيم شرع لعبده إذا أذنب ذنبًا أن يعود إليه تائبًا مستغفرًا نادمًا ، لأن اللَّه يحب أن يتوب عبده ويرجع إليه فهو سبحانه ﴿ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴾ [البقرة : ٢٢٢] .

وفى الحديث « للَّه أفرح بتوبة عبده من أحدكم سقط على بعيره وقد أضله فى أرض فلاة »[1] ، لأن المعصية عندما تأخذ الإنسان من منهج اللَّه لتعطيه نفعًا عاجلًا ، فإن حلاوة الإيمان - إن كان مؤمنًا صحيح الإيمان - ستجذبه مرة أخرى إلى الإيمان بعيدًا عن المعاصى .

ولذلك قيل : إن انتفعت بالتوبة وندمت على ما فعلت ، فإن اللَّه لا يغفر لك ذنوبك فقط ، ولكن يبدل سيئاتك حسنات . لقوله تعالى : ﴿ فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ﴾ [الفرقان : ٧٠] .

وكان من دعاء إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام : ﴿ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [البقرة : ١٢٨] . وقولهما : ﴿ وَتُبْ عَلَيْنَآ ﴾ ليس من الضرورى أن نفهم هذا على أنها توبة عن معصية ، وأن إبراهيم وإسماعيل وقعا فى المعصية فيريدان التوبة إلى اللَّه ، وإنما لأنهما علما أن من سيأتى بعدهما سيقع فى الذنب فطلبا التوبة لذريتهما .

وباب التوبة من رحمة اللَّه تعالى مفتوح دائمًا لا يغلق : فقد ورد فى الحديث : « إن اللَّه عز وجل يبسط يده بالليل ليتوب مسىء النهار ، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسىء الليل ، حتى تطلع الشمس من مغربها »[2] .

---

(١) أخرجه البخارى [٦٣٠٩] عن أنس رضى اللَّه تعالى عنه .

(٢) أخرجه مسلم [٣١/٢٧٥٩] عن أبى موسى رضى اللَّه تعالى عنه .

والليل ينتهى فى مكان ، ويبدأ فى مكان آخر ، وهكذا النهار ، فالليل مستمر دائمًا ، والنهار مستمر دائمًا ، فيداه سبحانه مبسوطتان دائماً .

والحق سبحانه يعلمنا أن الإنسان يدعو بالخير لنفسه ، وأنت لا تستطيع أن تحدد هذا الخير ، لأنك قد تنظر إلى شىء على أنه الخير وهو شر ، وما دمت تدعو فأنت تظن أن ذلك هو الخير[1] .

إذن .. فملحظية الأصل فى الدعاء هى أنك تحب الخير ، ولكنك قد تخطئ الطريق إلى فهم الخير أو الوسيلة إلى الخير .

أنت تحب الخير لا جدال ؛ لذلك تكون إجابة ربك إلى دعائك هى أن يمنع إجابة دعوتك ، إن كانت لا تصادف الخير بالنسبة لك .

ولذلك يجب أن تفهم أنك حين لا تجاب دعوتك كما رجوت وطلبت ؛ أن الله سبحانه لم يستجب لك ، فتقول : لماذا لم يستجب الله سبحانه لى ؟

لا ، لقد استجاب الله لك ، ولكنه نحى عنك حمق الدعوة ، أو ما تجهل بأنه شر لك ، فالذى تدعوه إله حكيم ، خبير بعباده وماينفعهم فكأنه قال لك : أنا سأعطيك الخير ، والخير الذى أعلمه أنا فوق الخير الذى تعلمه أنت ، ولذلك فمن الخير لك ألا تجاب إلى هذه الدعوة .

وأقرأ قول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِ ۖ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا ﴾ [الإسراء : ١١] .

فإذا دعوت فى حال انفعال غضب على نفسك أو على من تحب ، فمن مصلحتك أن لا يستجيب الله سبحانه لدعائك ، وما دمت عرفت الحكمة فى

---

(١) قال الله سبحانه وتعالى : ﴿ وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِ ۖ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا ﴾ [الإسراء : ١١] .

هذا ، فإذا دعوت بخير فى رأيك ، وأخر اللّٰه سبحانه لك الإجابة ، أو لم يستجب لك . فاعلم أن هذا الذى تظنه خيرًا فيه شر ، فمنعه اللّٰه عنك ، لأن الإنسان دائمًا يستعجل ، ويريد أن يحوز كل شىء .

إذن .. فحظك فى الدعاء لا أن تجاب ، ولكن حظك فيه أن تظهر ضراعة عبوديتك وحاجتك لربك .

فمن يقول : لقد دعوت ربى فلم يستجب لى .

نقول له : لا تكن قليل الفطنة ، فمن الخير لك أنك لا تجاب إلى ما طلبت ، فاللّٰه يعطيك الخير فى الوقت الذى يريده .

ولذلك ، إياك أن تدعو وفى بالك أن تُقضى حاجتك بالدعاء وكفى .

ولكن عليك بالدعاء لقصد إظهار الضراعة والذلة والخشوع والانكسار للعزيز الجبار ، قال تعالى ﴿ قُلْ مَا يَعْبَؤُا بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ ﴾ [الفرقان : ٧٧] .

وإياك أن تفهم أنك تدعو اللّٰه سبحانه ليحقق لك مطالبك مهما كانت ، فإن هناك أقدارًا وضعها اللّٰه سبحانه لتحقيق مطالب العباد ، فهو سبحانه يعطى بقدر ، ويمنع بقدر .

وما عليك إلا أن تجعل حظك من الدعاء الخشوع والتذلل والضراعة له سبحانه ، لا إجابتك إلى ما تدعو إليه ، إنك دعوت لتطلب الخير ، فدع الحق سبحانه بقيوميته وعلمه يحقق لك الخير .

والحق سبحانه هو القائل : ﴿ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة : ٢٦١] .

إذن .. فمعرفتك ليست نهائية فى تقرير الخير والشر ، لذلك سلم أمرك إلى ربك فهو سبحانه أعلم بما ينفعك وبما يضرك .

فقد تلح فى دعاء لو استجيب لك لكان شرا ، والله سبحانه يعلم ما هو خير لك ، وهو سبحانه يجيب أحيانًا بعض خلقه فى أشياء كان الإنسان منهم يتمنى أن توجد ، ثم يكتشف الإنسان أنها لم تكن خيرًا .

وأحياناً يأتى لك بأشياء كنت تظن أنها شر لك ، فتجد فيها الخير ، وهكذا يصحح لك الحق سبحانه بحكمته تصرفاتك الاختيارية .

إن الحق سبحانه يعالج قضية الدعاء بالخير أوالدعاء بالشر ، لأن الإنسان قد يضيق ذرعاً بأمور تحيط بذاته أو بالمحيط به ، فإذا ضاق ذرعاً بأمور تحيط به فى ذاته من ألم كمرض مثلاً ، أو عاهة لا يقوى على الصبر عليها ، أو لا يقوى على تحملها ، فيقول : « يا رب أرحنى بالموت » .

إذن .. هو هنا يدعو على نفسه بالموت ، فلو أن الله سبحانه استجاب دعاءه لقُضيت المسألة .

وإذا كنت تقول : أنا أدعو بالخير ، والله سبحانه وتعالى لا يعطينى فخذ مقابلها ؛ أنك تدعو بالشر على نفسك ، ولا يجيبك الله . ثم ألا يضيق الأب أحياناً ذرعاً بمن حوله ، فيقول : فليأخذنى الله ، لأستريح من وجوهكم ؟

والدعاء هو تضرع وذلة وخشوع ، وإقرار منك بأنك عاجز ، وتطلب من ربك المدد والعون ، واستحضار عجزك أمام قدرة ربك يمثل لك استدامة اليقين الإيمانى .

وما جعل ربنا للناس حاجات إلا من أجل ذلك ؛ لأن الإنسان إذا ما رأى الأشياء تنفعل له ، ويبتكر ويخترع فقد يأخذه الغرور ، فيأتى له بحاجة تعز وتعجز فيها الأسباب ، فيقف ليدعو .

فتجد من كان متكبرا وعنده صلف وغطرسة ، يذهب إلى رجل « غلبان » زاهد ليس عنده من الجاه والسلطان غير أنه طائع لربه ، عابد له قائم بأمره ،

فيقول له : أستحلفك بالله أن تدعو لى لأنى فى أزمة . والذى يسأل « هذا الغلبان » الزاهد هو رجل عزيز فى قومه ، لكنه يظن أن « هذا الغلبان » الزاهد العابد أقرب إلى الله سبحانه منه .

والحق سبحانه وتعالى يطلب منا أن ندعوه ، فيقول : ﴿ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴾ [الأعراف : ٥٥] .

ذلك لأنه سبحانه يعلم أننا سنواجه لحظات متعددة نعجز فيها عن أشياء ، فبدلاً من أن تظل مقهورًا بصفة العجز عن الشىء : فاذكر أن لك ربًّا قويًّا مقتدرًا يجبر ضعفك وعجزك .

وقلنا من قبل : من له أب لا يحمل همًّا للحياة ، فإذا كان الذى له أب لا يحمل همًّا لمطلوبات الحياة ، فمن له رب عليه أن يستحى ، ويعرف أن ربه سيوفر له الخير .

وقد يجعل الحق سبحانه مِنْ تأبّى الأسباب وامتناعها عليك مغزى لتلتفت إلى الله سبحانه ، لكن التفاتك إلى الله سبحانه لا يصح أن يكون بغرض أن يقضى حاجتك ، بل اجعل أساس التفاتك لله سبحانه أن تظهر العجز أمامه ، والخضوع والخشوع ؛ ليعطيك ما لم يكن فى بالك حين تدعوه .

وليكن دعاؤك دعاء خفية بينك وبين ربك ، فلا ترفع صوتك بالدعاء ظنًّا منك - خطأ - بأن ربك لن يسمعك ، وهذا خطأ فاحش فإن الله سبحانه سميع عليم ، يسمع كلامك ويعلمه حتى من قبل أن تقوله بلسانك ، والنبى صلى الله عليه وسلم علمنا حين كان فى غزوة غزاها ، فنزل أصحابه واديًا ، فلما نزلوا الوادى صاحوا بالتهليل والتكبير ، فقال صلى الله عليه وسلم : « يا أيها

الناس ، اربعوا على أنفسكم ، فإنكم لا تدعون أصم ولا غائبًا ، إنه معكم ، إنه سميع قريب ، تبارك اسمه ، وتعالى جده »(١) .

والدعاء للّٰه سبحانه وتعالي خفية يبتعد بك عن الرياء ، وهو أستر لك فى مطلوباتك من ربك .

والدعاء بالخضوع والخشوع والتذلل يكسر فيك شهوة الكبرياء ، وشهوة الغطرسة ، وشهوة الجبروت .

ما دام الدعاء فى ذلة وخضوع ، فقد تكون أهلًا لما جاء عن رسول اللّٰه صلى اللّٰه عليه وسلم حين قال : ينزل اللّٰه إلى السماء الدنيا كل ليلة . حين يمضى ثلث الليل الأول . فيقول : أنا الملك . أنا الملك . من ذا الذى يدعونى فأستجيب له ؟ من ذا الذى يسألنى فأعطيه ؟ من ذا الذى يستغفرنى فأغفر له ؟ فلا يزال كذلك حتى يضىء الفجر(٢) .

ولأن الإنسان مرتبط بمسائل يحبها ، فما دامت لم تأت فهو يقول دائماً : يا رب .

وعلى المؤمن كما قلنا من قبل ألا يجعل حظه من الدعاء أن يجاب ، إنما حظه من الدعاء ما قاله الحق : ﴿ قُلْ مَا يَعْبَؤُاْ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ ﴾ [الفرقان : ٧٧] ، فمعنى الربوبية والمربوبية أن تقول دائمًا : « يا رب » .

والحق سبحانه وتعالى يضع شرطًا للاستجابة للدعاء ، وهو أن يستجيب العبد للّٰه سبحانه وتعالى وذلك قوله تعالى : ﴿ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِي وَلْيُؤْمِنُواْ بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾ [البقرة : ١٨٦] .

---

(١) أخرجه البخارى [٢٩٩٢] عن أبى موسى الأشعرى رضى اللّٰه تعالى عنه .

(٢) أخرجه مسلم [١٦٩/٧٥٨] عن أبى هريرة رضى اللّٰه تعالى عنه .

إذن .. على المسلم ألا يشغل نفسه بالإجابة ، فقط عليه أن ينشغل بذكر اللّٰه وقراءة القرآن وعمل الصالحات ثم يترك الإجابة لمولاه جل جلاله ، وفى الحديث القدسى : « من شغله القرآن عن ذكرى ومسألتى أعطيته أفضل ما أُعطى السائلين »(١) .

ومثال ذلك : سيدنا إبراهيم عليه السلام حين ألقى فى النار ، قال له جبريل : ألك حاجة ؟

لم ينف أن له حاجة ، فلا يوجد استكبار على البلوى ، ولكنه قال لجبريل : أما إليك فلا .

صحيح أن له حاجة إنما ليست لجبريل ؛ لأنه يعلم جيدًا أن نجاته من النار المطبوعة على أن تحرق وقد أُلقى فيها ، هى عملية ليست لخلقٍ أن يتحكم فيها ، ولكنها قدرة لا يملكها إلا من خلق النار .

فقال لجبريل عليه السلام : « أما إليك فلا » .

لذلك جاء الأمر من الحق سبحانه للنار : ﴿ قُلْنَا يَـٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَـٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴾ [الأنبياء : ٦٩] .

ويقول الحق سبحانه يقول : ﴿ كٓهيعٓصٓ ۝١ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ ۝٢ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ۝٣ ﴾ [مريم] .

الحق سبحانه وتعالى يعرض هذه القضية فى أن رحمة اللّٰه لعبده زكريا عليه السلام تتجلى فى أن اللّٰه سبحانه استجاب دعاء زكريا عليه السلام فى أن يعطيه ولدًا على كبر سنه .

---

(١) جزء من حديث رواه الترمذى [٢٩٢٦] عن أبى سعيد رضى اللّٰه تعالى عنه ، وصححه الألبانى .

والنداء : معناه لغة طلب إقبال ، ولكن إذا ناديت ربك ، أيصح أن تقول : إننى أطلب إقبال ربى ؟

هذا لا يصح ، لأن ربك أقرب إليك من حبل الوريد ، فلا يحتاج إلى النداء بمعناه المتعارف عليه عند الناس . فإذا أُطلقت كلمة « النداء » بالنسبة للّه تعالى ، فالمراد بها الدعاء ؛ لأن ربك قريب منك ، ولا يحتاج إلى نداء .

ولذلك قال تعالى عن زكريا : ﴿ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ﴾ .

فإياك أن تظن أن اللّه يحتاج إلى رفع الصوت لكى تسمعه ، فالسر والجهر عند الحق سواء . قال تعالى : ﴿ وَأَسِرُّواْ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُواْ بِهِۦٓ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾ [الملك : ١٣] .

فالحق سبحانه سوَّى بين الجهر والسر فى معلومه ، فهو يعلم السر كما يعلم الجهر .

أما زكريا عليه السلام فقد دعا ربه دعاء خفيًا ، حتى لا يسمعه أبناء عمومته ومواليه ، فيغضبوا منه ، فهو لم يأمنهم على حمل منهجه من بعده ؛ لأن ظاهر حركتهم فى الحياة غير متسق مع المنهج ، فهم غير مأمونين ، وإذا كانوا غير مأمونين على أنفسهم فهم غير مأمونين على الناس .

فإذا دعا وقال : يا رب أعطنى ولدًا يرثنى ويرث النبوة ، فسيغضب هؤلاء الموالى ويقولون : إنه لا يأمنا ويعادونه ، فجعل الدعاء خفيًا حتى لا يشعر به أحد .

ونداء زكريا كان هو قوله : ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ۝ وَإِنِّي خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِى وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ۝ ﴾ [مريم] .

وأنت فى الدعاء إما أن تقول : يا اللّه . أو تقول : يا رب .

وأنت حين تقول « يا رب » فهذا أمر يتعلق ببنية حياتك ، ولكنك فى المنهج تقول : « يا اللّه » .

فهنا قال : ﴿ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي ﴾ . لأن الكلام فى صلاح بنيته ، لينجب ، وهذا أمر من أمور ربوبية اللّه سبحانه لخلقه ، وإن كانت العلة إلهية ؛ لأنه يريده ليحمل منهج اللّه سبحانه من بعده .

○○○

الصلاة .. أرجى أوقات قبول الدعاء

الوقوف فى الصلاة فى حضرة الحق سبحانه يعطى الإنسان القوة لتحمل الأمر الثقيل ، فما دام هناك ثقل فلا بد أن تزيد الطاعة .

ولذلك كان الرسول ﷺ « إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة »(1) .

لأن حزب الأمر معناه أن أسبابه ضاقت عنه ، وحين تضيق الأسباب لا بد من اللجوء إلى المسبب .

فإذا ضاقت بك الأسباب ، فلم تجد مخرجًا ولا طريقًا إلا أن تلجأ إلى اللَّه ، فتوضأ وصل ركعتين غير الفريضة ، ثم ادع بما شئت ، فيفرج اللَّه كربك .

والحق سبحانه يعطينا مثالاً من قصة زكريا عليه السلام ، حينما دعا ربه فقال : ﴿ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ قَالَ رَبِّ هَبْ لِى مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴾ [آل عمران : ٣٨] .

وحينئذ جاءه الفرج : ﴿ فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّى فِى ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [آل عمران : ٣٩] .

لقد نادته الملائكة وهو فى أعظم لقاءاته مع ربه ، أو هو حينما دعا ربه قد أخذ ماعلمه اللَّه للأنبياء إذا حزبهم أمر : قوموا إلى الصلاة .

---

(1) ذكره ابن حبان فى الثقات [١٢٧٩٢/١٦٨/٨] عن حذيفة بن اليمان رضى اللَّه عنه .

وعند أبى داود [١٣١٠] ، وأحمد فى المسند [٣٨٨/٥] ، وصححه الألبانى بلفظ : « كان النبى صلى اللَّه عليه وسلم إذا حزبه أمر صلى » .

إذَن .. فلنقف بين يدى اللَّه سبحانه ، وليجربها كل منا ، عندما يصعب عليه أى شىء ، وتتأزم الأمور ، وتمتنع الأسباب ، فليقم ويتوضأ ، وليقف بين يدى اللَّه خاشعًا خاضعًا مستسلمًا معلنًا عجزه واضطراره ، وليقل : إنه أمر يا رب عز علىَّ فى أسبابك .

وأنا أجزم بأن الإنسان ما إن يُسلِّم من هذه الصلاة ، إلا ويكون الفرج قد جاء وذلك إيمانًا وتصديقًا بفعل رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم الذى كان كلما حزبه أمر صلى(1) .

فبدلاً من أن تتحير وتذهب إلى هذا أو ذاك ، وتذهب نفسك حسرات على ما فات ، اذهب إلى اللَّه سبحانه من أقصر الطرق وهو : الصلاة ، واضرع إليه وألح عليه فى طلبك فإن اللَّه يحب الملحين فى الدعاء(2) .

---

(1) الحديث السابق .

(2) قال الألبانى فى منار السبيل [٦٧٧/١٤٣/٣] حديث : « إن اللَّه يحب الملحين فى الدعاء » موضوع : قال العقيلى فى الضعفاء [٤٦٧] وأبو عبد اللَّه الفلاكى فى الفوائد [٢/٨٩] من طريق بقية حدثنا يوسف بن السفر عن الأوزاعى عن الزهرى عن عروة عن عائشةى مرفوعا به .
قلت : وهذا إسناد واهٍ جدًّ ، بل موضوع ، آفته يوسف بن السفر فإنه كذاب ، بل قال البيهقى : « هو فى عداد من يضع الحديث » . وقد دلسه بقية مرة وأسقطه من الإسناد ، ورواه لأوزاعى مباشرة بصيغةالعنعنة ، ولذلك اتهم بقية بأنه كان يدلس عن الضعفاء والمتروكين وهذه الرواية من الشواهد على ذلك .
أخرجها العقيلى أيضا وأبو عروبة الحرانى فى جزء من حديثه [ق١٠٠/٢٠٠] وعبد الغنى المقدسى فى الدعاء [ق١٤٥/٢] . ثم روى العقيلى من طريق عيسى بن يونس عن الأوزاعى قال : كان يقال : أفضل الدعاء الإلحاح على =

إذن : لماذا تتعب نفسك أيها العبد ، ولك رب قادر حكيم ؟

يقولون : إن من له أب لا يحمل همًّا . ونقول : إن الذى له رب أولى بالاطمئنان ؟

إن زكريا عليه السلام قد دعا الله سبحانه فى الأمر الذى حزبه ، وبمجرد أن دعا ، قام إلى الصلاة ﴿ فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّى ﴾ .

إن الملائكة لم تنتظر إلى أن ينتهى من صلاته ، يقول تعالى : ﴿ فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّى فِى ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ ﴾ [آل عمران : ٣٩] .

ولذلك فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم يعلمنا أنه إذا أجهدنا أمر وأرهقنا أن لا نقصر رؤيتنا على جهدنا وحده ، ولكن لنلجأ إلى الله سبحانه ، فنهزم الأمر الذى يحزبنا ولا نقدر عليه .

إننا عندما نأخذ من سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم المثل والقدوة ، نعرف أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يكن يَحْزِبه أمر يتعلق بدنياه ، وإنما أمر يتعلق بمنهج الله سبحانه وبالدين .

لذلك يذهب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى من يعطيه ، ويعطى أهل الإيمان كل الطاقة ، إنه يذهب إلى الصلاة ، ويعلن أن أسبابه قد انتهت ، ولم يعد يقوى على تحمل هذا الأمر الذى حزبه .

إذن : فحين تعز الأسباب على المؤمن فى أمرٍ ما – بعد أن يكون قد أعطى كل جهده واستنفد كل أسبابه – فعلى المؤمن أن يقوم إلى الصلاة ويدعو الله ، فييسر الحق سبحانه هذا الأمر للمؤمن بالخير .

= الله تبارك وتعالى والتضرع إليه . وقال العقيلى : حديث عيسى بن يونس أولى ، ولعل بقية أخذه عن يوسف بن السفر . قلت : والرواية الأولى تشهد لكون بقية إنما أخذه عن ابن السفر هذا الكذاب . إرواء الغليل [٦٧٧/١٤٣/٣] .

فالأسباب إنما هى يد اللَّه الممدودة للإنسان فى الدنيا ، ولا يمكن للمؤمن أن يرفض يد اللَّه . فإذا استنفد الأسباب كان أهلاً لأن يستجيب اللَّه سبحانه له لقوله تعالى : ﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ ﴾ [النمل : ٦٢] .

فحين يقف المؤمن بين يدى اللَّه سبحانه ويصلى ، يمتلئ بالرضا والتوازن النفسى .

إذن : فساعة يأتينا أمر شديد ، لابد أن نتجه إلى اللَّه عز وجل ، وأفضل مكان نلتجئ فيه إلى اللَّه تعالى هو فى المسجد الذى هو بيته سبحانه [(١)] .

فقد كان صلى اللَّه عليه وسلم إذا كانت ليلة ريح شديدة ؛ كان مفزعه إلى المسجد حتى يسكن الريح ، وإذا حدث فى السماء حدث من خسوف شمس أو قمر ؛ كان مفزعه إلى الصلاة حتى ينجلى[(٢)] .

ولكن بعض الذين يحترفون الجدل واللجاجة يقولون : ماذا سيفعل اللَّه له ؟ دخل المسجد وخرج كما هو .

---

(١) روى الطبرانى فى الكبير [١٠٣٢٤/١٦١/١٠] عن عبد اللَّه قال ، قال رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم : إن بيوت اللَّه فى الأرض المساجد وإن حقًّا على اللَّه أن يكرم من زاره فيها .

ورواه [١٠٦٠٨/٢٦٢/١٠] عن ابن عباس موقوفًا بلفظ : إن المساجد بيوت اللَّه فى الأرض تضىء لأهل السماء كما تضىء نجوم السماء لأهل الأرض » .

وذكره الهيثمى فى مجمع الزوائد [٢٢/٢] وقال : فيه عبد اللَّه بن يعقوب الكرمانى وهو ضعيف .

(٢) رواه الطبرانى فى مسند الشاميين [٥٦٨/٣٢٣/١] عن أبى الدرداء رضى اللَّه تعالى عنه .

ونقول : هذا هو الظاهر من الأمر ، ولكنك لا تعرف ماذا حدث فى داخله ، أنت تتحدث عن العالم المادى الذى فيه العلاجات المادية ، ولكن اللّه سبحانه وتعالى يصلح ما فى داخل النفس دون أن تحس أنت ؛ فإن أنوار اللّه تدخل القلوب فتجعلها تطمئن . وتدخل النفوس ؛ فتجعلها تحس بالرضا والأمن .

أنت أيها الإنسان إذا أصابك أى شىء من هم أو كرب أو ظروف معيشة ، أو مرض ابن ، ما عليك إلا أن تتوضأ وتتوجه إلى خالقك بالصلاة ، والدعاء أن يكشف عنك هذا الأمر .

فهو سبحانه الأقدر على ذلك من أى أحد ، فهو خالقك وواضع قانون صيانتك ، وهو الأقدر على إصلاح حالك .

والحق سبحانه يصلحنا بالغيب ، فلا تعرف ماذا فعل بك وأنت واقف أمامه تصلى ، لكنك تشعر بلا شك أن شيئًا فيك قد انصلح .

لذلك كان صلى اللّه عليه وسلم يقول لبلال : « يا بلال أرحنا بالصلاة »[1] .

ذلك أن هناك من يقول لك : إن الصلاة تكون على كتفى مثل الجبل ، فإذا صليت أرتاح .

نقول له : أنت ترتاح بها ، ولا ترتاح منها ؛ لأنك وقفت بين يدى اللّه سبحانه ، وما دام الإنسان واقفًا أمام ربه فكل أمر شاق يصبح سهلاً .

ولذلك يقول أحد العابدين : أنا لا أواجه اللّه سبحانه بعبوديتى ، ولكن أواجهه بربوبيته فأرتاح ؛ لأنه ربى ورب العالمين .

---

(١) رواه أحمد فى المسند [٣٦٤/٥] عن رجل من أسلم وقال الأرناؤوط : رجاله ثقات ، لكن اختلف على سالم بن أبى الجعد فى إسناده .

فالمؤمن ترتاح نفسه عندما يؤدى الصلاة ، لأنه عَشَقَ الطاعة بحيث لم يعد يجد فيها مشقة أو تكليفًا ، لذلك تجد المؤمن خائفًا ، وكأنه قد فهم أنه لا بد أن توجد مشقة . ولمثل هذا الإنسان الصالح نقول : لقد هانت عليك مشقة التكليف ؛ فأصبحت لا تجد فيه ما يؤرقك ولا يتعبك لأنك عشقته ، فألفت العبادة ، وحدث الانجذاب بينك وبين الطاعة .

إذن .. فعشق التكليف يدل على أنك ذقت حلاوة الطاعة ، وقد يكون شاق عليك ؛ لأنه يخرجك عما ألفت من الاعتياد . فعندما يأتيك أمر فيه مشقة تقول : إن هذه المشقة يريد اللَّه سبحانه بها لى حُسن الجزاء . فإذا ما عشقت الصلاة صارت حبًا لك ، فيخفف اللَّه سبحانه عليك أمور التكليف الأخرى ، ويجعلك محبًا لها .

لأن التكليف ينتقل من المتعة إلى الراحة ، ويتمتع الإنسان فيها بتجليات ربه وفيوضاته ، فترتاح نفسه وتهدأ .

○○○

بيوت اللّـه

السؤال : كيف جعل اللّٰه لي كمسلم الأرض مسجدًا وطهورًا ؟

الجواب : معلوم أن أركان الإسلام خمس هى : شهادة أن لا إله إلا اللّٰه وأن محمدًا رسول اللّٰه . وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وصوم رمضان ، وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلا .

إذن .. فالصلاة هي الركنِ الثانيِ ، والملازمِ للمؤمنِ ، لا يرفعِ عنه فى أى ظرف من ظروف حياته ، إن لم يستطعها قائمًا صلى قاعدًا ، وإن لم يستطعها قاعدًا صلى مضطجعًا ، وإن لم يستطعها مضطجعًا صلى بالإيماء أو بالإشارة ، وإن لم يستطع أن يومئ أو يشير وله تعقل فعليه أن يستحضر أركان الصلاة بقلبه ويمررها على باله .

إذن .. فالصلاة أمر لازم لا يمكن للمؤمن أن ينفك عنه أبدًا ، لذلك كانت الصلاة الركن الثانى من أركان الإسلام ومن أركان كل مسلم ، ولهذا أخذت حظها من التكليف المباشر والتكليف المباشر لرسول اللّٰه صلى اللّٰه عليه وسلم تذكره بمقام قربه صلى اللّٰه عليه وسلم من ربه تعالى عند سدرة المنتهى وأوحى اللّٰه تبارك وتعالى له ما أوحى ، فشاء اللّٰه تعالى كما حيا رسوله محمدًا صلى اللّٰه عليه وسلم بالقرب ، أن يُنِّزله بتحية أمته بوسيلة من وسائل القرب ، « أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد »[1] .

---

(١) رواه مسلم [٢١٥/٤٨٢] عن أبى هريرة رضى اللّٰه تعالى عنه .

والصلاة تكليف يقتضى زمانًا ويقتضى مكانًا وكل حدث يفعله الإنسان يقتضى ظرفية الزمان وظرفية المكان ، إلا أن أحداث التكليف تأخذ الفعل والزمن وتترك المكان ، ومرة تأخذ الفعل والمكان وتترك الزمن ، ومرة أخرى تأخذ الفعل والزمان والمكان ، فتستولى على جميع عناصر الحدث .

فالصلاة - مثلاً - أخذت زمانها ، وكذلك المصلى حر فى المكان ، لأن اللَّه تعالى خص عبده ورسوله محمدًا صلى اللَّه عليه وسلم بأن جعل الأرض كلها له مسجدًا وطهورًا [1] ، فلك أن تصلى فى أى مكان[2] .

إذن .. فالتكليف حصر القول والفعل والحركة فى زمانها وأطلق للمكلف حرية المكان ، فهناك عنصر من عناصر التكليف للفرد فيه حرية ، فهو يصلى فى أى مكان ، ولكن المكان الذى يصلى فيه غلى إطلاقه لأن الأرض مسجد وطهور ، مكان يصلح للصلاة لمزاولة حركة الحياة ، ففى مصنعك -مثلاً- تدير حركة حياتك ، ولك أن تصلى وفى حقلك تدير حركة حياتك بالزرع وتصلى ، وفى معهدك تتلقى العلم ويمكنك أن تصلى .

---

(١) رواه الترمذى [٣١٧] عن على ، وعبد اللَّه بن عمرو ، وأبى هريرة ، وجابر ، وابن عباس وحذيفة وأنس وأبى أمامة ، وأبى ذر رضى اللَّه تعالى عنهم ، وصححه الألبانى .

(٢) إلا المقبرة والحمام ، لما رواه أبو داود [٤٩٢] وابن ماجه [٧٤٥] والترمذى [٣١٧] وأحمد فى المسند [٨٣/٣] وابن حبان فى صحيحه [١٦٩٩] . وصححه الألبانى والأرناؤوط . وفى رواية لابن ماجه [٧٤٦] .
وضعفها الألبانى عن ابن عمر رضى اللَّه تعالى عنهما ؛ قال : نهى رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم أن يصلى فى سبع مواطن : فى المزبلة ؛ والمجزرة ؛ والمقبرة ؛ وقارعة الطريق ؛ والحمام ؛ ومعاطن الإبل ؛ وفوق الكعبة .

إذن .. فالمكان العام الشائع تصح الصلاة فيه ويصح غير الصلاة من مهمات مزاولة الحياة .

وبعد ذلك إذا أردنا أن ننتقل إلى منطقة من مناطق القرب ، نعزل مكانًا من الأمكنة ، ونقول : إن هذا المكان لا تزاول فيه حركة الحياة أبدًا ، ويخصص للصلاة ، ذلك ما نسميه مسجدًا ، وما نسميه بيت الله (١)، ولذلك إذا عقدت صفقة وأنت فى المسجد للعبادة دعا النبى صلى الله عليه وسلم ألا تربح ، وإذا نشدت ضالة لا ردّها الله تعالى عليك كذلك (٢) ، لأن هذا الوقت خصص للقاء ربك ، فلا يصح أن تُشغل فيه بسواه ، وحسبك فى يومك الطويل ، أن تقتطع للصلاة منه وقتا تختلى فيه بربك ، وتنقطع عن حركة الحياة .

---

(١) روى الطبرانى فى الكبير [١٠/١٦١/١٠٣٢٤] عن عبد الله رضى الله تعالى عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن بيوت الله فى الأرض المساجد وإن حقًّا على الله أن يكرم من زاره فيها . وقال الهيثمى فى المجمع [٢/٢٢] فيه عبد الله بن يعقوب الكرمانى وهو ضعيف . وفى رواية عنده [١٠/٢٦٢/١٠٦٠٨] عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما قال : المساجد بيوت الله فى الأرض تضىء لأهل السماء كما تضىء نجوم السماء لأهل الأرض .

(٢) أخرج مسلم [٥٦٨/٧٩] عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه قال ؛ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من سمع رجلاً يُنشد ضالة فى المسجد فليقل : لا ردها الله عليك ، فإن المساجد لم تبن لهذا » .

وذكر ابن خزيمة فى صحيحه [٢/٢٧٤/١٣٠٥] عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه قال ؛ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إذا رأيتم من يبيع أو يبتاع فى المسجد فقولوا لا أربح الله تجارتك .. » الحديث .

إذن .. فوجود المسجد تحديد لمكان كان صالحاً للصلاة وغير الصلاة ، ولكنه بتحديده وتحجيره أصبح للصلاة فقط .

والمكان - الذى من شأنه هذا - قد يكون باختيار العباد ؛ قوم يقولون : نبنى بيتًا للّه هنا ، فينسب إلى اللّه تعالى ، ولكن باختيار خلق اللّه ،وقد يكون باختيار الله كبيت الله الحرام فى مكة ولذلك جعل اللّه سبحانه التوجه فى الصلاة فى المكان الواسع من الأرض كلها أو فى المكان المحجوز للصلاة ولقاء اللّه ، جعل المتجه فى كُلٍّ هذه البيوت التى اختارها العباد إلى بيت اللّه ، المحرم الذى هو باختيار اللّه تعالى .

إذن .. فبيت اللّه فى مكة ، بيت ربنا باختيار ربنا ، وبيوت اللّه فى سائر الأرض ، بيوت للّه باختيار سائر خلق اللّه ، فوجب أن تكون بيوت الله باختيار خلق اللّه ، تابعة لبيت اللّه باختيار اللّه .

ooo

عمارة المساجد

السؤال : **هل عمارة المساجد مرتبطة بإنشائها والإشراف على بنائها أم المقصود غير ذلك ؟ نرجو التوضيح ؟**

الجواب : الحق تبارك وتعالى يقول : ﴿ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ ﴾ [التوبة : ١٨] .

وهذا القول يحمل فى مضمونه إيمانًا برسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ؛ لأن اللّه يقول بعدها : ﴿ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ وإقامة الصلاة لا تصح منهم إلا إذا آمنوا برسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم فهو الذى قال لنا إنها خمس ، وهو الذى علّمنا كيف نؤديها وماذا نقول فيها ؟ وهو الذى نشهد له ونحن نصلى ؛ فى الإقامة وفى التشهد ، إذن فساعة نقيم الصلاة لابد أن نكون مؤمنين برسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم . وعلى ذلك فقوله تعالى : ﴿ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ يقتضى ضرورة الإيمان برسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم . واشترط سبحانه وتعالى فى هذه الآية الكريمة الإيمان به وباليوم الآخر وإقام الصلاة وفى طيها برسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ثم إيتاء الزكاة ، وطلب منا ألا نخشى غيره [1].

---

(١) قال المناوي في فتح القدير ، قال الكشاف في ﴿ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ ﴾ [التوبة : ١٨] . لما علم وشهر أن الإيمان باللّه قرينته الإيمان بالرسول صلى اللّه عليه وسلم لاشتماله كلمة الشهادة عليهما مزدوجين مقترنين كأنهما واحد غير منفك أحدهما عن صاحبه انطوى تحت ذكر الإيمان باللّه وبرسوله صلى اللّه عليه وسلم « دخل الجنة » لأنها شهادة شهد بها عند الموت وقد ماتت شهواته وذهلت نفسه لما حل به من هول =

= الموت وذهب حرصه ورغبته وسكنت أخلاقه السيئة وذل وانقاد لربه فاستوى ظاهره بباطنه فغفر له بهذه الشهادة لصدقه ، وقائلها في الصحة قلبه مشحون بالشهوات والغي ونفسه شرهة بطرة ميتة على الدنيا عشقا وحرصا فلا يستوجب بذلك القول مغفرة بخلاف قائلها عند الموت ، ومثل من قالها في الصحة بعد رياضة نفسه وموت شهواته وصفائه عن التخليط قاله الغزالي، فنسأل الله أن يجعلنا في الخاتمة من أهل لا إله إلا الله حالاً ومقالا وظاهراً وباطنا حتى نودع الدنيا غير ملتفتين إليها بل متبرمين منها ومحبين للقاء الله. قال القرطبي قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ ﴾ دليل على أن الشهادة لعمار المساجد بالإيمان صحيحة لأن الله سبحانه ربطه بها وأخبر عنه بملازمتها . وقد قال بعض السلف : إذا رأيتم الرجل يعمر المسجد فحسنوا به الظن. وروى الترمذي عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : « إذا رأيتم الرجل يعتاد المسجد فاشهدوا له بالإيمان »[1] قال الله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ﴾ . وفي رواية : « يتعاهد المسجد »[2] . قال : حديث حسن غريب . قال ابن العربي : وهذا في ظاهر الصلاح ليس في مقاطع الشهادات، فإن الشهادات لها أحوال عند العارفين بها فإن منهم الذكي الفطن المحصل لما يعلم اعتقادا وإخبارا ومنهم المغفل ، وكل واحد ينزل على منزلته ويقدر على صفته . ﴿ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ ﴾ إن قيل : ما من مؤمن إلا وقد خشي غير الله ، وما زال المؤمنون والأنبياء يخشون الأعداء من غيرهم . قيل له : المعنى ولم يخش إلا الله مما يعبد : فإن المشركين كانوا يعبدون الأوثان ويخشونها ويرجونها . جواب ثان - أي لم =

(١) رواه الترمذى [٣٩٣] وأحمد فى المسند [٦٨/٣] وقال الأرناؤوط : إسناده ضعيف .
(٢) رواه الترمذى [٢٦١٧] عن أبى سعيد الخدرى رضى الله تعالى عنه وضعفه الألبانى .

= يخف في باب الدين إلا الله . وقال ابن جرير الطبري يقول تعالى ذكره :
﴿ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ ﴾ المصدق بوحدانية الله ، المخلص له العبادة واليوم الآخر ، يقول : الذي يصدق ببعث الله الموتى أحياء من قبورهم يوم القيامة، وأقام الصلاة المكتوبة بحدودها ، وأدى الزكاة الواجبة عليه في ماله إلى من أوجبها الله له .

﴿ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ ﴾ يقول : ولم يرهب عقوبة شيء على معصيته إياه سوى الله .

﴿ فَعَسَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ أَن يَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴾ يقول : فخليق بأولئك الذين هذه صفتهم أن يكونوا عند الله ممن قد هداه الله للحق وإصابة الصواب .

وقال القرطبي في تأويل قوله تعالى : ﴿ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُواْ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ ﴾ الجملة من ﴿ أَن يَعْمُرُواْ ﴾ في موضع رفع اسم كان . « شاهدين » على الحال . واختلف العلماء في تأويل هذه الآية ، فقيل : أراد ليس لهم الحج بعد ما نودي فيهم بالمنع عن المسجد الحرام ، وكانت أمور البيت كالسدانة والسقاية والرفادة إلى المشركين ، فبين أنهم ليسوا أهلا لذلك ، بل أهله المؤمنون . وقيل : إن العباس لما أسر وعير بالكفر وقطيعة الرحم قال: تذكرون مساوئنا ولا تذكرون محاسننا . فقال علي : ألكم محاسن ؟ قال : نعم إنا لنعمر المسجد الحرام ونحجب الكعبة ونسقي الحاج ونفك العاني، فنزلت هذه الآية ردا عليه . فيجب إذن على المسلمين تولي أحكام المساجد ومنع المشركين من دخولها . وقراءة العامة « يعمر » بفتح الياء وضم الميم ، من عمر يعمر . وقرأ ابن السميقع بضم الياء وكسر الميم أي يجعلوه عامرا أو يعينوا على عمارته . وقرئ « مسجد الله » على التوحيد أي المسجد الحرام . وهي قراءة ابن عباس وسعيد بن جبير وعطاء بن أبي رباح ومجاهد وابن كثير وأبي عمرو =

= وابن محيصن ويعقوب . والباقون « مساجد » على التعميم . وهو اختيار أبي عبيد ؛ لأنه أعم والخاص به يدخل تحت العام . وقد يحتمل أن يراد بقراءة الجمع المسجد الحرام خاصة . وهذا جائز فيما كان من أسماء الجنس ، كما يقال : فلان يركب الخيل وإن لم يركب إلا فرسا. والقراءة « مساجد » أصوب ؛ لأنه يحتمل المعنى . وقد أجمعوا على قراءة قوله : ﴿ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ ﴾ على الجمع ، قاله النحاس . وقال الحسن : إنما قال مساجد وهو المسجد الحرام ؛ لأنه قبلة المساجد كلها وإمامها .

وقال الحافظ ابن حجر في الفتح : قوله تعالى : ﴿ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ ﴾ يحتمل أن يراد بها مواضع السجود ، ويحتمل أن يراد بها الأماكن المتخذة لإقامة الصلاة ، وعلى الثاني : يحتمل أن يراد بعمارتها بنيانها ، ويحتمل أن يراد بها الإقامة لذكر الله فيها .

وقال المناوي في فيض القدير : قال الحكيم: ليس عمارها كل من أنفق على مسجد فبناه أو من رمّه بل من عمرها بذكره وإنما يعمر مساجد اللّه من آمن باللّه أما من عمرها وهو منكب على دنياه معرض عن خدمة مولاه فلا يستحق هذا الإكرام نفسه فضلاً عن الدفع عن غيره لأجله وإن عمر ألف مسجد قال القاضي : عامر كل شيء حافظه ومدبره وممسكه عن الخلل والانحلال ومنه سمي الساكن والمقيم في البلد عامراً يقال عمرت المكان إذا أقمت فيه وسمي زوار البيت عمارا .

وروى أحمد في المسند [٦٨/٣] عن أبي سعيد الخدري رضى اللّه تعالى عنه أن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم قال : إذا رأيتم الرجل يعتاد المسجد فاشهدوا عليه بالإيمان ، قال اللّه عز وجل : ﴿ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ ﴾ . =

....

○○○

= وقال الأرناؤوط : وبهذا الإسناد أن رسول اللّٰه صلى اللّٰه عليه وسلم قال : يقول الرب عز وجل : يوم القيامة سيعلم أهل الجمع من أهل الكرم فقيل : ومن أهل الكرم يا رسول الله ؟ قال : مجالس الذكر في المساجد .

وبهذا الإسناد أن رسول اللّٰه صلى اللّٰه عليه وسلم قال : أكثروا ذكر اللّٰه حتى يقولوا مجنون .

وقال الأرناوؤط : إسناد ضعيف .

مراتب الناس فى الصلاة

السؤال : **كيف أتعَرف على صحة صلاتي ؟**

الجواب : مراتب الناس فى لقاء ربهم فى الصلاة ، تتفاوت فيه أرزاقهم على قدر تجليه عليهم سبحانه حال وقوفهم بين يديه ، فعلى قدر إخلاص العبد الواقف بين يدى اللّه سبحانه ، يكون له من العطاء ما يناسب ذلك .

فإذا ما أخذ العطاء ، كان عطاؤه على قدر تجلى الحق تبارك وتعالى عليه ، ولكن الناس يشتهون حياتهم كما يريدونها هم . لماذا ؟

لأن المقاييس العالية التى توجد فى رؤوسهم ، مقاييس من صنع الأرض ، ومقاييس من صنع أفكار البشر ، والناس لم يرتض أغلبهم أن يكون لهم دين .

فالواحد منهم يريد أن يكون اللّه تعالى على دينه ، فيعطيه ليعرف ماذا سيفعله له اللّه ، فكأن اللّه قال له : إن الطاعة فى الدنيا ثمرتها أكيدة ، وهذا يكون صحيحًا لو أن الدنيا هى الزمن الوحيد للوجود ، ولكن ما دام هناك دار أخرى ، فينبغى أن ينساح العطاء ، فى الدار الآخرة ، فإذا لم يأتك هنا ، فلا تيأس من أنه سيأتيك هناك ، وربما كان ادخاره لك هناك خير لك من أن تأخذه هنا ، لأن هنا عنه خير وعنه عوض ، ولكن هناك عنه خير وليس عنه عوض .

إذن .. فمعايير الإنسان يجب أن تخضع لمعايير منهج الحق سبحانه وتعالى ، وساعة أن تخضع للحق ينبغى أن تكون لربك مطيعًا ولتكاليفه منفذًا ، ولقضائه قانعًا وراضيًا ، حينذاك ينعم العبد بالعبودية للّه تعالى .

والذى يريد أن تكون الصلاة لتوسيع الرزق والمباركة فقط .. فبالطبع لا .. لأنى أراها تكليفا من اللّه لحضور العبد بين يدى ربه ، وبعد ذلك فيها للّه عطاء يناسب موقفى من دينه ومنهجه ، فإذا ما جاءت أمور الدنيا على غير ما أشتهى ، فيجب ألا يزلزل ذلك عقيدتى فى الصلاة وفى القرب من اللّه . لماذا ؟

لأن الأمور تجرى على حكمة ، وهذه الحكمة قد لا تقبلها النفس بادئ ذى بدء ، ولكن الظروف التى تأتى بعد ذلك تجعل الحق مصيبًا ، حين تحب شيئًا وتقول آخر الأمر : أحببته ووجدته شرًا ، أو كرهته وصار خيرًا ، إذن ، فمقاييسه مناسبة ، لأنك محدث عاجز العقل قاصر التفكير قليل الحكمة ، فيجب أن تخضع لحكمة الحق ، ما دام نازلاً عليك بدون اختيار منك ولا إرادة ، حين يكون الأمر كذلك ، إذا أصابك سوء من ناحية أنك قصرت فى أمر ، فأنت الملوم ، أما إذا أصابك سوء لا يد لك فيه ، ولا عمل ولا اختيار لك فيه ، فيجب أن تتأكد أن فى ذلك لله حكمة ، وهذه الحكمة لو استحضرت غايتها لما رغبت فى غير ما جاء قدر الله عليك .

صحيح أن الذى يقبل على الطاعة فيها مشقة وفيها تكليف ، ﴿ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴾ [البقرة : ٤٥] ، والشهوات يحبها الإنسان ، فالشهوات تدعو الإنسان إلى أن ينفلت من المنهج[1] .

---

(١) قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴾ . والخشوع محله القلب ؛ فإذا خشع خشعت الجوارح كلها لخشوعه ؛ إذ هو ملكها ، حسبما بيناه أول سورة البقرة . وكان الرجل من العلماء إذا أقام الصلاة وقام إليها يهاب الرحمن أن يمد بصره إلى شيء وأن يحدث نفسه بشيء من الدنيا .
وقال عطاء : هو ألا يعبث بشيء من جسده في الصلاة . وأبصر صلى الله عليه وسلم رجلا يعبث بلحيته في الصلاة فقال : « لو خشع قلب هذا لخشعت جوارحه »[1] . وقال أبو ذر قال النبي صلى الله عليه وسلم : « إذا =

---

(١) رواه المتقى الهندى فى كنز العمال [٢٢٥٣٠] ورواه ابن أبى شيبة فى مصنفه [٦٧٨٧] ولفظه : عن معمر عن رجل قال : رأى سعيد بن المسيب رجلًا وهو يعبث بلحيته فى الصلاة فقال : لو خشع قلب هذا لخشعت جوارحه .

....

○○○

= قام أحدكم إلى الصلاة فإن الرحمة تواجهه فلا يحركن الحصى »[1] . رواه الترمذي . وقال الشاعر :

ألا الصلاة الخير والفضل أجمع لأن بها الآراب لله تخضع
وأول فرض من شريعة ديننا وآخر ما يبقى إذا الدين يرفع
فمن قام للتكبير لاقته رحمة وكان كعبد باب مولاه يقرع
وصار لرب العرش حين صلاته نجيا فيا طوباه لو كان يخشع

وروى أبو عمر أن الجوني قال : قيل لعائشة ما كان خلق رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قالت :

أتقرأون سورة المؤمنين ؟ قيل : نعم . قالت : اقرأوا ؛ فقرئ عليها ﴿ قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ - حتى بلغ - يُحَافِظُونَ ﴾[2] . وروى النسائي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يلحظ في صلاته يمينا وشمالا ، ولا يلوي عنقه خلف ظهره [3]. وقال كعب بن مالك في حديثه الطويل : ثم أصلي قريبا منه - يعني من النبي صلى الله عليه وسلم - وأسارقه النظر ، فإذا أقبلت على صلاتي نظر إلي وإذا التفت نحوه أعرض عني[4]... الحديث ؛ ولم يأمره بإعادة .

(١) رواه الترمذى [٣٧٩] وضعفه الألبانى .
(٢) رواه النسائى فى السنن الكبرى [١١٣٥٠] والبخارى فى الأدب المفرد [٣٠٨] عن يزيد بن بابنوس رضى الله تعالى عنه وقال الألبانى : صحيح لغيره .
(٣) رواه النسائى فى السنن الكبرى [٥٢٩] وأحمد فى المسند [٢٧٥/١] وقال الأرناؤوط : إسناده صحيح ، والطبرانى فى المعجم الكبير [١١٥٥٩/٢٢٣/١١] .
(٤) رواه البخارى [٤١٥٦] ومسلم [٥٣/٢٧٦٩] وأحمد فى المسند [٤٥٦/٣] .

صلاة الجماعة

السؤال : **لماذا يأمرنا اللّه سبحانه بأن نأتم بإمام واحد فى الصلاة ؟**

الجواب : يعلمنا اللّه فى صلاة الجماعة أن نأتمر جميعًا بأمر رجل واحد هو الإمام ، فليس لإنسان أن يفعل فعلاً أو يقول قولاً ، إلا بعد أن يفعل أو يقول الإمام ، فهم تابعون له ، لماذا ؟ لأن حركة الحياة لابد فيها من قادة وقوم يتقدمون لحمل المسئوليات ، والذى يحمل المسئولية هذه ، يجب ألاّ ننظر إليه على أنه مشرّف بهذا ، ولكن على أنه مكلّف ، فولاية أمور الناس ليست تشريفًا وإنما تكليف لمن يعرف حق التكليف ، فإذا ما امتثلنا جميعًا فلا نخالف إمامنا ، تأكد ذلك المعنى فى نفوسنا لأنه أمر نرتاض عليه كل يوم ، وما دام ذلك فسنعتاد أن نأتمر بأمره ، وأن ننتهى بنهيه وأن نجعل حركتنا تبعًا لحركة الغير ، حتى تتحد الطاقات ولا تتبدد ، وتتعاضد ولا تتعاند ، وهناك شيء آخر ، وهو أن الإمام إذا ما خالف شيئًا فى الصلاة ، عن خطأ أو نسيان فلأى مأموم من المأمومين أن يرده ويصوب له ولا أدل على ذلك من أن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم حينما قال له ذو اليدين : أقصرت الصلاة أم نسيت يا رسول اللّه ، قال : « كل ذلك لم يكن » قال ذو اليدين : بل بعض ذلك كان .

إذن .. فواحد من صحابة رسول اللّه ، يرد على رسول اللّه ، لماذا ؟ لأن هذا المقام تكليف من اللّه تعالى ، يستوى فيه رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم والمسلمون[1] .

---

(١) روى البخاري [١١٧٠] عن محمد بن سيرين ، عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم انصرف من اثنتين ، فقال له =

= ذو اليدين : أقصرت الصلاة أم نسيت يا رسول الله ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أصدق ذو اليدين » . فقال الناس : نعم ، فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم فصلى اثنتين أخريين ، ثم سلم ، ثم كبر ، فسجد مثل سجوده أو أطول ، ثم رفع .

وفى رواية عند مسلم [٥٧٣/٩٧] عن محمد بن سيرين قال ، سمعت أبا هريرة يقول : صلى بنا رسول الله صلى الله عليه وسلم إحدى صلاتي العشي . إما الظهر وإما العصر . فسلم في ركعتين . ثم أتى جذعا في قبلة المسجد فاستند إليها مغضبا . وفي القوم أبو بكر وعمر . فهابا أن يتكلما . وخرج سرعان الناس . قصرت الصلاة . فقام ذو اليدين فقال : يا رسول الله ! أقصرت الصلاة أم نسيت ؟ فنظر النبي صلى اللّه عليه وسلم يمينا وشمالا . فقال : « ما يقول ذو اليدين ؟ » قالوا : صدق . لم تصل إلا ركعتين . فصلى ركعتين وسلم . ثم كبر ثم سجد . ثم كبر فرفع . ثم كبر وسجد . ثم كبر ورفع .

وقال النووي فى شرح مسلم : فإن قيل : كيف تكلم ذو اليدين والقوم وهم بعد في الصلاة ؟ فجوابه من وجهين : أحدهما أنهم لم يكونوا على يقين من البقاء في الصلاة لأنهم كانوا مجوزين نسخ الصلاة من أربع إلى ركعتين ولهذا قال : أقصرت الصلاة أم نسيت ؟ والثاني أن هذا كان خطاباً للنبي صلى الله عليه وسلم وجواباً ، وذلك لا يبطل عندنا وعند غيرنا، والمسألة مشهورة بذلك . وفي رواية لأبي داود بإسناد صحيح أن الجماعة أومأوا أي نعم ، فعلى هذه الرواية لم يتكلموا. فإن قيل: كيف رجع إلى النبي صلى الله عليه وسلم إلى قول الجماعة وعندكم لا يجوز للمصلي الرجوع في قدر صلاته إلى قول غيره إماماً كان أو مأموماً ولا يعمل إلا على يقين نفسه؟ فجوابه أن النبي صلى الله عليه وسلم سألهم ليتذكر فلما ذكروه تذكر فعلم السهو فبنى عليه ، لا أنه =

= رجع إلى مجرد قولهم ، ولو جاز ترك يقين نفسه والرجوع إلى قول غيره لرجع ذو اليدين حين قال النبي صلى الله عليه وسلم لم تقصر ولم أنس . وفي هذا الحديث دليل على أن العمل الكثير والخطوات إذا كانت في الصلاة سهوا لا تبطلها كما لا يبطلها الكلام سهوا ، وفي هذه المسألة وجهان لأصحابنا أصحهما عند المتولي لا يبطلها لهذا الحديث فإنه ثبت في مسلم أن النبي صلى الله عليه وسلم مشى إلى الجذع وخرج السرعان. وفي رواية دخل الحجرة ثم خرج ورجع الناس وبنى على صلاته. والوجه الثاني وهو المشهور في المذهب أن الصلاة تبطل بذلك وهذا مشكل وتأويل الحديث صعب على من أبطلها والله أعلم

وفى تحفة الأحوذى بشرح صحيح الترمذى : اختلفَ أهلُ العلمِ في هذا الحديثِ . فقالَ بعضُ أهلِ الكوفَة : إذا تكلّمَ في الصّلاةِ ناسياً أو جاهلاً أو ما كانَ ، فإنُه يُعيدُ الصّلاةَ واعتلوا بأنّ هذا الحديث كان قبلَ تحريمِ الكلامِ في الصّلاةِ . وقال : وأما الشافعيّ فَرأى هذا حديثاً صحيحاً فقال به ، وقال : هذا أصحّ من الحديثِ الذي رُوِيَ عن النبيّ صلى الله عليه وسلم في الصّائِمِ إذا أكلَ ناسياً فإنه لا يقضِي وإنّما هو رزقٌ رزقهُ الله : قال الشافعيّ وفرقُوا « هؤلاء » بين العمدِ والنسيانِ في أكلِ الصائمِ بحديثِ أبي هريرةَ .

وقال أحمدُ في حديثِ أبي هريرةَ : إنْ تكلمَ الإمامُ في شيءٍ من صلاتِهِ وهو يَرى أنه قد أكملهَا ثمّ عَلِمَ أنه لم يكملْهَا يتمّ صلاتَه ، ومن تكلَمَ خلف الإمام وهو يعلَمُ أن عليهِ بقيةً من الصلاةِ فعليهِ أن يستقبِلهَا .

واحتج بأن الفرائضَ كانتْ تُزادُ وتنقصُ على عهدِ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم ، فإنما تكلّمَ ذُو اليدينِ وهو على يقينٍ من صلاتِهِ أنها تمت ، وليس هكذا اليومَ ليسَ لأحدٍ أن يتكلّم عَلَى معنَى ما تكلّم ذُو اليديْنِ لأن الفرائِضَ اليومَ لا يُزَادُ فيها ولا يُنقصُ . =

= وقال الحافظ في الفتح : ذهب الأكثر إلى أن اسم ذي اليدين الخرباق بكسر المعجمة وسكون الراء بعدها موحدة وآخره قاف اعتمادا على ما وقع في حديث عمران بن حصين عند مسلم ولفظه : فقام إليه رجل يقال له الخرباق وكان في يديه طول[1] ، وهذا صنيع من يوجد حديث أبي هريرة بحديث عمران وهو الراجح في نظري وإن كان ابن خزيمة ومن تبعه جنحوا إلى التعدد ، والحامل لهم على ذلك الاختلاف الواقع في السياقين ، ففي حديث أبي هريرة أن السلام وقع من اثنتين وأنه صلى الله عليه وسلم قام إلى خشبة في المسجد. وفي حديث عمران أنه سلم من ثلاث ركعات وأنه دخل منزله لما فرغ من الصلاة . فأما الأول فقد حكى العلائي أن بعض شيوخه حمله على أن المراد به أنه سلم في ابتداء الركعة الثالثة واستبعده ولكن طريق الجمع يكتفي فيها بأدنى مناسبة وليس بأبعد من دعوى تعدد القصة فإنه يلزم منه كون ذي اليدين في كل مرة استفهم النبي صلى الله عليه وسلم عن ذلك واستفهم النبي صلى الله عليه وسلم الصحابة عن صحة قوله .

وأما الثاني فلعل الراوي لما رآه تقدم من مكانه إلى جهة الخشبة ظنه دخل منزله لكون الخشبة كانت في جهة منزله فإن كان كذلك، وإلا فرواية أبي هريرة أرجح لموافقة ابن عمر له على سياقه كما أخرجه الشافعي وأبو داود وابن ماجه وابن خزيمة ، ولموافقة ذي اليدين نفسه له على سياقه كما أخرجه أبو بكر الأثرم وعبد الله بن أحمد في زيادات المسند وأبي بكر بن حثمة وغيرهم ، وقد تقدم في باب تشبيك الأصابع ما يدل على أن محمد بن سيرين راوي الحديث عن أبي هريرة كان يرى التوحيد بينهما ، وذلك أنه قال في آخر حديث أبي هريرة : نبئت أن عمران بن حصين قال ثم سلم . انتهى كلام الحافظ . =

(١) رواه مسلم [١٠١/٥٧٤] .

وعلى هذا النحو نأخذ من الصلاة دروسًا لعقائدنا ، لأننا جئنا بدعوة من اللّه ، ونحن فى حضرة اللّه ، وجئنا أيضًا لنعرف خُلقًا ونظامًا وسياسة ، فإذا ما أخذنا هذه الحصيلة بتكرار متوالٍ ، ماذا يكون الموقف ؟ . يكون الموقف أن يصبح المسلمون كما يريدهم اللّه مثل العباد المكرمين ، أى مثل الملائكة ، ولولا أن الشيطان يفسد علينا فى العبادة ، لكنا كما قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم « لولا أن الشياطين يحومون على قلوب بنى آدم لطاروا للملأ

= قوله : أقصرت الصلاة : بهمزة الاستفهام وقصرت بضم القاف وكسر المهملة على البناء للمفعول أي أن الله قصرها وبفتح ثم ضم على البناء للفاعل أي صارت قصيرة قال النووي : هذا أكثر وأرجح « أم نسيت يا رسول الله » حصر في الأمرين لأن السبب إما من الله وهو القصر أو من النبي صلى الله عليه وسلم وهو النسيان فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أصدق ذو اليدين » الهمزة للاستفهام أي أصدق في النقص الذي هو سبب السؤال المأخوذ من مفهوم الاستفهام ، فقال الناس : نعم ، أي صدق . فصلى اثنتين أي ركعتين أخريين بضم الهمزة وسكون الخاء المعجمة ومثناة مفتوحة وأخرى ساكنة تحتيتين ، ثم كبر فسجد ، أي للسهو مثل سجوده السابق في صلاته أو أطول من سجوده السابق ، ثم كبر فرفع أي رأسه ثم سجد ، أي مرة ثانية مثل سجوده أو أطول فسجد للسهو سجدتين بعد السلام ، وفي رواية للبخاري من طريق أبي سلمة عن أبي هريرة قال: صلى النبي صلى الله عليه وسلم الظهر ركعتين فقيل صليت ركعتين فصلى ركعتين ثم سلم ثم سجد سجدتين . والحديث دليل لمن قال إن من يسلم في الركعتين من الظهر والعصر ناسيا يصلي ركعتين أخريين ثم يسلم ثم يسجد سجدتين للسهو ولا حاجة إلى إعادة الصلاة .

الأعلى »[1] . فيجب أن ننظر للصلاة النظرة الأصيلة والصميمة حتى تؤتى الصلاة أثرها فى نفوسنا .

○○○

(١) روى أحمد فى المسند [٢/٣٣٥] عن أبي هريرة رضى الله تعالى عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ليلة أسر بي لما انتهينا إلى السماء السابعة فنظرت فوق قال عفان فوقي فإذا أنا برعد وبرق وصواعق قال : فأتيت على قوم بطونهم كالبيوت فيها الحيات ترى من خارج بطونهم قلت : من هؤلاء يا جبريل ؟

قال : هؤلاء أكلة الربا . فلما نزلت إلى السماء الدنيا نظرت أسفل مني فإذا أنا برهج ودخان وأصوات فقلت : ما هذا يا جبريل ؟ قال : هذه الشياطين يحومون على أعين بني آدم أن لا يتفكروا في ملكوت السماوات والأرض ولولا ذلك لرأوا العجائب . وقال الأرناؤوط : إسناده ضعيف .

الصلاة وانشراح الصدر

السؤال : **أحيانًا لا أجد نفسى منشرحًا لأداء الصلاة ؟ فبماذا تنصحنى ؟**

الجواب : إن اللّه سبحانه وتعالي يريد منا أداء العمل المفروض علينا كالصلاة مثلاً ، فإذا صاحب أداء العمل طمأنينة فهذا تعجيل للثواب ، ولكن عدم شعورك بالطمأنينة وانشراح الصدر يجب ألا يجعلك تترك العمل المفروض عليك ، وما دمت تداوم على عملك بنية خالصة للّه تعالى ؛ فلك ثواب عملك ، وسيشرح اللّه لك حتمًا صدرك وتجد أثر ذلك إن شاء اللّه .

ويوجد مبدأ لابد أن تعرفه ، وهو أننا غير مسئولين عن المسائل غير المحكومة بإرادتنا . . فالإنسان يؤدى الصلاة فى كل الأحيان سواء كان منشرح الصدر ، أو غير منشرح الصدر ، لأن الصلاة واجبة الفعل على كل مسلم ومسلمة لا تسقط عنهما أبدًا إلا بالأعذار الشرعية ، خاصة فى النساء (١) .

---

(١) عن أنس رضى اللّه تعالىعنه قال : جاء إلى النبى صلى اللّه عليه وسلم فقال : يا رسول اللّه أخبرنى بما افترض اللّه على من الصلاة ؟ فقال : « افترض اللّه على عباده صلوات خمساً ، قال : هل قبلهن أو بعدهن ؟ قال : افترض اللّه على عباده صلوات خمسًا ، قالها ثلاثًا ؛ قال : والذى بعثك بالحق لا أزيد فيهن شيئًا ولا أنقص منهن شيئًا ، قال : فقال النبى صلى اللّه عليه وسلم : دخل الجنة إن صدق » .

الحديث أخرجه أحمد [٣/٢٦٧] ، والحاكم فى مستدركه [١/٢٠١] ، وصححه الدار قطنى فى سننه [١/٢٢٩] وقال الأرناؤوط : إسناده صحيح رجاله ثقات ، رجال الصحيح .

الصلاة على النبى بعد الأذان

السؤال : **هل الصلاة على النبى صلى اللَّه عليه وسلم بعد الأذان جائزة أم لا ؟**

الجواب : هناك من يأتى ليؤذن ثم بعد الأذان يجهر بقول : « الصلاة والسلام عليك يا سيدى يا رسول اللَّه » يقول : إن هذا حب لرسول اللَّه ، لكن هل أنت تحب الرسول بما شرع ؟ إنه قد قال : « إذا سمعتم النداء فقولوا مثلما يقول ثم صلوا على »[1] فقد سمح الرسول صلى اللَّه عليه وسلم لمن يؤذن ولمن يسمع أن يصلى عليه فى السر ، لا أن يأتى بصوت الأذان الأصيل وبلهجة الأذان الأصيلة ، لأن الناس قد يختلط عليها ، وقد يفهم بعضهم أن ذلك من أصول الأذان . إننى أقول لمن يفعل ذلك : يا أخى ، ألا توجد صلاة مقبولة على النبى إلا المجهور بها ؟ لا ، إن لك أن تصلى على النبى صلى اللَّه عليه وسلم فى كل وقت وحين وعلى كل حال ، وفى حال الأذان تكون الصلاة عليه صلى اللَّه عليه وسلم ، فى سرك .

○○○

(١) جزء من حديث أخرجه مسلم [١١/٣٨٤] عن عبد اللَّه بن عمرو بن العاص رضى اللَّه تعالى عنهما .

السرية والجهرية فى الصلاة

السؤال : **فضيلة الشيخ .. لماذا تكون القراءة سرًا فى صــلاتي الظهر والعصر ، بينما هي جهرية فى صلاة الفجر والمغرب والعشاء ؟**

الجواب : الأصل فى العبادة هو طاعة اللَّه تعالى فيما أمر ونهى ، واتباع أمر رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم فيما بلغ وبين ، وعلة السرية والجهرية فى القراءة هو فعل رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم ، هذا هو الأصل . وربما يكون الحكمة فى ذلك أن المسلمين كانوا فى بدء الإسلام ضعافًا ، فكانوا يجهرون بالصلاة فى الأوقات التى ينام فيها الأعداء فى بيوتهم صباحًا ، ويجهرون فى صلاة المغرب والعشاء ، لأن الكفار يكونون لاهين فى غفلة مساء ، ويسرون فى صلاتى الظهر والعصر ليقظة الأعداء ، وانتشارهم نهارًا فى كل مكان ، فلما قوى الإسلام ، ولم يعد المسلمون ضعافًا ، بقيت القراءة فى الصلاتين السريتين والصلوات الجهرية كما هى دون تغيير ؛ استصحابًا للأصل .

وقال الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴾ [الإسراء : ١١٠] . معنى هذا أن يكون المصلى فى قراءته فى الصلاة وسطًا [1].

---

(١) قال القرطبى فى تفسير الآية [١١٤] من سورة هود : ذكر الله سبحانه في كتابه الصلاة بركوعها وسجودها وقيامها وقراءتها وأسمائها فقال : ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ الآية . وقال : ﴿ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ ﴾ [الإسراء : ٧٨] الآية . وقال : ﴿ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ [الروم] . =

= وقال : ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ﴾ [طه : ١٣٠] . وقال : ﴿ ٱرْكَعُوا۟ وَٱسْجُدُوا۟ ﴾ [الحج : ٧٧] . وقال : ﴿ وَقُومُوا۟ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ﴾ [البقرة : ٢٣٨] . وقال : ﴿ وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ ﴾ [الأعراف : ٢٠٤] على ما تقدم . وقال : ﴿ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا ﴾ [الإسراء : ١١٠] أي : بقراءتك ؛ وهذا كله مجمل أجمله في كتابه ، وأحال على نبيه في بيانه ؛ فقال جل ذكره : ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾ [النحل: ٤٤] . فبين صلى الله عليه وسلم مواقيت الصلاة ، وعدد الركعات والسجدات ، وصفة جميع الصلوات فرضها وسننها ، وما لا تصح الصلاة إلا به من الفرائض وما يستحب فيها من السنن والفضائل؛ فقال في صحيح البخاري : « صلوا كما رأيتموني أصلي » . ونقل ذلك عنه الكافة عن الكافة ، على ما هو معلوم ، ولم يمت النبي صلى الله عليه وسلم حتى بين جميع ما بالناس الحاجة إليه؛ فكمل الدين، وأوضح السبيل؛ قال الله تعالى: ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾ [المائدة : ٣] .

وقال فى تفسير سورة الإسراء الآية [١١٠] عند قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴾ اختلفوا في سبب نزولها على خمسة أقوال : الأول : ما روى ابن عباس في قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا ﴾ قال : نزلت ورسول الله صلى الله عليه وسلم متوار بمكة ، وكان إذا صلى بأصحابه رفع صوته بالقرآن ، فإذا سمع ذلك المشركون سبوا القرآن ومن أنزله ومن جاء به ؛ فقال الله تعالى : ﴿ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ ﴾ فيسمع المشركون قراءتك . ﴿ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا ﴾ عن أصحابك . أسمعهم القرآن ولا تجهر ذلك الجهر . ﴿ وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴾ قال : يقول بين =

....

= الجهر والمخافتة ؛ أخرجه البخاري ومسلم والترمذي وغيرهم . واللفظ لمسلم[(١)].
والمخافتة : خفض الصوت والسكون ؛ يقال للميت إذا برد : خفت . قال الشاعر :

لم يبق إلا نفس خافت ومقلة إنسانها باهت

رثى لها الشامت مما بها يا ويح من يرثى له الشامت

الثاني: ما رواه مسلم أيضا عن عائشة في قوله عز وجل : ﴿ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا ﴾ قالت : أنزل هذا في الدعاء[(٢)] .
الثالث : قال ابن سيرين : كان الأعراب يجهرون بتشهدهم فنزلت الآية في ذلك .
قلت : وعلى هذا فتكون الآية متضمنة لإخفاء التشهد ، وقد قال ابن مسعود: من السنة أن تخفي التشهد ؛ ذكره ابن المنذر .
الرابع : ما روي عن ابن سيرين أيضا أن أبا بكر رضي الله عنه كان يسُر قراءته ، وكان عمر يجهر بها ، فقيل لهما في ذلك ؛ فقال أبو بكر: إنما أناجي ربي ، وهو يعلم حاجتي . إليه . وقال عمر : أنا أطرد الشيطان وأوقظ الوسنان ؛ فلما نزلت هذه الآية قيل لأبي بكر : ارفع قليلا ، وقيل لعمر اخفض أنت قليلا ؛ ذكره الطبري وغيره .
الخامس : ما روي عن ابن عباس أيضا أن معناها ولا تجهر بصلاة النهار ، ولا تخافت بصلاة الليل ؛ ذكره يحيى بن سلام والزهراوي. فتضمنت أحكام الجهر والإسرار بالقراءة في النوافل والفرائض ، فأما النوافل فالمصلي مخير في الجهر والسر في الليل والنهار ، وكذلك روي عن النبي صلى الله عليه وسلم =

(١) رواه البخارى [٧٠٥٢] ومسلم [١٤٥/٤٤٦] والترمذى [٣١٤٥] .

(٢) رواه مسلم [١٤٦/٤٤٧] .

....

○○○

= أنه كان يفعل الأمرين جميعا . وأما الفرائض فحكمها في القراءة معلوم ليلا ونهارا .

وقول سادس قال الحسن : يقول الله لا ترائي بصلاتك تحسنها في العلانية ولا تسيئها في السر .

وقال ابن عباس : لا تصل مرائيا للناس ، ولا تدعها مخافة الناس .

وروى الطبرى عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما فى تأويل قول الله تعالى : ﴿ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴾ قال : نزلت هذه الآية ورسول الله صلى الله عليه وسلم متوار ﴿ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا ﴾ قال : كان إذا صلى بأصحابه رفع صوته بالقرآن ، فإذا سمع ذلك المشركون سبوا القرآن ومن أنزله ، ومن جاء به ، قال : فقال الله لنبيه صلى الله عليه وسلم : ﴿ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ ﴾ فيسمع المشركون ﴿ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا ﴾ عن أصحابك ، فلا تسمعهم القرآن حتى يأخذوا عنك .

وفى رواية عنه قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إذا جهر بالصلاة بالمسلمين بالقرآن ، شق ذلك على المشركين إذا سمعوه ، فيؤذون رسول الله صلى الله عليه وسلم بالشتم والعيب به ، وذلك بمكة ، فأنزل الله : يا محمد ﴿ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ ﴾ يقول : لا تعلن بالقراءة بالقرآن إعلانا شديدا يسمعه المشركون فيؤذونك ، ولا تخافت بالقراءة بالقرآن : يقول : لا تخفض صوتك حتى لا تسمع أذنيك ﴿ وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴾ يقول : اطلب بين الإعلان والجهر وبين التخافت والخفض طريقا، لا جهرا شديدا ، ولا خفضا لا تسمع أذنيك ، فذلك القدر ؛ فلما هاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة سقط هذا كله ، يفعل الآن أي ذلك شاء .

فهرس الجزء الأول

الموضـــــوع	الصفحة

الموضـــــوع	الصفحة

الموضـــــوع	الصفحة

الموضـــوع — الصفحة